التدبر والبيان

في

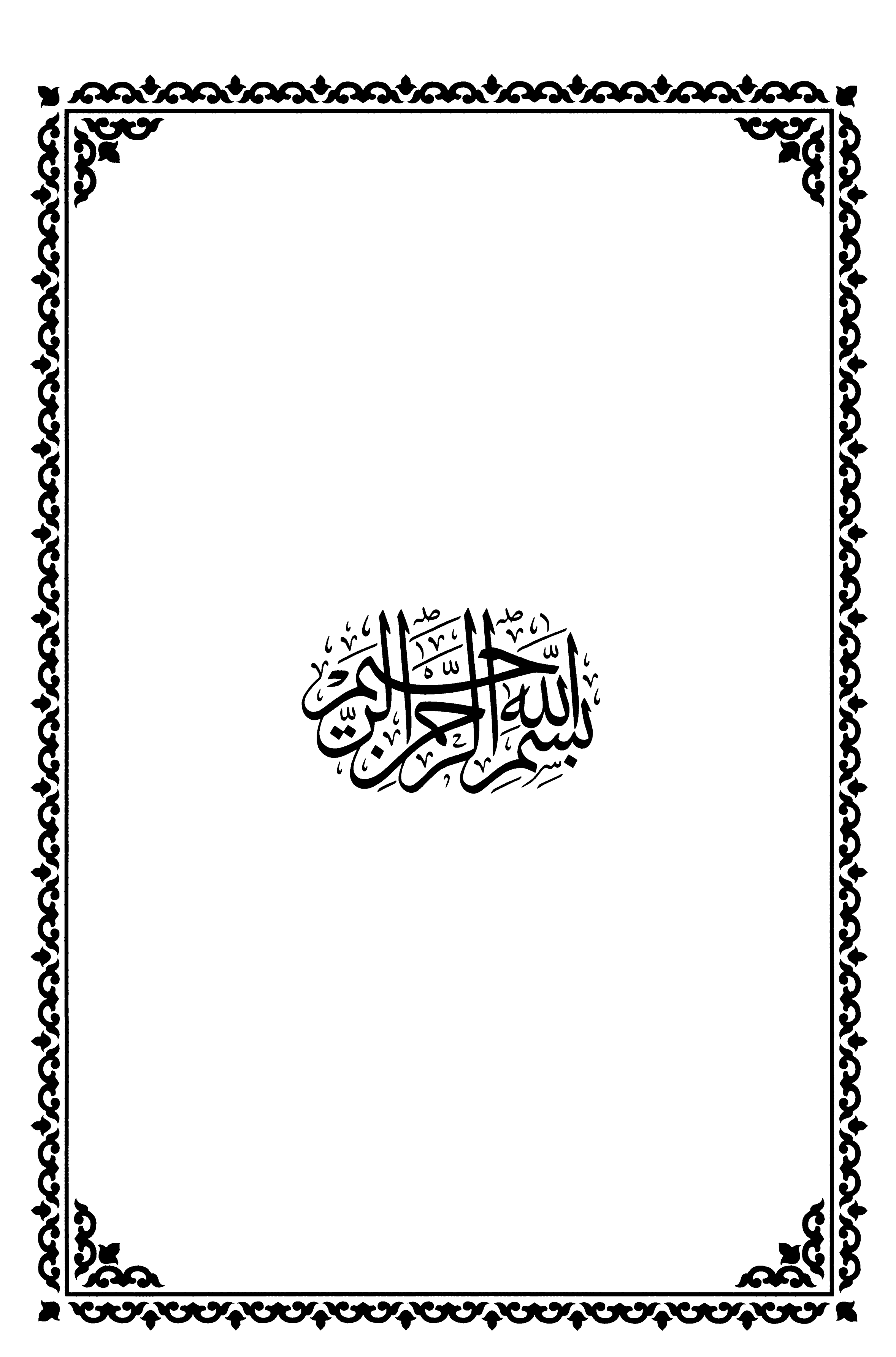
تفسير القرآن بصحيح السنن

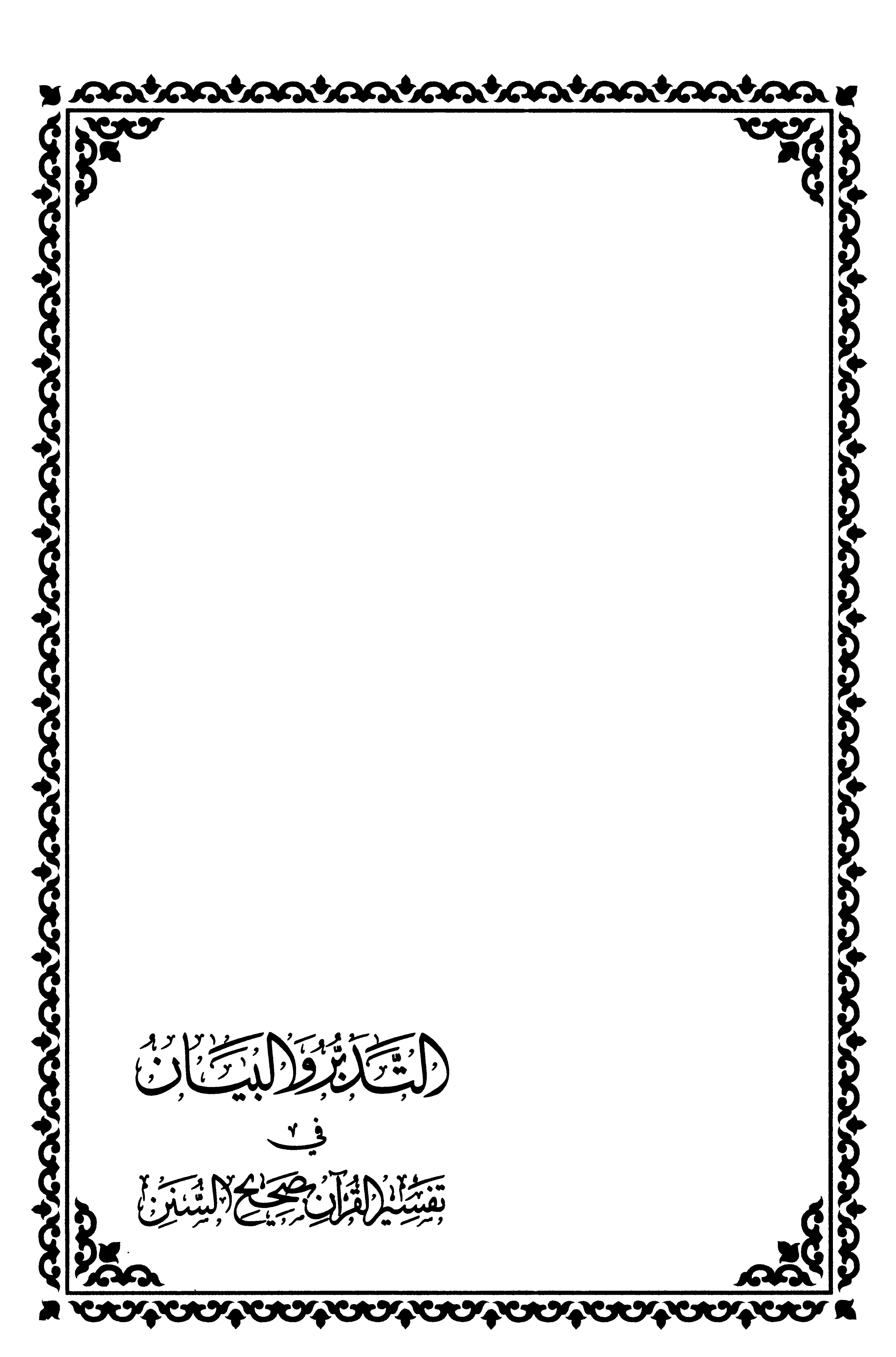
تأليف الأستاذ الدكتور

أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

المجلد الثاني والثلاثون

الفتح - الذاريات


بسم الله الرحمن الرحيم


التدبر والبيان
في
تفسير القرآن بصحيح السنن



الطّبعَة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : **AT-TADABBUR WAL-BAYĀN**
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis — التصنيف : تفسير

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 (40 مجلداً) عدد الصفحات

Size 17×24 cm قياس الصفحات

Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة

Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنـــان

Edition : 1st الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٧ - ١٤٧ - ٣٣ - ٩٩٥٤ - ٩٧٨







سورة الفتح

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «تضمنت هذه السورة بشارة المؤمنين بحسن عاقبة صلح الحديبية، وأنه نصر وفتح، فنزلت به السكينة في قلوب المسلمين، وأزال حزنهم من صدهم عن الاعتمار بالبيت، وكان المسلمون عدة لا تُغلب من قلة، فرأوا أنهم عادوا كالخائبين، فأعلمهم اللّٰه بأن العاقبة لهم، وأن دائرة السوء على المشركين والمنافقين.

والتنويه بكرامة النبي ﷺ عند ربه ووعده بنصر متعاقب.

والثناء على المؤمنين الذين عزّروه وبايعوه، وأن اللّٰه قدم مثلهم في التوراة وفي الإنجيل.

ثم ذكر بيعة الحديبية والتنويه بشأن من حضرها.

وفضح الذين تخلفوا عنها من الأعراب ولمزهم بالجبن والطمع وسوء الظن باللّٰه، وبالكذب على رسول اللّٰه ﷺ، ومنعهم من المشاركة في غزوة خيبر، وإنبائهم بأنهم سيدعون إلى جهاد آخر، فإن استجابوا غُفر لهم تخلفهم عن الحديبية.

ووُعد النبي ﷺ بفتح آخر يعقبه فتح أعظم منه، وبفتح مكة. وفيها ذكر بفتح من خيبر كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾[1]»[2].

تاريخ نزول سورة (الفتح) وفضلها

* عن معاوية بن قرة عن عبداللّٰه بن مغفل قال: «قرأ النبي ﷺ يوم فتح مكة سورة

---

(١) الفتح: الآية (٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٤٢-١٤٣).

(الفتح)، فرجّع فيها»، قال معاوية: لو شئت أن أحكي لكم قراءة النبي ﷺ لفعلت[١].

★ **غريب الحديث:**

فرجّع: الترجيع هو تقارب ضروب الحركات في القراءة، وأصله الترديد.

* عن زيد بن أسلم عن أبيه: «أن رسول اللَّه ﷺ كان يسير في بعض أسفاره - وعمر بن الخطاب يسير معه ليلًا - فسأله عمر بن الخطاب عن شيء فلم يجبه رسول اللَّه ﷺ، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر بن الخطاب: ثكلت أم عمر، نزرت رسول اللَّه ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك، قال عمر: فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس، وخشيت أن ينزل في قرآن، فما نشِبت أن سمعت صارخًا يصرخ بي، فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن، فجئت رسول اللَّه ﷺ فسلمت عليه، فقال: **لقد أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس**، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾»[٢].

★ **غريب الحديث:**

ثكلت: بكسر الكاف، والثكل: فقدان المرأة ولدها، دعا عمر على نفسه بسبب ما وقع له من الإلحاح. ويحتمل أنه لم يرد الدعاء على نفسه حقيقة، وإنما هي من الألفاظ التي تقال عند الغضب من غير قصد معناها.

نزرت: بزاي ثم راء بالتخفيف والتثقيل، والتخفيف أشهر؛ أي: ألححت عليه.

نشبت: بكسر المعجمة بعدها موحدة ساكنة؛ أي: لم أتعلق بشيء غير ما ذكرت.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عبدالبر: «والسفر المذكور في هذا الحديث الذي نزلت فيه سورة

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٥٤)، والبخاري (٨/ ٧٤٩/ ٤٨٣٥)، ومسلم (١/ ٥٤٧/ ٧٩٤)، وأبو داود (٢/ ١٥٤/ ١٤٦٧)، والترمذي في الشمائل (المختصر رقم: ٢٧٣)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٢/ ٨٠٥٤).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣١)، والبخاري (٧/ ٥٧٥/ ٤١٧٧)، والترمذي (٥/ ٣٥٩/ ٣٢٦٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٦١/ ١١٤٩٩).

(الفتح) منصرفه من الحديبية لا أعلم بين أهل العلم في ذلك خلافًا»[١].

وقال ابن القيم: «قال نافع: كانت سنة ست في ذي القعدة، وهذا هو الصحيح، وهو قول الزهري، وقتادة، وموسى بن عقبة، ومحمد بن إسحق، وغيرهم. وقال هشام بن عروة عن أبيه: خرج رسول اللَّه ﷺ إلى الحديبية في رمضان، وكانت في شوال، وهذا وهم، وإنما كانت غزاة الفتح في رمضان، وقد قال أبو الأسود عن عروة: إنها كانت في ذي القعدة على الصواب. وفي الصحيحين عن أنس، أن النبي ﷺ اعتمر أربع عمر، كلهن في ذي القعدة[٢]، فذكر منها عمرة الحديبية»[٣].

قال العيني: ««لهي أحب إلي» اللام فيه للتأكيد، وإنما كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها لما فيها من مغفرة ما تقدم وما تأخر، والفتح والنصر وإتمام النعمة وغيرها من رضاء اللَّه ﷻ عن أصحاب الشجرة ونحوها»[٤].

قال ابن عبدالبر: «في هذا الحديث السفر بالليل، والمشي على الدواب بالليل، وذلك عند الحاجة مع استعمال الرفق؛ لأنها بهائم عجم، وقد أمر رسول اللَّه ﷺ بالرفق بها، والإحسان إليها. .

وفيه ما كان عمر عليه من التقوى والوجل؛ لأنه خشي أن يكون عاصيًا بسؤاله رسول اللَّه ﷺ ثلاث مرات، كل ذلك لا يجيبه، إذ المعهود أن سكوت المرء عن الجواب، وهو قادر عليه، عالم به؛ دليل على كراهية السؤال.

وفيه ما يدل على أن السكوت عن السائل يعز عليه، وهذا موجود في طباع الناس، ولهذا أرسل رسول اللَّه ﷺ في عمر يؤنسه ويبشره، واللَّه أعلم.

وفيه أوضح الدليل على منزلة عمر من قلب رسول اللَّه ﷺ، وموضعه منه، ومكانته عنده.

وفيه أن غفران الذنوب خير للإنسان مما طلعت عليه الشمس لو أعطي ذلك،

---

(١) التمهيد (فتح البر ٤/ ٦٩١).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٣٤)، والبخاري (٧/ ٥٥٧-٥٥٨/ ٤١٤٨)، ومسلم (٢/ ٩١٦/ ١٢٥٣)، وأبو داود (٢/ ٥٠٦/ ١٩٩٤)، والترمذي (٣/ ١٧٩-١٨٠/ ٨١٥م).

(٣) زاد المعاد (٣/ ٢٨٦-٢٨٧).

(٤) عمدة القاري (١٣/ ٣١٩).

وذلك تحقير منه ﷺ للدنيا وتعظيم للآخرة، وهكذا ينبغي للعالم أن يحقر ما حقر اللَّه من الدنيا، ويزهد فيها، ويعظم ما عظم اللَّه من الآخرة، ويرغب فيها»[١].

* * *

(١) التمهيد (فتح البر ٤/ ٦٨٩-٦٩٠).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾

★ **غريب الآية:**

فتحنا: أي: قضينا قضاءً محكمًا. وأصل الفتح: إزالة الإغلاق والإشكال.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول اللَّه ﷺ من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ليقضي عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة منهم عمر بن الخطاب ﵁، كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء اللَّه تعالى، فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع، أنزل اللَّه ﷿ هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحًا باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه»[١].

قال ابن عطية: «ونزلت السورة مؤنسة للمؤمنين؛ لأنهم كانوا استوحشوا من رد قريش لهم ومن تلك المهادنة التي هادنهم النبي ﵇، فنزلت السورة مؤنسة لهم في صدهم عن البيت ومذهبة ما كان في قلوبهم»[٢].

قال ابن جرير: «يعني بقوله -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ يقول: إنا حكمنا لك يا محمد حكمًا يَبِينُ لمن سمعه أو بلغه على من خالفك وناصبك من كفار قومك، وقضينا لك عليهم بالنصر والظفر»[٣].

قال الرازي: «في الفتح وجوه: أحدها: فتح مكة، وهو ظاهر. وثانيها: فتح

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٠٧).
(٢) المحرر الوجيز (٥/ ١٢٥).
(٣) جامع البيان (٢٦/ ٦٧-٦٨).

الروم وغيرها. وثالثها: المراد من الفتح صلح الحديبية. ورابعها: فتح الإسلام بالحجة والبرهان، والسيف والسنان. وخامسها: المراد منه الحكم، كقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾(١)، وقوله: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾(٢)»(٣).

قال القاسمي: «ولا يخفى أن الوجوه المذكورة كلها؛ مما يصدق عليها الفتح الرباني، وجميعها مما تحقق مصداقه، إلا أن سبب نزول الآية، الذي حفظ الثقات زمنه؛ يبين المراد من الفتح بيانًا لا خلاف معه، وهو أنه الوجه الثالث المذكور»(٤).

قال الشنقيطي: «التحقيق الذي عليه الجمهور أن المراد بهذا الفتح صلح الحديبية؛ لأنه فتح عظيم.

وإيضاح ذلك أن الصلح المذكور هو السبب الذي تهيأ به للمسلمين أن يجتمعوا بالكفار فيدعوهم إلى الإسلام وبينوا لهم محاسنه، فدخل كثير من قبائل العرب بسبب ذلك في الإسلام.

ومما يوضح ذلك أن الذين شهدوا صلح الحديبية مع النبي ﷺ في ذي القعدة عام ست كانوا ألفًا وأربعمائة، ولما أراد النبي ﷺ غزو مكة حين نقض الكفار العهد، كان خروجه إلى مكة في رمضان عام ثمان، وكان معه عشرة آلاف مقاتل، وذلك يوضح أن الصلح المذكور من أعظم الفتوح؛ لكونه سببًا لقوة المسلمين وكثرة عددهم.

وليس المراد بالفتح المذكور فتح مكة، وإن قال بذلك جماعة من أهل العلم؛ وإنما قلنا ذلك لأن أكثر أهل العلم على ما قلنا، ولأن ظاهر القرآن يدل عليه؛ لأن سورة (الفتح) هذه نزلت بعد صلح الحديبية في طريقه ﷺ راجعًا إلى المدينة.

ولفظ الماضي في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ يدل على أن ذلك الفتح قد مضى، فدعوى أنه فتح مكة ولم يقع إلا بعد ذلك بقرب سنتين خلاف الظاهر. والآية التي في فتح مكة دلت على الاستقبال، لا على المضي، وهي قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾(٥) الآية»(٦).

---

(١) الأعراف: الآية (٨٩).
(٢) سبأ: الآية (٢٦).
(٣) تفسير الرازي (٢٨/ ٧٨).
(٤) محاسن التأويل (١٥/ ٦٣).
(٥) النصر: الآية (١).
(٦) أضواء البيان (٧/ ٦٠٣-٦٠٤).

قال ابن كثير: «فقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝﴾ أي: بيِّنًا ظاهرًا، والمراد به صلح الحديبية؛ فإنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس، واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان»(١).

قال ابن القيم: «فصل في الإشارة إلى بعض الحِكم التي تضمنتها هذه الهدنة: وهي أكبر وأجل من أن يحيط بها إلا اللَّه الذي أحكم أسبابها، فوقعت الغاية على الوجه الذي اقتضته حكمته وحمده. فمنها: أنها كانت مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعز اللَّه به رسوله وجنده، ودخل الناس به في دين اللَّه أفواجًا، فكانت هذه الهدنة بابًا له، ومفتاحًا، ومؤذنًا بين يديه، وهذه عادة اللَّه سبحانه في الأمور العظام التي يقضيها قدرًا وشرعًا، أن يوطّئ لها بين يديها مقدمات وتوطئات، تؤذن بها، وتدل عليها. ومنها: أن هذه الهدنة كانت من أعظم الفُتوح، فإن الناس أَمِن بعضهم بعضًا، واختلط المسلمون بالكفار، وبادؤوهم بالدعوة، وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وظهر من كان مختفيًا بالإسلام، ودخل فيه في مدة الهدنة من شاء اللَّه أن يدخل، ولهذا سماه اللَّه فتحًا مبينًا. قال ابن قتيبة: قضينا لك قضاءً عظيمًا. وقال مجاهد: هو ما قضى اللَّه له بالحديبية. وحقيقة الأمر: أن الفتح -في اللغة- فتح المغلق، والصلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدودًا مغلقًا حتى فتحه اللَّه، وكان من أسباب فتحه صدُّ رسول اللَّه ﷺ وأصحابه عن البيت، وكان في الصورة الظاهرة ضيمًا وهضمًا للمسلمين، وفي الباطن عزًّا وفتحًا ونصرًا، وكان رسول اللَّه ﷺ ينظر إلى ما وراءه من الفتح العظيم، والعز، والنصر من وراء ستر رقيق، وكان يعطي المشركين كل ما سألوه من الشروط، التي لم يحتملها أكثر أصحابه ورؤوسهم، وهو ﷺ يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوب: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾(٢).

وربما كان مكروهُ النفوس إلى ... محبوبها سببًا ما مثله سببُ

فكان يدخل على تلك الشروط دخول واثق بنصر اللَّه له وتأييده، وأن العاقبة له، وأن تلك الشروط واحتمالها هو عين النصرة، وهو من أكبر الجند الذي أقامه

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣١٠).
(٢) البقرة: الآية (٢١٦).

المشترطون، ونصبوه لحربهم، وهم لا يشعرون، فذلّوا من حيث طلبوا العز، وقُهِروا من حيث أظهروا القدرة والفخر والغلبة، وعز رسول اللَّه ﷺ وعساكر الإسلام من حيث انكسروا لله، واحتملوا الضيم له وفيه، فدار الدور، وانعكس الأمر، وانقلب العز بالباطل ذلاً بحق، وانقلبت الكسرة لله عزًّا باللَّه، وظهرت حكمة اللَّه وآياته، وتصديقُ وعده، ونصرةُ رسوله على أتم الوجوه وأكملها التي لا اقتراح للعقول وراءها»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الفتح بصلح الحديبية

* عن أنس رضي الله عنه في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ قال: «**الحديبية**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

الحديبية: قال الحافظ: الحديبية بالتثقيل والتخفيف لغتان، وأنكر كثير من أهل اللغة التخفيف. وقال أبو عبيد البكري: أهل العراق يثقلون وأهل الحجاز يخففون. وهي بئر سمي المكان بها. وقيل: شجرة حدباء صغرت وسمي المكان بها. قال المحب الطبري: الحديبية قرية قريبة من مكة؛ أكثرها في الحرة.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «سمى ما وقع في الحديبية فتحًا؛ لأنه كان مقدمة الفتح، وأول أسبابه»[٣].

* عن البراء رضي الله عنه قال: «تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنّا مع النبي ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء، فتوضأ ثم مضمض ودعا، ثم صبه فيها،

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٠٩-٣١٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٧٥)، والبخاري (٨/ ٧٤٩/ ٤٨٣٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٦١/ ١١٤٩٨).

(٣) فتح الباري (٨/ ٧٥١).

فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا»[1].

★ **غريب الحديث:**

فنزحناها: قال الحافظ: وقع في شرح ابن التين: فنزفناها، بالفاء بدل الحاء المهملة، قال: والنزف والنزح واحد، وهو أخذ الماء شيئًا بعد شيء إلى أن لا يبقى منه شيء.

شفيرها: جانبها وحرفها، وشفير كل شيء حرفه.

أصدرتْنا: أي: رجعتنا، يعني أنهم رجعوا عنها وقد رووا.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قوله: «**ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان**»، يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ وهذا موضع وقع فيه اختلاف قديم، والتحقيق أنه يختلف باختلاف المراد من الآيات، فقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ المراد بالفتح هنا الحديبية؛ لأنها كانت مبدأ الفتح المبين على المسلمين؛ لما ترتب على الصلح الذي وقع منه الأمن ورفع الحرب، وتمكن من يخشى الدخول في الإسلام والوصول إلى المدينة من ذلك، كما وقع لخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما، ثم تبعت الأسباب بعضها بعضًا إلى أن كمل الفتح. وقد ذكر ابن إسحق في المغازي عن الزهري قال: لم يكن في الإسلام فتح قبل فتح الحديبية أعظم منه، وإنما كان الكفر حيث القتال، فلما أمن الناس كلهم كلم بعضهم بعضًا، وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكن أحد في الإسلام يعقل شيئًا إلا بادر إلى الدخول فيه، فلقد دخل في تلك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر. قال ابن هشام: ويدل عليه أنه ﷺ خرج في الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج بعد سنين إلى فتح مكة في عشرة آلاف. انتهى»[2].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٩٠)، والبخاري (٧/ ٥٥٩/ ٤١٥٠).

(٢) فتح الباري (٧/ ٥٦٠).

قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «رتب اللَّه على هذا الفتح عدة أمور، فقال: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وذلك -واللَّه أعلم- بسبب ما حصل بسببه من الطاعات الكثيرة، والدخول في الدين بكثرة، وبما تحمّل ﷺ من تلك الشروط التي لا يصبر عليها إلا أولو العزم من المرسلين، وهذا من أعظم مناقبه وكراماته ﷺ، أن غفر اللَّه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بإعزاز دينك، ونصرك على أعدائك، واتساع كلمتك، ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ تنال به السعادة الأبدية، والفلاح السرمدي»(١).

قال ابن كثير: «هذا من خصائصه صلوات اللَّه وسلامه عليه، التي لا يشاركه فيها غيره. وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وهذا فيه تشريف عظيم لرسول اللَّه ﷺ، وهو -صلوات اللَّه وسلامه عليه- في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو أكمل البشر على الإطلاق، وسيّدهم في الدنيا والآخرة. ولما كان أطوع خلق اللَّه لله، وأكثرهم تعظيمًا لأوامره ونواهيه، قال حين بركت به الناقة: «**حبسها حابس الفيل**»، ثم قال: «**والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم شيئًا يعظّمون به حرمات اللَّه إلا أجبتهم إليها**»(٢)، فلما أطاع اللَّه في ذلك وأجاب إلى الصلح، قال اللَّه له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٩٢).

(٢) سيأتي مطولًا من حديث مروان والمسور بن مخرمة.

مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم»[١].

قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾:

قال ابن جرير: «لتشكر ربك وتحمده على نعمته بقضائه لك عليهم، وفتحه ما فتح لك، ولتسبحه وتستغفره، فيغفر لك بفعالك ذلك ربك، ما تقدم من ذنبك قبل فتحه لك ما فتح، وما تأخر بعد فتحه لك ذلك ما شكرته واستغفرته. وإنما اخترنا هذا القول في تأويل هذه الآية لدلالة قول اللَّه ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾[٢] على صحته، إذ أمره -تعالى ذكره- أن يسبح بحمد ربه إذا جاءه نصر اللَّه وفتح مكة، وأن يستغفره، وأعلمه أنه تواب على من فعل ذلك، ففي ذلك بيان واضح أن قوله -تعالى ذكره-: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ إنما هو خبر من اللَّه -جل ثناؤه- نَبِيَّهُ -عليه الصلاة والسلام- عن جزائه له على شكره له على النعمة التي أنعم بها عليه من إظهاره له ما فتح؛ لأن جزاء اللَّه تعالى عباده على أعمالهم دون غيرها. وبعد ففي صحة الخبر عنه ﷺ أنه كان يقوم حتى ترِم قدماه، فقيل له: يا رسول الله! تفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟**»[٣]؛ الدلالة الواضحة على أن الذي قلنا من ذلك هو الصحيح من القول، وأن اللَّه تبارك وتعالى إنما وعد نبيه محمدًا ﷺ غفران ذنوبه المتقدمة، فتح ما فتح عليه، وبعده، على شكره له على نعمه التي أنعمها عليه. وكذلك كان يقول ﷺ: «**إني لأستغفر اللَّه وأتوب إليه في كل يوم مائة مرة**»[٤]. ولو كان القول في ذلك أنه من خبر اللَّه تعالى نبيه أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر على غير الوجه الذي ذكرنا؛ لم يكن لأمره إياه بالاستغفار بعد هذه الآية، ولا لاستغفار نبي اللَّه ﷺ ربه ﷻ من ذنوبه بعدها معنى يعقل؛ إذ الاستغفار معناه: طلب العبد من ربه ﷻ غفران ذنوبه، فإذا لم يكن ذنوب تغفر؛ لم يكن لمسألته إياه غفرانها معنى؛ لأنه من المحال أن يقال: اللهم اغفر لي ذنبًا لم أعمله. وقد تأول

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣١٠).
(٢) سورة (النصر).
(٣) سيأتي تخريجه من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.
(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٢١١)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٥/ ٢٧٠٢)، وأبو داود (٢/ ١٧٧-١٧٨/ ١٥١٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١١٦/ ١٠٢٧٦) من حديث الأغر المزني رضي الله عنه.

ذلك بعضهم بمعنى: ليغفر لك ما تقدم من ذنبك قبل الرسالة، وما تأخر إلى الوقت الذي قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾. وأما الفتح الذي وعد اللَّه -جل ثناؤه- نبيه ﷺ هذه العدة على شكره إياه عليه؛ فإنه فيما ذُكر الهدنة التي جرت بين رسول اللَّه ﷺ وبين مشركي قريش بالحديبية»[1].

وقال: «وقوله تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بإظهاره إياك على عدوك، ورفعه ذكرك في الدنيا، وغفرانه ذنوبك في الآخرة، ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ يقول: ويرشدك طريقًا من الدين لا اعوجاج فيه، يستقيم بك إلى رضا ربك»[2].

قال ابن عطية: «وأجمع العلماء على عصمة الأنبياء عليهم السلام من الكبائر والصغائر التي هي رذائل، وجوز بعضهم الصغائر التي ليست برذائل، واختلفوا هل وقع ذلك من محمد عليه السلام أو لم يقع»[3].

قال ابن تيمية: «قد قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[4]، وقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، وثبت في الصحيحين في حديث الشفاعة: أن المسيح يقول: «**اذهبوا إلى محمد عبد غفر اللَّه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**»[5]. وفي الصحيح: «أن النبي ﷺ كان يقوم حتى ترم قدماه، فيقال له: أتفعل هذا وقد غفر اللَّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[6]. ونصوص الكتاب والسنة في هذا الباب كثيرة متظاهرة، والآثار في ذلك عن الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين كثيرة. لكن المنازعون يتأولون هذه النصوص من جنس تأويلات الجهمية والباطنية كما فعل ذلك من صنف في هذا الباب. وتأويلاتهم تبين لمن تدبرها أنها فاسدة من باب تحريف الكلم عن مواضعه، كتأويلهم قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾: المتقدم ذنب آدم، والمتأخر ذنب أمته. وهذا معلوم البطلان، ويدل على ذلك وجوه:

---

(١) تفسير ابن جرير (٢٦/ ٦٨).
(٢) جامع البيان (٢٦/ ٧١).
(٣) المحرر الوجيز (٥/ ١٢٦).
(٤) محمد: الآية (١٩).
(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٦)، والبخاري (٨/ ٢٠٢-٢٠٣/ ٤٤٧٦)، ومسلم (١/ ١٨٠-١٨١/ ١٩٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٤-٣٦٥/ ١١٢٤٣)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٢-١٤٤٣/ ٤٣١٢) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٦) سيأتي تخريجه.

أحدها: أن آدم قد تاب اللَّه عليه قبل أن ينزل إلى الأرض فضلًا عن عام الحديبية الذي أنزل اللَّه فيه هذه السورة، قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾[1]، وقال: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾[2]، وقد ذكر أنه قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[3].

والثاني: أن يقال: فآدم عندكم من جملة موارد النزاع، ولا يحتاج أن يغفر له ذنبه عند المنازع فإنه نبي أيضًا، ومن قال: إنه لم يصدر من الأنبياء ذنب يقول ذلك عن آدم ومحمد وغيرهما.

الوجه الثالث: أن اللَّه لا يجعل الذنب ذنبًا لمن لم يفعله، فإنه هو القائل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[4]. فمن الممتنع أن يضاف إلى محمد ﷺ ذنب آدم ﷺ أو أمته أو غيرهما، وقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾[6]. ولو جاز هذا لجاز أن يضاف إلى محمد ذنوب الأنبياء كلهم، ويقال: إن قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ المراد ذنوب الأنبياء وأممهم قبلك، فإنه يوم القيامة يشفع للخلائق كلهم، وهو سيد ولد آدم، وقال: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وآدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة، أنا خطيب الأنبياء إذا وفدوا، وإمامهم إذا اجتمعوا**»[7] وحينئذ فلا يختص آدم بإضافة ذنبه إلى محمد؛ بل تجعل ذنوب الأولين والآخرين على قول هؤلاء ذنوبًا له. فإن قال: إن اللَّه لم يغفر ذنوب جميع الأمم؛ قيل: وهو أيضًا لم يغفر ذنوب جميع أمته.

الوجه الرابع: أنه قد ميز بين ذنبه وذنوب المؤمنين بقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[8] فكيف يكون ذنب المؤمنين ذنبًا له.

الوجه الخامس: أنه ثبت في الصحيح أن هذه الآية لما نزلت قال الصحابة:

---

(١) طه: الآيتان (١٢١و١٢٢).
(٢) البقرة: الآية (٣٧).
(٣) الأعراف: الآية (٢٣).
(٤) الأنعام: الآية (١٦٤).
(٥) النور: الآية (٥٤).
(٦) النساء: الآية (٨٤).
(٧) أخرجه الترمذي (٥/ ٥٤٦/ ٣٦١٠) وقال: «هذا حديث حسن غريب». والحديث ضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الترمذي».
(٨) محمد: الآية (١٩).

يا رسول الله! هذا لك فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾[1]، فدل ذلك على أن الرسول والمؤمنين علموا أن قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مختص به دون أمته.

الوجه السادس: أن اللّٰه لم يغفر ذنوب جميع أمته؛ بل قد ثبت أن من أمته من يعاقب بذنوبه إما في الدنيا وإما في الآخرة، وهذا مما تواتر به النقل، وأخبر به الصادق المصدوق، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، وشوهد في الدنيا من ذلك ما لا يحصيه إلا اللّٰه، وقد قال اللّٰه تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[2]، والاستغفار والتوبة قد يكونان من ترك الأفضل، فمن نقل إلى حال أفضل مما كان عليه قد يتوب من الحال الأول، لكن الذم والوعيد لا يكون إلا على ذنب»[3].

وقال: «والأنبياء أفضل الخلق، وهم أصحاب الدرجات العلى في الآخرة، فيمتنع أن يكون النبي من الفجار، بل ولا يكون من عموم أصحاب اليمين، بل من أفضل السابقين المقربين، فإنهم أفضل من عموم الصديقين والشهداء والصالحين، وإن كان النبي أيضًا يوصف بأنه صديق وصالح وقد يكون شهيدًا، لكن ذاك أمر يختص بهم لا يشركهم فيه من ليس بنبي، كما قال عن الخليل: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[4]، وقال يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[5]. فهذا مما يوجب تنزيه الأنبياء أن يكونوا من الفجار والفساق، وعلى هذا إجماع سلف الأمة وجماهيرها»[6].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن من أسباب المغفرة شكر اللّٰه بالقول والفعل والعبادة الصادقة الدائمة

* عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قام النبي ﷺ حتى تورّمت قدماه، فقيل له:

---

(١) الفتح: الآية (٤).
(٢) النساء: الآية (١٢٣).
(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣١٣-٣١٦).
(٤) العنكبوت: الآية (٢٧).
(٥) يوسف: الآية (١٠١).
(٦) منهاج السنة (٢/ ٤١٨).

غفر اللّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟**»[١].

* عن عائشة رضي الله عنها: أن نبي اللّه ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول اللّه، وقد غفر اللّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا**»، فلما كثر لحمه صلى جالسًا، فإذا أراد أن يركع قام فقرأ ثم ركع[٢].

★ **غريب الحديثين:**

تورّمت: انتفخت.

تتفطر قدماه: أي: تتشقق، يقال: تفطرت وانفطرت بمعنى.

★ **فوائد الحديثين:**

قال ابن بطال: «قال المهلب: فيه أخذ الإنسان على نفسه بالشدة في العبادة وإن أضر ذلك ببدنه، وذلك له حلال، وله أن يأخذ بالرخصة ويكلف نفسه ما عفت له به وسمحت، إلا أن الأخذ بالشدة أفضل؛ ألا ترى قوله عليه السلام: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»، فكيف من لم يعلم أنه استحق النار أم لا؟ فمن وفق للأخذ بالشدة فله في النبي عليه السلام أفضل الأسوة.

وإنما ألزم الأنبياء والصالحون أنفسهم شدة الخوف وإن كانوا قد أمنوا؛ لعلمهم بعظيم نعم اللّه عليهم، وأنه ابتدأهم بها قبل استحقاقها، فبذلوا مجهودهم في شكره تعالى بأكبر مما افترض عليهم، فاستقلوا ذلك. ولهذا المعنى قال طلق بن حبيب: إن حقوق اللّه أعظم من أن يقوم بها العباد، ونعمه أكثر من أن تحصى، ولكن أصبحوا قانتين وأمسوا تائبين. وهذا كله مفهوم من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[٣]»[٤].

قال ابن حجر: «ومحل ذلك ما إذا لم يفض إلى الملال؛ لأن حال النبي ﷺ

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٥١)، والبخاري (٨/ ٧٥١/ ٤٨٣٦) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢١٧١/ ٢٨١٩)، والترمذي (٢/ ٢٦٨-٢٦٩/ ٤١٢) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٣/ ٢٤٢/ ١٦٤٣)، وابن ماجه (١/ ٤٥٦/ ١٤١٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ١١٥)، والبخاري (٨/ ٧٥١/ ٤٨٣٧)، ومسلم (٤/ ٢١٧٢/ ٢٨٢٠).

(٣) فاطر: الآية (٢٨).

(٤) شرح البخاري (٣/ ١٢١-١٢٢).

كانت أكمل الأحوال، فكان لا يمل من عبادة ربه وإن أضر ذلك ببدنه؛ بل صح أنه قال: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[(١)] كما أخرجه النسائي من حديث أنس. فأما غيره ﷺ فإذا خشي الملل لا ينبغي له أن يكره نفسه، وعليه يحمل قوله ﷺ: «**خذوا من الأعمال ما تطيقون؛ فإن اللّه لا يمل حتى تملوا**»[(٢)]. وفيه مشروعية الصلاة للشكر. وفيه أن الشكر يكون بالعمل كما يكون باللسان؛ كما قال اللّه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾[(٣)]»[(٤)].

قال السندي: «قوله: «**قد غفر اللّه لك**» أي: فما بالك تتعب نفسك، وما بقي بعد المغفرة إلا الراحة؟! وهذا منهم مبني على أن الاجتهاد في العبادة يكون للمغفرة، فمن حصلت له فلا يحتاج إليه، فأشار ﷺ في الجواب أن العبادة قد تكون لشكر نعمة المولى، وحينئذ، فالمغفرة لكونها من أجل النعم تقتضي زيادة في العبادة، والمبالغة في الاجتهاد، لا تركه كما زعموا»[(٥)].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول اللّه ﷺ إذا أمرهم أمرَهم من الأعمال بما يطيقون، قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله! إن اللّه قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه، ثم يقول: «**إن أتقاكم وأعلمكم باللّه أنا**»[(٦)].

★ فوائد الحديث:

قال ابن رجب: «كان النبي ﷺ يأمر أصحابه بما يطيقون من الأعمال، وكانوا لشدة حرصهم على الطاعات يريدون الاجتهاد في العمل، فربما اعتذروا عن أمر النبي ﷺ بالرفق واستعماله له في نفسه أنه غير محتاج إلى العمل بضمان المغفرة له وهم غير مضمون لهم المغفرة، فهم محتاجون إلى الاجتهاد ما لا يحتاج هو إلى

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٢٨)، والنسائي (٧/ ٧٢/ ٣٩٤٩)، وصححه الحاكم (٢/ ١٦٠)، ووافقه الذهبي من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٨٤)، والبخاري (١٠/ ٣٨٥-٣٨٦/ ٥٨٦١)، ومسلم (١/ ٥٤٠-٥٤١/ ٧٨٢)، وأبو داود (٢/ ١٠١/ ١٣٦٨)، والنسائي (٢/ ٤٠٢/ ٧٦١)، وابن ماجه (١/ ٣٠٣/ ٩٤٢) مختصراً من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) سبأ: الآية (١٣).

(٤) الفتح (٣/ ١٩).

(٥) هامش المسند (٣٠/ ١٣٨-١٣٩).

(٦) أخرجه: البخاري (١/ ٩٥/ ٢٠) من طريق عبدة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة به.

ذلك، فكان ﷺ يغضب من ذلك ويخبرهم أنه أتقاهم لله وأعلمهم به.

فكونه أتقاهم لله يتضمن شدة اجتهاده في خصال التقوى وهو العمل، وكونه أعلمهم به يتضمن أن علمه بالله أفضل من علمهم بالله، وإنما زاد علمه بالله لمعنيين:

أحدهما: زيادة معرفته بتفاصيل أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه وعظمته وكبريائه وما يستحقه من الجلال والإكرام والإجلال والإعظام.

والثاني: أن علمه بالله مستند إلى عين اليقين، فإنه رآه إما بعين بصره أو بعين بصيرته، كما قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما: «رآه بفؤاده مرتين»، وعلمهم به مستند إلى علم يقين، وبين المرتبتين تباين، ولهذا سأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يرقيه من مرتبة علم اليقين إلى مرتبة عين اليقين بالنسبة إلى رؤية إحياء الموتى. فلما زادت معرفة الرسول بربه زادت خشيته له وتقواه؛ فإن العلم التام يستلزم الخشية كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾(١)، فمن كان بالله وبأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه أعلم كان له أخشى وأتقى، وإنما تنقص الخشية والتقوى بحسب نقص المعرفة بالله. وقد خرج البخاري في آخر صحيحه عن مسروق قال: قالت عائشة: «صنع النبي ﷺ شيئًا ترخص فيه وتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فحمد الله ثم قال: **ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟! فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية**»(٢).

وفي صحيح مسلم عن عائشة: «أن رجلًا قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله! إني أصبح جنبًا وأنا أريد الصيام، فقال رسول الله ﷺ: **وأنا أصبح جنبًا وأنا أريد الصيام، فأغتسل وأصوم**. فقال الرجل: يا رسول الله! إنك لست مثلنا، قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فغضب رسول الله ﷺ وقال: **إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي**»(٣). وفي حديث أنس: «أن ثلاثة رهط جاؤوا إلى

---

(١) فاطر: الآية (٢٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٥)، والبخاري (١٣/ ٣٤٢/ ٧٣٠١)، ومسلم (٤/ ١٨٢٩/ ٢٣٥٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٦٧/ ١٠٠٦٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٦٧)، ومسلم (٢/ ٧٨١/ ١١١٠)، وأبو داود (٢/ ٧٨٢-٧٨٣/ ٢٣٨٩)، والنسائي في الكبرى (٢/ ١٩٥/ ٣٠٢٥).

بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة رسول اللَّه ﷺ، فلما أخبروا بها كأنهم تقالّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر اللَّه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: أنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبدًا، فجاء النبي ﷺ إليهم فقال: **«أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما واللَّه إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكن أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»**(١). وقد خرجاه في الصحيحين بمعناه.

ففي هذه الأحاديث كلها الإنكار على من نسب إليه التقصير في العمل للاتكال على المغفرة؛ فإنه كان يجتهد في الشكر أعظم الاجتهاد، فإذا عوتب على ذلك وذكرت له المغفرة، أخبر أنه يفعل ذلك شكرًا؛ كما في الصحيحين عن المغيرة أن النبي ﷺ كان يقوم حتى تتفطر قدماه، فيقال له: تفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول: **«أفلا أكون عبدًا شكورًا»**(٢).

وقد كان يواصل في الصيام وينهاهم ويقول: **«إني لست كهيئتكم؛ إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني»**(٣)، فنسبة التقصير إليه في العمل لاتكاله على المغفرة خطأ فاحش؛ لأنه يقتضي أن هديه ليس هو أكمل الهدي وأفضله، وهذا خطأ عظيم؛ ولهذا كان الرسول ﷺ يقول في خطبته: **«خير الهدى هدى محمد»**(٤). ويقتضي -أيضًا- هذا الخطأ: أن الاقتداء بهديه في العمل ليس هو أفضل؛ بل الأفضل الزيادة على هديه في ذلك، وهذا خطأ عظيم جدًّا؛ فإن اللَّه تعالى قد أمر بمتابعته وحث عليها، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾(٥). فلهذا كان ﷺ يغضب من ذلك غضبًا شديدًا لما في هذا الظن من القدح في هديه

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٤١)، والبخاري (٩/ ١٢٩/ ٥٠٦٣)، ومسلم (٢/ ١٠٢٠/ ١٤٠١)، والنسائي (٦/ ٣٦٨-٣٦٩/ ٣٢١٧).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٨)، والبخاري (٤/ ٢٦١/ ١٩٦٧)، وأبو داود (٢/ ٧٦٧/ ٢٣٦١) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٧١)، ومسلم (٢/ ٥٩٢/ ٨٦٧)، والنسائي (٣/ ٢٠٩-٢١٠/ ١٥٧٧)، وابن ماجه (١/ ١٧/ ٤٥) من حديث جابر بن عبد اللَّه ﷺ.

(٥) آل عمران: الآية (٣١).

ومتابعته والاقتداء به»[١].

قال ابن بطال: «وفي اجتهاده في عمله، وغضبه من قولهم دليل أنه لا يجب أن يتكل العامل على عمله، وأن يكون بين الرجاء والخوف.

قال المهلب: وفيه من الفقه أن الرجل الصالح يلزمه من التقوى والخشية ما يلزم المذنب التائب، لا يؤمّن الصالح صلاحه، ولا يويّس المذنبَ ذنبُه ويقنّطه؛ بل الكل خائف راجٍ. وكذلك أراد تعالى أن يكون عباده واقفين تحت الخوف والرجاء اللذين ساس بهماً خلقه سياسة حكمه لا انفكاك منها.

وقوله: «**إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**» فيه من الفقه أن للإنسان أن يخبر عن نفسه بما فيه من الفضل لضرورة تدعوه إلى ذلك، لأن كلامه ﷺ بذلك وقع في حال عتاب لأصحابه، ولم يرد به الفخر، كقوله: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»[٢]»[٣].

قال ابن حجر: «وفي هذا الحديث فوائد:

الأولى: أن الأعمال الصالحة ترقي صاحبها إلى المراتب السنية من رفع الدرجات ومحو الخطيات؛ لأنه ﷺ لم ينكر عليهم استدلالهم ولا تعليلهم من هذه الجهة؛ بل من الجهة الأخرى.

الثانية: أن العبد إذا بلغ الغاية في العبادة وثمراتها؛ كان ذلك أدعى له إلى المواظبة عليها؛ استبقاءً للنعمة، واستزادةً لها بالشكر عليها.

الثالثة: الوقوف عند ما حد الشارع من عزيمة ورخصة، واعتقاد أن الأخذ بالأرفق الموافق للشرع أولى من الأشق المخالف له.

الرابعة: أن الأولى في العبادة القصد والملازمة، لا المبالغة المفضية إلى الترك. .

الخامسة: التنبيه على شدة رغبة الصحابة في العبادة وطلبهم الازدياد من الخير.

---

(١) فتح الباري (١/ ٨٩-٩٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٢)، والترمذي (٥/ ٢٨٨-٢٨٩/ ٣١٤٨) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٠/ ٤٣٠٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) شرح صحيح البخاري (١/ ٧٣).

السادسة: مشروعية الغضب عند مخالفة الأمر الشرعي، والإنكار على الحاذق المتأهل لفهم المعنى إذا قصر في الفهم؛ تحريضًا له على التيقظ»[١].

* * *

(١) فتح الباري (١/ ٩٧-٩٨).

قوله تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ۝٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: وينصرك على سائر أعدائك، ومن ناوأك، نصرًا لا يغلبه غالب، ولا يدفعه دافع، للبأس الذي يؤيدك اللَّه به، وبالظفر الذي يمدّك به»(١).

وقال السعدي: «﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ أي: قويًا، لا يتضعضع فيه الإسلام، بل يحصل الانتصار التام، وقمع الكافرين، وذلهم ونقصهم، مع توفر قوى المسلمين ونموهم، ونمو أموالهم»(٢).

وقال ابن كثير: «﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ أي: بسبب خضوعك لأمر اللَّه، يرفعك اللَّه، وينصرك على أعدائك، كما جاء في الحديث الصحيح: **«وما زاد اللَّه عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»**»(٣).

قال ابن القيم: «تأمل ما جمع اللَّه سبحانه لرسوله في آية (الفتح) من أنواع العطايا، وذلك خمسة أشياء:

أحدها: الفتح المبين.

والثاني: مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

والثالث: هدايته الصراط المستقيم.

والرابع: إتمام نعمته عليه.

والخامس: إعطاء النصر العزيز، وجمع سبحانه له بين الهدى والنصر؛ لأن هذين الأصلين بهما كمال السعادة والفلاح، فإن الهدى هو العلم باللَّه تعالى ودينه، والعمل بمرضاته وطاعته، فهو العلم النافع والعمل الصالح والنصر وهو القدرة التامة على تنفيذ دينه بالحجة والبيان والسيف والسنان فهو النصر بالحجة واليد؛

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٧١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٩٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣١٠).

قهر قلوب المخالفين له بالحجة، وقهر أبدانهم باليد، وهو سبحانه كثيرًا ما يجمع بين هذين الأصلين؛ إذ بهما تمام الدعوة، وظهور دينه على الدين كله؛ كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾(١) في موضعين، في سورة (براءة) وفي سورة (الصف). وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾(٢) فهذا الهدى، ثم قال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ فهذا النصر، فذكر الكتاب الهادي والحديد الناصر. وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾(٣)، فذكر إنزال الكتاب الهادي والفرقان، وهو النصر الذي يفرق بين الحق والباطل.

وسر اقتران النصر بالهدى أن كلاً منهما يحصل به الفرقان بين الحق والباطل، ولهذا سمى تعالى ما ينصر به عباده المؤمنين فرقانًا؛ كما قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾(٤)، فذكر الأصلين ما أنزله على رسوله يوم الفرقان، وهو يوم بدر، وهو اليوم الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل بنصر رسوله ودينه، وإذلال أعدائه وخزيهم. ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾(٥)، فالفرقان نصره له على فرعون وقومه، والضياء والذكر التوراة، هذا هو معنى الآية، ولم يصب من قال: إن الواو زائدة وإن ﴿ضِيَآءً﴾ منصوب على الحال؛ كما بينا فساده في «الأمالي المكية» فبين أن آية (الفتح) تضمنت الأصلين الهدى والنصر، وأنه لا يصح فيها غير ذلك ألبتة»(٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان بعض أسباب العزة والرفعة

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»**(٧).

---

(١) التوبة: الآية (٣٣)، الفتح: الآية (٢٨)، الصف: الآية (٩).

(٢) الحديد: الآية (٢٥).

(٣) آل عمران: الآيات (١-٤).

(٤) الأنفال: الآية (٤١).

(٥) الأنبياء: الآية (٤٨).

(٦) بدائع الفوائد (٢/ ١٤-١٥).

(٧) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٠١/ ٢٥٨٨) واللفظ له، والترمذي (٤/ ٣٣٠/ ٢٠٢٩) وقال: «حسن صحيح».

★ **فوائد الحديث:**

قال القاضي: «قوله ﷺ: «**ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا**» فيه وجهان: أحدهما: ظاهره أن من عرف بالصفح والعفو ساد وعظم في القلوب وزاد عزّه. الثاني: أن يكون أجره على ذلك في الآخرة وعزّته هناك.

«**وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**» فيه وجهان كذلك: أحدهما: أن الله تعالى يمنحه ذلك في الدنيا جزاءً على تواضعه له، وأن تواضعه يثبت له في القلوب محبّة ومكانة وعزّة. والثاني: أن يكون ذلك ثوابه في الآخرة على تواضعه، وهذه الوجوه كلها في الدنيا ظاهرة موجودة، وقد صدق ﷺ فيما أخبر منها، وقد يكون جمع الوجهين في جميعها»[1].

قال ابن القيم: «العفو من المخلوق ظاهره ضيم وذل، وباطنه عز، وانتقام ظاهره عز وباطنه ذل، فما زاد الله بعفو إلا عزًّا، ولا انتقم أحد لنفسه إلا ذل ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو»[2].

* * *

(١) الإكمال (٨/ ٥٩).
(٢) الروح (٢/ ٧١٩).

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾

★ **غريب الآية:**

السكينة: الطمأنينة والسكون.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال المراغي: « ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ أي: هو الذي أنزل في قلوب المؤمنين طمأنينة، وثبات أقدام عند اللقاء ومقاتلة الأعداء، وهو المسمى في العصر الحديث: الروح المعنوية في الجيوش؛ ليزدادوا يقينًا في دينهم إلى يقينهم برسوخ عقيدتهم واطمئنان نفوسهم بعد أن دهمهم من الحوادث ما من شأنه أن يزعج ذوي الأحلام، ويزلزل العقائد بصدّ الكفار لهم عن المسجد الحرام ورجوعهم دون بلوغ مقصدهم، ولكن لم يرجع أحد منهم عن الإيمان بعد أن هاج الناس وزلزلوا زلزالًا شديدًا، حتى إن عمر بن الخطاب لم يكن راضيًا عن هذا الصلح وقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ وكان للصديق من القدم الثابتة ورسوخ الإيمان ما دل على أنه لا يجارى ولا يبارى»[1].

قال ابن جرير: «يعني -جل ذكره- بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: اللَّه أنزل السكون والطمأنينة في قلوب المؤمنين باللَّه ورسوله إلى الإيمان، والحق الذي بعثك اللَّه به يا محمد. .

﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ يقول: ليزدادوا بتصديقهم بما جدّد اللَّه من الفرائض التي ألزمهموها، التي لم تكن لهم لازمة ﴿إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾، يقول: ليزدادوا إلى إيمانهم بالفرائض التي كانت لهم لازمة قبل ذلك»[2].

---

(١) تفسير المراغي (٢٦/ ٨٥-٨٦).

(٢) جامع البيان (٢٦/ ٧١).

قال السعدي: «يخبر تعالى عن منته على المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة، والثبات عند نزول المحن المقلقة، والأمور الصعبة، التي تشوش القلوب، وتزعج الألباب، وتضعف النفوس، فمن نعمة اللَّه على عبده في هذه الحال أن يثبته ويربط على قلبه، وينزل عليه السكينة، ليتلقى هذه المشقات بقلب ثابت ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر اللَّه في هذه الحال، فيزداد بذلك إيمانه، ويتم إيقانه، فالصحابة ﷺ لما جرى ما جرى بين رسول اللَّه ﷺ والمشركين، من تلك الشروط التي ظاهرها أنها غضاضة عليهم، وحط من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس، فلما صبروا عليها ووطنوا أنفسهم لها، ازدادوا بذلك إيمانًا مع إيمانهم»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ أي: جعل الطمأنينة، قاله ابن عباس، وعنه: الرحمة.

وقال قتادة: الوقار في قلوب المؤمنين. وهم الصحابة يوم الحديبية، الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم اللَّه ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك، واستقرت، زادهم إيمانًا مع إيمانهم.

وقد استدل بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب»[2].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾: ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الإيمان يزيد، دلت عليه آيات أخر من كتاب اللَّه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾[5] إلى غير ذلك من الآيات. وقد أوضحناه مرارًا.

والحق الذي لا شك فيه: أن الإيمان يزيد وينقص، كما عليه أهل السنة والجماعة، وقد دل عليه الوحي من الكتاب والسنة كما تقدم»[6].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٩٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣١١).
(٣) الأنفال: الآية (٢).
(٤) التوبة: الآية (١٢٤).
(٥) المدثر: الآية (٣١).
(٦) أضواء البيان (٧/ ٦٠٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في السكينة وثمرتها

* عن البراء ﷺ قال: «بينما رجل من أصحاب النبي ﷺ يقرأ، وفرس له مربوط في الدار، فجعل ينفِر، فخرج الرجل فنظر فلم ير شيئًا، وجعل ينفِر، فلما أصبح ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «**تلك السكينة تنزلت بالقرآن**»[(١)].

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «والسكينة مأخوذة من السكون، وهو الوقار والطمأنينة، وهي هنا اسم للملائكة كما فسرها في الرواية الأخرى، وسماهم بذلك لشدة وقارهم وسكونهم تعظيمًا لقراءة هذه السورة»[(٢)].

قال ابن بطال: «في هذا الحديث أن أسيد بن حضير رأى مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فقال النبي ﷺ: «**تلك الملائكة تنزلت للقرآن**»، وقال ﷺ في حديث البراء في سورة الكهف: «**تلك السكينة نزلت للقرآن**». فمرة أخبر ﷺ عن نزول السكينة، ومرة أخرى عن نزول الملائكة، فدل على أن السكينة كانت في تلك الظلة، وأنها تنزل أبدًا مع الملائكة، واللَّه أعلم، ولذلك ترجم البخاري باب نزول السكينة والملائكة عند القراءة»[(٣)].

قال ابن القيم: «فالسكينة (فَعيلة) من السكون، وهي طمأنينة القلب واستقراره، وأصلها في القلب ويظهر أثرها على الجوارح، وهي عامة وخاصة.

سكينة الأنبياء:

فسكينة الأنبياء -صلوات اللَّه وسلامه عليهم- أخص مراتبها، وأعلى أقسامها، كالسكينة التي حصلت لإبراهيم الخليل، وقد ألقي في المنجنيق مسافرًا إلى ما أضرم له أعداء اللَّه من النار، فلله تلك السكينة التي كانت في قلبه حين ذلك السفر! وكذلك السكينة التي حصلت لموسى وقد غشيه فرعون وجنوده من ورائهم

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٩٣)، والبخاري (٨/ ٧٥٤/ ٤٨٣٩) واللفظ له، ومسلم (١/ ٥٤٧-٥٤٨/ ٧٩٥)، والترمذي (٥/ ١٤٨-١٤٩/ ٢٨٨٥) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٦٢-٤٦٣/ ١١٥٠٣).

(٢) المفهم (٢/ ٤٣٧).

(٣) شرح البخاري (١٠/ ٢٥٤).

والبحر أمامهم، وقد استغاث بنو إسرائيل: يا موسى! إلى أين تذهب بنا؟ هذا البحر أمامنا وهذا فرعون خلفنا! وكذلك السكينة التي حصلت له وقت تكليم اللَّه له نداء وإيحاء كلامًا حقيقة سمعه حقيقة بأذنه، وكذلك السكينة التي حصلت له وقد رأى العصا ثعبانًا مبينًا، وكذلك السكينة التي نزلت عليه وقد رأى حبال القوم وعصيهم كأنها تسعى، فأوجس في نفسه خيفة، وكذلك السكينة التي حصلت لنبينا ﷺ وقد أشرف عليه وعلى صاحبه عدوهما وهما في الغار، فلو نظر أحدهم إلى تحت قدميه لرآهما، وكذلك السكينة التي نزلت عليه في مواقفه العظيمة وأعداء اللَّه قد أحاطوا به، كيوم بدر ويوم حنين ويوم الخندق وغيره. فهذه السكينة أمر فوق عقول البشر، وهي من أعظم معجزاته عند أرباب البصائر؛ فإن الكذاب -ولا سيما على الله- أقلق ما يكون وأخوف ما يكون وأشده اضطرابًا في مثل هذه المواطن، فلو لم يكن للرسل صلوات اللَّه وسلامه عليهم من الآيات إلا هذه وحدها لكفتهم.

سكينة أتباع الرسل:

وأما الخاصة فتكون لأتباع الرسل بحسب متابعتهم، وهي سكينة الإيمان، وهي سكينة تسكن القلوب عن الريب والشك، ولهذا أنزلها اللَّه على المؤمنين في أصعب المواطن أحوج ما كانوا إليها، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾، فذكر نعمته عليهم بالجنود الخارجة عنهم والجنود الداخلة فيهم، وهي السكينة عند القلق والاضطراب الذي لم يصبر عليه مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك يوم الحديبية، قال اللَّه سبحانه وتعالى يذكر نعمته عليهم بإنزالها أحوج ما كانوا إليها: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾[1] لما علم اللَّه ﷻ ما في قلوبهم من القلق والاضطراب لما منعهم كفار قريش من دخول بيت اللَّه، وحبسوا الهدي عن محله، واشترطوا عليهم تلك الشروط الجائرة الظالمة، فاضطربت قلوبهم وقلقت، ولم تطق الصبر، فعلم تعالى ما فيها، فثبتها بالسكينة رحمة منه ورأفة ولطفًا، وهو اللطيف الخبير. وتحتمل الآية وجها آخر، وهو أنه سبحانه علم ما في قلوبهم من الإيمان والخير

---

(١) الفتح: الآية (١٨).

ومحبته ومحبة رسوله، فثبتها بالسكينة وقت قلقها واضطرابها. والظاهر أن الآية تعم الأمرين، وهو أنه علم ما في قلوبهم مما يحتاجون معه إلى إنزال السكينة، وما في قلوبهم من الخير الذي هو سبب إنزالها، ثم قال بعد ذلك: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾[1] لما كانت حمية الجاهلية توجب من الأقوال والأعمال ما يناسبها، جعل اللَّه في قلوب أوليائه سكينة تقابل حمية الجاهلية، وفي ألسنتهم كلمة التقوى مقابلة لما توجبه حمية الجاهلية من كلمة الفجور، فكان حظ المؤمنين السكينة في قلوبهم، وكلمة التقوى على ألسنتهم، وحظ أعدائهم حمية الجاهلية في قلوبهم وكلمة الفجور والعدوان على ألسنتهم، فكانت هذه السكينة وهذه الكلمة جندًا من جند اللَّه أيّد بها اللَّه رسوله والمؤمنين في مقابلة جند الشيطان الذي في قلوب أوليائه وألسنتهم، وثمرة هذه السكينة الطمأنينة للخبر تصديقًا وإيقانًا، وللأمر تسليمًا وإذعانًا، فلا تدع شبهة تعارض الخبر ولا إرادة تعارض الأمر، فلا تمر معارضات السوء بالقلب إلا وهي مجتازة من مرور الوساوس الشيطانية التي يبتلى بها العبد ليقوى إيمانه، ويعلو عند اللَّه ميزانه، بمدافعتها وردها وعدم السكون إليها، فلا يظن المؤمن أنها لنقص درجته عند اللَّه.

فصل السكينة عند القيام بوظائف العبودية:

ومنها السكينة عند القيام بوظائف العبودية، وهي التي تورث الخضوع والخشوع وغض الطرف وجمعية القلب على اللَّه تعالى؛ بحيث يؤدي عبوديته بقلبه وبدنه، والخشوع نتيجة هذه السكينة وثمرتها وخشوع الجوارح نتيجة خشوع القلب..

فإن قلت: قد ذكرت أقسامها ونتيجتها وثمرتها وعلاماتها، فما أسبابها الجالبة لها؟

الأسباب المؤدية إلى السكينة:

قلت: سببها استيلاء مراقبة العبد لربه جل جلاله حتى كأنه يراه، وكلما اشتدت هذه المراقبة أوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة والخضوع والخشوع والخوف

---

(١) الفتح: الآية (٢٦).

والرجاء ما لا يحصل بدونها؛ فالمراقبة أساس الأعمال القلبية كلها، وعمودها الذي قيامها به، ولقد جمع النبي ﷺ أصول أعمال القلب وفروعها كلها في كلمة واحدة، وهي قوله في الإحسان: «**أن تعبد اللَّه كأنك تراه**»[١]، فتأمل كل مقام من مقامات الدين، وكل عمل من أعمال القلوب، كيف تجد هذا أصله ومنبعه؟

والمقصود أن العبد محتاج إلى السكينة عند الوساوس المعترضة في أصل الإيمان ليثبت قلبه ولا يزيغ، وعند الوساوس والخطرات القادحة في أعمال الإيمان لئلاّ تقوى وتصير همومًا وغمومًا وإرادات ينقص بها إيمانه، وعند أسباب المخاوف على اختلافها ليثبت قلبه ويسكن جأشه، وعند أسباب الفرح لئلاّ يطمح به مركبه فيجاوز الحدّ الذي لا يُعبَر، فينقلب ترحًا وحزنًا، وكم ممن أنعم اللَّه عليه بما يفرحه فجمح به مركب الفرح وتجاوز الحدّ فانقلب ترحًا عاجلًا! ولو أعين بسكينة تعدل فرحه لأُريد به الخير، وباللَّه التوفيق. وعند هجوم الأسباب المؤلمة على اختلافها الظاهرة والباطنة، فما أحوجه إلى السكينة حينئذ، وما أنفعها له، وأجداها عليه، وأحسن عاقبتها!

والسكينة في هذه المواطن علامة على الظَّفَر، وحصول المحبوب، واندفاع المكروه. وفقدها علامة على ضد ذلك، لا يخطئ هذا ولا هذا، واللَّه المستعان»[٢].

* * *

(١) جزء من حديث طويل أخرجه: أحمد (١/ ٥١)، ومسلم (١/ ٣٦-٣٨/ ٨)، وأبو داود (٥/ ٦٩-٧٣/ ٤٦٩٥)، والترمذي (٥/ ٨-٩/ ٢٦١٠)، والنسائي (٨/ ٤٧٥/ ٥٠٠٥)، وابن ماجه (١/ ٢٤/ ٦٣) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) إعلام الموقعين (٤/ ٢٠١-٢٠٣).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أنصار ينتقم بهم ممن يشاء من أعدائه، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: ولم يزل اللَّه ذا علم بما هو كائن قبل كونه، وما خلقه عاملوه، ﴿حَكِيمًا﴾ في تدبيره»[1].

وقال ابن كثير: «ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين، فقال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي: ولو أرسل عليهم ملكًا واحدًا لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال، لما له في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة القاطعة، والبراهين الدامغة؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾»[2].

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ إشارة إلى تسكين النفوس أيضًا وأن تكون مسلمة؛ لأنه ينصر متى شاء وعلى أي صورة شاء مما لا يدبره البشر، ومن جنده (السكينة) التي أنزلها في قلوب أصحاب محمد فثبت بصائرهم»[3].

قال السعدي: «وقوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي: جميعها في ملكه، وتحت تدبيره وقهره، فلا يظن المشركون أن اللَّه لا ينصر دينه ونبيه، ولكنه تعالى عليم حكيم، فتقتضي حكمته المداولة بين الناس في الأيام، وتأخير نصر المؤمنين إلى وقت آخر»[4].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن له جنود السموات

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٧٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣١١).
(٣) المحرر الوجيز (٥/ ١٢٧).
(٤) تفسير السعدي (٧/ ٩٣).

والأرض، وبيّن في (المدّثر) أن جنوده هذه لا يعلمها إلا هو، وذلك في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[1][2].

* * *

(١) المدثر: الآية (٣١).
(٢) أضواء البيان (٧/ ٦٠٤).

قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا لتشكر ربك، وتحمده على ذلك، فيغفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر، وليحمد ربهم المؤمنون باللَّه، ويشكروه على إنعامه عليهم بما أنعم به عليهم من الفتح الذي فتحه، وقضاه بينهم وبين أعدائهم من المشركين، بإظهاره إياهم عليهم، فيدخلهم بذلك جنات تجري من تحتها الأنهار، ماكثين فيها إلى غير نهاية، وليكفر عنهم سيئ أعمالهم بالحسنات التي يعملونها شكرًا منهم لربهم على ما قضى لهم، وأنعم عليهم به، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، يقول -تعالى ذكره-: وكان ما وعدهم اللَّه به من هذه العدة، وذلك إدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وتكفيره سيئاتهم بحسنات أعمالهم التي يعملونها عند اللَّه لهم ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾، يقول: ظفرًا منهم بما كانوا تأمّلوه ويسعون له، ونجاة مما كانوا يحذرونه من عذاب اللَّه عظيمًا»[1].

قال السعدي: «فهذا أعظم ما يحصل للمؤمنين، أن يحصل لهم المرغوب المطلوب بدخول الجنات، ويزيل عنهم المحذور بتكفير السيئات. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الجزاء المذكور للمؤمنين ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، فهذا ما يفعل بالمؤمنين في ذلك الفتح المبين»[2].

قال الشنقيطي: «أظهر الأقوال وأصحها في الآية أن (اللام) في قوله: ﴿لِّيُدْخِلَ﴾ متعلقة بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

وإيضاح المعنى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ أي: السكون والطمأنينة إلى الحق، ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟﴾ بذلك ﴿إِيمَٰنًا﴾ لأجل أن يدخلهم بالطمأنينة إلى الحق،

(١) جامع البيان (٢٦/ ٧٢).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٩٤).

وازدياد الإيمان ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾»[١].

قال ابن كثير: «﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: ماكثين فيها أبدًا، ﴿وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ﴾ أي: خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح ويغفر، ويستر ويرحم ويشكر، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾، كقوله: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾[٢]»[٣].

قال ابن عاشور: «وذكر المؤمنات مع المؤمنين هنا لدفع توهم أن يكون الوعد بهذا الإدخال مختصًا بالرجال. وإذ كانت صيغة الجمع صيغة المذكر مع ما قد يؤكد هذا التوهم من وقوعه علة أو علةَ علةٍ للفتح وللنصر وللجنود، وكلها من ملابسات الذكور، وإنما كان للمؤمنات حظ في ذلك لأنهن لا يخلون من مشاركة في تلك الشدائد ممن يقمن منهن على المرضى والجرحى وسقي الجيش وقت القتال، ومن صبر بعضهن على الثُّكل أو التأيم، ومن صبرهن على غيبة الأزواج والأبناء وذوي القرابة. والإشارة في قوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ إلى المذكور من إدخال اللَّه إياهم الجنة. والمراد بإدخالهم الجنة إدخال خاص؛ وهو إدخالهم منازل المجاهدين، وليس هو الإدخال الذي استحقوه بالإيمان وصالح الأعمال الأخرى»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحًا مُّبِينًا ۝١﴾ قال: «الحديبية. قال أصحابه: هنيئًا مريئًا، فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾»[٥].

★ غريب الحديث:

هنيئًا: لا إثم فيه.

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٦٠٤-٦٠٥).
(٢) آل عمران: الآية (١٨٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣١١).
(٤) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٥٢).
(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ١٢٢-٢١٥)، والبخاري (٧/ ٥٧٢/ ٤١٧٢) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٤١٣/ ١٧٨٦)، والترمذي (٥/ ٣٥٩-٣٦٠/ ٣٢٦٣) وقال: «حسن صحيح».

مريئًا : لا داء فيه .

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن جرير : «هذه الآية نزلت لما قال المؤمنون لرسول اللَّه ﷺ، أو تلا عليهم قول اللَّه ﷻ : ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ : هذا لك يا رسول الله! فماذا لنا؟ تبيينًا من اللَّه لهم ما هو فاعل بهم»[1] .

* * *

(١) جامع البيان (٢٦/ ٧٢).

قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا ليغفر لك اللَّه، وليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار، وليعذّب المنافقين والمنافقات، بفتح اللَّه لك يا محمد، ما فتح لك من نصرك على مشركي قريش، فيكبتوا لذلك ويحزنوا، ويخيب رجاؤهم الذي كانوا يرجون من رؤيتهم في أهل الإيمان بك من الضعف والوهن والتولي عنك في عاجل الدنيا، وصلي النار والخلود فيها في آجل الآخرة، ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ يقول: وليعذّب كذلك أيضًا المشركين والمشركات ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ﴾ أنه لن ينصرك، وأهل الإيمان بك على أعدائك، ولن يظهر كلمته فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به، وذلك كان السوء من ظنونهم التي ذكرها اللَّه في هذا الموضع، يقول -تعالى ذكره-: على المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات الذين ظنوا هذا الظن دائرة السوء، يعني دائرة العذاب تدور عليهم به. .

وقوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: ونالهم اللَّه بغضب منه، ولعنهم: يقول: وأبعدهم فأقصاهم من رحمته، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ يقول: وأعدّ لهم جهنم يصلونها يوم القيامة، ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ يقول: وساءت جهنم منزلًا يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات، والمشركون والمشركات»[١].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾؛ أي: يتهمون اللَّه في حكمه، ويظنّون بالرسول ﷺ وأصحابه أن

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٧٣).

يقتلوا ويذهبوا بالكلية، ولهذا قال: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾؛ أي: أبعدهم من رحمته، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾»[١].

قال المراغي: «وإنما قدم المنافقين على المشركين؛ لأنهم كانوا أشد ضررًا على المؤمنين من الكفار المجاهرين؛ لأن المؤمن كان يتوقى المجاهر، ويخالط المنافق لظنه إيمانه، وكان يفشي سره إليه، وفي هذا دلالة على أنهم أشد منهم عذابًا، وأحق منهم بما أوعدهم اللَّه به.

والخلاصة: إن الفريقين ظنوا أن اللَّه لا ينصر رسوله ولا المؤمنين على الكافرين.

وقد دعا سبحانه عليهم بأن ينزل بهم ما كانوا يظنونه بالمؤمنين من الدوائر وأحداث الزمان فقال: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ﴾ أي: عليهم تدور الدوائر، وسيحيق بهم ما كانوا يتربصونه بالمؤمنين من قتل وسبي وأسر لا يتخطاهم.

ثم بين ما يستحقونه من الغضب واللعنة فقال: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: ونالهم غضب من اللَّه وأبعدهم فأقصاهم من رحمته، وأعد لهم جهنم يصلونها يوم القيامة، وساءت منزلًا يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات»[٢].

قال ابن عاشور: «الحديث عن جنود اللَّه في معرض ذكر نصر اللَّه يقتضي لا محالة فريقًا مهزومًا بتلك الجنود وهم العدو، فإذا كان النصر الذي قدره اللَّه معلولًا بما بشر به المؤمنين فلا جرم اقتضى أنه معلول بما يسوء العدو وحزبه، فذكر اللَّه من علة ذلك النصر أنه يعذب بسببه المنافقين حزبَ العدو، والمشركين صميم العدو، فكان قوله: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ معطوفًا على ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾[٣]. والمراد: تعذيب خاص زائد على تعذيبهم الذي استحقوه بسبب الكفر والنفاق، وقد أومأ إلى ذلك قوله بعده: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ﴾. والابتداء بذكر المنافقين في التعذيب قبل المشركين لتنبيه المسلمين بأن كفر المنافقين خفيّ، فربما غفل المسلمون عن هذا الفريق أو نسوه. كان المنافقون لم يخرج منهم أحد إلى فتح

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣١١).
(٢) تفسير المراغي (٢٦/ ٨٦-٨٧).
(٣) الفتح: الآية (٥).

مكة، ولا إلى عمرة القضية؛ لأنهم لا يحبون أن يراهم المشركون متلبسين بأعمال المسلمين مظاهرين لهم، ولأنهم كانوا يحسبون أن المشركين يدافعون المسلمين عن مكة وأنه يكون النصر للمشركين. والتعذيب: إيصال العذاب إليهم، وذلك صادق بعذاب الدنيا بالسيف، كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾[1] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[2]، وبالوَجل، وحذَر الافتضاح، وبالكمد من رؤية المؤمنين منصورين سالمين، قال تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾[3] وقال: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾[4]، وصادق بعذاب الآخرة، وهو ما خص بالذكر في آخر الآية بقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾. وعطف (المنافقات) نظير عطف (المؤمنات) المتقدم؛ لأن نساء المنافقين يشاركنهم في أسرارهم، ويحضون ما يبيتونه من الكيد، ويهيئون لهم إيواء المشركين إذا زاروهم. وقوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ﴾ صفة للمذكورين من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، فإن حق الصفة الواردة بعد متعدد أن تعود إلى جميعه ما لم يكن مانع لفظي أو معنوي. و(السَّوْء) بفتح السين في قوله: ﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ في قراءة جميع العشرة، وأما في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ فهو في قراءة الجمهور بالفتح أيضًا. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وحده بضم السين. والمفتوح والمضموم مترادفان في أصل اللغة، ومعناهما: المكروه، ضد السرور. فهما لغتان، مثل: الكَره والكُره، والضَّعف والضُّعف، والضَّر والضُّر، والبَأس والبُؤس. هذا عن الكسائي وتبعه الزمخشري، وبينه الجوهري بأن المفتوح مصدر والمضموم اسم مصدر، إلا أن الاستعمال غلب المفتوح في أن يقع وصفًا لمذموم مضافًا إليه موصوفه، كما وقع في هذه الآية وفي قوله: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾[5] في سورة (براءة)، وغلب المضموم في معنى الشيء الذي هو بذاته شرّ»[6].

قال الشنقيطي: «وهذه الآية شبيهة في المعنى بقوله تعالى في آخر (الأحزاب): ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ

(١) التوبة: الآية (١٤).
(٢) التوبة: الآية (٧٣)، التحريم: الآية (٩).
(٣) آل عمران: الآية (١١٩).
(٤) التوبة: الآية (٥٠).
(٥) التوبة: الآية (٩٨).
(٦) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٥٢-١٥٣).

وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ﴾[(١)]»[(٢)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «أعظم الذنوب عند اللَّه إساءة الظن به؛ فإن المسيء به الظنَّ قد ظن به خلاف كماله المقدس، وظنّ به ما يناقض أسماءه وصفاته، ولهذا توعّد اللَّه سبحانه الظانّين به ظنّ السوء بما لم يتوعّد به غيرهم، كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾»[(٣)].

وقال أيضًا: «وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون به سبحانه وتعالى في سورة (الفتح) حيث يقول: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

وإنما كان هذا ظن السوء، وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظن غير الحق؛ لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وذاته المبرأة من كل عيب وسوء، بخلاف ما يليق بحكمته وحمده، وتفرده بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يُخلفه، وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا يخذلهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون، فمن ظن بأنه لا ينصر رسوله، ولا يُتمّ أمرَه، ولا يؤيّده، ويؤيد حزبه، ويُعليهم، ويُظفرهم بأعدائه، ويُظهرهم عليهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يُديل الشرك على التوحيد، والباطلَ على الحق إدالة مستقرة يضمحلّ معها التوحيد والحق اضمحلالًا لا يقوم بعده أبدًا، فقد ظنّ باللَّه ظن السوء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله، وصفاته ونعوته، فإن حمده وعزته، وحكمته وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يَذِلّ حزبُه وجنده، وأن تكون النصرة المستقرة، والظفرُ الدائم لأعدائه المشركين به، العادلين به، فمن ظن به ذلك، فما عرفه، ولا عرف أسماءه، ولا عرف صفاته وكماله، وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره، فما عرفه، ولا عرف ربوبيته، وملكه وعظمته، وكذلك من أنكر أن يكون قدّر ما قدّره من ذلك وغيره لحكمة بالغة، وغاية محمودة يستحق الحمد عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة، وغاية مطلوبة هي أحب

---

(١) الأحزاب: الآيتان (٧٢و٧٣).
(٢) أضواء البيان (٧/ ٦٠٥).
(٣) الداء والدواء (ص: ٢١١).

إليه من فوتها، وأن تلك الأسباب المكروهة المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة لإفضائها إلى ما يحب، وإن كانت مكروهة له، فما قدّرها سدىً، ولا أنشأها عبثًا، ولا خلقها باطلًا، ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[١]، وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم عن ذلك إلا من عرف الله، وعرف أسماءه وصفاته، وعرف موجب حمده وحكمته، فمن قنط من رحمته، وأيس من رَوحه؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن جوّز عليه أن يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم، ويسوّي بينهم وبين أعدائه؛ فقد ظنّ به ظن السوء.

ومن ظنّ به أن يترك خلقه سدىً، معطّلين عن الأمر والنهي، ولا يرسل إليهم رسله، ولا ينزّل عليهم كتبه، بل يتركهم هملًا كالأنعام؛ فقد ظنّ به ظنّ السوء.

ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازي المحسن فيها بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويبيّن لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه يضيّع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصًا لوجهه الكريم على امتثال أمره، ويبطله عليه بلا سبب من العبد، أو أنه يعاقبه بما لا صنع فيه، ولا اختيار له، ولا قدرة، ولا إرادة في حصوله، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به، أو ظنّ به أنه يجوز عليه أن يؤيّد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه ورسله، ويجريها على أيديهم يضلون بها عباده، وأنه يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته، فيخلده في الجحيم أسفل السافلين، وينعم من استنفد عمره في عداوته وعداوة رسله ودينه، فيرفعه إلى أعلى عليين، وكلا الأمرين عنده في الحسن سواء، ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق، وإلا فالعقل لا يقضي بقبح أحدهما وحسن الآخر؛ فقد ظن به ظنّ السوء.

ومن ظنّ به أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل، وتشبيه، وتمثيل، وترك الحق، لم يخبر به، وإنما رمز إليه رموزًا بعيدة، وأشار إليه إشارات ملغِزة لم يصرح به، وصرح دائمًا بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خلقه أن

---

(١) ص: الآية (٢٧).

يُتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه، وتأويله على غير تأويله، ويتطلّبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة، والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالكشف والبيان، وأحالهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم، لا على كتابه، بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على ما يعرفون من خطابهم ولغتهم، مع قدرته على أن يصرّح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، ويريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل، فلم يفعل، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان؛ فقد ظن به ظن السوء، فإنه إن قال: إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذي عبّر به هو وسلفه، فقد ظن بقدرته العجز، وإن قال: إنه قادر ولم يبيّن، وعدل عن البيان، وعن التصريح بالحق إلى ما يوهم، بل يوقع في الباطل المحال، والاعتقاد الفاسد، فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء، وظن أنه هو وسلفه عبّروا عن الحق بصريحه دون اللّٰه ورسوله، وأن الهدى والحق في كلامهم وعباراتهم. وأما كلام اللّٰه، فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه، والتمثيل، والضلال، وظاهر كلام المتهوّكين الحيارى، هو الهدى والحق، وهذا من أسوإ الظن باللّٰه، فكل هؤلاء من الظانّين باللّٰه ظن السوء، ومن الظانين به غير الحق ظن الجاهلية.

ومن ظن به أن يكون في ملكه ما لا يشاء ولا يقدر على إيجاده وتكوينه؛ فقد ظنّ به ظنّ السوء.

ومن ظن به أنه كان معطَّلًا من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل، ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل، ثم صار قادرًا عليه بعد أن لم يكن قادرًا؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه لا يسمع ولا يبصر، ولا يعلم الموجودات، ولا عدد السموات والأرض، ولا النجوم، ولا بني آدم وحركاتهم وأفعالهم، ولا يعلم شيئًا من الموجودات في الأعيان؛ فقد ظنّ به ظنّ السوء.

ومن ظنّ أنه لا سمع له، ولا بصر، ولا علم له، ولا إرادة، ولا كلام يقول به، وأنه لم يكلّم أحدًا من الخلق، ولا يتكلّم أبدًا، ولا قال ولا يقول، ولا له أمر ولا نهي يقوم به؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظنّ به أنه فوق سماواته على عرشه بائنًا من خلقه، وأن نسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل السافلين، وإلى الأمكنة التي يُرغب عن ذكرها، وأنه أسفل، كما أنه أعلى؛ فقد ظنّ به أقبح الظنّ وأسوأه.

ومن ظن به أنه يحب الكفر، والفسوق، والعصيان، ويحب الفساد كما يحب الإيمان، والبر، والطاعة، والإصلاح؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه لا يحب ولا يرضى، ولا يغضب ولا يسخط، ولا يوالي ولا يعادي، ولا يقرب من أحد من خلقه، ولا يقرب منه أحد، وأن ذوات الشياطين في القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المفلحين؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه يسوي بين المتضادين، أو يفرّق بين المتساويين من كل وجه، أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات في النار أبد الآبدين بتلك الكبيرة، ويحبط بها جميع طاعاته ويخلّده في العذاب، كما يخلد من لا يؤمن به طرفة عين، وقد استنفد ساعات عمره في مساخطه ومعاداة رسله ودينه؛ فقد ظن به ظنّ السوء.

وبالجملة فمن ظنّ به خلاف ما وصف به نفسه ووصفه به رسله، أو عطّل حقائق ما وصف به نفسه، ووصفته به رسله؛ فقد ظنّ به ظنّ السوء.

ومن ظنّ أن له ولدًا، أو شريكًا أو أن أحدًا يشفع عنده بدون إذنه، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقرّبون بهم إليه، ويتوسلون بهم إليه، ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه، فيدعونهم، ويحبونهم كحبه، ويخافونهم ويرجونهم؛ فقد ظنّ به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته ومخالفته، كما يناله بطاعته والتقرب إليه؛ فقد ظنّ به خلاف حكمته وخلاف موجب أسمائه وصفاته، وهو من ظن السوء.

ومن ظنّ به أنه إذا ترك لأجله شيئًا لم يعوّضه خيرًا منه، أو من فعل لأجله شيئًا لم يُعطه أفضلَ منه؛ فقد ظنّ به ظنّ السوء.

ومن ظنّ به أنه يغضب على عبده، ويعاقبه ويحرمه بغير جُرم، ولا سبب من العبد إلا بمجرد المشيئة، ومحض الإرادة؛ فقد ظنّ به ظنّ السوء.

ومن ظنّ به أنه إذا صدقه في الرغبة والرهبة، وتضرّع إليه، وسأله، واستعان به، وتوكّل عليه أنه يخيّبه ولا يعطيه ما سأله؛ فقد ظنّ به ظنّ السوء، وظنّ به خلاف ما هو أهله.

ومن ظنّ به أنه يثيبه إذا عصاه بما يثيبه به إذا أطاعه، وسأله ذلك في دعائه؛ فقد ظنّ به خلاف ما تقتضيه حكمته وحمده، وخلاف ما هو أهله وما لا يفعله.

ومن ظن به أنه إذا أغضبه، وأسخطه، وأوضع في معاصيه، ثم اتخذ من دونه وليًا، ودعا من دونه ملكًا أو بشرًا حيًا، أو ميتًا يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه، ويخلّصه من عذابه؛ فقد ظنّ به ظنّ السوء، وذلك زيادة في بعده من اللَّه، وفي عذابه.

ومن ظنّ به أنه يسلّط على رسوله محمد ﷺ أعداءه تسليطًا مستقرًا دائمًا في حياته وفي مماته، وابتلاه بهم لا يفارقونه، فلما مات استبدّوا بالأمر دون وصية، وظلموا أهل بيته، وسلبوهم حقهم، وأذلوهم، وكانت العزة والغلبة والقهر لأعدائه وأعدائهم دائمًا من غير جرم ولا ذنب لأوليائه وأهل الحق، وهو يرى قهرهم لهم، وغصبهم إياهم حقّهم، وتبديلهم دين نبيهم، وهو يقدر على نصرة أوليائه وحزبه وجنده، ولا ينصرهم ولا يديلهم، بل يديل أعداءهم عليهم أبدًا، أو أنه لا يقدر على ذلك، بل حصل هذا بغير قدرته ولا مشيئته، ثم جعل المبدلين لدينه مضاجعيه في حفرته، تسلّم أمته عليه وعليهم كل وقت كما تظنه الرافضة؛ فقد ظنّ به أقبح الظنّ وأسوأه، سواءً قالوا: إنه قادر على أن ينصرهم، ويجعل لهم الدولة والظفر، أو أنه غير قادر على ذلك، فهم قادحون في قدرته، أو في حكمته وحمده، وذلك من ظن السوء به، ولا ريب أن الرب الذي فعل هذا بغيض إلى من ظنّ به ذلك غير محمود عندهم، وكان الواجب أن يفعل خلاف ذلك، لكن رَفَوا هذا الظن الفاسد بخرق أعظم منه، واستجاروا من الرمضاء بالنار، فقالوا: لم يكن هذا بمشيئة اللَّه، ولا له قدرة على دفعه ونصر أوليائه، فإنه لا يقدر على أفعال عباده، ولا هي داخلة تحت قدرته، فظنّوا به ظنّ إخوانهم المجوس والثَّنَوية بربهم، وكل مبطل، وكافر، ومبتدع مقهور مستذل، فهو يظن بربه هذا الظن، وأنه أولى بالنصر والظفر، والعلو من خصومه، فأكثر الخلق، بل كلهم إلا من شاء اللَّه يظنون باللَّه غير الحق ظنّ السوء، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق، ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه اللَّه، ولسان حاله يقول: ظلمني ربي، ومنعني ما أستحقه، ونفسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكره ولا يتجاسر على التصريح به، ومن فتّش نفسه، وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها؛ رأى ذلك فيها كامنًا كُمون النار في الزناد، فاقدح زناد من شئت ينبئك شَرارُه عما في زناده، ولو فتّشت من فتشته؛ لرأيت عنده تعتّبًا على القدر وملامة له، واقتراحًا عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقلّ ومستكثر، وفتّش نفسك هل أنت سالم من ذلك.

فإن تنجُ منها تنج من ذي عظيمةٍ وإلاّ فإنّي لا إخالك ناجيا

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وليتب إلى اللّه تعالى وليستغفره كل وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليظنّ السوء بنفسه التي هي مأوى كل سوء، ومنبع كل شر، المركبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظنّ السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين، الغني الحميد، الذي له الغنى التام، والحمد التام، والحكمة التامة، المنزه عن كل سوء في ذاته وصفاته، وأفعاله وأسمائه، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك، وأفعاله كذلك، كلها حكمة ومصلحة، ورحمة وعدل، وأسماؤه كلها حسنى.

فلا تظنُنْ بربّك ظن سَوءٍ ولا تظنن بنفسك قطّ خيرًا
وقل يا نفس مأوى كل سُوءٍ وظُنّ بنفسك السوآى تجدْها
وما بك من تقىً فيها وخيرٍ وليس بها ولا منها ولكن
فإنّ اللّه أولى بالجميلِ وكيف بظالم جانٍ جهولِ
أيُرجى الخير من مَيتٍ بخيلِ كذاك وخيرُها كالمستحيلِ
فتلك مواهبُ الربّ الجليلِ من الرحمن فاشكر للدليلِ»[1].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾: بيّن -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة، أنه يجازي المشركين والمشركات والمنافقين والمنافقات بثلاث عقوبات وهي غضبه، ولعنته، ونار جنهم.

وقد بيّن في بعض الآيات بعض نتائج هذه الأشياء الثلاثة، كقوله في الغضب: ﴿وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾[2]. وقوله في اللعنة: ﴿وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾[3] وقوله في نار جهنم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾[4] الآية»[5].

* * *

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٢٨-٢٣٦).
(٢) طه: الآية (٨١).
(٣) النساء: الآية (٥٢).
(٤) آل عمران: الآية (١٩٢).
(٥) أضواء البيان (٧/ ٦٠٥).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ يقول -جل ثناؤه-: ولله جنود السموات والأرض أنصارًا على أعدائه، إن أمرهم بإهلاكهم أهلكوهم، وسارعوا إلى ذلك بالطاعة منهم له، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: ولم يزل اللَّه ذا عزّة، لا يغلبه غالب، ولا يمتنع عليه مما أراده به ممتنع، لعظم سلطانه وقدرته، حكيم في تدبيره خلقه»[1].

وقال ابن كثير: «ثم قال مؤكّدًا لقدرته على الانتقام من الأعداء أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾»[2].

وقال السعدي: «كرّر الإخبار بأن له ملك السموات والأرض وما فيهما من الجنود، ليعلم العباد أنه تعالى هو المعز المذل، وأنه سينصر جنوده المنسوبة إليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾[3].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: قويًا غالبًا، قاهرًا لكل شيء، ومع عزته وقوته فهو حكيم في خلقه وتدبيره، يجري على ما تقتضيه حكمته وإتقانه»[4].

قال ابن عطية: «﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فذكر صفة العزة من حيث تقدم الانتقام من الكفار، وفي التي قبل قرن بالحكمة والعلم من حيث وعده بمغيبات، وقرن باللفظتين ذكر جنود اللَّه تعالى التي منها السكينة ومنها نقمة من المنافقين والمشركين، فلكل لفظ وجه من المعنى»[5].

* * *

(١) جامع البيان (٢٦/ ٧٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣١١).
(٣) الصافات: الآية (١٧٣).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٩٥).
(٥) المحرر الوجيز (٥/ ١٢٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿شَٰهِدًا﴾ على أمتك بما أجابوك فيما دعوتهم إليه، مما أرسلتك به إليهم من الرسالة، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لهم بالجنة إن أجابوك إلى ما دعوتهم إليه من الدين القيم، ﴿وَنَذِيرًا﴾ لهم عذاب اللَّه إن هم تولّوا عما جئتهم به من عند ربك»(١).

وقال ابن كثير: «يقول تعالى لنبيه محمد صلوات اللَّه وسلامه عليه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾؛ أي: على الخلق، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾؛ أي: للمؤمنين، ﴿وَنَذِيرًا﴾؛ أي: للكافرين»(٢).

وقال ابن عاشور: «لما أريد الانتقال من الوعد بالفتح والنصر وما اقتضاه ذلك مما اتصل به ذِكره، إلى تبيين ما جرى في حادثة الحديبية، وإبلاغ كل ذي حظ من تلك القضية نصيبه المستحق ثناء أو غيره، صدر ذلك بذكر مراد اللَّه من إرسال رسوله ﷺ؛ ليكون ذلك كالمقدمة للقصة، وذكرت حكمة اللَّه تعالى في إرساله ما له مزيد اختصاص بالواقعة المتحدث عنها، فذكرت أوصاف ثلاثة هي: شاهد، ومبشر، ونذير. وقدم منها وصف الشاهد لأنه يتفرع عنه الوصفان بعده.

فالشاهد: المخبر بتصديق أحد أو تكذيبه فيما ادعاه أو ادُّعي به عليه، وتقدم في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾(٣) في سورة (النساء)، وقوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(٤) في سورة (البقرة).

فالمعنى: أرسلناك في حال أنك تشهد على الأمة بالتبليغ، بحيث لا يعذر المخالفون عن شريعتك فيما خالفوا فيه، وتشهد على الأمم، وهذه الشهادة حاصلة

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٧٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣١٢).

(٣) النساء: الآية (٤١).

(٤) البقرة: الآية (١٤٣).

في الدنيا وفي يوم القيامة»[١].

وقال السعدي: «أي: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿شَٰهِدٗا﴾ لأمتك بما فعلوه من خير وشر، وشاهدًا على المقالات والمسائل، حقها وباطلها، وشاهدًا لله تعالى بالوحدانية والانفراد بالكمال من كل وجه، ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ من أطاعك وأطاع اللَّه بالثواب الدنيوي والديني والأخروي، ونذيرًا لمن عصى اللَّه بالعقاب العاجل والآجل، ومن تمام البشارة والنذارة، بيان الأعمال والأخلاق التي يبشر بها وينذر، فهو المبين للخير والشر، والسعادة والشقاوة، والحق من الباطل»[٢].

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ بيّن -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة، أنه أرسل نبيه محمدًا ﷺ شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا.

وقد بين تعالى أنه يبعثه ﷺ يوم القيامة شاهدًا على أمته، وأنه مبشر للمؤمنين ومنذر للكافرين. قال تعالى في شهادته ﷺ يوم القيامة على أمته: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾[٤].

فآية (النساء) وآية (النحل) المذكورتان الدالتان على شهادته ﷺ يوم القيامة على أمته تبينان آية (الفتح) هذه.

وما ذكرنا من أنه مبشر للمؤمنين ونذير للكافرين أوضحه في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾﴾[٥].

وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة، ذكره وزيادة في سورة (الأحزاب) في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾﴾[٦]»[٧].

قال ابن عاشور: «وقد وقع في سورة (الأحزاب) نظير هذه الآية، وهو قوله:

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٥٥).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٩٥).
(٣) النساء: الآية (٤١).
(٤) النحل: الآية (٨٩).
(٥) مريم: الآية (٩٧).
(٦) الأحزاب: الآيتان (٤٥و٤٦).
(٧) أضواء البيان (٧/ ٦٠٥-٦٠٦).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾، فزيد في صفات النبي ﷺ هنالك: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝﴾، ولم يذكر مثله في الآية هذه التي في سورة (الفتح). ووجه ذلك أن هذه الآية التي في سورة (الفتح) وردت في سياق إبطال شك الذين شكوا في أمر الصلح، والذين كذبوا بوعد الفتح والنصر، والثناءِ على الذين اطمأنوا لذلك، فاقتصر من أوصاف النبي ﷺ على الوصف الأصلي، وهو أنه شاهد على الفريقين، وكونه مبشّرًا لأحد الفريقين، ونذيرًا للآخر، بخلاف آية (الأحزاب)، فإنها وردت في سياق تنزيه النبي ﷺ عن مطاعن المنافقين والكافرين في تزوجه زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة، بزعمهم أنها زوجة ابنه، فناسب أن يزاد في صفاته ما فيه إشارة إلى التمحيص بين ما هو من صفات الكمال، وما هو من الأوهام الناشئة عن مزاعم كاذبة مثل التبنّي، فزيد كونه ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾؛ أي: لا يتبع مزاعم الناس ورغباتهم، وأنه سراج منير يهتدي به من همتُّه في الاهتداء دون التقعير»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفات الرسول ﷺ

* عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «أن هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝﴾[2] قال في التوراة: **(يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشّرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا)**»[3].

انظر غريب وفوائد هذا الحديث عند قوله تعالى من سورة (البقرة): ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا . . .﴾ الآية (١١٩)، وقوله تعالى في سورة (الأحزاب): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ . . .﴾ الآية (٤٥). وفي غيرها من المواضع.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٥٦-١٥٧).
(٢) الأحزاب: الآية (٤٥).
(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٧٤)، والبخاري (٨/ ٧٥٢/ ٤٨٣٨).

قوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تعزروه: التعزير: التوقير والتعظيم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: بسبب دعوة الرسول لكم، وتعليمه لكم ما ينفعكم، أرسلناه لتقوموا بالإيمان باللَّه ورسوله، المستلزم ذلك لطاعتهما في جميع الأمور.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تعزروا الرسول ﷺ وتوقروه؛ أي: تعظموه وتجلوه، وتقوموا بحقوقه، كما كانت له المنة العظيمة برقابكم، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تسبحوا لله ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أول النهار وآخره، فذكر اللَّه في هذه الآية الحق المشترك بين اللَّه وبين رسوله، وهو الإيمان بهما، والمختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير، والمختص باللَّه، وهو التسبيح له والتقديس بصلاة أو غيرها»[1].

قال ابن جرير: «ثم اختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ فقرأ جميع ذلك عامة قرأةِ الأمصار خلا أبي جعفر المدني وأبي عمرو بن العلاء بالتاء ﴿لِّتُؤْمِنُوا﴾، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ بمعنى: لتؤمنوا باللَّه ورسوله أنتم أيها الناس. وقرأ ذلك أبو جعفر وأبو عمرو كله بالياء ﴿لِيُؤْمِنُوا﴾، ﴿ويعزروه﴾، ﴿ويوقروه﴾، ﴿ويسبحوه﴾ بمعنى: إنا أرسلناك شاهدًا إلى الخلق ليؤمنوا باللَّه ورسوله ويعزروه. والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب. .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٩٦).

وقوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويله فقال بعضهم: تجلوه وتعظموه..

وقال آخرون: معنى قوله: (ويعزروه): وينصروه، ومعنى (ويوقروه): ويفخموه..

وقال آخرون: معنى ذلك: ويعظموه[1]..

وهذه الأقوال متقاربات المعنى وإن اختلفت ألفاظ أهلها بها. ومعنى التعزير في هذا الموضع: التقوية بالنصرة والمعونة، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والتعظيم والإجلال. وقد بينا معنى ذلك بشواهده فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. فأما التوقير: فهو التعظيم والإجلال والتفخيم. وقوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ يقول: وتصلوا له، يعني لله، بالغدوات والعشيات. والهاء في قوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ من ذكر اللَّه وحده دون الرسول. وقد ذُكر أن ذلك في بعض القراءات: (ويسبحوا اللَّه بكرةً وأصيلًا»)[2].

* * *

(١) هكذا في الأصل، ولعل الصواب: ويطيعوه.

(٢) جامع البيان (٢٦/ ٧٤-٧٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ بالحديبية من أصحابك على أن لا يفرّوا عند لقاء العدوّ، ولا يولّوهم الأدبار، ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ يقول: إنما يبايعون ببيعتهم إياك الله؛ لأن اللَّه ضمن لهم الجنة بوفائهم له بذلك»[1].

قال ابن كثير: «ثم قال تعالى لرسوله ﷺ تشريفًا له وتعظيمًا وتكريمًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، كقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾[2]، ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ﴾ أي: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله ﷺ، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾[3]»[4].

قال السعدي: «هذه المبايعة التي أشار اللَّه إليها هي بيعة الرضوان، التي بايع الصحابة رضي الله عنهم فيها رسول اللَّه ﷺ على ألاّ يفروا عنه، فهي عقد خاص، من لوازمه ألا يفرّوا ولو لم يبق منهم إلا القليل، ولو كانوا في حال يجوز الفرار فيها. فأخبر تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ حقيقة الأمر أنهم ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ ويعقدون العقد معه، حتى إنه من شدة تأكده أنه قال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ﴾ أي: كأنهم بايعوا اللَّه وصافحوه بتلك المبايعة. وكل هذا لزيادة التأكيد والتقوية وحملهم على الوفاء بها»[5].

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٧٦).
(٢) النساء: الآية (٨٠).
(٣) التوبة: الآية (١١١).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣١٢).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٩٧).

وفي هذه الآية إثبات صفة اليد لله ﷻ، وانظر ما تقدم في سورة (المائدة) عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[1] الآية، وغيرها من الآيات.

* * *

(١) المائدة: الآية (٦٤).

قوله تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾

★ **غريب الآية:**

نكث: نقض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ بيعته إياك يا محمد، ونقضها فلم ينصرك على أعدائك، وخالف ما وعد ربه، ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ يقول: فإنما ينقض بيعته؛ لأنه بفعله ذلك يخرج ممن وعده اللَّه الجنة بوفائه بالبيعة، فلم يضر بنكثه غير نفسه، ولم ينكث إلا عليها، فأما رسول اللَّه ﷺ فإن اللَّه تبارك وتعالى ناصره على أعدائه، نكث الناكث منهم أو وفّى ببيعته»[(١)].

وقال ابن كثير: «﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: إنما يعود وبال ذلك على الناكث، واللَّه غني عنه، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ أي: ثوابًا جزيلًا»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الوعيد فيمن نكث بيعة

* عن جابر قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: بايعني على الإسلام، فبايعه على الإسلام، ثم جاء الغد محمومًا، فقال: أقلني، فأبى، فلما ولّى قال: «**المدينة كالكير: تنفي خبثها، وتنصع طيبها**»[(٣)].

(١) جامع البيان (٢٦/ ٧٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣١٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٦)، والبخاري (١٣/ ٢٥٤/ ٧٢١٦)، ومسلم (٢/ ١٠٠٦/ ١٣٨٣)، والترمذي (٥/ ٦٧٧/ ٣٩٢٠)، والنسائي (٧/ ١٧٠/ ٤١٩٦).

★ **غريب الحديث:**

محمومًا: نصب على الحال؛ من حُمّ الرجلُ، من الحمّى، وأحمّه اللَّه، فهو محموم.

كالكير: بكسر الكاف: المِنفخ الذي تنفخ به النار، أو الموضع المشتمل عليها.

خبثها: ما تبرزه النار من الوسخ والقذر.

تنصع: من النصوع، وهو الخلوص، والمعنى: أنها إذا أنفت الخبث تميز الطيب واستقرّ فيها.

★ **فوائد الحديث:**

قال أبو عمر: «قد كانت البيعة على وجوه: منها أنها كانت أولًا على القتال، وعلى أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأبناءهم ونساءهم؛ وعلى نحو ذلك كانت بيعة العقبة الثانية قبل الهجرة؛ ثم لما هاجر رسول اللَّه ﷺ إلى المدينة، بايع الناس على الهجرة، وقال: «**أنا بريء من كل مسلم مع مشرك**»[١]. فكان على الناس فرضًا أن ينتقلوا إلى المدينة، إذ لم يكن للإسلام دار ذلك الوقت غيرها، ويَدعُوا دار الكفر؛ وعلى هذا -واللَّه أعلم- كانت بيعة هذا الأعرابي المذكور في هذا الحديث عن الإسلام والهجرة، فلما لحقه من الوعك ما لحقه، تشاءم بالمدينة، وخرج عنها منصرفًا إلى وطنه من أهل الكفر، ولم يكن ممن رسخ الإيمان في قلبه، وربما كان من جنس الأعراب الذين قال اللَّه ﷻ فيهم: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾[٢].

ولما فتحت مكة لم يبايع رسول اللَّه ﷺ أحدًا على الهجرة، وإنما كانت البيعة على الإقامة بدار الهجرة قبل أن يفتح اللَّه على رسوله مكة، وكان المعنى في البيعة على الهجرة الإقامة بدار الهجرة وهي المدينة مع رسول اللَّه ﷺ في حياته، حتى يصرفهم فيما يحتاج إليه من غزو الكفار، وحفظ المدينة، وسائر ما يحتاج إليه؛

(١) أخرجه: أبو داود (٣/ ١٠٤/ ٢٦٤٥)، والترمذي (٤/ ١٣٢-١٣٣/ ١٦٠٤) من حديث جرير بن عبداللَّه ﷺ.
(٢) التوبة: الآية (٩٧).

وكان خروجهم راجعين إلى دار أعرابيتهم حرامًا عليهم؛ لأنهم كانوا يكونون بذلك مرتدين إلى الأعرابية من الهجرة، ومن فعل ذلك كان ملعونًا على لسان رسول اللَّه ﷺ»[١].

وقال أيضًا: «وهذا الأعرابي المذكور في حديث مالك، كان -واللَّه أعلم- ممن بايع رسول اللَّه ﷺ على المقام بدار الهجرة، فمن هنا أبى رسول اللَّه ﷺ من إقالة بيعته، وفي إباء رسول اللَّه ﷺ من إقالة البيعة، دليل على أن من العقود عقودًا إلى المرء عقدها وليس له حلها ولا نقضها، وذلك أن من عقد عقدًا يجب عقده ولا يحل نقضه، لم يجز له أن ينقضه ولم يحل له فسخه، وإن كان الأمر كان إليه في العقد، فليس إليه ذلك في النقض، وليس كل ما للإنسان عقده، له فسخه، ولم يكن لرسول اللَّه ﷺ أن يقيله بيعته؛ لأن الهجرة كانت مفترضة يومئذ، كما لم يكن له أن يبيح له شيئًا حظرته عليه الشريعة -إذا دخل فيها، ولزمته أحكامها- إلا بوحي من اللَّه، وأما من بعده فليس ذلك حكمه بوجه من الوجوه؛ لأن الوحي بعده قد انقطع ﷺ»[٢].

قال ابن بطال: «وفي هذا من الفقه أنه من عقد على نفسه أو على غيره عقدًا لله فلا يجوز له حله؛ لأن في حله خروجًا إلى معصية اللَّه، وقد أمر اللَّه بوفاء العقود»[٣].

قال الحافظ: «قوله: «**على الإسلام**» ظاهر في أن طلبه الإقالة كان فيما يتعلق بنفس الإسلام، ويحتمل أن يكون في شيء من عوارضه كالهجرة، وكانت في ذلك الوقت واجبة، ووقع الوعيد على من رجع أعرابيًّا بعد هجرته»[٤].

وقال: «قال ابن التين: إنما امتنع النبي ﷺ من إقالته لأنه لا يعين على معصية؛ لأن البيعة في أول الأمر كانت على أن لا يخرج من المدينة إلا بإذن فخروجه عصيان. قال: وكانت الهجرة إلى المدينة فرضًا قبل فتح مكة على كل من أسلم، ومن لم يهاجر لم يكن بينه وبين المؤمنين موالاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾[٥]»[٦].

---

(١) التمهيد (فتح البر ٩/ ١٨٦-١٨٧).
(٢) فتح البر (٩/ ١٨٨).
(٣) شرح البخاري (٨/ ٢٧٩).
(٤) فتح الباري (١٣/ ٢٤٧-٢٤٨).
(٥) الأنفال: الآية (٧٢).
(٦) المصدر السابق (١٣/ ٢٤٨).

وقال: «ورد في الوعيد على نكث البيعة حديث ابن عمر: «لا أعلم غدرًا أعظم من أن يبايع رجل على بيع اللَّه ورسوله ثم ينصب له القتال»[(١)]»[(٢)].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٨)، والبخاري (١٣/ ٨٥/ ٧١١١). والحديث عند مسلم (٣/ ١٣٥٩/ ١٧٣٥)، والترمذي (٤/ ١٢٢/ ١٥٨١)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٢٤/ ٨٧٣٧) دون ذكر موضع الشاهد.

(٢) فتح الباري (١٣/ ٢٥٤).

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

المخلَّفون: مفرده: المخلَّف، وهو المتروك خلف الخارج من البلد، مأخوذ من الخلف. وضده المقدم.

الأعراب: سكان البوادي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «لما حذّر من النكث ورغّب في الوفاء؛ أتبع ذلك بذكر التخلف عن الانضمام إلى جيش النبي ﷺ حين الخروج إلى عمرة الحديبية، وهو ما فعله الأعراب الذين كانوا نازلين حول المدينة وهم ست قبائل: غفار، ومُزينة، وجُهينة، وأشجع، وأسلم، والدِّيل، بعد أن بايعوه على الخروج معه، فإن رسول اللَّه ﷺ لما أراد المسير إلى العمرة؛ استنفر مَن حول المدينة منهم ليخرجوا معه فيرهبه أهل مكة فلا يصدّوه عن عمرته، فتثاقل أكثرهم عن الخروج معه»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿سَيَقُولُ لَكَ﴾ -يا محمد- الذين خلفهم اللَّه في أهليهم عن صحبتك، والخروج معك في سفرك الذي سافرت، ومسيرك الذي سرت إلى مكة معتمرًا، زائرًا بيت اللَّه الحرام إذا انصرفت إليهم، فعاتبتهم على التخلف عنك، ﴿شَغَلَتْنَآ﴾ عن الخروج معك معالجة أموالنا، وإصلاح معايشنا ﴿وَأَهْلُونَا﴾، ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ ربنا لتخلُّفنا عنك، قال اللَّه -جل ثناؤه- مكذبهم في قيلهم ذلك: يقول هؤلاء الأعراب المخلَّفون عنك ﴿بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾، وذلك مسألتهم رسول اللَّه ﷺ الاستغفار لهم،

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٦٠-١٦١).

يقول: يسألونه بغير توبة منهم ولا ندم على ما سلف منهم من معصية اللَّه في تخلفهم عن صحبة رسول اللَّه ﷺ والمسير معه، ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، يقول - تعالى ذكره- لنبيه: قل لهؤلاء الأعراب الذين يسألونك أن تستغفر لهم لتخلفهم عنك: إن أنا استغفرت لكم أيها القوم، ثم أراد اللَّه هلاككم أو هلاك أموالكم وأهليكم، أو أراد بكم نفعًا بتثميره أموالكم وإصلاحه لكم أهليكم، فمن ذا الذي يقدر على دفع ما أراد اللَّه بكم من خير أو شرّ، واللَّه لا يعازّه أحد، ولا يغالبه غالب.

وقوله: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ يقول -تعالى ذكره-: ما الأمر كما يظنّ هؤلاء المنافقون من الأعراب أن اللَّه لا يعلم ما هم عليها منطوون من النفاق، بل لم يزل اللَّه بما يعملون من خير وشرّ خبيرًا، لا يخفى عليه شيء من أعمال خلقه، سرّها وعلانيتها، وهو محصيها عليهم حتى يجازيهم بها، وكان رسول اللَّه ﷺ فيما ذُكر عنه حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمرًا استنفر العرب ومن حول مدينته من أهل البوادي والأعراب ليخرجوا معه حذرًا من قومه قريش أن يعرضوا له الحرب، أو يصدّوه عن البيت، وأحرم هو ﷺ بالعمرة، وساق معه الهدي، ليعلم الناس أنه لا يريد حربًا، فتثاقل عنه كثير من الأعراب وتخلّفوا خلافه، فهم الذين عنى اللَّه تبارك وتعالى بقوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا . . .﴾ الآية»[1].

قال الشنقيطي: «هذا الذي تضمنته هذه الآية الكريمة؛ جاء موضحًا في آيات أخر من كتاب اللَّه، كقوله تعالى في (الأحزاب): ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾[2]، وقوله تعالى في آخر (يونس): ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾[3] الآية، وقوله في (الأنعام): ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾[4]، وقوله تعالى في (المائدة)[5]: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ

(١) جامع البيان (٢٦/ ٧٧).
(٢) الآية (١٧).
(٣) الآية (١٠٧).
(٤) الآية (١٧).
(٥) في الأصل: (النساء)، والصواب ما أثبتناه.

مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ﴾[١]، وقوله تعالى في (فاطر): ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ الآية[٢]، وقوله تعالى في (الملك): ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٨﴾[٣]»[٤].

* * *

(١) المائدة: الآية (١٧).

(٢) الآية (٢).

(٣) الآية (٢٨).

(٤) أضواء البيان (٧/ ٦٠٦-٦٠٧).

قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾

★ غريب الآية:

بورًا: هَلْكَى. وأصله من البوار: وهو فرط الكساد. ومنه امرأة بائرة؛ أي: كسدت عن الزواج. وقيل: البور: الرجل الفاسد الهالك، وهو مصدر لا يثنى ولا يجمع. قال ابن الزبعرى:

يا رسول المليك إن لساني ... راتق مَا فَتَقْتُ إذ أنا بُور

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لهؤلاء الأعراب المعتذرين إلى رسول اللَّه ﷺ عند منصرَفه من سفره إليهم بقولهم: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ ما تخلفتم خلاف رسول اللَّه ﷺ حين شخص عنكم، وقعدتم عن صحبته من أجل شغلكم بأموالكم وأهليكم، بل تخلفتم بعده في منازلكم، ظنًّا منكم أن رسول اللَّه ﷺ ومن معه من أصحابه سيهلكون، فلا يرجعون إليكم أبدًا باستئصال العدوّ إيّاهم، ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وحسَّن الشيطان ذلك في قلوبكم، وصححه عندكم حتى حسُن عندكم التخلف عنه، فقعدتم عن صحبته، ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ يقول: وظننتم أن اللَّه لن ينصر محمدًا ﷺ وأصحابه المؤمنين على أعدائهم، وأن العدوّ سيقهرونهم ويغلبونهم فيقتلونهم»[1].

قال ابن عاشور: «وظن السوء أعمّ من ظنهم أن لا يرجع الرسول ﷺ والمؤمنون؛ أي: ظننتم ظن السوء بالدين وبمن بقي من الموقنين؛ لأنهم جزموا باستئصال أهل الحديبية وأن المشركين ينتصرون ثم يغزون المدينة بمن ينضمّ إليهم من القبائل، فيُسقط في أيدي المؤمنين ويرتدون عن الدين، فذلك ظن السوء»[2].

(١) جامع البيان (٢٦/ ٧٨).
(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٦٥).

وقال السعدي: «فلولا هذا الذي في قلوبهم؛ لكان استغفار الرسول نافعًا لهم؛ لأنهم قد تابوا وأنابوا، ولكن الذي في قلوبهم، أنهم إنما تخلفوا لأنهم ظنوا باللَّه ظن السوء.

فظنوا ﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي: إنهم سيقتلون ويستأصلون، ولم يزل هذا الظن يزيد في قلوبهم، ويطمئنون إليه، حتى استحكم، وسببُ ذلك أمران:

أحدهما: أنهم كانوا ﴿قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي: هلكى، لا خير فيهم، فلو كان فيهم خير لم يكن هذا في قلوبهم.

الثاني: ضعف إيمانهم ويقينهم بوعد اللَّه، ونصر دينه، وإعلاء كلمته، ولهذا قال: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: فإنه كافر مستحق للعقاب، ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٩٨-٩٩).

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لهؤلاء المنافقين من الأعراب: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ﴾ أيها الأعراب ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ منكم ومن غيركم، فيصدّقه على ما أخبر به، ويقرّ بما جاء به من الحق من عند ربه، فإنا أعددنا لهم جميعًا ﴿سَعِيرًا﴾ من النار تستعر عليهم في جهنم إذا وردوها يوم القيامة»[(١)].

قال ابن كثير: «ثم قال: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله، فإن اللّه تعالى سيعذبه في السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر»[(٢)].

قال ابن عاشور: «وهذا الاعتراض للتحذير من استدراجهم أنفسهم في مدارج الشك في إصابة أعمال الرسول ﷺ أن يفضي بهم إلى دركات الكفر بعد الإيمان، إذ كان تخلفهم عن الخروج معه وما عللوا به تثاقلهم في نفوسهم وإظهار عذر مكذوب أضمروا خلافه، كل ذلك حومًا حول حمى الشك يوشكون أن يقعوا فيه»[(٣)].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ولله سلطان السموات والأرض، فلا أحد يقدر -أيها المنافقون- على دفعه عما أراد بكم من تعذيب على نفاقكم إن أصررتم عليه أو منعه من عفوه عنكم إن عفا، إن أنتم تبتم من نفاقكم وكفركم، وهذا من اللّه جلّ ثناؤه حثّ لهؤلاء الأعراب

(١) جامع البيان (٢٦/ ٧٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣١٩).
(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٦٥).

المتخلفين عن رسول اللَّه ﷺ على التوبة والمراجعة إلى أمر اللَّه في طاعة رسوله ﷺ، يقول لهم: بادروا بالتوبة من تخلفكم عن رسول اللَّه ﷺ؛ فإن اللَّه يغفر للتائبين، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يقول: ولم يزل اللَّه ذا عفو عن عقوبة التائبين إليه من ذنوبهم ومعاصيهم من عباده، وذا رحمة بهم أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد توبتهم منها»[1].

وقال ابن كثير: «ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السموات والأرض: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ أي: لمن تاب إليه وأناب، وخضع لديه»[2].

وقال السعدي: «أي: هو تعالى المنفرد بملك السموات والأرض، يتصرف فيهما بما يشاء من الأحكام القدرية، والأحكام الشرعية، والأحكام الجزائية، ولهذا ذكر حكم الجزاء المرتب على الأحكام الشرعية، فقال: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ وهو من قام بما أمره اللَّه به، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ ممن تهاون بأمر اللَّه، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: وصفه اللازم الذي لا ينفك عنه المغفرة والرحمة، فلا يزال في جميع الأوقات يغفر للمذنبين، ويتجاوز عن الخطائين، ويتقبل توبة التائبين، وينزل خيره المدرار، آناء الليل والنهار»[3].

* * *

(١) جامع البيان (٢٦/ ٧٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣١٩).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٩٩-١٠٠).

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: سيقول -يا محمد- المخلفون في أهليهم عن صحبتك إذا سرت معتمرًا تريد بيت اللَّه الحرام، إذا انطلقت أنت ومن صحبك في سفرك ذلك إلى ما أفاء اللَّه عليك وعليهم من الغنيمة ﴿لِتَأْخُذُوهَا﴾ وذلك ما كان اللَّه وعد أهل الحديبية من غنائم خيبر: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ إلى خيبر، فنشهد معكم قتال أهلها، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ يقول: يريدون أن يغيروا وعد اللَّه الذي وعد أهل الحديبية، وذلك أن اللَّه جعل غنائم خيبر لهم، ووعدهم ذلك عوضًا من غنائم أهل مكة إذا انصرفوا عنهم على صلح، ولم يصيبوا منهم شيئًا»[١].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن الأعراب الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة الحديبية، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه إلى خيبر يفتتحونها: أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم، فأمر اللَّه رسوله ﷺ أن لا يأذن لهم في ذلك، معاقبة لهم من جنس ذنبهم؛ فإن اللَّه تعالى وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم، لا يَشركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعًا وقدرًا، ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾، قال مجاهد وقتادة وجويبر: وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية، واختاره ابن جرير.

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٧٩-٨٠).

وقال ابن زيد: هو قوله: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾[1]»[2].

قال ابن جرير: «وهذا الذي قاله ابن زيد قول لا وجه له؛ لأن قول الله ﷻ: ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ إنما نزل على رسول الله ﷺ مُنْصَرَفَه من تبوك، وعُنِي به الذين تخلّفوا عنه حين توجه إلى تبوك لغزو الروم، ولا اختلاف بين أهل العلم بمغازي رسول الله ﷺ أن تبوك كانت بعد فتح خيبر وبعد فتح مكة أيضًا، فكيف يجوز أن يكون الأمر على ما وصفنا معنيًا بقول الله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ وهو خبر عن المتخلفين عن المسير مع رسول الله ﷺ، إذ شخص معتمرًا يريد البيت، فصدّه المشركون عن البيت، الذين تخلّفوا عنه في غزوة تبوك، وغزوة تبوك لم تكن كانت يوم نزلت هذه الآية، ولا كان أوحي إلى رسول الله ﷺ قوله: ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾.

فإذ كان ذلك كذلك، فالصواب من القول في ذلك: ما قاله مجاهد وقتادة على ما قد بيّنّا»[3].

وقال: «وقوله: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المخلفين عن المسير معك يا محمد: لن تتبعونا إلى خيبر إذا أردنا السير إليهم لقتالهم، ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ يقول: هكذا قال الله لنا من قبل مرجعنا إليكم، إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية معنا، ولستم ممن شهدها، فليس لكم أن تتّبعونا إلى خيبر؛ لأن غنيمتها لغيركم. .

وقوله: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يقول -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ وأصحابه: ما الأمر كما يقول هؤلاء المنافقون من الأعراب من أنكم إنما تمنعونهم من اتباعكم حسدًا منكم لهم على أن يصيبوا معكم من العدو مغنمًا، بل كانوا لا يفقهون عن الله

---

(١) التوبة: الآية (٨٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٢٠).

(٣) جامع البيان (٢٦/ ٨١).

ما لهم وعليهم من أمر الدين إلا قليلًا يسيرًا، ولو عقلوا ذلك ما قالوا لرسول اللَّه والمؤمنين به، وقد أخبروهم عن اللَّه -تعالى ذكره- أنه حرمهم غنائم خيبر، إنما تمنعوننا من صحبتكم إليها لأنكم تحسدوننا»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٢٦/ ٨١-٨٢).

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ عن المسير معك، ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ﴾ قتال ﴿قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ﴾ في القتال ﴿شَدِيدٍ﴾.

واختلف أهل التأويل في هؤلاء الذين أخبر اللَّه ﷻ عنهم أن هؤلاء المخلفين من الأعراب يُدعون إلى قتالهم، فقال بعضهم: هم أهل فارس. . وقال آخرون: هم هوازن بحنين. . وقال آخرون: بل هم بنو حنيفة. . وقال آخرون: لم تأت هذه الآية بعد. . وقال آخرون: هم الروم.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن اللَّه -تعالى ذكره- أخبر عن هؤلاء المخلَّفين من الأعراب أنهم سيدعون إلى قتال قوم أولي بأس في القتال، ونجدة في الحروب، ولم يوضع لنا الدليل من خبر ولا عقل على أن المعنيّ بذلك هوازن، ولا بنو حنيفة ولا فارس ولا الروم، ولا أعيان بأعيانهم، وجائز أن يكون عنى بذلك بعض هذه الأجناس، وجائز أن يكون عُني بهم غيرهم، ولا قول فيه أصح من أن يُقال كما قال اللَّه -جل ثناؤه-: إنهم سيدعون إلى قوم أولي بأس شديد.

وقوله: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره- للمخلَّفين من الأعراب: تقاتلون هؤلاء الذين تُدعون إلى قتالهم، أو يسلمون من غير حرب ولا قتال»[1].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ يعني: يشرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمرًّا عليهم، ولكم النصرة عليهم، ﴿أَوْ يُسْلِمُونَ﴾

(١) جامع البيان (٢٦/ ٨٢-٨٤).

فيدخلون في دينكم بلا قتال، بل باختيار.

ثم قال: ﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾؛ أي: تستجيبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه، ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾، يعني زمن الحديبية حيث دعيتم فتخلفتم، ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾»[1].

وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: فإن تطيعوا اللَّه في إجابتكم إياه إذا دعاكم إلى قتال هؤلاء القوم الأولي البأس الشديد، فتجيبوا إلى قتالهم والجهاد مع المؤمنين، ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ يقول: يعطكم اللَّه على إجابتكم إياه إلى حربهم الجنة، وهي الأجر الحسن، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يقول: وإن تعصوا ربكم فتدبروا عن طاعته وتخالفوا أمره، فتتركوا قتال الأولي البأس الشديد إذا دُعيتم إلى قتالهم ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يقول: كما عصيتموه في أمره إياكم بالمسير مع رسول اللَّه ﷺ إلى مكة، من قبل أن تُدعَوا إلى قتال أولي البأس الشديد ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يعني: وجيعًا، وذلك عذاب النار على عصيانكم إياه، وترككم جهادهم وقتالهم مع المؤمنين»[2].

قال السعدي: «ودلت هذه الآية على فضيلة الخلفاء الراشدين الداعين لجهاد أهل البأس من الناس، وأنه تجب طاعتهم في ذلك»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قتال الترك

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك؛ صغار الأعين، حمر الوجوه، ذلف الأنوف، كأن وجوههم المجان المطرقة. ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قومًا نعالهم الشعر»[4].

★ **غريب الحديث:**

ذلف الأنوف: أي: صغارها، والعرب تقول: أملح النساء الذلف. وقيل:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٢١).
(٢) جامع البيان (٢٦/ ٨٤).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٠٢).
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٣٠)، والبخاري (٦/ ١٢٩/ ٢٩٢٨)، ومسلم (٤/ ٢٢٣٣/ ٢٩١٢)، وأبو داود (٢/ ٤٨٦-٤٨٧/ ٤٣٠٤)، والترمذي (٤/ ٤٣٠/ ٢٢١٥)، والنسائي (٦/ ٣٥١-٣٥٢/ ٣١٧٧)، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٢/ ٤٠٩٧).

الذلف: الاستواء في طرف الأنف. وقيل: قصر الأنف وانبطاحه.

الْمَجان: بفتح الميم: جمع مِجن، بكسر الميم، وهو الترس.

المطرقة: التي ألبست العقب شيئًا فوق شيء، ومنه: طارق النعل: إذا صيرها طاقًا فوق طاق وركب بعضها فوق بعض، ووجه التشبيه أن وجوههم غالبًا عراض الأعالي محددة الأذقان صلبة.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وهذا الخبر قد وقع على نحو ما أخبر، فقد قاتلهم المسلمون في عراق العجم مع سلطان خوارزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان اللّه قد نصره عليهم، ثم رجعت لهم الكرّةُ فغلبوا على عراق العجم وغيره، وخرج منهم في هذا الوقت أمم لا يحصيهم إلا اللّه، ولا يردهم عن المسلمين إلا اللّه، حتى كأنهم يأجوج ومأجوج، أو مقدمتهم، فنسأل اللّه تعالى أن يهلكهم ويبدّد جمعهم»[(١)].

قال ابن حجر: «هذا والحديث الذي بعده ظاهر في أن الذين ينتعلون الشعر غير الترك. وقد وقع للإسماعيلي من طريق محمد بن عباد قال: بلغني أن أصحاب بَابَك كانت نعالهم الشعر. قلت: (بَابَك) بموحدتين مفتوحتين وآخره كاف، يقال له: الخُرَّمي، بضم المعجمة وتشديد الراء المفتوحة، وكان من طائفة من الزنادقة استباحوا المحرمات، وقامت لهم شوكة كبيرة في أيام المأمون، وغلبوا على كثير من بلاد العجم كطبرستان والري، إلى أن قتل بابك المذكور في أيام المعتصم، وكان خروجه في سنة إحدى ومائتين أو قبلها، وقتله في سنة اثنتين وعشرين»[(٢)].

قال ابن بطال: «قال المهلب: فيه علامة للنبوة، وأنه سيبلغ ملك أمته غاية المشارق التي فيها هؤلاء القوم على ما ذكر في غير هذا الحديث، وكذلك خلقة وجوههم بالعيان عريضة، وسائر ما وصفهم به كما وصفهم»[(٣)].

* * *

---

(١) المفهم (٧/ ٢٤٨).

(٢) فتح الباري (٦/ ١٣٠).

(٣) شرح البخاري (٥/ ١٠٨).

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

حرج: إثم وذنب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ليس على الأعمى منكم أيها الناس ضيق، ولا على الأعرج ضيق، ولا على المريض ضيق أن يتخلفوا عن الجهاد مع المؤمنين، وشهود الحرب معهم إذا هم لقوا عدوّهم؛ للعلل التي بهم، والأسباب التي تمنعهم من شهودها. .

وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ومن يطع اللّٰه ورسوله فيجيب إلى حرب أعداء اللّٰه من أهل الشرك، وإلى القتال مع المؤمنين ابتغاء وجه اللّٰه إذا دعي إلى ذلك؛ يدخله اللّٰه يوم القيامة ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ يقول: ومن يعص اللّٰه ورسوله، فيتخلّف عن قتال أهل الشرك باللّٰه إذا دعي إليه، ولم يستجب لدعاء اللّٰه ورسوله؛ يعذّبه عذابًا موجعًا، وذلك عذاب جهنم يوم القيامة»[1].

وقال ابن كثير: «ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد، فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذي يطرأ أيامًا ثم يزول، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ.

ثم قال تعالى مرغّبًا في الجهاد وطاعة اللّٰه ورسوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ﴾؛ أي: ينكل عن الجهاد، ويقبل على المعاش

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٨٤-٨٥).

﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، في الدنيا بالمذلة، وفي الآخرة بالنار»[١].

قال ابن عطية: «لما بالغ ﷺ في عتب هؤلاء المتخلفين من القبائل المجاورة للمدينة لجهينة ومزينة وغفار وأسلم وأشجع؛ عقب ذلك بأن عذر أهل الأعذار من العرج والعمى والمرض جملة، ورفع الحرج عنهم والضيق والمأثم، وهذا حكم هؤلاء المعاذير في كل جهاد إلى يوم القيامة، إلا أن يحزب حازب في حضرة ما، فالفرض متوجه بحسب الوسع، ومع ارتفاع الحرج فجائز لهم الغزو وأجرهم فيه مضاعف؛ لأن الأعرج أحرى الناس بالصبر وأن لا يفر، وقد غزا ابن أم مكتوم، وكان يمسك الراية في بعض حروب القادسية»[٢].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٢١).

(٢) المحرر الوجيز (٥/ ١٣٣).

قوله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: لقد رضي اللَّه -يا محمد- عن المؤمنين ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ يعني بيعة أصحاب رسول اللَّه ﷺ رسولَ اللَّه بالحديبية حين بايعوه على مناجزة قريش الحرب، وعلى أن لا يفرّوا، ولا يولوهم الدبر تحت الشجرة، وكانت بيعتهم إياه هنالك فيما ذكر تحت شجرة.

وكان سبب هذه البيعة ما قيل: إن رسول اللَّه ﷺ كان أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه برسالته إلى الملإ من قريش، فأبطأ عثمان عليه بعض الإبطاء، فظنّ أنه قد قتل، فدعا أصحابه إلى تجديد البيعة على حربهم على ما وصفت، فبايعوه على ذلك، وهذه البيعة التي تسمى بيعة الرضوان، وكان الذين بايعوه هذه البيعة فيما ذُكر في قول بعضهم: ألفًا وأربعمائة، وفي قول بعضهم: ألفًا وخمسمائة، وفي قول بعضهم: ألفًا وثلاثمائة. .

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فعلم ربك -يا محمد- ما في قلوب المؤمنين من أصحابك إذ يبايعونك تحت الشجرة، من صدق النية، والوفاء بما يبايعونك عليه، والصبر معك، ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: فأنزل الطمأنينة والثبات على ما هم عليه من دينهم وحُسن بصيرتهم بالحق الذي هداهم اللَّه له. .

وقوله: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ يقول: وعوضهم في العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة بقتالهم أهلها فتحًا قريبًا، وذلك فيما قيل: فتح خيبر»[1].

قال ابن عاشور: «عود إلى تفصيل ما جازى اللَّه به أصحاب بيعة الرضوان المتقدم إجماله في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[2]، فإن كون

(١) جامع البيان (٢٦/ ٨٥-٨٨).

(٢) الفتح: الآية (١٠).

بيعتهم الرسول ﷺ تعتبر بيعة لله تعالى أوْمأ إلى أن لهم بتلك المبايعة مكانة رفيعة من خير الدنيا والآخرة، فلما قطع الاسترسال في ذلك بما كان تحذيرًا من النكث وترغيبًا في الوفاء، بمناسبة التضاد وذكر ما هو وسط بين الحالين وهو حال المخلَّفين، وإبطال اعتذارهم وكشف طويتهم، وإقصائهم عن الخير الذي أعده اللَّه للمبايعين وإرجائهم إلى خير يسنح من بعدُ إن هم صدقوا التوبة وأخلصوا النية.

فقد أنال اللَّه المبايعين رضوانه، وهو أعظم خير في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1]، والشهادة لهم بإخلاص النية، وإنزاله السكينة قلوبهم، ووعدهم بثواب فتح قريب ومغانم كثيرة»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال وبيان بيعة الرضوان وفضل أصحاب الشجرة

* عن قتادة قال لسعيد بن المسيب: «بلغني أن جابر بن عبداللَّه كان يقول: كانوا أربع عشرة مائة، فقال لي سعيد: حدثني جابر: كانوا خمس عشرة مائة الذين بايعوا النبي ﷺ يوم الحديبية»[3].

* عن عبداللَّه بن أبي أوفى رضي الله عنهما قال: «كان أصحاب الشجرة ألفًا وثلاثمائة، وكانت أسلمُ ثُمن المهاجرين»[4].

★ فوائد الحديثين:

قال الحافظ بعد ذكر الروايات التي فيها عدد من حضر صلح الحديبية: «والجمع بين هذا الاختلاف أنهم كانوا أكثر من ألف وأربعمائة، فمن قال: ألفًا وخمسمائة؛ جبر الكسر، ومن قال: ألفًا وأربعمائة؛ ألغاه. ويؤيده قوله في الرواية الثالثة من حديث البراء: «**ألفًا وأربعمائة أو أكثر**»[5] واعتمد على هذا الجمع

---

(١) التوبة: الآية (٧٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٧٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧/ ٥٦٢/ ٤١٥٣).

(٤) أخرجه: البخاري (٧/ ٥٦٢/ ٤١٥٥) تعليقاً، ووصله مسلم (٣/ ١٤٨٥/ ١٨٥٧).

(٥) أخرجه البخاري (٧/ ٥٥٩-٥٦٠/ ٤١٥١).

النووي، وأما البيهقي فمال إلى الترجيح وقال: إن رواية من قال: ألف وأربعمائة؛ أصح، ثم ساقه من طريق أبي الزبير ومن طريق أبي سفيان كلاهما عن جابر كذلك، ومن رواية معقل بن يسار وسلمة بن الأكوع والبراء بن عازب، ومن طريق قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبيه. قلت: ومعظم هذه الطرق عند مسلم(١)، ووقع عند ابن سعد(٢) في حديث معقل بن يسار: زهاء ألف وأربعمائة، وهو ظاهر في عدم التحديد. وأما قول عبدالله بن أبي أوفى: ألفًا وثلاثمائة(٣)؛ فيمكن حمله على ما اطلع هو عليه، واطلع غيره على زيادة ناس لم يطلع هو عليهم، والزيادة من الثقة مقبولة، أو العدد الذي ذكره جملة من ابتداء الخروج من المدينة، والزائد تلاحقوا بهم من بعد ذلك، أو العدد الذي ذكره هو عدد المقاتلة، والزيادة عليها من الأتباع من الخدم والنساء والصبيان الذين لم يبلغوا الحلم. وأما قول ابن إسحق: إنهم كانوا سبعمائة؛ فلم يوافق عليه؛ لأنه قاله استنباطًا من قول جابر: «**نحرنا البدنة عن عشرة**»(٤) وكانوا نحروا سبعين بدنة، وهذا لا يدل على أنهم لم ينحروا غير البدن، مع أن بعضهم لم يكن أحرم أصلًا. وسيأتي في هذا الباب في حديث المسور ومروان أنهم خرجوا مع النبي ﷺ بضع عشرة مائة(٥)، فيجمع أيضًا بأن الذين بايعوا كانوا كما تقدم، وما زاد على ذلك كانوا غائبين عنها كمن توجه مع عثمان إلى مكة، على أن لفظ (البضع) يصدق على الخمس والأربع فلا تخالف، وجزم موسى بن عقبة بأنهم كانوا ألفًا وستمائة، وفي حديث سلمة بن الأكوع عند ابن أبي شيبة: ألفًا وسبعمائة(٦)، وحكى ابن سعد أنهم كانوا ألفًا وخمسمائة وخمسة وعشرين(٧)، وهذا إن ثبت تحرير بالغ. ثم وجدته موصولًا عن ابن عباس عند ابن مردويه، وفيه رد على ابن دحية حيث زعم أن سبب الاختلاف في عددهم أن الذي ذكر عددهم لم يقصد التحديد وإنما ذكره بالحدس والتخمين، والله أعلم»(٨).

---

(١) انظر صحيح مسلم (٣/ ١٤٨٣-١٤٨٦).

(٢) ابن سعد في الطبقات (٢/ ٩٩-١٠٠) وليس في المطبوع ذكر «زهاء».

(٣) أخرجه البخاري تعليقاً (٧/ ٥٦٢/ ٤١٥٥)، ووصله مسلم (٣/ ١٤٨٥/ ١٨٥٧).

(٤) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٣٠) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٢٣)، والبخاري (٧/ ٥٧٥-٥٧٦/ ٤١٧٨-٤١٧٩)، وأبو داود (٢/ ١٩٤-٢٠٩/ ٢٧٦٥)، والنسائي (٥/ ١٨٤/ ٢٧٧٠).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٣٨٤/ ٣٦٨٤٦).

(٧) طبقات ابن سعد (٢/ ٩٥).

(٨) فتح الباري (٧/ ٥٥٨-٥٥٩).

قوله: «وكانت أسلمُ ثُمُن المهاجرين»:

قال الحافظ: «قوله: «وكانت أسلم» أي: قبيلته، قوله: «ثُمن المهاجرين» بضم المثلثة وسكون الميم وضمها، ولم أعرف عدد من كان بها من المهاجرين خاصة؛ ليعرف عدد الأسلميين؛ إلا أن الواقدي جزم بأنه كان مع النبي ﷺ في غزوة الحديبية من أسلم مائة رجل، فعلى هذا كان المهاجرون ثمانمائة»[١].

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «رجعنا من العام المقبل، فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها، كانت رحمة من اللَّه، فسألنا نافعًا: على أي شيء بايعهم، على الموت؟ قال: لا، بل بايعهم على الصبر»[٢].

* عن عبداللَّه بن زيد رضي الله عنه قال: «لما كان زمن الحرة؛ أتاه آتٍ، فقال له: إن ابن حنظلة يبايع الناس على الموت، فقال: لا أبايع على هذا أحدًا بعد رسول اللَّه ﷺ»[٣].

* عن سلمة رضي الله عنه قال: «بايعت النبي ﷺ، ثم عدلت إلى ظل شجرة، فلما خفّ الناس قال: **يا بن الأكوع! ألا تبايع؟** قال: قلت: قد بايعت يا رسول الله! قال: وأيضًا، فبايعته الثانية، فقلت له: يا أبا مسلم! على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت»[٤].

* عن حميد قال: سمعت أنسًا رضي الله عنه يقول: كانت الأنصار يوم الخندق تقول:

نحن الذين بايعوا محمدا ... على الجهاد ما حيينا أبدا

فأجابهم النبي ﷺ فقال: «**اللهم لا عيش إلا عيش الآخره، فأكرم الأنصار والمهاجره**»[٥].

* عن مجاشع رضي الله عنه قال: «أتيت النبي ﷺ أنا وأخي، فقلت: بايعنا على

---

(١) فتح الباري (٧/ ٥٦٣).
(٢) أخرجه البخاري (٦/ ١٤٤/ ٢٩٥٨).
(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٤١)، والبخاري (٦/ ١٤٥/ ٢٩٥٩) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٤٨٦/ ١٨٦١).
(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٧)، والبخاري (٦/ ١٤٥/ ٢٩٦٠) واللفظ له. وأخرجه مختصراً: مسلم (٣/ ١٤٨٦/ ١٨٦٠)، والترمذي (٤/ ١٢٧/ ١٥٩٢) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٧/ ١٥٩/ ٤١٧٠).
(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ١٧٠)، والبخاري (٦/ ١٤٥/ ٢٩٦١) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٤٣٢/ ١٨٠٥[١٣٠])، والنسائي في الكبرى (٥/ ٨٥/ ٨٣١٦).

الهجرة، فقال: «**مضت الهجرة لأهلها**»، فقلت: علام تبايعنا؟ قال: على الإسلام والجهاد»[(١)].

* عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: «لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غصنًا من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، قال: لم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على أن لا نفرّ»[(٢)].

★ **فوائد الأحاديث:**

قال النووي: «قوله في رواية جابر[(٣)] ورواية معقل بن يسار: «**بايعناه يوم الحديبية على أن لا نفرّ، ولم نبايعه على الموت**»، وفي رواية سلمة أنهم بايعوه يومئذ على الموت، وهو معنى رواية عبداللَّه بن زيد بن عاصم، وفي رواية مجاشع ابن مسعود: «البيعة على الهجرة والبيعة على الإسلام والجهاد»، وفي حديث ابن عمر[(٤)] وعبادة[(٥)]: «بايعنا على السمع والطاعة، وأن لا ننازع الأمر أهله»، وفي رواية عن ابن عمر في غير صحيح مسلم: «**البيعة على الصبر**». قال العلماء: هذه الرواية تجمع المعاني كلها، وتبين مقصود كل الروايات؛ فالبيعة على أن لا نفرّ معناه الصبر حتى نظفر بعدونا أو نقتل، وهو معنى البيعة على الموت؛ أي: نصبر وإن آل بنا ذلك إلى الموت، لا أن الموت مقصود في نفسه، وكذا البيعة على الجهاد؛ أي: والصبر فيه، واللَّه أعلم»[(٦)].

قال القرطبي: «قوله: «**بايعناه على ألا نفرّ، ولم نبايعه على الموت**»، مخالف لما قاله سلمة أنهم بايعوه في ذلك اليوم على الموت، وكذلك قال عبداللَّه بن زيد، وهذا خلاف لفظي، وأما المعنى فمتَّفق عليه؛ لأن من بايع على ألا يفرّ حتى يفتح

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٦٨)، والبخاري (٦/ ١٤٥/ ٢٩٦٢) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٤٨٧/ ١٨٦٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٥)، ومسلم (٣/ ١٤٨٥/ ١٨٥٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٥٥)، ومسلم (٣/ ١٤٨٣/ ١٨٥٦[٦٨])، والترمذي (٤/ ١٢٧/ ١٥٩١)، والنسائي (٧/ ١٥٩/ ٤١٦٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٩)، والبخاري (١٣/ ٢٣٩/ ٧٢٠٢)، ومسلم (٣/ ١٤٩٠/ ١٨٦٧)، وأبو داود (٣/ ٣٥١/ ٢٩٤٠)، والترمذي (٤/ ١٢٧/ ١٥٩٣)، والنسائي (٧/ ١٧١/ ٤١٩٨).

(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ٣١٤)، والبخاري (١٣/ ٢٣٩/ ٧١٩٩-٧٢٠٠)، ومسلم (٣/ ١٤٧٠/ ١٧٠٩)، والنسائي (٧/ ١٥٥/ ٤١٦٠)، وابن ماجه (٢/ ٩٥٧/ ٢٨٦٦).

(٦) شرح صحيح مسلم (١٣/ ٣).

اللَّه عليه أو يقتل، فقد بايع على الموت، فكأن جابرًا لم يسمع لفظ الموت، وأخذ غيره الموت من المعنى فعبر عنه. ويشهد لما ذكرته أنه قد روي عن ابن عمر في غير كتاب مسلم أن البيعة كانت على الصبر، وكان هذا الحكم خاصًا بأهل الحديبية؛ فإنه مخالف لما في كتاب اللَّه تعالى من إباحة الفرار عند مثلي العدد، كما نصّ عليه في سورة (الأنفال)، وعلى مقتضى بيعة الحديبية لا فرار أصلًا، فهذا حكم خاص بهم، واللَّه تعالى أعلم، ولذلك قال عبداللَّه بن زيد: «**لا أبايع على هذا أحدًا بعد رسول اللَّه ﷺ**»[1].

قال ابن بطال: «قال المهلب: هذه الأحاديث مختلفة الألفاظ، منهم من يقول: «**على الموت**»، و«**على ألا يفر**»، و«**على الصبر**»، والصبر يجمع المعاني كلها، وهو أولى الألفاظ بالمعنى؛ لأن بيعة الإسلام هي على الجهاد، وقتال المثلين، فإن كان المشركون أكثر من المثلين كان المسلم في سعة من أن يفرّ، وفي سعة أن يأخذ بالشدة ويصبر، وهذا كله بعد أن نسخ قتال العشرة أمثال، وأما قبل نسخها فكان يلزم قتال العشرة أمثال، وألا يفر إلا من أكثر منها.

وبيعة الشجرة إنما هي على الأخذ بالشدة، وألا يفر أصلًا، ولا بد من الصبر، إما إلى فتح وإما إلى موت، فمن قال: «**بايعنا على الموت**»، أراد: يفتح لنا، ومن قال: «**لا نفرّ**»، فهو نفس القصة التي وقعت عليها المبايعة، وهو معنى الصبر، وقول نافع: «**على الصبر**»؛ كراهية لقول من قال بأحد الطريقين: الموت أو الفتح، فجمع نافع المعنيين في كلمة الصبر»[2].

وقال أيضًا: «وحديث مجاشع بن مسعود إنما كان بعد الفتح؛ لأن الرسول قال: «**لا هجرة بعد الفتح، إنما هو جهاد ونية**»[3]، فكل من بايع الرسول قبل الفتح لزمه الجهاد أبدًا ما عاش، إلا لعذر يجوز له به التخلف، وكذلك قالوا بحضرة رسول اللَّه في ارتجازهم يوم الخندق:

---

(١) المفهم (٤/ ٦٧). (٢) شرح صحيح البخاري (٥/ ١٣٠).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٦)، والبخاري (٦/ ٤/ ٢٧٨٣)، ومسلم (٢/ ٩٨٦/ ١٣٥٣)، وأبو داود (٣/ ٨-٩/ ٢٤٨٠)، والترمذي (٤/ ١٢٦/ ١٥٩٠)، والنسائي (٧/ ١٦٥/ ٤١٨١)، وابن ماجه (٢/ ٩٢٦/ ٢٧٧٣) من حديث ابن عباس ﭬ.

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

وكذلك قال الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾[١]، فأباح لهم أن يتخلف عن الغزو من ينفر إلى التفقه في الدين، ولم يبح لغير المتفقهين التخلف عن الغزو.

وأما من أسلم بعد الفتح فله أن يجاهد، وله أن يتخلف بنية صالحة، كما قال: «جهاد ونية»، إلا أن ينزل عدوّ أو ضرورة فيلزم الجهاد كل أحد؛ والدليل على أن كل من بايع النبي ﷺ قبل الفتح لا يجوز له التخلف عن الجهاد أبدًا: قصة كعب ابن مالك إذ تخلف عن تبوك مع صاحبيه هلال بن أمية ومرارة بن الربيع أنهم لم يغزوا، وغضب اللَّه ورسوله والمؤمنون عليهم، وأخرجوهم من بين أظهرهم، ولم يسلموا عليهم، ولم يكلموهم، حتى بلغت منهم العقوبة مبلغها، وعلم اللَّه إنابتهم فتاب عليهم»[٢].

قال ابن بطال: «وأما قول عبداللَّه بن زيد في زمن الحرة: «**لا أبايع أحدًا على الموت بعد النبي**»، وإنما قال ذلك؛ لأنه يرى القعود في الفتن التي بين المسلمين، وترك القتال مع إحدى الطائفتين، وقد ذهب إلى ذلك جماعة من السلف»[٣].

قال الحافظ: «قال ابن المنير: والحكمة في قول الصحابي: إنه لا يفعل ذلك بعد النبي ﷺ، أنه كان مستحَقًّا للنبي ﷺ على كل مسلم أن يقيه بنفسه، وكان فرضًا عليهم ألا يفرّوا عنه حتى يموتوا دونه، وذلك خلاف غيره»[٤].

قال ابن بطال: «وقوله لسلمة بن الأكوع: «**ألا تبايع**» أراد أن يؤكد بيعته، لشجاعة سلمة وغنائه في الإسلام وشهرته بالثبات، فلذلك أمره بتكرير المبايعة»[٥].

قال الحافظ: «قال ابن المنير: الحكمة في تكراره البيعة لسلمة أنه كان مقدامًا في الحرب، فأكد عليه العقد احتياطًا. قلت: أو لأنه كان يقاتل قتال الفارس والراجل، فتعددت البيعة بتعدد الصفة»[٦].

قال ابن بطال: «قوله: «**فما اجتمع اثنان على الشجرة؛ كانت رحمة**» يعني

---

(١) التوبة: الآية (١٢٢).
(٢) المصدر السابق (٥/ ١٣١).
(٣) شرح صحيح البخاري (٥/ ١٣٢).
(٤) فتح الباري (٦/ ١٤٧).
(٥) شرح صحيح البخاري (٥/ ١٣٠).
(٦) فتح الباري (٦/ ١٤٧).

جهلهم بها رحمة؛ خشية أن تعبد وتصير كالقبلة والمسجد»(١).

* عن أم مبشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: «**لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها**»، قالت: بلى، يا رسول الله! فانتهرها، فقالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾(٢)، فقال النبي ﷺ: «**قد قال الله** ﷻ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾(٣)»(٤).

* عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: «**أنتم خير أهل الأرض**» وكنّا ألفًا وأربعمائة. ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة(٥).

★ فوائد الحديثين:

قال النووي: «قوله: «**لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها**» قال العلماء: معناه: لا يدخلها أحد منهم قطعًا، كما صرح به في الحديث الذي قبله حديث حاطب(٦)، وإنما قال: «**إن شاء الله**» للتبرّك، لا للشكّ. وأما قول حفصة: «**بلى**»، وانتهار النبي ﷺ لها، فقالت: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فقال النبي ﷺ: «**وقد قال**: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾»، فيه دليل للمناظرة والاعتراض والجواب على وجه الاسترشاد، وهو مقصود حفصة، لا أنها أرادت رد مقالته ﷺ، والصحيح أن المراد بالورود في الآية المرور على الصراط، وهو جسر منصوب على جهنم، فيقع فيها أهلها، وينجو الآخرون»(٧).

قال الحافظ: «قوله: «**أنتم خير أهل الأرض**» صريح في فضل أصحاب الشجرة؛ فقد كان من المسلمين إذ ذاك جماعة بمكة وبالمدينة وبغيرهما. وعند أحمد بإسناد حسن عن أبي سعيد الخدري قال: لما كان بالحديبية قال النبي ﷺ:

---

(١) شرح صحيح البخاري (٥/ ١٣١).

(٢) مريم: الآية (٧١). (٣) مريم: الآية (٧٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٢٠)، ومسلم (٤/ ١٩٤٢/ ٢٤٩٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٩٥/ ١١٣٢١).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٨)، والبخاري (٧/ ٥٦٢/ ٤١٥٤).

(٦) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٢٥)، ومسلم (٤/ ١٩٤٢/ ٢٤٩٥)، والترمذي (٥/ ٦٥٤/ ٣٨٦٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣١٤/ ١١٠٧٤) من حديث جابر رضي الله عنه أن عبداً لحاطب جاء رسول الله ﷺ يشكو حاطباً فقال: يا رسول الله! ليدخلن حاطب النار. فقال رسول الله ﷺ: «**كذبت، لا يدخلها، فإنه شهد بدراً والحديبية**».

(٧) شرح صحيح مسلم (١٦/ ٤٩).

«لا توقدوا نارًا بليل»، فلما كان بعد ذلك قال: «أوقدوا واصطنعوا؛ فإنه لا يدرك قوم بعدكم صاعكم ولا مدكم»[(١)]، وعند مسلم من حديث جابر مرفوعًا: «لا يدخل النار من شهد بدرًا والحديبية»[(٢)]، وروى مسلم أيضًا من حديث أم مبشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يدخل النار أحد من أصحاب الشجرة»، وتمسك به بعض الشيعة في تفضيل علي على عثمان؛ لأن عليًا كان من جملة من خوطب بذلك، وممن بايع تحت الشجرة، وكان عثمان حينئذ غائبًا، كما تقدم في المناقب من حديث ابن عمر[(٣)]؛ لكن تقدم في حديث ابن عمر المذكور أن النبي ﷺ بايع عنه، فاستوى معهم عثمان في الخيرية المذكورة، ولم يقصد في الحديث إلى تفضيل بعضهم على بعض»[(٤)].

* عن طارق بن عبدالرحمن قال: «انطلقت حاجًا، فمررت بقوم يصلون، قلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال سعيد: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم؟ فأنتم أعلم!»[(٥)].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «قال العلماء: سبب خفائها ألا يفتتن الناس بها؛ لما جرى تحتها من الخير ونزول الرضوان والسكينة وغير ذلك، فلو بقيت ظاهرة معلومة لخيف تعظيم الأعراب والجهال إياها، وعبادتهم لها، فكان خفاؤها رحمة من الله تعالى»[(٦)].

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٦)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦٨/ ٨٨٥٥)، وصححه الحاكم (٣/ ٣٦)، ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ١٤٥) وقال: «رواه أحمد ورجاله ثقات».

(٢) هو حديث حاطب المتقدم.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٠١)، والبخاري (٧/ ٦٦-٦٧/ ٣٦٩٩)، والترمذي (٥/ ٥٨٧-٥٨٨/ ٣٧٠٦).

(٤) فتح الباري (٧/ ٥٦٢-٥٦٣).

(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٣٣)، والبخاري (٧/ ٥٦٧/ ٤١٦٣)، ومسلم (٣/ ١٤٨٥-١٤٨٦/ ١٨٥٩).

(٦) شرح صحيح مسلم (١٣/ ٦).

وقال الحافظ: «إنكار سعيد بن المسيب على من زعم أنه عرفها معتمدًا على قول أبيه: إنهم لم يعرفوها في العام المقبل، لا يدل على رفع معرفتها أصلًا؛ فقد وقع عند المصنف من حديث جابر الذي قبل هذا: «لو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة»، فهذا يدل على أنه كان يضبط مكانها بعينه، وإذا كان في آخر عمره بعد الزمان الطويل يضبط موضعها، ففيه دلالة على أنه كان يعرفها بعينها؛ لأن الظاهر أنها حين مقالته تلك كانت هلكت، إما بجفاف أو بغيره، واستمر هو يعرف موضعها بعينه. ثم وجدت عند ابن سعد[1] بإسناد صحيح عن نافع أن عمر بلغه «**أن قومًا يأتون الشجرة، فيصلون عندها، فتوعّدهم، ثم أمر بقطعها، فقطعت**»»[2].

* عن نافع قال: «إن الناس يتحدثون أن ابن عمر أسلم قبل عمر، وليس كذلك، ولكنْ عمرُ يومَ الحديبية أرسل عبدَ اللَّه إلى فَرَس له عند رجل من الأنصار يأتي به ليقاتل عليه -ورسولُ اللَّه ﷺ يبايع عند الشجرة، وعمرُ لا يدري بذلك- فبايعه عبدُاللَّه، ثم ذهب إلى الفَرَس فجاء به إلى عمر وعمرُ يستلئم للقتال، فأخبره أن رسول اللَّه ﷺ يبايع تحت الشجرة قال: فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول اللَّه ﷺ، فهي التي يتحدث الناسُ أن ابنَ عمر أسلم قبلَ عمر»[3].

★ **غريب الحديث:**

يستلئم: أي يلبس اللّأمة، بالهمز، وهي السلاح.

* عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن الناس كانوا مع النبي يومَ الحديبية تفرّقوا في ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ، فقال: يا عبدالله! انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول اللَّه ﷺ، فوجدهم يبايعون فبايع ثم رجع إلى عمر فخرج فبايع»[4].

★ **غريب الحديث:**

محدقون بالنبي ﷺ: أي محيطون به ناظرون إليه بأحداقهم.

★ **فوائد الحديثين:**

قال الحافظ: «قوله: «**قد أحدقوا**» كذا للكشميهني وغيره وهو الصواب. ووقع

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ١٠٠).
(٢) فتح الباري (٧/ ٥٦٨-٥٦٩).
(٣) أخرجه البخاري (٧/ ٥٧٨-٥٧٩/ ٤١٨٦).
(٤) أخرجه البخاري (٧/ ٥٧٩/ ٤١٨٧) تعليقاً.

للمستملي «قال: أحدقوا» جعل بدل (قد) (قال) وهو تحريف، وهذا السبب الذي هنا في أن ابن عمر بايع قبل أبيه غير السبب الذي قبله، ويمكن الجمع بينهما بأنه بعثه يحضر له الفرس، ورأى الناس مجتمعين فقال له: انظر ما شأنهم، فبدأ بكشف حالهم فوجدهم يبايعون فبايع، وتوجه إلى الفرس فأحضرها وأعاد حينئذ الجواب على أبيه، وأما ابن التين فلم يظهر له وجه الجمع بينهما فقال: هذا اختلاف، ولم يسند نافع إلى ابن عمر ذلك في شيء من الروايتين، كذا قال، والثانية ظاهرة في الرد عليه، فإن فيها عن ابن عمر كما بيناه. ثم زعم أن المبايعة المذكورة إنما كانت حين قدموا إلى المدينة مهاجرين، وأن النبي ﷺ بايع الناس فمر به ابن عمر وهو يبايع، الحديث. قلت: وبمثل ذلك لا ترد الروايات الصحيحة. فقد صرح في الرواية الأولى بأن ذلك كان يوم الحديبية، والقصة التي أشار إليها تقدمت من وجه آخر في الهجرة، وليس فيما نقل فيها ما يمنع التعدد؛ بل يتعين ذلك لصحة الطريقين. واللَّه المستعان.

قوله: «**فبايع ثم رجع إلى عمر فخرج فبايع**» هكذا أورده مختصرًا، وتوضحه الرواية التي قبله وهو أن ابن عمر لما رأى الناس يبايعون بايع، ثم رجع إلى عمر فأخبره بذلك، فخرج وخرج معه، فبايع عمر وبايع ابن عمر مرة أخرى»[1].

* عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: «خرجنا مع رسول اللَّه ﷺ عام الحديبية فأصابنا مطرٌ ذات ليلة، فصلى لنا رسول اللَّه ﷺ الصبح، ثم أقبل علينا فقال: **أتدرون ماذا قال ربكم؟** قلنا: اللَّه ورسوله أعلم، فقال: **قال الله: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي. فأما من قال: مُطرنا برحمة اللَّه وبرزق اللَّه وبفضل الله؛ فهو مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بنجم كذا؛ فهو مؤمنٌ بالكوكب كافرٌ بي**»[2].

★ **فوائد الحديث:**

انظر فوائد هذا الحديث في سورة (يونس) وسورة (النحل) وسورة (الواقعة).

* * *

(١) فتح الباري (٧/ ٥٨٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١١٧)، والبخاري (٧/ ٥٥٧/ ٤١٤٧)، ومسلم (١/ ٨٣/ ٧١).

قوله تعالى: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وأثاب الله هؤلاء الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، مع ما أكرمهم به من رضاه عنهم، وإنزاله السكينة عليهم، وإثابته إياهم فتحًا قريبًا، معه مغانم كثيرة يأخذونها من أموال يهود خيبر، فإن الله جعل ذلك خاصة لأهل بيعة الرضوان دون غيرهم.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ يقول: وكان الله ذا عزّة في انتقامه ممن انتقم من أعدائه، ﴿حَكِيمًا﴾ في تدبيره خلقه وتصريفه إياهم فيما شاء من قضائه»[1].

قال ابن عاشور: «والمغانم الكثيرة المذكورة هنا هي: مغانم أرض خيبر والأنعام والمتاع والحوائط، فوصفت بـ(كثيرة) لتعدّد أنواعها، وهي أول المغانم التي كانت فيها الحوائط.

وفائدة وصف المغانم بجملة ﴿يَأْخُذُونَهَا ۗ﴾ تحقيق حصول فائدة هذا الوعد لجميع أهل البيعة قبل أن يقع بالفعل، ففيه زيادة تحقيق لكون الفتح قريبًا، وبشارة لهم بأنهم لا يهلك منهم أحد قبل رؤية هذا الفتح»[2].

وقال السعدي: «﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ أي: له العزة والقدرة، التي قهر بها الأشياء، فلو شاء لانتصر من الكفار في كل وقعة تكون بينهم وبين المؤمنين، ولكنه حكيم، يبتلي بعضهم ببعض، ويمتحن المؤمن بالكافر»[3].

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٨٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٧٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٠٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إباحة الغنائم لهذه الأمة زادها الله شرفًا

* عن جابر بن عبدالله ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أحلت لي الغنائم**»(١).

★ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «إن الأمم المتقدمة كانوا على ضربين: منهم من لم يُبَح للأنبياء جهاد الكفار منهم، فلم يكن لهم مغانم. ومنهم من أبيح لهم جهادهم، فكانوا إذا غنموا مالًا جاءت نار فأحرقته، ولا يحل لهم أن يمتلكوه كما أبيح ذلك لهذه الأمة، والحمد لله على ذلك»(٢).

وانظر فوائد هذا الحديث في سورة (الأنفال).

* عن أبي هريرة ﵁ قال: قال النبي ﷺ: «**غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بُضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولما يبن بها، ولا أحد بنى بيوتًا ولم يرفع سقوفها، ولا آخر اشترى غنمًا أو خلفات وهو ينتظر ولادها، فغزا، فدنا من القرية صلاة العصر أوقريبًا من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا، فحبست حتى فتح الله عليهم، فجمع الغنائم، فجاءت -يعني النار- لتأكلها فلم تطعمها، فقال: إن فيكم غلولًا، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فليبايعني قبيلتك، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده، فقال: فيكم الغلول، فجاؤوا برأس بقرة من الذهب فوضعوها، فجاءت النار فأكلتها، ثم أحل الله لنا الغنائم، رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا**»(٣).

★ **غريب الحديث:**

بضع امرأة: البُضع، بالضم، يطلق على الفرج والتزويج والجماع، والمعاني

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٤)، والبخاري (٦/ ٢٧٠/ ٣١٢٢)، ومسلم (١/ ٣٧٠-٣٧١/ ٥٢١)، وأخرجه النسائي (١/ ٢٢٩-٢٣١/ ٤٣٠) دون ذكر موضع الشاهد.

(٢) أعلام الحديث (١/ ٣٣٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٨)، والبخاري (٦/ ٢٧١/ ٣١٢٤)، ومسلم (٣/ ١٣٦٦-١٣٦٧/ ١٧٤٧)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٧٧/ ٨٨٧٨).

الثلاثة لائقة هنا .

ولما يبْنِ بها : أي : ولم يدخل عليها .

أو خلفات : جمع خلفة ، وهي الحامل من النوق ، وقد يطلق على غير النوق .

إن فيكم غلولًا : هو السرقة من الغنيمة .

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي : «كانت سنة اللَّه تعالى في طوائف من بني إسرائيل أن يسوق لهم نارًا ، فتأكل ما خلص من قربانهم ، وغنائمهم ، فكان ذلك الأكل علامة قبول ذلك المأكول . حكاه السدي وغيره . وهو الذي يدل عليه ظاهر القرآن في قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾[1] ، ويدل على هذا أيضًا ظاهر الحديث ، وقد كان فيهم على ما حكاه ابن إسحق نارٌ تحكم بينهم عند تنازعهم ، فتأكل الظالم ، ولا تضرّ المظلوم . وقد رفع اللَّه تعالى كل ذلك عن هذه الأمة ، وأحل لهم غنائمهم ، وقربانهم ، رفقًا بهم ، ورحمة لهم ، كما قال ﷺ : «**ذلك بأن اللَّه رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا**» ، وجعل ذلك من خصائص هذه الأمة ؛ كما قال : «**فلم تحل الغنائم لأحد قبلنا**» ، وقد جاء في الكتب القديمة : أن من خصائص هذه الأمة : أنهم يأكلون قربانهم في بطونهم»[2] .

وقال النووي : «وفي هذا الحديث إباحة الغنائم لهذه الأمة زادها اللَّه شرفًا ، وأنها مختصة بذلك ، واللَّه أعلم»[3] .

قال الحافظ : «وكان ابتداء ذلك من غزوة بدر ، وفيها نزل قوله تعالى : ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾[4] ، فأحل اللَّه لهم الغنيمة ، وقد ثبت ذلك في الصحيح من حديث ابن عباس[5] ، وقد قدمت في أوائل فرض الخمس أن أول غنيمة خمست غنيمة السرية التي خرج فيها عبداللَّه بن جحش ، وذلك قبل بدر بشهرين ، ويمكن الجمع بما ذكر ابن سعد أنه ﷺ أخر غنيمة تلك السرية حتى رجع من بدر ، فقسمها

---

(١) آل عمران : الآية (١٨٣) .
(٢) المفهم (٣/ ٥٣٣-٥٣٤) .
(٣) شرح مسلم (١٢/ ٤٧) .
(٤) الأنفال : الآية (٦٩) .
(٥) أخرجه : البخاري (٨/ ٣٨٩-٣٩٠/ ٤٦٤٥) ، ومسلم (٤/ ٢٣٢٢/ ٣٠٣١) .

مع غنائم بدر»[١].

* عن عروة البارقي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**الخيل معقود في نواصيها الخير والأجر والمغنم إلى يوم القيامة**»[٢].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «**إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله**»[٣].

★ فوائد الحديث:

الغرض من الحديث قوله ﷺ: «**لتنفقن كنوزهما في سبيل الله**»، وقد أنفقت كنوزهما في المغانم[٤].

قال الخطابي: «أما كسرى فقد قطع اللّه دابره، وأنفقت كنوزه في سبيل اللّه، وأورث اللّه المسلمين أرضه ودياره، والحمد لله رب العالمين. وأما قيصر، وهو صاحب ملك الروم، فقد كانت الشام بحياله، وكان بها مشتاه ومربعه، وبها بيت المقدس، وهو الموضع الذي لا يتم نسك النصارى إلا فيه، ولا يملك على الروم أحد من ملوكهم حتى يكون قد دخله سرًّا أو جهرًا، وكانت الشام متجر قريش ومُمتارها، وكان معظم عناية المسلمين من حملة مملكته بها، وقد أجلي عنها، واستبيحت خزائنه وأمواله التي كانت فيها، ولم يخلفه أحد من القياصرة بعده»[٥].

قال شيخ الإسلام: «قوله: «**هلك كسرى فلا يكون كسرى بعده**»، وذاك كسرى ابن هرمز آخر الأكاسرة المملكين، ثم ولي بعده ولاة متضعفون فكان آخرهم (يزدجرد)، وإليه الإشارة باللفظ الآخر: «**إذا هلك كسرى؛ فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر؛ فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقنّ كنوزهما في سبيل الله**»، وهذا أخبر به وملك كسرى وقيصر أعز ملك في الأرض، فصدق اللّه خبره في خلافة عمر وعثمان، فهلك كسرى وهو آخر الأكاسرة في خلافة عثمان بأرض

---

(١) فتح الباري (٦/ ٢٧٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٧٥)، والبخاري (٦/ ٢٧٠/ ٣١١٩)، ومسلم (٣/ ١٤٩٣/ ١٨٧٣)، والترمذي (٤/ ١٧٥/ ١٦٩٤) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٦/ ٥٣١/ ٣٥٧٦)، وابن ماجه (٢/ ٧٧٣/ ٢٣٠٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٣)، والبخاري (٦/ ٢٧٠/ ٣١٢٠)، ومسلم (٤/ ٢٢٣٦/ ٢٩١٨)، والترمذي (٤/ ٤٣١/ ٢٢١٦).

(٤) فتح الباري (٦/ ٢٧١).

(٥) أعلام الحديث (٢/ ١٤٤٧-١٤٤٨).

فارس، ولم يبق بعده كسرى، ولم يبق للمجوس والفرس ملك، وهلك قيصر الذي بأرض الشام وغيرها، ولم يبق بعده من هو ملك على الشام ولا مصر ولا الجزيرة من النصارى، وهو الذي يدعى قيصر»[١].

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**تكفل اللَّه لمن جاهد في سبيله لا يخرجه إلا الجهاد في سبيله، وتصديق كلماته، بأن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ ابن عبدالبر: «وفي هذا الحديث أيضًا أصل عظيم، وفضل جسيم للمجاهد في سبيل اللَّه. وفيه دليل على أن الأعمال لا يزكو منها إلا ما صحبته النية والإخلاص لله ﷻ والإيمان به.

وفي هذا الحديث دليل على أن الغنيمة لا تنقص من أجر المجاهد شيئًا، وأن المجاهد وافر الأجر غَنِم أو لم يغنم؛ ويعضد هذا ويشهد له ما اجتمع على نقله أهل السير والعلم بالأثر أن النبي ﷺ ضرب لعثمان وطلحة وسعيد بن زيد بأسهمهم يوم بدر وهم غير حاضري القتال، فقال كل واحد منهم: وأجري يا رسول الله؟ قال: «**وأجرك**»[٣]. وأجمعوا أن تحليل الغنائم لهذه الأمة من فضائلها، وقال رسول اللَّه ﷺ: «**لم تحل الغنائم لقوم سود الرؤوس قبلكم**»[٤] وقال ﷺ: «**فضلت بخصال** -وذكر منها: - **وأحلت لي الغنائم**»، ولو كانت تحبط الأجر أو تنقصه ما كانت فضيلة له.

وقد ظن قوم أن الغنيمة تنقص من أجر الغانمين؛ لحديث رووه عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من سرية أسرت فأخفقت، إلا كتب لها أجرها مرتين**»، قالوا: وفي هذا

---

(١) الجواب الصحيح (٦/ ١٠٠-١٠١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٩٩)، والبخاري (٦/ ٢٧٠/ ٣١٢٣)، ومسلم (٣/ ١٤٩٥-١٤٩٦/ ١٨٧٦)، والنسائي (٦/ ٣٢٣-٣٢٤/ ٣١٢٢)، وابن ماجه (٢/ ٩٢٠/ ٢٧٥٣).

(٣) انظر سيرة ابن هشام (٢/ ٦٧٨-٦٧٩)، والمستدرك (٣/ ٣٦٨-٤٣٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥٢)، والترمذي (٥/ ٢٥٣-٢٥٤/ ٣٠٨٥) وقال: «حديث حسن صحيح غريب من حديث الأعمش»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٥٢/ ١١٢٠٩)، وصححه ابن حبان (١١/ ١٣٤/ ٤٨٠٦) كلهم من حديث أبي هريرة ﷺ.

الحديث ما يدل على أن العسكر إذا لم يغنم؛ كان أعظم لأجره، واللَّه أعلم.

واحتجوا أيضًا بما حدثنا أحمد بن قاسم، وعبد الوارث بن سفيان، قالا: حدثنا قاسم بن أصبغ، قال: حدثنا الحارث بن أبي أسامة قال: حدثنا أبو عبدالرحمن المقرئ قال: حدثنا حيوة، عن أبي هانئ حميد بن هانئ الخولاني، عن أبي عبدالرحمن الحبلي، عن عبداللَّه بن عمرو بن العاص أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ما من غازية تغزو في سبيل اللَّه فتصيب غنيمة إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة ويبقى لهم الثلث، فإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم**»[1] وهذا إنما فيه تعجيل بعض الأجر مع التسوية فيه للغانم وغير الغانم؛ إلا أن الغانم عجل له ثلثا أجره، وهما مستويان في جملته؛ وقد عوض اللَّه من لم يغنم في الآخرة بمقدار ما فاته من الغنيمة، واللَّه يضاعف لمن يشاء، وهو أفضل من رجي وتوكل عليه، لا إله إلا هو»[2].

قلت: ووجه الشاهد من الحديث بيان حلية الغنائم لهذه الأمة، وأنها خصيصة من خصائصها، والله أعلم.

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٩)، ومسلم (٣/ ١٥١٤-١٥١٥/ ١٩٠٦)، وأبو داود (٣/ ١٨/ ٢٤٩٧)، والنسائي (٦/ ٣٢٥/ ٣١٢٥)، وابن ماجه (٢/ ٩٣١/ ٢٧٨٥).

(٢) التمهيد (فتح البر ١١/ ٣٥-٣٦). وقد بسطنا الكلام على هذا المعنى في كتاب المغازي (الجزء الأول) يسّر اللَّه إتمامه.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لأهل بيعة الرضوان: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أيها القوم ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾. اختلف أهل التأويل في هذه المغانم التي ذكر اللَّه أنه وعدها هؤلاء القوم أيّ المغانم هي، فقال بعضهم: هي كل مغنم غنمها اللَّه المؤمنين به من أموال أهل الشرك من لدن أنزل هذه الآية على لسان نبيه ﷺ. .

وعلى هذا التأويل يحتمل الكلام أن يكون مرادًا بالمغانم الثانية المغانم الأولى، ويكون معناه عند ذلك: فأثابهم فتحًا قريبًا ومغانم كثيرة يأخذونها، وعدكم اللَّه أيها القوم هذه المغانم التي تأخذونها، وأنتم إليها واصلون عدة، فجعل لكم الفتح القريب من فتح خيبر. ويُحتمل أن تكون الثانية غير الأولى، وتكون الأولى من غنائم خيبر، والغنائم الثانية التي وعدهموها من غنائم سائر أهل الشرك سواهم.

وقال آخرون: هذه المغانم التي وعد اللَّه هؤلاء القوم هي مغانم خيبر. .

وقوله: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾: اختلف أهل التأويل في التي عجلت لهم، فقال جماعة: غنائم خيبر والمؤخرة سائر فتوح المسلمين بعد ذلك الوقت إلى قيام الساعة. .

وقال آخرون: بل عنى بذلك الصلح الذي كان بين رسول اللَّه ﷺ وبين قريش. .

وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب ما قاله مجاهد، وهو أن الذي أثابهم اللَّه من مسيرهم ذلك مع الفتح القريب المغانم الكثيرة من مغانم خيبر، وذلك أن

المسلمين لم يغنموا بعد الحديبية غنيمة، ولم يفتحوا فتحًا أقرب من بيعتهم رسول اللَّه ﷺ بالحديبية إليها من فتح خيبر وغنائمها.

وأما قوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ فهي سائر المغانم التي غنمهموها اللَّه بعد خيبر، كغنائم هوازن، وغطفان، وفارس، والروم.

وإنما قلنا ذلك كذلك دون غنائم خيبر؛ لأن اللَّه أخبر أنه عجّل لهم هذه التي أثابهم من مسيرهم الذي ساروه مع رسول اللَّه ﷺ إلى مكة، ولما علم من صحة نيتهم في قتال أهلها، إذ بايعوا رسول اللَّه ﷺ على أن لا يفرّوا عنه، ولا شكّ أن التي عجّلت لهم غير التي لم تُعجَّل لهم»[1].

وقال ابن عاشور: «هذه الجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًّا نشأ عن قوله: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ إذ علم أنه فتحُ خيبر، فحق لهم ولغيرهم أن يخطر ببالهم أن يترقبوا مغانم أخرى، فكان هذا الكلام جوابًا لهم؛ أي: لكم مغانم أخرى لا يُحرم منها من تخلفوا عن الحديبية وهي المغانم التي حصلت في الفتوح المستقبلة.

فالخطاب للنبي ﷺ وللمسلمين تبعًا للخطاب الذي في قوله: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ وليس خاصًّا بالذين بايعوا»[2].

وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ يقول -تعالى ذكره- لأهل بيعة الرضوان: وكفّ اللَّه أيدي المشركين عنكم.

ثم اختلف أهل التأويل في الذين كفّت أيديهم عنهم من هم؟ فقال بعضهم: هم اليهود؛ كفّ اللَّه أيديهم عن عيال الذين ساروا من المدينة مع رسول اللَّه ﷺ إلى مكة. .

وقال آخرون: بل عنى بذلك أيدي قريش إذ حبسهم اللَّه عنهم، فلم يقدروا له على مكروه.

والذي قاله قتادة في ذلك عندي أشبه بتأويل الآية؛ وذلك أن كفّ اللَّه أيدي

(١) جامع البيان (٢٦/ ٨٩-٩٠).
(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٧٦-١٧٧).

المشركين من أهل مكة عن أهل الحديبية قد ذكره اللّه بعد هذه الآية في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾[١]، فعلم بذلك أن الكفّ الذي ذكره اللّه تعالى في قوله: ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ غير الكفّ الذي ذكر اللّه بعد هذه الآية في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾.

وقوله: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: وليكون كفّه -تعالى ذكره- أيديهم عن عيالهم آية وعبرة للمؤمنين به، فيعلموا أن اللّه هو المتولي حياطَتهم وكلاءتهم في مشهدهم ومغيبهم، ويتقوا اللّه في أنفسهم وأموالهم وأهليهم بالحفظ وحُسن الولاية ما كانوا مقيمين على طاعته، منتهين إلى أمره ونهيه. .

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ يقول: ويسدّدكم أيها المؤمنون طريقًا واضحًا لا اعوجاج فيه، فيبينه لكم، وهو أن تثقوا في أموركم كلها بربكم، فتتوكلوا عليه في جميعها، ليحوطكم حياطته إياكم في مسيركم إلى مكة مع رسول اللّه ﷺ في أنفسكم وأهليكم وأموالكم، فقد رأيتم أثر فعل اللّه بكم، إذ وثقتم به في مسيركم هذا»[٢].

قال ابن عاشور: ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ امتنان عليهم بنعمة غفلوا عنها حين حزنوا لوقوع صلح الحديبية وهي نعمة السلم؛ أي: كفّ أيدي المشركين عنهم؛ فإنهم لو واجهوهم يوم الحديبية بالقتال دون المراجعة في سبب قدومهم لرجع المسلمون بعد القتال متعبين. ولما تهيأ لهم فتح خيبر، وأنهم لو اقتتلوا مع أهل مكة لدُحض في ذلك مؤمنون ومؤمنات كانوا في مكة كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ الآية»[٣].

وقال ابن كثير: «﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي: لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال. وكذلك كفّ أيدي الناس الذين خلفتموهم وراء أظهركم عن عيالكم وحريمكم، ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: يعتبرون بذلك، فإن اللّه حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء، مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع اللّه هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن

---

(١) الفتح: الآية (٢٤).
(٢) جامع البيان (٢٦/ ٩٠-٩١).
(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٧٧).

كرهوه في الظاهر، كما قال: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾[(١)].

﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾؛ أي: بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته، وموافقتكم رسوله»[(٢)].

قال السعدي: «واحمدوا اللَّه، إذ ﴿كَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ﴾ القادرين على قتالكم، الحريصين عليه ﴿عَنكُمۡ﴾ فهي نعمة، وتخفيف عنكم.

﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الغنيمة ﴿ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يستدلون بها على خبر اللَّه الصادق، ووعده الحق، وثوابه للمؤمنين، وأن الذي قدرها سيقدر غيرها، ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ﴾ بما يقيض لكم من الأسباب ﴿صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ من العلم والإيمان والعمل»[(٣)].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ووعدكم -أيها القوم- ربكم فتح بلدة أخرى لم تقدروا على فتحها، ﴿قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾ لكم حتى يفتحها لكم.

واختلف أهل التأويل في هذه البلدة الأخرى، والقرية الأخرى التي وعدهم فتحها، التي أخبرهم أنه محيط بها، فقال بعضهم: هي أرض فارس والروم، وما يفتحه المسلمون من البلاد إلى قيام الساعة. . وقال آخرون: بل هي خيبر. . وقال آخرون: بل هي مكة»[(٤)].

قال ابن جرير: «وهذا القول الذي قاله قتادة أشبه بما دلّ عليه ظاهر التنزيل، وذلك أن اللَّه أخبر هؤلاء الذين بايعوا رسول اللَّه ﷺ تحت الشجرة، أنه محيط بقرية لم يقدروا عليها، ومعقولٌ أنه لا يقال لقوم لم يقدروا على هذه المدينة، إلا أن يكونوا قد راموها فتعذّرت عليهم، فأما وهم لم يروموها فتتعذّر عليهم فلا يقال: إنهم لم يقدروا عليها.

فإذ كان ذلك كذلك، وكان معلومًا أن رسول اللَّه ﷺ لم يقصد قبل نزول هذه الآية عليه خيبر لحرب، ولا وجه إليها لقتال أهلها جيشًا ولا سرية، علم أن المعنيّ

---

(١) البقرة: الآية (٢١٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٢٢). وانظر زاد المعاد (٣/ ٣١٢-٣١٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٠٤).

(٤) جامع البيان (٢٦/ ٩١).

بقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ غيرها، وأنها هي التي قد عالجها ورامها، فتعذّرت فكانت مكة وأهلها كذلك، وأخبر اللَّه -تعالى ذكره- نبيه ﷺ والمؤمنين أنه أحاط بها وبأهلها، وأنه فاتحها عليهم، وكان اللَّه على كلّ ما يشاء من الأشياء ذا قدرة، لا يتعذّر عليه شيء شاءه»[١].

* * *

(١) جامع البيان (٢٦/ ٩٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- للمؤمنين به من أهل بيعة الرضوان: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ باللَّه أيها المؤمنون بمكة ﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ يقول: لانهزموا عنكم، فولوكم أعجازهم، وكذلك يفعل المنهزم من قرنه في الحرب، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ يقول: ثم لا يجد هؤلاء الكفار المنهزمون عنكم، المولوكم الأدبار، وليًّا يواليهم على حربكم، ولا نصيرًا ينصرهم عليكم؛ لأن اللَّه -تعالى ذكره- معكم، ولن يُغلب حزبُ اللهُ ناصرُه»[1].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى مبشّرًا لعباده المؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر اللَّه رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفار فارًّا مدبرًا، ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾؛ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين»[2].

قال ابن القيم: «ثم أخبر سبحانه أن الكفار لو قاتلوا أولياءه؛ لولى الكفار الأدبار غير منصورين، وأن هذه سنته في عباده قبلهم، ولا تبديل لسنته. فإن قيل: فقد قاتلوهم يوم أحد، وانتصروا عليهم، ولم يولوا الأدبار؟ قيل: هذا وعد معلَّق بشرط مذكور في غير هذا الموضع، وهو الصبر والتقوى، وفات هذا الشرط يومَ أحد بفَشَلِهم المنافي للصبر، وتنازعهم، وعصيانهم المنافي للتقوى، فصرفهم عن عدوهم، ولم يحصل الوعدُ لانتفاء شرطه»[3].

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٩٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٢٣).
(٣) زاد المعاد (٣/ ٣١٣-٣١٤).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: لو قاتلكم هؤلاء الكفار من قريش، لخذلهم اللَّه حتى يهزمهم عنكم خذلانه أمثالهم من أهل الكفر به، الذين قاتلوا أولياءه من الأمم الذين مضوا قبلهم. وأخرج قوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ نصبًا من غير لفظه؛ وذلك أن في قوله: ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ معنى: سننتُ فيهم الهزيمة والخذلان، فلذلك قيل: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ مصدرًا من معنى الكلام، لا من لفظه، وقد يجوز أن تكون تفسيرًا لما قبلها من الكلام.

وقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ يقول جلّ ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: ولن تجد -يا محمد- لسنة اللَّه التي سنّها في خلقه تغييرًا، بل ذلك دائم للإحسان جزاءه من الإحسان، وللإساءة والكفر العقاب والنكال»[1].

وقال ابن كثير: «أي: هذه سنة اللَّه وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلا نصر اللَّه الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين، نصرهم على أعدائهم من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وعددهم، وكثرة المشركين وعُددهم»[2].

وقال ابن عاشور: «والمعنى: سنّ اللَّه ذلك سنة؛ أي: جعله عادة له ينصر المؤمنين على الكافرين إذا كانت نية المؤمنين نصر دين اللَّه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾[3]، وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[4]؛ أي: أن اللَّه ضمن النصر للمؤمنين بأن تكون عاقبة حروبهم نصرًا وإن كانوا قد يُغلبون في بعض المواقع كما وقع يوم أُحد، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[5]، وقال: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[6].

وإنما يكون كمال النصر على حسب ضرورة المؤمنين وعلى حسب الإيمان والتقوى، ولذلك كان هذا الوعد غالبًا للرسول ومن معه، فيكون النصر تامًّا في حالة الخطر كما كان يوم بدر، ويكون سجالًا في حالة السعة كما في وقعة أحد. .

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٩٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٢٣).
(٣) محمد: الآية (٧).
(٤) الحج: الآية (٤٠).
(٥) الأعراف: الآية (١٢٨).
(٦) طه: الآية (١٣٢).

ويكون لمن بعد الرسول ﷺ من جيوش المسلمين على حسب تمسكهم بوصايا الرسول ﷺ»[١].

وقال: «ولما وصف تلك السنة بأنها راسخة فيما مضى، أعقب ذلك بوصفها بالتحقق في المستقبل تعميمًا للأزمنة بقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾؛ لأن اطراد ذلك النصر في مختلف الأمم والعصور، وإخبارَ اللَّه تعالى به على لسان رسله وأنبيائه، يدل على أن اللَّه أراد تأييد أحزابه، فيعلم أنه لا يستطيع كائن أن يحول دون إرادة اللَّه تعالى»[٢].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٨٢-١٨٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٨٣).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

★ غريب الآية:

أظفركم: نصركم. والظَّفَرُ: الفوزُ والانتصار؛ يقال: ظَفِرَ بِطِلْبَتِهِ وأَظْفَرْتُه بِهَا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لرسوله ﷺ، والذين بايعوا بيعة الرضوان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ يعني أن اللَّه كفّ أيدي المشركين الذين كانوا خرجوا على عسكر رسول اللَّه ﷺ بالحديبية يلتمسون غِرّتهم ليصيدوا منهم، فبعث رسول اللَّه ﷺ فأتى بهم أسرى، فخلى عنهم رسول اللَّه ﷺ، ومنّ عليهم ولم يقتلهم، فقال اللَّه للمؤمنين: وهو الذي كفّ أيدي هؤلاء المشركين عنكم، وأيديكم عنهم ببطن مكة، من بعد أن أظفركم عليهم. .

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: وكان اللَّه بأعمالكم وأعمالهم بصيرًا لا يخفى عليه منها شيء»[(١)].

قال ابن كثير: «هذا امتنان من اللَّه على عباده المؤمنين حين كفّ أيدي المشركين عنهم فلم يصل إليهم منهم سوء، وكفّ أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاًّ من الفريقين، وأوجد بينهم صلحًا فيه خيرة للمؤمنين، وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة»[(٢)].

قال ابن عاشور: «وهذا كفّ غير الكفّ المراد من قوله: ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾[(٣)].

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لإفادة التخصيص؛ أي: القصر؛ أي: لم

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٩٣-٩٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٢٣).
(٣) الفتح: الآية (٢٠).

يكفّهم عنكم ولا كفّكم عنهم إلا اللَّه تعالى، لا أنتم ولا هم؛ فإنهم كانوا يريدون الشر بكم، وأنتم حين أحطتم بهم كنتم تريدون قتلهم أو أسرهم، فإن دواعي امتداد أيديهم إليكم وامتداد أيديكم إليهم متوفرة، فلولا أن اللَّه قدّر موانع لهم ولكم لاشتبكتم في القتال، فكفَّ أيديهم عنكم بأن نبّهكم إليهم قبل أن يفاجئوكم، وكفّ أيديكم عنهم حين أمر رسوله ﷺ بأن يعفو عنهم ويطلقهم»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في سبب نزول الآية وما وقع في صلح الحديبية من الآيات والعبر

* عن أنس بن مالك أن ثمانين رجلًا من أهل مكة هبطوا على رسول اللَّه ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غرة النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلمًا فاستحياهم، فأنزل اللَّه ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾»[٢].

★ غريب الحديث:

التنعيم: بالفتح ثم السكون وكسر العين المهملة وياء ساكنة وميم، موضع بمكة في الحِلّ، وهو بين مكة وسرف على فرسخين من مكة، وقيل: على أربعة. وسمي بذلك لأن جبلًا عن يمينه يقال له: نعيم، وآخر عن شماله يقال له: ناعم، والوادي: نعمان، وبالتنعيم مساجد حول مسجد عائشة، وسقايا على طريق المدينة، منه يحرم المكيون بالعمرة[٣].

يريدون غِرة النبي ﷺ: أي: غفلته.

فأخذهم سلمًا: ضبطوه بوجهين: أحدهما: بفتح السين واللام، والثاني بإسكان اللام مع كسر السين وفتحها. قال الحميدي: ومعناه: الصلح. قال القاضي في «المشارق»: هكذا ضبطه الأكثرون، قال: والرواية الأولى أظهر،

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٨٣-١٨٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٢٢)، ومسلم (٣/ ١٤٤٢/ ١٨٠٨)، وأبو داود (٣/ ١٣٧-١٣٨/ ٢٦٨٨)، والترمذي (٥/ ٣٦٠/ ٣٢٦٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٦٤/ ١١٥١٠).

(٣) معجم البلدان (٢/ ٤٩).

ومعناها: أسَرهم، والسلم: الأسر. وجزم الخطابي بفتح اللام والسين، قال: والمراد به الاستسلام والإذعان، كقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾[1]؛ أي: الانقياد، وهو مصدر يقع على الواحد والاثنين والجمع. قال ابن الأثير: هذا هو الأشبه بالقصة؛ فإنهم لم يؤخذوا صلحًا، وإنما أخذوا قهرًا، وأسلموا أنفسهم عجزًا. قال: وللقول الآخر وجه، وهو أنه لما لم يجر معهم قتال، بل عجزوا عن دفعهم والنجاة منهم، فرضوا بالأسر، فكأنهم قد صولحوا على ذلك[2].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «نزلت بسبب القوم الذين أرادوا من قريش أن يأخذوا من المسلمين غرة فظفروا بهم، فعفا عنهم النبي ﷺ، فنزلت الآية، وقيل في نزولها غير ذلك»[3].

* عن سهل بن حنيف يوم صفين قال: «أيها الناس! اتهموا أنفسكم؛ لقد كنّا مع رسول اللَّه ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتالًا لقاتلنا، وذلك في الصلح الذي كان بين رسول اللَّه ﷺ وبين المشركين، فجاء عمر بن الخطاب، فأتى رسول اللَّه ﷺ فقال: يا رسول الله! ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولما يحكم اللَّه بيننا وبينهم؟ فقال: **يا بن الخطاب! إني رسول اللَّه، ولن يضيّعني اللَّه أبدًا**، قال: فانطلق عمر، فلم يصبر متغيظًا، فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر! ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم اللَّه بيننا وبينهم؟ فقال: يا بن الخطاب! إنه رسول اللَّه، ولن يضيعه اللَّه أبدًا، قال: فنزل القرآن على رسول اللَّه ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله! أو فتح هو؟ قال: «**نعم، فطابت نفسه ورجع**»[4].

---

(١) النساء: الآية (٩٠).
(٢) شرح النووي على مسلم (١٢/ ١٥٧).
(٣) فتح الباري (٥/ ٤٤١).
(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٨٥-٤٨٦)، والبخاري (٨/ ٧٥٥/ ٤٨٤٤)، ومسلم (٣/ ١٤١١-١٤١٢/ ١٧٨٥) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٦٣/ ١١٥٠٤).

★ **غريب الحديث:**

صفّين: هي مدينة قديمة على شاطئ الفرات، بين الرقة ومنبج، كانت بها الواقعة المشهورة بين علي ومعاوية.

الدنية: النقيصة والحالة الناقصة.

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «وقول سهل بن حنيف: **«أيها الناس! اتهموا أنفسكم»** يعني به التثبّت فيما كانوا فيه والتصبّر، وألا يستعجلوا في أمورهم، ووجه استدلاله بها: أن تلك الحالة كان ظاهرها مكروهًا لهم صعبًا عليهم، فلما تثبتوا في أمرهم، وأطاعوا رسول اللَّه ﷺ؛ جعل اللَّه لهم من أمرهم فرجًا ومخرجًا، فكأنه يقول لهم: إن صبرتم على المكروه، وتثبتم في أمركم، واتّقيتم الله؛ جعل اللَّه لكم من هذه الفتن مخرجًا كما جعله لأصحاب رسول اللَّه ﷺ يوم الحديبية. .

وقول عمر: **«لم نعطي الدنية في ديننا؟!»**؛ يعني بالدنية: الحالة الخسيسة، ويعني به: الصلح على ما شرطوا. ولم يكن ذلك من عمر شكًّا، ولا معارضةً؛ بل كان استكشافًا لما خفي عنه، وحثًّا على قتال أهل الكفر، وإذلالهم، وحرصًا على ظهور المسلمين على عدوهم. وهذا على مقتضى ما كان عنده من القوة في دين اللَّه، والجرأة والشجاعة التي خصّه اللَّه بها»[1].

قال الحافظ: «قوله: **«اتهموا أنفسكم»** أي: في هذا الرأي؛ لأن كثيرًا منهم أنكروا التحكيم وقالوا: لا حكم إلا لله. فقال علي: كلمة حق أريد بها باطل، وأشار عليهم كبار الصحابة بمطاوعة علي، وأن لا يخالف ما يشير به؛ لكونه أعلم بالمصلحة، وذكر لهم سهل بن حنيف ما وقع لهم بالحديبية، وأنهم رأوا يومئذ أن يستمروا على القتال ويخالفوا ما دعوا إليه من الصلح، ثم ظهر أن الأصلح هو الذي كان شرع النبي ﷺ فيه»[2].

قال القرطبي: «وهذا الحديث يدل على جواز الصلح على ما شرطه العدو عند ضعف المسلمين عن مقاومة عدوهم، وعند الحاجة إلى ذلك، ولا خلاف في جواز

(١) المفهم (٣/ ٦٤٠).

(٢) فتح الباري (٨/ ٧٥٧).

الصلح عند ذلك؛ إلا ما ذكر من الخلاف في ردّ من جاء مسلمًا، وكذلك لو صولحوا على مال يؤخذ منهم، فأما إن لم تدع حاجةٌ ولا ضرورةٌ إلى ذلك، ولم يكن للعدو قوة إلا لما بذلوه من المال. فأجاز ذلك جماعة منهم الأوزاعي. ومنع ذلك مالك، وأصحابه، وعلماء المدينة»[١].

* عن المسور بن مخرمة ومروان -يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه- قالا: «خرج رسول اللَّه ﷺ زمن الحديبية، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين. فواللَّه ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيرًا لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حل حل، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: **ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل**، ثم قال: **والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات اللَّه إلا أعطيتهم إياها**. ثم زجرها، فوثبت، قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضًا، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشكي إلى رسول اللَّه ﷺ العطش، فانتزع سهمًا من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فواللَّه ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك، إذ جاء بديلُ بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة -وكانوا عيبة نصح رسول اللَّه ﷺ من أهل تهامة- فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك، وصادوك عن البيت، فقال رسول اللَّه ﷺ: **إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب، وأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة، ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن اللَّه أمره**. فقال بديل: سأبلغهم ما تقول، قال: فانطلق حتى أتى قريشًا، قال: إنا جئناكم من هذا الرجل، وسمعناه يقول قولًا، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرونا عنه بشيء، وقال

---

(١) المفهم (٣/ ٦٤٢).

ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول كذا وكذا -فحدثهم بما قال النبي ﷺ- فقام عروة بن مسعود، فقال: أي قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أو لست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد اقبلوها، ودعوني آته، قالوا: ائته، فأتاه، فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ نحوًا من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: أي محمد! أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فإني واللَّه لا أرى وجوهًا، وإني لأرى أشوابًا من الناس خليقًا أن يفرّوا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفرّ عنه وندعه؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجْزك بها لأجبتك، قال: وجعل يكلم النبي ﷺ، فكلما تكلم كلمة أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال له: أخّر يدك عن لحية رسول اللَّه ﷺ، فرفع عروة رأسه فقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة، فقال: أي غدر! ألست أسعى في غدرتك؟ -وكان المغيرة صحب قومًا في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء. ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه، قال: فواللَّه ما تنخم رسول اللَّه ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيمًا له، فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قوم! واللَّه لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، واللَّه إن رأيت مليكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمدًا! واللَّه إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كفّ رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيمًا له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال

رسول اللَّه ﷺ: **هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له. فبعثت له،** واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له: مكرز بن حفص، فقال: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: **هذا مكرز، وهو رجل فاجر.** فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه، إذ جاء سهيل بن عمرو -قال معمر: فأخبرني أيوب عن عكرمة: أنه لما جاء سهيل بن عمرو، قال النبي ﷺ: **قد سهل لكم من أمركم**- قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو، فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتابًا، فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: **بسم اللَّه الرحمن الرحيم.** فقال سهيل: أما (الرحمن) فواللَّه ما أدري ما هي؟ ولكن اكتب: باسمك اللهم، كما كنت تكتب، فقال المسلمون: واللَّه لا نكتبها إلا (بسم اللَّه الرحمن الرحيم)، فقال النبي ﷺ: **اكتب: باسمك اللهم.** ثم قال: **هذا ما قاضى عليه محمد رسول اللَّه.** فقال سهيل: واللَّه لو كنا نعلم أنك رسول اللَّه ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبداللَّه، فقال النبي ﷺ: **واللَّه إني لرسول اللَّه وإن كذبتموني. اكتب: محمد بن عبداللَّه** -قال الزهري: وذلك لقوله: **لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات اللَّه إلا أعطيتهم إياها**- فقال له النبي ﷺ: **على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به،** فقال سهيل: واللَّه لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل -وإن كان على دينك- إلا رددته إلينا، قال المسلمون: سبحان الله! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلمًا؟! فبينما هم كذلك، إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إلي، فقال النبي ﷺ: **إنا لم نقض الكتاب بعد،** قال: فواللَّه إذًا لم أصالحك على شيء أبدًا. قال النبي ﷺ: **فأجزه لي،** قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: **بلى افعل،** قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: بل قد أجزناه لك، قال أبو جندل: أي معشر المسلمين! أرد إلى المشركين وقد جئت مسلمًا؟! ألا ترون ما قد لقيت؟ -وكان قد عذّب عذابًا شديدًا في الله- قال: فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي اللَّه ﷺ فقلت: ألست نبي اللَّه

حقًّا؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلِمَ نعطي الدنية في ديننا إذًا؟ قال: إني رسول اللَّه ولست أعصيه، وهو ناصري. قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قال: قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به، قال: فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر! أليس هذا نبي اللَّه حقًّا؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا؟ قال: أيها الرجل! إنه لرسول اللَّه ﷺ، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فواللَّه إنه على الحق. قلت: أليس كان يحدثنا: أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنه يأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به؟ قال عمر: فعملت لذلك أعمالًا، قال: فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول اللَّه ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا، ثم احلقوا. قال: فواللَّه ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله! أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا، ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ حتى بلغ ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾[1]، فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاءه أبو بصير -رجل من قريش- وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به، حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: واللَّه إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدًا، فاستله الآخر، فقال: أجل واللَّه إنه لجيد، لقد جربت به، ثم جربت به، ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد، وفرّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول اللَّه ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذعرًا.

---

(١) الممتحنة: الآية (١٠).

فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل واللَّه صاحبي، وإني لمقتول، فجاء أبو بصير، فقال: يا نبي الله! قد واللَّه أوفى اللَّه ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني اللَّه منهم، قال النبي ﷺ: **ويل أمه، مسعر حرب، لو كان له أحد**. فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فواللَّه ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام، إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ، تناشده اللَّه والرحم لما أرسل، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ حتى بلغ: ﴿ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾[1]، وكانت حميتهم: أنهم لم يقروا أنه نبي اللَّه، ولم يقروا بـ(بسم اللَّه الرحمن الرحيم)، وحالوا بينهم وبين البيت»[2].

★ **غريب الحديث:**

بالغميم: «الغميم بفتح المعجمة، وحكى عياض فيها التصغير، قال المحب الطبري: يظهر أن المراد كراع الغميم، وهو موضع بين مكة والمدينة، اهـ. وسياق الحديث ظاهر في أنه كان قريبًا من الحديبية، فهو غير كراع الغميم الذي وقع ذكره في الصيام، وهو الذي بين مكة والمدينة، وأما الغميم هذا فقال ابن حبيب: هو قريب من مكان بين رابغ والجحفة، وقد وقع في شعر جرير والشماخ بصيغة التصغير، واللَّه أعلم»[3].

بقَترة الجيش: القَترة: الغبار الأسود.

حل حل: كلمة تقال للناقة إذا تركت السير.

فألحّت: أي: تمادت على عدم القيام، وهو من الإلحاح.

---

(١) الفتح: الآيات (٢٤-٢٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٢٣-٣٢٦و٣٢٩-٣٣١)، والبخاري (٥/ ٤١٢-٤١٦/ ٢٧٣١-٢٧٣٢) واللفظ له. وأخرجه: أبو داود (٣/ ١٩٤-٢٠٩/ ٢٧٦٥)، والنسائي (٥/ ١٨٤/ ٢٧٧٠)، وفي الكبرى (٥/ ١٧٠-١٧١/ ٨٥٨١-٨٥٨٢) مختصراً.

(٣) فتح الباري (٥/ ٤١٩).

خلأت القصواء: الخِلاء في الإبل كالحران في الخيل، والقصواء اسم ناقة رسول اللّه ﷺ، وقيل: كان طرف أذنها مقطوعًا، والقصو: قطع طرف الأذن.

ثمد: أي حفيرة فيها ماء مثمود؛ أي: قليل.

يتبرضه الناس تبرضًا: أي: يأخذونه قليلًا قليلًا.

يجيش: أي يفور.

عيبة نصح رسول اللّه ﷺ: العيبة بفتح المهملة وسكون التحتانية بعدها موحدة: ما توضع فيه الثياب لحفظها؛ أي: أنهم موضع النصح له والأمانة على سره.

أعداد مياه الحديبية: الأعداد: جمع عِدّ، وهو الماء الدائم الذي لا ينقطع.

العوذ المطافيل: العوذ: جمع عائذ، وهي الناقة ذات اللبن. والمطافيل: الأمهات اللاتي معها أطفالها. يريد أنهم خرجوا معهم بذوات الألبان من الإبل ليتزودوا بألبانها ولا يرجعوا حتى يمنعوه، أو كنى بذلك عن النساء معهن الأطفال.

جموا: استراحوا؛ من الجمام.

حتى تنفرد سالفتي: معناه: حتى تبين سالفتي؛ أي: رقبتي، والسالفة: مقدم العنق. وكنى بذلك عن القتل؛ لأن القتيل تنفرد مقدمة عنقه.

بلّحوا عليّ: معناه: امتنعوا عليّ.

أشوابًا من الناس: الأشواب: الأخلاط من أنواع شتى.

بظر اللات: البظر: قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة. واللات: اسم أحد الأصنام التي كانت قريش وثقيف يعبدونها.

أي غُدَر: بوزن عُمَر: مبالغة في وصفه بالغدر.

ضغطة: بضم الضاد وسكون الغين المعجمتين ثم طاء مهملة؛ أي: قهرًا.

يرسف في قيوده: أي: يمشي مشيًا بطيئًا بسبب القيد.

فاستمسك بغرزه: الغرز: للإبل بمنزلة الركب للفرس، والمراد به التمسك بأمره وترك المخالفة له كالذي يمسك بركب الفرس فلا يفارقه.

برد: أي خمدت حواسه، وهي كناية عن الموت.

مسعر حرب: أي: يسعرها؛ يصفه بالإقدام في الحرب والإيقاد لنارها.

سيف البحر: أي: ساحله.

★ فوائد الحديث:

قال الخطابي: «جمع هذا الحديث أنواعًا من السنن والآداب، وضروبًا من الفقه والأحكام، وقد تكلم عليها بعض أهل العلم، ففسر بعضها، وترك بعضها، ونحن نقول في ذلك بمبلغ علمنا، ومن اللَّه التوفيق..

فيه استحباب تقديم الطلائع، وبعث العيون بين يدي الجيوش، والأخذ بالحزم والاحتياط في أمر العدو؛ لئلاّ ينالوا فرصة فيهجموا على المسلمين في حال غرة، وأوان غفلة. وفيه أن النبي ﷺ أرسل الخزاعي وبعثه عينًا ثم صدقه في قوله وقبل خبره وهو كافر؛ وذلك لأن خزاعة كانوا عيبة نصح رسول اللَّه ﷺ مؤمنهم وكافرهم لحلف كانت بينهم في الجاهلية، ولعله أيضًا لم يجد من المسلمين من ينوب عنه في تعرف الخبر والتجسس والبحث عن أمر العدو. ثم إن ذلك أمر لا يكاد يتحققه إلا من لابس العدو وداخلهم واستبطن سرهم، وهذا المعنى متعذر وجوده غالبًا في المسلمين»[١].

«فيه جواز استنصاح بعض المعاهدين وأهل الذمة إذا دلت القرائن على نصحهم، وشهدت التجربة بإيثارهم أهل الإسلام على غيرهم ولو كانوا من أهل دينهم، ويستفاد منه جواز استنصاح بعض ملوك العدو استظهارًا على غيرهم، ولا يعد ذلك من موالاة الكفار، ولا موادة أعداء الله؛ بل من قبيل استخدامهم وتقليل شوكة جمعهم، وإنكاء بعضهم ببعض، ولا يلزم من ذلك جواز الاستعانة بالمشركين على الإطلاق»[٢].

«وفي قوله لأصحابه: «**أشيروا عليّ**» دليل على استحباب استشارة ذوي الرأي والنصح في الأمور المهمة، وقد كان ﷺ يستعملها كثيرًا فيما لم ينزل عليه فيه وحي»[٣].

«وقوله: «**ما خلأت القصواء، ولكن حبسها حابس الفيل**» يريد أن الخلاء لم

---

(١) معالم السنن (٢/ ٢٨١-٢٨٢).
(٢) الفتح (٥/ ٤٢٣).
(٣) معالم السنن (٢/ ٢٨٢).

يكن لها بخلق فيما مضى، ولكن اللَّه حبسها عن دخول مكة، كما حبس الفيل حين جاء به أبرهة الحبشي يريد هدم الكعبة واستباحة الحرم. ويشبه أن يكون المعنى في ذلك وفي التمثيل بحبس الفيل: أن أصحابه لو دخلوا مكة لوقع بينهم وبين قريش قتال في الحرم، وأريق فيه دماء، وكان منه الفساد والفناء، ولعل اللَّه سبحانه قد سبق في علمه ومضى في قضائه أنه سيسلم جماعة من أولئك الكفار في غابر الزمان، وسيخرج من أصلابهم قوم مؤمنون، يعبدون اللَّه ويوحدونه، فلو استبيحت مكة وأتى القتل عليهم، لانقطع ذلك النسل، ولبطلت تلك العواقب»[١].

قال ابن القيم: «أخبر عن سبب بروكها، وأن الذي حبس الفيل عن مكة حبسها للحكمة العظيمة التي ظهرت بسبب حبسها وما جرى بعده»[٢].

«وفي هذه القصة جواز التشبيه من الجهة العامة وإن اختلفت الجهة الخاصة؛ لأن أصحاب الفيل كانوا على باطل محض، وأصحاب هذه الناقة كانوا على حق محض، لكن جاء التشبيه من جهة إرادة اللَّه منع الحرم مطلقًا، أما من أهل الباطل فواضح، وأما من أهل الحق فللمعنى الذي تقدم ذكره»[٣].

«وقوله: «**والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات اللَّه إلا أعطيتهم إياها**» يريد -واللَّه أعلم- المصالحة، والجنوح إلى المسالمة، وترك القتال في الحرم، والكف عن إراقة الدم فيه، وهو معنى تعظيم حرمات الله»[٤].

«وأما مس عروة بن مسعود لحية رسول اللَّه ﷺ في أثناء مخاطبته وتناوله إياها بيده؛ فإن ذلك شكل من أشكال العرب، وعادة من عاداتهم، يفعل الرجل ذلك بصاحبه إذا حدثه، ويجري ذلك مجرى الملاطفة من بعضهم، وكان ﷺ لا يدفعه عن ذلك استمالة لقلبه، ولما يرجوه من إسلامه، ثم هداه اللَّه بعد فحسن إسلامه، وكان رئيسًا في ثقيف، وكان المغيرة بن شعبة يمنعه من ذلك الفعل تعظيمًا لرسول اللَّه ﷺ، وتوقيرًا له، وإجلالًا لقدره. وإنما يفعل الرجل ذلك لنظيره وخليطه المساوي له في الدرجة والمنزلة.

(١) معالم السنن (٢/ ٢٨٣).
(٢) زاد المعاد (٣/ ٣٠٢).
(٣) الفتح (٥/ ٤٢٠).
(٤) معالم السنن (٢/ ٢٨٣).

قال أبو سليمان: وفي قيام المغيرة على رأس رسول اللَّه ﷺ دليل على أن إقامة الرئيس الرجال على رأسه في مقام الخوف ومواطن الحروب جائز»[١].

«ولا يعارضه النهي عن القيام على رأس الجالس؛ لأن محله ما إذا كان على وجه العظمة والكبر»[٢].

وقال ابن بطال: «وفيه علامات النبوة، وبركة النبي ﷺ، وبركة السلاح المحمولة في سبيل اللَّه، ونبع الماء من السهم»[٣].

قال الخطابي: «وفي قوله ﷺ للمغيرة: «**أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء**» دليل على أن أموال أهل الشرك وإن كانت مباحة للمسلمين مغنومة إذا أخذوها منهم قهرًا، فإنها ممنوعة بالأمان لهم مردودة إلى أربابها إذا أخذت في حال المسالمة والأمان، وذلك أن المغيرة صحبهم صحبة الرفقاء في الأسفار، والرفيق في السفر يأمن رفيقه على نفسه وماله، فكان ما أتاه المغيرة من سفك دمائهم وأخذ أموالهم غدرًا منه، والغدر محظور غير جائز، والأمانة مؤداة إلى البر والفاجر»[٤].

«وفي قوله: «**ما يتنخم نخامة إلا وقعت في يد رجل**» دليل على طهارة النخامة والبزاق. وفيه دليل على طهارة الماء الذي يتطهر به، وهو الماء المستعمل.

وفي قوله حين جاء سهيل: «**قد سهل لكم من أمركم**» دليل على استحباب التفاؤل بالاسم الحسن، وإنما المكروه من ذلك الطيرة، وهو التشاؤم.

وفي امتناع سهيل بن عمرو على رسول اللَّه ﷺ أن يصدر كتاب الصلح بـ(بسم اللَّه الرحمن الرحيم) ومطالبته إياه أن يكتب (باسمك اللهم) ومساعدة رسول اللَّه ﷺ إياه على ذلك باب من العلم فيما يجب من استعمال الرفق في الأمور ومداراة الناس فيما لا يلحق دين المسلم به ضرر، ولا يبطل معه لله سبحانه حق، وذلك إن معنى (باسمك اللهم) هو معنى (بسم اللَّه الرحمن الرحيم) وإن كان فيها زيادة ثناء. قال النحويون: (اللهم) يجمع نداء ودعاء، كأنه يقول: يا اللَّه أُمَّ بنا خيرًا أو أمنا

---

(١) معالم السنن (٢/ ٢٨٤).

(٢) الفتح (٥/ ٤٢٧).

(٣) شرح صحيح البخاري (٨/ ١٢٧).

(٤) معالم السنن (٢/ ٢٨٤-٢٨٥).

بخير، وما أشبه ذلك، فحذف بعض الحروف لما كثر استعماله في كلامهم إرادة التخفيف، واختصارًا للكلام، وكذلك المعنى في تركه أن يكتب (محمد رسول الله) واقتصاره على أن يكتب (محمد بن عبدالله)؛ لأن انتسابه إلى أبيه عبداللَّه لا ينفي نبوته، ولا يسقط رسالته، وفي إجابته ﷺ إياهم إلى ذلك أن يرد إلى الكفار من جاءه منهم مسلمًا دليل على جواز أن يُقِرّ الإمام فيما يصالح عليه العدو ببعض ما فيه الضيم على أهل الدين إذا كان يرجو لذلك فيما يستقبله عاقبة حميدة، سيما إذا وافق ذلك زمان ضعف المسلمين عن مقاومة الكفار وخوفهم الغلبة منهم»[١].

قال ابن بطال: «في هذا الحديث من الفقه: جواز صلح المشركين ومهادنتهم دون مال يؤخذ منهم إذا رأى لذلك الإمام وجهًا، وفيه كتاب الشروط التي تنعقد بين المسلمين والمشركين والإشهاد عليها، ليكون ذلك شاهدًا على من رام نقض ذلك والرجوع فيه»[٢].

وقال: «وفيه جواز التنكيب على الطريق بالجيوش وإن كان في ذلك مشقة، وفيه بركة التيامن في الأمور كلها»[٣].

وقال الخطابي: «وفي قبول رسول اللَّه ﷺ إشارة أم سلمة عليه بأن يبدأ بنحر هديه وحلق رأسه دليل على جواز مشاورة النساء، وقبول قولهن إذا كنّ مصيبات فيما يشرن به، وإنما كان توقف الصحابة عن أمره الأول، فلم ينفذوا له انتظارًا أن يحدث اللَّه سبحانه لرسوله ﷺ أمرًا خلاف أمره الأول، فيتمّ لهم حرمهم وقضاء نسكهم؛ إذ كان لا ينكر في زمانه أن يؤمروا بالشيء ثم يتعقبه النسخ، فلما رأوه قد فعل النحر والحلاق في أمر نفسه، علموا أنه ليس وراء ذلك عاقبة تنتظر، فبادروا إلى الايتمار لقوله، والايتساء بفعله»[٤].

قال ابن القيم: «وهذا الاعتذار أولى أن يُعتذر عنه، وهو باطل، فإنه ﷺ لو فهم منهم ذلك؛ لم يشتد غضبُهُ لتأخير أمره. . وإنما كان تأخيرهم من السعي المغفور لا المشكور، وقد رضي اللَّه عنهم، وغفر لهم، وأوجب لهم الجنة»[٥].

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٢٨٥).
(٢) شرح صحيح البخاري (٨/ ١٢٦).
(٣) المصدر السابق (٨/ ١٢٦).
(٤) معالم السنن (٢/ ٢٨٧).
(٥) زاد المعاد (٣/ ٣٠٧).

قال الحافظ: «وفيه فضل المشورة، وأن الفعل إذا انضم إلى القول كان أبلغ من القول المجرد، وليس فيه أن الفعل مطلقًا أبلغ من القول، وجواز مشاورة المرأة الفاضلة، وفضل أم سلمة ووفور عقلها»(١).

وقال الخطابي: «وفي مراجعة عمر بن الخطاب رسول اللَّه ﷺ، ومحاجته إياه في رده أبا جندل بن سهيل وقد جاء مسلمًا، وتعجبه من ذلك الصنيع، وضيق صدره بما خفي عليه من حكمته، ولم يدركه من علم مغيبه، وفيما كان من جواب أبي بكر إياه وخروج قوله في ذلك مطابقًا لجواب رسول اللَّه ﷺ دليل واضح على أن أبا بكر أعلم الناس برسول اللَّه ﷺ، وأعرفهم بمعاني أموره، وأشدّهم اطلاعًا على ما في نفسه، وإنما كانت تلك المحاجة والمساءلة من عمر على وجه الكشف عن الشبهة، وعلى سبيل الاستبانة لوجه الحكمة فيما شاهده من ذلك الصنيع، ولم يكن ذلك منه اعتراضًا على رسول اللَّه ﷺ، ولا اتهامًا له في شيء كان منه، وإنما حرك عمر على ذلك القول شدة حرصه على أمر الدين وغلبة محبته أن يكون الظهور والغلبة للمسلمين»(٢).

وقال: «وفي ترك رسول اللَّه ﷺ رد أبي بصير إليهم وهو بناحية سِيف البحر دليل على أن من جاء منهم إلى غير دار الإمام فليس عليه رده إليهم، وإنما عقدوا الصلح على أن من جاءه منهم رده إليهم، فكان في ذلك دليل على الموضع الذي هو فيه مقيم. وأما قوله: «**ثم جاءت نسوة مؤمنات، فأنزل اللَّه سبحانه فيهن**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾(٣) الآية؛ فقد اختلف العلماء في هذا على قولين: أحدهما أن النساء لم يدخلن في الصلح، وإنما وقع بينهم على رد الرجال. وهذا أشبه القولين بالصواب، ويدل على صحة ذلك قوله في هذه الرواية: «**وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته**». والقول الآخر أن الصلح كان معقودًا بينهم على رد الرجال والنساء معًا؛ لأن في بعض الروايات: «**ولا يأتيك منا أحد إلا رددته**» فاشتمل عمومه على الرجال والنساء، إلا أن اللَّه نسخ ذلك بالآية، ومن ذهب إلى هذا الوجه أجاز نسخ السنة بالكتاب.

---

(١) فتح الباري (٥/ ٤٣٦).
(٢) معالم السنن (٢/ ٢٨٦).
(٣) الممتحنة: الآية (١٠).

وفيه دليل على أن الإمام إذا شرط في العقد ما لا يجوز فعله في حكم الدين فإن ذلك الشرط باطل»[١].

وقال أيضًا: «وفي أمر رسول اللَّه ﷺ أصحابه بعد فراغه من الكتاب أن ينحروا ويحلقوا رؤوسهم، دليل على أن من أحرم بحج أو عمرة، فأحصر بعدوّ، فإنه ينحر الهدي مكانه، ويحلّ وإن لم يكن بلغ هديه الحرم، والموضع الذي نحر رسول اللَّه ﷺ هديه فيه بالحديبية حلّ؛ إذ كان مصدودًا عن دخول الحرم. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾»[٢].

وقال: «واختلفوا في مقدار المدة التي يجوز أن يهادن إليها الكفار. فقال الشافعي: أقصاها عشر سنين لا يزاد عليها، وما وراءها محظور؛ لأن اللَّه سبحانه أمر بقتال الكفار، فاستثنينا ما أباحه رسول اللَّه ﷺ في قصة الحديبية، وما وراء ذلك محظور.

وقال قوم: لا يجوز ذلك أكثر من أربع سنين. وقال قوم: ثلاث سنين؛ لأن الصلح لم يبق فيما بينهم أكثر من ثلاث سنين. ثم إن المشركين نقضوا العهد فخرج رسول اللَّه ﷺ إلى مكة، وكان الفتح.

وقال بعضهم: ليس لذلك حد معلوم، وهو إلى الإمام يفعل ذلك على حسب ما يرى من المصلحة فيه.

قلت: كان سبب نقض العهد أن خزاعة كانت حلفاء رسول اللَّه ﷺ فقاتلهم بنو بكر، فأعانت قريش بني بكر على خزاعة، فنقضوا بذلك العهد»[٣].

قال الحافظ: «وفيه جواز النطق بما يستبشع من الألفاظ لإرادة زجر من بدا منه ما يستحق به ذلك. وقال ابن المنير: في قول أبي بكر تخسيس للعدو، وتكذيبهم، وتعريض بإلزامهم من قولهم: إن اللات بنت اللَّه، تعالى اللَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا، بأنها لو كانت بنتًا لكان لها ما يكون للإناث»[٤].

وقال: «ولما كانت قصة الحديبية مقدمة للفتح سميت فتحًا كما سيأتي في

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٢٨٧-٢٨٨).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٨٦-٢٨٧).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٨٩).

(٤) فتح الباري (٥/ ٤٢٦).

المغازي؛ فإن الفتح في اللغة فتح المغلق، والصلح كان مغلقًا حتى فتحه اللَّه، وكان من أسباب فتحه صد المسلمين عن البيت، وكان في الصورة الظاهرة ضيمًا للمسلمين، وفي الصورة الباطنة عزًّا لهم؛ فإن الناس لأجل الأمن الذي وقع بينهم اختلط بعضهم ببعض من غير نكير، وأسمع المسلمون المشركين القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وكانوا قبل ذلك لا يتكلمون عندهم بذلك إلا خفية، وظهر من كان يخفي إسلامه، فذل المشركون من حيث أرادوا العزة، وأقهروا من حيث أرادوا الغلبة»[1].

ومن الفوائد أيضًا: «أن المشركين، وأهل البدع والفجور، والبغاة والظلمة؛ إذا طلبوا أمرًا يعظّمون فيه حرمة من حرمات اللَّه تعالى؛ أجيبوا إليه وأعطوه وأعينوا عليه، وإن منعوا غيره، فيعاونون على ما فيه تعظيم حرمات اللَّه تعالى، لا على كفرهم وبغيهم، ويمنعون مما سوى ذلك، فكل من التمس المعاونة على محبوب لله تعالى مُرض له، أجيب إلى ذلك كائنًا من كان، ما لم يترتب على إعانته على ذلك المحبوب مبغوض لله أعظم منه، وهذا من أدق المواضع وأصعبها، وأشقها على النفوس، ولذلك ضاق عنه من الصحابة من ضاق، وقال عمر ما قال، حتى عمل له أعمالًا بعده، والصديق تلقاه بالرضى والتسليم، حتى كان قلبه فيه على قلب رسول اللَّه ﷺ، وأجاب عمر عما سأل عنه من ذلك بعين جواب رسول اللَّه ﷺ، وذلك يدل على أن الصديق رضي الله عنه أفضل الصحابة، وأكملهم، وأعرفهم باللَّه تعالى ورسوله ﷺ، وأعلمهم بدينه، وأقومهم بمحابه، وأشدهم موافقة له، ولذلك لم يسأل عمر عما عرض له إلا رسول اللَّه وصديقه خاصة دون سائر أصحابه»[2].

وقال الحافظ: «وفي هذا الحديث من الفوائد غير ما تقدم أشياء تتعلق بالمناسك: منها أن ذا الحليفة ميقات أهل المدينة للحاج والمعتمر، وأن تقليد الهدي وسوقه سنة للحاج والمعتمر فرضًا كان أو سنة، وأن الإشعار سنة لا مثلة، وأن الحلق أفضل من التقصير، وأنه نسك في حق المعتمر محصورًا كان أو غير محصور، وأن المحصر ينحر هديه حيث أحصر ولو لم يصل إلى الحرم، ويقاتل من صده عن البيت، وأن الأولى في حقه ترك المقاتلة إذا وجد إلى المسالمة طريقًا»[3].

---

(١) فتح الباري (٥/ ٤٣٧).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٣٠٣).

(٣) فتح الباري (٥/ ٤٤٢).

* عن عبداللَّه بن مغفل المزني قال: «كنا مع رسول اللَّه ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال اللَّه تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول اللَّه ﷺ وعلي بن أبي طالب وسهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسول اللَّه ﷺ لعلي رضي الله عنه: **اكتب: (بسم اللَّه الرحمن الرحيم)**، فأخذ سهيل بن عمرو بيده فقال: ما نعرف (الرحمن الرحيم)، اكتب في قضيتنا ما نعرف، قال: **اكتب: (باسمك اللهم)**، فكتب: **هذا ما صالح عليه محمد رسول اللَّه ﷺ أهل مكة**، فأمسك سهيل ابن عمرو بيده، وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: **اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبداللَّه بن عبد المطلب، وأنا رسول اللَّه**، فكتب. فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابًّا عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول اللَّه ﷺ، فأخذ اللَّه ﷻ بأبصارهم، فقدمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول اللَّه ﷺ: **هل جئتم في عهد أحد، أو هل جعل لكم أحد أمانًا؟**» فقالوا: لا، فخلى سبيلهم، فأنزل اللَّه ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ »[1].

★ فوائد الحديث:

قال البنا: «قوله: «**ثلاثون شابًّا**»؛ تقدم في حديث أنس السابق أنهم ثمانون رجلًا، ولا منافاة في ذلك؛ لأن كل راو أخبر بما علم»[2].

قوله ﷺ: «**هل جئتم في عهد أحد**»؛ «إنما سألهم النبي ﷺ لأنه لو كان لهم عهد أو أمان من أحد الصحابة بعد فعلهم هذا؛ لوجب العفو عنهم، وقد ظهر باعترافهم أنه ليس معهم أمان ولا عهد، فكانوا يستحقون القتل أو الدخول في الإسلام، ومع هذا فقد عفا عنهم، وخلى سبيلهم، وهذا من كرم أخلاقه، ومزيد حلمه، وحسن سياسته ﷺ»[3].

وانظر ما تقدم من الفوائد في حديث المسور الذي قبله، واللَّه الموفق.

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٨٦-٨٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٦٤-٤٦٥/ ١١٥١١)، وصححه الحاكم (٢/ ٤٦٠-٤٦١) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وأورده الحافظ في الفتح (٥/ ٤٤١) مختصراً، وقال: «إسناده صحيح».

(٢) بلوغ الأماني (١٨/ ٢٧٨).

(٣) المصدر السابق (١٨/ ٢٧٨).

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾

★ غريب الآية:

معكوفًا: محبوسًا. ومنه الاعتكاف، وهو الاحتباس في المسجد للعبادة. وعكف على الأمر أقام عليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: هؤلاء المشركون من قريش هم الذين جحدوا توحيد اللَّه، وصدّوكم أيها المؤمنون باللَّه عن دخول المسجد الحرام، وصدّوا الهدي ﴿مَعْكُوفًا﴾، يقول: محبوسًا عن أن يبلغ محله. فموضع (أن) نصب لتعلقه إن شئت بـ(معكوف)، وإن شئت بـ(صدّوا). وكان بعض نحويي البصرة يقول في ذلك: وصدّوا الهدي معكوفًا كراهية أن يبلغ محله.

وعنى بقوله -تعالى ذكره-: ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أن يبلغ محلّ نحره، وذلك دخول الحرم، والموضع الذي إذا صار إليه حلّ نحره، وكان رسول اللَّه ﷺ ساق معه حين خرج إلى مكة في سَفرته تلك سبعين بدنة»[1].

قال ابن عاشور: «﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾: استئناف انتقل به من مقام الثناء على المؤمنين الذين بايعوا رسول اللَّه ﷺ، وما اكتسبوا بتلك البيعة من رضى اللَّه تعالى وجزائه ثواب الآخرة، وخير الدنيا عاجله وآجله، وضمان النصر لهم في قتال المشركين، وما هَيّأ لهم من أسباب النصر إلى تعيير المشركين بالمذمة التي أتوا بها، وهي صد المسلمين عن المسجد الحرام، وصد الهدي عن أن يبلغ به إلى أهله، فإنها سبة لهم بين العرب، وهم أولى الناس بالحفاوة بمن يعتمرون، وهم يزعمون أنهم أهل حرم اللَّه زواره ومعظّميه،

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٩٥).

وقد كان من عادتهم قبول كل زائر للكعبة من جميع أهل الأديان، فلا عذر لهم في منع المسلمين، ولكنهم حملتهم عليه الحمية . .

وفائدة ذكر هذا الحال التشنيع على الذين كفروا في صدهم المسلمين عن البيت بأنهم صدوا الهدايا أن تبلغ محلها، حيث اضطرّ المسلمون أن ينحروا هداياهم في الحديبية، فقد عطلوا بفعلهم ذلك شعيرة من شعائر اللّه، ففي ذكر الحال تصوير لهيئة الهدايا وهي محبوسة»[1].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن الكفار من مشركي العرب من قريش، ومن مالأهم على نصرتهم على رسول اللّه ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ؛ أي: هم الكفار دون غيرهم، ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ؛ أي: وأنتم أحق به، وأنتم أهله في نفس الأمر، ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ ؛ أي: وصدوا الهدي أن يصل إلى محله، وهذا من بغيهم وعنادهم، وكان الهدي سبعين بدنة»[2].

وقال السعدي: «ذكر تعالى الأمور المهيجة على قتال المشركين، وهي كفرهم باللّه ورسوله، وصدهم رسول اللّه ومن معه من المؤمنين، أن يأتوا للبيت الحرام زائرين معظمين له بالحج والعمرة، وهم الذين أيضًا صدوا ﴿الْهَدْيَ مَعْكُوفًا﴾ أي: محبوسًا ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ وهو محل ذبحه وهو مكة، فمنعوه من الوصول إليه ظلمًا وعدوانًا»[3].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٨٧-١٨٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٢٥).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

★ غريب الآية:

معرة: المَعَرَّةُ: العيبُ والمَسَبَّةُ والمَذَمَّةُ؛ من عَرَّ قَوْمَه: إذا أدخل عليهم ما يلطخ سُمْعَتَهُمْ.

تَزَيَّلُوا: تَمَيَّزُوا. من قولك: زِلْتُهُ أَزِيلُهُ؛ أي: مَيَّزْتُهُ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولولا رجال من أهل الإيمان ونساء منهم أيها المؤمنون باللَّه أن تطؤوهم بخيلكم ورجلكم لم تعلموهم بمكة، وقد حبسهم المشركون بها عنكم، فلا يستطيعون من أجل ذلك الخروج إليكم فتقتلوهم. .

واختلف أهل التأويل في المعرّة التي عناها اللَّه في هذا الموضع، فقال بعضهم: عنى بها الإثم. . وقال آخرون: عنى بها غرم الدية. . وإنما المعنى: فتصيبكم من قبلهم معرّة تعرّون بها، يلزمكم من أجلها كفّارة قتل الخطأ، وذلك عتق رقبة مؤمنة، من أطاق ذلك، ومن لم يطق فصيام شهرين.

وإنما اخترت هذا القول. . لأن اللَّه إنما أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يكن هاجر منها، ولم يكن قاتله علم إيمانه الكفارة دون الدية، فقال: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[1] لم يوجب على قاتله خطأ ديته، فلذلك قلنا: عنى بالمعرّة في هذا الموضع الكفّارة، و(أن) من قوله: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ في موضع رفع ردًّا على الرجال؛ لأن معنى الكلام: ولولا أن

(١) النساء: الآية (٩٢).

تطؤوا رجالًا مؤمنين ونساءً مؤمنات لم تعلموهم، فتصيبكم منهم معرّة بغير علم؛ لأذن اللَّه لكم أيها المؤمنون في دخول مكة، ولكنه حال بينكم وبين ذلك ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يقول: ليدخل اللَّه في الإسلام من أهل مكة من يشاء قبل أن تدخلوها، وحذف جواب «لولا» استغناء بدلالة الكلام عليه.

وقوله: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ يقول: لو تميز الذين في مشركي مكة من الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات، الذين لم تعلموهم منهم، ففارقوهم وخرجوا من بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يقول: لقتلنا من بقي فيها بالسيف، أو لأهلكناهم ببعض ما يؤلمهم من عذابنا العاجل»[1].

قال ابن عاشور: «أتبع النعي على المشركين سوء فعلهم من الكفر والصد عن المسجد الحرام، وتعطيل شعائر اللَّه وعده المسلمين بفتح قريب ومغانم كثيرة، بما يدفع غرور المشركين بقوتهم، ويسكن تطلع المسلمين لتعجيل الفتح، فبيّن أن اللَّه كف أيدي المسلمين عن المشركين مع ما قرره آنفًا من قوله: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ أنه إنما لم يأمر المسلمين بقتال عدوهم لمّا صدوهم عن البيت؛ لأنه أراد رحمة جمع من المؤمنين والمؤمنات كانوا في خلال أهل الشرك لا يعلمونهم، وعصم المسلمين من الوقوع في مصائب من جراء إتلاف إخوانهم»[2].

قال القرطبي: «هذه الآية دليل على مراعاة الكافر في حرمة المؤمن، إذ لا يمكن أذية الكافر إلا بأذية المؤمن.

قال أبو زيد: قلت لابن القاسم: أرأيت لو أن قومًا من المشركين في حصن من حصونهم، حصرهم أهل الإسلام وفيهم قوم من المسلمين أسارى في أيديهم؛ أيحرق هذا الحصن أم لا؟ قال: سمعت مالكًا وسئل عن قوم من المشركين في مراكبهم: أنرمي في مراكبهم بالنار ومعهم الأسارى في مراكبهم؟ قال: فقال مالك: لا أرى ذلك؛ لقوله تعالى لأهل مكة: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. وكذلك لو تترّس كافر بمسلم لم يجز رميه. وإن فعل ذلك فاعل

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٠٢-١٠٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٨٨-١٨٩).

فأتلف أحدًا من المسلمين فعليه الدية والكفارة. فإن لم يعلموا فلا دية ولا كفارة، وذلك أنهم إذا علموا فليس لهم أن يرموا، فإذا فعلوه صاروا قتلة خطأ والدية على عواقلهم. فإن لم يعلموا فلهم أن يرموا. وإذا أبيحوا الفعل لم يجز أن يبقى عليهم فيها تِباعة.

قال ابن العربي: وقد قال جماعة: إن معناه: لو تزيلوا عن بطون النساء وأصلاب الرجال. وهذا ضعيف؛ لأن مَنْ في الصلب أو في البطن لا يوطأ، ولا تصيب منه معرة. وهو سبحانه قد صرح فقال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ وذلك لا ينطلق على مَنْ في بطن المرأة وصلب الرجال، وإنما ينطلق على مثل الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، وأبي جندل بن سهيل، وكذلك قال مالك. وقد حاصرنا مدينة للروم فحبس عنهم الماء، فكانوا يُنزلون الأسارى يستقون لهم الماء، فلا يقدر أحد على رميهم بالنبل، فيحصل لهم الماء بغير اختيارنا.

وقد جوز أبو حنيفة وأصحابه والثوري الرمي في حصون المشركين وإن كان فيهم أسارى من المسلمين وأطفالهم. ولو تترّس كافر بولد مسلم رمي المشرك، وإن أصيب أحد من المسلمين فلا دية فيه ولا كفارة. وقال الثوري: فيه الكفارة ولا دية. وقال الشافعي بقولنا. وهذا ظاهر؛ فإن التوصل إلى المباح بالمحظور لا يجوز، سيما بروح المسلم، فلا قول إلا ما قاله مالك رضي الله عنه. والله أعلم»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية

* عن أبي جمعة جنبذ بن سبع قال: «قاتلت النبي ﷺ أول النهار كافرًا، وقاتلت معه آخر النهار مسلمًا، وكنا ثلاثة رجال وسبع نسوة، وفينا أنزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ »[٢].

---

(١) جامع أحكام القرآن (١٦/ ١٨٩).

(٢) أخرجه: أبو يعلى (٣/ ١٢٩/ ١٥٦٠)، والطبراني (٢/ ٢٩٠/ ٢٢٠٤) و(٤/ ٢٤/ ٣٥٤٣)، وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٩٨) وقال: «رواه أبو يعلى ورجاله ثقات»، وفي (٧/ ١٠٧) وقال: «رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات»، وجود إسناده السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٥٣٤).

★ **فوائد الحديث:**

دل الحديث على أن سبب نزول الآية هو وجود رجال ونساء من أهل الإيمان بين أظهر المشركين، يكتمون إيمانهم ويخفونه خيفة على أنفسهم من قومهم، وليسوا متميزين بمحلة أو مكان يمكن ألا ينالهم أذى، كما أنكم لا تعلمونهم ولا تفطنون لهم أيها المسلمون، فلولا ذلك كله لسلّطناكم عليهم، ولقتلتموهم قتلًا ذريعًا وأبدتم خضراءهم[1].

* * *

(١) أفاده ابن كثير (٧/ ٣٢٥) بتصرف.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الحميّة: الأنفة. يقال: حميت عن كذا حَمِيَّةً: إذا أَنِفْت منه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ حين جعل سهيل بن عمرو في قلبه الحمية، فامتنع أن يكتب في «كتاب المقاضاة» الذي كتب بين يدي رسول اللَّه ﷺ والمشركين: (بسم اللَّه الرحمن الرحيم)، وأن يكتب فيه: (محمد رسول الله)، وامتنع هو وقومه من دخول رسول اللَّه ﷺ عامه ذلك. .

و(إذ) من قوله: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من صلة قوله: ﴿لَعَذَّبْنَا﴾. وتأويل الكلام: لعذّبنا الذين كفروا منهم عذابًا أليمًا، حين جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية. .

وقال: ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ لأن الذي فعلوا من ذلك كان جميعه من أخلاق أهل الكفر، ولم يكن شيء منه مما أذن اللَّه لهم به، ولا أحد من رسله.

وقوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فأنزل اللَّه الصبر والطمأنينة والوقار على رسوله وعلى المؤمنين، إذ حمى الذين كفروا حمية الجاهلية، ومنعوهم من الطواف بالبيت، وأبوا أن يكتبوا في الكتاب بينه وبينهم: (بسم اللَّه الرحمن الرحيم)، و(محمد رسول الله)، ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ يقال: ألزمهم قول: لا إله إلا اللَّه، التي يتقون بها النار، وأليم العذاب.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل على اختلاف في ذلك منهم»[1].

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٠٣-١٠٤).

قال ابن القيم: «أخبر سبحانه عما جعله الكفار في قلوبهم من حمية الجاهلية، التي مصدرها الجهل والظلم، التي لأجلها صدوا رسوله وعباده عن بيته، ولم يقروا بـ(بسم اللَّه الرحمن الرحيم)، ولم يقروا لمحمد بأنه رسول اللَّه مع تحققهم صدقه، وتيقنهم صحة رسالته بالبراهين التي شاهدوها، وسمعوا بها في مدة عشرين سنة. وأضاف هذا الجعل إليهم وإن كان بقضائه وقدره، كما يضاف إليهم سائر أفعالهم التي هي بقدرتهم وإرادتهم، ثم أخبر سبحانه أنه أنزل في قلب رسوله وأوليائه من السكينة ما هو مقابل لما في قلوب أعدائه من حمية الجاهلية، فكانت السكينة حظ رسوله وحزبه، وحمية الجاهلية حظ المشركين وجندهم، ثم ألزم عباده المؤمنين كلمة التقوى، وهي جنس يعم كل كلمة يتقى اللَّه بها، وأعلى نوعها كلمة الإخلاص، وقد فسرت بـ(بسم اللَّه الرحمن الرحيم)، وهي الكلمة التي أبت قريش أن تلتزمها، فألزمها اللَّه أولياءه وحزبه، وإنما حرمها أعداءه صيانة لها عن غير كفئها، وألزمها من هو أحق بها وأهلها، فوضعها في موضعها، ولم يضيعها بوضعها في غير أهلها، وهو العليم بمحال تخصيصه ومواضعه»[1].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ يقول -تعالى ذكره-: وكان رسول اللَّه ﷺ والمؤمنون أحق بكلمة التقوى من المشركين، ﴿وَأَهْلَهَا﴾ يقول: وكان رسول اللَّه ﷺ والمؤمنون أهل كلمة التقوى دون المشركين.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: ولم يزل اللَّه بكل شيء ذا علم، لا يخفى عليه شيء هو كائن، ولعلمه أيها الناس بما يحدث من دخولكم مكة وبها رجال مؤمنون، ونساء مؤمنات لم تعلموهم، لم يأذن لكم بدخولكم مكة في سفرتكم هذه»[2].

وقال ابن كثير: «﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر»[3].

قال الرازي: «إن اللَّه تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن، فأشار إلى ثلاثة أشياء:

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٣١٤-٣١٥). (٢) جامع البيان (٢٦/ ١٠٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٦٠٧-٦٠٨).

أحدها: جعل ما للكافرين بجعلهم فقال: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وجعل ما للمؤمنين بجعل اللَّه فقال: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، وبين الفاعلين ما لا يخفى.

ثانيها: جعل للكافرين الحمية، وللمؤمنين السكينة، وبين المفعولين تفاوت على ما سنذكره.

ثالثها: أضاف الحمية إلى الجاهلية، وأضاف السكينة إلى نفسه حيث قال: ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾، وقال: ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾، وبين الإضافتين ما لا يذكر»[١].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه أنزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين. والسكينة تشمل الطمأنينة والسكون إلى الحق والثبات والشجاعة عند البأس.

وقد ذكر -جل وعلا- إنزاله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين في (براءة) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢]، وذكر إنزال سكينته على رسوله في قوله في (براءة): ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾[٣] الآية.

وذكر إنزاله سكينته على المؤمنين في قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾[٤] الآية.

وهذه الآيات كلها لم يبين فيها موضع إنزال السكينة، وقد بين في هذه السورة الكريمة أن محل إنزال السكينة هو القلوب، وذلك في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٥] الآية»[٦].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير كلمة التقوى

* عن عثمان بن عفان قال: «سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقًّا من قلبه إلا حُرّم على النار**. فقال له عمر بن الخطاب: أنا أحدّثك ما هي؟ هي كلمة الإخلاص التي ألزمها اللَّه تبارك وتعالى محمدًا ﷺ وأصحابه،

---

(١) التفسير الكبير (٢٨/ ١٠٣).
(٢) التوبة: الآية (٢٦).
(٣) التوبة: الآية (٤٠).
(٤) الفتح: الآية (١٨).
(٥) الفتح: الآية (٤).
(٦) أضواء البيان (٧/ ٦٠٧-٦٠٨).

وهي كلمة التقوى التي ألاَصَ عليها نبي اللَّه ﷺ عمَّه أبا طالب عند الموت: شهادة أن لا إله إلا الله»[١].

★ غريب الحديث:

ألاص عليها: أي: أداره عليها، وراوده فيها.

★ فوائد الحديث:

قال ابن العربي: «قد بيّنّا أن التقوى هي اتخاذ وقاية دون سخط اللَّه وعذابه، ولا وقاية أعظم من كلمة التوحيد؛ فإنها وقاية عن الخلود وسائر الطاعات وقاية عن دخول النار. وفيها تطويل مستغنى عنه، جماعه أن كلمة التقوى كل قول يوجب وقاية عن محذور من أمر الله»[٢].

وقال شيخ الإسلام: «فكل من تحرّى الصدق في خبره، والعدل في أمره، فقد لزم كلمة التقوى. وأصدق الكلام وأعدله قول: لا إله إلا اللَّه، فهو أخص الكلمات بأنها كلمة التقوى»[٣].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في وصف هذه الكلمة العظيمة (لا إله إلا الله): «كلمة قامت بها الأرض والسموات، وخُلقت لأجلها جميع المخلوقات، وبها أرسل اللَّه تعالى رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، ولأجلها نُصبت الموازين، ووضعت الدواوين، وقام سوق الجنة والنار، وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، فهي منشأ الخلق والأمر، والثواب والعقاب، وهي الحق الذي خلقت له الخليقة، وعنها وعن حقوقها السؤال والحساب، وعليها يقع الثواب والعقاب، وعليها نُصبت القبلة، وعليها أُسّست الملة، ولأجلها جُرّدت سيوف الجهاد، وهي حق اللَّه على جميع العباد، فهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وعنها يُسأل الأولون والآخرون»[٤].

قال الشنقيطي: «والحاصل أن الرابطة الحقيقية التي تجمع المفترق وتؤلف

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٦٣)، وصححه الحاكم (١/ ٣٥١) ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٥): «رجاله ثقات، رواه أحمد»، وصحح إسناده أحمد شاكر.

(٢) عارضة الأحوذي (١٢/ ١٥٠-١٥١).

(٣) منهاج السنة (٥/ ٨٠).

(٤) زاد المعاد (١/ ٣٤).

المختلف هي رابطة (لا إله إلا الله)؛ ألا ترى أن هذه الرابطة التي تجعل المجتمع الإسلامي كله كأنه جسد واحد، وتجعله كالبنيان يشد بعضه بعضًا، عطفت قلوب حملة العرش ومن حوله من الملائكة على بني آدم في الأرض مع ما بينهم من الاختلاف؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩﴾[1]، فقد أشار تعالى إلى أن الرابطة التي ربطت بين حملة العرش ومن حوله، وبين بني آدم في الأرض حتى دعوا اللَّه لهم هذا الدعاء الصالح العظيم، إنما هي الإيمان باللَّه -جل وعلا-.

وبالجملة، فلا خلاف بين المسلمين أن الرابطة التي تربط أفراد أهل الأرض بعضهم ببعض، وتربط بين أهل الأرض والسماء، هي رابطة (لا إله إلا الله) فلا يجوز ألبتة النداء برابطة غيرها»[2].

* * *

(١) غافر: الآيات (٧-٩).

(٢) أضواء البيان (٣/ ٤٠٧-٤٠٨).

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: لقد صدق اللَّه رسوله محمدًا رؤياه التي أراها إياه أنه يدخل هو وأصحابه بيت اللَّه الحرام آمنين، لا يخافون أهل الشرك، مقصّرًا بعضهم رأسه، ومحلّقًا بعضهم. . وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ يقول -تعالى ذكره-: فعلم اللَّه -جل ثناؤه- ما لم تعلموا، وذلك علمه -تعالى ذكره- بما بمكة من الرجال والنساء المؤمنين، الذين لم يعلمهم المؤمنون، ولو دخلوها في ذلك العام لوطئوهم بالخيل والرَّجل، فأصابتهم منهم معرّة بغير علم، فردّهم اللَّه عن مكة من أجل ذلك»[1].

قال ابن كثير: «كان رسول اللَّه ﷺ قد أري في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- في ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «**بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟**» قال: لا، قال: «**فإنك آتيه ومطّوّف به**». وبهذا أجاب الصديق، رضي الله عنه، أيضًا حذو القذة بالقذة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ﴾: وهذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء، وقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: في حال دخولكم. وقوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٠٧).

﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾، حال مقدرة؛ لأنهم في حال حرمهم لم يكونوا محلقين ومقصرين، وإنما كان هذا في ثاني الحال، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره.

وقوله: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حال مؤكدة في المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد. وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع؛ فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج في صفر إلى خيبر ففتحها اللَّه عليه بعضها عنوة وبعضها صلحًا، وهي إقليم عظيم كثير النخل والزروع، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدها أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة، جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعري وأصحابه، ولم يغب منهم أحد، قال ابن زيد: إلا أبا دجانة سماك بن خرشة، كما هو مقرر في موضعه ثم رجع إلى المدينة. فلما كان في ذي القعدة سنة سبع خرج إلى مكة معتمرًا هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدي، قيل: كان ستين بدنة، فلبّى وسار أصحابه يلبّون. فلما كان قريبًا من مَرّ الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه. فلما رآه المشركون رعبوا رعبًا شديدًا، وظنّوا أن رسول اللَّه ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذي بينه وبينهم من وضع القتال عشر سنين، وذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول اللَّه ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج، وسار إلى مكة بالسيف مغمدة في قربها، كما شارطهم عليه. فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص فقال: يا محمد! ما عرفناك تنقض العهد. قال: وما ذاك؟ قال: دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح. فقال: لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يأجج، فقال: بهذا عرفناك، بالبر والوفاء. وخرجت رؤوس الكفار من مكة لئلاّ ينظروا إلى رسول اللَّه ﷺ ولا إلى أصحابه غيظًا وحنقًا. وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق، وعلى البيوت ينظرون إلى رسول اللَّه ﷺ وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام، وبين يديه أصحابه يلبّون، والهدي قد بعثه إلى ذي طُوى، وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبداللَّه بن رواحة الأنصاري آخذ بزمام ناقة رسول اللَّه ﷺ يقودها، وهو يقول:

باسم الذي لا دينَ إلا دينُه خَلّوا بني الكفّار عن سبيله
كما ضربناكم على تنزيله ويذهل الخليل عن خليله
في صحف تُتلى على رسوله باسم الذي محمد رسوله
اليومَ نضربكم على تأويله ضربًا يزيل الهام عن مقيله
قد أنزل الرحمن في تنزيله بأنّ خير القتل في سبيله
يا ربّ إني مؤمن بقيله»[١].

وقوله: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ اختلف أهل التأويل في الفتح القريب، الذي جعله اللَّه للمؤمنين دون دخولهم المسجد الحرام محلّقين رؤوسهم ومقصّرين، فقال بعضهم: هو الصلح الذي جرى بين رسول اللَّه ﷺ وبين مشركي قريش. . وقال آخرون: عنى بالفتح القريب في هذا الموضع: فتح خيبر. .

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن اللَّه أخبر أنه جعل لرسوله والذين كانوا معه من أهل بيعة الرضوان فتحًا قريبًا من دون دخولهم المسجد الحرام، ودون تصديقه رؤيا رسول اللَّه ﷺ، وكان صلح الحديبية وفتح خيبر دون ذلك، ولم يخصص اللَّه -تعالى ذكره- خبره ذلك عن فتح من ذلك دون فتح، بل عمّ ذلك، وذلك كله فتح جعله اللَّه من دون ذلك.

والصواب أن يعمّه كما عمّه، فيقال: جعل اللَّه من دون تصديقه رؤيا رسول اللَّه ﷺ بدخوله وأصحابه المسجد الحرام محلّقين رؤوسهم ومقصّرين، لا يخافون المشركين صلح الحديبية وفتح خيبر»[٢].

وقال ابن كثير: «﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤية النبي ﷺ فتحًا قريبًا، وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين»[٣].

قال السعدي: «ولما كانت هذه الواقعة، مما تشوشت به قلوب بعض المؤمنين، وخفيت عليهم حكمتها، فبيّن تعالى حكمتها ومنفعتها، وهكذا سائر أحكامه

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٣٧-٣٣٨).
(٢) جامع البيان (٢٦/ ١٠٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٤١).

الشرعية، فإنها كلها هدى ورحمة»[١].

قال ابن القيم: «بين سبحانه حكمة ما كرهوه عام الحديبية من صد المشركين لهم حتى رجعوا ولم يعتمروا، وبيّن لهم أن مطلوبهم يحصل بعد هذا فحصل في العام المقبل، وقال سبحانه: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو صلح الحديبية، وهو أول الفتح المذكور في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ فإن بسببه حصل من مصالح الدين والدنيا والنصر وظهور الإسلام وبطلان الكفر ما لم يكونوا يرجونه قبل ذلك، ودخل الناس بعضهم في بعض، وتكلم المسلمون بكلمة الإسلام وبراهينه وأدلته جهرة لا يخافون، ودخل في ذلك الوقت في الإسلام قريب ممن دخل فيه إلى ذلك الوقت، وظهر لكل أحد بغي المشركين وعداوتهم وعنادهم.

وعلم الخاصّ والعامّ أن محمدًا وأصحابه أولو الحق والهدى، وأن أعداءهم ليس بأيديهم إلا العدوان والعناد، فإن البيت الحرام لم يُصد عنه حاج ولا معتمر من زمن إبراهيم، فتحققت العرب عناد قريش وعداوتهم، وكان ذلك داعية لبشر كثير إلى الإسلام، وزاد عناد القوم وطغيانهم، وذلك من أكبر العون على نفوسهم، وزاد صبر المؤمنين واحتمالهم والتزامهم لحكم اللَّه وطاعة رسوله، وذلك من أعظم أسباب نصرهم، إلى غير ذلك من الأمور التي علمها اللَّه ولم يعلمها الصحابة، ولهذا سمّاه فتحًا»[٢].

وقال أيضًا: «كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدي هذا الفتح العظيم، أمن الناس به، وكلم بعضهم بعضًا، وناظره في الإسلام، وتمكن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه، والدعوة إليه، والمناظرة عليه، ودخل بسببه بشر كثير في الإسلام، ولهذا سماه اللَّه فتحًا في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾، نزلت في شأن الحديبية، فقال عمر: يا رسول الله! أوفتح هو؟ قال: نعم. وأعاد سبحانه وتعالى ذكر كونه فتحًا، فقال: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، وهذا شأنه -سبحانه- أن يقدم بين يدي الأمور العظيمة مقدمات تكون كالمدخل إليها، المنبهة عليها، كما قدم بين يدي قصة المسيح وخلقه من غير أب قصة زكريا، وخلق الولد له مع كونه كبيرًا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٠٩-١١٠).
(٢) شفاء العليل (١/ ٣٤).

لا يولد لمثله، وكما قدم بين يدي نسخ القبلة قصة البيت وبنائه وتعظيمه والتنويه به، وذكر بانيه وتعظيمه ومدحه، ووطأ قبل ذلك كله بذكر النسخ وحكمته المقتضية له وقدرته الشاملة له، وهكذا ما قدم بين يدي مبعث رسوله ﷺ من قصة الفيل وبشارات الكهان به وغير ذلك، وكذلك الرؤيا الصالحة لرسول اللَّه ﷺ كانت مقدمة بين يدي الوحي في اليقظة، وكذلك الهجرة كانت مقدمة بين يدي الأمر بالجهاد. ومن تأمل أسرار الشرع والقدر، رأى من ذلك ما تبهر حكمته الألباب»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل الحلق للرجال وحكم النساء في ذلك

* عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول اللَّه ﷺ قال: **اللهم ارحم المحلقين**. قالوا: والمقصرين يا رسول اللَّه، قال: **اللهم ارحم المحلقين**. قالوا: والمقصرين يا رسول اللَّه، قال: **والمقصرين**»[٢].

★ فوائد الحديث:

قال أبو عمر: «المحفوظ في هذا الحديث أن دعاء رسول اللَّه ﷺ للمحلقين ثلاثًا، وللمقصرين مرة، إنما جرى يوم الحديبية حين صُدّ عن البيت، فنحر وحلق ودعا للمحلقين، وهذا معروف مشهور محفوظ من حديث ابن عمر وابن عباس[٣] وأبي سعيد الخدري[٤] وأبي هريرة[٥] وحبشي بن جنادة[٦] وغيرهم»[٧].

(١) زاد المعاد (٣/ ٤١٩-٤٢٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٧٩)، والبخاري (٣/ ٧١٥-٧١٦/ ١٧٢٧)، ومسلم (٢/ ٩٤٥/ ١٣٠١)، وأبو داود (٢/ ٤٩٩-٥٠٠/ ١٩٧٩)، والترمذي (٣/ ٢٥٦/ ٩١٣)، وابن ماجه (٢/ ١٠١٢/ ٣٠٤٤)، والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٤٩/ ٤١١٥).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٥٣)، وابن ماجه (٢/ ١٠١٢/ ٣٠٤٥)، وأبو يعلى (٥/ ١٠٦/ ٢٧١٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٠)، وأبو يعلى (٢/ ٤٥٣/ ١٢٦٣). قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٦٢): «وفيه أبو إبراهيم الأنصاري جهله أبو حاتم، وبقية رجاله رجال الصحيح». والحديث يشهد له حديث ابن عمر المتقدم وغيره.

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣١)، والبخاري (٣/ ٧١٦/ ١٧٢٨)، ومسلم (٢/ ٩٤٦/ ١٣٠٢)، وابن ماجه (٢/ ١٠١٢/ ٣٠٣٤).

(٦) أخرجه: أحمد (٤/ ١٦٥)، والطبراني في الكبير (٤/ ١٥-١٦/ ٣٥٠٩-٣٥١٠). قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٦٢): «رجال أحمد رجال الصحيح».

(٧) فتح البر (٩/ ١٢٤).

قال الحافظ: «ولم يسق ابن عبدالبر عن ابن عمر في هذا شيئًا، ولم أقف على تعيين الحديبية في شيء من الطرق عنه، وقد قدمت في صدر الباب أنه مخرج من مجموع الأحاديث عنه أن ذلك كان في حجة الوداع كما يومئ إليه صنيع البخاري»(١).

قال الشيخ الألباني: «قد وقفت على التعيين المذكور الذي خفي على الحافظ ومن قبله ابن عبدالبر، والحمد لله على توفيقه، فقال عبدالرزاق: أنا معمر عن أيوب عن نافع به بلفظ: «أن النبي ﷺ قال يوم الحديبية: **اللهم اغفر للمحلقين**. . » الحديث. وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين. أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٤، ١٥١)»(٢).

قال الحافظ: «الأحاديث التي فيها تعيين حجة الوداع أكثر عددًا وأصح إسنادًا. ولهذا قال النووي عقب أحاديث ابن عمر وأبي هريرة وأم الحصين(٣): هذه الأحاديث تدل على أن هذه الواقعة كانت في حجة الوداع، قال: وهو الصحيح المشهور. وقيل: كان في الحديبية. وجزم بأن ذلك كان في الحديبية إمام الحرمين في النهاية. ثم قال النووي: لا يبعد أن يكون وقع في الموضعين، انتهى. وقال عياض: كان في الموضعين، ولذا قال ابن دقيق العيد: إنه الأقرب. قلت: بل هو المتعين لتظاهر الروايات بذلك في الموضعين. . إلا أن السبب في الموضعين مختلف، فالذي في الحديبية كان بسبب توقف من توقف من الصحابة عن الإحلال لما دخل عليهم من الحزن؛ لكونهم منعوا من الوصول إلى البيت مع اقتدارهم في أنفسهم على ذلك، فخالفهم النبي ﷺ وصالح قريشًا على أن يرجع من العام المقبل، والقصة مشهورة كما ستأتي في مكانها. فلما أمرهم النبي ﷺ بالإحلال توقفوا، فأشارت أم سلمة أن يحل هو ﷺ قبلهم ففعل، فتبعوه فحلق بعضهم وقصر بعض، وكان من بادر إلى الحلق أسرع إلى امتثال الأمر ممن اقتصر على التقصير. . وأما السبب في تكرير الدعاء للمحلقين في حجة الوداع؛ فقال ابن الأثير في (النهاية): كان أكثر من حج مع رسول اللّه ﷺ لم يسق الهدي، فلما أمرهم أن

---

(١) فتح الباري (٣/ ٧١٨).

(٢) الإرواء (٤/ ٢٨٤-٢٨٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٧٠)، ومسلم (٢/ ٩٤٦/ ١٣٠٣)، والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٥٠/ ٤١١٧).

يفسخوا الحج إلى العمرة ثم يتحللوا منها ويحلقوا رؤوسهم شق عليهم، ثم لما لم يكن لهم بد من الطاعة؛ كان التقصير في أنفسهم أخف من الحلق ففعله أكثرهم، فرجح النبي ﷺ فعل من حلق؛ لكونه أبين في امتثال الأمر، انتهى. وفيما قاله نظر وإن تابعه عليه غير واحد؛ لأن المتمتع يستحب في حقه أن يقصر في العمرة ويحلق في الحج إذا كان ما بين النسكين متقاربًا، وقد كان ذلك في حقهم كذلك. والأولى ما قاله الخطابي وغيره: إن عادة العرب أنها كانت تحب توفير الشعر والتزين به، وكان الحلق فيهم قليلًا، وربما كانوا يرونه من الشهرة ومن زي الأعاجم، فلذلك كرهوا الحلق واقتصروا على التقصير. وفي حديث الباب من الفوائد أن التقصير يجزئ عن الحلق، وهو مجمع عليه إلا ما روي عن الحسن البصري أن الحلق يتعين في أول حجة، حكاه ابن المنذر بصيغة التمريض، وقد ثبت عن الحسن خلافه. قال ابن أبي شيبة: حدثنا عبد الأعلى عن هشام عن الحسن في الذي لم يحج قط، فإن شاء حلق وإن شاء قصر. نعم روى ابن أبي شيبة عن إبراهيم النخعي قال: إذا حج الرجل أول حجة حلق، فإن حج أخرى فإن شاء حلق وإن شاء قصر. ثم روي عنه أنه قال: كانوا يحبون أن يحلقوا في أول حجة وأول عمرة، انتهى. وهذا يدل على أن ذلك للاستحباب لا للزوم. نعم عند المالكية والحنابلة أن محل تعيين الحلق والتقصير أن لا يكون المحرم لبد شعره أو ضفره أو عقصه، وهو قول الثوري والشافعي في القديم والجمهور، وقال في الجديد وفاقًا للحنفية: لا يتعين إلا إن نذره أو كان شعره خفيفًا لا يمكن تقصيره أو لم يكن له شعر فيمر الموسى على رأسه. وأغرب الخطابي فاستدل بهذا الحديث لتعين الحلق لمن لبد، ولا حجة فيه، وفيه أن الحلق أفضل من التقصير، ووجهه أنه أبلغ في العبادة، وأبين للخضوع والذلة، وأدل على صدق النية، والذي يقصر يبقي على نفسه شيئًا مما يتزين به، بخلاف الحالق فإنه يشعر بأنه ترك ذلك لله تعالى. وفيه إشارة إلى التجرد. .

وأما قول النووي تبعًا لغيره في تعليل ذلك بأن المقصر يبقي على نفسه الشعر الذي هو زينة، والحاج مأمور بترك الزينة؛ بل هو أشعث أغبر؛ ففيه نظر؛ لأن الحلق إنما يقع بعد انقضاء زمن الأمر بالتقشف فإنه يحل له عقبه كل شيء إلا النساء في الحج خاصة. واستدل بقوله: «المحلقين» على مشروعية حلق جميع الرأس؛ لأنه الذي تقتضيه الصيغة، وقال بوجوب حلق جميعه مالك وأحمد، واستحبه

الكوفيون والشافعي، ويجزئ البعض عندهم، واختلفوا فيه فعن الحنفية الربع، إلا أبا يوسف فقال: النصف، وقال الشافعي: أقل ما يجب حلق ثلاث شعرات، وفي وجه لبعض أصحابه شعرة واحدة، والتقصير كالحلق، فالأفضل أن يقصر من جميع شعر رأسه، ويستحب أن لا ينقص عن قدر الأنملة، وإن اقتصر على دونها أجزأ، هذا للشافعية وهو مرتب عند غيرهم على الحلق، وهذا كله في حق الرجال»[١].

وقال شيخ الإسلام: «وإذا قصر جمع الشعر وقصّ منه بقدر الأنملة أو أقل أو أكثر، والمرأة لا تقص أكثر من ذلك، وأما الرجل فله أن يقصر ما شاء»[٢].

وقال الحافظ: «وفي الحديث أيضًا مشروعية الدعاء لمن فعل ما شرع له، وتكرار الدعاء لمن فعل الراجح من الأمرين المخير فيهما، والتنبيه بالتكرار على الرجحان، وطلب الدعاء لمن فعل الجائز وإن كان مرجوحًا»[٣].

وقال القرطبي: «أحاديث هذا الباب تدل على أن الحلاق نسك يثاب فاعله، وهو مذهب الجمهور. وذهب الشافعي في أحد قوليه وأبو ثور وأبو يوسف وعطاء إلى أنه ليس بنسك، بل هو مباح، قال الشافعي: لأنه ورد بعد الحظر، فحمل على الإباحة، كاللباس والطيب. وهذه الأحاديث ترد عليهم من وجهين: أحدهما: أنها تضمنت أن كل واحد من الحلاق والتقصير فيه ثواب، ولو كان مباحًا لاستوى فعله وتركه. وثانيهما: تفضيل الحلاق على التقصير. ولو كانا مباحين لما كان لأحدهما مزية على الآخر في نظر الشرع.

واختلف القائلون بكونهما نسكين في الموجب لأفضلية الحلاق على التقصير. فقيل: لما ذكر عن ابن عباس: قال: حلق رجال يوم الحديبية، وقصّر آخرون، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**اللهم ارحم المحلقين**» ثلاثًا. قيل: يا رسول الله! لم ظاهرت لهم بالترحم؟ قال: «**لأنهم لم يشكوا**»[٤]، وحاصله أنه أمرهم يوم الحديبية بالحلاق، فما قام منهم أحد لما وقع في أنفسهم من أمر الصلح، فلما حلق النبي ﷺ ودعا للمحلقين أو استغفر لهم ثلاثًا، وللمقصرين واحدة فبادروا إلى ذلك»[٥].

---

(١) فتح الباري (٣/ ٧١٩).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٦/ ١٣٧).
(٣) فتح الباري (٣/ ٧٢٠).
(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٥٣)، وابن ماجه (٢/ ١٠١٢/ ٣٠٤٥).
(٥) المفهم (٣/ ٤٠٣-٤٠٤).

وقال: «والمحصر في الحلاق والتقصير كغيره في كون ذلك نسكًا له، وقال أبو حنيفة وصاحباه: ليس على المحصر شيء من ذلك، ويرده حلاق النبي ﷺ يوم الحديبية»[1].

وقال ابن عبد البر: «وأما الحلاق فلم يحل بينه وبينه وهو قادر على أن يفعله، وما كان قادرًا على أن يفعله فهو غير ساقط عنه، وإنما يسقط عنه ما حيل بينه وبين عمله، وقد روي عن النبي ﷺ في الحديث المذكور في هذا الباب ما يدل على أن حكم الحلق باق على المحصرين، كما هو على من قد وصل إلى البيت سواء؛ لدعائه للمحلقين ثلاثًا وللمقصرين واحدةً، وهو الحجة القاطعة، والنظر الصحيح»[2].

وقال ابن بطال: «قال ابن القصار: والدليل على أنه نسك يجب عليه عند التحلل قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾، فخص الحلق والتقصير من بين المباحات، ولم يقل: لابسين متطيبين، فعلم أن الحلاق نسك، وليس حكمه حكم اللباس وغيره»[3].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس على النساء حلق، إنما على النساء التقصير**»[4].

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «لا خلاف في أن حكم النساء التقصير، وأن الحلاق غير لازم لهن عندنا وعند كثير من العلماء، على أن الحلاق لهن غير جائز؛ لأنه مثلة فيهن، ويدل على أنه ليس بمشروع لهن بما رواه أبو داود عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس على النساء الحلق، وإنما على النساء التقصير**»»[5].

قال ابن بطال: «أجمعوا أن النساء لا يحلقن، وأن سنّتهنّ التقصير»[6].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدم رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال المشركون: إنه

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٤٠٥).
(٢) فتح البر (٩/ ١٢٦-١٢٧).
(٣) شرح صحيح البخاري (٤/ ٤٠٢-٤٠٣).
(٤) أخرجه: أبو داود (٢/ ٥٠٢/ ١٩٨٤)، والدارمي (٢/ ٦٤).
(٥) المفهم (٣/ ٤٠٥).
(٦) شرح صحيح البخاري (٤/ ٤٠٣).

يقدم عليكم وفد وهنتهم حمى يثرب، فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم».

وزاد ابن سلمة عن أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «لما قدم النبي ﷺ لعامه الذي استأمن، قال: **ارملوا ليرى المشركون قوتكم، والمشركون من قبل قعيقعان**»[1].

★ غريب الحديث:

وهنتهم: أي: أضعفتهم.

يثرب: اسم المدينة النبوية في الجاهلية. ونهى النبي ﷺ عن تسميتها بذلك، وإنما ذكر ابن عباس ذلك حكاية لكلام المشركين[2].

إلا الإبقاء عليهم: أي: الرفق بهم والإشفاق عليهم.

وأن يمشوا ما بين الركنين: أي: اليمانيين.

الأشواط: جمع شوط، بفتح الشين، وهو الجري مرة إلى الغاية. والمراد به هنا: الطوفة حول الكعبة.

قعيقعان: اسم جبل بمكة.

★ فوائد الحديث:

قال أبو عمر: «وأما الرمل فهو المشي خببًا يشتد فيه دون الهرولة قليلًا، وأصله: أن يحرك الماشي منكبيه لشدة الحركة في مشيه، هذا حكم الثلاثة الأشواط في الطواف بالبيت، وأما الأربعة الأشواط في الطواف تتمة السبعة فحكمها المشي المعهود بالرفق، وهذا أمر مجتمع عليه أنه كذلك ينبغي للحاج والمعتمر أن يفعلها في طوافه بالبيت، يرمل ثلاثة ويمشي أربعة، إلا أنهم اختلفوا في الرمل فقال قوم: الرمل سنة من سنن الحج لا يجوز تركها، روي ذلك عن عمر بن الخطاب وعبدالله

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٤-٢٩٥)، والبخاري (٧/ ٦٤٧-٦٤٨/ ٤٢٥٦) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٩٢٣/ ١٢٦٦)، وأبو داود (٢/ ٤٤٦/ ١٨٨٦)، والنسائي (٥/ ٢٥٤-٢٥٥/ ٢٩٤٥). وأخرجه الترمذي (٣/ ٢١٧/ ٨٦٣) مختصراً، وقال: «حسن صحيح».

(٢) فتح الباري (٧/ ٦٤٨).

ابن مسعود وعبدالله بن عمر، واختلف فيه عن ابن عباس، وهو قول مالك وأصحابه والشافعي وأصحابه وأبي حنيفة وأصحابه والثوري وأحمد بن حنبل وإسحق بن راهويه وجماعة فقهاء الأمصار. وقال قوم: إن شاء رمل وإن شاء لم يرمل، قالوا: وليس الرمل سنة، قال ذلك جماعة من كبار التابعين منهم عطاء ومجاهد وطاوس والحسن وسالم والقاسم وسعيد بن جبير»[١].

قال القرطبي: «وقد بين في الحديث سبب مشروعيته، وتبيّن أيضًا من مداومة النبي ﷺ أنه ثابت دائمًا، وإن ارتفع أصل سبب مشروعيته، وهو سنة عند الفقهاء أجمعين، وروي في ذلك خلاف عن بعض الصحابة، وأن المشي أفضل، وهم محجوجون بفعل النبي ﷺ في حجة الوداع، وهو في ثلاثة أشواط يبدأ من الحجر ويختم به، كما جاء في حديث ابن عمر[٢] وغيره»[٣].

قال ابن بطال: «وقال الطبري: قد ثبت أن النبي ﷺ رمل ولا مشرك يومئذ بمكة يرائي بالرمل، فكان معلومًا أنه من مناسك الحج»[٤].

وقال أبو عمر: «لو كان رمل من أجل المشركين في عمرته كما قال ابن عباس، ما منع ذلك من أن يكون الرمل سنة؛ لأن الرمل مأخوذ عنه، محفوظ في حجته التي حجها، وليس بمكة مشرك واحد يومئذ، فرمل رسول الله ﷺ في حجته ثلاثة أشواط كمّلًا ومشى أربعًا في حجة الوداع، ولا مشرك ينظر إليه حينئذ، فصح أن الرمل سنّة. روى مالك وإسماعيل بن جعفر ويزيد بن الهاد وحاتم بن إسماعيل ويحيى القطان وغيرهم عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر: «أن رسول الله ﷺ طاف في حجة الوداع سبعًا، رمل منها ثلاثة ومشى أربعًا». وهذا في حديث جابر الحديث الطويل[٥] الذي وصف فيه حجة رسول الله ﷺ من حين خروجه إليها إلى انقضاء جميعها»[٦].

---

(١) التمهيد (فتح البر ٨/ ٤٩٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٠٠)، ومسلم (٢/ ٩٢١/ ١٢٦٢)، وأبو داود (٢/ ٤٤٨/ ١٨٩١)، وابن ماجه (٢/ ٩٨٣/ ٢٩٥٠).

(٣) المفهم (٣/ ٣٧٤).

(٤) شرح صحيح البخاري (٤/ ٢٨٨).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٢٠-٣٢١)، ومسلم (٢/ ٨٨٦-٨٩٢/ ١٢١٨)، وأبو داود (٢/ ٤٥٥-٤٦٤/ ١٩٠٥)، والترمذي (٣/ ٢١١/ ٨٥٦)، والنسائي (٥/ ٢٥١-٢٥٢/ ٢٩٣٩)، وابن ماجه (٢/ ١٠٢٢-١٠٢٧/ ٣٠٧٤).

(٦) التمهيد (فتح البر ٨/ ٤٩٤).

وقال أيضًا: «ولما ثبت هذا الحديث عن النبي ﷺ بعد عدم المشركين في الأشواط الثلاثة، علمنا أن ذلك من سنة الطواف عند القدوم، وأنه لا ينبغي لأحد من الرجال تركه إذا كان قادرًا عليه، وهو قول فقهاء الأمصار، كلهم يقولون بحديث جابر؛ لأنه الثابت في ذلك، والعلة التي حكاها ابن عباس مرتفعة، فبطل تأويل ابن عباس إن صح عنه، وبطل أن يكون في قوله حجة على السنة الثابتة»[(١)].

قال ابن بطال: «وأجمعوا أنه لا رمل على النساء في طوافهن بالبيت، ولا هرولة في سعيهن بين الصفا والمروة، وكذلك أجمعوا أنه لا رمل على من أحرم بالحج من مكة من غير أهلها؛ لأنهم رملوا في حين دخولهم مكة حين طافوا بالقدوم. واختلفوا في أهل مكة هل عليهم رمل؟ فكان ابن عمر لا يراه عليهم، واستحبه مالك والشافعي للمكي.

وعلة من لم ير الرمل للمكي أنه من سنة القادم، وليس المكي بقادم، وعلة من استحبه للمكي في طواف الإفاضة؛ لأنه طواف ينوب عن طواف القدوم وطواف الإفاضة، فاستحب له الرمل ليأتي بِسُنّة هي في أحد الطوافين، فتتم له السُّنَّةُ في ذلك، كما أنه يسعى بين الصفا والمروة في طواف الإفاضة، وغير المكي لا يسعى بين الصفا والمروة إلا مع طواف الدخول»[(٢)].

قال الحافظ: «لا يشرع تدارك الرمل، فلو تركه في الثلاث لم يقضه في الأربع؛ لأن هيئتها السكينة، فلا تغير. ويختص بالرجال، فلا رمل على النساء. ويختص بطواف يعقبه سعي على المشهور. ولا فرق في استحبابه بين ماش وراكب. ولا دم بتركه عند الجمهور»[(٣)].

قال الطبري: «لا نرى على من تركه عامدًا ولا ساهيًا قضاء ولا فدية؛ لأن من تركه فليس بتارك لعمل، وإنما هو تارك منه لهيئة وصفة، كالتلبية التي من سنة النبي ﷺ فيها العج ورفع الصوت، فإن خفض الصوت بها كان غير مضيع للتلبية ولا تاركها، وإنما ضيع صفة من صفاتها، ولا يلزمه بترك العج ورفع الصوت قضاء ولا فدية»[(٤)].

قال أبو عمر: «والحجة لمن استخف ذلك أنه شيء مختلف فيه، هل هو سنة أم

---

(١) التمهيد (فتح البر ٨/ ٤٩٥).

(٢) شرح صحيح البخاري (٤/ ٢٨٨-٢٨٩).

(٣) فتح الباري (٣/ ٦٠٢).

(٤) شرح صحيح البخاري (٤/ ٢٨٨).

لا، وإيجاب الدم عليه إيجاب فرض وإخراج مال من يده، وهذا لا يجب إلا بيقين لاشك فيه، وقد جاء عن ابن عباس نصًا فيمن ترك الرمل أنه لا شيء عليه، وهو قول عطاء وابن جريج والشافعي فيمن اتبعه، وقول الأوزاعي وأبي حنيفة وأصحابه وأحمد وإسحق وأبي ثور، كلهم يقول: لا شيء عليه في ترك الرمل، وهو أولى ما قيل به في هذا الباب لما ذكرنا، ولأنه ليس بإسقاط نفس عمل، إنما هو سقوط هيئة عمل»(١).

قال الحافظ: «وفي الحديث جواز تسمية الطوفة شوطًا، ونقل عن مجاهد والشافعي كراهته، ويؤخذ منه جواز إظهار القوة بالعدة والسلاح ونحو ذلك للكفار إرهابًا لهم، ولا يعدّ ذلك من الرياء المذموم، وفيه جواز المعاريض بالفعل كما يجوز بالقول، وربما كانت بالفعل أولى»(٢).

* عن عبداللَّه بن أبي أوفى قال: «لما اعتمر رسول اللَّه ﷺ سترناه من غلمان المشركين، ومنهم أن يؤذوا رسول اللَّه ﷺ»(٣).

★ فوائد الحديث:

قوله: «**لما اعتمر رسول اللَّه ﷺ**»: «هذه العمرة هي المذكورة في قوله تعالى في سورة (الفتح) المباركة: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ الآية. وهي الموعود بها في قوله عليه الصلاة والسلام لعمر بن الخطاب حين قال له: ألم تكن تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «**بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟**» قال: لا، قال: «**فإنك آتيه ومطوف به**»»(٤).

* عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول اللَّه ﷺ خرج معتمرًا، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحًا عليهم إلا سيوفًا، ولا يقيم بها إلا ما أحبوا، فاعتمر من

(١) فتح البر (٨/ ٤٩٧). (٢) فتح الباري (٣/ ٥٩٩).
(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٥٣)، والبخاري (٧/ ٦٤٧/ ٤٢٥٥) واللفظ له، وأبو داود (٢/ ٤٥٤/ ١٩٠٢-١٩٠٣)، والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٧١/ ٤٢١٩)، وابن ماجه (٢/ ٩٩٥-٩٩٦/ ٢٩٩٠).
(٤) البداية والنهاية (٤/ ٢٢٧).

العام المقبل، فدخلها كما كان صالحهم، فلما أن أقام بها ثلاثًا، أمروه أن يخرج فخرج»(١).

* عن البراء ﷺ قال: «اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة، فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة، حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب، كتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول اللَّه ﷺ، فقالوا: لا نقرّ بها، فلو نعلم أنك رسول اللَّه ما منعناك، لكن أنت محمد بن عبداللَّه، قال: **أنا رسول اللَّه، وأنا محمد بن عبداللَّه**، ثم قال لعلي: امحُ (رسول الله)، قال: لا واللَّه لا أمحوك أبدًا، فأخذ رسول اللَّه ﷺ الكتاب، فكتب: **هذا ما قاضى عليه محمد بن عبداللَّه، لا يدخل مكة سلاح إلا في القراب، وأن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه، وأن لا يمنع أحدًا من أصحابه أراد أن يقيم بها**، فلما دخلها ومضى الأجل أتوا عليًّا، فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنّا؛ فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ، فتبعتهم ابنة حمزة: يا عم، يا عم! فتناولها عليّ فأخذ بيدها، وقال لفاطمة: **دونك ابنة عمك احمليها**، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر، فقال علي: أنا أحق بها وهي ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال: **الخالة بمنزلة الأم**، وقال لعليّ: **أنت مني وأنا منك**، وقال لجعفر: **أشبهت خلقي وخلقي**، وقال لزيد: **أنت أخونا ومولانا**»(٢).

★ غريب الحديث:

قاضى: أي: فاصل وأمضيا أمرهما عليه وأتماه.

القِراب: غمد السيف.

★ فوائد الحديثين:

هذه العمرة هي عمرة القضاء. قال الحافظ: «قوله: «**باب عمرة القضاء**» كذا للأكثر، وللمستملي وحده «**غزوة القضاء**» والأول أولى. ووجهوا كونها غزوة بأن

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٢٤)، والبخاري (٧/ ٦٣٦/ ٤٢٥٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٩٨)، والبخاري (٥/ ٣٨٠/ ٢٦٩٩) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٤١٠-١٤١١/ ١٧٨٣[٩٢]). وأخرجه مختصراً: أبو داود (٢/ ٤١٥/ ١٨٣٢)، والترمذي (٣/ ٢٧٥/ ٩٣٨) وقال: «حسن صحيح».

موسى بن عقبة ذكر في المغازي عن ابن شهاب أنه ﷺ خرج مستعدًّا بالسلاح والمقاتلة خشية أن يقع من قريش غدر، فبلغهم ذلك ففزعوا، فلقيه مكرز فأخبره أنه باق على شرطه وأن لا يدخل مكة بسلاح إلا السيوف في أغمادها، وإنما خرج في تلك الهيئة احتياطًا فوثق بذلك، وأخر النبي ﷺ السلاح مع طائفة من أصحابه خارج الحرم حتى رجع، ولا يلزم من إطلاق الغزوة وقوع المقاتلة. وقال ابن الأثير: أدخل البخاري عمرة القضاء في المغازي لكونها كانت مسببة عن غزوة الحديبية، انتهى. واختلف في سبب تسميتها عمرة القضاء، فقيل: المراد ما وقع من المقاضاة بين المسلمين والمشركين من الكتاب الذي كتب بينهم بالحديبية، فالمراد بالقضاء الفصل الذي وقع عليه الصلح، ولذلك يقال لها: عمرة القضية. قال أهل اللغة: قاضى فلانًا: عاهده، وقاضاه: عاوضه، فيحتمل تسميتها بذلك لأمرين، قاله عياض. ويرجح الثاني تسميتها قصاصًا، قال اللَّه تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ﴾[1]. قال السهيلي: تسميتها عمرة القصاص أولى؛ لأن هذه الآية نزلت فيها. قلت: كذا رواه ابن جرير وعبد بن حميد بإسناد صحيح عن مجاهد، وبه جزم سليمان التيمي في مغازيه. وقال ابن إسحق: بلغنا عن ابن عباس فذكره، ووصله الحاكم في (الإكليل) عن ابن عباس لكن في إسناده الواقدي، وقال السهيلي: سميت عمرة القضاء لأنه قاضى فيها قريشًا، لا لأنها قضاء عن العمرة التي صد عنها؛ لأنها لم تكن فسدت حتى يجب قضاؤها؛ بل كانت عمرة تامة، ولهذا عدّوا عمر النبي ﷺ أربعًا كما تقدم تقريره في كتاب الحج. وقال آخرون: بل كانت قضاءً عن العمرة الأولى، وعدّت عمرة الحديبية في العمر لثبوت الأجر فيها، لا لأنها كملت، وهذا الخلاف مبني على الاختلاف في وجوب القضاء على من اعتمر فصد عن البيت، فقال الجمهور: يجب عليه الهدي ولا قضاء عليه، وعن أبي حنيفة عكسه، وعن أحمد رواية أنه لا يلزمه هدي ولا قضاء، وأخرى يلزمه الهدي والقضاء، فحجة الجمهور قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ﴾[2]، وحجة أبي حنيفة أن العمرة تلزم بالشروع، فإذا أحصر جاز له تأخيرها، فإذا زال الحصر أتى بها، ولا يلزم من التحلل بين الإحرامين سقوط القضاء. وحجة من أوجبها ما

(١) البقرة: الآية (١٩٤).

(٢) البقرة: الآية (١٩٦).

وقع للصحابة فإنهم نحروا الهدي حيث صدوا، واعتمروا من قابل، وساقوا الهدي، وقد روى أبو داود من طريق أبي حاضر قال: «اعتمرت فأحصرت، فنحرت الهدي وتحللت، ثم رجعت العام المقبل، فقال لي ابن عباس: ابذل الهدي؛ فإن النبي ﷺ أمر أصحابه بذلك». وحجة من لم يوجبها أن تحللهم بالحصر لم يتوقف على نحر الهدي؛ بل أمر من معه هدي أن ينحره، ومن ليس معه هدي أن يحلق. واستدل الكل بظاهر أحاديث من أوجبهما، قال ابن إسحق: خرج النبي ﷺ في ذي القعدة مثل الشهر الذي صد فيه المشركون معتمرًا عمرة القضاء مكان عمرته التي صدوه عنها، وكذلك ذكر موسى بن عقبة عن ابن شهاب، وأبو الأسود عن عروة وسليمان التيمي جميعًا في مغازيهم أنه ﷺ خرج إلى عمرة القضاء في ذي القعدة. وروى يعقوب بن سفيان في تاريخه بسند حسن عن ابن عمر قال: «كانت عمرة القضية في ذي القعدة سنة سبع». وفي مغازي سليمان التيمي: «لما رجع من خيبر بث سراياه، وأقام بالمدينة حتى استهل ذو القعدة، فنادى في الناس أن تجهزوا إلى العمرة». وقال ابن إسحق: خرج معه من كان صد في تلك العمرة إلا من مات أو استشهد. وقال الحاكم في (الإكليل): تواترت الأخبار أنه ﷺ لما هل ذو القعدة أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم، وأن لا يتخلف منهم أحد شهد الحديبية، فخرجوا إلا من استشهد، وخرج معه آخرون معتمرين، فكانت عدتهم ألفين سوى النساء والصبيان. قال: وتسمى أيضًا: عمرة الصلح. قلت: فتحصل من أسمائها أربعة: القضاء، والقضية، والقصاص، والصلح»[1].

وقال: «قوله: «فأخذ رسول اللَّه ﷺ الكتاب وليس يحسن يكتب، فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبدالله». تمسك بظاهر هذه الرواية أبو الوليد الباجي، فادعى أن النبي ﷺ كتب بيده بعد أن لم يكن يحسن يكتب، فشنع عليه علماء الأندلس في زمانه ورموه بالزندقة، وأن الذي قاله يخالف القرآن حتى قال قائلهم:

برئت ممن شرى دنيا بآخرة ... وقال إن رسول اللَّه قد كتبا

فجمعهم الأمير، فاستظهر الباجي عليهم بما لديه من المعرفة، وقال للأمير: هذا لا ينافي القرآن؛ بل يؤخذ من مفهوم القرآن؛ لأنه قيد النفي بما قبل ورود القرآن

(١) فتح الباري (٧/ ٦٣٦-٦٣٧).

فقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾[1]، وبعد أن تحققت أميته، وتقررت بذلك معجزته، وأمن الارتياب في ذلك؛ لا مانع من أن يعرف الكتابة بعد ذلك من غير تعليم، فتكون معجزة أخرى. وذكر ابن دحية أن جماعة من العلماء وافقوا الباجي في ذلك، منهم شيخه أبو ذر الهروي، وأبو الفتح النيسابوري، وآخرون من علماء إفريقية وغيرها»[2].

وذكر أحاديث استدل بها أصحاب هذا القول، ثم قال: «وأجاب الجمهور بضعف هذه الأحاديث، وعن قصة الحديبية بأن القصة واحدة، والكاتب فيها علي، وقد صرح في حديث المسور بأن عليًّا هو الذي كتب، فيحمل على أن النكتة في قوله: «فأخذ الكتاب وليس يحسن يكتب» لبيان أن قوله: «أرني إياها» أنه ما احتاج إلى أن يريه موضع الكلمة التي امتنع علي من محوها إلا لكونه كان لا يحسن الكتابة، وعلى أن قوله بعد ذلك: «فكتب» فيه حذف تقديره: فمحاها، فأعادها لعلي فكتب. وبهذا جزم ابن التين، وأطلق «كتب» بمعنى: أمر بالكتابة، وهو كثير كقوله: كتب إلى قيصر، وكتب إلى كسرى، وعلى تقدير حمله على ظاهره فلا يلزم من كتابة اسمه الشريف في ذلك اليوم وهو لا يحسن الكتابة أن يصير عالمًا بالكتابة ويخرج عن كونه أمّيًّا؛ فإن كثيرًا ممن لا يحسن الكتابة يعرف تصور بعض الكلمات، ويحسن وضعها بيده، وخصوصًا الأسماء، ولا يخرج بذلك عن كونه أمّيًّا، ككثير من الملوك. ويحتمل أن يكون جرت يده بالكتابة حينئذ وهو لا يحسنها، فخرج المكتوب على وفق المراد، فيكون معجزة أخرى في ذلك الوقت خاصة، ولا يخرج بذلك عن كونه أمّيًّا. وبهذا أجاب أبو جعفر السمناني أحد أئمة الأصول من الأشاعرة، وتبعه ابن الجوزي، وتعقب ذلك السهيلي وغيره بأن هذا وإن كان ممكنًا ويكون آية أخرى لكنه يناقض كونه أمّيًّا لا يكتب، وهي الآية التي قامت بها الحجة، وأفحم الجاحد، وانحسمت الشبهة. فلو جاز أن يصير يكتب بعد ذلك لعادت الشبهة، وقال المعاند: كان يحسن يكتب لكنه كان يكتم ذلك. قال السهيلي: والمعجزات يستحيل أن يدفع بعضها بعضًا، والحق أن معنى قوله:

---

(١) العنكبوت: الآية (٤٨).

(٢) المصدر السابق (٧/ ٦٤١).

«**فكتب**» أي: أمر عليًّا أن يكتب، انتهى. وفي دعوى أن كتابة اسمه الشريف فقط على هذه الصورة تستلزم مناقضة المعجزة وتثبت كونه غير أمي نظرٌ كبير، والله أعلم»[1].

وقال: «قوله: «**ولا يقيم بها إلا ما أحبوا**» بيّن في حديث البراء أنهم اتفقوا على ثلاثة أيام، وقال ابن التين: قوله: «**ثلاثة أيام**» يخالف قوله: «**إلا ما أحبوا**»، فيجمع بأن محبتهم لما كانت ثلاثة أيام أفصح بها الراوي معبِّرًا عما آل إليه الحال، وهو ثلاثة أيام. قلت: بل قوله: «**ما أحبوا**» مجمل بيّنته رواية «**ثلاثة أيام**»»[2].

قال القاضي عياض: «وفائدة اشتراطهم ألا يدخلوا إلا بالسلاح في القرب لوجهين:

أحدهما: ألا يظهروا عليهم دخول المحاربين الغالبين المشهرين السلاح من تنكّب القسيّ، واعتقال القنا، وتقليد السيوف، ولكن بزي الأمن والمهادنة والصفا.

والثاني: فإن كون السلاح في القرب أمن التقلد بها وحبسها في الأيدي لسرعة السلت، والمبادرة بها لأول هيشة وهيعة»[3].

* * *

---

(١) المصدر السابق (٧/ ٦٤١-٦٤٢).

(٢) فتح الباري (٧/ ٦٤٧).

(٣) الإكمال (٦/ ١٥٣).

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ الذي أرسل رسوله محمدًا ﷺ بالبيان الواضح، ودين الحق، وهو الإسلام، الذي أرسله داعيًا خلقه إليه ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ يقول: ليبطل به الملل كلها، حتى لا يكون دين سواه، وذلك كان كذلك حتى ينزل عيسى بن مريم، فيقتل الدجال، فحينئذ تبطل الأديان كلها، غير دين اللَّه الذي بعث به محمدًا ﷺ، ويظهر الإسلام على الأديان كلها.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ يقول -جل ثناؤه- لنبيه ﷺ: أشهدك يا محمد ربك على نفسه، أنه سيظهر الدين الذي بعثك به، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ يقول: وحسبك به شاهدًا»[١].

وقال ابن كثير: «قال تعالى مبشّرًا للمؤمنين بنصرة الرسول -صلوات اللَّه عليه- على عدوه وعلى سائر أهل الأرض: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: بالعلم النافع والعمل الصالح؛ فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعي صحيح، والعمل الشرعي مقبول، فإخباراتها حق وإنشاءاتها عدل، ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؛ أي: على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين ومشركين، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾؛ أي: أنه رسوله، وهو ناصره»[٢].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخبرهم بأنه هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٠٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٤١).

ليظهره على الدين كله، فقد تكفل اللَّه لهذا الأمر بالتمام والإظهار على جميع أديان أهل الأرض. ففي هذا تقوية لقلوبهم، وبشارة لهم وتثبيت، وأن يكونوا على ثقة من هذا الوعد الذي لا بد أن ينجزه، فلا تظنوا أن ما وقع من الإغماض والقهر يوم الحديبية نصرة لعدوه، ولا تخليًا عن رسوله ودينه، كيف وقد أرسله بدينه الحق، ووعده أن يظهره على كل دين سواه»[١].

قال ابن تيمية: «معلوم أن اللَّه وعد بإظهاره على الدين كله ظهور علم وبيان، وظهور سيف وسنان، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[٢]. وقد فسر العلماء ظهوره بهذا وهذا. ولفظ الظهور يتناولهما؛ فإن ظهور الهدى بالعلم والبيان، وظهور الدين باليد والعمل، واللَّه تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله. ومعلوم أن ظهور الإسلام بالعلم والبيان قبل ظهوره باليد والقتال؛ فإن النبي ﷺ مكث بمكة ثلاث عشرة سنة، يظهر الإسلام بالعلم والبيان والآيات والبراهين، فآمنت به المهاجرون والأنصار طوعًا واختيارًا بغير سيف؛ لما بان لهم من الآيات البينات، والبراهين والمعجزات، ثم أظهره بالسيف، فإذا وجب علينا جهاد الكفار بالسيف ابتداءً ودفعًا، فلأن يجب علينا بيان الإسلام وإعلامه ابتداءً ودفعًا لمن يطعن فيه بطريق الأولى والأحرى. فإن وجوب هذا قبل وجوب ذاك، ومنفعته قبل منفعته، ومعلوم أنه يحتاج كل وقت إلى السيف، فكذلك هو محتاج إلى العلم والبيان، وإظهاره بالعلم والبيان من جنس إظهاره بالسيف، وهو ظهور مجمل علا به على كل دين، مع أن كثيرًا من الكفار لم يقهره سيفه، فكذلك كثير من الناس لم يظهر لهم آياته وبراهينه؛ بل قد يقدحون فيه ويقيمون الحجج على بطلانه، لاسيما والمقهور بالسيف فيهم منافقون كثيرون، فهؤلاء جهادهم بالعلم والبيان دون السيف والسنان»[٣].

وقال السعدي: «أخبر بحكم عامّ، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ الذي هو العلم النافع، الذي يهدي من الضلالة، ويبين طرق الخير والشر.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٣١٥).

(٢) الصف: الآية (٩).

(٣) الجواب الصحيح (١/ ٢٣٩-٢٤٠).

﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الدين الموصوف بالحق، وهو العدل والإحسان والرحمة.

وهو كل عمل صالح مزكٍّ للقلوب، مطهّر للنفوس، مربٍّ للأخلاق، معلٍ للأقدار.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ بما بعثه اللَّه به ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ بالحجة والبرهان، ويكون داعيًا لإخضاعهم بالسيف والسنان»[1].

قال الشنقيطي: «ما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة، ذكره في سورة (التوبة) وسورة (الصف)، وزاد فيهما أنه فاعل ذلك، ولو كان المشركون يكرهونه، فقال في الموضعين: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾[2]»[3].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١١٠).

(٢) التوبة: الآية (٣٣)، الصف: الآية (٩).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٦٠٨).

قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن محمد صلوات اللَّه عليه أنه رسوله حقًّا بلا شك ولا ريب، فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾، وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وصف جميل»(١).

قال ابن عاشور: «وفي هذا نداء على إبطال جحود المشركين رسالته حين امتنعوا من أن يكتب في صحيفة الصلح: «**هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله**»، وقالوا: لو كنّا نعلم أنك رسول اللَّه ما صددناك عن البيت»(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر بعض أسمائه ﷺ

* عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو اللَّه بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب**»(٣).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «فذكر رسول اللَّه ﷺ هذه الأسماء مبينًا ما خصه اللَّه به من الفضل، وأشار إلى معانيها، وإلا فلو كانت أعلامًا محضةً لا معنى لها؛ لم تدل على مدح، ولهذا قال حسان رضي الله عنه:

وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

وكذلك أسماء الرب تعالى كلها أسماء مدح، فلو كانت ألفاظًا مجردةً لا معاني

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٤١). (٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٠٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٨٠)، والبخاري (٦/ ٦٨٨/ ٣٥٣٢) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٨٢٨/ ٢٣٥٤)، والترمذي (٥/ ١٢٤/ ٢٨٤٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٨٩/ ١١٥٩٠).

لها لم تدل على المدح»[١].

قوله: «لي خمسة أسماء»:

قال الحافظ: «زعم بعضهم أن العدد ليس من قول النبي ﷺ، وإنما ذكره الراوي بالمعنى، وفيه نظر لتصريحه في الحديث بقوله: «**إن لي خمسة أسماء**»، والذي يظهر أنه أراد أن لي خمسة أسماء أختص بها لم يسم بها أحد قبلي، أو معظمة، أو مشهورة في الأمم الماضية، لا أنه أراد الحصر فيها»[٢].

وقال القرطبي: «وقد جاء في الصحيح: «**لي خمسة أسماء**»، فحصرها بالعدد، وذكر الأسماء المتقدمة. وقد يقال: ما وجه تخصيص هذه الأسماء الخمسة بالذكر مع أن أسماءه أكثر من ذلك؟ فيجاب عنه بأن هذه الخمسة الأسماء هي الموجودة في الكتب المتقدمة، وأعرف عند الأمم السالفة، ويحتمل أن يقال: إنه في الوقت الذي أخبر بهذه الأسماء الخمسة لم يكن أوحي إليه في غيرها بشيء؛ فإن أسماءه إنما تلقاها من الوحي، ولا يسمى إلا بما سماه اللَّه به، وهذا أسدّ الجوابين إن شاء اللَّه تعالى»[٣].

معاني بعض أسمائه ﷺ:

«**أنا محمد وأنا أحمد**»:

قال القاضي: «وقد سماه اللَّه تعالى في كتابه: محمدًا وأحمد. فمن خصائصه تعالى له: أن ضمّن أسماءه ثناءه، فطوى أثناء ذكره عظيم شكره.

فأما اسمه (أحمد) فـ(أفعل) مبالغة من صفة الحمد، و(محمّد) (مفعّل) مبالغة من كثرة الحمد؛ فهو ﷺ أجل من حَمد، وأفضل من حُمد، وأكثر الناس حمدًا، فهو أحمد المحمودين، وأحمد الحامدين، ومعه لواء الحمد يوم القيامة، ليتم له كمال الحمد، ويشتهر في تلك العرصات بصفة الحمد، ويبعثه ربه هناك مقامًا محمودًا كما وعده، يحمده فيه الأولون والآخرون بشفاعته لهم، ويفتح عليه فيه من المحامد كما قال ﷺ ما لم يعط غيره، وسمى اللَّه أمته في كتب أنبيائه

---

(١) جلاء الأفهام (ص: ٢٧٨).

(٢) فتح الباري (٦/ ٦٨٩).

(٣) المفهم (٦/ ١٤٩-١٥٠).

بـ(الحمّادين)، فحقيق أن يسمى (محمّدًا) و(أحمد). ثم في هذين الاسمين من عجائب خصائصه وبدائع آياته فنّ آخر، هو أن اللَّه جل اسمه حمى أن يسمى بها أحد قبل زمانه.

أما (أحمد) الذي أتى في الكتب، وبشرت به الأنبياء، فمنع اللَّه تعالى بحكمته أن يسمى به أحد غيره، ولا يدعى به مدعو قبله؛ حتى لا يدخل لبس على ضعيف القلب أو شك. وكذلك (محمد) أيضًا، لم يسم به أحد من العرب ولا غيرهم، إلى أن شاع قبيل وجوده ﷺ وميلاده أن نبيًا يبعث اسمه (محمد). فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو، واللَّه أعلم حيث يجعل رسالته»[1].

قال ابن القيم: «هذا الاسم هو أشهر أسمائه ﷺ، وهو اسم منقول عن الحمد، وهو في الأصل اسم (مفعول) من الحمد، وهو يتضمن الثناء على المحمود ومحبته وإجلاله وتعظيمه، هذا هو حقيقة الحمد، وبني على زنة (مُفعَّل) مثل معظّم ومحبّب ومسوّد ومبجّل ونظائرها؛ لأن هذا البناء موضوع للتكثير، فإن اشتق منه اسم (فاعل) فمعناه من كثر صدور الفعل منه مرة بعد مرة، كمعلِّم ومفهِّم ومبيّن ومخلّص ومفرّج ونحوها، وإن اشتق منه اسم (مفعول) فمعناه من كثر تكرر وقوع الفعل عليه مرة بعد أخرى إما استحقاقًا أو وقوعًا، فـ(محمد) هو الذي كثر حمد الحامدين له مرة بعد أخرى، أو الذي يستحق أن يحمد مرة بعد أخرى. ويقال: حُمِّد فهو محمّد، كما يقال: عُلِّم فهو معلَّم، وهذا علم وصفة، اجتمع فيه الأمران في حقه ﷺ، وإن كان علمًا محضًا في حق كثير ممن تسمى به غيره.

وهذا شأن أسماء الرب تعالى وأسماء كتابه، وأسماء نبيه، هي أعلام دالة على معانٍ هي بها أوصاف، فلا تضاد فيها العلمية الوصف، بخلاف غيرها من أسماء المخلوقين، فهو اللَّه الخالق البارئ المصور القهار، فهذه أسماء له دالة على معان هي صفاته، وكذلك القرآن والفرقان والكتاب المبين وغير ذلك من أسمائه، وكذلك أسماء النبي ﷺ محمد وأحمد والماحي، وفي حديث جبير بن مطعم عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو اللَّه بي الكفر**»»[2].

---

(١) الشفا (١/ ٤٤٤-٤٤٦).

(٢) جلاء الأفهام (ص: ٢٧٧-٢٧٨).

وقال أيضًا: «إذا ثبت هذا فتسميته ﷺ بهذا الاسم لما اشتمل عليه من مسماه وهو الحمد، فإنه ﷺ محمود عند الله، ومحمود عند ملائكته، ومحمود عند إخوانه من المرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام، ومحمود عند أهل الأرض كلهم، وإن كفر به بعضهم، فإن ما فيه من صفات الكمال محمودة عند كل عاقل وإن كابر عقله جحودًا وعنادًا أو جهلًا باتصافه بها، ولو علم اتصافه بها لحمده بها، فإنه يحمد من اتصف بصفات الكمال ويجهل وجودها فيه، فهو في الحقيقة حامد له، وهو ﷺ اختص من مسمى الحمد بما لم يجتمع لغيره، فإن اسمه (محمد) و(أحمد)، وأمته (الحمّادون) يحمدون الله في السراء والضراء، وصلاته وصلاة أمته مفتتحة بالحمد، وخطبته مفتتحة بالحمد، وكتابه مفتتح بالحمد، هكذا عند الله تعالى في اللوح المحفوظ أن خلفاءه وأصحابه يكتبون المصحف مفتتحًا بالحمد، وبيده لواء الحمد يوم القيامة، ولما يسجد بين يدي ربه ﷻ للشفاعة ويؤذن له فيها، يحمد ربه بمحامد يفتحها عليه حينئذ، وهو صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ۝٧٩﴾[1]. وإذا قام في ذلك المقام، حمده حينئذ أهل الموقف كلهم، مسلمهم وكافرهم، أولهم وآخرهم، وهو محمود بما يملأ به الأرض من الهدى والإيمان والعلم النافع والعمل الصالح»[2].

وقال: «لما كان رسول الله ﷺ مشتملًا على ما يقتضي أن يحمد عليه مرة بعد مرة؛ سمي محمّدًا، وهو اسم موافق لمسماه، ولفظ مطابق لمعناه، والفرق بين لفظ (محمد) و(أحمد) من وجهين:

أحدهما: أن محمدًا هو المحمود حمدًا بعد حمد، فهو دال على كثرة حمد الحامدين له، وذلك يستلزم كثرة موجبات الحمد فيه. و(أحمد) (أفعل) تفضيل من الحمد، يدل على أن الحمد الذي يستحقه أفضل مما يستحقه غيره، فـ(محمد) زيادة حمد في الكمية، و(أحمد) زيادته في الكيفية، فيحمد أكثر حمد، وأفضل حمد حمده البشر.

---

(١) الإسراء: الآية (٧٩).

(٢) جلاء الأفهام (ص: ٢٨٤-٢٨٥).

الوجه الثاني: أن (محمدًا) هو المحمود حمدًا متكرّرًا كما تقدم، و(أحمد) هو الذي حمده لربه أفضل من حمد الحامدين غيره، فدل أحد الاسمين -وهو (محمد)- على كونه محمودًا، ودل الاسم الثاني -وهو (أحمد)- على كونه أحمد الحامدين لربه، وهذا هو القياس»[١].

وقال أيضًا: «سمي محمدًا وأحمد؛ لأنه يحمد أكثر مما يحمد غيره، وأفضل مما يحمد غيره، فالاسمان واقعان على المفعول، وهذا هو المختار، وذلك أبلغ في مدحه وأتم معنى، ولو أريد به معنى (الفاعل) لسمي (الحمّاد)، وهو كثير الحمد، كما سمي (محمّدًا)، وهو المحمود كثيرًا؛ فإنه ﷺ كان أكثر الخلق حمدًا لربه ﷺ، فلو كان اسمه باعتبار الفاعل؛ لكان الأولى أن يسمى (حمّادًا)، كما أن اسم أمته (الحمّادون)، وأيضًا فإن الاسمين إنما اشتقّا من أخلاقه وخصائله المحمودة التي لأجلها استحق أن يسمى (محمّدًا) و(أحمد)، فهو الذي يحمده أهل الدنيا وأهل الآخرة، ويحمده أهل السماء والأرض، فلكثرة خصائله المحمودة التي تفوت عد العادّين، سمي باسمين من أسماء الحمد يقتضيان التفضيل والزيادة في القدر والصفة، والله أعلم»[٢].

قال القاضي: «وأما قوله ﷺ: «**وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر**» ففسر في الحديث. ويكون محو الكفر إما من مكة وبلاد العرب وما زوي له من الأرض، ووعد أنه يبلغه ملك أمته، أو يكون المحو عامًا بمعنى الظهور والغلبة، كما قال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾»[٣].

قال ابن القيم: «فالماحي هو الذي محا الله به الكفر، ولم يُمح الكفر بأحد من الخلق ما محي بالنبي ﷺ؛ فإنه بعث وأهل الأرض كلهم كفار إلا بقايا من أهل الكتاب، وهم ما بين عباد أوثان، ويهود مغضوب عليهم، ونصارى ضالين، وصابئة دهرية لا يعرفون ربًّا ولا معادًا، وبين عباد الكواكب وعباد النار، وفلاسفة لا يعرفون شرائع الأنبياء ولا يقرّون بها، فمحا الله سبحانه برسوله ذلك حتى ظهر دين الله على كل دين، وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار، وسارت دعوته مسير الشمس

---

(١) المصدر السابق (ص: ٢٩٩).

(٢) المصدر نفسه (ص: ٣٠٤).

(٣) الشفا (١/ ٤٤٧).

في الأقطار»[١].

قال ابن القيم: «وأما (الحاشر)، فالحشر هو الضم والجمع، فهو الذي يحشر الناس على قدمه، فكأنه بعث ليحشر الناس»[٢].

قال الحافظ: «قوله: **«وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي»** أي: على أثري؛ أي: أنه يحشر قبل الناس، وهو موافق لقوله في الرواية الأخرى: **«يحشر الناس على عقبي»** ويحتمل أن يكون المراد بالقدم: الزمان؛ أي: وقت قيامي على قدمي بظهور علامات الحشر؛ إشارة إلى أنه ليس بعده نبي ولا شريعة. واستشكل التفسير بأنه يقضي بأنه محشور فكيف يفسر به حاشر وهو اسم فاعل؟ وأجيب بأن إسناد الفعل إلى الفاعل إضافة، والإضافة تصح بأدنى ملابسة، فلما كان لا أمة بعد أمته؛ لأنه لا نبي بعده؛ نسب الحشر إليه؛ لأنه يقع عقبه. ويحتمل أن يكون معناه: أنه أول من يحشر؛ كما جاء في الحديث الآخر: **«أنا أول من تنشق عنه الأرض»**. وقيل: معنى القدم: السبب. وقيل: المراد: على مشاهدتي قائمًا لله شاهدًا على الأمم. ووقع في رواية نافع بن جبير: **«وأنا حاشر بعثت مع الساعة»**، وهو يرجح الأول»[٣].

وقال القرطبي: «قوله ﷺ: **«وأنا العاقب»**، وفي الرواية الأخرى **«المقفي»**، ومعناهما واحد، وهو أنه ﷺ آخر الأنبياء وخاتمهم وأكرم أعقابهم، وأفضل من قبلهم، وقفاهم؛ أي: كان بعدهم واتبع آثارهم، قال ابن الأنباري: (المقفي): المتبع للنبيين قبله، يقال: قفوته أقفوه، وقفيته: إذا تبعته، ومثله قِفته أقوفه، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾[٤]، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[٥]، وقافية كل شيء آخره»[٦].

قال ابن القيم: «و(العاقب): الذي جاء عقب الأنبياء، فليس بعده نبي؛ فإن العاقب هو الآخر، فهو بمنزلة الخاتم، ولهذا سمي العاقب على الإطلاق؛ أي: عقب الأنبياء، جاء بعقبهم»[٧].

---

(١) زاد المعاد (١/ ٩٤).

(٢) زاد المعاد (١/ ٩٤).

(٣) فتح الباري (٦/ ٦٩١).

(٤) الحديد: الآية (٢٧).

(٥) الإسراء: الآية (٣٦).

(٦) المفهم (٦/ ١٤٦).

(٧) زاد المعاد (١/ ٩٤).

قال ابن العربي: «إن اللَّه خطط النبي ﷺ بخططه، وعدد له أسماءه، والشيء إذا عظم قدره عظمت أسماؤه»[١].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«ألا تعجبون كيف يصرف اللَّه عني شتم قريش ولعنهم؟ يشتمون مذمّمًا، ويلعنون مذمّمًا، وأنا محمّد»**[٢].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «كان الكفار من قريش من شدة كراهتهم في النبي ﷺ لا يسمونه باسمه الدالّ على المدح، فيعدلون إلى ضده، فيقولون: مذمّم، وإذا ذكروه بسوء قالوا: فعل اللَّه بمذمم، ومذمّم ليس هو اسمه، ولا يعرف به، فكان الذي يقع منهم في ذلك مصروفًا إلى غيره»[٣].

قال شيخ الإسلام: «وكان سبحانه يحميه ويصرف عنه أذى الناس وشتمهم بكل طريق، حتى في اللفظ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«ألا ترون كيف يصرف اللَّه عني شتم قريش ولعنهم؟ يشتمون مذمّمًا ويلعنون مذمّمًا، وأنا محمّد»**، فنزه اللَّه اسمه ونعته عن الأذى، وصرف ذلك إلى من هو مذمّم، وإن كان المؤذي إنما قصد عينه»[٤].

قال السندي: «قوله: **«وأنا محمد»** أي: اسمًا ووصفًا، فلا يمكن مطابقة اسم المذمّم لي وإطلاقه عليّ وإرادتي به بوجه من الوجوه، فلا يعود الشتم واللعن إليّ أصلًا، بل رجع إليهم؛ لأنهم الذين يصدق عليهم مسمى هذا الاسم وصفًا. وظهر بهذا اللفظ إذا قصد به معنى لا يحتمله لا يثبت له الحكم المسوق له الكلام»[٥].

* * *

(١) عارضة الأحوذي (١٠/ ٢٨١).
(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٤)، والبخاري (٦/ ٦٨٨/ ٣٥٣٣)، والنسائي (٦/ ٤٧١/ ٣٤٣٨).
(٣) فتح الباري (٦/ ٦٩٢).
(٤) الصارم المسلول (٢/ ٣١٨).
(٥) حاشية النسائي (٦/ ٤٧١).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: محمد رسول الله وأتباعه من أصحابه الذين هم معه على دينه، أشدّاء على الكفار، غليظة عليهم قلوبهم، قليلة بهم رحمتهم ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ يقول: رقيقة قلوب بعضهم لبعض، لينة أنفسهم لهم، هينة عليهم لهم»[1].

وقال ابن كثير: «ثنى بالثناء على أصحابه فقال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2]. وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدًا عنيفًا على الكفار، رحيمًا برًّا بالأخيار، غضوبًا عبوسًا في وجه الكافر، ضحوكًا بشوشًا في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾[3]»[4].

وقال ابن عاشور: «والشدة على الكفار: هي الشدة في قتالهم وإظهار العداوة لهم، وهذا وصف مدح؛ لأن المؤمنين الذين مع النبي ﷺ كانوا هم فئة الحق ونشر الإسلام، فلا يليق بهم إلا إظهار الغضب لله، والحب في الله والبغض في الله من الإيمان، وأصحاب النبي ﷺ أقوى المؤمنين إيمانًا؛ من أجل إشراق أنوار النبوءة على قلوبهم، فلا جرم أن يكونوا أشدّ على الكفار؛ فإن بين نفوس الفريقين تمام المضادة، وما كانت كراهيتهم للصلح مع الكفار يوم الحديبية، ورغبتهم في قتل أسراهم الذين ثقفوهم يوم الحديبية وعفا عنهم النبي ﷺ إلا من آثار شدتهم على الكفار، ولم تكن لاحت لهم المصلحة الراجحة على القتال وعلى القتل التي آثرها النبي ﷺ. ولذلك كان أكثرهم محاورة في إباء الصلح يومئذ أشد أشدّائهم على

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٠٩).

(٢) المائدة: الآية (٥٤).

(٣) التوبة: الآية (١٢٣).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٤١-٣٤٢).

الكفار، وهو عمر بن الخطاب، وكان أفهمهم للمصلحة التي توخاها النبي ﷺ في إبرام الصلح أبا بكر..

ثم تكون أحكام الشدة على الكفار من وجوب وندب وإباحة، وأحكام صحبتهم ومعاملتهم جارية على مختلف الأحوال، ولعلماء الإسلام فيها مقال، وقد تقدم كثير من ذلك في سورة (آل عمران) وفي سورة (براءة).

والشدة على الكفار اقتبسوها من شدة النبي ﷺ في إقامة الدين؛ قال تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

وأما كونهم رحماء بينهم، فذلك من رسوخ أخوة الإيمان بينهم في نفوسهم. وقد وردت أخبار أخوتهم وتراحمهم في مواضع كثيرة من القرآن وكلام الرسول ﷺ.

وفي الجمع لهم بين هاتين الخلتين المتضادتين، الشدّةِ والرحمة، إيماء إلى أصالة آرائهم، وحكمة عقولهم، وأنهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف الحكمة والرشد، فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى، ولا يندفعون إلى العمل بالجبلة وعدم الرؤية. وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٢] في سورة (العقود)»[٣].

قال عبدالكريم الخطيب: «والصفة التي تغلب على هذا المجتمع، ويُعرف بها في الناس، أنه مجتمع شديد الغلظة على الكفار، الذين يحادّون اللَّه ورسوله، فلا يكون بينه وبين الكافرين ولاءٌ أو مودةٌ يُجار فيها على دين اللَّه، أو يُنتقص بها حق من حقوق المسلمين.

هذا حالهم مع أعداء اللَّه، أما هم فيما بينهم فهم رحماء، تفيض قلوبهم حنانًا ورحمةً ومودةً، تجمعهم أخوة بارّة في اللَّه، وفي دين اللَّه.

هذا ما تنطوي عليه صدورهم، وتفيض به مشاعرهم نحو أعداء اللَّه وأوليائه»[٤].

---

(١) التوبة: الآية (١٢٨). (٢) المائدة: الآية (٥٤).
(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٠٤-٢٠٥).
(٤) التفسير القرآني (٢٦/ ٤٢٩).

قال شيخ الإسلام: «وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ كل ذلك نعت للذين معه، وهي التي يسميها النحاة خبرًا بعد خبر. والمقصود هنا: أنها كلها صفات لموصوف واحد، وهم الذين معه، ولا يجوز أن يكون كل منها مرادًا به شخص واحد»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان صفات المؤمنين فيما بينهم والرحمة بالناس والشفقة عليهم

* عن أبي موسى قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشدّ بعضه بعضًا»**(٢).

* عن النعمان بن بشير قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»**(٣).

★ غريب الحديث:

توادهم وتعاطفهم وتراحمهم: قال الحافظ: قال ابن أبي جمرة: الذي يظهر أن التراحم والتوادد والتعاطف وإن كانت متقاربة في المعنى لكن بينها فرق لطيف: فأما التراحم فالمراد به أن يرحم بعضهم بعضًا بأخوة الإيمان، لا بسبب شيء آخر. وأما التوادد فالمراد به التواصل الجالب المحبة، كالتزاور والتهادي. وأما التعاطف فالمراد به إعانة بعضهم بعضًا، كما يعطف الثوب عليه ليقويه(٤).

تداعى: أي: دعا بعضه بعضًا إلى المشاركة في الألم.

★ فوائد الحديثين:

قال القاضي عياض: «قوله: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»** فيه

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٠٥)، والبخاري (٥/ ١٢٥/ ٢٤٤٦)، ومسلم (٤/ ١٩٩٩/ ٢٥٨٥)، والترمذي (٤/ ٢٨٧/ ١٩٢٨)، والنسائي (٥/ ٨٣/ ٢٥٥٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٧٠)، والبخاري (١٠/ ٥٣٧/ ٦٠١١)، ومسلم (٤/ ١٩٩٩-٢٠٠٠/ ٢٥٨٦).

(٤) فتح الباري (١٠/ ٥٣٩).

الحض على تعاون المسلمين، وتناصرهم، وتآلفهم، وتوادهم، وتراحمهم.

وتمثيله -عليه الصلاة والسلام- في ذلك بالبنيان، وفي الحديث الآخر: بالجسد إذا شكا بعضه، شكا سائره كله تمثيل صحيح، وتقريب للأفهام في إظهار المعاني في الصور المرتبة، فيجب على المسلمين امتثال ما حض ﷺ عليه من ذلك والتخلق به»[١].

وقال القرطبي: «قوله ﷺ: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضًا»** تمثيل يفيد الحض على معونة المؤمن للمؤمن ونصرته، وأن ذلك أمر متأكد لا بد منه؛ فإن البناء لا يتم أمره، ولا تحصل فائدته إلا بأن يكون بعضه يمسك بعضًا، ويقوّيه، فإن لم يكن كذلك انحلّت أجزاؤه، وخرب بناؤه. وكذلك المؤمن لا يستقل بأمور دنياه ودينه إلا بمعونة أخيه، ومعاضدته، ومناصرته، فإن لم يكن ذلك عجز عن القيام بكل مصالحه، وعن مقاومة مضادّه، فحينئذ لا يتم له نظام دنيا ولا دين، ويلتحق بالهالكين.

وقوله: **«مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد. .»** الحديث. مقصود هذا التمثيل: الحض على ما يتعين من محبة المؤمن، ونصيحته، والتهمم بأمره»[٢].

وقال الحافظ: «قال ابن أبي جمرة: شبه النبي ﷺ الإيمان بالجسد وأهله بالأعضاء؛ لأن الإيمان أصل وفروعه التكاليف، فإذا أخل المرء بشيء من التكاليف شان ذلك الإخلال الأصل، وكذلك الجسد أصل كالشجرة وأعضاؤه كالأغصان، فإذا اشتكى عضو من الأعضاء اشتكت الأعضاء كلها كالشجرة إذا ضرب غصن من أغصانها، اهتزت الأغصان كلها بالتحرك والاضطراب»[٣].

قال ابن تيمية: «وأمثال هذه النصوص في الكتاب والسنة كثيرة. وقد جعل الله فيها عباده المؤمنين بعضهم أولياء بعض، وجعلهم إخوة، وجعلهم متناصرين متراحمين متعاطفين، وأمرهم سبحانه بالائتلاف، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف، فقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[٤]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

---

(١) الإكمال (٨/ ٥٦-٥٧).
(٢) المفهم (٦/ ٥٦٥).
(٣) فتح الباري (١٠/ ٥٣٩).
(٤) آل عمران: الآية (١٠٣).

فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾[١] الآية.

فكيف يجوز مع هذا لأمة محمد ﷺ أن تفترق وتختلف، حتى يوالي الرجل طائفة ويعادي طائفة أخرى بالظن والهوى، بلا برهان من اللَّه تعالى. وقد برأ اللَّه نبيه ﷺ ممن كان هكذا»[٢].

* عن عبداللَّه بن عمرو يرويه عن النبي ﷺ قال: **«من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا، فليس منّا»**[٣].

* عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إنما يرحم اللَّه من عباده الرحماء»**[٤].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الأقرع بن حابس أبصر النبي ﷺ يقبّل الحسن، فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبّلتُ واحدًا منهم. فقال رسول اللَّه ﷺ: **«إنه من لا يَرحَمْ لا يُرحَمْ»**[٥].

* عن جرير بن عبد اللَّه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **«لا يرحم اللَّه من لا يرحم الناس»**[٦].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **«لا تنزع الرحمة إلا من شقي»**[٧].

---

(١) الأنعام: الآية (١٥٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٤١٩-٤٢٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨٥)، وأبو داود (٥/ ٢٣٢-٢٣٣/ ٤٩٤٣)، والترمذي (٤/ ٢٨٤/ ١٩٢٠) وقال: «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٠٤)، والبخاري (٣/ ١٩٤/ ١٢٨٤)، ومسلم (٢/ ٦٣٥-٦٣٦/ ٩٢٣)، وأبو داود (٣/ ٤٩٢/ ٣١٢٥)، والنسائي (٤/ ٣٢١-٣٢٢/ ١٨٦٧)، وابن ماجه (١/ ٥٠٦/ ١٥٨٨).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤١)، والبخاري (١٠/ ٥٢٢/ ٥٩٩٧)، ومسلم (٤/ ١٨٠٨-١٨٠٩/ ٢٣١٨)، وأبو داود (٥/ ٣٩١-٣٩٢/ ٥٢١٨)، والترمذي (٤/ ٢٨٠/ ١٩١١).

(٦) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٦٢)، والبخاري (١٣/ ٤٤٣/ ٧٣٧٦)، ومسلم (٤/ ١٨٠٩/ ٢٣١٩)، والترمذي (٤/ ٢٨٤/ ١٩٢٢).

(٧) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠١)، وأبو داود (٥/ ٢٣٢/ ٤٩٤٢)، والترمذي (٤/ ٢٨٥/ ١٩٢٣) وقال: «هذا حديث حسن»، وصححه ابن حبان (الإحسان ٢/ ٢٠٩/ ٤٦٢)، والحاكم (٤/ ٢٤٨) ووافقه الذهبي.

★ **فوائد الأحاديث:**

قال القاضي عياض: «وقوله في حديث الأقرع بن حابس أنه ذكر له أنه لا يقبّل ولده: «**إنه من لا يرحم لا يرحم**» كلام عامّ، ليس هو راجع لخصوص رحمة الولد، إنما هو على عموم الرحمة المشروعة، كما قال في الحديث الآخر: «**من لا يرحم الناس لا يرحمه اللَّه**»، وكما قال: «**إنما يرحم اللَّه من عباده الرحماء**»، «**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»[(١)]. ومن الرحمة واجبة؛ وهي كفّ الأذى عن المسلمين، وإغاثة الملهوف، وفك العاني، وإحياء المضطر، واستنقاذ الغريق.

ومن ذلك: سد خلة الضعفاء والفقراء من الواجبات، فهذا كله من لم يرد حق اللَّه فيه، عاقبه اللَّه، ومنعه رحمته، إذا أنفذ عليه وعيده، وإن شاء عفا عنه، وسمح له بفضل رحمته وسعتها»[(٢)].

قال القرطبي: «والرحمة في حقنا: هي رقة وحنوٌّ يجده الإنسان في نفسه عند مشاهدة مبتلى، أو ضعيف، أو صغير، يحمله على الإحسان إليه، واللطف به، والرفق، والسعي في كشف ما به. وقد جعل اللَّه هذه الرحمة في الحيوان كله؛ عاقله وغير عاقله، فبها تعطف الحيوانات على نوعها، وأولادها، فتحنو عليها، وتلطف بها في حال ضعفها وصغرها. وحكمة هذه الرحمة تسخير القوي للضعيف، والكبير للصغير حتى ينحفظ نوعه، وتتم مصلحته، وذلك تدبير اللطيف الخبير. وهذه الرحمة التي جعلها اللَّه في القلوب في هذه الدار، وتحصل عنها هذه المصلحة العظيمة هي رحمةٌ واحدةٌ من مئة رحمة ادّخرها اللَّه تعالى ليوم القيامة، فيرحم بها عباده المؤمنين وقت أهوالها، وشدائدها حتى يخلّصهم منها، ويدخلهم في جنته وكرامته. . فمن خلق اللَّه تعالى في قلبه هذه الرحمة الحاملة له على الرفق، وكشف ضُرّ المبتلى، فقد رحمه اللَّه تعالى بذلك في الحال، وجعل ذلك علامة على رحمته إياه في المآل، ومن سلب اللَّه ذلك المعنى منه، وابتلاه بنقيض ذلك من القسوة والغلظ، ولم يلطف بضعيف، ولا أشفق على مبتلى، فقد أشقاه في الحال، وجعل

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٠)، وأبو داود (٥/ ٢٣١/ ٤٩٤١)، والترمذي (٤/ ٢٨٥/ ١٩٢٤) وقال: «حسن صحيح»، والحاكم (٤/ ١٥٩) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) الإكمال (٧/ ٢٨٢-٢٨٣).

ذلك علَمًا على شقوته في المآل، نعوذ باللَّه من ذلك؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن». وقال: «لا يرحم اللَّه من عباده إلا الرحماء». وقال: «لا تُنزع الرحمة إلا من شقي»، وقال: «من لا يَرحم لا يُرحم»»[١].

قال ابن بطال: «في هذه الأحاديث الحض على استعمال الرحمة للخلق كلهم، كافرهم ومؤمنهم، ولجميع البهائم والرفق بها، وأن ذلك مما يغفر اللَّه به الذنوب، ويكفر به الخطايا، فينبغي لكل مؤمن عاقل أن يرغب في الأخذ بحظه من الرحمة، ويستعملها في أبناء جنسه وفي كل حيوان»[٢].

قال العراقي: «وجاء في رواية تقييده بالمسلمين، فهل يحمل إطلاق الناس على التقييد، أو الأمر أعم، ورحمة كل أحد بحسب ما أذن فيه الشارع، فإن كانوا أهل ذمة فيحفظ لهم ذمتهم، أو حربيين دخلوا بإذن، فيحفظ لهم ذلك، لا أن المراد بالرحمة مودتهم وموالاتهم»[٣].

وقال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمراد بالناس: الناس الذين هم أهل للرحمة كالمؤمنين وأهل الذمة ومن شابههم، وأما الكفار الحربيون فإنهم لا يُرحمون، بل يقتلون؛ لأن اللَّه تعالى قال في وصف النبي ﷺ وأصحابه: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾[٤]»[٥].

قوله ﷺ: «من لا يرحم لا يرحم»:

قال المناوي: «دلّ بمنطوقه على أن من لم يكن رحيمًا لا يرحمه اللَّه، ومن لا يغفر لا يغفر اللَّه له، ومن شهد أفعال الحق في الخلق وأيقن بأنه المتصرف فيهم رحمهم، ومن لم يرحمهم واشتغل بهم عن الحق كان سببًا لمقته من اللَّه، وجلب كل رزية إليه. ويدل على العكس بمفهومه، وهو أن كل من كان رحيمًا يرحمه اللَّه الرحمن»[٦].

---

(١) المفهم (٦/ ١٠٨-١١٠).
(٢) شرح صحيح البخاري (٩/ ٢١٩).
(٣) فيض القدير (٦/ ٢٣٩).
(٤) التوبة: الآية (٧٣).
(٥) شرح رياض الصالحين (٤/ ٦٧٨).
(٦) فيض القدير (٦/ ٢٤٠).

قال الحافظ: «وفي جواب النبي ﷺ للأقرع إشارة إلى أن تقبيل الولد وغيره من الأهل المحارم وغيرهم من الأجانب إنما يكون للشفقة والرحمة لا للذة والشهوة، وكذا الضم والشم والمعانقة»(١).

وقال أيضًا في معرض كلامه على قوله ﷺ: «وإنما يرحم اللَّه من عباده الرحماء»: «الرحماء: جمع رحيم، وهو من صيغ المبالغة، ومقتضاه أن رحمة اللَّه تختص بمن اتصف بالرحمة وتحقق بها بخلاف من فيه أدنى رحمة، لكن ثبت في حديث عبداللَّه بن عمرو عند أبي داود وغيره: **«الراحمون يرحمهم الرحمن»**، والراحمون جمع راحم، فيدخل كل من فيه أدنى رحمة، وقد ذكر الحربي مناسبة الإتيان بلفظ (الرحماء) في حديث الباب بما حاصله أن لفظ الجلالة دالّ على العظمة، وقد عرف بالاستقراء أنه حيث ورد يكون الكلام مسوقًا للتعظيم، فلما ذكر هنا ناسب ذكر من كثرت رحمته وعظمته ليكون الكلام جاريًا على نسق التعظيم، بخلاف الحديث الآخر فإن لفظ الرحمن دالّ على العفو، فناسب أن يذكر معه كل ذي رحمة وإن قلّت، واللَّه أعلم.

وفيه . . التزغيب في الشفقة على خلق اللَّه والرحمة لهم، والترهيب من قساوة القلب»(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «رقة القلب ناشئة من صفة الرحمة التي هي كمال، واللَّه سبحانه إنما يرحم من عباده الرحماء، وقد كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله وسلم أرقّ الناس قلبًا، وأبعدهم من الجزع، فرقة القلب رأفة ورحمة، وجزعه مرض وضعف، فالجزع حال قلب مريض بالدنيا قد غشيه دخان النفس الأمارة فأخذ بأنفاسه، وضيق عليه مسالك الآخرة، وصار في سجن الهوى والنفس، وهو سجن ضيق الأرجاء، مظلم المسالك، فانحصار القلب وضيقه يجزع من أدنى ما يصيبه ولا يحتمله، فإذا أشرق فيه نور الإيمان واليقين بالوعد، وامتلأ من محبة اللَّه وإجلاله، رقّ وصارت فيه الرأفة والرحمة، فتراه رحيمًا رفيق القلب بكل ذي قربى ومسلم، يرحم النملة في جحرها، والطير في وكره، فضلًا عن بني جنسه، فهذا

(١) فتح الباري (١٠/ ٥٢٧).
(٢) فتح الباري (٣/ ٢٠٢-٢٠٣).

أقرب القلوب من الله؛ قال أنس: «**كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله وسلم أرحم الناس بالعيال**»[(١)]. واللَّه سبحانه إذا أراد أن يرحم عبدًا أسكن في قلبه الرأفة والرحمة، وإذا أراد أن يعذّبه نزع من قلبه الرحمة والرأفة، وأبدله بهما الغلظة والقسوة؛ وفي الحديث الثابت: «**لا تنزع الرحمة إلا من شقي**»، وفيه: «**من لا يَرحم لا يُرحم**»، وفيه: «**ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»، وفيه: «**أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال**»[(٢)]. والصديق ﷺ إنما فضل الأمة بما كان في قلبه من الرحمة العامة، زيادة على الصديقية، ولهذا أظهر أثرها في جميع مقدماته، حتى في الأسارى يوم بدر، واستقر الأمر على ما أشار به، وضرب له صلى اللَّه عليه وآله وسلم مثلًا بعيسى وإبراهيم، والرب تعالى هو الرؤوف الرحيم، وأقرب الخلق إليه أعظمهم رأفة ورحمة، كما أن أبعدهم منه من اتصف بضد صفاته. وهذا باب لا يلجه إلا الأفراد في العالم»[(٣)].

وقد عدّ الغزالي رحمه الله من علامات محبة العبد لله تعالى الرحمة بعباد اللَّه والشدة على أعداء اللَّه، فقال: «ومنها أن يكون مشفقًا على جميع عباد اللَّه، رحيمًا بهم، شديدًا على جميع أعداء اللَّه وعلى كل من يقارف شيئًا مما يكرهه، كما قال اللَّه تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، ولا تأخذه لومة لائم، ولا يصرفه عن الغضب لله صارف»[(٤)].

قال شيخ الإسلام: «إن الرأفة والرحمة يحبهما اللَّه، ما لم تكن مضيعة لدين اللَّه. وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنما يرحم اللَّه من عباده الرحماء**»، وقال: «**لا يرحم اللَّه من لا يرحم الناس**»، وقال: «**من لا يَرحم لا يُرحم**»، وفي السنن: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**». فهذه الرحمة حسنة مأمور بها أمر إيجاب أو استحباب، بخلاف الرأفة في دين اللَّه، فإنها منهي عنها، والشيطان يريد من الإنسان الإسراف في أموره كلها، فإنه إن رآه مائلًا إلى الرحمة زين له الرحمة حتى لا يبغض ما أبغضه اللَّه، ولا يغار

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٨٠٨/ ٢٣١٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٦٢)، ومسلم (٤/ ٢١٩٧-٢١٩٨/ ٢٨٦٥)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦/ ٨٠٧٠).

(٣) الروح (ص: ٢٥٠-٢٥١).

(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٣٤).

لما يغار اللَّه منه. وإن رآه مائلًا إلى الشدة، زين له الشدة في غير ذات اللَّه، حتى يترك من الإحسان والبر واللين والصلة والرحمة ما يأمر به اللَّه ورسوله، ويتعدى في الشدة فيزيد في الذم والبغض والعقاب على ما يحبه اللَّه ورسوله. فهذا يترك ما أمر اللَّه به من الرحمة والإحسان، وهو مذموم مذنب في ذلك، ويسرف فيما أمر اللَّه به ورسوله من الشدة حتى يتعدى الحدود»[1].

قال الغزالي: «فقد وصف اللَّه تعالى الصحابة فقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ إشارة إلى أن للشدة موضعًا، وللرحمة موضعًا، فليس الكمال في الشدة بكل حال، ولا في الرحمة بكل حال»[2].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٩١-٢٩٢).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٥٥).

قوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾

★ **غريب الآية:**

سيماهم: علامتهم وأمارتهم.

شَطْأَهُ: أي: فِراخه، جمعه: أَشْطَاء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: وقوله: «﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ وصفهم بكثرة العمل، وكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله ﷻ، والاحتساب عند الله جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه تعالى عنهم وهو أكبر من الأول، كما قال: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1]»[2].

قال ابن عاشور: «والخطاب في ﴿تَرَىٰهُمْ﴾ لغير معين، بل لكل من تتأتى رؤيته إياهم؛ أي: يراهم الرائي.

وإيثار صيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك؛ أي: تراهم كلما شئت أن تراهم ركّعًا سجّدًا. وهذا ثناء عليهم بشدّة إقبالهم على أفضل الأعمال المزكية للنفس، وهي الصلوات مفروضها ونافلتها وأنهم يتطلبون بذلك رضا الله ورضوانه. وفي سوق هذا في مساق الثناء إيماء إلى أن الله حقق لهم ما يبتغونه»[3].

---

(١) التوبة: الآية (٧٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٤٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٠٥).

وقال السعدي: «وأما معاملتهم مع الخالق، فإنك ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أي: وصفهم بكثرة الصلاة، التي أجل أركانها الركوع والسجود.

﴿يَبْتَغُونَ﴾ بتلك العبادة ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: هذا مقصودهم بلوغ رضا ربهم، والوصول إلى ثوابه»(١).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ يقول: علامتهم في وجوههم من أثر السجود في صلاتهم.

ثم اختلف أهل التأويل في السيما الذي عناه اللَّه في هذا الموضع، فقال بعضهم: ذلك علامة يجعلها اللَّه في وجوه المؤمنين يوم القيامة، يعرفون بها لما كان من سجودهم له في الدنيا. .

وقال آخرون: بل ذلك سيما الإسلام وسمته وخشوعه، وعنى بذلك أنه يرى من ذلك عليهم في الدنيا. .

وقال آخرون: ذلك أثر يكون في وجوه المصلين، مثل أثر السهر الذي يظهر في الوجه مثل الكلف والتهيج والصفرة، وما أشبه ذلك مما يظهره السهر والتعب في الوجه، ووجهوا التأويل في ذلك إلى أنه سيما في الدنيا. .

وقال آخرون: ذلك آثار ترى في الوجه من ثرى الأرض، أو ندى الطهور. .

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن اللَّه -تعالى ذكره- أخبرنا أن سيما هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم في وجوههم من أثر السجود، ولم يخصّ ذلك على وقت دون وقت. وإذ كان ذلك كذلك، فذلك على كلّ الأوقات، فكان سيماهم الذي كانوا يعرفون به في الدنيا أثر الإسلام، وذلك خشوعه وهديه وزهده وسمته، وآثار أداء فرائضه وتطوّعه، وفي الآخرة ما أخبر أنهم يعرفون به، وذلك الغرّة في الوجه، والتحجيل في الأيدي والأرجل من أثر الوضوء، وبياض الوجوه من أثر السجود»(٢).

وقال ابن كثير: «قال بعضهم: إن للحسنة نورًا في القلب، وضياءً في الوجه،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١١١).

(٢) جامع البيان (٢٦/ ١١٠-١١٢).

وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس.

وقال أمير المؤمنين عثمان: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها اللَّه على صفحات وجهه، وفلتات لسانه.

والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع اللَّه أصلح اللَّه ظاهره للناس، كما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: من أصلح سريرته أصلح اللَّه علانيته. .

فالصحابة خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم.

وقال مالك رحمه الله: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام، يقولون: «واللَّه لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا». وصدقوا في ذلك؛ فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول اللَّه ﷺ، وقد نوّه اللَّه بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة، ولهذا قال ههنا: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾»[١].

قال ابن القيم: «ثم ذكر -سبحانه- رسوله وحزبه الذين اختارهم له، ومدحهم بأحسن المدح، وذكر صفاتهم في التوراة والإنجيل، فكان في هذا أعظم البراهين على صدق من جاء بالتوراة والإنجيل والقرآن، وأن هؤلاء هم المذكورون في الكتب المتقدمة بهذه الصفات المشهورة فيهم، لا كما يقول الكفار عنهم: إنهم متغلّبون طالبو ملك ودنيا، ولهذا لما رآهم نصارى الشام، وشاهدوا هديهم وسيرتهم، وعدلهم وعلمهم، ورحمتهم وزهدهم في الدنيا، ورغبتهم في الآخرة، قالوا: ما الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء، وكان هؤلاء النصارى أعرف بالصحابة وفضلهم من الرافضة أعدائهم، والرافضة تصفهم بضد ماوصفهم اللَّه به في هذه الآية وغيرها و﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[٢]»[٣].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ يقول: هذه الصفة التي وصفت

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٤٣).
(٢) الكهف: الآية (١٧).
(٣) زاد المعاد (٣/ ٣١٥-٣١٦).

لكم من صفة أتباع محمد ﷺ الذين معه، صفتهم في التوراة»[١].

قال ابن كثير: «ثم قال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أي: فراخه، ﴿فَآزَرَهُ﴾؛ أي: شدّه، ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾؛ أي: شبّ وطال، ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾؛ أي: فكذلك أصحاب محمد ﷺ، آزروه وأيدوه ونصروه، فهم معه كالشطء مع الزرع»[٢].

وقال ابن جرير: «يقول: وصفتهم في إنجيل عيسى صفة زرع أخرج شطأه، وهو فراخه. . وإنما مثلهم بالزرع المشطئ؛ لأنهم ابتدؤوا في الدخول في الإسلام، وهم عدد قليلون، ثم جعلوا يتزايدون، ويدخل فيه الجماعة بعدهم، ثم الجماعة بعد الجماعة، حتى كثر عددهم، كما يحدث في أصل الزرع الفرخ منه، ثم الفرخ بعده حتى يكثر وينمى. . وقال آخرون: هذان المثلان في التوراة والإنجيل مثلهم[٣]. .

وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: مثلهم في التوراة، غير مثلهم في الإنجيل، وإن الخبر عن مثلهم في التوراة مُتَنَاهٍ عند قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾، وذلك أن القول لو كان كما قال مجاهد من أن مثلهم في التوراة والإنجيل واحد، لكان التنزيل: ومثلهم في الإنجيل، وكزرع أخرج شطأه، فكان تمثيلهم بالزرع معطوفًا على قوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ حتى يكون ذلك خبرًا عن أن ذلك مثلهم في التوراة والإنجيل، وفي مجيء الكلام بغير واو في قوله: ﴿كَزَرْعٍ﴾ دليل بيّن على صحة ما قلنا، وأن قوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ﴾ خبر مبتدأ عن صفتهم التي هي في الإنجيل دون ما في التوراة منها»[٤].

قال الشنقيطي: «وما تضمنته الآية الكريمة من المثل المذكور في الإنجيل المضروب للنبي ﷺ وأصحابه بأنهم يكونون في مبدإ أمرهم في قلة وضعف، ثم بعد ذلك يكثرون ويقوون. جاء موضحًا في آيات من كتاب اللَّه تعالى كقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾[٥] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[٦]، وقوله

(١) جامع البيان (٢٦/ ١١٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٤٣).
(٣) هو قول مجاهد.
(٤) جامع البيان (٢٦/ ١١٢-١١٣).
(٥) الأنفال: الآية (٢٦).
(٦) آل عمران: الآية (١٢٣).

تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾(١) الآية، إلى غير ذلك من الآيات»(٢).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: يعجب هذا الزرع الذي استغلظ فاستوى على سوقه في تمامه وحسن نباته، وبلوغه وانتهائه، الذين زرعوه ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ يقول: فكذلك مثل محمد ﷺ وأصحابه، واجتماع عددهم حتى كثروا ونموا، وغلظ أمرهم كهذا الزرع الذي وصف -جل ثناؤه- صفته، ثم قال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ فدل ذلك على متروك من الكلام، وهو أن الله تعالى فعل ذلك بمحمد ﷺ وأصحابه ليغيظ بهم الكفار»(٣).

قال ابن كثير: «ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ -في رواية عنه- بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابةَ فهو كافر لهذه الآية. ووافقه طائفة من العلماء على ذلك. والأحاديث في فضائل الصحابة والنهي عن التعرض لهم بمساءة كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم»(٤).

قال القرطبي: «روى أبو عروة الزبيري من ولد الزبير: كنا عند مالك بن أنس، فذكروا رجلًا ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ، فقرأ مالك هذه الآية: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ حتى بلغ: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾. فقال مالك: من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، فقد أصابته هذه الآية. ذكره الخطيب أبو بكر.

قلت: لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله. فمن نقص واحدًا منهم، أو طعن عليه في روايته، فقد رد على الله رب العالمين، وأبطل شرائع المسلمين؛ قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ الآية، وقال: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾(٥) إلى غير ذلك من الآي التي تضمنت الثناء عليهم، والشهادة لهم بالصدق والفلاح؛ قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾(٦)، وقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ -إلى قوله- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾(٧)، ثم قال

---

(١) المائدة: الآية (٣).
(٢) أضواء البيان (٧/ ٦١٠).
(٣) جامع البيان (٢٦/ ١١٥).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٤٣).
(٥) الفتح: الآية (١٨).
(٦) الأحزاب: الآية (٢٣).
(٧) الحشر: الآية (٨).

عز من قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ -إلى قوله- ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[(١)].

وهذا كله مع علمه -تبارك وتعالى- بحالهم ومآل أمرهم، وقال رسول اللَّه ﷺ: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم**»[(٢)]، وقال: «**لا تسبوا أصحابي؛ فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا، لم يدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه**»[(٣)] خرجهما البخاري، وفي حديث آخر: «**فلو أن أحدكم أنفق ما في الأرض، لم يدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه**». قال أبو عبيد: معناه لم يدرك مد أحدهم إذا تصدق به ولا نصف المد، فالنصيف هو النصف هنا. .

والأحاديث بهذا المعنى كثيرة؛ فحذار من الوقوع في أحد منهم، كما فعل من طعن في الدين فقال: إن المعوّذتين ليستا من القرآن، وما صح حديث عن رسول اللَّه ﷺ في تثبيتهما ودخولهما في جملة التنزيل إلا عن عقبة بن عامر، وعقبة بن عامر ضعيف لم يوافقه غيره عليها، فروايته مطّرحة.

وهذا رد لما ذكرناه من الكتاب والسنة، وإبطال لما نقلته لنا الصحابة من الملة؛ فإن عقبة بن عامر بن عيسى الجهني ممن روى لنا الشريعة في الصحيحين البخاري ومسلم وغيرهما، فهو ممن مدحهم اللَّه ووصفهم وأثنى عليهم ووعدهم مغفرة وأجرًا عظيمًا. فمن نسبه أو واحدًا من الصحابة إلى كذب فهو خارج عن الشريعة، مبطل للقرآن، طاعن على رسول اللَّه ﷺ.

ومتى أُلحق واحد منهم تكذيبًا فقد سُبّ؛ لأنه لا عار ولا عيب بعد الكفر باللَّه أعظم من الكذب، وقد لعن رسول اللَّه ﷺ من سبّ أصحابه؛ فالمكذب لأصغرهم -ولا صغير فيهم- داخل في لعنة اللَّه التي شهد بها رسول اللَّه ﷺ، وألزمها كل من سبّ واحدًا من أصحابه أو طعن عليه.

وعن عمر بن حبيب قال: حضرت مجلس هارون الرشيد فجرت مسألة تنازعها

---

(١) الحشر: الآية (٩).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٤٣٤)، والبخاري (١١/ ٦٦٦/ ٦٦٥٨)، ومسلم (٤/ ١٩٦٢/ ٢٥٣٣)، والترمذي (٥/ ٦٥٢/ ٣٨٥٩)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٩٤-٤٩٥/ ٦٠٣١)، وابن ماجه (٢/ ٧٩١/ ٢٣٦٢) من حديث عبد اللَّه بن مسعود ﷺ.

(٣) سيأتي تخريجه.

الحضور وعلت أصواتهم، فاحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن رسول اللَّه ﷺ، فرفع بعضهم الحديث وزادت المدافعة والخصام حتى قال قائلون منهم: لا يُقبل هذا الحديث على رسول اللَّه ﷺ؛ لأن أبا هريرة متهم فيما يرويه، وصرّحوا بتكذيبه، ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم ونصر قولهم، فقلت أنا: الحديث صحيح عن رسول اللَّه ﷺ، وأبو هريرة صحيح النقل صدوق فيما يرويه عن النبي ﷺ وغيره، فنظر إلي الرشيد نظر مغضب، وقمت من المجلس فانصرفت إلى منزلي، فلم ألبث حتى قيل: صاحب البريد بالباب، فدخل فقال لي: أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول، وتحنّط وتكفّن! فقلت: اللهم إنك تعلم أني دفعت عن صاحب نبيك، وأجللت نبيك أن يطعن على أصحابه، فسلّمني منه.

فأدخلت على الرشيد وهو جالس على كرسي من ذهب، حاسر عن ذراعيه، بيده السيف وبين يديه النِّطْع، فلما بَصُرَ بي قال لي: يا عمر بن حبيب! ما تلقّاني أحد من الرد والدفع لقولي بمثل ما تلقّيتني به! فقلت: يا أمير المؤمنين! إن الذي قلتَه وجادلت عنه فيه ازدراء على رسول اللَّه ﷺ وعلى ما جاء به، إذا كان أصحابه كذابين فالشريعة باطلة، والفرائض والأحكام في الصيام والصلاة والطلاق والنكاح والحدود كله مردود غير مقبول! فرجع إلى نفسه ثم قال: أحييتني يا عمر بن حبيب أحياك الله! وأمر لي بعشرة آلاف درهم.

قلت: فالصحابة كلهم عدول، أولياء اللَّه تعالى وأصفياؤه، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله. هذا مذهب أهل السنة، والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة.

وقد ذهبت شرذمة لا مبالاة بهم إلى أن حال الصحابة كحال غيرهم، فيلزم البحث عن عدالتهم. ومنهم من فرق بين حالهم في بداءة الأمر فقال: إنهم كانوا على العدالة إذ ذاك، ثم تغيرت بهم الأحوال فظهرت فيهم الحروب وسفك الدماء، فلا بد من البحث.

وهذا مردود؛ فإن خيار الصحابة وفضلاءهم كعلي وطلحة والزبير وغيرهم رضي الله عنهم ممن أثنى اللَّه عليهم وزكّاهم ورضي عنهم وأرضاهم، ووعدهم الجنة بقوله تعالى: ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[1]، وخاصة العشرة المقطوع لهم بالجنة بإخبار الرسول هم

(١) الفتح: الآية (٢٩).

القدوة مع علمهم بكثير من الفتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيهم بإخباره لهم بذلك. وذلك غير مسقط من مرتبتهم وفضلهم؛ إذ كانت تلك الأمور مبنية على الاجتهاد، وكل مجتهد مصيب»[١].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٢٩٦-٢٩٩).

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ يقول -تعالى ذكره-: وعد اللَّه الذين صدّقوا اللَّه ورسوله، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يقول: وعملوا بما أمرهم اللَّه به من فرائضه التي أوجبها عليهم.

وقوله: ﴿مِنْهُم﴾ يعني: من الشطء الذي أخرجه الزرع، وهم الداخلون في الإسلام بعد الزرع الذي وصف ربنا تبارك وتعالى صفته. والهاء والميم في قوله: ﴿مِنْهُم﴾ عائدة على معنى الشطء، لا على لفظه، ولذلك جمع فقيل: ﴿مِنْهُم﴾ ولم يقل: (منه). وإنما جمع الشطء؛ لأنه أريد به من يدخل في دين محمد ﷺ إلى يوم القيامة بعد الجماعة الذين وصف اللَّه صفتهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾.

وقوله: ﴿مَّغْفِرَةً﴾ يعني: عفوًا عما مضى من ذنوبهم، وسيئ أعمالهم بحسنها.
وقوله: ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ يعني: وثوابًا جزيلًا، وذلك الجنة»[1].

وقال ابن كثير: «ثم قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم﴾، (من) هذه لبيان الجنس، ﴿مَّغْفِرَةً﴾؛ أي: لذنوبهم، ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾؛ أي: ثوابًا جزيلًا ورزقًا كريمًا، ووعد اللَّه حق وصدق، لا يُخلف ولا يبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضي اللَّه عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل»[2].

وقال ابن عاشور: «أعقب تنويه شأنهم والثناء عليهم بوعدهم بالجزاء على ما

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ١١٥-١١٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٤٤).

اتصفوا به من الصفات التي لها الأثر المتين في نشر ونصر هذا الدين»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تحريم سب أصحاب رسول اللَّه ﷺ

* عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله: «**لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال القاضي عياض: «سب أصحاب النبي ﷺ وتنقصهم أو أحد منهم من الكبائر المحرمة، وقد لعن النبي -عليه الصلاة والسلام- فاعل ذلك، وذكر أنه من آذاه وآذى اللَّه فإنه لا يقبل منه صرف ولا عدل. واختلف العلماء: ما يجب عليه؟ فعند مالك ومشهور مذهبه إنما فيه الاجتهاد بقدر قوله والمقول فيه، قال: وليس له في الفيء حق، وأما من قال فيهم: إنهم كانوا على ضلالة وكفر، وحكي عن سحنون مثل هذا فيمن قاله في الأئمة الأربعة، قال: وينكل في غيرهم. وحكي عنه: يقتل في الجميع لقول مالك»[٣].

قال القرطبي: «من المعلوم الذي لا يشك فيه: أن اللَّه تعالى اختار أصحاب نبيه لنبيه ﷺ، ولإقامة دينه، فجميع ما نحن فيه من العلوم، والأعمال، والفضائل، والأحوال، والمتملّكات، والأموال، والعزّ، والسلطان، والدين، والإيمان، وغير ذلك من النعم التي لا يحصيها لسان، ولا يتسع لتقديرها زمان إنما كان بسببهم. ولما كان ذلك وجب علينا الاعتراف بحقوقهم والشكر لهم على عظيم أياديهم، قيامًا بما أوجبه اللَّه تعالى من شكر المنعم، واجتنابًا لما حرمه من كفران حقه، هذا مع ما تحققناه من ثناء اللَّه تعالى عليهم، وتشريفه لهم، ورضاه عنهم،

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢١٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١١)، والبخاري (٧/ ٢٤/ ٣٦٧٣)، ومسلم (٤/ ١٩٦٧-١٩٦٨/ ٢٥٤١)، وأبو داود (٥/ ٤٥/ ٤٦٥٨)، والترمذي (٥/ ٦٥٣/ ٣٨٦١)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٨٤/ ٨٣٠٨)، وابن ماجه (١/ ٥٧/ ١٦١) وفيه عن أبي هريرة بدل أبي سعيد، وهو وهم، والصواب: عن أبي سعيد. قال الحافظ في الفتح (٧/ ٤٣): «وقع في بعض النسخ عند ابن ماجه اختلاف، ففي بعضها: عن أبي هريرة، وفي بعضها: عن أبي سعيد، والصواب: عن أبي سعيد». وقد بسط القول رحمه الله في بيان ذلك، فليراجعه من شاء.

(٣) الإكمال (٧/ ٥٨٠-٥٨١).

كقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ . . .﴾ إلى قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ . . .﴾[1]، وقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾[2]، وقوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾[3] إلى غير ذلك، وكقوله ﷺ: «**إن اللَّه اختار أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين**»[4] إلى غير ذلك من الأحاديث المتضمنة للثناء عليهم -رضي اللَّه عنهم أجمعين-. وعلى هذا فمن تعرّض لسبّهم، وجحد عظيم حقّهم، فقد انسلخ من الإيمان، وقابل الشكر بالكفران، ويكفي في هذا الباب ما رواه الترمذي من حديث عبداللَّه بن مغفل رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**اللَّه اللَّه في أصحابي! لا تتخذوهم غرضًا بعدي، فمن أحبّهم فبحبّي أحبّهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى اللَّه، ومن آذى اللَّه يوشك أن يأخذه**»[5]. فقال: هذا حديث غريب. وهذا الحديث، وإن كان غريب السند فهو صحيح المتن؛ لأنه معضود بما قدمناه من الكتاب وصحيح السنة وبالمعلوم من دين الأمة؛ إذ لا خلاف في وجوب احترامهم، وتحريم سبهم، ولا يختلف في أن من قال: إنهم كانوا على كفر أو ضلال كافر يُقتل؛ لأنه أنكر معلومًا ضروريًا من الشرع، فقد كذّب اللَّه ورسوله فيما أخبرا به عنهم. وكذلك الحكم فيمن كفّر أحد الخلفاء الأربعة، أو ضلّلهم. وهل حكمه حكم المرتد فيُستتاب؟ أو حكم الزنديق فلا يُستتاب ويُقتل على كل حال؟. هذا مما يُختلف فيه، فأما من سبّهم بغير ذلك؛ فإن كان سبًا يوجب حدًا كالقذف حُدّ حدّه، ثم ينكّل التنكيل الشديد من الحبس، والتخليد فيه، والإهانة ما خلا عائشة -رضي الله عنها- فإن قاذفها يُقتل؛ لأنه مكذّب لما جاء في الكتاب والسنة من براءتها. قاله مالك وغيره. واختلف في غيرها من أزواج النبي ﷺ فقيل: يُقتل قاذفها؛ لأن ذلك أذىً للنبي ﷺ، وقيل: يحدّ وينكّل، كما ذكرناه على قولين. وأما من سبّهم بغير القذف؛ فإنه يُجلد الجلد

---

(١) الفتح: الآيات (١٨-٢٩).

(٢) التوبة: الآية (١٠٠).

(٣) الحشر: الآية (٨).

(٤) أخرجه: البزار (المختصر) (٢/ ٣٦٣-٣٦٤/ ٢٠١٩) من حديث جابر بن عبداللَّه رضي الله عنهما. قال البزار: «لا يروى عن جابر إلا بهذا الإسناد، ولم يشارك عبداللَّه في روايته عن نافع بن يزيد أحد نعلمه». قال ابن حجر: «هو أحد ما أنكر على عبداللَّه بن صالح».

(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ٥٤)، والترمذي (٥/ ٦٥٣/ ٣٨٦٢) وقال: «هذا حديث غريب». والحديث ضعفه الشيخ الألباني رحمه الله.

الموجع، ويُنكّل التنكيل الشديد، قال ابن حبيب: ويخلد سجنه إلى أن يموت. وقد رُوي عن مالك: من سبّ عائشة قُتل مطلقًا، ويمكن حمله على السبّ بالقذف، واللَّه تعالى أعلم.

وقوله ﷺ: «**لا تسبّوا أصحابي. . إلخ**» رواه أبو هريرة مجرّدًا عن سببه، وقد رواه أبو سعيد الخدري، وذكر أن سبب ذلك القول هو: أنه كان بين خالد بن الوليد، وبين عبدالرحمن بن عوف شيء؛ أي: منازعة، فسبّه خالد، فقال رسول اللَّه ﷺ ذلك القول، فأظهر ذلك السبب أن مقصود هذا الخبر زجر خالد، ومن كان على مثل حاله ممن سُبق بالإسلام، وإظهار خصوصية السابق بالنبي ﷺ، وأن السابقين لا يلحقهم أحد في درجتهم؛ وإن كان أكثر نفقة وعملًا منهم، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾[1]، ويدل على صحة المقصود: أن خالدًا وإن كان من الصحابة ﷺ لكنه متأخر الإسلام. قيل: أسلم سنة خمس، وقيل: سنة ثمان. لكنه ﷺ لما عدل عن غير خالد وعبدالرحمن إلى التعميم، دل ذلك على أنه قصد مع ذلك تقعيد قاعدة تغليظ تحريم سب الصحابة مطلقًا، فيحرم ذلك من صحابي وغيره؛ لأنه إذا حرم على صحابي فتحريمه على غيره أولى. وأيضًا: فإن خطابه ﷺ للواحد خطاب للجميع، وخطابه للحاضرين خطاب للغائبين إلى يوم القيامة. . وفي هذا الحديث دلالة واضحة على أن الصحابة -رضوان اللَّه عليهم- لا يلحقهم أحد ممن بعدهم في فضلهم»[2].

وقال القاضي عياض: «أجرهم هم مضاعف لمكانهم من الصحبة، حتى لا يوازى إنفاق مثل أحد ذهبًا صدقة أحدهم بنصف مد، وما بين هذا التقدير لا يحصى.

وهذا يقتضي ما قدمناه من قول جمهور الأمة من تفضيلهم على من سواهم بتضعيف أجورهم؛ ولأن اتفاقهم كان في وقت الحاجة والضرورة وإقامة الأمر وبدء الإسلام، وإيثار النفس، وقلة ذات اليد ونفقة غيرهم بعد الاستغناء عن كثير منها مع سعة الحال، وكثرة ذات اليد؛ ولأن إنفاقهم كان في نصرة ذات النبي -عليه الصلاة

(١) الحديد: الآية (١٠).
(٢) المفهم (٦/ ٤٩٢).

والسلام- وحمايته، وذلك معدوم بعده، وكذلك جهادهم وأعمالهم كلها، وقد قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ﴾ الآية. هذا فرق ما فيهم أنفسهم من الفضل وبينهم من البون، فكيف لمن يأتي بعدهم؟ فإن فضيلة الصحبة واللقاء ولو لحظة لا يوازيها عمل ولا ينال درجتها شيء، والفضائل لا تؤخذ بقياس، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

وقد ذهب بعض أصحاب الحديث والنظر إلى هذا كله في خاصة أصحابه، وجوز هذه الفضيلة لمن أنفق معه وقاتل، وهاجر، ونصر، لا لمن زاره مرة ولقيه مرة من القبائل أو صحبه آخر مرة وبعد فتح مكة، واستقرار الإسلام ممن لم يقر بهجرة ولا حض بنصرة ولا اشتهر بمقام محمود في الدين، ولا عرف باستقلال بأمر من أمور الشريعة ومنفعة المسلمين، والقول الأول لظاهر الآثار أظهر، وعليه الأكثر»[1].

قلت: وقد تكلمنا على فضائل أصحاب رسول اللَّه ﷺ وكرم معدنهم، وأثر تربية رسول اللَّه ﷺ فيهم، وذكرنا أقوال أهل السنة والجماعة في وجوب احترامهم وإجلالهم وإعظامهم، وتحريم سبّهم وتنقصهم -رضي اللَّه عنهم وأرضاهم-، وما يترتب على ذلك، في كتابنا (من سب الصحابة ومعاوية فأمه هاوية).

* * *

(١) الإكمال (٧/ ٥٨٠).



سورة الحجرات

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «تتعلق أغراضها بحوادث جدّت متقاربة كانت سببًا لنزول ما فيها من أحكام وآداب.

وأولها: تعليم المسلمين بعض ما يجب عليهم من الأدب مع النبيء ﷺ في معاملته وخطابه وندائه، دعا إلى تعليمهم إياها ما ارتكبه وفد بني تميم من جفاء الأعراب لما نادوا الرسول ﷺ من بيوته كما سيأتي..

ووجوب صدق المسلمين في ما يخبرون به، والتثبت في نقل الخبر مطلقًا، وأن ذلك من خلق المؤمنين، ومجانبة أخلاق الكافرين والفاسقين، وتطرق إلى ما يحدث من التقاتل بين المسلمين، والإصلاح بينهم؛ لأنهم إخوة، وما أمر اللَّه به من آداب حسن المعاملة بين المسلمين في أحوالهم في السر والعلانية، وتخلص من ذلك إلى التحذير من بقايا خلق الكفر في بعض جفاة الأعراب تقويمًا لأود نفوسهم»[1].

قال الرازي: «هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وهي إما مع اللَّه تعالى أو مع الرسول ﷺ أو مع غيرهما من أبناء الجنس، وهم على صنفين؛ لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين وداخلين في رتبة الطاعة، أو خارجًا عنها وهو الفاسق. والداخل في طائفتهم، السالك لطريقتهم، إما أن يكون حاضرًا عندهم، أو غائبًا عنهم، فهذه خمسة أقسام:

أحدها: يتعلق بجانب اللَّه.

وثانيها: بجانب الرسول.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢١٣-٢١٤).

وثالثها : بجانب الفساق.

ورابعها : بالمؤمن الحاضر.

وخامسها : بالمؤمن الغائب.

فذكرهم اللَّه تعالى في هذه السورة خمس مرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ، وأرشدهم في كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة:

فقال أولًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾(١)، وذكر الرسول كان لبيان طاعة الله؛ لأنها لا تعلم إلا بقول رسول اللَّه.

وقال ثانيًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾(٢) لبيان وجوب احترام النبي ﷺ.

وقال ثالثًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾(٣) لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم؛ فإنهم يريدون إلقاء الفتنة بينكم، وبيّن ذلك عند تفسير قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾(٤).

وقال رابعًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾(٥)، وقال: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ﴾ لبيان وجوب ترك إيذاء المؤمنين في حضورهم والازدراء بحالهم ومنصبهم.

وقال خامسًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾(٦)، وقال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ ، وقال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ لبيان وجوب الاحتراز عن إهانة جانب المؤمن حال غيبته، وذكر ما لو كان حاضرًا لتأذى، وهو في غاية الحسن من الترتيب، فإن قيل: لم لم يذكر المؤمن قبل الفاسق لتكون المراتب متدرجة الابتداء باللَّه ورسوله، ثم بالمؤمن الحاضر، ثم بالمؤمن الغائب، ثم بالفاسق؟ نقول: قدم اللَّه ما هو الأهم على ما دونه، فذكر جانب اللَّه، ثم ذكر جانب الرسول، ثم ذكر ما يفضي إلى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الإصغاء إلى كلام الفاسق والاعتماد عليه؛ فإنه يذكر كل ما كان أشد نفارًا للصدور، وأما

---

(١) الحجرات: الآية (١).
(٢) الحجرات: الآية (٢).
(٣) الحجرات: الآية (٦).
(٤) الحجرات: الآية (٩).
(٥) الحجرات: الآية (١١).
(٦) الحجرات: الآية (١٢).

المؤمن الحاضر أو الغائب فلا يؤذي المؤمن إلى حد يفضي إلى القتل، ألا ترى أن اللَّه تعالى ذكر عقيب نبأ الفاسق آية الاقتتال، فقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾»[1].

قال ابن عاشور: «وهذه السورة هي أول سور المفصل (بتشديد الصاد، ويسمى: المحكم) على أحد أقوال في المذهب، وهو الذي ارتضاه المتأخرون من الفقهاء، وفي مبدإ المفصل عندنا أقوال عشرة، أشهرها قولان: قيل: إن مبدأه سورة (ق)، وقيل: سورة (الحجرات). . واختلف الحنفية في مبدإ المفصل على أقوال اثني عشر، والمصحح أن أوله من (الحجرات). . وعند الشافعية قيل: أول المفصل سورة (الحجرات)، وقيل: سورة (ق)، ورجّحه ابن كثير في التفسير كما سيأتي[2]. وعند الحنابلة: أول المفصل سورة (ق)»[3].

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١١٩-١٢٠). وانظر مجموع الفتاوى (٧/ ٢٤٨ فما بعد).

(٢) قد علّقنا على كلام ابن كثير في موطنه من سورة (ق) بما يناسبه، واللَّه الموفق.

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢١٤-٢١٥).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ①﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «ومناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة، لأنه ذكر رسول اللَّه ﷺ وأصحابه، ثم قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فربما صدر من المؤمن عامل الصالحات بعض شيء مما ينبغي أن ينهى عنه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾»[(١)].

وقال الرازي: «في بيان حسن الترتيب وجوه:

أحدها: أن في السورة المتقدمة لما جرى منهم ميل إلى الامتناع مما أجاز النبي ﷺ من الصلح وترك آية التسمية والرسالة وألزمهم كلمة التقوى كأن رسول اللَّه ﷺ قال لهم على سبيل العموم: لا تقدموا بين يدي اللَّه ورسوله، ولا تتجاوزوا ما يأمر اللَّه تعالى ورسوله.

الثاني: هو أن اللَّه تعالى لما بيّن محل النبي -عليه الصلاة والسلام- وعلو درجته بكونه رسوله الذي يظهر دينه وذكره بأنه رحيم بالمؤمنين بقوله: ﴿رَحِيمٌ﴾[(٢)] قال لا تتركوا من احترامه شيئًا لا بالفعل ولا بالقول، ولا تغتروا برأفته، وانظروا إلى رفعة درجته.

الثالث: هو أن اللَّه تعالى وصف المؤمنين بكونهم أشداء ورحماء فيما بينهم راكعين ساجدين نظرًا إلى جانب اللَّه تعالى، وذكر أن لهم من الحرمة عند اللَّه ما أورثهم حسن الثناء في الكتب المتقدمة بقوله: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾[(٣)] فإن الملك العظيم لا يذكر أحدًا في غيبته إلا إذا كان عنده محترمًا

---

(١) البحر المحيط (٨/ ١٠٥). (٢) التوبة: الآية (١٢٨).
(٣) الفتح: الآية (٢٩).

ووعدهم بالأجر العظيم، فقال في هذه السورة لا تفعلوا ما يوجب انحطاط درجتكم وإحباط حسناتكم ولا تقدموا»[١].

وقال ابن كثير: «هذه آداب أدّب اللَّه بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، أي: لا تسرعوا في الأشياء بين يديه، أي: قبله، بل كونوا تبعًا له في جميع الأمور»[٢].

وقال الآلوسي: «﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وتصدير الخطاب بالنداء لتنبيه المخاطبين على أن ما في حيزه أمر خطير يستدعي مزيد اعتنائهم وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته، ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم والإيذان بأنه داع للمحافظة عليه ورادع عن الإخلال به»[٣].

وقال أبو السعود: «وإعادة النداء مع قرب العهد به للمبالغة في الإيقاظ والتنبيه والإشعار باستقلال كل من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه»[٤].

وقال ابن جرير: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: يا أيها الذين أقرّوا بوحدانية اللَّه، وبنبوّة محمد ﷺ: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يقول: لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم، قبل أن يقضي اللَّه لكم فيه ورسوله، فتقضوا بخلاف أمر اللَّه وأمر رسوله، محكيّ عن العرب فلان يقدّم بين يدي إمامه، بمعنى يعجل بالأمر والنهي دونه.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل وإن اختلفت ألفاظهم بالبيان عن معناه»[٥].

قال ابن كثير: «قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة.

وقال العوفي عنه: نهى أن يتكلموا بين يدي كلامه. وقال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول اللَّه ﷺ بشيء حتى يقضي اللَّه على لسانه. وقال الضحاك: لا تقضوا

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١١٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٤٥).
(٣) روح المعاني (٢٦/ ١٣١).
(٤) تفسير أبي السعود (٦/ ١٨١)
(٥) جامع البيان (٢٦/ ١١٦).

أمرًا دون اللَّه ورسوله من شرائع دينكم. وقال سفيان الثوري: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بقول ولا فعل. وقال الحسن البصري: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال: لا تدعوا قبل الإمام. وقال قتادة: ذكر لنا أن ناسًا كانوا يقولون: لو أنزل في كذا كذا، وكذا لو صنع كذا، فكره اللَّه ذلك وتقدم فيه.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾، أي: لأقوالكم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيّاتكم»[1].

وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يقول: وخافوا اللَّه أيها الذين آمنوا في قولكم، أن تقولوا ما لم يأذن لكم به اللَّه ولا رسوله، وفي غير ذلك من أموركم، وراقبوه، إن اللَّه سميع لما تقولون، عليم بما تريدون بقولكم إذا قلتم، لا يخفى عليه شيء من ضمائر صدوركم، وغير ذلك من أموركم وأمور غيركم»[2].

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ﴾ أصل في ترك التعرّض لأقوال النبي ﷺ، وإيجاب اتباعه والاقتداء به»[3].

وقال السعدي: «هذا متضمن للأدب مع اللَّه تعالى، ومع رسول اللَّه ﷺ، والتعظيم له، واحترامه، وإكرامه، فأمر اللَّه عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان باللَّه وبرسوله، من امتثال أوامر اللَّه، واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين خلف أوامر اللَّه، متبعين لسنة رسول اللَّه ﷺ في جميع أمورهم، وأن لا يتقدموا بين يدي اللَّه ورسوله، ولا يقولوا حتى يقول، ولا يأمروا حتى يأمر، فإن هذا حقيقة الأدب الواجب مع اللَّه ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه؛ وبفواته تفوته السعادة الأبدية، والنعيم السرمدي. وفي هذا النهيُ الشديد عن تقديم قول غير الرسول ﷺ على قوله؛ فإنه متى استبانت سنة رسول اللَّه ﷺ، وجب اتباعها وتقديمها على غيرها، كائنًا ما كان.

ثم أمر اللَّه بتقواه عمومًا، وهي كما قال طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة اللَّه، على نور من اللَّه، ترجو ثواب اللَّه، وأن تترك معصية اللَّه، على نور من اللَّه، تخشى

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٤٥).

(٢) جامع البيان (٢٦/ ١١٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٣٠٢-٣٠٣).

عقاب الله.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لجميع الأصوات في جميع الأوقات، في خفي المواضع والجهات، ﴿عَلِيمٌ﴾ بالظواهر والبواطن، والسوابق واللواحق، والواجبات والمستحيلات والممكنات.

وفي ذكر الاسمين الكريمين -بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله، والأمر بتقواه- حث على امتثال تلك الأوامر الحسنة، والآداب المستحسنة، وترهيب عن ضده»[1].

وقال الشنقيطي: «وهذه الآية الكريمة فيها التصريح بالنهي عن التقديم بين يدي الله ورسوله، ويدخل في ذلك دخولًا أوليًا تشريع ما لم يأذن به الله، وتحريم ما لم يحرمه، وتحليل ما لم يحلله؛ لأنه لا حرام إلا ما حرمه الله ولا حلال إلا ما أحله الله، ولا دين إلا ما شرعه الله»[2].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا كان سبحانه قد نهى عن التقديم بين يديه، فأي تقدم أبلغ من تقديم عقله على ما جاء به، قال غير واحد من السلف: ولا تقولوا حتى يقول ولا تفعلوا حتى يأمر. ومعلوم قطعًا أن من قدم عقله أو عقل غيره على ما جاء به، فهو أعصى الناس لهذا النبي ﷺ، وأشدهم تقدّمًا بين يديه»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية

* عن عبد الله بن الزبير قال: قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر: أمّر القعقاع بن معبد بن زرارة، فقال عمر: بل أمّر الأقرع بن حابس، قال أبو بكر ما أردت إلا خلافي، قال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ حتى انقضت الآية[4].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٢٦-١٢٧).
(٢) أضواء البيان (٧/ ٦١٤).
(٣) الصواعق المرسلة (٣/ ٩٩٦-٩٩٧).
(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٦)، والبخاري (٨/ ١٠٥/ ٤٣٦٧)، والترمذي (٥/ ٣٦١/ ٣٢٦٦) وقال: «حسن غريب»، والنسائي (٨/ ٦١٧/ ٥٤٠١).

★ **فوائد الحديث:**

أفاد الحديث أن سبب نزول الآية هو تخالف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في التأمير، ذاك يقول: القعقاع بن معبد، والآخر يقول: الأقرع بن حابس، حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت. غير أن البخاري أورد القصة نفسها برواية أخرى من صحيحه، وفيها: فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾(١) الآية. وقد انفرد بهاتين الروايتين البخاري دون مسلم.

قال ابن حجر: «وقد استشكل ذلك، قال ابن عطية: الصحيح أن سبب نزول هذه الآية كلام جفاة الأعراب. قلت -القائل ابن حجر-: لا يعارض ذلك هذا الحديث، فإن الذي يتعلق بقصة الشيخين في تخالفهما في التأمير هو أول السورة ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾، ولكن لما اتصل بها قوله: ﴿لَا تَرْفَعُوا﴾ تمسك عمر منها بخفض صوته. وجفاة الأعراب الذين نزلت فيهم هم من بني تميم، والذي يختص بهم قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾(٢) قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ من وراء الحجرات فقال: يا محمد! إن مدحي زين، وإن شتمي شين، فقال النبي ﷺ: «**ذاك الله عز وجل**» فنزلت.

قلت -القائل ابن حجر-: ولا مانع أن تنزل الآية لأسباب تتقدمها، فلا يعدل للترجيح مع ظهور الجمع وصحة الطرق، ولعل البخاري استشعر ذلك فأورد قصة ثابت بن قيس عقب هذا ليبين ما أشرت إليه من الجمع، ثم عقب ذلك كله بترجمة: (باب قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾(٣)) إشارة إلى قصة جفاة الأعراب من بني تميم، لكنه لم يذكر في الترجمة حديثًا، وكأنه ذكر حديث ثابت لأنه هو الذي كان الخطيب لما وقع الكلام في المفاخرة بين بني تميم المذكورين، كما أورده ابن إسحاق في المغازي مطولًا»(٤). انتهى كلام الحافظ ابن حجر.

قال القاسمي تعليقًا على روايتي البخاري وعلى كلام الحافظ ابن حجر:

---

(١) الحجرات: الآية (٢).

(٢) الحجرات: الآية (٤).

(٣) الحجرات: الآية (٥).

(٤) فتح الباري (٨/ ٧٦٠).

«وتقدم لنا مرارًا الجواب عن أمثاله بأن قولهم: نزلت الآية في كذا، قد يكون المراد به الاستشهاد على أن مثله مما تتناوله الآية، لا أنه سبب لنزولها، قال الإمام ابن تيمية: قولهم: نزلت هذه الآية في كذا، يراد به تارة سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية، وبه يجاب عما يرويه -يقول القاسمي- كثير من تعدد سبب النزول، فاحفظه فإنه من المضنون به على غير أهله. ولو وقف عليه ابن عطية لما ضعف رواية البخاري، ولما تمحّل ابن حجر لتفكيك الآيات بجعل بعضها لسبب. وبعضها الآخر في قصة واحدة وبالله التوفيق»(١).

أقول: ويبدو لي أن كلام القاسمي وجيه في حل هذا الإشكال خصوصًا إذا وقف القارئ على تبويب آخر للبخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث بوّب على حديث عبد الله بن الزبير بقوله: (باب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾) في حين: إن الحافظ لم يُشر أدنى إشارة لوجه ومناسبة الباب للحديث مما يعكّر على المتتبع، فلا يلوي بالتالي على شيء. لذلك لم يجزم القرطبي في تفسيره بشيء فقال: «واختلف في سبب نزولها على أقوال ستة» فذكرها كلها بما فيه روايتي البخاري، وقال عقب ذلك كله: «قال القاضي: وهي كلها صحيحة تدخل تحت العموم، فالله أعلم ما كان السبب المثير للآية منها. ولعلها نزلت دون سبب والله أعلم»(٢).

* * *

(١) محاسن التأويل (١٥/ ١١٤).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٩٨-١٩٩).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾

★ **غريب الآية:**

تجهروا: الجهر: ظهور الصوت. نقيضه: الهمس.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «ما الفائدة في إعادة النداء، وما هذا النمط من الكلامين على قول القائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ﴾ و﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾؟ نقول في إعادة النداء فوائد خمسة: منها أن يكون في ذلك بيان زيادة الشفقة على المسترشد كما في قول لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾[١]، ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾[٢]، ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[٣] لأن النداء لتنبيه المنادى ليقبل على استماع الكلام ويجعل باله منه، فإعادته تفيد ذلك، ومنها أن لا يتوهم متوهم أن المخاطب ثانيًا غير المخاطب أولًا: فإن من الجائز أن يقول القائل يا زيد افعل كذا وقل كذا يا عمرو، فإذا أعاده مرة أخرى، وقال يا زيد قل كذا، يعلم من أول الكلام أنه هو المخاطب ثانيًا أيضًا ومنها أن يعلم أن كل واحد من الكلامين مقصود، وليس الثاني تأكيدًا للأول كما تقول يا زيد لا تنطق ولا تتكلم إلا بالحق فإنه لا يحسن أن يقال يا زيد لا تنطق يا زيد لا تتكلم كما يحسن عند اختلاف المطلوبين»[٤].

قال الآلوسي: «وإعادة النداء مع قرب العهد به للمبالغة في الايقاظ والتنبيه والإشعار باستقلال كل من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه»[٥].

---

(١) لقمان: الآية (١٣).
(٢) لقمان: الآية (١٦).
(٣) لقمان: الآية (١٧).
(٤) مفاتيح الغيب (١٤/ ١١٢).
(٥) روح المعاني (٢٦/ ١٣٤).

وقال ابن كثير: «هذا أدب ثانٍ أدّب اللَّه به المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ. . فقد نهى اللَّه ﷻ عن رفع الأصوات بحضرة رسول اللَّه ﷺ، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربًا. وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته -عليه الصلاة والسلام-، لأنه محترم حيا وفي قبره -صلوات اللَّه وسلامه عليه- دائما. ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم، ولهذا قال -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾[١]، وقوله ﷻ: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب اللَّه تعالى لغضبه، فيحبط اللَّه عمل من أغضبه وهو لا يدري»[٢].

قال القرطبي صاحب المفهم: «وقوله: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي: من أجل أن تحبط، أي: تبطل، فإما أصل الأعمال إن كان ذلك عن كفر، وإما ثوابها إن كان عن معصية»[٣].

وقال صديق حسن خان: «والحاصل أن النهي هنا وقع عن أمور:

الأول: عن التقديم بين يديه، بما لم يأذن به من الكلام.

الثاني: عن رفع الصوت البالغ إلى حد يكون فوق صوته، سواء كان في خطابه أو خطاب غيره.

الثالث: ترك الجفاء في مخاطبته، ولزوم الأدب في محاورته؛ لأن المقاولة المجهورة إنما تكون بين الأكفاء، الذين ليس لبعضهم على بعض مزية توجب احترامه وتوقيره»[٤].

---

(١) النور: الآية (٦٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٤٥-٣٤٨).

(٣) المفهم (٧/ ٤٠٠).

(٤) فتح البيان (٣/ ١٣٢).

وقال القرطبي: «وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة؛ لأن ذلك كفر، والمخاطبون مؤمنون. وإنما الغرض صوت هو في نفسه والمسموع من جَرْسه غيرُ مناسب لما يهاب به العظماء ويوقّر الكبراء، فيتكلف الغض منه وردّه إلى حدّ يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير.

ولم يتناول النهي أيضًا رفع الصوت الذي يتأذّى به رسول اللّه ﷺ، وهو ما كان منهم في الحرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدوّ أو ما أشبه ذلك؛ ففي الحديث أنه قال عليه السلام للعباس بن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حنين: «**اصرخ بالناس**»، وكان العباس أجهر الناس صوتًا»[(١)].

وقال الآلوسي: «ظاهر الآية مشعر بأن الذنوب مطلقًا قد تحبط الأعمال الصالحة؛ ومذهب أهل السنة أن المحبط منها الكفر لا غير، والأول مذهب المعتزلة ولذا قال الزمخشري: قد دلت الآية على أمرين هائلين. أحدهما أن فيما يرتكب من الآثام ما يحبط عمل المؤمن. والثاني أن في أعماله ما لا يدري أنه محبط ولعله عند اللّه تعالى محبط.

وأجاب عن ذلك ابن المنير عليه الرحمة بأن المراد في الآية النهي عن رفع الصوت على الإطلاق، ومعلوم أن حكم النهي الحذر مما يتوقع في ذلك من إيذاء النبي ﷺ، والقاعدة المختارة أن إيذاءه -عليه الصلاة والسلام- يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باتفاق فورد النهي عما هو مظنة لأذى النبي ﷺ سواء وجد هذا المعنى أولًا حماية للذريعة وحسمًا للمادة، ثم لما كان هذا المنهى عنه منقسمًا إلى ما يبلغ مبلغ الكفر وهو المؤذي له -عليه الصلاة والسلام- وإلى ما لا يبلغ ذلك المبلغ ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقًا خوف أن يقع فيما هو محبط للعمل وهو البالغ حد الأذى إذ لا دليل ظاهرًا يميز، وإن كان فلا يتفق تمييزه في كثير من الأحيان، وإلى التباس أحد القسمين بالآخر وقعت الإشارة بقوله سبحانه: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ وإلا فلو كان الأمر على ما يعتقده الزمخشري لم يكن لقوله سبحانه: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ موقع إذ

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٠٧).

الأمر منحصر بين أن يكون رفع الصوت مؤذيًا فيكون كفرًا محبطًا قطعًا وبين أن يكون غير مؤذ فيكون كبيرة محبطة على رأيه قطعًا، فعلى كلا حاليه الإحباط به محقق إذن فلا موقع لإدعام الكلام بعدم الشعور مع أن الشعور ثابت مطلقًا، ثم قال عليه الرحمة: وهذا التقدير يدور على مقدمتين كلتاهما صحيحة. إحداهما أن رفع الصوت من جنس ما يحصل به الأذى وهذا أمر يشهد به النقل والمشاهدة حتى أن الشيخ ليتأذى برفع التلميذ صوته بين يديه فكيف برتبة النبوة وما تستحقه من الإجلال والإعظام. ثانيتهما أن إيذاء النبي ﷺ كفر وهذا ثابت قد نص عليه ائمتنا وأفتوا بقتل من تعرض لذلك كفرًا ولا تقبل توبته فما أتاه أعظم عند اللَّه تعالى وأكبر. انتهى.

وحاصل الجواب: أنه لا دليل في الآية على ما ذهب إليه الزمخشري لأنه قد يؤدي إلى الإحباط إذا كان على وجه الإيذاء أو الاستهانة فنهاهم ﷻ عنه وعلله بأنه قد يحبط وهم لا يشعرون، وقيل: يمكن نظرًا للمقام أن ينزل إذا هم رسول اللَّه ﷺ برفع الصوت منزلة الكفر تغليظًا إجلالًا لمجلسه صلوات اللَّه تعالى عليه وسلامه ثم يرتب عليه ما يرتب على الكفر الحقيقي من الإحباط كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] ومعنى ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ عليه وأنتم لا تشعرون أن ذلك بمنزلة الكفر المحبط وليس كسائر المعاصي، ولا يتم بدون الأول، وجاز كما في الكشف أن يكون المراد ما فيه استهانة ويكون من باب ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[2] مما الغرض منه التعريض، كيف وهو قول منقول عن الحسن كما حكاه في الكشاف، وقال أبو حيان: إن كانت الآية بمن يفعل ذلك استخفافًا فذلك كفر يحبط معه العمل حقيقة، وإن كانت للمؤمن الذي يفعله غلبة وجريًا على عادته فإنما يحبط عمله البر في توقير النبي ﷺ وغض الصوت عنده أن لو فعل ذلك كأنه قيل: مخافة أن تحبط الأعمال التي هي معدة أن تعملوها فتؤجروا عليها، ولا يخفى ما في الشق الثاني من التكلف البارد، ثم إن من الجهر ما لم يتناوله النهي بالاتفاق وهو ما كان منهم في حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدو أو ما أشبه ذلك مما لا يتخيل منه تأذ أو استهانة، ففي الحديث أنه -عليه الصلاة والسلام- قال للعباس بن عبد المطلب لما ولى المسلمون يوم

---

(١) آل عمران: الآية (٩٧).

(٢) القصص: الآية (٨٦).

حنين: ناد أصحاب السمرة فنادى بأعلى صوته أين أصحاب السمرة، وكان رجلًا صيتا[(١)]»[(٢)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فوجه الدلالة أن اللّٰه سبحانه نهاهم عن رفع أصواتهم فوق صوته وعن الجهر له كجهر بعضهم لبعض لأن هذا الرفع والجهر قد يفضي إلى حبوط العمل وصاحبه لا يشعر فإنه علل نهيهم عن الجهر وتركهم له بطلب سلامة العمل عن الحبوط وبين أن فيه من المفسدة جواز حبوط العمل وانعقاد سبب ذلك وما يفضي إلى حبوط العمل يجب تركه غاية الوجوب والعمل يَحْبَطُ بالكفر قال سبحانه: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾[(٣)] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾[(٤)] وقال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[(٥)] وقال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[(٦)] وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾[(٧)] وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾[(٨)] كما أن الكفر إذا قارنه عمل لم يقبل لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[(٩)] وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾﴾[(١٠)] وقوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾[(١١)]. وهذا ظاهر ولا يحبط الأعمال غير الكفر؛ لأن من مات على الإيمان فإنه لا بد أن يدخل الجنة ويخرج من النار إن دخلها، ولو حبط عمله كله لم يدخل الجنة قط، ولأن الأعمال إنما يحبطها ما ينافيها، ولا ينافي الأعمال مطلقا إلا الكفر وهذا معروف من أصول أهل السنة، نعم قد يبطل بعض الأعمال بوجود ما يفسده كما قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[(١٢)] ولهذا لم يحبط اللّٰه الأعمال في كتابه إلا بالكفر.

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٠٧) ومسلم (٣/ ١٣٩٨-١٣٩٩/ ١٧٧٥) والنسائي في الكبرى (٥/ ١٩٧/ ٨٦٥٣).
(٢) روح المعاني (٢٦/ ١٣٥-١٣٦).
(٣) البقرة: الآية (٢١٧).
(٤) المائدة: الآية (٥).
(٥) الأنعام: الآية (٨٨).
(٦) الزمر: الآية (٦٥).
(٧) محمد: الآية (٩).
(٨) محمد: الآية (٢٨).
(٩) المائدة: الآية (٢٧).
(١٠) محمد: الآية (١).
(١١) التوبة: الآية (٥٤).
(١٢) البقرة: الآية (٢٦٤).

فإذا ثبت أن رفع الصوت فوق صوت النبي والجهر له بالقول يخاف منه أن يكفر صاحبه وهو لا يشعر ويحبط عمله بذلك وأنه مظنة لذلك وسبب فيه فمن المعلوم أن ذلك لما ينبغي له من التعزير والتوقير والتشريف والتعظيم والإكرام والإجلال»[١].

قال ابن القيم: «ومن الأدب معه: أن لا ترفع الأصوات فوق صوته فإنه سبب لحبوط الأعمال، فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به، أترى ذلك موجبا لقبول الأعمال ورفع الصوت فوق صوته موجبا لحبوطها»[٢].

وقال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة علّم اللَّه فيها المؤمنين أن يعظموا النبي ﷺ ويحترموه ويوقروه، فنهاهم عن رفع أصواتهم فوق صوته، وعن أن يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض، أي: ينادونه باسمه: يا محمد! يا أحمد! كما ينادي بعضهم بعضًا.

وإنما أمروا أن يخاطبوه خطابًا يليق بمقامه ليس كخطاب بعضهم لبعض، كأن يقولوا: يا نبي الله! أو يا رسول الله! ونحو ذلك.

وقوله: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ أي: لا تفعلوا ذلك لئلاّ تحبط أعمالكم، أو ينهاكم عن ذلك كراهة أن تحبط أعمالكم ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ أي: لا تعلمون بذلك.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من لزوم توقير النبي ﷺ، وتعظيمه واحترامه جاء مبينًا في مواضع أخر، كقوله تعالى: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾[٣] على القول بأن الضمير في ﴿تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ للنبي ﷺ، وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾[٤] كما تقدم، وقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾[٥] الآية. وقوله هنا: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ أي لا تنادوه باسمه: كـ(يا محمد!).

وقد دلت آيات من كتاب اللَّه على أن اللَّه تعالى لا يخاطبه في كتابه باسمه، وإنما يخاطبة بما يدل على التعظيم والتوقير، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾[٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) الصارم المسلول وانظر في الباب: إعلام الموقعين (١/ ٥١)، والوابل الصيب (ص: ٢٩-٣٠)، ومجموع الفتاوى (٧/ ٤٩٣-٤٩٤).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٨٩).

(٣) الفتح: الآية (٩).

(٤) النور: الآية (٦٣).

(٥) الأعراف: الآية (١٥٧).

(٦) الأنفال: الآية (٦٤) وغيرها.

﴿ٱلرَّسُولُ﴾[١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾[٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾[٣]، مع أنه ينادي غيره من الأنبياء بأسمائهم كقوله: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ﴾[٤]، وقوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤﴾[٥]، وقوله: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾[٦]، ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾[٧]. وقوله: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[٨]، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾[٩]، وقوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً﴾[١٠].

أما النبي ﷺ فلم يذكر اسمه في القرآن في خطاب، وإنما يذكر في غير ذلك كقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾[١١]، وقوله: ﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾[١٢]، وقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾[١٣].

وقد بيّن تعالى أن توقيره واحترامه ﷺ بغض الصوت عنده لا يكون إلا من الذين امتحن اللَّه قلوبهم للتقوى، أي: أخلصها لها، وأن لهم بذلك عند اللَّه المغفرة والأجر العظيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾[١٤]..

وظاهر هذه الآية الكريمة أن الإنسان قد يحبط عمله وهو لا يشعر، وقد قال القرطبي: إنه لا يحبط عمله بغير شعوره، وظاهر الآية يرد عليه.. ومعلوم أن حرمة النبي ﷺ بعد وفاته كحرمته في أيام حياته، وبه تعلم أن ما جرت به العادة اليوم من اجتماع الناس قرب قبره ﷺ وهم في صخب ولغط، وأصواتهم مرتفعة ارتفاعًا مزعجًا، كله لا يجوز، ولا يليق، وإقرارهم عليه من المنكر.

وقد شدد عمر رضي الله عنه النكير على رجلين رفعا أصواتهما في مسجده ﷺ، وقال: «لو كنتم من أهل المدينة لأوجعتكما ضربًا».

---

(١) المائدة: الآيتان (٤١)و(٦٧).
(٢) المزمل: الآية (١).
(٣) المدثر: الآية (١).
(٤) البقرة: الآية (٣٥).
(٥) الصافات: الآية (١٠٤).
(٦) هود: الآية (٤٦).
(٧) هود: الآية (٤٨).
(٨) الأعراف: الآية (١٤٤).
(٩) آل عمران: الآية (٥٥).
(١٠) ص: الآية (٢٦).
(١١) آل عمران: الآية (١٤٤).
(١٢) محمد: الآية (٢).
(١٣) الفتح: الآية (٢٩).
(١٤) الحجرات: الآية (٣).

مسألتان:

الأولى: اعلم أن عدم احترام النبي ﷺ المشعر بالغض منه أو تنقيصه ﷺ والاستخفاف به أو الاستهزاء به ردة عن الإسلام وكفر بالله.

وقد قال تعالى في الذين استهزؤوا بالنبي ﷺ وسخروا منه في غزوة تبوك لما ضلت راحلته: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[1].

المسألة الثانية: وهي من أهم المسائل، اعلم أنه يجب على كل إنسان أن يميز بين حقوق اللَّه تعالى التي هي من خصائص ربوبيته، التي لا يجوز صرفها لغيره، وبين حقوق خلقه كحق النبي ﷺ، ليضع كل شيء في موضعه، على ضوء ما جاء به النبي ﷺ في هذا القرآن العظيم والسنة الصحيحة.

وإذا عرفت ذلك، فاعلم: أن من الحقوق الخاصة باللَّه التي هي من خصائص ربوبيته التجاء عبده إليه إذا دهمته الكروب التي لا يقدر على كشفها إلا اللَّه.

فالتجاء المضطر الذي أحاطت به الكروب ودهمته الدواهي لا يجوز إلا لله وحده؛ لأنه من خصائص الربوبية، فصرف ذلك الحق لله وإخلاصه له هو عين طاعة اللَّه ومرضاته وطاعة رسوله ﷺ ومرضاته، وهو عين التوقير والتعظيم للنبي ﷺ؛ لأن أعظم أنواع توقيره وتعظيمه هو اتباعه والاقتداء به في إخلاص التوحيد والعبادة له وحده -جل وعلا-.

وقد بين -جل وعلا- في آيات كثيرة من كتابه أن التجاء المضطر من عباده إليه وحده، في أوقات الشدة والكرب من خصائص ربوبيته تعالى.

من أصرح ذلك الآيات التي في سورة (النمل)، أعني قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2]؛ فإنه -جل وعلا- قال في هذه الآيات الكريمات العظيمات: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

ثم بين خصائص ربوبيته الدالة على أنه المعبود وحده فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) التوبة الآيتان (٦٥و٦٦).

(٢) الآيات (٥٩-٦٤).

وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠﴾[١].

فهذه المذكورات التي هي خلق السموات والأرض، وإنزال الماء من السماء، وإنبات الحدائق ذات البهجة، التي لا يقدر على إنبات شجرها إلا اللَّه، من خصائص ربوبية اللَّه، ولذا قال تعالى بعدها: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ يقدر على خلق السموات والأرض وإنزال الماء من السماء وإنبات الحدائق به، والجواب: لا؛ لأنه لا إله إلا اللَّه وحده.

ثم قال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١﴾[٢].

فهذه المذكورات أيضًا، التي هي جعل الأرض قرارًا، وجعل الأنهار خلالها، وجعل الجبال الرواسي فيها، وجعل الحاجز بين البحرين من خصائص ربوبيته -جل وعلا-، ولذا قال بعد ذكرها: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾؟ والجواب: لا.

فالاعتراف لله -جل وعلا- بأن خلق السماوات والأرض وإنزال الماء وإنبات النبات ونحو ذلك مما ذكر في الآيات من خصائص ربوبيته -جل وعلا- هو الحق، وهو من طاعة اللَّه ورسوله، ومن تعظيم اللَّه وتعظيم رسوله بالاقتداء به ﷺ في تعظيم اللَّه.

ثم قال تعالى -وهو محل الشاهد-: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾[٣].

فهذه المذكورات التي هي إجابة المضطر إذا دعا، وكشف السوء، وجعل الناس خلفاء في الأرض، من خصائص ربوبيته -جل وعلا-، ولذا قال بعدها: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

فتأمل قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ مع قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ تعلم أن إجابة المضطرين إذا التجؤوا ودعوا وكشف السوء عن المكروبين، لا فرق في كونه من خصائص الربوبية، بينه وبين خلق السموات والأرض، وإنزال

(١) الآية (٦٠). (٢) الآية (٦١).
(٣) الآية (٦٢).

الماء، وإنبات النبات، ونصب الجبال، وإجراء الأنهار؛ لأنه -جل وعلا- ذكر الجميع بنسق واحد في سياق واحد، وأتبع جميعه بقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

فمن صرف شيئًا من ذلك لغير اللَّه، توجه إليه الإنكار السماوي الذي هو في ضمن قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، فلا فرق ألبتة بين تلك المذكورات في كونها كلها من خصائص الربوبية.

ثم قال تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾[1].

فهذه المذكورات التي هي هدي الناس في ظلمات البر والبحر، وإرسال الرياح بشرًا، أي: مبشرات، بين يدي رحمته التي هي المطر، من خصائص ربوبيته -جل وعلا-.

ولذا قال تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، ثم نزه -جل وعلا- نفسه عن أن يكون معه إله يستحق شيئًا مما ذكر فقال -جل وعلا-: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾[2].

فهذه المذكورات التي هي بدء خلق الناس وإعادته يوم البعث، ورزقه للناس من السماء بإنزال المطر، ومن الأرض بإنبات النبات، من خصائص ربوبيته -جل وعلا-، ولذا قال بعدها: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

ثم عجَّز -جل وعلا- كل من يدعي شيئًا من ذلك كله لغير اللَّه، فقال آمرًا نبيه ﷺ بأن يخاطبهم بصيغة التعجيز: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وقد اتضح من هذه الآيات القرآنية أن إجابة المضطرين الداعين، وكشف السوء عن المكروبين، من خصائص الربوبية كخلق السماوات والأرض، وإنزال الماء، وإنبات النبات، والحجز بين البحرين، إلى آخر ما ذكر.

وكون إجابة المضطرين وكشف السوء عن المكروبين من خصائص الربوبية، كما أوضحه تعالى في هذه الآيات من سورة (النمل) جاء موضحًا في آيات أخر،

---

(١) الآية (٦٣).

(٢) الآية (٦٤).

كقوله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾[٣] الآية.

فعلينا معاشر المسلمين أن نتأمل هذه الآيات القرآنية، ونعتقد ما تضمنته، ونعمل به؛ لنكون بذلك مطيعين لله تعالى ولرسوله ﷺ، معظّمين لله ولرسوله؛ لأن أعظم أنواع تعظيم رسول اللَّه ﷺ هو اتباعه والاقتداء به في إخلاص العبادة لله -جل وعلا- وحده.

فإخلاص العبادة له -جل وعلا- وحده، هو الذي كان يفعله ﷺ ويأمر به، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ إلى قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾[٥].

والعلم أن الكفار في زمن النبي ﷺ كانوا يعلمون علمًا يقينًا أن ما ذكر من إجابة المضطر وكشف السوء عن المكروب، من خصائص الربوبية، وكانوا إذا دهمتهم الكروب، كإحاطة الأمواج بهم في البحر في وقت العواصف يخلصون الدعاء لله وحده؛ لعلمهم أن كشف ذلك من خصائصه، فإذا أنجاهم من الكرب رجعوا إلى الإشراك.

وقد بين اللَّه -جل وعلا- هذا في آيات من كتابه، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ

---

(١) يونس: الآية (١٠٧).
(٢) الأنعام: الآية (١٧).
(٣) فاطر: الآية (٢).
(٤) البينة: الآية (٥).
(٥) الزمر الآيات (١١-١٥).
(٦) يونس الآيتان (٢٢و٢٣).

لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾[1] الآية، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾[5].

وقد قدمنا في سورة (بني إسرائيل) في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أن سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه أنه لما فتح النبي ﷺ مكة ذهب فارًا منه إلى بلاد الحبشة، فركب في البحر متوجهًا إلى الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا اللَّه وحده، فقال عكرمة في نفسه: واللَّه إن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره. اللهم لك عليّ عهد لئن أخرجتني منه، لأذهبنّ فلأضعنّ يدي في يد محمد ﷺ، فلأجدنّه رؤوفًا رحيمًا، فخرجوا من البحر، فخرج إلى رسول اللَّه ﷺ، فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه. انتهى.

وقد قدمنا هناك أن بعض المتسمّين باسم الإسلام أسوأ حالًا من هؤلاء الكفار المذكورين؛ لأنهم في وقت الشدائد يلجؤون لغير اللَّه طالبين منه ما يطلب المؤمنون من اللَّه، وبما ذكر تعلم أن ما انتشر في أقطار الدنيا من الالتجاء في أوقات الكروب والشدائد إلى غير اللَّه -جل وعلا-، كما يفعلون ذلك قرب قبر النبي ﷺ، وعند قبور من يعتقدون فيهم الصلاح، زاعمين أن ذلك من دين اللَّه، ومحبة الرسول ﷺ وتعظيمه، ومحبة الصالحين، كله من أعظم الباطل، وهو انتهاك

---

(١) الأنعام الآيات (٦٣-٦٥).
(٢) الأنعام الآيتان (٤٠و٤١).
(٣) الإسراء الآيات (٦٧-٦٩).
(٤) العنكبوت: الآية (٦٥).
(٥) لقمان: الآية (٣٢).

لحرمات اللَّه وحرمات رسوله؛ لأن صرف الحقوق الخاصة بالخالق التي هي من خصائص ربوبيته إلى النبي ﷺ، أو غيره ممن يعتقد فيهم الصلاح مستوجب سخط اللَّه وسخط النبي ﷺ وسخط كل متبع له بالحق.

ومعلوم أنه -صلوات اللَّه وسلامه عليه- لم يأمر بذلك هو ولا أحد من أصحابه، وهو ممنوع في شريعة كل نبي من الأنبياء، واللَّه -جل وعلا- يقول: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾[١].

بل الذي كان يأمر به ﷺ هو ما يأمره اللَّه بالأمر به في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[٢].

واعلم أن كل عاقل إذا رأى رجلًا متديّنًا في زعمه، مدّعيًا حب النبي ﷺ وتعظيمه، وهو يعظم النبيَ ﷺ ويمدحه بأنه هو الذي خلق السموات والأرض، وأنزل الماء من السماء، وأنبت به الحدائق ذات البهجة، وأنه ﷺ هو الذي جعل الأرض قرارًا، وجعل خلالها أنهارًا، وجعل لها رواسي، وجعل بين البحرين حاجزًا، إلى آخر ما تضمنته الآيات المتقدمة، فإن ذلك العاقل لا يشك في أن ذلك المادح المعظم في زعمه من أعداء اللَّه ورسوله المتعدّين لحدود اللَّه. وقد علمت من الآيات المحكمات أنه لا فرق بين ذلك وبين إجابة المضطرين وكشف السوء عن المكروبين.

فعلينا معاشر المسلمين أن ننتبه من نومة الجهل، وأن نعظم ربنا بامتثال أمره واجتناب نهيه، وإخلاص العبادة له، وتعظيم نبينا ﷺ باتباعه، والاقتداء به في تعظيم اللَّه والإخلاص له، والاقتداء به في كل ما جاء به، وألا نخالفه ﷺ، ولا نعصيه، وألا نفعل شيئًا يشعر بعدم التعظيم والاحترام، كرفع الأصوات قرب قبره ﷺ. وقصدنا النصيحة والشفقة لإخواننا المسلمين ليعملوا بكتاب اللَّه،

---

(١) آل عمران الآيتان (٧٩و٨٠).

(٢) آل عمران: الآية (٦٤).

ويعظموا نبيه ﷺ تعظيم الموافق لما جاء به ﷺ، ويتركوا ما يسميه الجهلة محبة وتعظيمًا، وهو في الحقيقة احتقار وازدراء وانتهاك لحرمات اللَّه ورسوله ﷺ، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾[1].

واعلم أيضًا رحمك الله: أنه لا فرق بين ما ذكرنا من إجابة المضطر وكشف السوء عن المكروب، وبين تحصيل المطالب التي لا يقدر عليها إلا اللَّه، كالحصول على الأولاد والأموال وسائر أنواع الخير؛ فإن التجاء العبد إلى ربه في ذلك أيضًا من خصائص ربوبيته -جل وعلا-، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾[4] الآية، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات. وفي الحديث «**إذا سألت فاسأل الله**»[7].

وقد أثنى اللَّه -جل وعلا- على نبيه ﷺ وأصحابه بالتجائهم إليه وقت الكرب يوم بدر في قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[8] الآية، فنبينا ﷺ كان هو وأصحابه إذا أصابهم أمر أو كرب التجؤوا إلى اللَّه، وأخلصوا له الدعاء، فعلينا أن نتبع ولا نبتدع»[9].

قال ابن العربي: حرمة النبي ﷺ ميتًا كحرمته حيًا، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه؛ فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه، ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به، وقد نبه

---

(١) النساء الآيتان (١٢٣و١٢٤).
(٢) يونس: الآية (٣١).
(٣) العنكبوت: الآية (١٧).
(٤) الشورى: الآية (٤٩).
(٥) النحل: الآية (٧٢).
(٦) النساء: الآية (٣٢).
(٧) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٣) والترمذي (٤/ ٥٧٥-٥٧٦/ ٢٥١٦) وقال: «حديث حسن صحيح» والحاكم (٣/ ٥٤١).
(٨) الأنفال: الآية (٩).
(٩) أضواء البيان (٧/ ٦١٥-٦٢٦).

اللَّه تعالى على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾[١]. وكلام النبي ﷺ من الوحي وله من الحرمة مثل ما للقرآن إلا معاني مستثناة، بيانها في كتب الفقه، واللَّه أعلم»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان منقبة ثابت بن قيس وحسن أدبه مع النبي ﷺ وتوقيره له، وما للكلمة الطيبة من أثر طيب وما للكلمة الخبيثة من أثر سيئ

* عن أنس أنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ إلى آخر الآية. جلس ثابت بن قيس في بيته وقال: أنا من أهل النار، واحتبس عن النبي ﷺ فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ فقال: «**يا أبا عمرو! ما شأن ثابت؟ أشتكى؟» قال سعد: إنه لجاري، وما علمت له بشكوى، قال: فأتاه سعد فذكر له قول رسول اللَّه ﷺ**، فقال ثابت: أنزلت هذه الآية ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتًا على رسول اللَّه ﷺ، فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**بل هو من أهل الجنة**»[٣].

★ فوائد الحديث:

قال القاضي عياض: «كان ثابت خطيب الأنصار جهير الصوت وكان يرفع صوته، فلذلك اشتد حذره أكثر من غيره حتى سكن النبي ﷺ روعه وأمّن خوفه»[٤].

«وفي هذا الحديث منقبة عظيمة لثابت بن قيس رضي الله عنه، وهي أن النبي ﷺ أخبر أنه من أهل الجنة»[٥].

قال الآلوسي: « والظاهر أن ذلك منه -رضي اللَّه تعالى عنه- كان من غلبة الخوف عليه وإلا فلا حرمة قبل النهي، وهو أيضًا أجل من أن يكون ممن كان يقصد الاستهانة والإيذاء لرسول اللَّه ﷺ برفع الصوت وهم المنافقون الذين نزلت فيهم

---

(١) الأعراف: الآية (٢٠٤). (٢) أحكام القرآن (٤/ ١٤٦).
(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٣٧)، والبخاري (٦/ ٧٦٨-٧٦٩/ ٣٦١٣)، ومسلم (١/ ١١٠/ ١١٩).
(٤) الإكمال (١/ ٤٠٦-٤٠٧).
(٥) شرح مسلم (٢/ ١١٥).

الآية على ما روي عن الحسن وإنما كان الرفع منه طبيعة لما أنه كان في أذنه صمم وعادة كثير ممن به ذلك رفع الصوت، والظاهر أنه بعد نزولها ترك هذه العادة، فقد أخرج الطبراني والحاكم وصححه أن عاصم بن عدي بن العجلان أخبر النبي ﷺ بحاله فأرسله إليه فلما جاء قال: ما يبكيك يا ثابت؟ فقال: أنا صيت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت في فقال له -عليه الصلاة والسلام-: **أما ترضى أن تعيش حميدًا وتقتل شهيدًا وتدخل الجنة**؟ قال: رضيت ولا أرفع صوتي أبدًا على صوت رسول اللَّه ﷺ»[1].

* عن صفوان بن عسال رضي الله عنه أن رجلًا أتى رسول اللَّه ﷺ فقال: يا محمد! بصوت له جهوري، فقلنا: ويلك! اخفض من صوتك؛ فإنك قد نهيت عن هذا، قال: لا واللَّه حتى أسمعه، فقال له النبي ﷺ: بيده «**هاؤم**»، قال: أرأيت رجلًا أحب قوما لما يلحق بهم، قال: «**ذلك مع من أحب**»[2].

⋆ غريب الحديث:

جهوري: تقول رجلٌ جَهْوَرِيُّ الصوت، وجهير الصوت وهو ذو الصوت العالي.

هاؤم: أي: تعال.

⋆ فوائد الحديث:

قال ابن حبان: «قوله ﷺ: «هاؤم» أراد به رفع الصوت فوق صوت الأعرابي؛ لئلا يأثم الأعرابي برفع صوته على رسول اللَّه ﷺ»[3].

قلت: فالحديث إذن يدل على ما دلت عليه الآية من حرمة رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ ألا ترى إلى تدارك النبي ﷺ ما فعل الأعرابي برفعه صوته ﷺ فوق صوت الأعرابي حتى لا يدركه الإثم وهو لا يشعر.

---

(١) روح المعاني (٢٦/ ١٣٧).

(٢) أخرجه: الترمذي (٤/ ٥١٤/ ٢٣٨٧) و(٥/ ٥١٠-٥١١/ ٣٥٣٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وصححه ابن حبان (الإحسان ٢/ ٣٢٢/ ٥٦٢).

(٣) صحيح ابن حبان (الإحسان ٢/ ٣٢٢).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالًا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا يهوي بها في جهنم**»[١].

وعنه رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبيّن فيها، يزلّ بها في النار أبعد مما بين المشرق**»[٢].

★ غريب الحديث:

ما يتبين فيها: أي: لا يتطلب معناها، أي: لا يثبتها بفكره، ولا يتأملها حتى يتثبت فيها فلا يقولها إلا إن ظهرت المصلحة في القول[٣].

★ فوائد الحديثين:

قال أبو عمر: «لا أعلم خلافًا في قوله ﷺ في هذا الحديث: «**إن الرجل ليتكلّم بالكلمة**» أنها الكلمة عند السلطان الجائر الظالم ليرضيه بها فيما يسخط الله عز وجل، ويزيّن له باطلًا يريده، من إراقة دم، أو ظلم مسلم، ونحو ذلك، مما ينحط به في حبل هواه، فيبعد من الله، وينال سخطه، وكذلك الكلمة التي يرضي بها الله عز وجل، عند السلطان ليصرفه عن هواه، ويكفّه عن معصية يريدها، يبلغ بها أيضًا من الله رضوانًا لا يحسبه، والله أعلم»[٤].

وقال ابن بطال: «قال أهل العلم: هي الكلمة عند السلطان بالبغي والسعي على المسلم، فربما كانت سببًا لهلاكه، وإن لم يرد ذلك الباغي، لكنها آلت إلى هلاكه، فكتب عليه إثم ذلك. والكلمة التي يكتب الله له بها رضوانه: الكلمة يريد بها وجه الله بين أهل الباطل، أو الكلمة يدفع بها مظلمة عن أخيه المسلم، ويفرج عنه بها كربةً من كرب الدنيا، فإن الله تعالى يفرج عنه كربةً من كرب الآخرة، ويرفعه بها درجات يوم القيامة»[٥].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٤)، والبخاري (١١/ ٣٧٣/ ٦٤٧٨)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٠/ ٨٨٩٢)، والترمذي (٤/ ٤٨٢-٤٨٣/ ٢٣١٤) وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه»، وابن ماجه (٢/ ١٣١٣/ ٣٩٧٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٨-٣٧٩)، والبخاري (١١/ ٣٧٣/ ٦٤٧٧)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٠/ ٢٩٨٨[٥٠]).

(٣) فتح الباري (١١/ ٣٧٦).

(٤) التمهيد (فتح البر ٥/ ٢٨٧-٢٨٨).

(٥) شرح صحيح البخاري (١٠/ ١٨٦-١٨٧).

وقال الحافظ: «وقال غيره في الأولى: هي الكلمة عند ذي السلطان يرضيه بها فيما يسخط اللَّه، قال ابن التين: هذا هو الغالب، وربما كانت عند غير ذي السلطان ممن يتأتى منه ذلك. ونقل عن ابن وهب أن المراد بها التلفظ بالسوء والفحش ما لم يرد بذلك الجحد لأمر اللَّه في الدين. وقال القاضي عياض: يحتمل أن تكون الكلمة من الخنى والرفث، وأن تكون في التعريض بالمسلم بكبيرة أو بمجون، أو استخفاف بحق النبوة والشريعة، وإن لم يعتقد ذلك. وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: هي الكلمة التي لا يعرف القائل حسنها من قبحها، قال: فيحرم على الإنسان أن يتكلم بما لا يعرف حسنه من قبحه. قلت: وهذا الذي يجري على قاعدة مقدمة الواجب»[1].

قال القرطبي: «قوله: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبيّن ما فيها**» أي: من الإثم والعقاب، وذلك لجهله لذلك، أو لترك التثبّت، أو للتساهل. وفي غير كتاب مسلم: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط اللَّه، ما يلقي لها بالًا، يهوي بها في النار سبعين خريفًا**». وفيه من الفقه: وجوب التثبّت عند الأقوال والأفعال، وتحريم التساهل في شيء من الصغائر، وملازمة الخوف، والحذر عند كل قول وفعل، والبحث عمّا مضى من الأقوال والأفعال، واستحضار ما مضى من ذلك وتذكّره من أول زمان تكليفه؛ لإمكان أن يكون صدر من المكلَّف شيء لم يتثبَّته يستحقّ به هذا الوعيد الشديد، فإذا تذكّر واستعان باللَّه، فإن ذكر شيئًا من ذلك تاب منه، واستغفر، وإن لم يتذكّر وجب عليه أن يتوب جملة بجملة عما علم وعما لم يعلم، كما قال النبي ﷺ: «**أستغفرك عما تعلم ولا أعلم**»[2]. فمن فعل ذلك وصدقت نيّته، قُبلت بفضل اللَّه تعالى توبته.

وقوله: «**من سخط الله**» أي: مما يسخط اللَّه، وذلك بأن يكون كذبة، أو غيبة، أو نميمة، أو بهتانًا، أو بخسًا، أو باطلًا يضحك به الناس، كما قد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**ويل للذي يتكلّم بالكلمة من الكذب ليضحك الناس، ويل له، ويل**

---

(١) فتح الباري (١١/ ٣٧٦-٣٧٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٣و١٢٥)، والترمذي (٥/ ٤٤٣-٤٤٤/ ٣٤٠٧) كلهم من حديث شداد بن أوس، وانظر السلسلة الصحيحة (٣٢٢٨).

له»[١][٢].

وقال النووي: «وهذا كله حث على حفظ اللسان، كما قال ﷺ: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»**، وينبغي لمن أراد النطق بكلمة أو كلام أن يتدبره في نفسه قبل نطقه، فإن ظهرت مصلحته تكلم، وإلا أمسك»[٣].

وسيأتي الكلام على هذا الحديث مستوفى عند قوله تعالى من سورة (ق): ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ . . .﴾ الآية (١٨)، إن شاء اللّه تعالى. والمقصود هنا توافق الآية والحديث في الحث على تجنب مظان حبوط العمل والإثم.

* * *

(١) أخرجه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده: أحمد (٥/ ٣)، وأبو داود (٥/ ١٦٦/ ٤٩٩٠)، والترمذي (٤/ ٥٥٧/ ٢٣١٥) وقال: «هذا حديث حسن»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٢٩/ ١١١٢٦)، والحاكم (١/ ٤٦).

(٢) المفهم (٦/ ٦١٦-٦١٧).

(٣) شرح صحيح مسلم (١٨/ ٩١-٩٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾

★ **غريب الآية:**

يغضّون: يخفضون. يقال: غضّ صوته: إذا خفضه وخافَتَ به. وكل شيء كففته فقد غضضته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الآلوسي: «ترغيب في الانتهاء عما نهوا عنه بعد الترهيب عن الإخلال به أي يحفظونها مراعاة للأدب أو خشية من مخالفة النهي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد المشار إليه لما مر مرارًا من تفخيم شأنه»[١].

وقال ابن كثير: «ندب اللَّه ﷻ إلى خفض الصوت عنده، وحثّ على ذلك، وأرشد إليه، ورغّب فيه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾، أي: أخلصها لها، وجعلها أهلًا ومحلاً، ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾»[٢].

وقال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: إن الذين يكفّون رفع أصواتهم عند رسول اللَّه، وأصل الغضّ: الكفّ في لين.. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ يقول تعالى ذكره: هؤلاء.. هم الذين اختبر اللَّه قلوبهم بامتحانه إياها، فاصطفاها وأخلصها للتقوى، يعني: لاتقائه بأدائه طاعته، واجتناب معاصيه، كما يمتحن الذهب بالنار، فيخلص جيدها، ويبطل خبثها..

وقوله: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ يقول: لهم من اللَّه عفو عن ذنوبهم السالفة، وصفح منه

(١) روح المعاني (٢٦/ ١٣٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٤٨).

عنها لهم، ﴿وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ يقول: وثواب جزيل، وهو الجنة»[١].

وقال ابن عاشور: «وإذ قد علمت آنفًا أن محصل معنى قوله: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ﴾ الأمر بخفض الصوت عند النبي ﷺ، يتضح لك وجه العدول عن نوط الثناء هنا بعدم رفع الصوت وعدم الجهر عند الرسول ﷺإلى نوطه بغض الصوت عنده»[٢].

وقال السعدي: «مدح من غضّ صوته عند رسول اللَّه ﷺ، بأن اللَّه امتحن قلوبهم للتقوى، أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك، بأن صلحت قلوبهم للتقوى، ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم المتضمنة لزوال الشر والمكروه، والأجر العظيم الذي لا يعلم وصفه إلا اللَّه تعالى، وفي الأجر العظيم وجود المحبوب، وفي هذا دليل على أن اللَّه يمتحن القلوب بالأمر والنهي والمحن، فمن لازم أمر اللَّه، واتبع رضاه، وسارع إلى ذلك، وقدمه على هواه، تمحض وتمحص للتقوى، وصار قلبه صالحًا لها ومن لم يكن كذلك، علم أنه لا يصلح للتقوى»[٣].

قال أبو حيان: «وكل هذا دليل على أن الارتضاء بما فعلوا من توقير النبي ﷺ، بغض أصواتهم، وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب رافعو أصواتهم واستيجابهم ضد ما استوجبه هؤلاء»[٤].

* * *

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٢٨).

(٤) البحر المحيط (٨/ ١٠٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إن الذين ينادونك -يا محمد- من وراء الحجرات.. ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يقول: أكثرهم جهال بدين الله، واللازم لهم من حقك وتعظيمك.

وذُكر أن هذه الآية والتي بعدها نزلت في قوم من الأعراب جاؤوا ينادون رسول الله ﷺ من وراء حجراته: يا محمد! اخرج إلينا»[1].

وقال أيضا: «وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ يقول تعالى ذكره: ولو أن هؤلاء الذين ينادونك -يا محمد- من وراء الحجرات صبروا، فلم ينادوك حتى تخرج إليهم إذا خرجت، لكان خيرًا لهم عند الله؛ لأن الله قد أمرهم بتوقيرك وتعظيمك، فهم بتركهم نداءك تاركون ما قد نهاهم الله عنه، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقول تعالى ذكره: الله ذو عفو عمن ناداك من وراء الحجاب، إن هو تاب من معصية الله بندائك كذلك، وراجع أمر الله في ذلك وفي غيره، رحيم به أن يعاقبه على ذنبه ذلك من بعد توبته منه»[2].

وقال ابن كثير: «ثم إنه تعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات، وهي بيوت نسائه، كما يصنع أجلاف الأعراب، فقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

ثم أرشد إلى الأدب في ذلك فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، أي: لكان لهم في ذلك الخِيَرة والمصلحة في الدنيا والآخرة.

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٢١).

(٢) جامع البيان (٢٦/ ١٢٢-١٢٣).

ثم قال داعيًا لهم إلى التوبة والإنابة: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾»[١].

وقال السعدي: «نزلت هذه الآيات الكريمة في أناس من الأعراب، الذين وصفهم اللَّه تعالى بالجفاء، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل اللَّه على رسوله، قدموا وافدين على رسول اللَّه ﷺ، فوجدوه في بيته وحجرات نسائه، فلم يصبروا ويتأدبوا حتى يخرج، بل نادوه: يا محمد! يا محمد! أي: اخرج إلينا، فذمهم اللَّه بعدم العقل، حيث لم يعقلوا عن اللَّه الأدب مع رسوله واحترامه، كما أن من العقل وعلامته استعمال الأدب.

فأدب العبد، عنوان عقله، وأن اللَّه مريد به الخير، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ أي: غفور لما صدر عن عباده من الذنوب، والإخلال بالآداب، رحيم بهم، حيث لم يعاجلهم بذنوبهم بالعقوبات والمثلات»[٢].

وقال الزمخشري: «والمراد حجرات نساء رسول اللَّه ﷺ، وكانت لكل واحدة منهن حجرة، ومناداتهم من ورائها يحتمل أنهم قد تفرقوا على الحجرات متطلبين له، فناداه بعض من وراء هذه وبعض من وراء تلك، وأنهم قد أتوها حجرة حجرة فنادوه من ورائها، وأنهم نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها، ولكنها جمعت إجلالًا لرسول اللَّه ﷺ ولمكان حرمته، والفعل وإن كان مسندًا إلى جميعهم فإنه يجوز أن يتولاه بعضهم، وكان الباقون راضين فكأنهم تولوه جميعًا..

فورود الآية على النمط الذي وردت عليه فيه ما لا يخفى على الناظر من بينات إكبار محل رسول اللَّه ﷺ وإجلاله.

منها: مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به بالسفه والجهل لما أقدموا عليه.

ومنها: لفظ الحجرات وإيقاعها كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه.

ومنها: المرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم.

ومنها: التعريف باللام دون الإضافة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٤٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٢٩).

ومنها : أن شفع ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات؛ تهوينًا للخطب على رسول اللّٰه ﷺ، وتسلية له، وإماطة لما تداخله من إيحاش تعجرفهم وسوء أدبهم، وهلم جرًّا من أوّل السورة إلى آخر هذه الآية. فتأمّل كيف ابتدئ بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى اللّٰه ورسوله متقدّمة على الأمور كلها من غير حصر ولا تقييد، ثم أردف ذلك النهي عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر، كأن الأوّل بساط للثاني ووطاء لذكره، ثم ذكر ما هو ثناء على الذين تحاموا ذلك فغضوا أصواتهم دلالة على عظيم موقعه عند اللّٰه، ثم جيء على عقب ذلك بما هو أطمّ وهجنته أتمّ من الصياح برسول اللّٰه ﷺ في حال خلوته ببعض حرماته من وراء الجدر، كما يصاح بأهون الناس قدرًا، لينبه على فظاعة ما أجروا إليه وجسروا عليه؛ لأن من رفع اللّٰه قدره على أن يجهر له بالقول حتى خاطبه جلة المهاجرين والأنصار بأخي السرار، كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ من التفاحش مبلغًا؛ ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب وتقتبس محاسن الآداب، كما يحكى عن أبي عبيدة ومكانه من العلم والزهد وثقة الرواية ما لا يخفى أنه قال: ما دققت بابًا على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه»[١].

وقال ابن تيمية: «وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ الآية فإنه مدحهم على غض الصوت عند رسوله مطلقا، فهم مأمورون بذلك في مثل ذلك ينهون عن رفع الصوت عنده ﷺ، وأما غض الصوت مطلقا عند رسول اللّٰه ﷺ فهو غض خاص ممدوح، ويمكن العبد أن يغض صوته مطلقا في كل حال ولم يؤمر العبد به؛ بل يؤمر برفع الصوت في مواضع: إما أمر إيجاب أو استحباب فلهذا قال: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾[٢] فإن الغض في الصوت والبصر جماع ما يدخل إلى القلب ويخرج منه، فبالسمع يدخل القلب وبالصوت يخرج منه كما جمع العضوين في قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾[٣] فبالعين والنظر يعرف القلب الأمور، واللسان والصوت يخرجان من عند القلب الأمور، هذا رائد القلب وصاحب خبره وجاسوسه وهذا ترجمانه»[٤].

(١) الكشاف (٣/ ٥٥٨-٥٥٩).
(٢) لقمان: الآية (١٩).
(٣) البلد: الآيتان (٨و٩).
(٤) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٧٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وصف حجرات النبي ﷺ، والتزام الأدب عنده ﷺ وعند كل معظم من أب وأمير وشيخ وكبير

* عن الحسن رضي الله عنه قال: «كنت أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه فأتناول سقفها بيدي»(١).

* عن داود بن قيس قال: «رأيت الحجرات من جريد النخل مغشيات من خارج بمسوح الشعر، وأظن عرض البيت من باب الحجرة إلى باب البيت نحوًا من ست أو سبع أذرع، وأحزر البيت الداخل عشر أذرع، وأظن سمكه بين الثمان والسبع نحو ذلك، ووقفت عند باب عائشة فإذا هو مستقبل المغرب»(٢).

★ **غريب الحديثين:**

الحجرات: قال القرطبي: «الحجرات جمع حجرة، كالغرفات جمع غرفة، والظلمات جمع ظلمة، وقيل: الحجرات جمع الحجر، والحُجر جمع حجرة، فهو جمع الجمع وفيه لغتان ضم الجيم وفتحها، قال:

ولما رأونا باديا ركباتنا ... على موطن لا نخلط الجد بالهزل

والحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها»(٣).

بمسوح الشعر: المسح: الكساء من الشعر، والجمع القليل: أمساح؛ قال أبو ذؤيب:

ثم شربن بنبط والجمال كأن ... الرشح منهن بالآباط أمساح

والكثير: مسوح.

أحزر البيت الداخل: الحزر: حزرك عدد الشيء بالحدس، أي: الظن والتقدير، تقول: أنا أحزر هذا الطعام كذا وكذا قفيزًا.

---

(١) أخرجه: البخاري في الأدب المفرد (ح ٤٥٠)، والبيهقي في الشعب (٧/ ٣٩٧/ ١٠٧٣٤)، وصحح إسناده الشيخ ناصر في «صحيح الأدب المفرد».

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (رقم ٤٥١)، وصحح إسناده الألباني.

(٣) الجامع (١٦/ ٢٠٤).

سَمْكه: سَمْك البيت: سقفه، والسمك: السقف، وقيل: هو من أعلى البيت إلى أسفله، والسَّمك: القامة من كل شيء، بعيد طويل السَّمك. والسَّمك يجيء في مواضع بمعنى السقف.

★ **فوائد الحديثين:**

قال ابن عاشور: «كانت الحجرات تسعًا وهي من جريد النخل، أي: الحواجز التي بين كل واحدة والأخرى، وعلى أبوابها مُسوح من شعر أسود وعَرض البيت من باب الحجرة إلى باب البيت نحو سبعة أذرع، ومساحة البيت الداخل، أي: الذي في داخل الحجرة عشرة أذرع، أي: فتصير مساحة الحجرة مع البيت سبعة عشر ذراعًا. قال الحسن البصري: كنت أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان بن عفان فأتناول سقفها بيدي.

وإنما ذكر الحجرات دون البيوت [يعني في الآية] لأن البيت كان بيتًا واحدًا مقسمًا إلى حجرات تسع»(١).

* عن البراء بن عازب في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ قال: جاء رجل، فقال: يا محمد! إن حمدي زين، وإن ذمي شين، فقال النبي ﷺ: «**ذاك الله**»(٢).

★ **غريب الحديث:**

زَين: الزين: كل ما يزين.

شَين: الشين: العيب.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٢٦-٢٢٧).

(٢) أخرجه: الترمذي (٥/ ٣٦١-٣٦٢/ ٣٢٦٧) وقال: «حسن غريب»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٦٦/ ١١٥١٥)، وللحديث شاهد من حديث الأقرع بن حابس أخرجه: أحمد (٣/ ٤٨٨)، والطبراني (١/ ٣٠٠/ ٨٧٨)، وابن جرير (٢٦/ ١٢٢) من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن، وصحح سنده السيوطي في «الدر المنثور». وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١٠٨) وقال: رواه أحمد والطبراني، وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح إن كان أبو سلمة سمع من الأقرع، وإلا فهو مرسل كإسناد أحمد الآخر. قلت: وقد صرح أبو سلمة بالتحديث عن الأقرع في رواية ابن جرير السالفة الذكر، فارتفع بذلك الإشكال والحمد لله.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن العربي: «رفع الصوت من غير حاجة تكلف لِما ربما رفع الهيبة وأسقط الحرمة، وخصوصًا عند النبي ﷺ، وحرمة العالم على صاحبه من باب حرمة النبي عليه السلام على أصحابه؛ لأنه خليفته وهم خلفاؤهم. وحرمة النبي ﷺ ميتًا كحرمته حيًّا، فكذلك يجب أن يكون الحال عند قراءة كلامه كما كانت عند سماعه منه. وقد أخبر سبحانه أن غض الصوت عند النبي ﷺ أو عند سماع كلام اللَّه منه أو كلامه يصدر عن تقوى القلوب للاسترسال على العادات المكروهة»[1].

* * *

(١) عارضة الأحوذي (١٢/ ١٥٢-١٥٣) بتصرف.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾

★ **غريب الآية:**

فاسق: الفاسق: الخارج عن حدود الشرع. والفسق: الخروج. يقال: فَسَقَتِ الرطبةُ: إذا خرجت من قِشْرِهَا.

نبأ: النبأ: الخبر الهام ذو الفائدة العظيمة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «هذا أيضًا من الآداب التي على أولي الألباب التأدب بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بخبر أن يتثبتوا في خبره، ولا يأخذوه مجردًا؛ فإن في ذلك خطرًا كبيرًا، ووقوعًا في الإثم؛ فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل، حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال بغير حق بسبب ذلك الخبر ما يكون سببًا للندامة، بل الواجب عند خبر الفاسق التثبت والتبين، فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه، عمل به وصدق، وإن دلت على كذبه، كذب، ولم يعمل به. ففيه دليل على أن خبر الصادق مقبول، وخبر الكاذب مردود، وخبر الفاسق متوقف فيه كما ذكرنا، ولهذا كان السلف يقبلون روايات كثير من الخوارج المعروفين بالصدق، ولو كانوا فسّاقًا»[1].

وقال ابن كثير: «يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له، لئلا يحكم بقوله فيكون في نفس الأمر كاذبًا أو مخطئًا، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى اللَّه عن اتباع سبيل المفسدين، ومن ههنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال؛ لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون؛ لأنّا أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس محقق الفسق؛ لأنه مجهول الحال»[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٣٠).

(٢) التفسير (٧/ ٣٥٠).

وقال القرطبي: «في هذه الآية دليل على قبول خبر الواحد إذا كان عدلا؛ لأنه إنما أمر فيها بالتثبت عند نقل خبر الفاسق، ومن ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار إجماعًا؛ لأن الخبر أمانة والفسق قرينة يبطلها. وقد استثنى الإجماع من جملة ذلك ما يتعلق بالدعوى والجحود وإثبات حق مقصود على الغير»(١).

وقال الشنقيطي: «صرح تعالى في موضع آخر بالنهي عن قبول شهادة الفاسق، وذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤﴾(٢)، ولا خلاف بين العلماء في رد شهادة الفاسق وعدم قبول خبره.

وقد دلت هذه الآية من سورة (الحجرات) على أمرين: الأول منهما: أن الفاسق إن جاء بنبأ ممكن معرفة حقيقته، وهل ما قاله فيه الفاسق حق أو كذب، فإنه يجب فيه التثبت. والثاني هو ما استدل عليه بها أهل الأصول من قبول خبر العدل؛ لأن قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ يدل بدليل خطابه، أعني مفهوم مخالفته، أن الجائي بنبأ إن كان غير فاسق بل عدلًا لا يلزم التبيّن في نبئه على قراءة: ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾، ولا التثبت على قراءة: (فتثبتوا)، وهو كذلك»(٣).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ يقول تعالى ذكره: فتبيّنوا لئلاّ تصيبوا قومًا برآء مما قُذفوا بجناية بجهالة منكم، ﴿فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ يقول: فتندموا على إصابتكم إياهم بالجناية التي تصيبونهم بها»(٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في سبب نزول الآية والرد على من أنكر خبر الواحد

* عن الحارث بن ضرار الخزاعي قال: قدمت على رسول اللّه ﷺ فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، فدعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله! أرجع إلى قومي، فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٢٠٥).
(٢) النور: الآية (٤).
(٣) أضواء البيان (٧/ ٦٢٦-٦٢٧).
(٤) جامع البيان (٢٦/ ١٢٥).

لي جمعت زكاته، فيرسل إلي رسول اللَّه ﷺ رسولًا لإبان كذا وكذا ليأتيك ما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبان الذي أراد رسول اللَّه ﷺ أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول فلم يأته، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من اللَّه ﷻ ورسوله، فدعا بسروات قومه فقال لهم: إن رسول اللَّه ﷺ كان وقّت لي وقتًا يرسل إلي رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول اللَّه ﷺ الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة كانت، فانطلقوا فنأتي رسول اللَّه ﷺ، وبعث رسول اللَّه ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرِق فرجع، فأتى رسول اللَّه ﷺ، وقال: يا رسول الله! إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي، فضرب رسول اللَّه ﷺ البعث إلى الحارث، فأقبل الحارث بأصحابه إذ استقبل البعث وفصل من المدينة لقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك، قال: ولم؟ قالوا: إن رسول اللَّه ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله. قال: لا، والذي بعث محمدًا بالحق ما رأيته بتة ولا أتاني، فلما دخل الحارث على رسول اللَّه ﷺ قال: منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟ قال: لا، والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول رسول اللَّه ﷺ، خشيت أن تكون كانت سخطة من اللَّه ﷻ ورسوله، قال: فنزلت (الحجرات): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ إلى هذا المكان: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾[1]»[2].

★ **غريب الحديث:**

لإبان كذا وكذا: إبّان، بكسر الهمزة وتشديد الموحدة، أي: وقت كذا وكذا،

---

(١) الحجرات الآيات (٦-٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٧٩)، والطبراني (٣/ ٣١٠-٣١١/ ٣٣٩٥)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١٠٩) وقال: «رواه أحمد والطبراني.. ورجال أحمد ثقات». وسيأتي معنا مزيد بحث في تخريج الحديث وبيان ضعفه.

كيوم كذا وكذا في شهر كذا وكذا.

سخطة: أي: غضب.

سروات قومه: أي: رؤساؤهم.

فَرِق: أي: خاف، كأنه بينه وبينهم شيء.

فضرب رسول اللَّه ﷺ البعث: أي: أسرع بتجهيز البعث.

بتة: أي: قطعًا.

★ فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين بعثه رسول اللَّه ﷺ على صدقات المصطلق»[(١)].

قال شيخ الإسلام: «قال المفسرون: نزلت هذه الآية في الوليد بن عقبة؛ بعثه رسول اللَّه ﷺ إلى بني المصطلق ليقبض صدقاتهم، وقد كانت بينه وبينهم عداوة في الجاهلية، فسار بعض الطريق ثم رجع إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: إنهم منعوا الصدقة وأرادوا قتلي، فضرب رسول اللَّه ﷺ البعث إليهم، فنزلت هذه الآية. وهذه القصة معروفة من وجوه كثيرة»[(٢)].

قال ابن عبد البر: «ولا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن أن قوله ﷻ: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ نزلت في الوليد بن عقبة؛ وذلك أنه بعثه رسول اللَّه ﷺ إلى بني المصطلق مصدقًا، فأخبر عنهم أنهم ارتدوا وأبوا من أداء الصدقة، وذلك أنهم خرجوا إليه فهابهم ولم يعرف ما عندهم، فانصرف عنهم، وأخبر بما ذكرنا»[(٣)].

قلت: وهذا الذي يكاد يطبق عليه أهل التفسير من أن الآية نزلت في الوليد بن عقبة لا يستراح إليه علميا لمسائل:

الأولى: مايترتب على ذلك من تفسيق الصحابي والصحابة كلهم عدول بتعديل اللَّه تعالى ورسوله ﷺ لهم سيما وقد أَمَّرَه خليفتا رسول اللَّه ﷺ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والتأمير فرع عن التعديل، أما قضية جلده على الخمر فقال ابن العربي: وأما حده

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٥٠). (٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٤٨).
(٣) الاستيعاب (٤/ ١٥٥٣).

في الخمر فقد حد عمر قدامة بن مظعون على الخمر وهو أمير وعزله، وقيل إنه صَالحَه. وليست الذنوب مسقطة للعدالة إذا وقعت منها التوبة[1].

وقد طعن محب الدين الخطيب في ثبوت شربه الخمر وعده من المكايد التي كيدت له من مبغضيه فشهدوا عليه عند عثمان بن عفان بذلك فأقام عليه الحد (وراجع تفصيل ذلك في التعليق على العواصم هامش ١٢٠ ص١٠٦).

الثانية: عدم ثبوت الخبر الذي اعتمدوه سببا لنزول الآية وإليك بيان ذلك:

١- حديث الحارث بن ضرار الخزاعي:

ضعيف: أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٩)، والطبراني (٣٣٩٥)، وابن أبي حاتم - ذكره ابن كثير عند هذه الآية-وكذا البخاري في التاريخ الأوسط(١/ ٩١)، وابن قانع في معجم الصحابة (١/ ١٧٧) ولم يسوقا لفظه، وابن منده وابن مردويه -كما في الدر المنثور- من طريق محمد بن سابق ثنا عيسى بن دينار ثنا أبي أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعي فذكره. وجود إسناده السيوطي. ودينار والد عيسى مجهول. وقال علي بن المديني: عيسى بن دينار عن أبيه عن عمرو بن الحارث عمرو معروف، ولا نعرف أباه. وقد ذكره ابن حبان في الثقات على عادته في توثيق من جهله، وقال في التقريب: مقبول

٢- حديث ابن عباس:

ضعيف جدًّا: أخرج الطبري في التفسير (٢٦/ ١٢٣-١٢٤) والبيهقي (٢/ ٥٤-٥٥) من طريق محمد بن سعد العوفي حدثني أبي سعد بن محمد بن الحسن بن عطية، حدثني عمي الحسين بن الحسن بن عطية، حدثني أبي عن جدي عطية بن سعد، عن ابن عباس به.

وهذا إسناد واه مسلسل بالضعفاء من أسرة واحدة: فعطية ضعيف وكان يتشيع، ويدلس. قال أحمد: بلغني أن عطية كان يأتي الكلبي فيأخذ عنه التفسير، وكان يكنى بأبي سعيد، فيقول: قال أبو سعيد. قال الذهبي في الميزان (٣/ ٧٩-٨٠): يعني يوهم أنه الخدري.

---

(١) العواصم من القواصم (ص١٠٦).

وقال ابن حبان في المجروحين (٢/ ١٧٦): «سمع من أبي سعيد الخدري أحاديث فلما مات أبو سعيد جعل يجالس الكلبي ويحضر قصصه فإذا قال الكلبي: قال رسول الله فيحفظه، وكناه أبا سعيد ويروي عنه فإذا قيل له من حدثك بهذا؟ فيقول حدثني أبو سعيد فيتوهمون أنه يريد أبا سعيد الخدري وإنما أراد به الكلبي، فلا يحل الاحتجاج به ولا كتابة حديثه إلا على جهة التعجب».

وأما الحسن بن عطية فقال فيه البخاري: ليس بذاك. وقال أبو حاتم: ليس بشيء في الحديث. وقال ابن حبان في المجروحين (١/ ٢٣٤): «منكر الحديث فلا أدري البلية في أحاديثه منه أو من أبيه أو منهما معا لأن أباه ليس بشيء في الحديث وأكثر روايته عن أبيه، فمن هنا اشتبه أمره ووجب تركه».

وأما الحسين: فضعفه يحيى بن معين وغيره. وقال عباس: عن ابن معين قال: العوفي في حديثه: خرز من خرز يهود جوز من جوز يهود. (الميزان (١/ ٥٣٢-٥٣٣» وقال ابن حبان في المجروحين (١/ ٢٤٦): «منكر الحديث، يروي عن الأعمش وغيره أشياء لا يتابع عليها كأنه كان يقلبها، وربما رفع المراسيل وأسند الموقوفات، ولا يجوز الاحتجاج بخبره».

وأما محمد بن الحسن بن سعد العوفي: فقال ابن حبان في المجروحين(٢/ ٢٨٤): منكر الحديث يروي أشياء لا يتابع عليها، لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد».

وأما سعد بن محمد بن الحسن بن عطية: قال الذهبي في الميزان (١/ ٤٢٦): «قال أحمد فيه: جهمي، قال: ولم يكن هذا أيضًا ممن يستأهل أن يكتب عنه ولا كان موضعًا لذاك». وهذا ما استفاد منه الشيخ أحمد شاكر أنه ضعيف جدا انظر تفسير الطبري (١/ ٢٦٣) بتحقيقه.

٣- حديث أم سلمة:

أخرجه الطبري (٢٦/ ١٢٣-١٢٤) والطبراني (٢٣/ ٤٠١/ ٩٦٠) من طريق موسى بن عبيدة عن ثابت مولى أم سلمة عن أم سلمة به.

وثابت: مجهول. وموسى بن عبيدة: قال الذهبي: «قال أحمد: لا يكتب حديثه. وقال النسائي وغيره: ضعيف وقال ابن عدي: الضعف على رواياته بين. وقال ابن معين: ليس بشيء. وقال مرة: لا يحتج بحديثه. وقال يحيى بن سعيد: كنا

نتقي حديثه وقال ابن سعد: ثقة وليس بحجة. وقال يعقوب بن شيبة: «صدوق ضعيف الحديث جدًّا». ميزان الاعتدال (٤/ ٢١٣) وقال الذهبي في ترجمة عمر بن الحكم بن ثوبان: «ساق له العقيلي حديثا العهدة فيه على موسى بن عبيدة، فإن موسى واه». الميزان (٣/ ١٩١).

٤- حديث جابر بن عبد الله:

ضعيف جدًّا: رواه الطبراني في الأوسط (٤/ ٤٧٧-٤٧٨/ ٣٨٠٩)، وفي إسناده عبد اللَّه بن عبد القدوس: قال يحيى: رافضي خبيث. وقال النسائي وغيره ليس بثقة وقال الدارقطني: «ضعيف» وقال أبو معمر: كان خشبيا. الميزان (٢/ ٤٥٧).

وقال أبو جعفر الجمال: «لم يكن عبد اللَّه بن عبد القدوس بشيء، كان يسخر منه يشبه المجنون يصيح الصبيان في أثره». الجرح والتعديل (٥/ ١٠٤).

٥- حديث علقمة بن ناجية الخزاعي:

أخرجه الطبراني في الكبير (١٨/ ٦-٧/ ٤و٥) من طريق يعقوب بن حميد ثنا عيسى بن الحضرمي بن كلثوم بن علقمة بن ناجية بن الحارث الخزاعي عن جده كلثوم عن أبيه علقمة قال بعث إلينا رسول اللَّه ﷺ الوليد بن عقبة بن أبي معيط يصدق أموالنا فسار حتى إذا كان قريبا منا، وذلك بعد وقعة المريسيع رجع فركبنا في أثره.. الحديث.

ويعقوب بن حميد هو ابن كاسب المدني. روى عنه البخاري في خلق أفعال العباد، وابن ماجه، وعبد اللَّه بن أحمد بن حنبل، وعدة. قال البخاري: لم نر إلا خيرا، هو في الأصل صدوق ووثقه ابن معين، وقال يحيى أيضا والنسائي: ليس بشيء. وقال أبو حاتم: ضعيف. قال الذهبي: كان من علماء الحديث، لكنه له مناكير وغرائب.

وقال ابن عدي: يعقوب لا بأس به وبروايته، هو كثير الحديث، كثير الغرائب، كتبت مسنده عن القاسم بن مهدي صنفه على الأبواب، وفيه من الغرائب والنسخ والأحاديث العزيزة وشيوخ أهل المدينة ممن لا يروي عنهم غيره.

وقال زكريا بن يحيى الحلواني: رأيت أبا داود السجستاني قد جعل حديث

يعقوب بن كاسب وقايات على ظهور كتبه، فسألته عنه، فقال: رأينا في مسنده أحاديث أنكرناها فطالبناه بالأصول فدافعناه، ثم أخرجها بعد فوجدنا الأحاديث في الأصول مغيرة بخط طري، كانت مراسيل فأسندها وزاد فيها. انظر الميزان (٤/ ٤٥٠).

قلت: وهذه تهمة عظيمة، فلعل هذا هو الحامل له على عدم الإخراج له.

وقد تابعه يعقوب بن محمد الزهري: أخرجه الطبراني مختصرا عقبه.

ويعقوب بن محمد قال ابن معين: ما حدث عن الثقات فاكتبوه وما لم يعرف من شيوخه فدعوه:

وقال أبو زرعة: ليس بشيء يقارب الواقدي.

وقال حجاج بن الشاعر: غير ثقة.

وقال أبو حاتم: هو على يدي عدل.

وقال أحمد: ليس بشيء. وقال مرة: لا يساوي حديثه شيئًا.

وقال الساجي: منكر الحديث. انظر الميزان (٤/ ٤٥٤) والجرح والتعديل (٩/ ٢١٥).

قلت: فهذه هي روايات الحديث وهي كما ترى لا تصلح لصالحة أفنجعلها عمدة في تفسير الآية، وهل تسقط عدالة الصحابة بمثل هذه النقول الواهية، بل لو صحت لوجب التماس المخارج لها، فكيف وهي واهية.

قال ابن العربي في كتابه «العواصم من القواصم»[1]: وأما الوليد فقد روى بعض المفسرين أن اللَّه سماه فاسقا في قوله: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ فإنها -في قولهم- نزلت فيه، أرسله النبي ﷺ إلى بني المصطلق، فأخبر عنهم أنهم ارتدوا، فأرسل رسول اللَّه ﷺ إليهم خالد بن الوليد فتثبت في أمرهم فبين بطلان قوله. وقد اختلف فيه، فقيل: نزلت في ذلك، وقيل: في علي والوليد في قصة أخرى، وقيل: إن الوليد سبق يوم الفتح في جملة الصبيان إلى رسول اللَّه ﷺ فمسح رؤوسهم وبرك عليهم، إلا هو قال: إنه كان على رأسي خلوق، فامتنع ﷺ

(١) (ص: ١٠٢-١٠٤).

من مسحه. فمن يكون في مثل هذه السن يرسل مصدقا؟ وبهذا الاختلاف يسقط العلماء الأحاديث القوية. وكيف يفسق رجل بمثل هذا الكلام؟ فكيف برجل من أصحاب محمد ﷺ.

وقال محب الدين الخطيب: كنت فيما مضى أعجب كيف تكون هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة ويسميه اللّٰه فاسقا، ثم تبقى له في نفس خليفتي رسول اللّٰه ﷺ أبي بكر وعمر المكانة التي سجلها له التاريخ. . بين ثقة أبي بكر وعمر بالوليد بن عقبة، وبين ما كان ينبغي أن يعامل به لو أن اللّٰه سماه فاسقا - حملني على الشك في أن تكون الآية نزلت فيه، لا استبعادا لوقوع أمر من الوليد يعد به فاسقا، ولكن استبعادا لأن يكون الموصوم بالفسق في صريح القرآن محل الثقة من رجلين لا نعرف في أولياء اللّٰه ﷻ بعد رسوله ﷺ من هو أقرب إلى اللّٰه منهما. وبعد أن ساورني هذا الشك أعدت النظر في الأخبار التي وردت عن سبب نزول الآية ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾، فلما عكفت على دراستها وجدتها موقوفة على مجاهد، أو قتادة أو ابن أبي ليلى، أو يزيد بن رومان، ولم يذكر أحد منهم أسماء رواة هذه الأخبار في مدة مائة سنة أو أكثر مرت بين أيامهم وزمن الحادث، وهذه المائة من السنين حافلة بالرواة من مشارب مختلفة، وإن الذين لهم هوى في تسويء سمعة مثل الوليد ومن هم أعظم مقاما من الوليد قد ملأوا الدنيا أخبارا مريبة ليس لها قيمة علمية. وما دام رواة تلك الأخبار في سبب نزول الآية مجهولين من علماء الجرح والتعديل بعد الرجال الموقوفة هذه الأخبار عليهم، وعلماء الجرح والتعديل لا يعرفون من أمرهم حتى ولا أسمائهم، فمن غير الجائز شرعا وتاريخا الحكم بصحة هذه الأخبار المنقطعة التي لا نسب لها وترتيب الأحكام عليها. وهنالك خبران موصولان أحدهما عن أم سلمة زعم موسى بن عبيدة أنه سمعه من ثابت مولى أم سلمة. وموسى بن عبيدة ضعفه النسائي وابن المديني وابن عدي وجماعة. وثابت المزعوم أنه مولى أم سلمة ليس له ذكر في كل ما رجعت إليه من كتب العلم، فلم يذكر في تهذيب التهذيب ولا في تقريب التهذيب ولا في خلاصة تذهيب الكمال، بل لم أجده ولا في قفصي الاتهام أعني «ميزان الاعتدال» و«لسان الميزان». وذهبت إلى مجموعة أحاديث أم سلمة في مسند الإمام أحمد فقرأتها واحدا واحدا فلم أجد فيها هذا الخبر، بل لم أجد لأم سلمة أي خبر ذكر فيه اسم مولى لها يدعى

ثابتا، زد على كل هذا أن أم سلمة لم تقل في هذا الخبر - إن صح عنها، ولا سبيل إلى أن يصح عنها -: إن الآية نزلت في الوليد، بل قالت - أي قيل على لسانها -: «بعث رسول اللَّه ﷺ (رجلا) في صدقات بني المصطلق». والخبر الثاني الموصول رواه الطبري في التفسير عن ابن سعد عن أبيه عن عمه عن أبيه عن أبيه عن ابن عباس: والطبري لم يلق ابن سعد ولم يأخذ عنه، لأن ابن سعد لما توفي ببغداد سنة ٢٣٠هـ كان الطبري طفلا في نحو السادسة من عمره ولم يخرج إلى ذلك الحين من بلد آمل في طبرستان لا إلى بغداد ولا لغيرها. وابن سعد وإن كان في نفسه من أهل العدالة في الدين والجلالة في العلم، إلا أن هذه السلسلة من سلفه يجهل علماء الجرح والتعديل أسماء أكثرهم فضلا عن أن يعرفوا شيئا من أحوالهم (وبعد كتابة ما تقدم للطبعة الأولى من كتابنا تبين لي أن ابن سعد الذي روى عنه الطبري هو محمد بن سعد العوفي. وقد وصف الشيخ أحمد شاكر سنده بأنه «سند مسلسل بالضعفاء من أسرة واحدة». انظر تفسير الطبري طبعة دار المعارف ١: ٢٦٣ - ٢٦٤). فكل هذه الأخبار من أولها إلى آخرها لا يجوز أن يؤاخذ بها مُجاهِدٌ كان موضع ثقة أبي بكر وعمر، وقام بخدمات للإسلام يرجى له بها أعظم المثوبة إن شاء اللَّه. أضف إلى كل ما تقدم أنه في الوقت الذي حدثت فيه لبني المصطلق الحادثة التي نزلت فيها الآية كان الوليد صغير السن. . هذا الخبر عن سن الوليد بن عقبة يوم فتح مكة رواه الإمام أحمد في مسنده (٤: ٣٢ الطبعة الأولى) عن شيخ له هو فياض بن محمد الرقي عن جعفر بن برقان الرقي عن ثابت بن الحجاج الكلابي الرقي عن عبد اللَّه الهمداني وهو (عبد اللَّه بن مالك بن الحارث) عن الوليد بن عقبة، والظاهر أن الوليد بن عقبة تحدث بهذا الحديث عندما اعتزل الناس في السنين الأخيرة من حياته واختار الإقامة في قرية له من أعمال الرقة، فتسلسلت رواية الخبر في الرواة الرقيين وأخذه الإمام أحمد عن شيخ له منهم. وعبد اللَّه الهمداني ثقة، لكن التبس اسمه في غير هذه الرواية بهمداني آخر يكنى أبا موسى واسمه مالك بن الحارث (أي على اسم والد عبد اللَّه الهمداني) وهو مجهول عند أهل الجرح والتعديل، أما عبد اللَّه الهمداني الذي ينتهي إليه الخبر في رواية الإمام أحمد فمعروف وموثوق به، وعلى روايته وأمثالها اعتمد القاضي ابن العربي في الحكم على سن الوليد بن عقبة بأنه كان صبيا عند فتح مكة وأن الذي نزلت فيه آية ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ هو شخص

آخر. ومن عجيب أمر الذين كان لهم هوى في تشويه هذا الصحابي الشاب المجاهد الطيب النفس الحسن السيرة في الناس أنهم حاولوا إدحاض حجة صغر سنه في ذلك الوقت بخبر آخر روي عن قدومه مع أخيه عمارة إلى المدينة في السنة السابعة للهجرة ليطلبا من النبي ﷺ رد أختهما أم كلثوم إلى مكة. وأصل هذا الخبر - إن صح - مقدّم فيه اسم عمارة على اسم الوليد، وهذا مما يستأنس به في أن عمارة هو الأصل في هذه الرحلة وأن الوليد جاء في صحبته، وأي مانع يمنع قدوم الوليد صبيا بصحبة أخيه الكبير كما يقع مثل ذلك في كل زمان ومكان؟ فقول الوليد إنه كان في سنة الفتح صبيا ليس في خبر قدومه مع أخيه الكبير إلى المدينة في السنة السابعة ما يمنعه أو يناقضه. فإذا تقرر عندك أن جميع الأخبار الواردة بشأن الوليد بن عقبة في سبب نزول آية ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ لا يجوز علميا أن يبنى عليها حكم شرعي أو تاريخي، وإذا أضفت إلى ذلك حديث مسند الإمام أحمد عن سن الوليد في سنة الفتح، يتبين لك بعد ذلك حكمة استعمال أبي بكر وعمر للوليد وثقتهما به واعتمادهما عليه مع أنه كان لا يزال في صدر شبابه[1].

* عن أبي قلابة حدثنا مالك بن الحويرث قال: «**أتينا النبي ﷺ ونحن شَبَبَة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رسول اللَّه ﷺ رقيقًا، فلما ظن أنا قد اشتهينا أهلنا -أو قد اشتقنا- سألنا عمن تركنا بعدنا فأخبرناه، قال: «ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا فيهم، وعلموهم ومروهم، -وذكر أشياء أحفظها ولا أحفظها- وصلوا كما رأيتموني أصلي، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم، وليؤمكم أكبركم**»[2].

★ **غريب الحديث:**

ونحن شَبَبَة: جمع شاب، وهو من كان دون الكهولة.

متقاربون: في السن، بل في أعم منه.

رقيقًا: من الرِّقة.

---

(١) في تعليقه على العواصم (ص: ١٠٢-١٠٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٣٦)، والبخاري (١٣/ ٢٨٧/ ٧٢٤٦)، ومسلم (١/ ٤٦٥/ ٦٧٤)، والنسائي (٢/ ٣٣٦/ ٦٣٤).

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «وفي الحديث إجازة خبر الواحد وقيام الحجة به»[١].

* عن البراء قال: «**لما قدم رسول اللَّه ﷺ** المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، وكان يحب أن يوجه إلى الكعبة، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾[٢]، فوجه نحو الكعبة، وصلى معه رجل العصر، ثم خرج فمر على قوم من الأنصار، فقال: هو يشهد أنه صلى مع النبي ﷺ وأنه قد وجه إلى الكعبة، فانحرفوا وهم ركوع في صلاة العصر»[٣].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عبد البر: «في هذا الحديث دليل على قبول خبر الواحد، وإيجاب الحكم والعمل به؛ لأن الصحابة ﭫ قد استعملوا خبره وقضوا به، وتركوا قبلة كانوا عليها لخبره وهو واحد، ولم ينكر ذلك عليهم رسول اللَّه ﷺ، ولا أنكره واحد منهم، وحسبك بمثل هذا قوة من عمل القرن المختار خير القرون وفي حياة الرسول ﷺ»[٤].

* عن أنس بن مالك ﭬ قال: كنت أسقي أبا طلحة الأنصاري وأبا عبيدة بن الجراح وأبي بن كعب شرابًا في فضيخ وهو تمر، فجاءهم آتٍ فقال: إن الخمر قد حُرِّمت، فقال أبو طلحة: يا أنس! قم إلى هذه الجرار فاكسرها، قال أنس: فقمت إلى مهراس لنا فضربتها بأسفله حتى انكسرت»[٥].

★ **غريب الحديث:**

فضيخ: قال ابن عبد البر: اختلف في الفضيخ، وقال أكثر أهل العلم:

---

(١) الفتح (٢/ ٢١٩).

(٢) البقرة: الآية (١٤٤).

(٣) أخرجه: البخاري (١٣/ ٢٨٨/ ٧٢٥٢)، ومسلم (١/ ٣٧٤/ ٥٢٥)، والترمذي (٢/ ١٦٩-١٧٠/ ٣٤٠) و(٥/ ١٩١/ ٢٩٦٢) وقال: «حسن صحيح».

(٤) التمهيد (فتح البر ١/ ٢٢٣).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ١٨١)، والبخاري (١٣/ ٢٨٨/ ٧٢٥٣)، ومسلم (٣/ ١٥٧٠/ ١٩٨٠)، والنسائي (٨/ ٦٨٢-٦٨٣/ ٥٥٥٧).

الفضيخ: نبيذ البسر. وقال أبو عبيد: الفضيخ: ما افتضخ من البسر من غير أن تمسه النار، قال: وفيه روي عن ابن عمر: ليس بالفضيخ، ولكنه الفضوخ. قال أبو عبيد: فإن كان مع البسر تمر فهو الخليطان، وكذلك إن كان زبيبًا فهو مثله.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عبد البر: «وفي هذا الحديث أيضًا قبول خبر الواحد؛ لأنهم قبلوا خبر المخبر لهم وهو رجل من المسلمين، ولا شك أنهم قد عرفوه، ولذلك قبلوا خبره، وعملوا به، وأراقوا شرابهم، وقد كان ملكًا لهم قبل التحريم»[١].

قال الحافظ: «وهو حجة قوية في قبول خبر الواحد؛ لأنهم أثبتوا به نسخ الشيء الذي كان مباحًا حتى أقدموا من أجله على تحريمه والعمل بمقتضى ذلك»[٢].

* عن حذيفة أن النبي ﷺ قال لأهل نجران: «**لأبعثن إليكم رجلًا أمينًا حق أمين**»، **فاستشرف لها أصحاب النبي ﷺ**، فبعث أبا عبيدة[٣].

★ **غريب الحديث:**

فاستشرف لها أصحاب النبي ﷺ: أي: تطلعوا إليها بسبب الوصف المذكور.

★ **فوائد الحديث:**

قال أبو عمر: «وفيه من الفقه إثبات خبر الواحد، ألا ترى أن عبد الله بن رواحة قدم على أهل خيبر وهو واحد، فأخبرهم عن النبي ﷺ بحكم كبير في الشريعة، فلم يقولوا له: إنك واحد لا نصدقك على رسول الله ﷺ. ولو كان خبره واحدًا لا يجب به الحكم، ما بعثه رسول الله ﷺ وحده»[٤].

قال قوّام السنة الحافظ الأصبهاني: «قال لنا الإمام أبو المظفر السمعاني: فصل: ونشتغل الآن بالجواب عن قولهم فيما سبق: إن أخبار الآحاد لا تقبل فيما

---

(١) التمهيد (فتح البر ٩/ ٤٥١). (٢) فتح الباري (١٣/ ٢٩٥-٢٩٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٨٥)، والبخاري (١٣/ ٢٨٩/ ٧٢٥٤)، ومسلم (٤/ ١٨٨٢/ ٢٤٢٠)، والترمذي (٥/ ٦٢٥-٦٢٦/ ٣٧٩٦) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٥/ ٥٧/ ٨١٢٨)، وابن ماجه (١/ ٤٨/ ١٣٥).

(٤) التمهيد (فتح البر ٩/ ٢٢٥).

طريقه العلم، وهذا رأس شغب المبتدعة في رد الأخبار، وطلب الدليل من النظر والاعتبار، فنقول وبالله التوفيق:

إن الخبر إذا صح عن رسول الله ﷺ، ورواه الثقات والأئمة، وأسندوه خلفهم عن سلفهم إلى رسول الله ﷺ، وتلقته الأمة بالقبول، فإنه يوجب العلم فيما سبيله العلم؛ هذا قول عامة أهل الحديث والمتقنين من القائمين على السنة. وإنما هذا القول الذي يذكر أن خبر الواحد لا يفيد العلم بحال، ولا بد من نقله بطريق التواتر لوقوع العلم به شيء اخترعته القدرية والمعتزلة، وكان قصدهم منه ردّ الأخبار، وتلقفه منهم بعض الفقهاء الذين لم يكن لهم علم في العلم وقدم ثابت، ولم يقفوا على مقصودهم من هذا القول، ولو أنصف الفِرق من الأمة لأقرّوا بأن خبر الواحد يوجب العلم؛ فإنهم تراهم مع اختلافهم في طرائقهم وعقائدهم يستدل كل فريق منهم على صحة ما يذهب إليه من خبر الواحد، ترى أصحاب القدر يستدلون بقوله: **«كل مولود يولد على الفطرة»**[١]، وبقوله: **«خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم»**[٢]، وترى أهل الإرجاء يستدلون بقوله: **«من قال: لا إله إلا الله، دخل الجنة»**، قال: وإن زنى وإن سرق؟ قال: **«نعم، وإن زنى وإن سرق»**[٣]، وترى الرافضة يستدلون بقوله: **«يجاء بقوم من أصحابي فيسلك بهم ذات الشمال، فأقول: أصيحابي! أصيحابي! فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم»**[٤]، وترى الخوارج يستدلون بقوله: **«سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»**[٥]، وبقوله: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق**

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٣) والبخاري (٣/ ٣١٤/ ١٣٨٥) ومسلم (٤/ ٢٠٤٧/ ٢٦٥٨) وأبو داود (٥/ ٨٦-٨٨/ ٤٧١٤) والترمذي (٤/ ٣٨٩/ ٢١٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٦٢) ومسلم (٤/ ٢١٩٧/ ٢٨٦٥) وأبو داود (٥/ ٢٠٣/ ٤٨٩٥) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦/ ٨٠٧٠) وابن ماجه (٢/ ١٣٩٩/ ٤١٧٩) من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١٦٦) والبخاري (٣/ ١٤٢-١٤٣/ ١٢٣٧) ومسلم (١/ ٩٤/ ٩٤) والترمذي (٥/ ٢٧/ ٢٦٤٤) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٧٤/ ١٠٩٥٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢٣٥) والبخاري (٨/ ٣٦٣/ ٤٦٢٥) ومسلم (٤/ ٢١٩٤-٢١٩٥/ ٢٨٦٠) والترمذي (٤/ ٥٣٢/ ٢٤٢٣) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٢٣/ ٢٠٨٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٥) والبخاري (١/ ١٤٧/ ٤٨) ومسلم (١/ ٨١/ ٦٤) والترمذي (٤/ ٣١١/ ١٩٨٣) والنسائي (٨/ ١٣٧/ ٤١١٥) وابن ماجه (١/ ٢٧/ ٦٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

السارق حين يسرق وهو مؤمن»[1]، إلى غير ذلك من الأحاديث التي يستدل لها أهل الفرق، ومشهور ومعلوم استدلال أهل السنة بالأحاديث ورجوعهم إليها، فهذا إجماع منهم على القول بأخبار الآحاد، وكذلك أجمع أهل الإسلام متقدموهم ومتأخروهم على رواية الأحاديث في صفات اللَّه، وفي مسائل القدر والرؤية، وأصل الإيمان، والشفاعة، والحوض، وإخراج الموحدين المذنبين من النار، وفي صفة الجنة والنار، وفي الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، وفي فضائل النبي ﷺ، ومناقب أصحابه، وأخبار الأنبياء المتقدمين عليهم السلام، وكذلك أخبار الرقائق والعظات، وما أشبه ذلك مما يكثر عدّه وذكره، وهذه الأشياء كلها علمية لا عملية، وإنما تروى لوقوع علم السامع بها.

فإذا قلنا: إن خبر الواحد لا يجوز أن يوجب العلم، حملنا أمر الأمة في نقل الأخبار على الخطإ، وجعلناهم لاغين مشتغلين بما لا يفيد أحدًا شيئًا ولا ينفعه، ويصير كأنهم قد دونوا في أمور ما لا يجوز الرجوع إليه والاعتماد عليه، وربما يرتقي هذا القول إلى أعظم من هذا، فإن النبي ﷺ أدّى هذا الدين إلى الواحد فالواحد من أصحابه ليؤدوه إلى الأمة ونقلوا عنه، فإذا لم يقبل قول الراوي لأنه واحد، رجع هذا العيب إلى المؤدي، نعوذ باللَّه من هذا القول الشنيع، والاعتقاد القبيح.

ويدل عليه أن الأمر مشتهر في أن النبي ﷺ بعث الرسل إلى الملوك: بعث إلى كسرى، وقيصر، وملك الإسكندرية، وإلى أكيدر دومة، وغيرهم من ملوك الأطراف، وكتب إليهم كتبًا على ما عرف ونقل واشتهر. وإنما بعث واحدًا واحدًا، ودعاهم إلى اللَّه وإلى التصديق برسالته؛ لإلزام الحجة، وقطع العذر؛ لقوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[2]، وهذه المعاني لا تحصل إلا بعد وقوع العلم بمن أرسل إليه بالإرسال، والمرسل، وأن الكتاب من قبله، والدعوة منه، وقد كان نبينا ﷺ بعث إلى الناس كافة، وكثير من الأنبياء بعثوا

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٣) والبخاري (١٠/ ٣٧-٣٨/ ٥٥٧٨) ومسلم (١/ ٧٦/ ٥٧) وأبو داود (٥/ ٦٤-٦٥/ ٤٦٧٩) والترمذي (٥/ ١٦-١٧/ ٢٦٢٥) والنسائي (٨/ ٤٣٥/ ٤٨٨٥) وابن ماجه (٢/ ١٢٩٨-١٢٩٩/ ٣٩٣٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) النساء: الآية (١٦٥).

إلى قوم دون قوم، وإنما قصد بإرسال الرسل إلى هؤلاء الملوك والكتاب إليهم بث الدعوة في جميع المماليك، ودعا الناس عامة إلى دينه، على حسب ما أمره اللَّه بذلك، فلو لم يقع العلم بخبر الواحد في أمور الدين لم يقتصر ﷺ على إرسال الواحد من أصحابه في هذا الأمر، وكذلك في أمور كثيرة اكتفى ﷺ بإرسال الواحد من أصحابه، منها: أنه ﷺ بعث عليًا لينادي في موسم الحج بمنى: «**ألا لا يحجنّ بعد العام مشرك، ولا يطوفنّ بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول اللَّه ﷺ عهد فمدته إلى أربعة أشهر، ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة**»[١]. ولا بد في هذه الأشياء من وقوع العلم للقوم الذين كانوا ينادونهم حتى إن أقدموا على شيء من هذا بعد سماع هذا القول كان رسول اللَّه ﷺ مبسوط العذر في قتالهم وقتلهم، وكذلك بعث معاذًا إلى اليمن ليدعوهم إلى الإسلام ويعلمهم إذا أجابوا شرائعهم[٢]، وبعث إلى أهل خيبر في أمر القتيل واحدًا يقول لهم: إما أن تدوا وإما تؤذنوا بحرب من اللَّه ورسوله[٣]. . وجاء أهل قباء واحد وهم في مسجدهم يصلون فأخبرهم بصرف القبلة إلى المسجد الحرام، فانصرفوا إليه في صلاتهم[٤] واكتفوا بقوله، ولا بد في مثل هذا من وقوع العلم به. وكان النبي ﷺ يرسل الطلائع والجواسيس في ديار الكفر ويقتصر على الواحد في ذلك ويقبل قوله إذا رجع، وربما أقدم عليهم بالقتل والنهب بقوله وحده. ومن تدبر أمور النبي ﷺ وسيرته لم يخف عليه ما ذكرنا، وما يرد هذا إلا معاند مكابر، ولو أنك وضعت في قلبك أنك سمعت الصديق، أو الفاروق أو غيرهما من وجوه الصحابة ﷺ يروي لك حديثًا عن النبي ﷺ في أمر من

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٧٩) والترمذي (٥/ ٢٥٧/ ٣٠٩٢) وقال: «حديث حسن»، والحاكم (٤/ ١٧٨) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٣٣) والبخاري (٣/ ٣٣٣/ ١٣٩٥) ومسلم (١/ ٥٠/ ١٩) وأبو داود (٢/ ٢٤٢-٢٤٣/ ١٥٨٤) والترمذي (٣/ ٢١/ ٦٢٥) والنسائي (٥/ ٥٨-٥٩/ ٢٤٢١) وابن ماجه (١/ ٥٦٨/ ١٧٨٣) من حديث ابن عباس ﷺ.

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٣) والبخاري (١٣/ ٢٢٨/ ٧١٩٢) ومسلم (٣/ ١٢٩١-١٢٩٢/ ١٦٦٩) وأبو داود (٤/ ٦٥٥-٦٥٨/ ٤٥٢٠) والترمذي (٤/ ٢٢-٢٣/ ١٤٢٢) والنسائي (٨/ ٣٧٧/ ٤٧٢٧) وابن ماجه (٢/ ٨٩٢-٨٩٣/ ٢٦٧٧) من حديث سهل بن حثمة ﷺ.

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ١٥-١٦) والبخاري (٨/ ٢١٩/ ٤٤٨٨) ومسلم (١/ ٣٧٥/ ٥٢٦) والترمذي (٢/ ١٧٠/ ٣٤١) والنسائي (١/ ٢٦٥/ ٤٩٢) من حديث ابن عمر ﷺ.

الاعتقاد مثل جواز الرؤية على اللَّه تعالى، أو إثبات القدر، أو غير ذلك، لوجدت قلبك مطمئنًّا إلى قوله، لا يتداخلك شك في صدقه وثبوت قوله.

وفي زماننا ترى الرجل يسمع من أستاذه الذي يختلف إليه ويعتقد فيه التقدمة والصدق أنه سمع أستاذه يخبر عن شيء من عقيدته الذي يريد أن يلقى اللَّه به ويرى نجاته فيه، فيحصل للسامع علم بمذهب من نقل عنه أستاذه بحيث لا يختلجه شبهة، ولا يعتريه شك، وكذلك في كثير من الأخبار التي قضيتها العلم يوجد بين الناس، فيحصل لهم العلم بذلك الخبر، ومن رجع إلى نفسه علم ذلك.

واعلم أن الخبر وإن كان يحتمل الصدق والكذب، والظن والتجوز فيه مدخل، لكن هذا الذي قلناه لا يناله أحد إلا أن يكون معظم أوقاته وأيامه مشتغلًا بعلم الحديث، والبحث عن سيرة النقلة والرواة؛ ليقف على رسوخهم في هذا العلم، وكنه معرفتهم به، وصدق ورعهم في أحوالهم وأقوالهم، وشدة حذرهم من الطغيان والزلل، وما بذلوه من شدة العناية في تمهيد هذا الأمر، والبحث عن أحوال الرواة، والوقوف على صحيح الأخبار وسقيمها.

ولقد كانوا -رحمهم اللَّه وأنزل رضوانه عليهم- بحيث لو قتلوا لم يسامحوا أحدًا في كلمة يتقوّلها على رسول اللَّه ﷺ، ولا فعلوا هم بأنفسهم ذلك. وقد نقلوا هذا الدين إلينا كما نقل إليهم، وأدّوا على ما أدّي إليهم، وكانوا في صدق العناية والاهتمام بهذا الشأن بما يجل عن الوصف، ويقصر دونه الذكر.

وإذا وقف المرء على هذا من شأنهم، وعرف حالهم، وخبر صدقهم وورعهم وأمانتهم، ظهر له العلم فيما نقلوه ورووه، ولم يحتج إلى شيء من هذه التي قلناها، واللَّه ولي التوفيق والمعونة.

والذي يزيد ما قلناه إيضاحًا أن النبي ﷺ قال حين سئل عن الفرقة الناجية، قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»[1]، يعني من كان على ما أنا عليه وأصحابي، فلا بد من تعرف ما كان عليه رسول اللَّه ﷺ، وليس طريق معرفته إلا النقل، فيجب الرجوع إلى ذلك،

---

(١) أخرجه: الترمذي (٥/ ٢٦/ ٢٦٤١) وقال: «حديث مفسر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه» والحاكم (١/ ١٢٨-١٢٩) وفيه عبد الرحمن الأفريقي وهو ضعيف، لكن له شواهد يرتقي بها إلى درجة الحسن، من حديث أبي هريرة ومعاوية رضي الله عنهما.

وقد قال النبي ﷺ: «لا تنازعوا الأمر أهله»[١]، فكما يرجع في معرفة مذاهب الفقهاء الذين صاروا قدوة في هذه الأمة إلى أهل الفقه، ويرجع في معرفة اللغة إلى أهل اللغة، ويرجع في معرفة النحو إلى أهل النحو، فكذلك يجب أن يرجع في معرفة ما كان عليه رسول اللَّه ﷺ وأصحابه إلى أهل النقل والرواية؛ لأنهم عنوا بهذا الشأن، واشتغلوا بحفظه، والتفحّص عنه ونقله، ولولاهم لاندرس علم النبي ﷺ، ولم يقف أحد على سنته وطريقته»[٢].

«قلت: ومن المعلوم أن من هذا عنايته بسنة رسول اللَّه ﷺ وسيرته وهديه، فإنها تفيد عندهم من العلم الضروري والنظري ما لا تفيده عند المعرض عنها المشتغل بغيرها، وهذا شأن من عني بسيرة رجل وهديه وكلامه وأحواله، فإنه يعلم من ذلك بالضرورة ما هو مجبول لغيره»[٣].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣١٤،٣١٦) والبخاري (١٣/ ٢٣٨/ ٧١٩٩) ومسلم (٣/ ١٤٧٠/ ١٧٠٩) والنسائي (٧/ ١٥٥/ ٤١٦٠) وابن ماجه (٢/ ٩٥٧/ ٢٨٦٦) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٢) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٢١٤-٢٢٣).

(٣) قاله ابن القيم [مختصر الصواعق (ص: ٥٦٢)].

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾[١]

★ **غريب الآية:**

لَعَنِتُّم: أي: لوقعتم في العنت، وهو المشقة والشدة. يقال: عَنَت الدابة عَنَتًا وعُنُوتًا: إذا حدث في قوائمها كسر بعد جَبْر لا يمكنها معه الجري. وعَنَتَ فلانٌ فلانًا: شدّد عليه وألزمه ما يصعب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لأصحاب النبي ﷺ: واعلموا أيها المؤمنون بالله ورسوله، ﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ فاتقوا الله أن تقولوا الباطل، وتفتروا الكذب؛ فإن الله يخبره أخباركم، ويعرّفه أنباءكم، ويقوّمه على الصواب في أموره»[٢].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: اعلموا أن بين أظهركم رسول الله، فعظّموه ووقروه، وتأدّبوا معه، وانقادوا لأمره؛ فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتمّ من رأيكم لأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[٣].

ثم بيّن تعالى أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي: لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدّى ذلك إلى عنتكم وحرجكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾[٤]»[٥].

وقال السعدي: «أي: وليكن لديكم معلومًا أن رسول الله ﷺ بين أظهركم،

---

(١) الحجرات: الآية (٧).
(٢) جامع البيان (٢٦/ ١٢٥).
(٣) الأحزاب: الآية (٦).
(٤) المؤمنون: الآية (٧١).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٥٢).

وهو الرسول الكريم، البار، الراشد، الذي يريد بكم الخير وينصح لكم، وتريدون لأنفسكم من الشر والمضرة ما لا يوافقكم الرسول عليه، ولو يطيعكم في كثير من الأمر لشق عليكم وأعنتكم، ولكن الرسول يرشدكم»[١].

وقال الرازي: «أي الكشف سهل عليكم بالرجوع إلى النبي ﷺ فإنه فيكم مبين مرشد، وهذا كما يقول القائل عند اختلاف تلاميذ شيخ في مسألة: هذا الشيخ قاعد لا يريد بيان قعوده، وإنما يريد أمرهم بالمراجعة إليه، وذلك لأن المراد منه أنه لا يطيعكم في كثير من الأمر، وذلك لأن الشيخ فيما ذكرنا من المثال لو كان يعتمد على قول التلاميذ لا تطمئن قلوبهم بالرجوع إليه، أما إذا كان لا يذكر إلا من النقل الصحيح، ويقرره بالدليل القوي يراجعه كل أحد، فكذلك ههنا قال استرشدوه فإنه يعلم ولا يطيع أحدًا فلا يوجد فيه حيف ولا يروج عليه زيف، والذي يدل على أن المراد من قوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ بيان أنه لا يطيعكم، هو أن الجملة الشرطية في كثير من المواضع ترد لبيان امتناع لشرط لامتناع الجزاء كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[٣] فإنه لبيان أنه ليس فيهما آلهة وأنه ليس من عند غير الله»[٤].

وقال أيضًا: «إذا كان المراد من قوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ بيان كونه غير مطيع لأحد بل هو متبع للوحي فَلِمَ لم يصرح به؟ نقول بيان نفي الشيء مع بيان دليل النفي أتم من بيانه من غير دليل، والجملة الشرطية بيان النفي مع بيان دليله فإن قوله: (ليس فيهما آلهة) لو قال قائل: لم قلت إنه ليس فيهما آلهة يجب أن يذكر الدليل فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ فكذلك ههنا لو قال لا يطيعكم، وقال قائل لم لا يطيع لوجب أن يقال لو أطاعكم لأطاعكم لأجل مصلحتكم، لكن لا مصلحة لكم فيه لأنكم تعنتون وتأثمون وهو يشق عليه عنتكم، كما قال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾[٥] فإن طاعتكم لا تفيده شيئًا فلا يطيعكم، فهذا نفي الطاعة بالدليل وبين نفي الشيء بدليل ونفيه بغير دليل فرق عظيم.. وقال: ﴿فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ ليعلم أنه

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٣١).
(٢) الأنبياء: الآية (٢٢).
(٣) النساء: الآية (٨٢).
(٤) مفاتيح الغيب (١٤/ ١٧٥).
(٥) التوبة: الآية (١٢٨).

قد يوافقهم ويفعل بمقتضى مصلحتهم تحقيقًا لفائدة قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[١]»[٢].

وقال ابن عاشور: «قوله: ﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ (أن) خبر مستعمل في الإيقاظ والتحذير على وجه الكِنَاية. فإن كون رسول اللَّه ﷺ بين ظهرانيهم أمر معلوم لا يخبر عنه. فالمقصود تعليم المسلمين باتباع ما شرع لهم رسول اللَّه ﷺ من الأحكام ولو كانت غير موافقة لرغباتهم.. وتقديم خبر (أنَّ) على اسمها في قوله: ﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ للاهتمام بهذا الكون فيهم وتنبيهًا على أن واجبهم الاغتباط به والإخلاص له لأن كونه فيهم شرف عظيم لجماعتهم وصلاح لهم»[٣].

وفي الآية التنبيه على الشرف الحاصل لهذه الأمة بوجود النبي ﷺ قال البقاعي: ﴿أَنَّ فِيكُمْ﴾ أي على وجه الاختصاص لكم، ويا له من شرف[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة فيما ينبغي أن يكون عليه العاقل من اتهام رأيه وبركة اتباع رسول اللَّه ﷺ

* عن أبي نضرة قال: قرأ أبو سعيد الخدري: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾، قال: هذا نبيكم ﷺ يوحى إليه وخيار أئمتكم، لو أطاعهم في كثير من الأمر لعنتوا، فكيف بكم اليوم؟»[٥].

★ غريب الحديث:

لعنتوا: العنت: المشقة والحرج والضيق، أي: لنالهم مشقة وحرج وضيق. قال ابن الأنباري: أصل العنت: التشديد.

★ فوائد الحديث:

ما أجل هذا التوظيف من أبي سعيد الخدري رضي الله عنه لهذه الآية! وما أعظم هذا الاستدلال بالأعلى على الأدنى! فإذا كان أصحاب رسول اللَّه ﷺ -وهم من هم-

(١) آل عمران: الآية (١٥٩).
(٢) مفاتيح الغيب (١٤/ ١٧٦).
(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ١٣).
(٤) نظم الدرر (١٨/ ٣٦٦).
(٥) أخرجه: الترمذي (٥/ ٣٦٢-٣٦٣/ ٣٢٦٩) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

إذا أطاعهم رسول اللَّه ﷺ في كثير من الأمر لعنتوا، ولنالهم مشقة وشدة بسبب طاعته إياهم لو أطاعهم، "كما لو قبل -يقول ابن جرير- من الوليد بن عقبة -على فرض صحة الخبر- قوله في بني المصطلق: إنهم قد ارتدوا ومنعوا الصدقة، وجمعوا الجموع لغزو المسلمين، فغزاهم فقتل منهم، فأصاب من دمائهم وأموالهم، كان قد قتل وقتلوا من لا يحل له ولا لهم قتاله، وأخذ وأخذوا من المال ما لا يحل له ولا لهم أخذه من أموال قوم مسلمين، فنالهم من اللَّه بذلك عنت»[١]، يقول أبو سعيد: فكيف بكم اليوم؟ أي: كما قال قتادة: فأنتم أسخف رأيًا، وأطيش أحلامًا وعقولًا، اتهم رجل رأيه، وانتصح كتاب الله؛ فإن كتاب اللَّه ثقة لمن أخذ به، وانتهى إليه، وإن ما سوى كتاب اللَّه تغرير[٢].

* * *

(١) جامع البيان (١٣/ ١٢٥).

(٢) رواه ابن جرير بسنده إلى قتادة، جامع البيان (١٣/ ١٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾

★ غريب الآية:

الراشدون: جمع راشد، وهو المهتدي للصلاح. والرشد: خلاف الغي والضلال.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ أي: حبّبه إلى نفوسكم، وحسّنه في قلوبكم.. ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ أي: وبغّض إليكم الكفر والفسوق، وهي الذنوب الكبار، والعصيان، وهي جميع المعاصي. وهذا تدريج لكمال النعمة»[1].

وقال ابن جرير: «﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ باللَّه ورسوله، فأنتم تطيعون رسول اللَّه، وتأتمون به فيقيكم اللَّه بذلك من العنت ما لو لم تطيعوه وتتبعوه، وكان يطيعكم لنالكم وأصابكم.

وقوله: ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ يقول: وحسن الإيمان في قلوبكم فآمنتم، ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾ باللَّه ﴿وَٱلۡفُسُوقَ﴾ يعني الكذب، ﴿وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ يعني ركوب ما نهى اللَّه عنه في خلاف أمر رسول اللَّه ﷺ، وتضييع ما أمر اللَّه به»[2].

وقال الشنقيطي: «ما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من أنه هو الذي حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، جاء موضحًا في آيات كثيرة مصرح فيها بأنه تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء، كقوله

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٥٢).
(٢) جامع البيان (٢٦/ ١٢٦).

تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[١] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ﴾[٢] الآية، وقوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾[٤]، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، نرجو اللَّه الكريم أن يهدينا وألا يضلنا»[٥].

وقال ابن جرير: «يقول: هؤلاء الذين حبّب اللَّه إليهم الإيمان، وزيّنه في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ السالكون طريق الحق»[٦].

وقال السعدي: «﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي: الذين زيّن اللَّه الإيمان في قلوبهم، وحببه إليهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ﴿هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أي: الذين صلحت علومهم وأعمالهم، واستقاموا على الدين القويم، والصراط المستقيم.

وضدهم الغاوون، الذين حبب إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وكره إليهم الإيمان، والذنب ذنبهم، فإنهم لما فسقوا طبع اللَّه على قلوبهم، ولما ﴿زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[٧]، ولما لم يؤمنوا بالحق لما جاءهم أول مرة، قلب اللَّه أفئدتهم»[٨].

وقال شيخ الإسلام: «بين أنه حبّب الإيمان إلى المؤمنين وزيّنه في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان.

والقدرية من المعتزلة والشيعة تتأوّل ذلك بأنه حبّب الإيمان إلى كل مكلف وزيّنه بما أظهره من دلائل حسنه، وكرّه الكفر بما أظهره من دلائل قبحه.

فيقال لهم: أول الآية وآخرها خطاب للمؤمنين، بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾، وقال في آخرها: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾، فبيّن أن الذين حبّب إليهم الإيمان وكرّه إليهم الكفر هم الراشدون، والكفار ليسوا

---

(١) الكهف: الآية (١٧).
(٢) الإسراء: الآية (٩٧).
(٣) الأعراف: الآية (١٧٨).
(٤) الشمس الآيتان (٧و٨).
(٥) أضواء البيان (٧/ ٦٢٨).
(٦) جامع البيان (٢٦/ ١٢٦).
(٧) الصف: الآية (٥).
(٨) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٣١-١٣٢).

براشدين، ولو كان قد فعل بالكفار كما فعل بهم، لم يصح أن يمتنّ عليهم بما يشعر اختصاصهم به»[١].

وقال ابن القيم رحمة اللَّه عليه: «فتحبيبه سبحانه الإيمان إلى عباده المؤمنين هو إلقاء محبته في قلوبهم؛ وهذا لا يقدر عليه سواه. وأما تحبيب العبد الشيء إلى غيره، فإنما هو بتزيينه وذكر أوصافه وما يدعو إلى محبته، فأخبر سبحانه أنه جعل في قلوب عباده المؤمنين الأمرين: حبه وحسنه الداعي إلى حبه، وألقى في قلوبهم كراهة ضده من الكفر والفسوق والعصيان، وأن ذلك محض فضله ومنّته عليهم حيث لم يكلهم إلى أنفسهم، بل تولى هو سبحانه هذا التحبيب والتزيين وتكريه ضده، فجاد عليهم به ﴿فَضۡلٗا﴾ منه ﴿وَنِعۡمَةٗۚ﴾، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمواقع فضله ومن يصلح له ومن لا يصلح، ﴿حَكِيمٌ﴾ بجعله في مواضعه»[٢].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ﴾ يقول: ولكن اللَّه حبّب إليكم الإيمان، وأنعم عليكم هذه النعمة التي عدّها فضلًا منه، وإحسانًا ونعمة منه أنعمها عليكم. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ يقول: واللَّه ذو علم بالمحسن منكم من المسيء، ومن هو لنعم اللَّه وفضله أهل، ومن هو لذلك غير أهل، وحكمة في تدبيره خلقه، وصرفه إياهم فيما شاء من قضائه»[٣].

وقال ابن القيم: «فهو سبحانه ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصلح له، ﴿حَكِيمٌ﴾ يضعه في مواضعه وعند أهله، لا يمنعه أهلَه، ولا يضعه عند غير أهله. وذكر هذا عقيب قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾، ثم جاء به بحرف الاستدراك فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾؛ يقول سبحانه: لم تكن محبتكم للإيمان وإرادتكم له، وتزيينه في قلوبكم: منكم، ولكن اللَّه هو الذي جعله في قلوبكم كذلك. فآثرتموه ورضيتموه، فلذلك لا تقدّموا بين يدي رسولي، ولا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر. فالذي حبب إليكم الإيمان أعلم بمصالح عباده منكم، وأنتم فلولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان. فلم يكن الإيمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم، ولا تقدمتم به إليها؛

---

(١) درء التعارض (٩/ ٢٦).
(٢) شفاء العليل (ص: ٥٧).
(٣) جامع البيان (٢٦/ ١٢٦).

فنفوسكم تقصر وتعجز عن ذلك، ولا تبلغه. فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون، لشقّ عليكم ذلك، ولهلكتم وفسدت مصالحكم وأنتم لا تشعرون. ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشد والصلاح، كما أردتم الإيمان؛ فلولا أني حبّبته إليكم وزينته في قلوبكم، وكرّهت إليكم ضدّه لما وقع منكم، ولا سمحت به أنفسكم»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن حب ما أمر اللّٰه به وبغض ما نهى عنه من خصائص الإيمان

* عن رفاعة بن رافع الزرقي قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال رسول اللّٰه ﷺ: «**استووا حتى أُثنيَ على ربي**»، فصاروا خلفه صفوفًا، فقال: «**اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما بعدت، ولا مباعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك النعيم يوم العَيلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعت، اللهم حبّب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفّنا مسلمين وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إلهَ الحق**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

انكفأ: أي: انقلبوا ورجعوا إلى بيوتهم.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤١٤-٤١٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٢٤)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٦٩٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٥٦/ ١٠٤٤٥)، والبزار (كشف ٢/ ٣٢٩-٣٣٠/ ١٨٠٠)، والطبراني في الكبير (٥/ ٤٧/ ٤٥٤٩)، وصححه الحاكم (٣/ ٢٣-٢٤) على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

لا يحول: لا يتحول.

يوم العَيلة: بفتح العين، أي: يوم الحاجة والفقر.

غير خزايا: جمع خزيان، وهو من وقع في ذل المعصية.

رجزك: بكسر الراء وضمها: العذاب المعلق.

* عن عبد اللَّه بن عمر قال: «خطبنا عمر بالجابية فقال: يا أيها الناس! إني قمت فيكم كمقام رسول اللَّه ﷺ فينا، فقال: **أوصيكم بأصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يستحلف، ويشهد الشاهد ولا يستشهد. ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان. عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة؛ فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد. من أراد بُحبوحة الجنة فيلزم الجماعة. من سرته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن**»[١].

★ غريب الحديث:

الجابية: قرية بدمشق.

يفشو: يظهر وينتشر بين الناس بغير نكير.

بُحبوحة الجنة: بضم الموحدتين: وسطها وخيارها.

★ فوائد الحديثين:

حديث رفاعة رضي الله عنه فيه أن الهداية والإضلال بيد اللَّه ﷻ وهذا ما قررته الآية في قوله تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ﴾ و ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ﴾.

قال شيخ الإسلام: «وحب ما أمر اللَّه به وبغض ما نهى عنه، هذا من أخص الأمور بالإيمان، ولهذا ذكر النبي ﷺ في عدة أحاديث أن «**من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن**»، فهذا يحب الحسنة ويفرح بها، ويبغض السيئة ويسوؤه فعلها وإن

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ١٨)، الترمذي (٤/ ٤٠٤/ ٢١٦٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه» واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٨٨-٣٨٩/ ٩٢٢٥)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٦/ ٢٣٩-٢٤٠/ ٧٢٥٤)، والحاكم (١/ ١١٤) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

فعلها بشهوة غالبة، وهذا الحب والبغض من خصائص الإيمان»[١].

وقال أبو بكر بن العربي: «قوله: «**من سرته حسنته فهو المؤمن**» كلام فصيح صحيح بليغ، وذلك أنه من لم ير الحسنة فائدة ولا المعصية آفة فذلك يكون من غفلة فهو إيمان ناقص، أو من استهانة بالحالين لك أعظم فإنه يهون عظيمًا، ويغفل عما لا يغفل اللَّه عنه، فالمؤمن يرى ذنبه كالجبل العظيم عليه، والكافر يراه كذباب مرّ على أنفه فدفعه»[٢].

قال المناوي: «فالمؤمن البالغ الإيمان يندم على خطيئته، ويأخذه القلق كاللديغ؛ لإيقانه بخبر الآخرة وشرها، بخلاف غير الكامل، فإنه لا ينزعج لذلك لتراكم الظلمة في صدره وعلى قلبه، فيحجبه عن ذلك، ولهذا قال ابن مسعود فيما خرجه الحكيم الترمذي بأن المؤمن إذا أذنب فكأنه تحت صخرة يخاف أن تقع عليه فتقتله، والمنافق ذنبه كذباب مر على أنفه. فعلامة المؤمن أن توجعه المعصية حتى يسهر ليله فيما حل بقلبه من وجع الذنب، ويقع في العويل كالذي فارق محبوبه من الخلق بموت أو غيره، فيتفجع لفراقه فيقع في النحيب، فالمؤمن الكامل إذا أذنب يحل به أكثر من المصاب لحجبه عن ربه، ومن أشفق من ذنوبه فكان على غاية الحذر منها لا يرجو لغفرها سوى ربه، فهو يقبل على اللَّه، وهو الذي أراده اللَّه من عباده ليتوب عليهم، ويجزل ثوابهم. نعم، السرور بالحسنة مقيد في أخبار أخر بأن شرطه ألا ينتهي إلى العجب بها، فيسرّ بما يرى من طاعته، فيطمئن إلى أفعاله، فيكون قد انصرف عن اللَّه إلى نفسه العاجزة الحقيرة الضعيفة الأمارة اللوامة فيهلك، ولهذا قال بعضهم: ذنب يوصل العباد إلى اللَّه تعالى خير من عبادة تصرفه عنه، وخطيئة تفقره إلى اللَّه خير من طاعة تغنيه عن اللَّه.

(تتمة): **قال الراغب**: من لا يخوفه الهجاء ولا يسره الثناء لا يردعه عن سوء الفعال إلا سوط أو سيف. وقيل: من لم يردعه الذم عن سيئة ولم يستدعه المدح إلى حسنه فهو جماد أو بهيمة»[٣].

* * *

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٠٦).

(٢) عارضة الأحوذي (٩/ ١٢).

(٣) فيض القدير (٦/ ١٥٢-١٥٣) بتصرف.

قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾

★ **غريب الآية:**

بغت: تَعَدَّت. والبغي: التطاول والفساد.

تفيء: ترجع.

أقسطوا: القِسْط: العدل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: وإن طائفتان من أهل الإيمان اقتتلوا، فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم كتاب اللّه، والرضا بما فيه لهما وعليهما، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل. ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ يقول: فإن أبَت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم كتاب اللّه له، وعليه وتعدّت ما جعل اللّه عدلًا بين خلقه، وأجابت الأخرى منهما، ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي﴾ يقول: فقاتلوا التي تعتدي، وتأبى الإجابة إلى حكم اللّه ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ﴾ يقول: حتى ترجع إلى حكم اللّه الذي حكم في كتابه بين خلقه. ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ يقول: فإن رجعت الباغية بعد قتالكم إياهم إلى الرضا بحكم اللّه في كتابه، فأصلحوا بينها وبين الطائفة الأخرى التي قاتلتها ﴿بِٱلْعَدْلِۖ﴾ يعني: بالإنصاف بينهما، وذلك حكم اللّه في كتابه الذي جعله عدلًا بين خلقه»[(١)].

وقال ابن كثير: «سمّاهم مؤمنين مع الاقتتال. وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم»[(٢)].

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٢٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٥٣).

وقال شيخ الإسلام: «وهكذا السلف قاتل بعضهم بعضًا من أهل الجمل وصفين ونحوهم، وكلهم مسلمون مؤمنون؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝﴾ فقد بين اللَّه تعالى أنهم مع اقتتالهم، وبغي بعضهم على بعض إخوة مؤمنون، وأمر بالإصلاح بينهم بالعدل.

ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالي بعضهم بعضًا موالاة الدين، لا يعادون كمعاداة الكفار، فيقبل بعضهم شهادة بعض، ويأخذ بعضهم العلم عن بعض، ويتوارثون، ويتناكحون، ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض، مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك»[1].

وقال أيضًا: «الناس في الفاسق من أهل الملة، مثل الزاني والسارق والشارب ونحوهم، ثلاثة أقسام: طرفين ووسط.

أحد الطرفين: أنه ليس بمؤمن بوجه من الوجوه، ولا يدخل في عموم الأحكام المتعلقة باسم الإيمان، ثم من هؤلاء من يقول: هو كافر كاليهودي والنصراني، وهو قول الخوارج. ومنهم من يقول: ننزله منزلة بين المنزلتين، وهي منزلة الفاسق، وليس هو بمؤمن ولا كافر، وهم المعتزلة، وهؤلاء يقولون: إن أهل الكبائر يخلدون في النار، وإن أحدًا منهم لا يخرج منها. وهذا من مقالات أهل البدع التي دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان على خلافها؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾ -إلى قوله- ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ﴾ فسمّاهم مؤمنين، وجعلهم إخوة مع الاقتتال وبغي بعضهم على بعض، وقال اللَّه تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[2]، ولو أعتق مذنبًا أجزأ عتقه بإجماع العلماء.

ولهذا يقول علماء السلف في المقدمات الاعتقادية: لا نكفّر أحدًا من أهل القبلة بذنب، ولا نخرجه من الإسلام بعمل، وقد ثبت الزنا والسرقة وشرب الخمر على أناس في عهد النبي ﷺ، ولم يحكم فيهم حكم من كفر، ولا قطع الموالاة بينهم وبين المسلمين، بل جلد هذا، وقطع هذا، وهو في ذلك يستغفر لهم،

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٨٤-٢٨٥).

(٢) النساء: الآية (٩٢).

ويقول: «**لا تكونوا أعوان الشيطان على أخيكم**»[(١)]، وأحكام الإسلام كلها مرتبة على هذا الأصل.

الطرف الثاني: قول من يقول: إيمانهم باقٍ كما كان لم ينقص؛ بناءً على أن الإيمان هو مجرد التصديق والاعتقاد الجازم، وهو لم يتغير، وإنما نقصت شرائع الإسلام، وهذا قول المرجئة والجهمية ومن سلك سبيلهم، وهو أيضًا قول مخالف للكتاب والسنة وإجماع السابقين والتابعين لهم بإحسان.

القول الوسط الذي هو قول أهل السنة والجماعة أنهم لا يسلبون الاسم على الإطلاق ولا يعطونه على الإطلاق. فنقول: هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن عاص أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ويقال: ليس بمؤمن حقا أو ليس بصادق الإيمان. وكل كلام أطلق في الكتاب والسنة فلا بد أن يقترن به ما يبين المراد منه. والأحكام منها ما يترتب على أصل الإيمان فقط؛ كجواز العتق في الكفارة وكالموالاة والموارثة ونحو ذلك ومنها ما يترتب على أصله وفرعه: كاستحقاق الحمد والثواب وغفران السيئات ونحو ذلك»[(٢)].

وقال السعدي: «هذا متضمن لنهي المؤمنين عن أن يبغي بعضهم على بعض، ويقاتل بعضهم بعضًا، وأنه إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين، فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير، بالإصلاح بينهم، والتوسط بذلك على أكمل وجه يقع به الصلح، ويسلكوا الطريق الموصلة إلى ذلك. فإن صلحتا، فبها ونعمت، وإن ﴿بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: ترجع إلى ما حدّ اللَّه ورسوله، من فعل الخير وترك الشر، الذي من أعظمه الاقتتال. وقوله: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ هذا أمر بالصلح، وبالعدل في الصلح؛ فإن الصلح قد يوجد، ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظلم والحيف على أحد الخصمين، فهذا ليس هو الصلح المأمور به، فيجب أن لا يراعى أحدهما لقرابة، أو وطن، أو غير ذلك من المقاصد والأغراض، التي توجب العدول عن العدل»[(٣)].

---

(١) أخرجه: البخاري (١٢/ ٨٩/ ٦٧٨١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٧٠-٦٧١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٣٢-١٣٣).

وقال أبو عمر: «قد أمر اللَّه ﷻ بقتال الفئة الباغية بقوله: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾. وفي قوله: ﴿فَقَٰتِلُواْ﴾ دليل على أن الباغي إذا انهزم عن القتال، أو ضعف عنه بما لحقه من الآفات المانعة للقتال، حرم دمه؛ لأنه غير مقاتل، ولم نؤمر بقتاله إلا إذا قاتل؛ لأن اللَّه تعالى قال: ﴿فَقَٰتِلُواْ﴾، ولم يقل: (فاقتلوا)، والمقاتلة إنما يكون لمن قاتل -واللَّه أعلم-؛ لأنها تقوم من اثنين؛ وعلى هذا كان حكم عليّ رضي الله عنه فيمن بغى عليه، وتلك كانت سيرته فيهم رضي الله عنه، وعلى ذلك جمهور العلماء»[(١)].

وقال شيخ الإسلام: «مذهب أكثر العلماء أن قتال البغاة لا يجوز إلا أن يبتدؤوا الإمام بالقتال، كما فعلت الخوارج مع عليّ، فإن قتاله الخوارج متفق عليه بين العلماء، ثابت بالأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ، بخلاف قتال صفّين، فإن أولئك لم يبتدؤوا بقتال، بل امتنعوا عن مبايعته.

ولهذا كان أئمة السنة، كمالك وأحمد وغيرهما، يقولون: إن قتاله للخوارج مأمور به، وأما قتال الجمل وصفّين فهو قتال فتنة»[(٢)].

قال ابن العربي: «هذه الآية هي الأصل في قتال المسلمين، والعمدة في حرب المتأولين، وعليها عوّل الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة، وإياها عنى النبي ﷺ بقوله: «**يقتل عمّارًا الفئة الباغية**»[(٣)]، وقوله في شأن الخوارج: «**يخرجون على خير فرقة من الناس**»[(٤)] أو على حين فرقة، والرواية الأولى أصحّ؛ لقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق، وكان الذي قتلهم عليّ بن أبي طالب ومن كان معه، فتقرر عند علماء المسلمين، وثبت بدليل الدين أنّ عليًّا رضي الله عنه كان إمامًا، وأن كل من خرج عليه باغ، وأن قتاله واجب حتى يفيء إلى الحق، وينقاد إلى الصلح؛ لأن عثمان رضي الله عنه قُتل، والصحابة برآء من دمه؛ لأنه منع من قتال من ثار عليه، وقال: «لا أكون أول من خلف رسول اللَّه ﷺ في أمته بالقتل»، فصبر على البلاء، واستسلم للمحنة،

---

(١) التمهيد (فتح البر ١/ ١٣٢).

(٢) منهاج السنة (٨/ ٢٣٢-٢٣٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٢) والبخاري (١/ ٧١٢/ ٤٤٧) والنسائي في الكبرى (٥/ ١٥٦/ ٨٥٤٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وفي الباب عن أم سلمة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه بمعناه: أحمد (٣/ ٦٠) والبخاري (٩/ ١٢٢-١٢٣/ ٥٠٥٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وفدى بنفسه الأمة، ثم لم يمكن ترك الناس سدىً، فعرضت الإمامة على باقي الصحابة الذين ذكرهم عمر في الشورى، وتدافعوها، وكان عليّ أحق بها وأهلها، فقبلها حَوْطة على الأمة أن تسفك دماؤها بالتهارج والباطل، ويتخرق أمرها إلى ما لا يتحصل، وربما تغيّر الدين، وانقض عمود الإسلام؛ فلما بويع له طلب أهل الشام في شرط البيعة التمكين من قتلة عثمان وأخذ القود منهم، فقال لهم عليّ: ادخلوا في البيعة، واطلبوا الحق تصلوا إليه. فقالوا: لا تستحق بيعة وقتلة عثمان معك نراهم صباحًا ومساءً، فكان علي في ذلك أسدّ رأيًا، وأصوب قولًا؛ لأن عليًّا لو تعاطى القود منهم لتعصّبت لهم قبائل، وصارت حربًا ثالثة، فانتظر بهم أن يستوثق الأمر، وتنعقد البيعة العامة، ويقع الطلب من الأولياء في مجلس الحكم، فيجري القضاء بالحق.

ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدّى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة، وكذلك جرى لطلحة والزبير؛ فإنهما ما خلعا عليًّا عن ولاية، ولا اعترضا عليه في ديانة، وإنما رأيا أنّ البداءة بقتل أصحاب عثمان أولى، فبقي هو على رأيه لم يزعزعه عما رأى -وهو كان الصواب- كلامهما، ولا أن يؤثر فيه قولهما.

وكذلك كان كل واحد منهما يثني على صاحبه، ويذكر ما فيه، ويشهد له بالجنة، ويذكر مناقبه؛ ولو كان الأمر على خلاف هذا لتبرأ كل واحد منهما من صاحبه، فلم يكن تقاتُل القوم على دنيا، ولا بغيًا بينهم في العقائد، وإنما كان اختلافًا في اجتهاد؛ فلذلك كان جميعهم في الجنة»[1].

قال القرطبي: «قلت: فهذا قول في سبب الحرب الواقع بينهم. وقال جلة من أهل العلم: إن الوقعة بالبصرة بينهم كانت على غير عزيمة منهم على الحرب بل فجأة، وعلى سبيل دفع كل واحد من الفريقين عن أنفسهم لظنه أن الفريق الآخر قد غدر به؛ لأن الأمر كان قد انتظم بينهم، وتم الصلح والتفرق على الرضا. فخاف قتلة عثمان رضي الله عنه من التمكين منهم والإحاطة بهم، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا، ثم اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فريقين، ويبدؤوا بالحرب سحرة في العسكرين،

(١) أحكام القرآن (٤/ ١٧١٧-١٧١٩).

وتختلف السهام بينهم، ويصيح الفريق الذي في عسكر عليّ: غدر طلحة والزبير، والفريق الذي في عسكر طلحة والزبير: غدر عليّ. فتمّ لهم ذلك على ما دبّروه، ونشبت الحرب، فكان كل فريق دافعًا لمكرته عند نفسه، ومانعًا من الإشاطة بدمه. وهذا صواب من الفريقين وطاعة لله تعالى؛ إذ وقع القتال والامتناع منهما على هذه السبيل، وهذا هو الصحيح المشهور، واللَّه أعلم»[١].

وقال أيضا: «في هذه الآية دليل على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيها على الإمام أو على أحد من المسلمين. وعلى فساد قول من منع من قتال المؤمنين، واحتج بقوله عليه السلام: «**قتال المؤمن كفر**»[٢]. ولو كان قتال المؤمن الباغي كفرًا لكان اللَّه تعالى قد أمر بالكفر، تعالى اللَّه عن ذلك! وقد قاتل الصديق ﷺ من تمسك بالإسلام وامتنع من الزكاة، وأمر ألا يُتبع مولٍّ، ولا يُجهز على جريح، ولم تحل أموالهم، بخلاف الواجب في الكفار. وقال الطبري: لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين الفريقين الهرب منه ولزوم المنازل لما أقيم حد ولا أبطل باطل، ولوجد أهل النفاق والفجور سبيلًا إلى استحلال كل ما حرّم اللَّه عليهم من أموال المسلمين، وسبي نسائهم، وسفك دمائهم، بأن يتحزبوا عليهم، ويكف المسلمون أيديهم عنهم»[٣].

وقال ابن العربي: «أمر اللَّه بالقتال، وهو فرض على الكفاية، إذا قام به البعض سقط عن البعض الباقين؛ ولذلك تخلّف قوم من الصحابة ﷺ عن هذه المقامات، كسعد بن أبي وقاص، وعبد اللَّه بن عمر، ومحمد بن مسلمة. وصوّب ذلك عليّ بن أبي طالب لهم، واعتذر إليه كلّ واحد منهم بعذر قبله منه.

ويروى أن معاوية لما أفضى إليه الأمر عاتب سعدًا على ما فعل، وقال له: لم تكن ممن أصلح بين الفئتين حين اقتتلا، ولا ممن قاتل الفئة الباغية؛ فقال له سعد: ندمتُ على تركي قتال الفئة الباغية. فتبيّن أنه ليس على الكل دَرَك فيما فعل، وإنما كان تصرّفًا بحكم الاجتهاد، وإعمالًا بما اقتضاه الشرع»[٤].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣١٨-٣١٩).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) المصدر السابق (١٦/ ٣١٧).
(٤) أحكام القرآن (٤/ ١٧١٩).

قال شيخ الإسلام: «والإصلاح له طرق: منها: أن تجمع أموال الزكوات وغيرها حتى يدفع في مثل ذلك؛ فإن الغرم لإصلاح ذات البين يبيح لصاحبه أن يأخذ من الزكاة بقدر ما غرم، كما ذكره الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهما؛ كما قال النبي ﷺ لقبيصة بن مخارق: «**إن المسألة لا تحل إلا لثلاثة: لرجل تحمل حمالة فيسأل حتى يجد حمالته، ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فيسأل حتى يجد سدادًا من عيش، ثم يمسك، ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجى من قومه، فيقولون: قد أصابت فلانًا فاقة، فيسأل حتى يجد قوامًا من عيش، وسدادًا من عيش، ثم يمسك، وما سوى ذلك من المسألة فإنه يأكله صاحبه سحتًا**»[١].

ومن طرق الصلح: أن تعفو إحدى الطائفتين أو كلاهما عن بعض ما لها عند الأخرى من الدماء والأموال، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢].

ومن طرق الصلح أن يحكم بينهما بالعدل، فينظر ما أتلفته كل طائفة من الأخرى من النفوس والأموال، فيتقاصان ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ ، وإذا فضل لإحداهما على الأخرى شيء ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾[٣]. فإن كان يجهل عدد القتلى، أو مقدار المال، جعل المجهول كالمعدوم. وإذا ادعت إحداهما على الأخرى بزيادة، فإما أن تحلفها على نفي ذلك، وإما أن تقيم البينة، وإما تمتنع عن اليمين فيقضى برد اليمين أو النكول.

فإن كانت إحدى الطائفتين تبغي بأن تمتنع عن العدل الواجب، ولا تجيب إلى أمر اللّه ورسوله، وتقاتل على ذلك أو تطلب قتال الأخرى وإتلاف النفوس والأموال، كما جرت عادتهم به؛ فإذا لم يقدر على كفها إلا بالقتل قوتلت حتى تفيء إلى أمر الله؛ وإن أمكن أن تلزم بالعدل بدون القتال مثل أن يعاقب بعضهم، أو يحبس، أو يقتل من وجب قتله منهم، ونحو ذلك: عمل ذلك، ولا حاجة إلى القتال»[٤].

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٦٠) ومسلم (٢/ ٧٢٢/ ١٠٤٤) وأبو داود (٢/ ٢٩٠-٢٩١/ ١٦٤٠) والنسائي (٥/ ٩٣-٩٤/ ٢٥٧٨).

(٢) الشورى: الآية (٤٠).

(٣) البقرة: الآية (١٧٨).

(٤) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٨٥-٨٧).

وقال ابن العربي: «وقد قال لسان الأمة: إن حكمة اللَّه في قتال الصحابة التعرّف منهم لأحكام قتال أهل التأويل؛ إذ كانت أحكام قتال التنزيل قد عرفت على لسان الرسول ﷺ وفعله»[١].

قال الشيخ ابن جبرين: «هذا قد لا يقال: إنه خاص بالقتال؛ بل إذا حصل أي خلاف، وخيف أنه يقع منه غير القتال؛ من آثاره كالمقاطعة والتفاجر والتباغض والسباب ونحو ذلك؛ فعلى البقية أن يسعوا في الإصلاح بينهم؛ حتى تزول تلك العداوة، وتلك المقاطعة؛ مثلا إذا حصل بين طائفتين تهاجر بسبب كلام، أو بسبب تهم أو بسبب أموال. هؤلاء يقولون: هاتوا ما أخذتموه بغير حق، والآخرون يقولون: إنها لنا، وإننا أخذناها بحق؛ فيحصل بينهم البغضاء والتقاتل، أو لا يصلون إلى القتال، ولكن يحصل بينهما الهجران؛ أي: التهاجر والتعادي والتقاطع. وقد يكون أيضا بينهم قرابات ورحم؛ ومع ذلك يتقاطعون وهم أقارب فيكون ذلك من الفتن؛ فاللَّه تعالى أمرنا بأن نسعى في الصلح بينهما: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾ هكذا أصلحوا بينهما. والصلح هو السعي في المؤاخاة، وإزالة ما بينهما من العداوة، والحرص على تأليف القلوب فيما بينهم، وجمعها، وإزالة العداوة والشحناء والقطيعة.

هذا من أفضل الأعمال، ذكره اللَّه تعالى؛ قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ﴾[٢] أصلحوا فيما بينكم، إذا رأيتم بعض إخوتكم الذين هم من المؤمنين؛ رأيتموهم قد تقاطعوا فأصلحوا بينهم؛ حتى يتآخوا؛ كذلك قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ﴾[٣] يعني أو سعيا في الصلح بين الناس؛ فإن ذلك مما يحبه اللَّه تعالى، ومما يرغب فيه، ونحو ذلك من الآيات.

أمر اللَّه تعالى في هذه الآيات بالصلح بين المتخاصمين والمتقاتلين، وفي آية أخرى: أمر بالصلح بين الزوجين قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ﴾[٤] يعني: إذا كان

---

(١) أحكام القرآن (٤/ ١٧٢٠).

(٢) الأنفال: الآية (١).

(٣) النساء: الآية (١١٤).

(٤) النساء: الآية (٣٥).

الزوجان يريدان الإصلاح؛ وفق اللَّه تعالى بينهما بواسطة الحكمين؛ كذلك أيضا قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾[1]؛ قرأها بعضهم: «أن يصَّالحا» الصلح خير، فيسعى في الصلح بينهما -بين الزوجين- إذا كان بينهما شيء من العداوة حتى تثبت حالتهما، وحتى يصلح ما بينهما. الصلح خير. فهذا دليل على أن الشرع جاء بالسعي في الصلح.

وجاء في الحديث: قول النبي ﷺ: «**الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالًا**»[2]؛ كأنه يحث على الإصلاح بين المسلمين، وجاء في حديث: «أن النبي ﷺ لم يرخص في شيء مما يقال إنه كذب إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها»[3].

هكذا أخبر بأن الصلح يكون بين المسلمين، وأنهم إذا سعوا في الصلح؛ في الحرب مثلا ولو كان ذلك فيه شيء من الكذب، أو كذلك سعوا في الصلح بين المسلمين يجوز الكذب يجوز للذي يسعى في الصلح أن يقول شيئا يقرب به بينه وبين الآخر؛ فيأتي إلى هؤلاء ويقول لهم: آمركم بالصلح؛ فإن خصومكم قد تنازلوا، وقد أحبوا منكم أن تتنازلوا عن بعض الشيء؛ مع أنهم ما تنازلوا، ثم إذا التزموا وقالوا: نعم، نحن نتنازل عن بعض حقنا، جاء إلى الآخرين ورغبهم وقال: تنازلوا كما تنازل هؤلاء فهذه إقراراتهم قد تنازلوا؛ حتى تصلح القلوب، وحتى تجتمع الأفئدة»[4].

---

(١) النساء: الآية (١٢٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦٦) وأبو داود (٤/ ١٩-٢٠/ ٣٥٩٤) وابن حبان (الإحسان ١١/ ٤٨٨/ ٥٠٩١) والحاكم (٢/ ٥٠) وصححه على شرط الشيخين، وتعقبه الذهبي. قال الشيخ الألباني في الإرواء (٥/ ١٤٥-١٤٦/ ١٣٠٣) بعد أن ذكر طرقا للحديث: «وجملة القول أن الحديث بمجموع هذه الطرق يرتقي إلى درجة الصحيح لغيره».

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٠٣) والبخاري (٥/ ٢٩٩/ ٢٦٩٢) ومسلم (٤/ ٢٠١١/ ٢٦٠٥) وأبو داود (٥/ ٢١٨-٢١٩/ ٤٩٢٠) والترمذي (٤/ ٢٩٢/ ١٩٣٨) والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٥١/ ٩١٢٣) من حديث أم كلثوم بنت عقبة ﵂.

(٤) تفسير سورة الحجرات (ص: ٢٣-٢٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية والأمر بالإصلاح بين الناس وبيان موقف أهل السنة والجماعة من أصحاب رسول اللَّه ﷺ وما وقع بينهم مما أدى إلى القتال

* عن أنس قال: قيل للنبي ﷺ: «**لو أتيت عبد اللَّه بن أبيّ، فانطلق إليه النبي ﷺ** وركب حمارًا، فانطلق المسلمون يمشون معه -وهي أرض سبخة-، فلما أتاه النبي ﷺ قال: إليك عني، واللَّه لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار منهم: واللَّه لحمار رسول اللَّه ﷺ أطيب ريحًا منك، فغضب لعبد اللَّه رجل من قومه فشتمه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهما ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنها أنزلت: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾»[1].

⋆ غريب الحديث:

سبخة: هي بفتح السين والباء، وهي الأرض التي لا تنبت لملوحة أرضها.

نتن حمارك: أي: خبث رائحته، يقال: نَتَنَ نتنًا: خبثت رائحته، فهو نَتِن.

إليك عني: أي: تنحّ عني.

⋆ فوائد الحديث:

قال العيني: «مطابقته للترجمة -أي للآية- من حيث إنه ﷺ خرج إلى موضع فيه عبد اللَّه بن أبيّ بن سلول ليدعوه إلى الإسلام، وكان ذلك في أول قدومه المدينة؛ إذ التبليغ فرض عليه، وكان يرجو أن يسلم من وراءه بإسلامه؛ لرياسته في قومه، وقد كان أهل المدينة عزموا أن يتوّجوه بتاج الإمارة لذلك، وكان خروجه ﷺ في نفس الأمر من أعظم الإصلاح فيهم»[2].

قال الحافظ: «وقد استشكل ابن بطال نزول الآية المذكورة وهي قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ في هذه القصة؛ لأن المخاصمة وقعت بين من كان مع النبي ﷺ من أصحابه وبين أصحاب عبد اللَّه بن أبيّ، وكانوا إذ ذاك كفارًا، فكيف

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٥٧)، والبخاري (٥/ ٣٧٣/ ٢٦٩١) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٤٢٤/ ١٧٩٩).

(٢) عمدة القاري (٩/ ٥٧٤).

ينزل فيهم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولا سيما إن كانت قصة أنس وأسامة متحدة، فإن في رواية أسامة فاستب المسلمون والمشركون. قلت: يمكن أن يحمل على التغليب، مع أن فيها إشكالًا من جهة أخرى وهي أن حديث أسامة صريح في أن ذلك كان قبل وقعة بدر وقبل أن يسلم عبد اللَّه بن أبيّ وأصحابه، والآية المذكورة في (الحجرات) ونزولها متأخر جدًّا وقت مجيء الوفود، لكنه يحتمل أن تكون آية الإصلاح نزلت قديمًا فيندفع الإشكال»[1].

وقال في «الفتح الرباني»: «وأجيب بأن قول أنس: «بلغنا أنها نزلت فيهم» لا يستلزم النزول في ذلك الوقت، ويؤيده أن نزول آية (الحجرات) متأخّر جدًّا، وقال مغلطاي فيما نقله عنه في «المصابيح» وفي تفسير ابن عباس: وأعان ابن أبيّ رجال من قومه وهم مؤمنون، فاقتتلوا، قال: وهذا فيه ما يزيل استشكال ابن بطال، واللَّه أعلم»[2].

وقال القرطبي: «والطائفة التي غضبت لعبد اللَّه كان منها منافقون على رأي عبد اللَّه، ومنها مؤمنون حملهم على ذلك بقية حميّة الجاهلية، ونزغة الشيطان، لكن اللَّه تعالى لطف بهم، حيث أبقى عليهم اسم المؤمنين بقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ليراجعوا بصائرهم، ويطهّروا ضمائرهم»[3].

وقال النووي: «وفي هذا الحديث بيان ما كان عليه النبي ﷺ من الحلم والصفح والصبر على الأذى في اللَّه تعالى، ودوام الدعاء إلى اللَّه تعالى، وتألف قلوبهم، واللَّه أعلم»[4].

* عن سهل بن سعد رضي الله عنه: **«أن ناسًا من بني عمرو بن عوف كان بينهم شيء، فخرج إليهم النبي ﷺ في أناس من أصحابه يصلح بينهم»**[5].

★ غريب الحديث:

كان بينهم شيء: أي: من الخصومة.

---

(١) فتح الباري (٥/ ٣٧٤-٣٧٥).
(٢) الفتح الرباني للساعاتي (١٨/ ٢٨٤).
(٣) المفهم (٣/ ٦٥٨).
(٤) شرح صحيح مسلم (١٢/ ١٣٤).
(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٣٧)، والبخاري (٥/ ٢٩٧/ ٢٦٩٠)، ومسلم (١/ ٣١٦/ ٤٢١)، وأبو داود (١/ ٥٧٨-٥٧٩/ ٩٤٠).

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «فيه فضل الإصلاح بين الناس، ومشي الإمام وغيره في ذلك»[١].

قال ابن بطال: «الإصلاح بين الناس واجب على الأئمة وعلى من ولاّه اللَّه أمور المسلمين، قال المهلب: وإنما يخرج الإمام ليصلح بين الناس إذا أشكل عليهم أمرهم، وتعذر ثبوت الحقيقة عنده فيهم، فحينئذ ينهض إلى الطائفتين، ويسمع من الفريقين، ومن الرجل والمرأة، ومن كافة الناس سماعًا فاشيًا يدله على الحقيقة؛ هذا قول كافة العلماء»[٢].

* عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**»، قلت: يا رسول الله! هذا ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: «**تأخذ فوق يديه**»[٣].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قوله: «**تأخذ فوق يديه**» كنى به عن كفه عن الظلم بالفعل إن لم يكف بالقول، وعبّر بالفوقية إشارة إلى الأخذ بالاستعلاء والقوة»[٤].

قال ابن بطال: «النصرة عند العرب: الإعانة والتأييد، وقد فسّره رسول اللَّه أن نصر الظالم منعه من الظلم؛ لأنه إذا تركته على ظلمه ولم تكفه عنه، أدّاه ذلك إلى أن يُقتص منه، فمنعك له مما يوجب عليه القصاص نصره، وهذا من باب الحكم للشيء وتسميته بما يؤول إليه، وهو من عجيب الفصاحة، ووجيز البلاغة»[٥].

قال القرطبي: «وقوله: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**» هذا من الكلام البليغ الوجيز الذي قل من ينسج على منواله، أو يأتي بمثاله، و(أو) فيه للتنويع والتقسيم. وإنما سمي ردّ الظالم نصرًا لأن نصره هو العون، ومنه قالوا: أرض منصورة، أي:

---

(١) شرح مسلم (٤/ ١٢٢).

(٢) شرح صحيح البخاري (٨/ ٧٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٩٩و٢٠١)، والبخاري (٥/ ١٢٤/ ٢٤٤٣-٢٤٤٤)، والترمذي (٤/ ٤٥٣/ ٢٢٥٥) وقال: «حسن صحيح».

(٤) فتح الباري (٥/ ١٢٤).

(٥) شرح صحيح البخاري (٦/ ٥٧٢).

معانة بالمطر، ومنع الظالم من الظلم عون له على مصلحة نفسه، وعلى الرجوع إلى الحق، فكان أولى بأن يسمى نصرًا»[١].

قال الحافظ: «قال البيهقي: معناه أن الظالم مظلوم في نفسه، فيدخل فيه ردع المرء عن ظلمه لنفسه حسًّا ومعنىً، فلو رأى إنسانًا يريد أن يجبّ نفسه لظنه أن ذلك يزيل الزنى مثلًا منعه من ذلك، وكان ذلك نصرًا له، واتحد في هذه الصورة الظالم والمظلوم»[٢].

قال ابن بطال: «نصر المظلوم فرض واجب على المؤمنين على الكفاية، فمن قام به سقط عن الباقين، ويتعين فرض ذلك على السلطان، ثم على كل من له قدرة على نصرته، إذا لم يكن هناك من ينصره غيره من سلطان وشبهه»[٣].

* عن الأحنف بن قيس قال: ذهبت لأنصر هذا الرجل، فلقيني أبو بكرة فقال: أين تريد؟ قلت: أنصر هذا الرجل، قال: ارجع، فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار**»، فقلت: يا رسول الله! هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**»[٤].

⋆ فوائد الحديث:

قال شيخ الإسلام: «قوله ﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار**» يجب العمل به في تحريم قتال المؤمنين بغير حق، ثم إنا نعلم أن أهل الجمل وصفّين ليسوا في النار؛ لأن لهما عذرًا وتأويلًا في القتال، وحسنات منعت المقتضي أن يعمل عمله»[٥].

قال النووي: «معنى «تواجها»: ضرب كل واحد وجه صاحبه، أي: ذاته وجملته، وأما كون القاتل والمقتول من أهل النار، فمحمول على من لا تأويل له، ويكون قتالهما عصبية ونحوها، ثم كونه في النار معناه مستحق لها، وقد يجازى

---

(١) المفهم (٦/ ٥٥٩). (٢) فتح الباري (٥/ ١٢٤).

(٣) شرح صحيح البخاري (٦/ ٥٧٣).

(٤) أخرجه: البخاري (١/ ٨٤/ ٣١) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٢١٣-٢٢١٤/ ٢٨٨٨).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٦٥-٢٦٦).

بذلك، وقد يعفو اللَّه تعالى عنه، هذا مذهب أهل الحق، وقد سبق تأويله مرات، وعلى هذا يتأول كل ما جاء من نظائره.

واعلم أن الدماء التي جرت بين الصحابة ﭫ ليست بداخلة في هذا الوعيد، ومذهب أهل السنة والحق إحسان الظن بهم، والإمساك عما شجر بينهم، وتأويل قتالهم، وأنهم مجتهدون متأولون لم يقصدوا معصية ولا محض الدنيا، بل اعتقد كل فريق أنه المحق، ومخالفه باغ، فوجب عليه قتاله ليرجع إلى أمر اللَّه، وكان بعضهم مصيبًا وبعضهم مخطئًا معذورًا في الخطأ؛ لأنه لاجتهاد، والمجتهد إذا أخطأ لا إثم عليه، وكان علي ﭬ هو المحق المصيب في تلك الحروب، هذا مذهب أهل السنة، وكانت القضايا مشتبهة حتى إن جماعة من الصحابة تحيروا فيها فاعتزلوا الطائفتين ولم يقاتلوا، ولم يتيقنوا الصواب، ثم تأخروا عن مساعدته منهم»[1].

وقال: «وقد اختلف العلماء في قتال الفتنة، فقالت طائفة: لا يقاتل في فتن المسلمين وإن دخلوا عليه بيته وطلبوا قتله، فلا يجوز له المدافعة عن نفسه؛ لأن الطالب متأول. وهذا مذهب أبي بكرة الصحابي ﭬ وغيره، وقال ابن عمر وعمران بن الحصين ﭫ وغيرهما: لا يدخل فيها؛ لكن إن قُصِدَ دَفَعَ عن نفسه، فهذان المذهبان متفقان على ترك الدخول في جميع فتن الإسلام.

وقال معظم الصحابة والتابعين وعامة علماء الإسلام: يجب نصر المحق في الفتن والقيام معه بمقاتلة الباغين؛ كما قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبۡغِى﴾ الآية، وهذا هو الصحيح، وتتأول الأحاديث على من لم يظهر له المحق، أو على طائفتين ظالمتين لا تأويل لواحدة منهما، ولو كان كما قال الأولون لظهر الفساد واستطال أهل البغي والمبطلون، واللَّه أعلم»[2].

قال الطحاوي: «ونحب أصحاب رسول اللَّه ﷺ، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان.

---

(١) شرح مسلم (١٨/ ٩-١٠).

(٢) شرح مسلم (١٨/ ٨-٩).

قال ابن أبي العز: «يشير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى الرد على الروافض والنواصب، وقد أثنى اللَّه تعالى على الصحابة هو ورسوله، ورضي عنهم، ووعدهم الحسنى»[(١)].

وذكر شيخ الإسلام أن من أصول أهل السنة والجماعة أنهم "يتبرؤون من طريق الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، ومن طريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل، ويمسكون عما شجر بين الصحابة، ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب، ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغُيّر عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون، إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون.

وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره؛ بل تجوز عليهم الذنوب في الجملة، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر، حتى إنه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم؛ لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم؛ وقد ثبت بقول رسول اللَّه ﷺ: «**إنهم خير القرون**»[(٢)]، و«**إن المد من أحدهم إذا تصدق به، كان أفضل من جبل أحد ذهبًا ممن بعدهم**»[(٣)].

ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب، فيكون قد تاب منه، أو أتى بحسنات تمحوه، أو غفر له بفضل سابقته، أو بشفاعة محمد ﷺ الذي هم أحق الناس بشفاعته، أو ابتلي ببلاء في الدنيا كفر به عنه. فإذا كان هذا في الذنوب المحققة، فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين: إن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطؤوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور لهم؟

ثم القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغمور في جنب فضائل القوم

---

(١) شرح الطحاوية (ص: ٤٦٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٢٧) والبخاري (٥/ ٣٢٤/ ٢٦٥١) ومسلم (٤/ ١٩٦٤/ ٢٥٣٥) وأبو داود (٥/ ٤٤/ ٤٦٥٧) والترمذي (٤/ ٤٣٤/ ٢٢٢٢) والنسائي (٧/ ٢٣-٢٤/ ٣٨١٨) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما. وبلفظ: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم..» الحديث.

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١١) والبخاري (٧/ ٢٤/ ٣٦٧٣) ومسلم (٤/ ١٩٦٧-١٩٦٨/ ٢٥٤١) وأبو داود (٥/ ٤٥/ ٤٦٥٨) والترمذي (٥/ ٦٥٣/ ٣٨٦١) والنسائي في الكبرى (٥/ ٨٤/ ٨٣٠٨) وابن ماجه (١/ ٥٧/ ١٦١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وبلفظ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

ومحاسنهم، من الإيمان باللَّه ورسوله، والجهاد في سبيله، والهجرة، والنصرة، والعلم النافع، والعمل الصالح.

ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة، وما منّ اللَّه به عليهم من الفضائل، علم يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم هم الصفوة من قرون هذه الأمة، التي هي خير الأمم، وأكرمها على اللَّه تعالى»(١).

* عن أبي بكرة أن النبي ﷺ قال في الحسن بن علي: **«إن ابني هذا سيد، ولعل اللَّه أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»**(٢).

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «قال المهلب: قوله عليه السلام: **«إن ابني هذا سيد» يدل أن السيادة إنما يستحقها من انتفع به الناس؛ لأنه علق السيادة بالإصلاح بين الناس ونفعهم، هذا معنى السيادة»**(٣).

قلت: وبذلك يعلم الفضل الذي حوته هذه الآية للمصلح بين الناس وفي الحديث الصحيح **«خير الناس أنفعهم للناس»**(٤).

قال ابن العربي: «إن اللَّه سبحانه أمر بالصلح قبل القتال، وعين القتال عند البغي؛ فعل عليّ بمقتضى حاله؛ فإنه قاتل الباغية التي أرادت الاستبداد على الإمام، ونقض ما رأى من الاجتهاد والتحيّز عن دار النبوة ومقر الخلافة بفئة تطلب ما ليس لها طلبه إلا بشرطه، من حضور مجلس الحكم والقيام بالحجة على الخصم؛ ولو فعلوا ذلك ولم يقد عليّ منهم ما احتاجوا إلى مجاذبة؛ فإن الكافة كانت تخلعه، واللَّه قد حفظه من ذلك وصانه.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٤-١٥٦). وانظر شرح العقيدة الواسطية لهرّاس (ص: ٢٥٠)، ولابن عثيمين (٢/ ٢٤٧)، (٢/ ٢٨٢-٢٩٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٧-٣٨)، والبخاري (٥/ ٣٨٤/ ٢٧٠٤) واللفظ له، وأبو داود (٥/ ٤٨-٤٩/ ٤٦٦٢)، والترمذي (٥/ ٦١٦/ ٣٧٧٣) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٣/ ١١٨-١١٩/ ١٤٠٩).

(٣) شرح صحيح البخاري (٨/ ٩٥).

(٤) أخرجه: الطبراني في الكبير (١٢/ ٤٥٣/ ١٣٦٤٦) من حديث ابن عمر ﷺ. وسنده ضعيف كما بينه الشيخ الألباني في الصحيحة (٢/ ٥٧٤-٥٧٥/ ٩٠٦). وقد أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «قضاء الحوائج» (رقم٣٦)، قال فيه الشيخ الألباني: «وهذا إسناد حسن».

وعمل الحسن ﷺ بمقتضى حاله، فإنه صالح حين استشرى الأمر عليه، وكان ذلك بأسباب سماوية، ومقادير أزلية، ومواعيد من الصادق صادقة، ومنها ما رأى مِن تشتت آراء من معه، ومنها أنه طعن حين خرج إلى معاوية فسقط عن فرسه وداوى جرحه حتى برئ؛ فعلم أن عنده من ينافق عليه ولا يأمنه على نفسه.

ومنها أنه رأى الخوارج أحاطوا بأطرافه، وعلم أنه إن اشتغل بحرب معاوية استولى الخوارج على البلاد، وإن اشتغل بالخوارج استولى عليها معاوية.

ومنها أنه تذكر وعد جده الصادق عند كل أحد ﷺ في قوله: **«إن ابني هذا لسيد، ولعل اللَّه أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»**، وإنه لما سار الحسن إلى معاوية بالكتاب في أربعين ألفًا، وقدم قيس بن سعد بعشرة آلاف، قال عمرو بن العاص لمعاوية: إني أرى كتيبة لا تولي أولاها حتى تدبر أخراها، فقال معاوية لعمرو: من لي بذراري من المسلمين، فقال: أنا، فقال: عبد اللَّه بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة: تَلْقاه فتقول له: الصلح؛ فصالحه، فنفذ الوعد الصادق في قوله: **«إن ابني هذا سيد، ولعل اللَّه أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»**»[1].

قال الحافظ: «وفيه منقبة للحسن بن علي؛ فإنه ترك الملك لا لقلة، ولا لذلة، ولا لعلة، بل لرغبته فيما عند اللَّه لما رآه من حقن دماء المسلمين، فراعى أمر الدين ومصلحة الأمة.

وفيه فضيلة الإصلاح بين الناس، ولاسيما في حقن دماء المسلمين.

وفيه جواز خلع الخليفة نفسه إذا رأى في ذلك صلاحًا للمسلمين، والنزول عن الوظائف الدينية والدنيوية بالمال، وجواز أخذ المال على ذلك، وإعطائه بعد استيفاء شرائطه بأن يكون المنزول له أولى من النازل، وأن يكون المبذول من مال الباذل. فإن كان في ولاية عامة، وكان المبذول من بيت المال، اشترط أن تكون المصلحة في ذلك عامة، أشار إلى ذلك ابن بطال، قال: يشترط أن يكون لكل من الباذل والمبذول له سبب في الولاية يستند إليه، وعقد من الأمور يعول عليه»[2].

---

(١) أحكام القرآن (٤/ ١٧١٩-١٧٢٠).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٨٣) بتصرف.

قال شيخ الإسلام: «أثنى النبي ﷺ على الحسن بهذا الصلح الذي كان على يديه، وسمّاه سيّدًا بذلك؛ لأجل أن ما فعله الحسن يحبه اللَّه ورسوله، ويرضاه اللَّه ورسوله. ولو كان الاقتتال الذي حصل بين المسلمين هو الذي أمر اللَّه به ورسوله لم يكن الأمر كذلك؛ بل يكون الحسن قد ترك الواجب، أو الأحب إلى اللَّه. وهذا النص الصحيح الصريح يبين أن ما فعله الحسن محمود، مرضي لله ورسوله، وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ كان يضعه على فخذه، ويضع أسامة بن زيد، ويقول: «**اللهم إني أحبهما، وأحب من يحبهما**»[(١)]، وهذا أيضًا مما ظهر فيه محبته ودعوته ﷺ؛ فإنهما كانا أشد الناس رغبة في الأمر الذي مدح النبي ﷺ به الحسن، وأشد الناس كراهة لما يخالفه.

وهذا مما يبين أن القتلى من أهل صفّين لم يكونوا عند النبي ﷺ بمنزلة الخوارج المارقين، الذين أمر بقتالهم، وهؤلاء مدح الصلح بينهم ولم يأمر بقتالهم؛ ولهذا كانت الصحابة والأئمة متفقين على قتال الخوارج المارقين، وظهر من علي رضي الله عنه السرور بقتالهم؛ ومن روايته عن النبي ﷺ الأمر بقتالهم: ما قد ظهر عنه. وأما قتال الصحابة فلم يرو عن النبي ﷺ فيه أثر، ولم يظهر فيه سرور؛ بل ظهر منه الكآبة، وتمنى أن لا يقع، وشكر بعض الصحابة، وبرأ الفريقين من الكفر والنفاق، وأجاز الترحم على قتلى الطائفتين، وأمثال ذلك من الأمور التي يعرف بها اتفاق علي وغيره من الصحابة على أن كل واحدة من الطائفتين مؤمنة.

وقد شهد القرآن بأن اقتتال المؤمنين لا يخرجهم عن الإيمان بقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾، فسمّاهم مؤمنين، وجعلهم إخوة مع وجود الاقتتال والبغي.

والحديث المذكور: «إذا اقتتل خليفتان فأحدهما ملعون» كذب مفترى، لم يروه أحد من أهل العلم بالحديث، ولا هو في شيء من دواوين الإسلام المعتمدة.

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢١٠) والبخاري (١٠/ ٥٣٢/ ٦٠٠٣) لكن بلفظ: «**أرحمهما**» بدل «**أحبهما**»، والنسائي في الكبرى (٥/ ٥٠/ ٨١٧١).

ومعاوية لم يدع الخلافة، ولم يبايع له بها حين قاتل عليًّا، ولم يقاتل على أنه خليفة، ولا أنه يستحق الخلافة، ويقرون له بذلك، وقد كان معاوية يقر بذلك لمن سأله عنه، ولا كان معاوية وأصحابه يرون أن يبتدوا عليًّا وأصحابه بالقتال، ولا يعلوا.

بل لما رأى علي رضي الله عنه وأصحابه أنه يجب عليهم طاعته ومبايعته؛ إذ لا يكون للمسلمين إلا خليفة واحد، وأنهم خارجون عن طاعته يمتنعون عن هذا الواجب، وهم أهل شوكة رأى أن يقاتلهم حتى يؤدوا هذا الواجب، فتحصل الطاعة والجماعة.

وهم قالوا: إن ذلك لا يجب عليهم، وإنهم إذا قوتلوا على ذلك كانوا مظلومين قالوا: لأن عثمان قتل مظلومًا باتفاق المسلمين، وقتلته في عسكر علي، وهم غالبون لهم شوكة، فإذا امتنعنا ظلمونا واعتدوا علينا. وعلي لا يمكنه دفعهم، كما لم يمكنه الدفع عن عثمان؛ وإنما علينا أن نبايع خليفة يقدر على أن ينصفنا ويبذل لنا الإنصاف.

وكان في جهال الفريقين من يظن بعلي وعثمان ظنونًا كاذبة، برأ اللَّه منها عليًّا، وعثمان؛ كان يظن بعلي أنه أمر بقتل عثمان، وكان علي يحلف وهو البار الصادق بلا يمين أنه لم يقتله، ولا رضي بقتله، ولم يمالئ على قتله. وهذا معلوم بلا ريب من علي رضي الله عنه. فكان أناس من محبي عليّ ومن مبغضيه يشيعون ذلك عنه: فمحبوه يقصدون بذلك الطعن على عثمان بأنه كان يستحق القتل، وأن عليًّا أمر بقتله، ومبغضوه يقصدون بذلك الطعن على عليّ، وأنه أعان على قتل الخليفة المظلوم الشهيد، الذي صبر نفسه ولم يدفع عنها، ولم يسفك دم مسلم في الدفع عنه، فكيف في طلب طاعته؟! وأمثال هذه الأمور التي يتسبب بها الزائغون على المتشيعين العثمانية، والعلوية.

وكل فرقة من المتشيعين مقرة مع ذلك بأنه ليس معاوية كفؤًا لعلي بالخلافة، ولا يجوز أن يكون خليفة مع إمكان استخلاف عليّ رضي الله عنه؛ فإن فضل عليّ وسابقيته، وعلمه، ودينه، وشجاعته، وسائر فضائله كانت عندهم ظاهرة معروفة، كفضل إخوانه أبي بكر، وعمر، وعثمان، وغيرهم رضي الله عنهم، ولم يكن بقي من أهل الشورى غيره وغير سعد، وسعد كان قد ترك هذا الأمر. وكان الأمر قد انحصر في عثمان

وعليّ؛ فلما توفي عثمان لم يبق لها معين إلا علي رضي الله عنه؛ وإنما وقع الشر بسبب قتل عثمان، فحصل بذلك قوة أهل الظلم والعدوان وضعف أهل العلم والإيمان، حتى حصل من الفرقة والاختلاف ما صار يطاع فيه من غيره أولى منه بالطاعة؛ ولهذا أمر اللَّه بالجماعة والائتلاف، ونهى عن الفرقة والاختلاف؛ ولهذا قيل: ما يكرهون في الجماعة خير مما يجمعون من الفرقة.

وأما الحديث الذي فيه: «**إن عمّارًا تقتله الفئة الباغية**»[1]، فهذا الحديث قد طعن فيه طائفة من أهل العلم؛ لكن رواه مسلم في صحيحه، وهو في بعض نسخ البخاري: قد تأوله بعضهم على أن المراد بالباغية الطالبة بدم عثمان، كما قالوا: نبغي ابن عفان بأطراف الأسل. وليس بشيء؛ بل يقال ما قاله رسول اللَّه ﷺ، فهو حق كما قاله، وليس في كون عمار تقتله الفئة الباغية ما ينافي ما ذكرناه؛ فإنه قد قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ﴾، فقد جعلهم مع وجود الاقتتال والبغي مؤمنين إخوة؛ بل مع أمره بقتال الفئة الباغية جعلهم مؤمنين، وليس كل ما كان بغيًا وظلمًا أو عدوانًا يخرج عموم الناس عن الإيمان، ولا يوجب لعنتهم؛ فكيف يخرج ذلك من كان من خير القرون؟!

وكل من كان باغيًا، أو ظالمًا، أو معتديًا، أو مرتكبًا ما هو ذنب، فهو قسمان: متأول، وغير متأول. فالمتأول المجتهد: كأهل العلم والدين، الذين اجتهدوا، واعتقد بعضهم حل أمور، واعتقد الآخر تحريمها، كما استحل بعضهم بعض أنواع الأشربة، وبعضهم بعض المعاملات الربوية، وبعضهم بعض عقود التحليل والمتعة، وأمثال ذلك، فقد جرى ذلك وأمثاله من خيار السلف. فهؤلاء المتأولون المجتهدون غايتهم أنهم مخطئون، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾[2]، وقد ثبت في الصحيح أن اللَّه استجاب هذا الدعاء[3].

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) البقرة: الآية (٢٨٦).
(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٤١٢) ومسلم (١/ ١١٥-١١٦/ ١٢٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد أخبر سبحانه عن داود وسليمان ﷺ أنهما حكما في الحرث، وخص أحدهما بالعلم والحكم، مع ثنائه على كل منهما بالعلم والحكم. والعلماء ورثة الأنبياء، فإذا فهم أحدهم من المسألة ما لم يفهمه الآخر لم يكن بذلك ملومًا ولا مانعًا لما عرف من علمه ودينه، وإن كان ذلك مع العلم بالحكم يكون إثمًا وظلمًا، والإصرار عليه فسقًا، بل متى علم تحريمه ضرورة كان تحليله كفرًا. فالبغي هو من هذا الباب.

أما إذا كان الباغي مجتهدًا ومتأوّلًا، ولم يتبين له أنه باغ، بل اعتقد أنه على الحق وإن كان مخطئًا في اعتقاده: لم تكن تسميته باغيًا موجبة لإثمه، فضلًا عن أن توجب فسقه. والذين يقولون بقتال البغاة المتأولين؛ يقولون: مع الأمر بقتالهم قتالنا لهم لدفع ضرر بغيهم، لا عقوبة لهم؛ بل للمنع من العدوان. ويقولون: إنهم باقون على العدالة، لا يفسقون. ويقولون: هم كغير المكلف، كما يمنع الصبي والمجنون والناسي والمغمى عليه والنائم من العدوان أن لا يصدر منهم؛ بل تمنع البهائم من العدوان. ويجب على من قتل مؤمنًا خطأ الدية بنص القرآن مع أنه لا إثم عليه في ذلك، وهكذا من رفع إلى الإمام من أهل الحدود وتاب بعد القدرة عليه فأقام عليه الحد، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، والباغي المتأول يجلد عند مالك والشافعي وأحمد ونظائره متعددة.

ثم بتقدير أن يكون البغي بغير تأويل: يكون ذنبًا، والذنوب تزول عقوبتها بأسباب متعددة: بالحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، وغير ذلك.

ثم «**إن عمّارًا تقتله الفئة الباغية**» ليس نصًا في أن هذا اللفظ لمعاوية وأصحابه؛ بل يمكن أنه أريد به تلك العصابة التي حملت عليه حتى قتلته، وهي طائفة من العسكر، ومن رضي بقتل عمّار كان حكمه حكمها. ومن المعلوم أنه كان في العسكر من لم يرض بقتل عمّار: كعبد اللّٰه بن عمرو بن العاص، وغيره؛ بل كل الناس كانوا منكرين لقتل عمار، حتى معاوية، وعمرو.

ويروى أن معاوية تأول أن الذي قتله هو الذي جاء به؛ دون مقاتليه: وأن عليًّا رد هذا التأويل بقوله: فنحن إذًا قتلنا حمزة. ولا ريب أن ما قاله علي هو الصواب؛ لكن

من نظر في كلام المتناظرين من العلماء الذين ليس بينهم قتال ولا ملك، وأن لهم في النصوص من التأويلات ما هو أضعف من معاوية بكثير. ومن تأول هذا التأويل لم ير أنه قتل عمّارًا، فلم يعتقد أنه باغ، ومن لم يعتقد أنه باغ وهو في نفس الأمر باغ: فهو متأول مخطئ.

والفقهاء ليس فيهم من رأيه القتال مع من قتل عمّارًا؛ لكن لهم قولان مشهوران كما كان عليهما أكابر الصحابة: منهم من يرى القتال مع عمار وطائفته، ومنهم من يرى الإمساك عن القتال مطلقًا. وفي كل من الطائفتين طوائف من السابقين الأولين. ففي القول الأول عمار، وسهل بن حنيف، وأبو أيوب. وفي الثاني سعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة، وأسامة بن زيد، وعبد اللَّه بن عمر ونحوهم. ولعل أكثر الأكابر من الصحابة كانوا على هذا الرأي، ولم يكن في العسكرين بعد عليّ أفضل من سعد بن أبي وقاص، وكان من القاعدين.

وحديث عمار قد يحتج به من رأى القتال؛ لأنه إذا كان قاتلوه بغاة فاللَّه يقول: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبۡغِى﴾. والمتمسكون يحتجون بالأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ في أن القعود عن الفتنة خير من القتال فيها[١]، وتقول: إن هذا القتال ونحوه هو قتال الفتنة؛ كما جاءت أحاديث صحيحة تبين ذلك، وأن النبي ﷺ لم يأمر بالقتال؛ ولم يرض به؛ وإنما رضي بالصلح؛ وإنما أمر اللَّه بقتال الباغي؛ ولم يأمر بقتاله ابتداءً؛ بل قال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبۡغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝﴾، قالوا: والاقتتال الأول لم يأمر اللَّه به؛ ولا أمر كل من بغي عليه أن يقاتل من بغى عليه؛ فإنه إذا قتل كل باغ كفر؛ بل غالب المؤمنين؛ بل غالب الناس لا يخلو من ظلم وبغي؛ ولكن إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين فالواجب الإصلاح بينهما؛ وإن لم تكن واحدة منهما مأمورة بالقتال، فإذا بغت الواحدة بعد ذلك قوتلت؛ لأنها لم تترك القتال، ولم تجب إلى الصلح، فلم يندفع شرها إلا بالقتال. فصار قتالها بمنزلة قتال الصائل الذي لا يندفع ظلمه عن غيره

(١) منها ما أخرجه: أحمد (١/ ١٨٥) وأبو داود (٤/ ٤٥٦/ ٤٢٥٧) والترمذي (٤/ ٤٢١-٤٢٢/ ٢١٩٤) وقال: «هذا حديث حسن» والحاكم (٤/ ٤٤١) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، كلهم من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ بلفظ: «إنها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم..» الحديث.

إلا بالقتال، كما قال النبي ﷺ: «**من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون حرمته فهو شهيد**»[١]. قالوا: فبتقدير أن جميع العسكر بغاة فلم نؤمر بقتالهم ابتداءً؛ بل أمرنا بالإصلاح بينهم. وأيضًا، فلا يجوز قتالهم إذا كان الذين معهم ناكلين عن القتال فإنهم كانوا كثيري الخلاف عليه ضعيفي الطاعة له»[٢].

وقال ابن بطال: «وقوله: «**بين فئتين من المسلمين**» يدل أن قتال المسلم للمسلمين لا يخرجه من الإسلام إذا كان على تأويل، ويفسر قوله ﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار**»[٣] يريد إن أنفذ اللَّه عليهما الوعيد. وذكر أهل الأخبار أنه لما قتل علي بن أبي طالب بايع أهل الكوفة الحسن بن علي، وبايع أهل الشام معاوية، فسار معاوية بأهل الشام يريد الكوفة، وسار الحسن بأهل العراقين، فالتقيا بمنزل من أرض الكوفة، فنظر الحسن إلى كثرة من معه من أهل العراق، فنادى: يا معاوية، إني قد اخترت ما عند اللَّه، فإن يكن هذا الأمر لك فما ينبغي لي أن أنازعك عليه، وإن يكن لي فقد جعلته لك. فكبر أصحاب معاوية، وقال المغيرة بن شعبة عند ذلك: أشهد أني سمعت النبي ﷺ يقول للحسن: «**إن ابني هذا سيّد سيصلح اللَّه به بين فئتين من المسلمين**»[٤]، فجزاك اللَّه عن المسلمين خيرًا.

وقال الحسن: اتق اللَّه يا معاوية على أمة محمد، لا تفنيهم بالسيف على طلب الدنيا وغرور فانية زائلة، فسلم الحسن الأمر إلى معاوية وصالحه وبايعه على السمع والطاعة على إقامة كتاب اللَّه وسنة نبيه، ثم دخلا الكوفة، فأخذ معاوية البيعة لنفسه على أهل العراقين، فكانت تلك السنة سنة الجماعة؛ لاجتماع الناس واتفاقهم وانقطاع الحرب. وبايع معاوية كلٌّ من كان معتزلًا عنه، وبايعه سعد بن أبي وقاص

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٣) والبخاري (٥/ ١٥٥/ ٢٤٨٠) ومسلم (١/ ١٢٤-١٢٥/ ١٤١) وأبو داود (٥/ ١٢٨/ ٤٧٧٢) والترمذي (٤/ ٢١/ ١٤١٩) والنسائي (٧/ ١٣٠-١٣١/ ٤٠٩٥) من حديث عبد اللَّه بن عمرو ﷺ.

(٢) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٧٠-٧٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٣) والبخاري (١٥/ ١١٥/ ٣١) ومسلم (٤/ ٢٢١٣-٢٢١٤/ ٢٨٨٨) وأبو داود (٤/ ٤٦٢/ ٤٢٦٨) والنسائي (٧/ ١٤٢/ ٤١٣٣) من حديث أبي بكرة ﷺ.

(٤) تقدم تخريجه.

وعبد اللَّه بن عمر ومحمد بن مسلمة، وتباشر الناس بذلك، وأجاز معاوية الحسن بن علي بثلاثمائة ألف وألف ثوب وثلاثين عبدًا ومائة جمل، وانصرف الحسن بن علي إلى المدينة، وولى معاوية الكوفة المغيرة بن شعبة، وولى البصرة عبد اللَّه بن عامر، وانصرف إلى دمشق واتخذها دار مملكته»(١).

* عن أبي هريرة قال: «بينما نحن عند رسول اللَّه ﷺ إذ قام رجل من الأعراب فقال: يا رسول الله! اقض لي بكتاب اللَّه، فقام خصمه فقال: صدق يا رسول الله! اقض له بكتاب اللَّه وأذن لي، فقال له النبي ﷺ: قل. فقال: إن ابني كان عسيفًا على هذا -والعسيف الأجير- فزنى بامرأته، فأخبروني أن على ابني الرجم، فافتديت منه بمائة من الغنم ووليدة، ثم سألت أهل العلم، فأخبروني أن على امرأته الرجم، وإنما على ابني جلد مائة وتغريب عام، فقال: **والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب اللَّه، أما الوليدة والغنم فردوها، وأما ابنك فعليه جلد مائة وتغريب عام، وأما أنت يا أنيس** -لرجل من أسلم- **فاغد على امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها**، فغدا عليها أنيس فاعترفت، فرجمها»(٢).

★ **غريب الحديث:**

عسيفًا: العسيف، بمهملتين: الأجير، وزنه ومعناه، والجمع: عُسَفاء، كأُجَراء، ويطلق أيضًا على الخادم وعلى العبد وعلى السائل، وقيل: يطلق على من يستهان به.. وسمي الأجير عسيفًا لأن المستأجر يعسفه في العمل، والعسف: الجور، أو هو بمعنى الفاعل؛ لكونه يعسف الأرض بالتردد فيها، يقال: عسف الليل عسفًا: إذا أكثر السير فيه. ويطلق العسف أيضًا على الكفاية، والأجير يكفي المستأجر الأمر الذي أقامه فيه.

فافتديت: الفداء، بالكسر والمد والفتح مع القصر: فكاك الأسير، يقال: فداه يفديه فداءً وفدىً، وفاداه يفاديه مفاداة: إذا أعطى فداءه وأنقذه، وفدّاه بنفسه

---

(١) شرح صحيح البخاري (٨/ ٩٦-٩٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١١٥-١١٦)، والبخاري (١٣/ ٢٣٣/ ٧٢٦٠)، ومسلم (٣/ ١٣٢٤/ ١٦٩٧)، وأبو داود (٤/ ٥٩١/ ٤٤٤٥)، والترمذي (٤/ ٣٠/ ١٤٣٣) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٨/ ٦٣٢-٦٣٣/ ٥٤٢٥-٥٤٢٦)، وابن ماجه (٢/ ٨٥٢/ ٢٥٤٩).

وفداه: إذا قال له: جعلتُ فداك، والفدية: الفداء.

وليدة: الوليد: المولود حين يولد، والأنثى: وليدة، والجمع: ولدان وولائد. قال في «النهاية»: وتطلق الوليدة على الجارية والأمة وإن كانت كبيرة.

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «وفي هذا الحديث أبواب من الفقه، فمنها: أن كل صلح خالف السنة فهو باطل ومردود، ومنعه الشافعي»[١].

قال ابن بطال: «ولم يجز هذا الصلح لاشتراء حدود اللَّه ببعض عرض الدنيا، وحدود اللَّه لا تسقط ولا تباع ولا تشترى، وأجمع العلماء على أنه لا يجوز الصلح المنعقد على غير السنة، وأنه منتقض، ألا ترى أنه ردّ الغنم والوليدة، وألزم ابنه من الحد ما ألزمه الله؟»[٢].

قال العيني: «وفيه أن الحدود التي هي محض لحق اللَّه لا يصلح فيها»[٣].

قال النووي: «وفي هذا أن الصلح الفاسد يرد، وأن أخذ المال فيه باطل يجب رده»[٤].

* * *

---

(١) المفهم (٥/ ١٠٥).

(٢) شرح صحيح البخاري (٨/ ٨٦).

(٣) عمدة القاري (٩/ ٥٨٥).

(٤) شرح صحيح مسلم (١١/ ١٧٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ﴾ يقول تعالى ذكره: واعدلوا أيها المؤمنون في حكمكم بين من حكمتم بينهم بأن لا تتجاوزوا في أحكامكم حكم اللَّه وحكم رسوله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ يقول: إن اللَّه يحب العادلين في أحكامهم، القاضين بين خلقه بالقسط»[1].

وقال ابن كثير: «أي: اعدلوا بينهم فيما كان أصاب بعضهم لبعض بالقسط، وهو العدل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة العدل

* عن ابن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**إن المقسطين عند اللَّه على منابر من نور عن يمين الرحمن ﷻ، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا**»[3].

★ **غريب الحديث:**

المقسطين: قال النووي: المقسطون هم العادلون، وقد فسره في آخر الحديث، والإقساط والقسط، بكسر القاف: العدل؛ يقال: أقسط إقساطًا، فهو مقسط: إذا عدل؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، ويقال: قسَط يَقسِط، بفتح الياء وكسر السين، قسوطًا وقَسطًا، بفتح القاف، فهو قاسط وهم قاسطون: إذا جاروا؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾[4].

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٣٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٥٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٥٩-١٦٠)، ومسلم (٣/ ١٤٥٨/ ١٨٢٧) واللفظ له، والنسائي (٨/ ٦١٢-٦١٣/ ٥٣٩٤).

(٤) الجن: الآية (١٥).

على منابر: قال النووي: المنابر: جمع منبر؛ سمي به لارتفاعه. قال القاضي: يحتمل أن يكونوا على منابر حقيقة على ظاهر الحديث، ويحتمل أن يكون كناية عن المنازل الرفيعة. قلت: الظاهر الأول، ويكون متضمنًا للمنازل الرفيعة، فهم على منابر حقيقة، ومنازلهم رفيعة.

وَلُوا: بفتح الواو وضم اللام المخففة، أي: كانت لهم عليه ولاية.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «معناه أن هذا الفضل إنما هو لمن عدل فيما تقلده من خلافة، أو فمعناه أن هذا الفضل إنما هو لمن عدل فيما تقلده من خلافة أو إمارة أو قضاء أو حسبة أو نظر على يتيم أو صدقة أو وقف، وفيما يلزمه من حقوق أهله وعياله ونحو ذلك، والله أعلم»[١].

* * *

(١) شرح مسلم (١٢/ ١٧٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لأهل الإيمان به: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ في الدين ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ إذا اقتتلا بأن تحملوهما على حكم اللَّه وحكم رسوله. ومعنى الأخوين في هذا الموضع: كل مقتتلين من أهل الإيمان..

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: وخافوا اللَّه أيها الناس بأداء فرائضه عليكم في الإصلاح بين المقتتلين من أهل الإيمان بالعدل، وفي غير ذلك من فرائضه، واجتناب معاصيه، ليرحمكم ربكم، فيصفح لكم عن سالف إجرامكم إذا أنتم أطعتموه، واتبعتم أمره ونهيه، واتقيتموه بطاعته»[(١)].

وقال أيضًا: «في هذه الآية والتي قبلها دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان؛ لأن اللَّه تعالى سمّاهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين»[(٢)].

قال ابن عاشور: «هذه الآية فيها دلالة قوية على تقرر وجوب الأخوة بين المسلمين؛ لأن شأن (إنما) أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحته أو لما يُنزّل منزلة ذلك.. فلذلك كان قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ مفيد أن معنى الأخوة بينهم معلوم مقرر. وقد تقرر ذلك في تضاعيف كلام اللَّه تعالى وكلام رسوله ﷺ»[(٣)].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا عقد عقده اللَّه بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أي شخص كان في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له ما يكرهون لأنفسهم، ولهذا قال النبي ﷺ آمرًا بحقوق الأخوة

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٣٠). (٢) المصدر السابق (١٦/ ٣٢٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٤٣-٢٤٤).

الإيمانية: «**لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا يبع أحدكم على بيع بعض، وكونوا عباد اللَّه إخوانًا المؤمن أخو المؤمن، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره**»[١]. وقال ﷺ: «**المؤمن للمؤمن، كالبنيان يشد بعضه بعضًا**» وشبك ﷺ بين أصابعه[٢].

ولقد أمر اللَّه ورسوله بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض، وبما به يحصل التآلف والتوادد والتواصل بينهم، كل هذا تأييد لحقوق بعضهم على بعض، فمن ذلك، إذا وقع الاقتتال بينهم، الموجب لتفرق القلوب وتباغضها وتدابرها، فليصلح المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شنآنهم.

ثم أمر بالتقوى عمومًا، ورتب على القيام بحقوق المؤمنين وبتقوى اللَّه، الرحمة، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وإذا حصلت الرحمة، حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك، على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين، من أعظم حواجب الرحمة.

وفي هاتين الآيتين من الفوائد، غير ما تقدم: أن الاقتتال بين المؤمنين مناف للأخوة الإيمانية، ولهذا كان من أكبر الكبائر، وأن الإيمان والأخوة الإيمانية لا تزول مع وجود القتال كغيره من الذنوب الكبار التي دون الشرك، وعلى ذلك مذهب أهل السنة والجماعة، وعلى وجوب الإصلاح بين المؤمنين بالعدل، وعلى وجوب قتال البغاة حتى يرجعوا إلى أمر اللَّه، وعلى أنهم لو رجعوا لغير أمر اللَّه، بأن رجعوا على وجه لا يجوز الإقرار عليه والتزامه، أنه لا يجوز ذلك، وأن أموالهم معصومة؛ لأن اللَّه أباح دماءهم وقت استمرارهم على بغيهم خاصة، دون أموالهم»[٣].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾أي: في الدين والحرمة لا في النسب، ولهذا قيل: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب؛ فإن أخوة النسب

(١) سيأتي تخريجه تحت: الآية (١٢) من هذه السورة.

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٠٥) والبخاري (٥/ ١٢٥/ ٢٤٤٦) ومسلم (٤/ ١٩٩٩/ ٢٥٨٥) والترمذي (٤/ ٢٨٧/ ١٩٢٨) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٣٣-١٣٥).

تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب»[١].

وقال الشنقيطي: «هذه الأخوة التي أثبت اللَّه -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة للمؤمنين بعضهم لبعض هي أخوة الدين، لا النسب.

وقد بيّن تعالى أن الأخوة تكون في الدين في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[٢] الآية»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان بعض حقوق الأخوّة الإيمانية

* عن ابن عمر أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان اللَّه في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج اللَّه عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره اللَّه يوم القيامة**»[٤].

★ غريب الحديث:

لا يسلمه: يقال: أسلم فلان فلانًا: إذا ألقاه إلى الهلكة ولم يحمه من عدوه، وهو عامّ في كل من أسلمته إلى شيء، لكن دخله التخصيص، وغلب عليه الإلقاء في الهلكة.

كُربة: غمة، والكرب هو الغم الذي يأخذ النفس. وكُرُبات، بضم الراء: جمع كربة، ويجوز فتح كربات وسكونها.

المسلم أخو المسلم: هذه أخوة الإسلام؛ فإن كل اتفاق بين شيئين يطلق بينهما اسم الأخوة، ويشترك في ذلك الحر والعبد والبالغ والمميز.

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «قوله ﷺ: «**المسلم أخو المسلم**» من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وقوله: «**لا يظلمه ولا يُسلمه**» فإن اللَّه قد حرم قليل الظلم وكثيره.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٢٢-٣٢٣).

(٢) الأحزاب: الآية (٥).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٦٢٨-٦٢٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٩١)، والبخاري (٥/ ١٢٢-١٢٣/ ٢٤٤٢) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٩٩٦/ ٢٥٨٠)، وأبو داود (٥/ ٢٠٢/ ٤٨٩٣)، والترمذي (٤/ ٢٦/ ١٤٢٦) وقال: «حسن صحيح غريب».

وقوله: «**لا يُسلمه**» مثل قوله ﷺ: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**» وباقي الحديث حض على التعاون، وحسن التعاشر، والألفة، والستر على المؤمن، وترك التسمع به، والإشهاد لذنوبه، وقد قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[(١)] وهذا حديث شريف يحتوي على كثير من آداب الإسلام، وفيه أن المجازاة قد تكون في الآخرة من جنس الطاعة في الدنيا»[(٢)].

قال الحافظ: «قوله: «**لا يظلمه**» هو خبر بمعنى الأمر؛ فإن ظلم المسلم للمسلم حرام، وقوله: «**لا يسلمه**» أي: لا يتركه مع من يؤذيه ولا فيما يؤذيه، بل ينصره ويدفع عنه، وهذا أخص من ترك الظلم، وقد يكون ذلك واجبًا، وقد يكون مندوبًا بحسب اختلاف الأحوال.

قال: وفي الحديث حث على التعاون وحسن المعاشرة والألفة»[(٣)].

ومن مقتضى الأخوة «أن يستر عورته، ويغفر زلته، ويرحم عبرته، ويقيل عثرته، ويقبل معذرته، ويرد غيبته، ويديم نصيحته، ويحفظ خلته، ويرعى ذمته، ويجيب دعوته، ويقبل هديته، ويكافئ صلته، ويشكر نعمته، ويحسن نصرته، ويقضي حاجته، ويشفع مسألته، ويشمت عطسته، ويرد ضالته، ويواليه، ولا يعاديه، وينصره على ظالمه، ويكفه عن ظلمه غيره، ولا يسلمه، ولا يخذله، ويحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه»[(٤)].

* عن أبي الدرداء قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك: ولك بمثل**»[(٥)].

★ غريب الحديث:

بظهر الغيب: معناه: في غيبة المدعوّ له وفي سره؛ لأنه أبلغ في الإخلاص.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «في هذا فضل الدعاء لأخيه المسلم بظهر الغيب، ولو دعا

---

(١) المائدة: الآية (٢).

(٢) شرح صحيح البخاري (٦/ ٥٧١-٥٧٢).

(٣) فتح الباري (٥/ ١٢٣).

(٤) الآداب الشرعية (١/ ٣٠٥).

(٥) أخرجه: مسلم (٤/ ٢٠٩٤/ ٢٧٣٢)، وأبو داود (٢/ ١٨٦/ ١٥٣٤).

لجماعة من المسلمين حصلت هذه الفضيلة، ولو دعا لجملة المسلمين فالظاهر حصولها أيضًا، وكان بعض السلف إذا أراد أن يدعو لنفسه يدعو لأخيه المسلم بتلك الدعوة؛ لأنها تستجاب ويحصل له مثلها»[١].

وقال القرطبي: «المسلم هنا هو الذي سلم المسلمون من لسانه ويده، الذي يحب للناس ما يحب لنفسه؛ لأن هذا هو الذي يحمله حاله وشفقته على أخيه المسلم، أن يدعو له بظهر الغيب، أي: في حال غيبته عنه، وإنما خص حالة الغيبة بالذكر لبعدها عن الرياء، والأغراض المفسدة أو المنقصة؛ فإنه في حال الغيبة يتمحّض الإخلاص، ويصح قصد وجه اللَّه تعالى بذلك، فيوافقه الملك في الدعاء، ويبشره على لسان رسوله ﷺ بأن له مثل ما دعا به لأخيه. والأخوة هي الأخوة الدينية، وقد تكون معها صداقة ومعرفة، وقد لا يكون، وقد يتعين وقد لا يتعين؛ فإن الإنسان إذا دعا لإخوانه المسلمين حيث كانوا، وصدق اللَّه في دعائه، وأخلص فيه في حال الغيبة عنهم أو عن بعضهم، قال الملك له ذلك القول، بل قد يكون ثوابه أعظم؛ لأنه دعا بالخير، وقصده للإسلام ولكل المسلمين، واللَّه تعالى أعلم»[٢].

* * *

---

(١) شرح مسلم (١٧/ ٤١).

(٢) المفهم (٧/ ٦١-٦٢).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «لما اقتضت الأخوة أن تَحْسُن المعاملة بين الأخوين كان ما تقرر من إيجاب معاملة الإخوة بين المسلمين يقتضي حسن المعاملة بين آحادهم، فجاءت هذه الآيات منبهة على أمور من حسن المعاملة قد تقع الغفلة عن مراعاتها لكثرة تفشّيها في الجاهلية لهذه المناسبة، وهذا نداء رابع أريد بما بَعده أمرُ المسلمين بواجب بعض المجاملة بين أفرادهم.

وعن الضحاك: أن المقصود بنو تميم إذ سخروا من بلال وعَمار وصهيب، فيكون لنزول الآية سبب متعلق بالسبب الذي نزلت السورة لأجله وهذا من السخرية المنهي عنها.

وروى الواحدي عن ابن عباس أن سبب نزولها: «أن ثابت بن قيس بن شمَّاس كان في سمعه وَقْر وكان إذا أتى مجلس النبي ﷺ يقول: أوسِعوا له ليجلس إلى جنبه فيسمع ما يقول فجاء يومًا يتخطى رقاب الناس فقال رجل: قد أصبتَ مجلسًا فاجلِس. فقال ثابت: مَنْ هذا؟ فقال الرجل: أنا فلان. فقال ثابت: ابنُ فلانة وذكر أمًّا له كان يُعيّر بها في الجاهلية، فاستحيا الرجل. فأنزل اللَّه هذه الآية»[2]، فهذا من اللمز. وروي عن عكرمة: «**أنها نزلت لما عَيّرت بعض أزواج النبي ﷺ** أمَّ سلمة بالقِصَر»، وهذا من السخرية. وقيل: عير بعضهن صفية بأنها يهودية، وهذا من اللمز في عرفهم.

وافتتحت هذه الآيات بإعادة النداء للاهتمام بالغرض فيكون مستقلًا غير تابع حسبما تقدم من كلام الفخر. وقد تعرضت الآيات الواقعة عقب هذا النداء لصنف

---

(١) الحجرات: الآية (١١).

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص٤٠٩) بدون إسناد.

مُهمّ من معاملة المسلمين بعضهم لبعض مما فشا في الناس من عهد الجاهلية التساهلُ فيها. وهي من إساءة الأقوال ويقتضي النهي عنها الأمر بأضدادها. وتلك المنهيات هي السخرية واللمز والنبز»[١].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: «يا أيها الذين صدقوا اللَّه ورسوله، لا يهزأ قوم مؤمنون من قوم مؤمنين ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ يقول: المهزوء منهم خير من الهازئين، ﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ يقول: ولا يهزأ نساء مؤمنات من نساء مؤمنات، عسى المهزوء منهنّ أن يكنّ خيرًا من الهازئات.

واختلف أهل التأويل في السخرية التي نهى اللَّه عنها المؤمنين في هذه الآية، فقال بعضهم: هي سخرية الغني من الفقير، نُهي أن يسخر من الفقير لفقره..

وقال آخرون: بل ذلك نهي من اللَّه من ستر عليه من أهل الإيمان أن يسخر ممن كشف في الدنيا ستره..

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن اللَّه عمّ بنهيه المؤمنين عن أن يسخر بعضهم من بعض جميع معاني السخرية، فلا يحلّ لمؤمن أن يسخر من مؤمن لا لفقره، ولا لذنب ركبه، ولا لغير ذلك»[٢].

وقال ابن كثير: «ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**الكبر بَطَر الحق وغمص الناس**»، ويروى: «**وغمط الناس**»، والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام؛ فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرًا عند اللَّه وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له، ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾، فنص على نهي الرجال وعطف بنهي النساء»[٣].

وقال السعدي: «وهذا أيضًا من حقوق المؤمنين، بعضهم على بعض، أن ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ بكل كلام، وقول، وفعل دال على تحقير الأخ المسلم، فإن ذلك حرام لا يجوز، وهو دال على إعجاب الساخر بنفسه، وعسى أن يكون

---

(١) التحرير والتنوير(١٤/ ٢٢) (٢) جامع البيان (٢٦/ ١٣٠-١٣١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٥٦).

المسخور به خيرًا من الساخر، كما هو الغالب والواقع، فإن السخرية لا تقع إلا من قلب ممتلئ من مساوئ الأخلاق، متحلّ بكل خلق ذميم، ولهذا قال النبي ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»»[١].

قال القاسمي: «وقد ذكر الغزالي أن من آفات اللسان السخرية والاستهزاء، قال: «وهو محرم؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾. ومعنى السخرية: الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه. وقد يكون ذلك بالمحاكاة في القول والفعل، وقد يكون بالإشارة والإيماء. ومرجع ذلك إلى استحقار الغير، والضحك عليه، والاستهانة به، والاستصغار له. وعليه نبه قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا﴾ أي: لا تستحقره استصغارًا، فلعله خير منك. وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به، فأما من جعل نفسه مسخرة، وربما فرح من أن سخر به، كانت السخرية في حقه من جملة المزاح، وقد سبق ما يذم منه وما يمدح، وإنما المحرَّم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة كالضحك على حفظه وعلى صنعته أو على صورته وخلقته لعيب فيه، فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهي عنها»[٢].

وقال القرطبي: «وبالجملة فينبغي ألا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رثّ الحال أو ذا عاهة في بدنه أو غير لبيق في محادثته، فلعله أخلص ضميرًا وأنقى قلبًا ممن هو على ضد صفته، فيظلم نفسه بتحقير من وقره اللَّه، والاستهزاء بمن عظمه اللَّه.

ولقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شرحبيل: لو رأيت رجلًا يرضع عنزًا فضحكت منه لخشيت أن أصنع مثل الذي صنع. وعن عبد اللَّه بن مسعود: البلاء موكّل بالقول، لو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلبًا»[٣].

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٣٥).
(٢) موعظة المؤمنين للقاسمي (ص: ٢٩٢-٢٩٣).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٢٥).

قال الشنقيطي: «قد نهى اللَّه -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة عن السخرية من الناس، مبينًا أن المسخور منه قد يكون خيرًا من الساخر.

ومن أقبح القبيح استخفاف الدنيء الأرذل بالأكرم الأفضل، واستهزاؤه به.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي عن السخرية جاء ذم فاعله وعقوبته عند اللَّه في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[1].

وقد بين تعالى أن الكفار المترفين في الدنيا كانوا يسخرون من ضعاف المؤمنين في دار الدنيا، وأن أولئك يسخرون من الكفار يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾[3].

فلا ينبغي لمن رأى مسلمًا في حالة رثة تظهر بها عليه آثار الفقر والضعف أن يسخر منه لهذه الآيات التي ذكرنا»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي عن السخرية والاحتقار والاستهزاء

* عن عبد اللَّه بن زمعة قال: نهى النبي ﷺ أن يضحك الرجل مما يخرج من الأنفس، وقال: «**بم يضرب أحدكم امرأته ضرب الفحل، ثم لعله يعانقها**». وقال الثوري ووهيب وأبو معاوية عن هشام: «**جلد العبد**»[5].

---

(١) التوبة: الآية (٧٩).

(٢) البقرة: الآية (٢١٢).

(٣) المطففين: الآيات (٢٩-٣٦).

(٤) أضواء البيان (٧/ ٦٢٩-٦٣٠).

(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ١٧)، والبخاري (١٠/ ٥٦٨/ ٦٠٤٢) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢١٩١/ ٢٨٥٥)، والترمذي (٥/ ٤١٠/ ٣٣٤٣)، والنسائي في الكبرى (٨/ ٢٦٣/ ٩١٢١)، وأخرجه ابن ماجه (١/ ٦٣٨/ ١٩٨٣) دون ذكر موطن الشاهد.

★ **غريب الحديث:**

مما يخرج من الأنفس: أي: من الضراط.

ضرب الفحل: يريد فحل الإبل إذا علا ناقة دونه أو فوقه في الكرم والنجابة، فإنهم يضربونه على ذلك ويمنعونه عنه.

جلد العبد: أي: مثل جلد العبد.

★ **فوائد الحديث:**

قال العيني: «المناسبة بين الحديث والآية الكريمة هي أن ضحك الرجل مما يخرج من الأنفس في معنى الاستهزاء والسخرية»[١].

قال ابن بطال: «قال أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾: لا يطعن بعضكم على بعض، وقال: لا يستهزئ قوم بقوم ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ عند اللّه، ومن هذا المعنى نهيه عليه السلام أن يضحك مما يخرج من الأنفس: الأحداث الناقضة للوضوء؛ لأن اللّه تعالى سوّى بين خلقه الأنبياء وغيرهم في ذلك، فقال تعالى في مريم وعيسى -عليهما السلام-: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾[٢] كناية عن الغائط، ومن المحال أن يضحك أحد من غيره أو يعيره بما أتى هو مثله ولا ينفك منه.

وقد حرم اللّه تعالى عرض المؤمن كما حرم دمه وماله، فلا يحل الهزء والسخرة بأحد، وأصل هذا إعجاب المرء بنفسه وازدراء غيره، وكان يقال: من العجب أن ترى لنفسك الفضل على الناس وتمقتهم ولا تمقت نفسك»[٣].

وقال القرطبي: «نهاهم وزجرهم عن ذلك؛ لأنه فعل عادي يستوي فيه الناس كلهم، وإن كان مما يستقبح فحق الإنسان أن يستتر به، فإن غلبه بحيث يسمعه أحد فلا يضحك منه، فإنه يتأذى الفاعل بذلك ويخجل منه، وأذى المسلم حرام، فالضحك من الضرطة حرام»[٤].

---

(١) عمدة القاري (١٥/ ١٩٩).

(٢) المائدة: الآية (٧٥).

(٣) شرح صحيح البخاري (٩/ ٢٣٩).

(٤) المفهم (٧/ ٤٣٠).

قال النووي: «فيه النهي عن الضحك من الضرطة يسمعها من غيره، بل ينبغي أن يتغافل عنها ويستمر على حديثه واشتغاله بما كان فيه من غير التفات ولا غيره، ويظهر أنه لم يسمع»[١].

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ بمنى: «**أتدرون أي يوم هذا؟**» قالوا: اللَّه ورسوله أعلم، قال: «**فإن هذا يوم حرام، أتدرون أي بلد هذا؟**» قالوا: اللَّه ورسوله أعلم، قال: «**بلد حرام، أتدرون أي شهر هذا؟**» قالوا: اللَّه ورسوله أعلم، قال: **شهر حرام**، قال: «**فإن اللَّه حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا**»[٢].

★ غريب الحديث:

أي يوم هذا: اليوم هو يوم منى، والبلد هو مكة، والشهر هو ذو الحجة، وهو من الأشهر الحرم.

أعراضكم: جمع عرض بكسر العين المهملة وهو موضع المدح والذم من الإنسان، وإنما قدم تذكارا للحرمة لأنهم لا يرون استباحة تلك الأشياء وانتهاك حرمتها بحال.

★ فوائد الحديث:

قال العيني: «وجه المناسبة بينه وبين الآية المذكورة من حيث إن فيه حرمة العرض التي تتضمنها الآية الكريمة أيضًا على ما لا يخفى على الفطن»[٣].

قوله: «**إن دماءكم وأموالكم..**» «كل هذا تأكيد لحرمة الدماء والأموال والأعراض، وتحريم لمظالم العباد، كتأكيد حرمة يوم النحر، من شهر الحج في حرم مكة»[٤].

---

(١) شرح مسلم (١٧/ ١٥٥).

(٢) أخرجه: البخاري (١٠/ ٥٦٨/ ٦٠٣٤). وأخرجه: أحمد (٢/ ٨٥-٨٧)، ومسلم (١/ ٨٢/ ٦٦)، وأبو داود (٥/ ٦٣/ ٤٦٨٢)، والنسائي (٧/ ١٤٣/ ٤١٣٦)، وابن ماجه (٢/ ١٣٠٠/ ٣٩٣٤) مختصرًا مقتصرين على قوله ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**».

(٣) عمدة القاري (١٥/ ٢٠٠).

(٤) الإكمال (٥/ ٤٨٣).

قال القرطبي: «هذا منه ﷺ مبالغة في بيان تحريم هذه الأشياء، وإغياء في التنفير عن الوقوع فيها؛ لأنهم كانوا قد اعتادوا فعلها، واعتقدوا حليتها»[١].

وقال النووي: «المراد بهذا كله بيان توكيد غلظ تحريم الأموال والدماء والأعراض، والتحذير من ذلك»[٢].

* عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**» قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، قال: «**إن اللّٰه جميل يحب الجمال؛ الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[٣].

تقدم الكلام عليه في سورة (البقرة) الآية (٣٤).

* * *

---

(١) المفهم (٥/ ٤٧).

(٢) شرح مسلم (١١/ ١٤١).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٩٩)، ومسلم (١/ ٩٣/ ٩١)، وأبو داود (٤/ ٣٥٢/ ٤٠٩٢)، والترمذي (٤/ ٣١٧-٣١٨/ ١٩٩٩) وقال: «حسن صحيح غريب»، وأخرجه: ابن ماجه (٢/ ١٣٩٧/ ٤١٧٣) مختصرًا.

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾[١]

* غريب الآية :

تلمزوا : تعيبوا .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الآلوسي : «وهذا غير النهي السابق وإن كان كل منهما مخصوصًا بالمؤمنين بناء على أن السخرية احتقار الشخص مطلقًا على وجه مضحك بحضرته ، واللمز التنبيه على معايبه سواء كان على مضحك أم لا ، وسواء كان بحضرته أم لا كما قيل في تفسيره ، وجعل عطفه عليه من قبيل عطف العام على الخاص لإفادة الشمول كشارب الخمر وكل فاسق مذموم ، ولا يتم إلا إذا كان التنبيه المذكور احتقارًا ، ومنهم من يقول ؛ السخرية الاحتقار واللمز التنبيه على المعايب أو تتبعها والعطف من قبيل عطف العلة على المعلول وقيل : اللمز مخصوص بما كان من السخرية على وجه الخفية كالإشارة ، فهو من قبيل عطف الخاص على العام لجعل الخاص كجنس آخر مبالغة»[٢] .

قال ابن جرير : «وقوله : ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ يقول تعالى ذكره : ولا يغتب بعضكم بعضًا أيها المؤمنون ، ولا يطعن بعضكم على بعض ؛ وقال : ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ فجعل اللاّمز أخاه لامزًا نفسه ؛ لأن المؤمنين كرجل واحد فيما يلزم بعضهم لبعض من تحسين أمره ، وطلب صلاحه ، ومحبته الخير . . وهذا نظير قوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾[٣] بمعنى : ولا يقتل بعضكم بعضًا»[٤] .

وقال ابن كثير : «وقوله : ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي : لا تلمزوا الناس . والهمّاز : اللّماز من الرجال مذموم ملعون ، كما قال تعالى : ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ

(١) الحجرات : الآية (١١).
(٢) روح المعاني (١٩/ ٢٧٧).
(٣) النساء : الآية (٢٩).
(٤) جامع البيان (٢٦/ ١٣١).

﴿لُمَزَةٍ﴾[١]، فالهمز بالفعل واللمز بالقول، كما قال: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾[٢] أي: يحتقر الناس ويهمزهم طاعنًا عليهم، ويمشي بينهم بالنميمة وهي: اللمز بالمقال؛ ولهذا قال ههنا: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾، كما قال: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ أي: لا يقتل بعضكم بعضًا»[٣].

وقال القرطبي: «وفي قوله: ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾ تنبيه على أن العاقل لا يعيب نفسه، فلا ينبغي أن يعيب غيره؛ لأنه كنفسه؛ قال ﷺ: **«المؤمنون كجسد واحد، إن اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى»**. وقال بكر بن عبد اللَّه المزني: إذا أردت أن تنظر العيوب جمّة فتأمّل عيّابًا؛ فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب. . وقيل: من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره. قال الشاعر:

المرء إن كان عاقلًا ورعًا ... أشغله عن عيوبه ورعُهْ
كما السقيم المريض يشغله ... عن وجع الناس كلهم وجعه

وقال آخر:

لا تكشفن مساوي الناس ما ستروا ... فيهتك اللَّه سترًا عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذُكروا ... ولا تعب أحدًا منهم بما فيكا»[٤].

وقال شيخ الإسلام: «سمى اللَّه الأخ المؤمن نفسًا لأخيه في غير موضع من الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾[٥]، وقال: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾[٦]، وقال: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾[٧] وقال: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾[٨]، وقال: ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾[٩]»[١٠].

وقال الشنقيطي: «قد أوعد اللَّه -جل وعلا- الذين يلمزون الناس في قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾، والهمزة كثير الهمز للناس، واللمزة كثير اللمز.

---

(١) الهمزة: الآية (١).
(٢) القلم: الآية (١١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٥٦).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٢٧-٣٢٨).
(٥) النجم: الآية (٣٢).
(٦) التوبة: الآية (١٢٨).
(٧) آل عمران: الآية (١٦٤).
(٨) النور: الآية (٦١).
(٩) البقرة: الآية (٥٤).
(١٠) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٨٨).

قال بعض العلماء: الهمز يكون بالفعل، كالغمز بالعين احتقارًا وازدراءً، واللمز باللسان، وتدخل فيه الغيبة.

وقد صرح اللَّه تعالى بالنهي عن ذلك في قوله: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾، ونفر عنه غاية التنفير في قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[١]، فيجب على المسلم أن يتباعد كل التباعد من الوقوع في عرض أخيه»[٢].

وقال الرازي: «قال في الدرجة العالية التي هي نهاية المنكر ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ كسرًا له وبغضًا لنكره، وقال في المرتبة الثانية ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ جعلهم كأنفسهم لما نزلوا درجة رفعهم اللَّه درجة وفي الأول جعل المسخور منه خيرًا، وفي الثاني جعل المسخور منه مثلًا»[٣].

وقال البقاعي: «ولما كانت السخرية تتضمن العيب، ولا يصرح فيها، وكان اللمز العيب نفسه، رقي الأمر إليه فقال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ﴾ أي تعيبوا على وجه الخفية ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ بأن يعيب بعضكم بعضًا بإشارة أو نحوها، فكيف إذا كان على وجه الظهور، فإنكم في التواصل والتراحم كنفس واحدة، أو يعمل الإنسان ما يعاب به، فيكون قد لمز نفسه أو يلمز غيره فيكون لمزه له سببًا لأن يبحث عن عيوبه فيلمزه فيكون هو الذي لمز نفسه»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان صفات وأخلاق المؤمنين فيما بينهم

* عن النعمان بن بشير قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادّهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[٥].

---

(١) الحجرات: الآية (١٢).

(٢) أضواء البيان (٧/ ٦٣٠).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/ ١٨٦).

(٤) نظم الدرر (٨/ ١٥٩).

(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٠٤)، والبخاري (١٠/ ٥٣٧/ ٦٠١١)، ومسلم (٤/ ١٩٩٩/ ٢٥٨٦).

★ **فوائد الحديث:**

قد تقدم الكلام على فوائده وغريبه عند قوله تعالى من سورة (الفتح): ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ الآية (٢٩).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾[1]

* غريب الآية:

تَنَابَزُوا: التَّنابُزُ: التَّعايُرُ، والتَّداعِي بالأَلْقابِ. ويقال نبزه ينبزه نبزا بالفتح والسكون: لقبه، وخص عرفا بما يكرهه الشخص من الألقاب

اللقب: اللقب اسم يسمى به الإنسان سوى اسمه الأول ويراعى فيه المعنى بخلاف العلم، ولذلك قال الشاعر:

وقلما أبصرت عيناك ذا لقب إلا ومعناه إن فتشت في لقبه

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قوله: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ يقول: ولا تداعوا بالألقاب؛ والنبز واللقب بمعنى واحد، يُجمَع النبز: أنبازًا، واللقب: ألقابًا.

واختلف أهل التأويل في الألقاب التي نهى اللَّه عن التنابز بها في هذه الآية، فقال بعضهم: عنى بها الألقاب التي يكره النبز بها الملقَّب، وقالوا: إنما نزلت هذه الآية في قوم كانت لهم أسماء في الجاهلية، فلما أسلموا نهوا أن يدعو بعضهم بعضًا بما يكره من أسمائه التي كان يدعى بها في الجاهلية. .

وقال آخرون: بل ذلك قول الرجل المسلم للرجل المسلم: يا فاسق، يا زاني. .

وقال آخرون: بل ذلك تسمية الرجل الرجل بالكفر بعد الإسلام، وبالفسوق والأعمال القبيحة بعد التوبة. .

والذي هو أولى الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن اللَّه تعالى ذكره نهى المؤمنين أن يتنابزوا بالألقاب؛ والتنابز بالألقاب: هو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة، وعمّ اللَّه بنهيه ذلك، ولم يخصص به بعض الألقاب

(١) الحجرات: الآية (١١).

دون بعض، فغير جائز لأحد من المسلمين أن ينبز أخاه باسم يكرهه، أو صفة يكرهها. وإذا كان ذلك كذلك صحت الأقوال التي قالها أهل التأويل في ذلك التي ذكرناها كلها، ولم يكن بعض ذلك أولى بالصواب من بعض؛ لأن كلّ ذلك مما نهى اللَّه المسلمين أن ينبز بعضهم بعضًا»[(١)].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي: لا تتداعوا بالألقاب، وهي التي يسوء الشخص سماعها»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية والنهي عن التنابز بالألقاب

* عن أبي جبيرة بن الضحاك قال: «**فينا نزلت هذه الآية في بني سلمة**: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ قال: قدم علينا رسول اللَّه ﷺ وليس منا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فجعل النبي ﷺ يقول: يا فلان! فيقولون: مَهْ يا رسول اللَّه، إنه يغضب من هذا الاسم، فأنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾»[(٣)].

★ غريب الحديث:

مَهْ: كلمة بنيت على السكون، وهو اسم سمي به الفعل، ومعناه: اكفف؛ لأنه زجر. فإن وصلت نوّنت وقلت: مَهٍ مَه.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «اتفق العلماء على تحريم تلقيب الإنسان بما يكره، سواء كان له

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٣٢-١٣٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٥٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٨٠)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٣٣٠)، وأبو داود (٥/ ٢٤٦/ ٤٩٦٢)، والترمذي (٥/ ٣٦٢/ ٣٢٦٨) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٢٣١-١٢٣٢/ ٣٧٤١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٦٦/ ١١٥١٦)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٣/ ١٦/ ٥٧٠٩) من طريق شيخه أبي يعلى، فقالا: الضحاك بن أبي جبيرة، وهو مقلوب، والصواب: أبو جبيرة بن الضحاك، كما نبه على ذلك ابن حجر في «الإصابة».

صفة؛ كالأعمش، والأجلح، والأعمى، والأعرج، والأحول، والأبرص، والأشج، والأصفر، والأحدب، والأصمّ، والأزرق، والأفطس، والأشتر، والأثرم، والأقطع، والزمن، والمقعد، والأشلّ، أو كان صفة لأبيه، أو لأمه، أو غير ذلك مما يكره.

واتفقوا على جواز ذكره بذلك على جهة التعريف لمن لا يعرفه إلا بذلك»[١].

وقال ابن العربي: «وقع من ذلك مستثنى من غلب عليه الاستعمال، كالأعرج والأحدب، ولم يكن له فيه كسب يجد في نفسه منه عليه، فجوّزته الأمّة، فاتفق على قوله أهل الملة. وقد ورد -لعَمْرُ الله- من ذلك في كتبهم ما لا أرضاه، كقوله في صالح: جَزَرة؛ لأنه صحف «زجره» فلُقّب بها، وكذلك قوله في محمد بن سليمان الحضرمي: مُطَيّن؛ لأنه وقع في طين، ونحو ذلك مما غلب على المتأخرين.

ولا أراه سائغًا في الدين، وقد كان موسى بن عُلَيّ بن رباح المصري يقول: لا أجعل أحدًا صغّر اسم أبي في حِلّ. وكان الغالب على اسم أبيه التصغير بضمّ العين. والذي يضبط هذا كله ما قدمناه من الكراهة لأجل الإذاية، والله أعلم»[٢].

قال القرطبي: «وعلى هذا المعنى ترجم البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «كتاب الأدب» من الجامع الصحيح، في (باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم: الطويل والقصير، لا يراد به شَين الرجل)، قال: وقال النبي ﷺ: «**ما يقول ذو اليدين؟**»[٣]»[٤].

قال الحافظ: «هذه الترجمة معقودة لبيان حكم الألقاب، وما لا يعجب الرجل أن يوصف به مما هو فيه، وحاصله أن اللقب إن كان مما يعجب الملقب ولا إطراء فيه مما يدخل فيه نهي الشرع فهو جائز أو مستحب، وإن كان مما لا يعجبه فهو حرام أو مكروه، إلا إن تعين طريقًا إلى التعريف به حيث يشتهر به ولا يتميز عن غيره إلا بذكره، ومن ثم أكثر الرواة من ذكر الأعمش والأعرج ونحوهما وعارم وغندر

---

(١) صحيح الأذكار (٢/ ٧٢١).

(٢) أحكام القرآن (٤/ ١٧٢٣-١٧٢٤).

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٢/ ٢٣٤-٢٣٥)، والبخاري (١/ ٧٤٤/ ٤٨٢)، ومسلم (١/ ٤٠٣/ ٥٧٣)، وأبو داود (١/ ٦١٢-٦١٤/ ١٠٠٨)، والترمذي (٢/ ٢٤٧-٢٤٨/ ٣٩٩)، والنسائي (٣/ ٢٤-٢٥/ ١٢٢٣)، وابن ماجه (١/ ٣٨٣/ ١٢١٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٢٩).

وغيرهم»[١].

قال ابن بطال: «قال الطبري: وقد رأى قوم من السلف أن وصف الرجل غيره بما فيه من الصفة غيبة له، قال شعبة: سمعت معاوية بن قرة يقول: لو مرّ بك أقطع، فقلت: ذاك الأقطع، كانت منك غيبة. وعن الحسن: ألا تخافون أن يكون قولنا: (حميد الطويل) غيبة؟. وكان قتادة يكره أن يقال: كعب الأحبار، وسلمان الفارسي، ولكن كعب المسلم، وسلمان المسلم. وروى سليمان الشيباني عن حسان بن المخارق أن امرأة دخلت على عائشة، فلما قامت لتخرج أشارت عائشة بيدها إلى النبي ﷺ أنها قصيرة، فقال النبي ﷺ: «**اغتبتها**»[٢] وروى موسى بن وردان عن أبي هريرة أن رجلًا قام عند النبي فرأوا في قيامه عجزًا، فقالوا: يا رسول الله! ما أعجز فلانًا، قال رسول الله: «**أكلتم أخاكم واغتبتموه**»[٣].

قال الطبري: وإنما يكون ذلك غيبة من قائله إذا قاله على وجه الذم والعيب للمقول فيه وهو له كاره، وعن مثل هذا ورد النهي، وأما إذا قاله على وجه التعريف والتمييز له من سائر الناس، كقولهم: يزيد الرشك، وحميد الأرقط، والأحنف بن قيس، والنسبة إلى الأمهات كإسماعيل بن علية، وابن عائشة، فإن ذلك بعيد من معنى الغيبة ومن مكروه ما ورد به الخبر.

قال ابن بطال: ويشهد لصحة هذا قصة ذي اليدين، ويبين أن معنى النهي عن التنابز بالألقاب في الآية أن يراد به عيب الرجل وتنقصه»[٤].

قال الحافظ: «وهذا كله إذا كان الملقَّب يكره اللقب، فأما إن كان يحبه، ويوجب له المدح، فهو جائز بشرط الأمن من الإطراء في ذلك.

وقد لقَّب رسول اللَّه ﷺ جماعة من أصحابه منهم: خالد بن الوليد: سيف اللَّه، وأبو عبيدة بن الجرّاح: أمين هذه الأمة، وأبو بكر: بالصّدّيق، وعمر: بالفاروق، وعثمان: بذي النورين، وحمزة: بأسد اللَّه، وجعفر: بذي الجناحين، وسمى

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٥٧٤).

(٢) سيأتي تخريجه بمعناه تحت: الآية (١٢) من هذه السورة.

(٣) أخرجه العقيلي (١/ ٣٠٩) في ترجمة حماد بن أبي حميد وقال بعد أن ساق له حديثين: «لا يتابع عليها».

(٤) شرح صحيح البخاري (٩/ ٢٤٢).

قبيلتي الأوس والخزرج: الأنصار، فغلب عليهم، وعلى حلفائهم.

وكان الحسن البصري يسمّي محمد بن واسع: زين القرّاء. وسفيان الثوري يدعو المعافى بن عمران: ياقوتة العلماء. وابن المبارك يلقب محمد بن يوسف الأصبهاني: عروس الزهّاد. وأشرف من اشتهر باللقب الجميل: إبراهيم الخليل، وموسى الكليم، وعيسى المسيح»[1].

وقال أيضًا: «من لُقِّب بما يكرهه لم يجز أن يدعى به إلا عند قصد التعريف به، ليتميز من غيره بغير قصد ذم، قال أبو حاتم الرازي: حدثنا عبدة بن عبد الرحيم، سألت عبد اللَّه بن المبارك عن الرجل يقول: حميد الطويل، وحميد الأعرج، فقال: إذا أراد صفته ولم يرد عيبه فلا بأس.

وقال الأثرم: سمعت أحمد سئل عن الرجل يُعرف بلقبه، قال: إذا لم يُعرف إلا به جاز، ثم قال: الأعمش إنما يعرفه الناس بهذا، فسهّل في مثله إذا اشتهر به.

وسئل عبد الرحمن بن مهدي: هل فيه غيبة لأهل العلم؟ قال: لا، وربما سمعت شعبة يقول ليحيى بن سعيد: يا أحول! ما تقول في كذا؟

قلت: هذا لا يدل على جواز دعاء من به عاهة بذلك وأحسن أحوال هذا أن يقال: لعله كان يرى جوازه إذا رضي من به ذلك.

ومتى لم يكن التعريف بعين اللقب فهو أولى بل إذا أمكن بغيره وهو يكره ذلك حرم، وسلك الشافعي مسلكًا حسنًا، فكان يقول: أخبرني إسماعيل الذي يقال له: ابن عُليّة، فجمع بين التعريف والتبري من التلقيب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى»[2].

قال الهيثمي: «وقدمت السخرية؛ لأنها أبلغ الثلاثة في الأذية لاستدعائها تنقيص المرء في حضرته. ثم اللمز لأنه العيب بما في الإنسان، وهذا دون الأول، ثم النبز وهذا نداؤه بلقبه وهو دون الثاني، إذ لا يلزم مطابقة معناه للقبه، فقد يلقب الحسن بالقبيح وعكسه، فكأنه تعالى قال لا تتكبروا فتستحقروا إخوانكم بحيث لا تلتفتوا إليهم أصلا، وأيضا فلا تعيبوهم طلبا لحط درجتهم، وأيضا فلا تسموهم

---

(١) نزهة الألباب في الألقاب (١/ ٤٢-٤٤).

(٢) المصدر السابق (١/ ٤٥-٤٦).

بما يكرهونه. . فمن عاب غيره ففي الحقيقة إنما عاب نفسه نظرا لذلك، وأيضا فتعييبه للغير تسبب إلى تعييب الغير له فكأنه الذي عاب نفسه. . وغاير بين صيغتي تلمزوا وتنابزوا؛ لأن الملموز قد لا يقدر في الحال على عيب يلمز به لامزه فيحتاج إلى تتبع أحواله حتى يظفر ببعض عيوبه بخلاف النبز، فإن من لقب بما يكره قادر على تلقيب الآخر بنظير ذلك حالا فوقع التفاعل»[1].

* * *

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢/ ٢٢٤).

قوله تعالى : ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول تعالى ذكره : ومن فعل ما نهينا عنه ، وتقدّم على معصيتنا بعد إيمانه ، فسخر من المؤمنين ، ولمز أخاه المؤمن ، ونبزه بالألقاب ، فهو فاسق ، ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ يقول : فلا تفعلوا فتستحقوا إن فعلتموه أن تسموا فسّاقًا ، بئس الاسم الفسوق ، وترك ذكر ما وصفنا من الكلام ، اكتفاءً بدلالة قوله : ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ﴾ عليه .

وكان ابن زيد يقول في ذلك ما حدثنا به يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، وقرأ : ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ ، قال : بئس الاسم الفسوق حين تسميه بالفسق بعد الإسلام ، وهو على الإسلام . قال : وأهل هذا الرأي هم المعتزلة ، قالوا : لا نكفره كما كفره أهل الأهواء ، ولا نقول له مؤمن ، كما قالت الجماعة ، ولكنا نسميه باسمه إن كان سارقًا فهو سارق ، وإن كان خائنًا سموه خائنًا ؛ وإن كان زانيًا سموه زانيًا ؛ قال : فاعتزلوا الفريقين أهل الأهواء وأهل الجماعة ، فلا بقول هؤلاء قالوا ، ولا بقول هؤلاء ، فسموا بذلك المعتزلة .

فوجه ابن زيد تأويل قوله : ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ إلى من دعي فاسقًا ، وهو تائب من فسقه ، فبئس الاسم ذلك له من أسمائه . . وغير ذلك من التأويل أولى بالكلام ، وذلك أن اللَّه تقدّم بالنهي عما تقدّم بالنهي عنه في أوّل هذه الآية ، فالذي هو أولى أن يختمها بالوعيد لمن تقدّم على بغيه ، أو بقبيح ركوبه ما ركب مما نهى عنه ، لا أن يخبر عن قُبح ما كان التائب أتاه قبل توبته ؛ إذ كانت الآية لم تفتتح بالخبر عن ركوبه ما كان ركب قبل التوبة من القبيح ، فيختم آخرها بالوعيد عليه أو

---

(١) الحجرات : الآية (١١).

بالقبيح»[١].

وقال ابن كثير: «أي: بئس الصفة والاسم الفسوق، وهو التنابز بالألقاب، كما كان أهل الجاهلية يتنافسون بعدما دخلتم في الإسلام وعقلتموه»[٢].

وقال شيخ الإسلام: «نهاهم عن أن يسخر بعضهم ببعض، وعن اللمز والتنابز بالألقاب، وقال: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾، وقد قيل: معناه: لا تسميه فاسقًا ولا كافرًا بعد إيمانه، وهذا ضعيف؛ بل المراد: بئس الاسم أن تكونوا فساقًا بعد إيمانكم، كما قال تعالى في الذي كذب: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ فسماه فاسقًا.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»[٣]، يقول: فإذا ساببتم المسلم وسخرتم منه ولزمتموه استحققتم أن تسموا فسّاقًا، وقد قال في آية القذف: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[٤]. يقول: فإذا أتيتم بهذه الأمور التي تستحقون بها أن تسموا فساقًا، كنتم قد استحققتم اسم الفسوق بعد الإيمان، وإلا فهم في تنابزهم ما كانوا يقولون: فاسق، كافر؛ فإن النبي ﷺ قدم المدينة وبعضهم يلقب بعضًا.

وقد قال طائفة من المفسرين في هذه الآية: لا تسميه بعد الإسلام بدينه قبل الإسلام، كقوله لليهودي إذا أسلم: يا يهودي! وهذا مروي عن ابن عباس وطائفة من التابعين كالحسن وسعيد بن جبير وعطاء الخراساني والقرظي، وقال عكرمة: هو قول الرجل: يا كافر! يا منافق! وقال عبد الرحمن بن زيد: هو تسمية الرجل بالأعمال، كقوله: يا زاني! يا سارق! يا فاسق! وفي تفسير العوفي عن ابن عباس قال: هو تعيير التائب بسيئات كان قد عملها، ومعلوم أن اسم (الكفر) و(اليهودية) و(الزاني) و(السارق) وغير ذلك من السيئات ليست هي اسم (الفاسق)، فعلم أن قوله: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ﴾ لم يرد به تسمية المسبوب باسم (الفاسق)؛ فإن تسميته كافرًا أعظم، بل إن السابّ يصير فاسقًا؛ لقوله: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله**

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٣٣-١٣٤). وانظر محاسن التأويل (١٥/ ١٢٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٥٧).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) النور: الآية (٤).

كفر»»[١].

وقال ابن عاشور في هذه الآية: «تذييل للمنهيات المتقدمة، وهو تعريض قويّ بأن ما نُهوا عنه فُسوق وظلم؛ إذ لا مناسبة بين مدلول هذه الجملة وبين الجمل التي قبلها لولا معنى التعريض بأن ذلك فسوق وذلك مذموم ومعاقب عليه، فدلّ قوله: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ على أن ما نهوا عنه مذموم؛ لأنه فسوق يعاقب عليه، ولا تزيله إلا التوبة، فوقع إيجاز بحذف جملتين في الكلام اكتفاء بما دل عليه التذييل، وهذا دال على اللمز والتنابز معصيتان؛ لأنهما فسوق. وفي الحديث: «**سباب المسلم فسوق**».

ولفظ (الاسم) هنا مطلق على الذكر، أي التسمية، كما يقال: طار اسمه في الناس بالجود أو باللؤم. والمعنى: بئس الذكر أن يذكر أحد بالفسوق بعد أن وُصِف بالإيمان.

وإيثار لفظ الاسم هنا من الرشاقة بمكان؛ لأن السياق تحذير من ذكر الناس بالأسماء الذميمة؛ إذ الألقاب أسماء، فكان اختيار لفظ الاسم للفسوق مشاكلة معنوية.

ومعنى البعديّة في قوله: ﴿بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾: بعد الاتصاف بالإيمان، أي أن الإيمان لا يناسبه الفسوق؛ لأن المعاصي من شأن أهل الشرك الذين لا يزعهم عن الفسوق وازع..

وإذ كان كل من السخرية واللمز والتنابز معاصي، فقد وجبت التوبة منها، فمن لم يتب فهو ظالم؛ لأنه ظلم الناس بالاعتداء عليهم، وظلم نفسه بأن رضي لها عقاب الآخرة مع التمكن من الإقلاع عن ذلك، فكان ظلمه شديدًا جدًّا. فلذلك جيء له بصيغة قصر الظالمين عليهم كأنه لا ظالم غيرهم لعدم الاعتداد بالظالمين الآخرين في مقابلة هؤلاء على سبيل المبالغة ليزدجروا.

والتوبة واجبة من كل ذنب، وهذه الذنوب المذكورة مراتب، وإدمان الصغائر كبيرة»[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٤٨-٢٤٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٤٩-٢٥٠).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ وهو يتحدث عن آثار المعاصي وعقوباتها: «ومن عقوباتها: أنها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف، وتكسوه أسماء الذم والصغار، فتسلبه اسم المؤمن، والبر، والمحسن، والمتقي، والمطيع، والمنيب، والولي، والورع، والصالح، والعابد، والخائف، والأوّاب، والطيب، والمرضي، ونحوها.

وتكسوه اسم الفاجر، والعاصي، والمخالف، والمسيء، والمفسد، والخبيث، والسَّخوط، والزاني، والسارق، والقاتل، والكاذب، والخائن، واللوطي، وقاطع الرحم، والغادر، وأمثالها.

فهذه أسماء الفسوق و﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِۚ﴾ الذي يوجب غضب الديّان، ودخول النيران، وعيش الخزي والهوان.

وتلك أسماء توجب رضى الرحمن، ودخول الجنان، وتوجب شرف المسمى بها على سائر أنواع الإنسان، فلو لم يكن في عقوبة المعصية إلا استحقاق تلك الأسماء وموجباتها لكان في العقل ناهٍ عنها، ولو لم يكن في ثواب الطاعة إلا الفوز بتلك الأسماء وموجباتها لكان في العقل آمر بها، ولكن لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا مقرّب لما باعد، ولا مبعد لمن قرّب؛ ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[(١)]»[(٢)].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: ومن لم يتب من نبزه أخاه بما نهى اللّه عن نبزه به من الألقاب، أو لمزه إياه، أو سخريته منه، فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم، فأكسبوها عقاب اللّه بركوبهم ما نهاهم عنه»[(٣)].

وقال السعدي: «فهذا هو الواجب على العبد، أن يتوب إلى اللّه تعالى، ويخرج من حق أخيه المسلم، باستحلاله والاستغفار، والمدح له مقابلة على ذمه.

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فالناس قسمان: ظالم لنفسه غير تائب، وتائب

---

(١) الحج: الآية (١٨).

(٢) الداء والدواء (ص: ١٢٧-١٢٨).

(٣) جامع البيان (٢٦/ ١٣٤).

مفلح، ولا ثمّ قسم ثالث غيرها»[١].

وقال شيخ الإسلام: «فجعلهم ظالمين إذا لم يتوبوا من ذلك، وإن كانوا يدخلون في اسم المؤمنين»[٢].

قال الرازي: «﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وهذا يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يقال هذه الأشياء من الصغائر فمن يصر عليه يصير ظالمًا فاسقًا وبالمرة الواحدة لا يتصف بالظلم والفسق فقال ومن لم يترك ذلك ويجعله عادة فهو ظالم.

وثانيهما: أن يقال قوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ﴾ ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ﴾ ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ﴾منع لهم عن ذلك في المستقبل، وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾أمرهم بالتوبة عما مضى وإظهار الندم عليها مبالغة في التحذير وتشديدًا في الزجر»[٣].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٣٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٤٩).

(٣) مفاتيح الغيب(١٤/ ١٨٧)

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾[1]

★ **غريب الآية:**

لا تجسسوا: قال ابن كثير: «التجسس غالبا يطلق في الشر، ومنه الجاسوس. وأما التحسس فيكون غالبا في الخير، كما قال تعالى إخبارا عن يعقوب عليه السلام أنه قال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾[2]، وقد يستعمل كل منهما في الشر، كما ثبت في الصحيح أن رسول اللّه ﷺ قال: «**لا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد اللّه إخوانا**»[3]»[4].

وقرئ في غير المتواتر: (ولا تحسسوا).

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «أعيد النداء خامس مرة لاختلاف الغرض والاهتمام به، وذلك أن المنهيات المذكورة بعد هذا النداء من جنس المعاملات السيئة الخفية التي لا يتفطن لها من عومل بها فلا يدفعها فما يزيلها من نفس من عامله بها. ففي قوله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ﴾ تأديب عظيم يبطل ما كان فاشيًا في الجاهلية من الظنون السيئة والتهم الباطلة، وأن الظنون السيئة تنشأ عنها الغيرة المفرطة والمكائد والاغتيالات، والطعن في الأنساب، والمبادأة بالقتال حذرًا من اعتداء مظنون ظنًا باطلًا، كما قالوا: خذ اللص قبلَ أن يَأخُذَك.

وما نجمت العقائد الضالة والمذاهب الباطلة إلا من الظنون الكاذبة قال تعالى:

---

(١) الحجرات: الآية (١٢).
(٢) يوسف: الآية (٨٧).
(٣) سيأتي تخريجه.
(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٥٨).

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾(١) وقال: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٢٠﴾(٢) وقال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ﴾ ثم قال: ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾(٣).

وقال النبي ﷺ: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**»(٤) ولما جاء الأمر في هذه الآية باجتناب كثير من الظن علمنا أن الظنون الآثمة غير قليلة، فوجب التمحيص والفحص لتمييز الظن الباطل من الظن الصادق»(٥).

وقال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدّقوا اللّه ورسوله، لا تقربوا كثيرًا من الظنّ بالمؤمنين، وذلك أن تظنوا بهم سوءًا؛ فإن الظانّ غير محقّ، وقال -جل ثناؤه-: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ ولم يقل: الظنّ كله؛ إذ كان قد أذِن للمؤمنين أن يظنّ بعضهم ببعض الخير، فقال: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢﴾(٦)، فأذن اللّه -جل ثناؤه- للمؤمنين أن يظنّ بعضهم ببعض الخير وأن يقولوه، وإن لم يكونوا من قيله فيهم على يقين»(٧).

وقال ابن كثير: «يقول تعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثمًا محضًا، فليجتنب كثير منه احتياطًا، وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيرًا، وأنت تجد لها في الخير محملًا»(٨).

وقال القرطبي: «للظن حالتان: حالة تعرف وتقوى بوجه من وجوه الأدلة فيجوز الحكم بها، وأكثر أحكام الشريعة مبنية على غلبة الظن؛ كالقياس وخبر الواحد وغير ذلك من قِيم المتلفات وأروش الجنايات.

---

(١) آل عمران: الآية (١٥٤).
(٢) الزخرف: الآية (٢٠).
(٣) الأنعام: الآية (١٤٨).
(٤) سيأتي تخريجه في أحاديث الباب.
(٥) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٥)
(٦) النور: الآية (١٢).
(٧) جامع البيان (٢٦/ ١٣٤).
(٨) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٥٧).

والحالة الثانية: أن يقع في النفس شيء من غير دلالة فلا يكون ذلك أولى من ضده، فهذا هو الشك، فلا يجوز الحكم به، وهو المنهي عنه على ما قررناه آنفًا»[١].

وقال العيني: «وقوله: ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٌ﴾ يدل على أنه لم ينه عن جميع الظن، والظن على أربعة أوجه: محظور ومأمور به ومباح ومندوب إليه.

فالمحظور: هو سوء الظن بالله تعالى، وكذلك الظن بالمسلمين الذين ظاهرهم عدالة، محظور.

والمأمور به: هو ما لم ينصب عليه دليل يوصل إلى العلم به، وقد تعبدنا بتنفيذ الحكم فيه، والاقتصار على غالب الظن، وإجراء الحكم واجب، وذلك نحو ما تعبدنا به من قبول شهادة العدول، وتحري القبلة، وتقويم المستهلكات، وأرش الجنايات التي لم يرد مقاديرها بتوقيف من قبل الشرع، فهذا ونظائره قد تعبدنا فيه بغالب الظن.

والظن المباح: كالشك في الصلاة إذا كان إمامًا؛ فإن النبي ﷺ أمر بالتحري والعمل بغالب الظن، فإن فعله كان مباحًا، وإن عدل إلى غيره من البناء على اليقين جاز.

والظن المندوب إليه: كإحسان الظن بالأخ المسلم يندب إليه ويثاب عليه»[٢].

قال السعدي: «نهى تعالى عن كثير من الظن وأخبر أن بعضه إثم، فيدل على أن بعضه غير إثم وغير منهي عنه، وهذا تحويل على ما بينه الله ورسوله وأمر بتطبيق الظنون على الأصول الشرعية، فالظن المستند على الأصول والقرائن قد يجب وقد يسن وقد يباح، وقد يعذر فيه العبد، والظن الذي لا يستند على شيء من ذلك لا يغني من الحق شيئًا، والظن بمسلم ظاهره العدالة من باب ظن الإثم، وظن السوء بأهل الريب والمتظاهرين بالشر والاحتياط في أمرهم مأمور به، والتحرز من الأضرار التي يخشى من وقوعها يعدّ من الحزم والحذر، والله أعلم»[٣].

قال الغزالي: «اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول، فكما يحرم عليك أن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٣٢).

(٢) عمدة القاري (١٥/ ٢١٩). انظر الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٧٣-٧٩).

(٣) مجموع الفوائد للسعدي (ص: ٣٣-٣٤). وانظر عمدة القاري للعيني (١٥/ ٢١٩).

تحدث غيرك بلسانك بمساوئ الغير فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك، ولست أعني به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء. فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه، بل الشك أيضًا معفو عنه، ولكن المنهي عنه أن يظن، والظن عبارة عما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب؛ فقد قال اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾. وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءًا إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل، فعند ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته، وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك فإنما الشيطان يلقيه إليك، فينبغي أن تكذبه؛ فإنه أفسق الفساق؛ وقد قال اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾[1]، فلا يجوز تصديق إبليس، وإن كان ثم مخيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم يجز أن تصدق به؛ لأن الفاسق يتصور أن يصدق في خبره ولكن لا يجوز لك أن تصدق به، حتى إن من استنكه فوجد منه رائحة الخمر لا يجوز أن يحدّ؛ إذ يقال: يمكن أن يكون قد تمضمض بالخمر ومجّها وما شربها، أو حمل عليه قهرًا، فكل ذلك لا محالة دلالة محتملة، فلا يجوز تصديقها بالقلب وإساءة الظن بالمسلم بها، وقد قال ﷺ: «**إن اللَّه حرم من المسلم دمه وماله، وأن يظن به ظن السوء**»[2]، فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال، وهو نفس مشاهدته، أو بينة عادلة، فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغي أن تدفعه عن نفسك، وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان، وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر.

فإن قلت: فبماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث؟ فتقول: أمارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفورًا ما، ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده وإكرامه والاغتمام بسببه؛ فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه. .

والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى مخيلة مساءة الناس، ويلقي إليه أن هذا من فطنتك وسرعة فهمك وذكائك وأن المؤمن ينظر بنور اللَّه تعالى، وهو على التحقيق

---

(١) الحجرات: الآية (٦).

(٢) أخرجه بنحوه: البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٣١٠/ ٦٧٥٤) وقال العراقي في تخريجه أحاديث الإحياء (٤/ ١٧٥٩/ ٢٧٧١): «رواه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند ضعيف».

ناظر بغرور الشيطان وظلمته.

وأما إذا أخبرك به عدل، فمال ظنك إلى تصديقه، كنت معذورًا؛ لأنك لو كذبته لكنت جانيًا على هذا العدل إذ ظننت به الكذب، وذلك أيضًا من سوء الظن، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد وتسيء بالآخر. نعم ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعنت فتتطرق التهمة بسببه؟ فقد رد الشرع شهادة الأب العدل للولد للتهمة، ورد شهادة العدو، فلك عند ذلك أن تتوقف، وإن كان عدلًا فلا تصدقه ولا تكذبه، ولكن تقول في نفسك: المذكور حاله كان عندي في ستر اللَّه تعالى، وكان أمره محجوبًا عني، وقد بقي كما كان لم ينكشف لي شيء من أمره، وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ولا محاسدة بينه وبين المذكور، ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس وذكر مساويهم، فهذا قد يظن أنه عدل وليس بعدل؛ فإن المغتاب فاسق، وإن كان ذلك من عادته ردت شهادته إلا أن الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا في أمر الغيبة، ولم يكترثوا بتناول أعراض الخلق.

ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم، فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير، فإن ذلك يغيظ الشيطان، ويدفعه عنك، فلا يلقي إليك الخاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة. ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة، فانصحه في السر، ولا يخدعنك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه، وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه لينظر إليك بعين التعظيم، وتنظر إليه بعين الاستحقار، وتترفع عليه، بإيذاء الواعظ. وليكن قصدك تخليصه من الإثم وأنت حزين، كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان في دينك. وينبغي أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحب إليك من تركه بالنصيحة. فإذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ، وأجر الغم بمصيبته، وأجر الإعانة له على دينه»[1].

قال النووي بعد نقله كلام الغزالي هذا: «قلت: قد ذكرنا أنه يجب عليه إذا عرض له خاطر بسوء الظن أن يقطعه، وهذا إذا لم تدعُ إلى الفكر في ذلك مصلحة شرعية، فإن دعت؛ جاز الفكر في نقيصته، والترغيب عنها؛ كما في جرح الشهود والرواة وغير ذلك»[2].

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ١٥٠-١٥١).

(٢) الأذكار (٢/ ٨٤٥).

وقال الغزالي: «ومن ثمرات سوء الظن التجسس؛ فإن القلب لا يقنع بالظن، ويطلب التحقيق، فيشتغل بالتجسس، وهو أيضًا منهي عنه، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ . . ومعنى التجسس أن لا يترك عباد اللَّه تحت ستر اللَّه، فيتوصل إلى الاطلاع وهتك الستر حتى ينكشف له ما لو كان مستورًا عنه كان أسلم لقلبه ودينه»[١].

قال ابن جرير: «يقول: ولا يتتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره، يبتغي بذلك الظهور على عيوبه، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره، وبه فاحمدوا أو ذموا، لا على ما لا تعلمونه من سرائره»[٢].

وقال القرطبي: «ومعنى الآية: خذوا ما ظهر، ولا تتبعوا عورات المسلمين، أي: لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه حتى يطلع عليه بعد أن ستره الله»[٣].

وقال السعدي: «أي: لا تفتشوا عن عورات المسلمين، ولا تتبعوها، ودعوا المسلم على حاله، واستعملوا التغافل عن زلاّته التي إذا فتشت ظهر منها ما لا ينبغي»[٤].

وقال ابن كثير: «والتجسس غالبًا يطلق في الشر، ومنه الجاسوس، وأما التحسس فيكون غالبًا في الخير، كما قال تعالى إخبارًا عن يعقوب أنه قال: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾[٥]، وقد يستعمل كل منهما في الشر، كما ثبت في الصحيح أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد اللَّه إخوانًا**»[٦]»[٧].

وقال القرطبي: « الظن في الشريعة قسمان: محمود ومذموم، فالمحمود منه ما سلم معه دين الظان والمظنون به عند بلوغه.

والمذموم ضده، بدلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾، وقوله: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾[٨]، وقوله: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ١٥٢).
(٢) جامع البيان (٢٦/ ١٣٥).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٣٣).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٣٧).
(٥) يوسف: الآية (٨٧).
(٦) سيأتي تخريجه.
(٧) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٥٨).
(٨) النور: الآية (١٢).

﴿قَوْمًا بُورًا﴾[1] وقال النبي ﷺ: «**إذا كان أحدكم مادحا أخاه فليقل أحسب كذا ولا أزكي على الله أحدًا**»[2]. . وأكثر العلماء على أن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز، وأنه لا حرج في الظن القبيح بمن ظاهره القبح، قاله المهدوي»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تحريم الظن والتجسس وبعض أحكام ذلك

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»[4].

★ **غريب الحديث:**

إياكم والظن: يريد: إياكم وسوء الظن وتحقيقه دون مبادئ الظنون التي لا تملك.

فإن الظن أكذب الحديث: يعني أن الظن أكثر كذبًا من الكلام.

لا تجسسوا: معناه: لا تبحثوا عن عيوب الناس، ولا تتبعوا أخبارهم.

والتحسس: بالحاء طلب الخبر ومنه قوله سبحانه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾[5] ويقال: تجسستُ الخبر، وتحسستُ، بمعنى واحد.

ولا تناجشوا: من النجش، بالنون والجيم والشين المعجمة، وهو أن يزيد في ثمن المبيع بلا رغبة ليخدع غيره فيوقعه فيزاد عليه.

ولا تحاسدوا: الحسد: أن يرى الرجل لأخيه نعمة فيتمنى أن تزول عنه وتكون

---

(١) الفتح: الآية (١٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٦) والبخاري (١٠/ ٦٧٥/ ٦٢٦٢) ومسلم (٤/ ٢٢٩٦/ ٣٠٠٠) وأبو داود (٥/ ١٥٤/ ٤٨٠٥) وابن ماجه (٢/ ١٢٣٢/ ٣٧٤٤) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٣٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٥١٧)، والبخاري (١٠/ ٥٩٣/ ٦٠٦٦)، ومسلم (٤/ ١٩٨٥/ ٢٥٦٣)، وأبو داود (٥/ ٢١٦-٢١٧/ ٤٩١٧)، والترمذي (٤/ ٣١٣/ ١٩٨٨) وقال: «حسن صحيح».

(٥) يوسف: الآية (٨٧).

له دونه .

ولا تباغضوا: أي: لا تتعاطوا أسباب البغض؛ لأن البغض لا يكتسب ابتداء .

ولا تدابروا: التدابر التهاجر، وهو أن يولي كل واحد صاحبه دبره .

* عن سلمان قال: «**إني لأعدّ العُراق على خادمي مخافة الظن**»[١] .

★ غريب الحديث:

العُراق: العرق بالسكون: العظم إذا أخذ عنه معظم اللحم، وجمعه عُراق وهو جمع نادر، يقال: عرقت العظم واعترقته وتعرّقته إذا أخذت اللحم بأسنانك .

* عن أبي العالية قال: «**كنا نؤمر أن نختم على الخادم ونكيل ونعدها كراهية أن يتعودوا خلق سوء، أويظن أحدنا ظن سوء**»[٢] .

★ غريب الحديث:

أن نختم على الخادم ونكيل: الذي يعرف به أصل الكيل أن كل ما لزمه اسم المختوم والقفيز والمكوك والصاع والمد .

* عن زيد بن وهب قال: أتى ابن مسعود ﷺ فقيل: هذا فلان تقطر لحيته خمرًا، فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به[٣] .

★ فوائد الأحاديث:

قال العيني: «وجه المطابقة بين هذا الحديث -حديث أبي هريرة- والآية المذكورة أن البغض والحسد ينشآن عن سوء الظن»[٤] .

قال ابن بطال: «قال المهلب: إن التباغض والتحاسد أصلهما سوء الظن، وذلك أن المباغض والمحاسد يتأول أفعال من يبغضه ويحسده على أسوإ التأويل، وقد أوجب اللَّه تعالى أن يكون ظن المؤمن بالمؤمن حسنًا أبدًا إذ يقول: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا﴾[٥] فإذ جعل اللَّه سوء الظن بالمؤمنين إفكًا

(١) أخرجه: البخاري في الأدب المفرد (رقم ١٦٨).

(٢) أخرجه: البخاري في الأدب المفرد (رقم ١٦٧) وصحح إسناده الألباني.

(٣) أخرجه: أبو داود (٥/ ٢٠٠/ ٤٨٩٠).

(٤) عمدة القاري (١٥/ ٢١٩).

(٥) النور: الآية (١٢).

مبينًا فقد ألزم أن يكون حسن الظن بهم صدقًا بينًا، والله الموفق»[١].

قال النووي: «المراد النهي عن ظن السوء، قال الخطابي: وتحقيق الظن وتصديقه دون ما يهجس في النفس؛ فإن ذلك لا يملك. ومراد الخطابي أن المحرم من الظن ما يستمر صاحبه عليه ويستقر في قلبه، دون ما يعرض في القلب ولا يستقر، فإن ذلك لا يكلف به كما سبق في حديث تجاوز الله تعالى، عما تحدثت به الأمة ما لم تتكلم أو تعمل، وسبق تأويله على الخواطر التي لا تستقر»[٢].

وقال القرطبي: «الظن هنا هو التهمة، ومحل التحذير والنهي إنما هو تهمة لا سبب لها يوجبها، كمن يتهم بالفاحشة أو بشرب الخمر ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك. ودليل كون الظن هنا بمعنى التهمة قوله بعد هذا: «ولا تجسسوا، ولا تحسسوا»؛ وذلك أنه قد يقع خاطر التهمة ابتداءً، فيريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه ويتبصر ويستمع ليحقق ما وقع له من تلك التهمة، فنهى النبي ﷺ عن ذلك.. فأما الظن الشرعي الذي هو تغليب أحد المجوزين أو بمعنى اليقين، فغير مراد من الحديث ولا من الآية يقينًا، فلا يلتفت لمن استدل بذلك على إنكار الظن الشرعي كما قررناه في الأصول»[٣].

قال الزمخشري: «والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها أن كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر كان حرامًا واجب الاجتناب، وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح، وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظن الفساد والخيانة به محرّم، بخلاف من اشتهر بين الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث»[٤].

قال الحافظ: «وهذا الحديث -حديث أبي هريرة- يوافق قوله تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ﴾، فدل سياق الآية على الأمر بصون عرض المسلم غاية الصيانة لتقدم النهي عن الخوض فيه بالظن، فإن قال الظانّ: أبحث لأتحقق، قيل له: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾، فإن قال: تحققت من غير

---

(١) شرح صحيح البخاري (٩/ ٢٦١).

(٢) شرح مسلم (١٦/ ٩٧).

(٣) المفهم (٦/ ٥٣٤-٥٣٥).

(٤) الكشاف (٣/ ٥٦٧).

تجسس، قيل له: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾»[١].

قال الغزالي: «وكما يجب عليك السكوت بلسانك عن مساوئه، يجب عليك السكوت بقلبك، وذلك بترك إساءة الظن؛ فسوء الظن غيبة بالقلب، وهو منهي عنه أيضًا؛ وحدّه أن لا تحمل فعله على وجه فاسد ما أمكن أن تحمله على وجه حسن. فأما ما انكشف بيقين ومشاهدة، فلا يمكنك أن لا تعلمه، وعليك أن تحمل ما تشاهد على سهو ونسيان إن أمكن. وهذا الظن ينقسم إلى ما يسمى تفرسًا، وهو الذي يستند إلى علامة؛ فإن ذلك يحرك الظن تحريكًا ضروريًا لا يقدر على دفعه، وإلى ما من منشؤه سوء اعتقادك فيه حتى يصدر منه فعل له وجهان، فيحملك سوء الاعتقاد فيه على أن تنزله على الوجه الأردإ من غير علامة تخصه به، وذلك جناية عليه بالباطن، وذلك حرام في حق كل مؤمن.. وقال ﷺ: «**إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث**». وسوء الظن يدعو إلى التجسس والتحسس، وقد قال ﷺ: «**لا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تقاطعوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد اللَّه إخوانًا**»..

فستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل الدين. ويكفيك تنبيهًا على كمال الرتبة في ستر القبيح وإظهار الجميل أن اللَّه تعالى وصف به في الدعاء فقيل: يا من أظهر الجميل وستر القبيح! والمرضي عند اللَّه من تخلق بأخلاقه؛ فإنه ستار العيوب وغفار الذنوب ومتجاوز عن العبيد، فكيف لا تتجاوز أنت عمن هو مثلك أو فوقك وما هو بكل حال عبدك ولا مخلوقك؟

.. واعلم أنه لا يتم إيمان المرء ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه. وأقل درجات الأخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به، ولا شك أنه ينتظر منه ستر العورة، والسكوت على المساوئ والعيوب، ولو ظهر له منه نقيض ما ينتظره اشتد عليه غيظه وغضبه، فما أبعده إذا كان ينتظر منه ما لا يضمره له ولا يعزم عليه لأجله، وويل له في نص كتاب اللَّه تعالى حيث قال: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾[٢]، وكل من يلتمس

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٥٩٠).

(٢) المطففين الآيات (١-٣).

من الإنصاف أكثر مما تسمح به نفسه فهو داخل تحت مقتضى هذه الآية. ومنشأ التقصير في ستر العورة أو السعي في كشفها الداء الدفين في الباطن وهو الحقد والحسد؛ فإن الحقود الحسود يملأ باطنه بالخبث، ولكن يحبسه في باطنه ويخفيه ولا يبديه مهما لم يجد له مجالًا، وإذا وجد فرصة انحلت الرابطة، وارتفع الحياء، ويترشح الباطن بخبثه الدفين. ومهما انطوى الباطن على حقد وحسد فالانقطاع أولى؛ قال بعض الحكماء: ظاهر العتاب خير من مكنون الحقد، ولا يزيد لطف الحقود إلا وحشة منه، ومن في قلبه سخيمة على مسلم فإيمانه ضعيف، وأمره مخطر، وقلبه خبيث لا يصلح للقاء الله»[١].

قال أبو عمر: «وأما قوله في هذا الحديث: **«ولا تجسسوا، ولا تحسسوا»**، فهما لفظتان معناهما واحد، وهو البحث والتطلب لمعايب الناس ومساويهم إذا غابت واستترت لم يحلّ لأحد أن يسأل عنها ولا يكشف عن خبرها، قال ابن وهب: ومنه: لا يلي أحدكم استماع ما يقول فيه أخوه. وأصل اللفظة في اللغة من قولك: حسّ الثوب، أي: أدركه بحسه وجسه، من المحسة والمجسة، وذلك حرام كالغيبة أو أشد من الغيبة، قال الله ﷻ: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾، فالقرآن والسنة وردا جميعًا بأحكام هذا المعنى، وهو قد استسهل في زماننا، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما حلّ بنا»[٢].

قال أبو حاتم بن حبان: «الواجب على العاقل لزوم السلامة، بترك التجسس عن عيوب الناس، مع الاشتغال بإصلاح عيوب نفسه؛ فإن من اشتغل بعيوبه عن عيوب غيره، أراح بدنه، ولم يتعب قلبه، فكلما اطّلع على عيب لنفسه، هان عليه ما يرى مثله من أخيه، وإن من اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه، عمي قلبه، وتعب بدنه، وتعذر عليه ترك عيوب نفسه، وإن من أعجز الناس من عاب الناس بما فيهم، وأعجز منه من عابهم بما فيه، ومن عاب الناس عابوه؛ ولقد أحسن الذي يقول:

إذا أنتَ عبتَ الناسَ عابوا وأكثروا ... عليكَ، وأبدوا منك ما كان يُسترُ
وقد قال في بعض الأقاويل قائلٌ ... له منطق فيه كلام محبَّرُ

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ١٧٧-١٧٨).
(٢) فتح البر (التمهيد ١٠/ ٤٣٧).

إذا ما ذكرتَ الناس فاترك عيوبهم فلا عيبَ إلا دون ما منك يُذكرُ
وإن عبتَ قومًا بالذي ليس فيهمُ فذلك عند اللَّه والناس أكبرُ
وإن عبتَ قومًا بالذي فيك مثلُهُ فكيف يعيب العُورَ من هو أعورُ؟!
وكيف يعيب الناسَ من عيبُ نفسه أشدّ، إذا عُدّ العيوبُ، وأنكرُ؟!
متى تلتمس للناس عيبًا تجد لهم عيوبًا، ولكنّ الذي فيك أكثرُ
فسالمهم بالكفّ عنهم؛ فإنهم بعيبكَ من عينيك أهدى وأبصر»[١].

وقال أيضًا: «الواجب على العاقل مباينة العوامّ في الأخلاق والأفعال، بلزوم ترك التجسس عن عيوب الناس؛ لأن من بحث عن مكنون غيره، بُحث عن مكنون نفسه، وربما طَمَّ مكنونه على ما بحث من مكنون غيره، وكيف يستحسن بمسلم ثلب مسلم بالشيء الذي هو فيه؟»[٢].

وقال أيضًا: «التجسس من شعب النفاق، كما أن حسن الظن من شعب الإيمان، والعاقل يحسن الظن بإخوانه، وينفرد بغمومه وأحزانه، كما أن الجاهل يسيء الظن بإخوانه، ولا يفكر في جناياته وأشجانه»[٣].

قال ابن بطال: «فيه النهي عن التجسس، وهو البحث عن باطن أمور الناس، وأكثر ما يقال ذلك في السر»[٤].

قال الحافظ: «ويستثنى من النهي عن التجسس ما لو تعيّن طريقًا إلى إنقاذ نفس من الهلاك مثلًا، كأن يخبر ثقة بأن فلانًا خلا بشخص ليقتله ظلمًا، أو بامرأة ليزني بها، فيشرع في هذه الصورة التجسس والبحث عن ذلك حذرًا من فوات استدراكه. نقله النووي عن «الأحكام السلطانية» للماوردي واستجاده، وأن كلامه: ليس للمحتسب أن يبحث عما لم يظهر من المحرمات ولو غلب على الظن استسرار أهلها بها، إلا هذه الصورة»[٥].

---

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص: ٢١٠-٢١١).
(٢) المصدر السابق (ص: ٢١٥).
(٣) المصدر السابق (ص: ٢١٢).
(٤) شرح البخاري (٩/ ٢٥٩).
(٥) فتح الباري (١٠/ ٥٩١).

وقول أبي العالية: «"كراهية أن يتعودوا خلق سوء" لأن قلوبنا بالختم والكيل والعدّ تطمئن بالحفظ، وينحكّ طمع العبيد والخدم فلا يجترئون على السرقة والخيانة، فهم يصانون عن ذنب، ونحن نصان عن سوء الظن بهم»[١].

* عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من اتبع عوراتهم يتبع اللَّه عورته، ومن يتبع اللَّه عورته يفضحه في بيته**»[٢].

★ غريب الحديث:

لا تتبعوا عوراتهم: أي: لا تجسسوا عيوبهم ومساويهم.

يفضحه: من فضح، كمنع، أي: يكشف مساويه.

في بيته: أي: ولو كان في بيته مخفيًا من الناس.

★ فوائد الحديث:

قال الغزالي وهو يتكلم عن حقوق الأخوة والصحبة: «أما ذكر مساوئه وعيوبه ومساوئ أهله فهو من الغيبة، وذلك حرام في حق كل مسلم. ويزجرك عنه أمران:

أحدهما: أن تطالع أحوال نفسك، فإن وجدت فيها شيئًا واحدًا مذمومًا فهوّن على نفسك ما تراه من أخيك، وقدر أنه عاجز عن قهر نفسه في تلك الخصلة الواحدة كما أنك عاجز عما أنت مبتلى به، ولا تستثقله بخصلة واحدة مذمومة، فأي الرجال المهذب؟ وكل ما لا تصادفه من نفسك في حق اللَّه فلا تنتظره من أخيك في حق نفسك، فليس حقك عليه بأكثر من حق اللَّه عليك.

والأمر الثاني: أنك تعلم أنك لو طلبت منزهًا عن كل عيب، اعتزلت عن الخلق كافة، ولن تجد من تصاحبه أصلًا، فما من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساوئ، فإذا غلبت المحاسن المساوئ فهو الغاية والمنتهى، فالمؤمن الكريم أبدًا يحضر في نفسه محاسن أخيه لينبعث من قلبه التوقير والود والاحترام، وأما المنافق اللئيم فإنه أبدًا يلاحظ المساوئ والعيوب؛ قال ابن المبارك: المؤمن يطلب المعاذير،

(١) فضل اللَّه الصمد للجيلاني (١/ ٥٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٢٤)، وأبو داود (٥/ ١٩٤/ ٤٨٨٠) واللفظ له.

والمنافق يطلب العثرات. وقال الفضيل: الفتوة العفو عن زلات الإخوان..

وما من شخص إلا ويمكن تحسين حاله بخصال فيه، ويمكن تقبيحه أيضًا.. قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما أحد من المسلمين يطيع اللَّه ولا يعصيه، ولا أحد يعصي اللَّه ولا يطيعه. فمن كانت طاعته أغلب من معاصيه فهو عدل، وإذا جعل مثل هذا عدلًا في حق اللَّه فبأن تراه عدلًا في حق نفسك ومقتضى أخوّتك أولى»[1].

* * *

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ١٧٦-١٧٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَاتَّقُوا اللَّهَۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[١]

★ **غريب الآية:**

يغتب: الغِيبة: أن تذكر الرجل بما فيه حالَ غيبته؛ فإذا ذكرته بما ليس فيه فهو البهتان.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ يقول: ولا يقل بعضكم في بعض بظهر الغيب ما يكره المقول فيه ذلك أن يقال له في وجهه»[٢].

وقال القرطبي: «نهى ﷺ عن الغيبة، وهي أن تذكر الرجل بما فيه، فإن ذكرته بما ليس فيه فهو البهتان»[٣].

وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾ يقول تعالى ذكره للمؤمنين: أيحب أحدكم أيها القوم أن يأكل لحم أخيه بعد مماته ميتًا، فإن لم تحبوا ذلك وكرهتموه؛ لأن اللَّه حرّم ذلك عليكم، فكذلك لا تحبوا أن تغتابوا في حياته، فاكرهوا غيبته حيًّا، كما كرهتم لحمه ميتًا؛ فإن اللَّه حرّم غيبته حيًّا، كما حرّم أكل لحمه ميتًا»[٤].

وقال القرطبي: «مثل اللَّه الغيبة بأكل الميتة؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه. وقال ابن عباس: إنما ضرب اللَّه هذا المثل للغيبة؛ لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر، وكذا الغيبة حرام في الدين وقبيح في النفوس.

---

(١) الحجرات: الآية (١٢).
(٢) جامع البيان (٢٦/ ١٣٥).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٣٤).
(٤) جامع البيان (٢٦/ ١٣٧).

وقال قتادة: كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حيًّا»[١].

وقال ابن كثير: «وقد ورد فيها الزجر الأكيد؛ ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت، كما قال تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، أي: كما تكرهون هذا طبعًا، فاكرهوا ذاك شرعًا؛ فإن عقوبته أشد من هذا. وهذا من التنفير عنها والتحذير منها، كما قال -عليه السلام- في العائد في هبته: «**كالكلب يقيء ثم يرجع في قيئه**»[٢]، وقد قال: «**ليس لنا مثل السوء**»[٣]»[٤].

وقال ابن القيم: «وهذا من أحسن القياس التمثيلي؛ فإنه شبه تمزيق عرض الأخ بتمزيق لحمه، ولما كان المغتاب يمزق عرض أخيه في غيبته، كان بمنزلة من يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت، ولما كان المغتاب عاجزًا عن دفعه عن نفسه بكونه غائبًا عن ذمه، كان بمنزلة الميت الذي يقطع لحمه ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه، ولما كان مقتضى الأخوة التراحم والتواصل والتناصر، فعلق عليها المغتاب ضد مقتضاها من الذم والعيب والطعن، كان ذلك نظير تقطيع لحم أخيه، والأخوة تقتضي حفظه وصيانته والذّبّ عنه، ولما كان المغتاب متمتّعًا بعرض أخيه، متفكّهًا بغيبته وذمه، متحلّيًا بذلك، شُبّه بآكل لحم أخيه بعد تقطيعه، ولما كان المغتاب محبًّا لذلك، معجبًا به، شُبّه بمن يحب أكل لحم أخيه ميتًا، ومحبته لذلك قدر زائد على مجرد أكله، كما أن أكله قدر زائد على تمزيقه.

فتأمل هذا التشبيه والتمثيل وحسن موقعه ومطابقة المعقول فيه المحسوس، وتأمل إخباره عنهم بكراهة أكل لحم الأخ ميتًا، ووصفهم بذلك في آخر الآية، والإنكار عليهم في أولها أن يحب أحدهم ذلك، فكما أن هذا مكروه في طباعهم فكيف يحبون ما هو مثله ونظيره؟! فاحتج عليهم بما كرهوه على ما أحبوه، وشبه لهم ما يحبونه بما هو أكره شيء إليهم، وهم أشد شيء نفرة عنه؛ فلهذا يوجب العقل

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٣٥).
(٢) سيأتي تخريجه ضمن أحاديث الباب.
(٣) سيأتي تخريجه ضمن أحاديث الباب.
(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٦٠).

والفطرة والحكمة أن يكونوا أشد شيء نفرة عما هو نظيره ومشبهه، وبالله التوفيق»[١].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ يقول تعالى ذكره: فاتقوا الله أيها الناس، فخافوا عقوبته بانتهائكم عما نهاكم عنه من ظن أحدكم بأخيه المؤمن ظن السوء، وتتبع عوراته، والتجسس عما ستر عنه من أمره، واغتيابه بما يكرهه، تريدون به شينه وعيبه، وغير ذلك من الأمور التي نهاكم عنها ربكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ يقول: إن الله راجع لعبده إلى ما يحبه إذا رجع العبد لربه إلى ما يحبه منه، رحيم به بأن يعاقبه على ذنب أذنبه بعد توبته منه»[٢].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم به ونهاكم عنه، فراقبوه في ذلك واخشوا منه، ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ أي: تواب على من تاب إليه، رحيم بمن رجع إليه، واعتمد عليه.

قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس في توبته أن يقلع عن ذلك، ويعزم على أن لا يعود. وهل يشترط الندم على ما فات؟ فيه نزاع، وأن يتحلل من الذي اغتابه. وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله؛ فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذًا أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، فتكون تلك بتلك»[٣].

قال السعدي: «وفي هذه الآية دليل على التحذير الشديد من الغيبة، وأن الغيبة من الكبائر؛ لأن الله شبهها بأكل لحم الميت، وذلك من الكبائر»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في معنى الغيبة والتحذير منها

* عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره. قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٧٠).
(٢) جامع البيان (٢٦/ ١٣٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٦٤).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٣٨).

كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»[١].

⋆ غريب الحديث:

الغيبة: الغيبة هو أن يذكر الإنسان في غيبته بسوء، وإن كان فيه، فإذا ذكرته بما ليس فيه فهو البهت والبهتان.

* عن ابن مسعود قال: «**من اغتيب عنده مؤمن فنصره، جزاه اللَّه بها خيرًا في الدنيا والآخرة، ومن اغتيب عنده مؤمن فلم ينصره، جزاه اللَّه في الدنيا والآخرة شرًّا، وما التقم أحد لقمة شرًّا من اغتياب مؤمن، إن قال فيه ما يعلم فقد اغتابه، ومن قال فيه بما لا يعلم فقد بهته**»[٢].

⋆ غريب الحديث:

نصره: يقال: نصره ينصره نصرًا: إذا أعانه على عدوه وشدّ منه.

التقم: يقال: لقمت الطعام ألقمه، وتلقمته والتقمته، ويقال: لقم اللقمة: أخذ بفيه وابتلعها في مهلة.

⋆ فوائد الحديثين:

قال أبو عمر: «هذا حديث (حديث أبي هريرة) يخرج في التفسير المسند في قول اللَّه ﷻ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ فبيّن رسول اللَّه ﷺ الغيبة، وكيف هي، وما هي، وهو المبيّن عن اللَّه ﷻ»[٣].

وقال أيضًا: «يكفي في ذم الغيبة قول اللَّه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾.

وقال الشاعر:

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٠و٤٥٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٠١/ ٢٥٨٩)، وأبو داود (٥/ ١٩١-١٩٢/ ٤٨٧٤)، والترمذي (٤/ ٢٩٠/ ١٩٣٤) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٦٧/ ١١٥١٨).

(٢) أخرجه: البخاري في الأدب المفرد (رقم ٧٣٤)، وصحح إسناده الألباني.

(٣) التمهيد (فتح البر (١٠/ ٤٥٩).

احذر الغيبة فيه الفسق لا رخصة فيه
إنما المغتاب كالآكل من لحم أخيه»[1].

قال شيخ الإسلام: «إن النبي ﷺ فرّق بين الاغتياب وبين البهتان، وأخبر أن المخبر بما يكره أخوه المؤمن عنه إذا كان صادقًا فهو المغتاب، وفي قوله ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره» موافقة لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾، فجعل جهة التحريم كونه أخا أخوة الإيمان؛ ولذلك تغلظت الغيبة بحسب حال المؤمن، فكلما كان أعظم إيمانًا كان اغتيابه أشد.

ومن جنس الغيبة الهمز واللمز؛ فإن كلاهما فيه عيب الناس والطعن عليهم، كما في الغيبة؛ لكن الهمز هو الطعن بشدة وعنف؛ بخلاف اللمز فإنه قد يخلو من الشدة والعنف، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾[2] أي: يعيبك ويطعن عليك، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يلمز بعضكم بعضًا، وقال: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾[3] وقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾[4]»[5].

وقال الصنعاني: «قال ابن المنذر: في الحديث (حديث أبي هريرة) دليل على أن من ليس بأخ، كاليهودي والنصراني، وسائر أهل الملل، ومن قد أخرجته بدعته عن الإسلام، لا غيبة له. وفي التعبير عنه بالأخ جذب للمغتاب عن غيبته لمن يغتاب؛ لأنه إذا كان أخاه فالأولى الحنو عليه، وطي مساويه، والتأول لمعايبه، لا نشرها بذكرها»[6].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مرّ النبي ﷺ بحائط من حيطان المدينة -أو مكة- فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما، فقال النبي ﷺ: **يعذبان وما يعذبان في كبير، ثم قال: بلى، كان أحدهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة، ثم دعا بجريدة فكسرها كسرتين، فوضع على كل قبر كسرة، فقيل له: يا رسول الله!**

---

(١) المصدر السابق (١٠/ ٤٦٠).
(٢) التوبة: الآية (٥٨).
(٣) القلم: الآية (١١).
(٤) الهمزة: الآية (١).
(٥) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٢٤-٢٢٥).
(٦) سبل السلام (٤/ ٣٥١).

لم فعلت هذا؟ قال: **لعله أن يخفف عنهما ما لم تيبسا -أو إلى أن ييبسا»**[١].

★ غريب الحديث:

حائط: الحائط: البستان من النخيل إذا كان عليه حائط، وهو الجدار، وجمعه الحوائط.

النميمة: هي نقل الحديث من قوم إلى قوم على جهة الإفساد والشرّ، وقد نمّ الحديثَ ينِمه وينُمه نمًّا فهو نمام، والاسم: النميمة، ونمّ الحديثُ: إذا ظهر؛ فهو متعد ولازم.

★ فوائد الحديث:

هذا الحديث أورده الإمام البخاري تحت باب الغيبة.

قال الحافظ: «وليس فيه ذكر الغيبة بل فيه يمشي بالنميمة. قال ابن التين: إنما ترجم بالغيبة وذكر النميمة لأن الجامع بينهما ذكر ما يكرهه المقول فيه بظهر الغيب. وقال الكرماني: الغيبة نوع من النميمة؛ لأنه لو سمع المنقول عنه ما نقل لغمه. قلت: الغيبة قد توجد في بعض صور النميمة، وهو أن يذكره في غيبته بما فيه مما يسوؤه قاصدًا بذلك الإفساد»[٢].

قال النووي: «قال العلماء: معنى: **«وما يعذبان في كبير»** أي: في كبير في زعمهما، أو كبير تركه عليهما»[٣].

قال الحافظ: «وقد اختلف في معنى قوله: **«وإنه لكبير»**، فقال أبو عبد الملك البوني: يحتمل أنه ﷺ ظن أن ذلك غير كبير، فأوحي إليه في الحال بأنه كبير، فاستدرك. وتُعُقّب بأنه يستلزم أن يكون نسخًا، والنسخ لا يدخل الخبر. وأجيب بأن الحكم بالخبر يجوز نسخه، فقوله: **«وما يعذبان في كبير»** إخبار بالحكم، فإذا أوحي إليه أنه كبير فأخبر به كان نسخًا لذلك الحكم.

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٥)، والبخاري (١/ ٤٢١/ ٢١٦) واللفظ له، ومسلم (١/ ٢٤٠-٢٤١/ ٢٩٢)، وأبو داود (١/ ٢٥/ ٢٠)، والترمذي (١/ ١٠٢/ ٧٠)، والنسائي (١/ ٣٣/ ٣١)، وابن ماجه (١/ ١٢٥/ ٣٤٧).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٥٧٦-٥٧٧).

(٣) الأذكار (٢/ ٨٩٦).

وقيل: يحتمل أن الضمير في قوله: «وإنه» يعود على العذاب؛ لما ورد في صحيح ابن حبان من حديث أبي هريرة: «يعذبان عذابًا شديدًا في ذنب هين»، وقيل الضمير يعود على أحد الذنبين وهو النميمة؛ لأنها من الكبائر بخلاف كشف العورة، وهذا مع ضعفه غير مستقيم؛ لأن الاستتار المنفي ليس المراد به كشف العورة فقط، كما سيأتي. وقال الداودي وابن العربي: «كبير» المنفي بمعنى: أكبر، والمثبت واحد الكبائر، أي: ليس ذلك بأكبر الكبائر كالقتل مثلًا، وإن كان كبيرًا في الجملة. وقيل: المعنى ليس بكبير في الصورة؛ لأن تعاطي ذلك يدل على الدناءة والحقارة، وهو كبير الذنب. وقيل: ليس بكبير في اعتقادهما أو في اعتقاد المخاطبين، وهو عند اللَّه كبير، كقوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾[1]، وقيل: ليس بكبير في مشقة الاحتراز، أي: كان لا يشق عليهما الاحتراز من ذلك. وهذا الأخير جزم به البغوي وغيره ورجحه ابن دقيق العيد وجماعة، وقيل: ليس بكبير بمجرده، وإنما صار كبيرًا بالمواظبة عليه، ويرشد إلى ذلك السياق؛ فإنه وصف كلاًّ منهما بما يدل على تجدد ذلك منه، واستمراره عليه؛ للإتيان بصيغة المضارعة بعد حرف (كان). واللَّه أعلم»[2].

قال الإمام البغوي: «معناه أنهما لم يعذبا في أمر كان يكبر ويشق عليهما الاحتراز عنه؛ لأنه لم يكن يشق عليهما الاستتار عند البول وترك النميمة، ولم يرد أن الأمر فيهما هين غير كبير في أمر الدين؛ بدليل قوله: «وإنه لكبير»»[3].

* عن جابر بن عبد اللَّه قال: كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح جيفة منتنة، فقال رسول اللَّه ﷺ: «أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين»[4].

★ **غريب الحديث:**

ريح جيفة: يقال: جافت الميتة، وجيّفت واجتافت، والجيفة جثة الميت إذا أنتن.

---

(١) النور: الآية (١٥).

(٢) فتح الباري (١/ ٤٢٢).

(٣) شرح السنة (١/ ٣٧١).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٥١)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٣٢) وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٩١) وقال: «رواه أحمد ورجاله ثقات»، وحسن إسناده الشيخ الألباني.

منتنة: نتن نتنًا خبثت رائحته فهو نتن.

* عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**إن الربا نيف وسبعون بابًا، أهونهنّ بابًا من الربا مثل من أتى أمه في الإسلام، ودرهم الربا وأخبث الربا انتهاك عرض المسلم وانتهاك حرمته**»[1].

★ **غريب الحديث:**

نيف: كل ما زاد على عقد نيف فهو نيّف بالتشديد، وقد يخفف، حتى يبلغ العقد الثاني، ونيّف على السبعين في العمر إذا زاد.

انتهاك: يقال: انتهكته الحمى، وانتهك عرض فلان: بالغ في شتمه، وانتهك الشيء: أذهب حرمته، وانتهك الحرمات أو المحرمات: تناولها بما لا يحلّ.

حرمته: الحرمة: ما لا يحل انتهاكه.

* عن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لما عرج بي، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم**»[2].

★ **غريب الحديث:**

عرج: العروج الصعود.

يخمشون: خمش وجهه وخمش خمشًا وخموشًا: جرح بشرته، وخمش فلانًا جرح بشرته في موضع من جسده، والخمش اسم لجرح البشرة وهو أثر الخمش، والجمع خموش.

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «لما كان خمش الوجه والصدر من صفات النساء النائحات،

---

(١) أخرجه: البيهقي في الشعب (٥/ ٢٩٩/ ٦٧١٥)، سئل عنه أبو زرعة فقال: «هذا حديث منكر». قال الشيخ الألباني في «الصحيحة»: «قلت: ورجاله كلهم ثقات معروفون، غير إبراهيم بن عمر الصنعاني، وهو أبو إسحاق الصنعاني، قال الحافظ: مستور». وللحديث شواهد ذكرها الشيخ في الصحيحة (١٨٧١) ثم قال: «وجملة القول أن الحديث بمجموع طرقه صحيح ثابت».

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٢٤)، وأبو داود (٥/ ١٩٤/ ٤٨٧٨) واللفظ له.

جعلهما جزاءً من يغتاب ويفري من أعراض المسلمين؛ إشعارًا بأنهما ليسا من صفات الرجال، بل هما من صفات النساء في أقبح حالة وأشوه صورة»[١].

وقال القرطبي: «شبه ﷺ الوقيعة في الناس بأكل لحومهم. فمن تنقّص مسلمًا أو ثلم عرضه فهو كالآكل لحمه حيًا، ومن اغتابه فهو كالآكل لحمه ميتًا»[٢].

* عن المستورد أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من أكل برجل مسلم أكلة فإن اللَّه يطعمه مثلها من جهنم، ومن كسي ثوبًا برجل مسلم فإن اللَّه يكسوه مثله من جهنم، ومن قام برجل مقام سمعة ورياء فإن اللَّه يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة**»[٣].

★ غريب الحديث:

سمعة: أي: ليسمعه الناس ويروه.

★ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «معناه: الرجل يكون صديقًا لرجل ثم يذهب إلى عدوه، فيتكلم فيه بغير الجميل ليجيزه عليه جائزة، فلا يبارك اللَّه له فيها»[٤].

* عن عائشة قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا -قال غير مسدد: تعني قصيرة، فقال: «**لقد قلتِ كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته**»، قالت: وحكيت له إنسانًا، فقال: «**ما أحب أني حكيت إنسانًا وأن لي كذا وكذا**»[٥].

★ غريب الحديث:

حسبك: حسب: اسم بمعنى كافٍ. يقال: مررت برجل حسبك من رجل، أي: كافيك. وحسْب: اسم فعل، يقال: حسبك هذا: اكتف به.

---

(١) الكاشف (١٠/ ٣٢١٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٣٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٢٩)، أبو داود (٥/ ١٩٥/ ٤٨٨١)، الحاكم (٤/ ١٢٨) وصححه، ووافقه الذهبي. وذكره الشيخ ناصر في الصحيحة (٩٣٤) وقال في آخره: وبالجملة فالحديث بمجموع هذه الطرق صحيح.

(٤) الكاشف (١٠/ ٣٢١٨).

(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ١٨٩)، وأبو داود (٥/ ١٩٢/ ٤٨٧٥) واللفظ له، والترمذي (٤/ ٥٧٠/ ٢٥٠٢-٢٥٠٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

مزج: مزج الشراب ونحوه مزجًا: خلطه بغيره. ومعنى مزجته: خالطته مخالطة يتغير بها طعمه أو ريحه لشدة نتنها وقبحها.

ما أحب أني حكيت: أي: فعلت مثل فعله.

★ فوائد الحديث:

قال الطيبي -نقلًا عن القاضي ناصر الدين-: «المعنى: أن هذه الغيبة لو كانت مما يمزج بالبحر لغيّرته من حاله مع كثرته وغزارته، فكيف بأعمال نزر خلطت بها»[1].

قال النووي: «هذا الحديث من أعظم الزواجر عن الغيبة، أو أعظمها. وما أعلم شيئًا من الأحاديث يبلغ في الذم لها هذا المبلغ، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾[2] نسأل اللَّه الكريم لطفه والعافية من كل مكروه»[3].

قال القرطبي: «ذهب قوم إلى أن الغيبة لا تكون إلا في الدين ولا تكون في الخِلقة والحسب. وقالوا: ذلك فعل اللَّه به. وذهب آخرون إلى عكس هذا فقالوا: لا تكون الغيبة إلا في الخَلْق والخُلُق والحسب. والغيبة في الخَلْق أشدّ؛ لأن من عَيّب صنعة فإنما عيّب صانعها. وهذا كله مردود. أما الأوّل فيردّه حديث عائشة حين قالت في صفية: إنها امرأة قصيرة، فقال لها النبي ﷺ: «**لقد قلت كلمة لو مزج بها البحر لمزجته**» خرجه أبو داود، وقال فيه الترمذي: حديث حسن صحيح، وما كان في معناه حسب ما تقدم. وإجماع العلماء قديمًا على أن ذلك غيبة إذا أريد به العيب. وأما الثاني فمردود أيضًا عند جميع العلماء؛ لأن العلماء من أول الدهر من أصحاب رسول اللَّه ﷺ والتابعين بعدهم لم تكن الغيبة عندهم في شيء أعظم من الغيبة في الدين؛ لأن عيب الدين أعظم العيب؛ فكل مؤمن يكره أن يذكر في دينه أشد مما يكره في بدنه. وكفى ردًّا لمن قال هذا القول قوله ﷺ: «**إذا قلت في أخيك ما يكره فقد اغتبته**..» الحديث. فمن زعم أن ذلك ليس بغيبة فقد رد ما قال النبي ﷺ نصًّا. وكفى بعموم قول النبي ﷺ: «**دماؤكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام**» وذلك عامّ للدين والدنيا، وقول النبي ﷺ: «**من كانت عنده لأخيه مظلمة في**

---

(١) الكاشف (١٠/ ٣١٢٩).

(٢) النجم الآيتان (٣و٤).

(٣) صحيح الأذكار (٢/ ٨٢٧-٨٢٨).

عرضه أو ماله فليتحلله منه»[1] فعمّ كل عرض ؛ فمن خص من ذلك شيئًا دون شيء فقد عارض ما قال النبي ﷺ»[2] .

* عن ابن عمر رضي الله عنهما : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : «**من حالت شفاعته دون حد من حدود اللَّه فقد ضادّ اللَّه ، ومن خاصم في باطل وهو يعلمه لم يزل في سخط اللَّه حتى ينزع عنه ، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه اللَّه ردغة الخبال حتى يخرج مما قال**»[3] .

★ **غريب الحديث:**

حالت : حال الشيء بين الشيئين حولًا وحيلولة : حجز بينهما .

ينزع : نزع الشيءَ من مكانه نزعًا : جذبه وقلعه ، ويقال : نزع الأمير عامله عن عمله : عزله ، ويده من جيبه : أخرجها ، وفي التنزيل العزيز : ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٠٨﴾[4] ، ويقال : نزع يده من الطاعة : خرج منها وعصى .

ردغة الخبال : جاء تفسيرها في الحديث أنها عصارة أهل النار . والردغة ، بسكون الدال وفتحها : طين ووحل كثير ، وتجمع على ردغ ورداغ .

حتى يخرج مما قال : خروجه مما قال : أن يتوب عنه ويستحل من المقول فيه .

* عن سعيد بن زيد عن النبي ﷺ قال : «**إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق**»[5] .

★ **غريب الحديث:**

الاستطالة في عرض المسلم : استحقاره والترفع عليه والوقيعة فيه .

---

(١) أخرجه : أحمد (٢/ ٤٣٥)، والبخاري (٥/ ١٢٧-١٢٨/ ٢٤٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٣٧).

(٣) أخرجه : أحمد (٢/ ٧٠)، أبو داود (٤/ ٢٣/ ٣٥٩٧) واللفظ له ، وصححه الحاكم (٢/ ٢٧) ووافقه الذهبي، وذكره المنذري في الترغيب (٣/ ١٩٧-١٩٨) وقال : رواه أبو داود واللفظ له والطبراني بإسناد جيد، ورواه الحاكم مطولًا ومختصرًا وقال في كل منهما : صحيح الإسناد.

(٤) الأعراف : الآية (١٠٨).

(٥) أخرجه : أبو داود (٥/ ١٩٣/ ٤٨٧٦)، وصحح إسناده الألباني في الصحيحة (١٤٣٣).

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي -نقلًا عن القاضي ناصر الدين-: «الاستطالة في عرض المسلم أن يتناول منه أكثر مما يستحقه على ما قيل له، أو أكثر مما رخص له فيها؛ ولذلك مثله الربا، وعده من عداده، ثم فضله على سائر أفراده؛ لأنه أكثر مضرة وأشد فسادًا، فإن العرض شرعًا وعقلا أعز على النفس من المال وأعظم منه خطرًا؛ ولذلك أوجب الشارع بالمجاهرة بهتك الأعراض ما لم يوجب بنهب الأموال»[1].

❋ عن عائشة ﵄ قالت: استأذن رجل على رسول اللَّه ﷺ فقال: «**ائذنوا له، بئس أخو العشيرة أو ابن العشيرة**»، فلما دخل ألان له الكلام، قلت: يا رسول الله! قلت الذي قلت ثم ألنت له الكلام، قال: «**أي عائشة! إن شر الناس من تركه الناس -أو ودعه الناس- اتقاء فحشه**»[2].

★ **غريب الحديث:**

بئس أخو العشيرة أو ابن العشيرة: أي القبيلة والجماعة. والعرب تستعمل مثل هذا القول: نِعم ابن العشيرة، وأخو العشيرة، يريدون قومه. وعشيرة الرجل: جماعته وقومه.

ألان: ألان الشيءَ وألينه: جعله ليّنًا. ويقال: ألان للقوم جناحه: أخذهم بالملاطفة، ولاينه ملاينة وليانًا: لان له ولاطفه وداهنه.

ودعه: ودع الشيءَ يدعه ودعًا: إذا تركه.

★ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «فيه أن النبي ﷺ قد ذكره بالعيب الذي عرفه به قبل أن يدخل، وهذا من النبي ﷺ لا يجري مجرى الغيبة، وإنما تعريف الناس أمره وزجرهم عن مثل مذهبه، ولعله قد تجاهر بسوء فعاله ومذهبه ولا غيبة لمجاهر واللَّه أعلم»[3].

---

(١) الكاشف (١٠/ ٣٢١٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٨)، والبخاري (١٠/ ٥٧٧-٥٧٨/ ٦٠٥٤) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٠٠٢/ ٢٥٩١)، وأبو داود (٥/ ١٤٤-١٤٦/ ٤٧٩١-٤٧٩٢)، والترمذي (٤/ ٣١٦/ ١٩٩٦) وقال: «حسن غريب»، وأخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٦٨/ ١٠٠٦٦-١٠٠٦٧) مختصرًا.

(٣) معالم السنن (٤/ ١٠١-١٠٢).

قال الحافظ: «يستنبط منه أن المجاهر بالفسق والشر لا يكون ما يذكر عنه من ذلك من ورائه من الغيبة المذمومة»[١].

* عن فاطمة بنت قيس: «أن أبا عمرو بن حفص طلقها ألبتة، وهو غائب، فأرسل إليها وكيله بشعير، فسخطته، فقال: واللَّه مالك علينا من شيء. فجاءت رسول اللَّه ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: **ليس لك عليه نفقة**. فأمرها أن تعتد في بيت أم شريك، ثم قال: **تلك امرأة يغشاها أصحابي، اعتدي عند ابن أم مكتوم؛ فإنه رجل أعمى، تضعين ثيابك، فإذا حللت فآذنيني**. قالت: فلما حللت ذكرت له أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباني. فقال رسول اللَّه ﷺ: **أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له، انكحي أسامة بن زيد**. فكرهته، ثم قال: **انكحي أسامة**. فنكحته، فجعل اللَّه فيه خيرًا، واغتبطت»[٢].

★ غريب الحديث:

ألبتة: أي: قطعًا، لا رجعة فيه.

وكيله: الوكيل: الذي يسعى في عمل غيره، وينوب عنه فيه.

فلا يضع عصاه عن عاتقه: قال البغوي: يتأول على وجهين: أحدهما: الضرب بها والتأديب، والآخر: كثرة السفر والظعن عن الوطن، يقال: رفع الرجل عصاه: إذا سار، ووضع عصاه: إذا نزل وأقام، قال الإمام: والأول أولاهما[٣].

فصعلوك: كعصفور، أي: فقير.

اغتبطت به: على بناء الفاعل من الاغتباط، من غبطه فاغتبط، أي: كانت النساء تغبطني لوفور حظي منه.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «فيه دليل على جواز ذكر الإنسان بما فيه عند المشاورة وطلب

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٥٧٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٤١٢)، ومسلم (٢/ ١١١٤/ ١٤٨٠) واللفظ له، وأبو داود (٢/ ٧١٢-٧١٤/ ٢٢٨٤)، والترمذي (٣/ ٤٤١-٤٤٢/ ١١٣٥) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٦/ ٣٨٢-٣٨٥/ ٣٢٤٤-٣٢٤٥)، وابن ماجه (١/ ٦٠١/ ١٨٦٩).

(٣) شرح السنة (٩/ ٣٠٠).

النصيحة، ولا يكون هذا من الغيبة المحرمة، بل من النصيحة الواجبة»[١].

وقال أبو عمر: «إن قول المرء في غيره ما فيه - إذا سئل عنه عند الخطبة جائز، وأن إظهار ما هو عليه من عيب فيه صواب لا بأس به، وليس من باب الغيبة في شيء، وهو يعارض قوله: إذا قلت في أخيك ما فيه فقد اغتبته، وقد أجمعوا على أنه جائز تبيين حال الشاهد إذا سأل عنه الحاكم، وتبيين حال الخاطب إذا سئل عنه، وفي ذلك أوضح الدلائل على أن حديث الغيبة ليس على عمومه، وقد قيل: إن الغيبة إنما هي أن تصفه على جهة العيب له بما في خلقته من دمامة وسوء خلق، أو قصر، أو عمش، أو عرج، ونحو ذلك، وأما أن تذمه بما فيه من أفعاله، فليس ذلك غيبة، وهذا عندي ليس بالقوي، والذي عليه مدار هذا المعنى: إن من استشير لزمه القول بالحق وأداء النصيحة، وليس ذلك من باب الغيبة؛ لأنه لم يقصد بذلك إلى لمزمه ولا إلى شفاء غيظه، ولا أذى، ويكون حديث الغيبة مرتبًا على هذا المعنى»[٢].

* عن ابن عباس عن النبي صلى اللَّه عليه وآله وسلم قال: «**ليس لنا مثل السوء، الذي يعود في هبته كالكلب يرجع في قيئه**»[٣].

⋆ غريب الحديث:

هبته: الهبة: العطية الخالية عن الأعواض والأغراض.

⋆ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قوله: «**ليس لنا مثل السوء**» أي: لا ينبغي لنا معشر المؤمنين أن نتصف بصفة ذميمة يشابهنا فيها أخس الحيوانات في أخس أحوالها، قال اللَّه ﷻ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾[٤]»[٥].

---

(١) شرح صحيح مسلم (١٠/ ٨٣).

(٢) فتح البر (١٠/ ٦٢٠-٦٢١).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٧)، والبخاري (٥/ ٣٩٢/ ٢٦٢٢)، ومسلم (٣/ ١٢٤٠/ ١٦٢٢)، والترمذي (٣/ ٥٩٢/ ١٢٩٨)، والنسائي (٦/ ٥٧٧-٥٧٩/ ٣٦٩٥-٣٧٠٢). وأخرجه: أبو داود (٣/ ٨٠٨/ ٣٥٣٨)، وابن ماجه (٢/ ٧٩٧/ ٢٣٨٥) مختصرًا.

(٤) النحل: الآية (٦٠).

(٥) الفتح (٥/ ٢٩٤).

* عن أبي بكرة ذكر النبي ﷺ قال: «فإن دماءكم وأموالكم -قال محمد: وأحسبه قال: وأعراضكم- عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب»[١].

تقدم الكلام عليه عند قوله تعالى من هذه السورة: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ .. الآية.

فصل

معنى الغيبة وحدودها في الشرع

قال الغزالي: «اعلم أن حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه أو في خلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه، حتى في ثوبه وداره ودابته.

أما البدن: فكذكرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة، وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان. وأما النسب: فبأن تقول: أبوه نبطي أو هندي أو فاسق أو خسيس أو إسكاف أو زبال، أو شيء مما يكرهه كيفما كان. وأما الخلق: فبأن تقول: هو سيئ الخلق بخيل متكبر مراء شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متهوّر وما يجري مجراه. وأما أفعاله المتعلقة بالدين: فكقولك: هو سارق أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود أو لا يحترز من النجاسات أو ليس بارًّا بوالديه أو لا يضع الزكاة موضعها أو لا يحسن قسمها أو لا يحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لأعراض الناس. وأما فعله المتعلق بالدنيا: فكقولك: إنه قليل الأدب متهاون بالناس، أو لا يرى لأحد على نفسه حقًّا أو يرى لنفسه الحق على الناس، أو أنه كثير الكلام كثير الأكل نؤوم ينام في غير وقت النوم ويجلس في غير موضعه. وأما في ثوبه: فكقولك: إنه واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب.

وقال قوم: لا غيبة في الدين؛ لأنه ذم ما ذمه اللّٰه تعالى فذكره بالمعاصي وذمه

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٧)، والبخاري (١/ ٢٦٥/ ١٠٥) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٣٠٥-١٣٠٦/ ١٦٧٩)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٣٢/ ٥٨٥٠).

بها يجوز؛ بدليل ما روي أن رسول اللَّه ﷺ ذكرت له امرأة وكثرة صلاحها وصومها ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها فقال: «**هي في النار**»[١] . . فهذا فاسد؛ لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعرف الأحكام بالسؤال، ولم يكن غرضهم التنقيص، ولا يحتاج إليه في غير مجلس الرسول ﷺ. والدليل عليه إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب؛ لأنه دخل فيما ذكره رسول اللَّه ﷺ في حد الغيبة.

وكل هذا وإن كان صادقًا فيه فهو به مغتاب عاص لربه وآكل لحم أخيه؛ بدليل ما روي أن النبي ﷺ قال: «**هل تدرون ما الغيبة؟**» قالوا: اللَّه ورسوله أعلم، قال: «**ذكرك أخاك بما يكرهه**»، قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقوله؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته**»[٢]»[٣].

بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان

قال الغزالي: «اعلم أن الذكر باللسان إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك، وتعريفه بما يكرهه، فالتعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول، والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة، وهو حرام. فمن ذلك قول عائشة ﵂: دخلت علينا امرأة، فلما ولت أومأت بيدي أنها قصيرة، فقال عليه السلام: «**اغتبتيها**»[٤]. ومن ذلك المحاكاة يمشي متعارجًا أو كما يمشي فهو غيبة، بل هو أشد من الغيبة؛ لأنه أعظم في التصوير والتفهيم. . وكذلك الغيبة بالكتابة؛ فإن القلم أحد اللسانين، وذكر المصنف شخصًا معينًا وتهجين كلامه في الكتاب غيبة إلا أن يقترن به شيء من الأعذار المحوجة إلى ذكره، كما سيأتي بيانه. وأما قوله: قال قوم كذا: فليس ذلك غيبة، وإنما الغيبة التعرض لشخص معين إما حي وإما ميت. ومن الغيبة أن تقول: بعض من مر بنا اليوم، أو بعض من رأيناه؛ إذا كان المخاطب يفهم منه شخصًا

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٤٠) والبخاري في الأدب المفرد (٦٩/ ٨٨) وصححه ابن حبان (١٣/ ٧٦/ ٥٧٦٤) والحاكم (٤/ ١٦٦) ووافقه الذهبي، من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) إحياء علوم الدين (٣/ ١٤٣-١٤٤).

(٤) تقدم تخريجه بمعناه.

معينًا؛ لأن المحذور تفهيمه دون ما به التفهيم، فأما إذا لم يفهم عينه جاز. كان رسول اللَّه ﷺ إذا كره من إنسان شيئًا قال: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا؟»[(١)] فكان لا يعيّن. وقولك: بعض من قدم من السفر، أو بعض من يدعي العلم، إن كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهي غيبة.

وأخبث أنواع الغيبة غيبة القراء المرائين؛ فإنهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون المقصود، ولا يدرون بجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين: الغيبة والرياء، وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان، فيقول: الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل في طلب الحطام، أو يقول: نعوذ باللَّه من قلة الحياء، نسأل اللَّه أن يعصمنا منها. وإنما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء، وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته، فيقول: ما أحسن أحوال فلان: ما كان يقصر في العبادات، ولكن قد اعتراه فتور، وابتلي بما يُبتلى به كلنا، وهو قلة الصبر. فيذكر نفسه ومقصوده أن يذم غيره في ضمن ذلك، ويمدح نفسه بالتشبه بالصالحين بأن يذم نفسه، فيكون مغتابًا ومرائيًا ومزكيًا نفسه، فيجمع بين ثلاث فواحش، وهو بجهله يظن أنه من الصالحين المتعففين عن الغيبة. ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل إذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم، فإنه يتبعهم ويحبط بمكايده عملهم، ويضحك عليهم، ويسخر منهم. ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان فلا يتنبه له بعض الحاضرين فيقول: سبحان اللَّه ما أعجب هذا! حتى يصغي إليه ويعلم ما يقول، فيذكر اللَّه تعالى ويستعمل الاسم آلة في تحقيق خبثه، وهو يمتن على اللَّه ﷻ بذكره جهلًا منه وغرورًا. وكذلك يقول: ساءني ما جرى على صديقنا من الاستخفاف به، نسأل اللَّه أن يروح نفسه؛ فيكون كاذبًا في دعوى الاغتمام، وفي إظهار الدعاء له، بل لو قصد الدعاء لأخفاه في خلوته عقيب صلاته، ولو كان يغتم به لاغتم أيضًا بإظهار ما يكرهه. وكذلك يقول: ذلك المسكين قد بلي بآفة عظيمة تاب اللَّه علينا وعليه، فهو في كل ذلك يظهر الدعاء، واللَّه مطلع على خبث ضميره وخفي قصده، وهو لجهله لا يدري أنه قد تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجهال إذا جاهروا»[(٢)].

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٤١) والبخاري (٩/ ١٢٩/ ٥٠٦٣) ومسلم (٢/ ١٠٢٠/ ١٤٠١) والنسائي (٦/ ٣٦٨-٣٦٩/ ٣٢١٧) من حديث أنس ﷺ.

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ١٤٤-١٤٥).

حكم الغيبة

قال النووي: «باب تحريم الغيبة والنميمة: اعلم أن هاتين الخصلتين من أقبح القبائح، وأكثرها انتشارًا في الناس حتى ما يسلم منهما إلا القليل من الناس. . فأما الغيبة فهي ذكرك الإنسان بما فيه مما يكره سواء كان في بدنه أو دينه أو دنياه أو نفسه أو خلْقه أو خُلقه أو ماله أو ولده أو والده أو زوجه أو خادمه أو مملوكه أو عمامته أو ثوبه أو مشيته وحركته وبشاشته وخلاعته وعبوسه وطلاقته أو غير ذلك مما يتعلق به، سواء ذكرته بلفظك أو كتابك أو رمزت أو أشرت إليه بعينك أو يدك أو رأسك أو نحو ذلك»[١].

«وضابطه كل ما أفهمت به غيرك نقصان مسلم فهو غيبة محرمة»[٢].

«وأما النميمة فهي نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد. هذا بيانهما، وأما حكمهما فهما محرمتان بإجماع المسلمين، وقد تظاهر على تحريمهما الدلائل الصريحة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة»[٣].

قال أبو العباس القرطبي: «الغيبة لا شك في أنها محرمة بالكتاب والسنة، فالكتاب قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ الآية. وأما السنة فكثيرة من أنصّها: ما أخرجه أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن من الكبائر استطالة المرء في عرض رجل مسلم**»[٤]، وفي كتابه من حديث أنس عنه ﷺ قال: «**مررت ليلة أسري بي بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجووههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم**»[٥]»[٦].

قال ابن حجر الهيتمي: «عدّ الغيبة المحرمة كبيرة هو ما جرى عليه كثيرون، وصرّح به الأذرعي وتبعه الزركشي.

---

(١) صحيح الأذكار (٢/ ٨٢٤).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٨٣٠).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٨٢٥).

(٤) تقدم تخريجه ضمن أحاديث الباب.

(٥) تقدم تخريجه ضمن أحاديث الباب.

(٦) المفهم (٦/ ٥٧٠).

وأما تقرير الشيخين[١] صاحب «العدة» على أن الغيبة صغيرة، وكذا السكوت عليها، فاعترضوه، قال الأذرعي: إطلاق القول بأنها من الصغائر ضعيف أو باطل، وقد نقل القرطبي المفسر[٢] وغيره الإجماع على أنها من الكبائر، ويوافقه كلام جماعة من أصحابنا، كما سبق في حد الكبيرة، وقد غلّظ أمرها في الكتاب والسنة، ومن تتبع الأحاديث فيها علم أنها من الكبائر، ولم أر من صرح بأنها من الصغائر غير الغزالي وصاحب «العدة»»[٣].

وقال أيضًا: «من تأمل الأحاديث التي قدمتها فيها علم أن فيها أعظم العذاب وأشد النكال، فقد صح فيها أنها أربى الربى، وأنها لو مزجت بماء البحر أنتنته وغيرت ريحه، وأن أهلها يأكلون الجيف في النار، وأن لهم رائحة منتنة فيها، وأنهم يعذبون في قبورهم، وبعض هذه كافية في الكبيرة، فكيف إذا اجتمعت، هذا ما في الأحاديث الصحيحة، وأما ما مر في غيرها، فهو أعظم وأشد، فظهر أن الذي دلت عليه الدلائل الكثيرة الصحيحة الظاهرة أنها كبيرة، لكنها تختلف عظمًا وضده بحسب اختلاف مفسدتها»[٤].

قال الحافظ: «وهذا الوعيد في هذه الأحاديث يدل على أن الغيبة من الكبائر، لكن تقييده في بعضها بغير حق قد يخرج الغيبة بحق لِما تقرر أنها ذكر المرء بما فيه»[٥].

قال الأذرعي: «وأقل الدرجات أنه إن لم يثبت إجماع أن يُفصل بين غيبة وغيبة، فإن مراتبها ومفاسدها والتأذي بها يختلف اختلافًا كثيرًا بحسب خفتها وثقلها وإيذائها»[٦].

وقال الألوسي: «والآية دالة على حرمة الغيبة. وقد نقل القرطبي وغيره الإجماع على أنها من الكبائر، وعن الغزالي وصاحب «العدة» أنهما صرحا بأنها من الصغائر، وهو عجيب منهما؛ لكثرة ما يدل على أنها من الكبائر، وقصارى ما

---

(١) المقصود بهما: الرافعي والنووي.
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٣٧).
(٣) الزواجر (٢/ ٢٤-٢٥) بتصرف.
(٤) الزواجر (٢/ ٢٨).
(٥) فتح الباري (١٠/ ٥٧٦).
(٦) الزواجر (٢/ ٢٥).

قيل في وجه القول بأنها صغيرة: أنه لو لم تكن كذلك يلزم فسق الناس كلهم إلا الفذ النادر منهم، وهذا حرج عظيم. وتعقب بأن فشو المعصية وارتكاب جميع الناس لها فضلًا عن الأكثر لا يوجب أن تكون صغيرة، وهذا الذي دل عليه الكلام من ارتكاب أكثر الناس لها لم يكن قبل. على أن الإصرار عليها قريب منها في كثرة الفشو في الناس، وهو كبيرة بالإجماع، ويلزم عليه الحرج العظيم وإن لم يكن في عظم الحرج السابق، مع أن هذا الدليل لا يقاوم تلك الدلائل الكثيرة، ولعل الأولى في الاستدلال على ذلك: ما رواه أحمد وغيره بسند صحيح عن أبي بكرة قال: «بينما أنا أماشي رسول اللَّه صلى اللَّه تعالى عليه وسلم، وهو آخذ بيدي، ورجل عن يساري، فإذا نحن بقبرين أمامنا، فقال رسول اللَّه ﷺ: **إنهما ليعذّبان، وما يعذّبان بكبير**، وبكى إلى أن قال: **وما يعذّبان إلا في الغيبة والبول**»[1]، ولا يتمّ أيضًا، فقد قال ابن الأثير: المعنى: وما يعذبان في أمر كان يكبر عليهما ويشق فعله لو أراداه، لا أنه في نفسه غير كبير، وكيف لا يكون كبيرًا وهما يعذبان فيه، فالحق أنها من الكبائر. نعم، لا يبعد أن يكون منها ما هو من الصغائر، كالغيبة التي لا يتأذى بها كثيرًا، نحو عيب الملبوس والدابة، ومنها ما لا ينبغي أن يشك في أنه من أكبر الكبائر، كغيبة الأولياء والعلماء بألفاظ الفسق والفجور ونحوها من الألفاظ الشديدة الإيذاء»[2].

المستمع للغيبة والمغتاب في الإثم سواء

قال النووي: «اعلم أن الغيبة كما يحرم على المغتاب ذكرها، يحرم على السامع استماعها وإقرارها، فيجب على من سمع إنسانًا يبتدئ بغيبة محرمة أن ينهاه إن لم يخف ضررًا ظاهرًا، فإن خافه وجب عليه الإنكار بقلبه، ومفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقته، فإن قدر على الإنكار بلسانه أو على قطع الغيبة بكلام آخر لزمه ذلك، فإن لم يفعل، عصى. فإن قال بلسانه: اسكت، وهو يشتهي بقلبه استمراره فقال أبو حامد الغزالي: (ذلك نفاق لا يخرجه عن الإثم، ولا بد من كراهته بقلبه). ومتى اضطر المقام في ذلك المجلس الذي فيه الغيبة، وعجز عن

---

(١) تقدم تخريجه ضمن أحاديث الباب.

(٢) روح المعاني (٢٦/ ١٥٩-١٦٠).

الإنكار، أو أنكر فلم يقبل منه، ولم يمكنه المفارقة بطريق، حرم عليه الاستماع والإصغاء للغيبة، بل طريقه أن يذكر اللَّه تعالى بلسانه وقلبه، أو بقلبه، أو يفكر في أمر آخر ليشتغل عن استماعها، ولا يضره بعد ذلك السماع من غير استماع وإصغاء في هذه الحالة المذكورة، فإن تمكن بعد ذلك من المفارقة وهم مستمرون في الغيبة ونحوها وجب عليه المفارقة»[١].

قال الغزالي: «ومن ذلك الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب؛ فإنه إنما تظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة، فيندفع فيها، وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول: عجب! ما علمت أنه كذلك، ما عرفته إلى الآن إلا بالخير، وكنت أحسب فيه غير هذا، عافانا اللَّه من بلائه؛ فإن كل ذلك تصديق للمغتاب، والتصديق بالغيبة غيبة، بل الساكت شريك المغتاب، [وقد جاء في حديث أنس بن مالك ﷺ قال: «كانت العرب يخدم بعضها بعضًا في الأسفار، وكان مع أبي بكر وعمر رجل يخدمهما، فاستيقظا، ولم يهيئ لهما طعامًا، فقال أحدهما لصاحبه: إن هذا ليُوائم[٢] نوم بيتكم (و في رواية: ليوائم نوم نبيكم ﷺ) فأيقظاه، فقالا: ائت رسول اللَّه ﷺ، فقل له: إن أبا بكر وعمر يقرئانك السلام، وهما يستأدمانك. فقال: قد ائتدما! ففزعا. فجاءا إلى النبي ﷺ فقالا: يا رسول الله! بعثنا إليك نستأدمك، فقلت: قد ائتدما؛ فبأي شيء ائتدمنا؟ قال: **بلحم أخيكما، والذي نفسي بيده؛ إني لأرى لحمه من أنيابكما** (وفي رواية: ثناياكما)، قالا: فاستغفر لنا، قال: **هو فليستغفر لكما**»[٣]]، فانظر كيف جمعهما وكان القائل أحدهما، والآخر مستمعًا.. فالمستمع لا يخرج من إثم الغيبة إلا أن ينكر بلسانه، أو بقلبه إن خاف. وإن قدر على القيام، أو قطع الكلام بكلام آخر، فلم يفعل، لزمه. وإن قال بلسانه: اسكت، وهو مشته ذلك بقلبه، فذلك نفاق، ولا يخرجه من الإثم ما لم يكرهه بقلبه»[٤].

---

(١) صحيح الأذكار (٢/ ٨٣١-٨٣٢).

(٢) قيل: الموايمة: الموافقة، ومعناه: إن هذا النوم يشبه نوم البيت، لا نوم السفر؛ عابوه بكثرة النوم.

(٣) أخرجه الخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (١٨٦)، وصحح إسناده الشيخ الألباني. انظر السلسلة الصحيحة (٢٦٠٨).

(٤) إحياء علوم الدين (٣/ ١٤٥-١٤٦) بتصرف.

قال ابن حجر: «ولا تصغ لمن دأبه الكلام في الناس مطلقًا، وينبغي لك إذا ورد عليك خاطر سوء بمسلم أن تبادر بالدعاء له بالخير؛ لتغيظ الشيطان، وتقطع عنه إلقاءه إليك ذلك من دعائك له، وإذا عرفت هفوة مسلم أن تنصحه سرًّا، قاصدًا تخليصه من الإثم، مظهرًا لحزنك على ما أصابه، كما تحزن لو أصابك؛ لتجمع بين أجر الوعظ وأجر الهم والإعانة له على دينه»[1].

بواعث الغيبة وأسبابها

قال الغزالي: «اعلم أن البواعث على الغيبة كثيرة، ولكن يجمعها أحد عشر سببًا: ثمانية منها تطرد في حق العامة، وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة.

أما الثمانية؛ فالأول: أن يشفي الغيظ؛ وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه؛ فإنه إذا هاج غضبه يشتفي بذكر مساويه، فيسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن ثم دين وازع، وقد يمتنع الغيظ عند الغضب، فيحتقن الغضب في الباطن، فيصير حقدًا ثابتًا، فيكون سببًا دائمًا لذكر المساوي؛ فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة.

الثاني: موافقة الأقران، ومجاملة الرفقاء، ومساعدتهم على الكلام؛ فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة، ويظن أنه مجاملة في الصحبة، وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم إظهارًا للمساهمة في السراء والضراء، فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوي.

الثالث: أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه، أو يقبح حاله عند محتشم، أو يشهد عليه بشهادة، فيبادره قبل أن يقبح هو حاله، ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته، أو يبتدئ بذكر ما فيه صادقًا ليكذب عليه بعده، فيروج كذبه بالصدق الأول، ويستشهد ويقول: ما من عادتي الكذب، فإني أخبرتكم بكذا وكذا من أحواله فكان كما قلت.

الرابع: أن ينسب إلى شيء، فيريد أن يتبرأ منه، فيذكر الذي فعله. وكان من حقه

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢/ ٣٨-٣٩).

أن يبرئ نفسه ولا يذكر الذي فعل، فلا ينسب غيره إليه، أو يذكر غيره بأنه كان مشاركًا له في الفعل؛ ليمهد بذلك عذر نفسه في فعله.

الخامس: إرادة التصنع والمباهاة، وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره، فيقول: فلان جاهل وفهمه ركيك وكلامه ضعيف: وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه، ويريهم أنه أعلم منه، أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه، فيقدح فيه لذلك.

السادس: الحسد، وهو أنه ربما يحسد من يثني الناس عليه ويحبونه ويكرمونه، فيريد زوال تلك النعمة عنه، فلا يجد سبيلًا إليه إلا بالقدح فيه، فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفّوا عن كرامته والثناء عليه؛ لأنه يثقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناءهم عليه وإكرامهم له، وهذا هو عين الحسد، وهو غير الغضب والحقد؛ فإن ذلك يستدعي جناية من المغضوب عليه، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن والرفيق الموافق.

السابع: اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك، فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ومنشؤه التكبر والعجب.

الثامن: السخرية والاستهزاء استحقارًا له؛ فإن ذلك قد يجري في الحضور، ويجري أيضًا في الغيبة، ومنشؤه التكبر واستصغار المستهزأ به.

وأما الأسباب الثلاثة التي هي في الخاصة فهي أغمضها وأدقها؛ لأنها شرور خبأها الشيطان في معرض الخيرات، وفيها خير، ولكن شاب الشيطان بها الشر.

الأول: أن تنبعث من الدين داعية التعجب في إنكار المنكر والخطإ في الدين، فيقول: ما أعجب ما رأيت من فلان! فإنه قد يكون به صادقًا ويكون تعجبه من المنكر، ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه، فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في إظهار تعجبه، فصار به مغتابًا وآثمًا من حيث لا يدري. ومن ذلك قول الرجل: تعجبت من فلان، كيف يحب جاريته وهي قبيحة؟ وكيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل؟

الثاني: الرحمة، وهو أن يغتم بسبب ما يبتلى به فيقول: مسكين فلان قد غمني أمره وما ابتلي به، فيكون صادقًا في دعوى الاغتمام، ويلهيه الغم عن الحذر من ذكر اسمه، فيذكره فيصيره به مغتابًا، فيكون غمه ورحمته خيرًا، وكذا تعجبه، ولكن

ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدري. والترحم والاغتمام ممكن دون ذكر اسمه، فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه.

الثالث: الغضب لله تعالى؛ فإنه قد يغضب على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه، فيظهر غضبه ويذكر اسمه، وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يظهره على غيره، أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء.

فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء، فضلًا عن العوام؛ فإنهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب إذا كان لله تعالى كان عذرًا في ذكر الاسم، وهو خطأ؛ بل المرخص في الغيبة حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها عن ذكر الاسم، كما سيأتي ذكره»[1].

العلاج الذي يمنع اللسان عن الغيبة

قال الغزالي: «اعلم أن مساوئ الأخلاق كلها إنما تعالج بمعجون العلم والعمل، وإنما علاج كل علة بمضادة سببها، فلنفحص عن سببها. وعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين: أحدهما على الجملة، والآخر على التفصيل:

أما على الجملة: فهو أن يعلم تعرضه لسخط اللَّه تعالى بغيبته بهذه الأخبار التي رويناها، وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة؛ فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلًا عما استباحه من عرضه، فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه، وهو مع ذلك متعرض لمقت اللَّه ﷻ، ومشبه عنده بآكل الميتة، بل العبد يدخل النار بأن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته، وربما تنقل إليه سيئة واحدة ممن اغتابه، فيحصل بها الرجحان ويدخل بها النار، وإنما أقل الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله، وذلك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب.. فمهما آمن العبد بما ورد من الأخبار في الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفًا من ذلك. وينفعه أيضًا أن يتدبر في نفسه، فإن وجد فيها عيبًا اشتغل بعيب نفسه.. ومهما وجد عيبًا فينبغي أن يستحيي من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره؛ بل ينبغي أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه في التنزه عن ذلك العيب كعجزه، وهذا إن كان عيبًا

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ١٤٦-١٤٧).

يتعلق بفعله واختياره، وإن كان أمرًا خلقيًا فالذم للخالق فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها. قال رجل لحكيم: يا قبيح الوجه، قال: ما كان خلق وجهي إلي فأحسنه. وإذا لم يجد عيبًا في نفسه فليشكر اللَّه تعالى، ولا يلوثن نفسه بأعظم العيوب؛ فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب، بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه بريء من كل عيب جهل بنفسه، وهو من أعظم العيوب. وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له، فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يغتاب فينبغي أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه. فهذه معالجات جملية.

أما التفصيل: فهو أن ينظر في السبب الباعث له على الغيبة، فإن علاج العلة بقطع سببها، وقد قدمنا الأسباب.

أما الغضب فيعالجه.. بأن يقول: إني إذا أمضيت غضبي عليه فلعل اللَّه تعالى يمضي غضبه علي بسبب الغيبة إذ نهاني عنها فاجترأت على نهيه واستخففت بزجره.. وقال ﷺ: «**من كظم غيظًا، وهو يقدر على أن يمضيه، دعاه اللَّه تعالى يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء**»[1]..

وأما الموافقة فبأن تعلم أن اللَّه تعالى يغضب عليك إذا طلب سخطه في رضا المخلوقين، فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك وتحقر مولاك فتترك رضاه لرضاهم إلا أن يكون غضبك لله تعالى؟ وذلك لا يوجب أن نذكر المغضوب عليه بسوء؛ بل ينبغي أن تغضب لله أيضًا على رفقائك إذا ذكروه بالسوء؛ فإنهم عصوا ربك بأفحش الذنوب وهي الغيبة.

وأما تنزيه النفس بنسبة الغير إلى الخيانة حيث يستغنى عن ذكر الغير، فتعالجه بأن تعرف أن التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوقين، وأنت بالغيبة متعرض لسخط اللَّه يقينًا، ولا تدري أنك تتخلص من سخط الناس أم لا! فتخلص نفسك في الدنيا بالتوهم، وتهلك في الآخرة وتخسر حسناتك بالحقيقة، ويحصل لك ذم اللَّه تعالى نقدًا، وتنتظر دفع ذم الخلق نسيئة، وهذا غاية الجهل والخذلان.

---

(١) أخرجه: أبو داود (٥/ ١٣٧-١٣٨/ ٤٧٧٧) والترمذي (٤/ ٣٢٦-٣٢٧/ ٢٠٢١) وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٠/ ٤١٨٦) من حديث معاذ بن أنس ﷺ.

وأما عذرك كقولك: إن أكلت الحرام ففلان يأكله، وإن قبلت مال السلطان ففلان يقبله، فهذا جهل؛ لأنك تعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به؛ فإن من خالف أمر اللَّه تعالى لا يقتدى به كائنًا من كان، ولو دخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم توافقه، ولو وافقته لسفه عقلك. ففيما ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها إلى ما اعتذرت عنه، وسجلت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك وغباوتك، وكنت كالشاة تنظر إلى المعزى تردي نفسها من قلة الجبل فهي أيضًا تردي نفسها، ولو كان لها لسان ناطق بالعذر وصرخت بالعذر وقالت: العنز أكيس مني وقد أهلكت نفسها فكذلك أنا أفعل، لكنت تضحك من جهلها، وحالك مثل حالها، ثم لا تعجب ولا تضحك من نفسك.

وأما قصدك المباهاة وتزكية النفس بزيادة الفضل بأن تقدح في غيرك، فينبغي أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند اللَّه، وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر، وربما نقص اعتقادهم فيك إذا عرفوك بثلب الناس، فتكون قد بعت ما عند الخالق يقينًا بما عند المخلوقين وهمًا، ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يغنون عنك من اللَّه شيئًا.

وأما الغيبة لأجل الحسد فهو جمع بين عذابين؛ لأنك حسدته على نعمة الدنيا، وكنت في الدنيا معذبًا بالحسد، فما قنعت بذلك حتى أضفت إليه عذاب الآخرة، فكنت خاسرًا نفسك في الدنيا، فصرت أيضًا خاسرًا في الآخرة لتجمع بين النكالين، فقد قصدت محسودك، فأصبت نفسك، وأهديت إليه حسناتك، فإذا أنت صديقه وعدو نفسك؛ إذ لا تضره غيبتك وتضرك، وتنفعه إذ تنقل إليه حسناتك أو تنقل إليك سيئاته ولا تنفعك، وقد جمعت إلى خبث الحسد جهل الحماقة، وربما يكون حسدك وقدحك سبب انتشار فضل محسودك، كما قيل:

وإذا أراد اللَّه نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

وأما الاستهزاء فمقصودك منه إخزاء غيرك عند الناس بإخزاء نفسك عند اللَّه تعالى وعند الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام، فلو تفكرت في حسرتك وجنايتك وخجلتك وخزيك يوم القيامة يوم تحمل سيئات من استهزأت به، وتساق إلى النار، لأدهشك ذلك عن إخزاء صاحبك! ولو عرفت حالك لكنت أولى أن

تضحك منك؛ فإنك سخرت به عند نفر قليل، وعرضت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة بيدك على ملأ من الناس، ويسوقك تحت سيئاته كما يساق الحمار إلى النار، مستهزئًا بك، وفرحًا بخزيك، ومسرورًا بنصرة اللَّه تعالى إياه عليك، وتسلطه على الانتقام منك.

وأما الرحمة له على إثمه فهو حسن، ولكن حسدك إبليس فأضلك، واستنطقك بما ينقل من حسناتك إليه ما هو أكثر من رحمتك، فيكون جبر الإثم المرحوم فيخرج عن كونه مرحومًا، وتنقلب أنت مستحقًا لأن تكون مرحومًا؛ إذ حبط أجرك ونقصت من حسناتك، وكذلك الغضب لله تعالى لا يوجد الغيبة، وإنما الشيطان حبب إليك الغيبة ليحبط أجر غضبك وتصير معرضًا لمقت اللَّه ﷻ بالغيبة.

وأما التعجب إذا أخرجك إلى الغيبة، فتعجب من نفسك أنت! كيف أهلكت نفسك ودينك بدين غيرك أو بدنياه وأنت مع ذلك لا تأمن من عقوبة الدنيا! وهو أن يهتك اللَّه سترك كما هتكت بالتعجب ستر أخيك.

فإذن علاج جميع ذلك المعرفة فقط والتحقق بهذه الأمور التي هي من أبواب الإيمان، فمن قوي إيمانه بجميع ذلك انكف لسانه عن الغيبة لا محالة»[(١)].

أمر من سمع غيبة شيخه أو صاحبه أو غيرهما

قال النووي: «اعلم أنه ينبغي لمن سمع غيبة مسلم أن يردّها ويزجر قائلها. فإن لم ينزجر بالكلام، زجره بيده. فإن لم يستطع باليد ولا باللسان، فارق ذلك المجلس. فإن سمع غيبة شيخه أو غيره ممّن له عليه حق، أو كان من أهل الفضل والصلاح، كان الاعتناء بما ذكرناه أكثر.

روينا في كتاب الترمذي عن أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**من ردّ عن عرض أخيه ردّ اللَّه عن وجهه النار يوم القيامة**»[(٢)].. وروينا في صحيحيهما عن كعب بن مالك ﷺ في حديثه الطويل في قصة توبته، قال: «قال النبي ﷺ وهو جالس في القوم بتبوك: **ما فعل كعب بن مالك؟** فقال رجل من بني سلمة: يا رسول

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ١٤٨-١٥٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٥٠) والترمذي (٤/ ٢٨٨/ ١٩٣١) وقال: «حديث حسن» من حديث أبي الدرداء ﷺ.

الله! حبسه برداه، والنظر في عطفيه. فقال له معاذ بن جبل رضي الله عنه: بئس ما قلتَ، واللَّه يا رسول الله! ما علمنا عليه إلا خيرًا. فسكت رسول اللَّه ﷺ»[1]»[2].

الأعذار المرخصة في الغيبة

قال ابن كثير: «والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته كما في الجرح والتعديل والنصيحة، كقوله ﷺ لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «**ائذنوا له، بئس أخو العشيرة**»[3]، وكقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس رضي الله عنها وقد خطبها معاوية وأبو الجهم: «**أما معاوية فصعلوك، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه**»[4]، وكذا ما جرى مجرى ذلك، ثم بقيتها على التحريم الشديد»[5].

قال النووي: «اعلم أن الغيبة وإن كانت محرمة، فإنها تباح في أحوال للمصلحة، والمجوِّز لهذا غرض صحيح شرعي لا يمكن الوصول إليه إلا بها، وهو أحد ستة أسباب:

الأول: التظلّم: فيجوز للمظلوم أن يتظلّم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية أو له قدرة على إنصافه من ظالمه، فيذكر أن فلانًا ظلمني وفعل بي كذا وأخذ لي كذا.. ونحو ذلك.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر وردّ العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا، فازجره عنه.. ونحو ذلك، ويكون مقصوده التوسل إلى إزالة المنكر، فإن لم يقصد ذلك كان حرامًا.

الثالث: الاستفتاء: بأن يقول للمفتي: ظلمني أبي أو أخي أو فلان بكذا، فهل له ذلك أم لا؟ وما طريقي في الخلاص منه وتحصيل حقي ودفع الظلم عني؟..

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٨٧-٣٩٠) والبخاري (٨/ ١٤٢-١٤٥/ ٤٤١٨) ومسلم (٤/ ٢١٢٠-٢١٢٨/ ٢٧٦٩) وأبو داود (٢/ ٦٥٢-٦٥٣/ ٢٢٠٢) والترمذي (٥/ ٢٦٣/ ٣١٠٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٥٩-٣٦٠/ ١١٢٣٢) وابن ماجه (١/ ٤٤٦/ ١٣٩٣).

(٢) الأذكار (٢/ ٨٣٨-٨٤١).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٥٩-٣٦٠).

ونحو ذلك. وكذلك قوله: زوجتي تفعل معي كذا أو زوجي يفعل كذا.. ونحو ذلك، فهذا جائز للحاجة، ولكن الأحوط أن يقول: ما تقول في رجل كان من أمره كذا، أو في زوج أو زوجة تفعل كذا؟.. ونحو ذلك، فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين، ومع ذلك فالتعيين جائز لحديث هند.. وقولها: **«يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل شحيح..»**[1] الحديث. ولم ينهها رسول الله ﷺ.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم: وذلك من وجوه: منها: جرح المجروحين من الرواة للحديث والشهود، وذلك جائز بإجماع المسلمين، بل واجب للحاجة. ومنها إذا استشارك إنسان في مصاهرته أو مشاركته أو إيداعه أو الإيداع عنده أو معاملته بغير ذلك وجب عليك أن تذكر له ما تعلمه منه على جهة النصيحة، فإن حصل الغرض بمجرد قولك: لا تصلح لك معاملته، أو مصاهرته، أو لا تفعل هذا، أو نحو هذا لم تجزئه الزيادة بذكر المساوئ، وإن لم يحصل الغرض إلا بالتصريح بعينه فاذكره بصريحه. ومنها: إذا رأيت من يشتري عبدًا معروفًا بالسرقة أو الزنا أو الشراب أو غيرهما فعليك أن تبين ذلك للمشتري إن لم يكن عالمًا به، ولا يختص بذلك، بل كل من علم بالسلعة المبيعة عيبًا وجب عليه بيانه للمشتري إذا لم يعلمه. ومنها: إذا رأيت متفقها يتردد إلى مبتدع أو فاسق يأخذ عنه العلم، خفت أن يتضرر المتفقه بذلك فعليك نصيحته ببيان حاله. ويشترط أن يقصد النصيحة، وهذا مما يغلط فيه، وقد يحمل المتكلم بذلك الحسد أو يلبس الشيطان عليه ذلك، ويخيل إليه أنه نصيحة وشفقة، فليتفطن لذلك. ومنها: أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها، إما بأن لا يكون صالحًا لها، وإما بأن يكون فاسقًا أو مغفلًا ونحو ذلك، فيجب ذكر ذلك لمن له عليه ولاية عامة، ليزيله ويولي من يصلح، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله ولا يغتر به، وأن يسعى في أن يحثه على الاستقامة أو يستبدل به.

الخامس: أن يكون مجاهرًا بفسقه أو بدعته: كالمجاهر بشرب الخمر أو مصادرة الناس أو أخذ المكس وجباية الأموال ظلمًا وتولي الأمور الباطلة، فيجوز

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٩) والبخاري (٤/ ٥١٠/ ٢٢١١) ومسلم (٣/ ١٣٣٨/ ١٧١٤) وأبو داود (٣/ ٨٠٢-٨٠٤/ ٣٥٣٢) والنسائي (٨/ ٦٣٨/ ٥٤٣٥) وابن ماجه (٢/ ٧٦٩/ ٢٢٩٣) من حديث عائشة ﵂.

ذكره بما يجاهر به، ويحرم ذكره بغيره من العيوب إلا أن يكون لجوازه سبب آخر مما ذكرناه.

السادس: التعريف: فإذا كان الإنسان معروفًا بلقب كالأعمش والأعرج والأحول والأفطس وغيرهم، جاز تعريفهم بذلك بنية التعريف ويحرم إطلاقه على جهة النقص، ولو أمكن التعريف بغيره كان أولى.

فهذه ستة أسباب ذكرها العلماء مما تباح بها الغيبة على ما ذكرناه، وممن نصّ عليها هكذا الإمام أبو حامد الغزالي في «الإحياء» وآخرون من العلماء، ودلائلها ظاهرة من الأحاديث الصحيحة المشهورة، وأكثر هذه الأسباب مجمع على جواز الغيبة بها»[1].

أمور ينبغي مراعاتها عند الغيبة المباحة

«الإخلاص لله في النية: فمن ذكر شخصًا بشيء فيه، ولم يذكره إزالة لمنكر، وإنما للنيل منه، أو التنقيص، فهو آثم، كرجل كان يستشير آخر في أمر زواج، فقال ما فيه، لا لإظهار الحق، وإنما حسدًا من عند نفسه؛ كيلا يوفَّق في الزواج من تلك الفتاة، فهذا حرام، وأمثال هذه الصور كثيرة.

أن تذكر أخاك بما فيه، إن كان في ذلك تحقيق مصلحة من المصالح المتقدمة، ولا تفتح لنفسك الباب لتذكر كل العيوب الأخرى.

التأكد أن من وراء هذه الغيبة لا تتحقق مفسدة أكثر من الفائدة، ولا تقع فتنة تضر بالمسلمين»[2].

كفارة الغيبة والتوبة منها

قال النووي: «اعلم أن كل من ارتكب معصية لزمه المبادرة إلى التوبة منها. والتوبة من حقوق اللَّه تعالى يشترط فيها ثلاثة أشياء:

أن يقلع عن المعصية في الحال.

---

(١) صحيح الأذكار (٢/ ٨٣٤-٨٣٦).

(٢) الغيبة وأثرها السيئ (ص: ٤٨-٤٩). وانظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٨/ ٢٣٥-٢٣٦).

وأن يندم على فعلها .

وأن يعزم ألا يعود إليها .

والتوبة من حقوق الآدميين يشترط فيها هذه الثلاثة، ورابع، وهو : رد الظُّلامة إلى صاحبها، أو طلب عفوه عنها، والإبراء منها .

فيجب على المغتاب التوبة بهذه الأمور الأربعة؛ لأن الغيبة حق آدمي، ولا بد من استحلاله من اغتابه»[(١)] .

وقال ابن عثيمين : «لكنها بالتتبع تبلغ خمسة -فذكر الأربعة، ثم قال :-

الشرط الخامس : أن تكون في زمن تقبل فيه التوبة . فإن تاب في زمن لا تقبل فيه التوبة لم تنفعه التوبة . وذلك على نوعين :

النوع الأول : باعتبار كل إنسان بحسبه .

والنوع الثاني : باعتبار العموم .

أما الأول فلا بد أن تكون التوبة قبل حلول الأجل يعني الموت، فإن كانت بعد حلول الأجل فإنها لا تنفع التائب لقول اللَّه سبحانه : ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾[(٢)]، هؤلاء ليس لهم توبة . وقال تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾[(٣)] .

فالإنسان إذا عاين الموت وحضره الأجل، فهذا يعني أنه أيس من الحياة، فتكون توبته في غير محلها! بعد أن يئس من الحياة، وعرف أنه لا بقاء له يذهب فيتوب! هذه توبة اضطرار، فلا تنفعه، ولا تقبل منه، لا بد أن تكون التوبة سابقة .

النوع الثاني : وهو العموم؛ فإن الرسول -عليه الصلاة والسلام- أخبر بأن «الهجرة لا تنقطع حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من

---

(١) صحيح الأذكار (٢/ ٨٤٥-٨٤٦) .

(٢) النساء : الآية (١٨) .

(٣) غافر الآيتان (٨٤و٨٥) .

مغربها»[١].

فإذا طلعت الشمس من مغربها لم تنفع أحدًا توبة؛ قال اللَّه سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[٢]. وهذا البعض هو طلوع الشمس من مغربها كما فسّر ذلك النبي -عليه الصلاة والسلام-.

إذًا فلا بد أن تكون التوبة في وقت تقبل فيه التوبة، فإن لم تكن كذلك فلا توبة للإنسان»[٣].

من أقوال السلف في التحذير من الغيبة والاستماع إليها

قال ابن بطال: «والغيبة من الذنوب العظام التي تحبط الأعمال.. وقد قيل: إنها تفطر الصائم بإحباط أجره.. ولذلك قال النخعي: ما أبالي اغتبتُ رجلًا أم شربتُ ماءً باردًا في رمضان.. ولعظيم وزر الغيبة وكثرة ما تحبط من الأجر كفّ جماعة من العلماء عن اغتياب جميع الناس حتى لقد روي عن ابن المبارك أنه قال: لو كنت مغتابًا أحدًا لاغتبت والدي؛ لأنهما أحق الناس بحسناتي. وقال رجل لبعض السلف: إنك قلت فيّ. قال: أنت إذًا أكرم علي من نفسي!»[٤].

قال الغزالي: «وكان الصحابة ﷺ يتلاقون بالبشر، ولا يغتابون عند الغيبة، ويرون ذلك أفضل الأعمال، ويرون خلافه عادة المنافقين..

وقال الحسن: واللَّه للغيبة أسرع في دين الرجل المؤمن من الأكلة في الجسد. وقال بعضهم: أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في الكف عن أعراض الناس. وقال ابن عباس: إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك. وقال أبو هريرة: يبصر أحدكم القذى في عين أخيه ولا يبصر الجذع في عين نفسه. وكان الحسن يقول: ابن آدم! إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٩٩) وأبو داود (٣/ ٧-٨/ ٢٤٧٩) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢١٧/ ٨٧١١) من حديث معاوية بن أبي سفيان ﷺ.

(٢) الأنعام: الآية (١٥٨).

(٣) شرح رياض الصالحين (١/ ٧٤-٨٠).

(٤) شرح صحيح البخاري (٩/ ٢٤٥-٢٤٦).

لا تعيب الناس بعيب هو فيك، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك، وأحب العباد إلى اللَّه من كان هكذا»[(١)].

وقال أبو عمر: «روى ابن علية عن يونس بن عبيد عن محمد بن سيرين، قال: ظلم لأخيك المسلم أن تقول أسوأ ما تعلم فيه.. وعن عتبة بن أبي سفيان أنه قال لابنه عمرو: إياك واستماع الغيبة، نزه سمعك عن الخنا، كما تنزه لسانك عن البذا؛ فإن المستمع شريك القائل، وإنما نظر إلى أخبث ما يكون في وعائه، فألقاها في وعائك؛ ولقد أحسن القائل:

تحر من الطرق أوساطها ... وعد عن الموضع المشتبه

وسمعك صن عن سماع القبيـ ... ـح كصون اللسان عن القول به

فإنك عند استماع القبيـ ... ـح شريك لقائله فانتبه

وهذا مأخوذ من قول كعب بن زهير، واللَّه أعلم:

فالسامع مع الذم شريك له ... ومطعم المأكول كالآكل

وكان أبو حازم يقول: أربح التجارة ذكر اللَّه، وأخسر التجارة ذكر الناس، يعني بالشر»[(٢)].

عن قيس قال: كان عمرو بن العاص يسير مع نفر من أصحابه فمرّ على بغل ميت قد انتفخ فقال: «واللَّه لأن يأكل أحدكم هذا حتى يملأ بطنه خير من أن يأكل لحم مسلم»[(٣)].

قال أبو عمر: «قال عدي بن حاتم: الغيبة مرعى اللئام..

وسمع قتيبة بن مسلم رجلًا يغتاب آخر: فقال: لقد مضغت مضغة طالما لفظها الكرام.

وسمع أعرابي رجلًا يقع في الناس، فقال: قد استدللتُ على عيوبك بكثرة

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ١٤٣).
(٢) التمهيد (فتح البر ١٠/ ٤٦١).
(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧٣٦)، وصحح إسناده الألباني، وانظر صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٧٩/ ٢٨٣٨).

ذكرك لعيوب الناس؛ لأن الطالب لها يطلبها بقدر ما فيه منها .

قال الشاعر :

وأجرأ من رأيت بظهر غيبٍ ... على عيب الرجال أخو العيوبِ

. . قال أبو عاصم النبيل : لا يذكر الناس بما يكرهون إلا سفلة لا دين له . .

قال عبد الصمد بن المعذل :

قد هجرنا مجلس الغِيـ ... ـبة هِجران الثِّقالِ

ألْفَتْهُ عصبةٌ نَوْ ... كى لقيلٍ ولقالِ

ربّ من يشجيه ذكرى ... وهو لا يجري ببالي

قلبه ملآن من خو ... في وقلبي منه خالِ»[1].

وقال أيضًا : «ومن أحسن ما قيل في هذا المعنى قول القائل :

إن شر الناس من يشكر لي ... حين يلقاني وإن غبت شتم

ويحييني إذا لاقيته ... وإذا يخلو له لحمي كدم

وكلام سيئ قد وقرت ... منه أذناي وما بي من صمم

لا يراني راتعًا في مجلس ... في لحوم الناس كالسبع الضرم»[2].

* * *

(١) بهجة المجالس (١/ ٣٩٨-٤٠٢).

(٢) فتح البر (١٠/ ٤٦٢).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «انتقال من واجبات المعاملات إلى ما يجب أن يراعيه المرء في نفسه، وأعيد النداء للاهتمام بهذا الغرض، إذ كان إعجابُ كل قبيلة بفضائلها وتفضيل قومها على غيرهم فاشيًا في الجاهلية كما ترى بقيته في شعر الفرزدق وجرير، وكانوا يحقرون بعض القبائل مثل بَاهلة، وضُبيعة، وبني عُكل. سئل أعرابي: أتحب أن تدخل الجنة وأنت باهلي فأطرق حينا ثم قال: على شرط أن لا يعلم أهل الجنة أني باهلي. فكان ذلك يجرّ إلى الإحن والتقاتل وتتفرع عليه السخرية واللمز والنبز والظن والتجسس والاغتياب الواردة فيها الآيات السابقة، فجاءت هذه الآية لتأديب المؤمنين على اجتناب ما كان في الجاهلية لاقتلاع جذوره الباقية في النفوس بسبب اختلاط طبقات المؤمنين بعد سنة الوفود إذ كثر الداخلون في الإسلام. ونُودوا بعنوان (الناس) دون المؤمنين رعيا للمناسبة بين هذا العنوان وبين ما صُدّر به الغرض من التذكير بأن أصلهم واحد، أي أنهم في الخلقة سواء ليتوسل بذلك إلى أن التفاضل والتفاخر إنما يكون بالفضائل، وإلى أن التفاضل في الإسلام بزيادة التقوى»[2].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: يا أيها الناس إنا أنشأنا خلقكم من ماء ذكر من الرجال، وماء أنثى من النساء»[3].

وقال الألوسي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ من آدم وحوّاء عليهما السلام، فالكل سواء في ذلك، فلا وجه للتفاخر بالنسب، ومن هذا قوله:

الناس في عالم التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأم حوّاء

---

(١) الحجرات: الآية (١٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٥٨)

(٣) جامع البيان (٢٦/ ١٣٨).

وجوز أن يكون المراد هنا أنا خلقنا كل واحد منكم من أب وأم، ويبعده عدم ظهور ترتب ذم التفاخر بالنسب عليه والكلام مساق له كما ينبئ عنه ما بعد، وقيل: هو تقرير للأخوة المانعة عن الاغتياب وعدم ظهور الترتب عليه على حاله مع أن ملاءمة ما بعد له دون ملاءمته للوجه السابق لكن وجه تقريره للأخوة ظاهر»[١].

وقال القرطبي: «ذهب قوم من الأوائل إلى أن الجنين إنما يكون من ماء الرجل وحده، ويتربى في رحم الأم، ويستمد من الدم الذي يكون فيه، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾[٣]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧﴾[٤]، فدل على أن الخلق من ماء واحد.

والصحيح أن الخلق إنما يكون من ماء الرجل والمرأة لهذه الآية، فإنها نص لا يحتمل التأويل. وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾[٥]، والمراد منه أصلاب الرجال وترائب النساء، على ما يأتي بيانه.

وأما ما احتجوا به فليس فيه أكثر من أن اللَّه تعالى ذكر خلق الإنسان من الماء والسلالة والنطفة، ولم يضفها إلى أحد الأبوين دون الآخر، فدل على أن الماء والسلالة لهما والنطفة منهما بدلالة ما ذكرنا، وبأن المرأة تمني كما يمني الرجل، وعن ذلك يكون الشبه..

وقد قال في قصة نوح: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[٦] وإنما أراد ماء السماء وماء الأرض؛ لأن الالتقاء لا يكون إلا من اثنين، فلا ينكر أن يكون ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾ ويريد ماءين، واللَّه أعلم»[٧].

وقال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه خلق الناس من

---

(١) روح المعاني (٢٦/ ١٦١-١٦٢).
(٢) المرسلات الآيتان (٢٠و٢١).
(٣) السجدة: الآية (٨).
(٤) القيامة: الآية (٣٧).
(٥) الطارق الآيتان (٦و٧).
(٦) القمر: الآية (١٢).
(٧) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٤٣).

ذكر وأنثى، ولم يبين هنا كيفية خلقه للذكر والأنثى المذكورين، ولكنه بين ذلك في مواضع أخر من كتاب اللَّه.

فبين أنه خلق ذلك الذكر الذي هو آدم من تراب، وقد بين الأطوار التي مر بها ذلك التراب، كصيرورته طينًا لازبًا وحمأ مسنونًا وصلصالًا كالفخّار.

وبين أنه خلق تلك الأنثى التي هي حواء من ذلك الذكر الذي هو آدم، فقال في سورة (النساء): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[1]، وقال تعالى في (الأعراف): ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[2]، وقال تعالى في (الزمر): ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[3]»[4].

وقال الشنقيطي أيضًا: «مسألة: قد دلت هذه الآيات القرآنية المذكورة على أن المرأة الأولى كان وجودها الأول مستندًا إلى وجود الرجل وفرعًا عنه. وهذا أمر كوني قدري من اللَّه، أنشأ المرأة في إيجادها الأول عليه.

وقد جاء الشرع الكريم المنزل من اللَّه ليعمل به في أرضه بمراعاة هذا الأمر الكوني القدري في حياة المرأة في جميع النواحي. فجعل الرجل قائمًا عليها، وجعلها مستندة إليه في جميع شؤونها، كما قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[5].

فمحاولة استواء المرأة مع الرجل في جميع نواحي الحياة لا يمكن أن تتحقق؛ لأن الفوارق بين النوعين كونًا وقدرًا أولًا، وشرعًا منزلًا ثانيًا، تمنع من ذلك منعًا باتًّا.

ولقوة الفوارق الكونية والقدرية والشرعية بين الذكر والأنثى، صح عن النبي ﷺ أنه لعن المتشبه من النوعين بالآخر. ولا شك أن سبب هذا اللعن هو محاولة من أراد التشبه منهم بالآخر لتحطيم هذه الفوارق التي لا يمكن أن تتحطم.

---

(١) النساء: الآية (١).
(٢) الأعراف: الآية (١٨٩).
(٣) الزمر: الآية (٦).
(٤) أضواء البيان (٧/ ٦٣٠-٦٣١).
(٥) النساء: الآية (٣٤).

وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال**»(١)..

ولأجل تلك الفوارق العظيمة الكونية القدرية بين الذكر والأنثى، فرق الله -جل وعلا- بينهما في الطلاق، فجعله بيد الرجل دون المرأة، وفي الميراث، وفي نسبة الأولاد إليه.

وفي تعدد الزوجات دون الأزواج: صرح بأن شهادة امرأتين بمنزلة شهادة رجل واحد في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾(٢) الآية، فالله الذي خلقهما لا شك أنه أعلم بحقيقتهما، وقد صرح في كتابه بقيام الرجل مقام امرأتين في الشهادة، وقد قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾(٣) أي: غير عادلة؛ لعدم استواء النصيبين؛ لفضل الذكر على الأنثى.

ولذلك وقعت امرأة عمران في مشكلة لما ولدت مريم، كما قال تعالى عنها: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾(٤) الآية، فامرأة عمران تقول: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾، وهي صادقة في ذلك بلا شك، والكفرة وأتباعهم يقولون: إن الذكر والأنثى سواء، ولا شك عند كل عاقل في صدق هذه السالبة وكذب هذه الموجبة»(٥).

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٣٩) والبخاري (١٠/ ٤٠٨/ ٥٨٨٥) وأبو داود (٤/ ٣٥٤-٣٥٥/ ٤٠٩٧) والترمذي (٥/ ٩٨/ ٢٧٨٤) وابن ماجه (١/ ٦١٤/ ١٩٠٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) البقرة: الآية (٢٨٢).

(٣) النجم: الآيتان (٢١و٢٢).

(٤) آل عمران: الآية (٣٦).

(٥) أضواء البيان (٧/ ٦٣١-٦٣٣).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[١]

★ غريب الآية:

شعوبًا: جمع شَعْب. قال الفراء: الشعوب أكبر من القبائل، والقبائل أكبر من الأفخاذ. وقيل: الشعوب في العجم كالقبائل في العرب. يقال: شَعَبَ الشيءَ: فرَّقَهُ، وشَعَبَهُ أيضًا: جمعه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ يقول: وجعلناكم متناسبين، فبعضكم يناسب بعضًا نسبًا بعيدًا، وبعضكم يناسب بعضًا نسبًا قريبًا؛ فالمناسب النسب البعيد من لم ينسبه أهل الشعوب، وذلك إذا قيل للرجل من العرب: من أيّ شعب أنت؟ قال: أنا من مضر، أو من ربيعة. وأما أهل المناسبة القريبة أهل القبائل، وهم كتميم من مضر، وبكر من ربيعة، وأقرب القبائل الأفخاذ وهما كشيبان من بكر ودارم من تميم، ونحو ذلك»[٢].

وقال أيضًا: «وقال بعضهم: الشعوب: الأفخاذ، وقال آخرون: الشعوب: البطون، والقبائل: الأفخاذ، وقال آخرون: الشعوب: الأنساب»[٣].

قال ابن كثير: «جعلهم شعوبًا، وهي أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب أخر، كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك.

وقيل: المراد بالشعوب: بطون العجم، وبالقبائل: بطون العرب، كما أن الأسباط بطون بني إسرائيل. فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة اللَّه ومتابعة رسوله ﷺ،

---

(١) الحجرات: الآية (١٣).
(٢) جامع البيان (٢٦/ ١٣٨).
(٣) جامع البيان (٢٦/ ١٣٩-١٤٠) بتصرف.

ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضًا، منبهًا على تساويهم في البشرية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾»[١].

قال الألوسي: «الشعوب: جمع شعب، بفتح الشين وسكون العين، وهم الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد، وهو يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة، بفتح العين وقد تكسر، تجمع البطون، والبطن تجمع الأفخاذ، والفخذ تجمع الفصائل، فخزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة؛ وسميت الشعوب؛ لأن القبائل تشعبت منها، وهذا هو الذي عليه أكثر أهل النسب واللغة»[٢].

قال الشنقيطي: «ولم يذكر من هذه الست في القرآن إلا ثلاث: الشعوب، والقبائل كما في هذه الآية، والفصيلة في (المعارج) في قوله: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾[٣]..

واعلم أن العرب قد تطلق بعض هذه الست على بعض، كإطلاق البطن على القبيلة في قول الشاعر:

وإن كلابًا هذه عشر أبطن   وأنت بريء من قبائلها العشر»[٤].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ يقول: ليعرف بعضكم بعضًا في النسب، يقول تعالى ذكره: إنما جعلنا هذه الشعوب والقبائل لكم أيها الناس، ليعرف بعضكم بعضًا في قرب القرابة منه وبعده، لا لفضيلة لكم في ذلك، وقربة تقرّبكم إلى اللَّه، بل أكرمكم عند اللَّه أتقاكم»[٥].

وقال ابن كثير: «أي: ليحصل التعارف بينهم، كل يرجع إلى قبيلته.

وقال مجاهد في قوله: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾، كما يقال: فلان بن فلان من كذا وكذا، أي: من قبيلة كذا وكذا. وقال سفيان الثوري: كانت حمير ينتسبون إلى مخالفيها، وكانت عرب الحجاز ينتسبون إلى قبائلها»[٦].

قال السعدي: «فإنهم لو استقل كل واحد منهم بنفسه، لم يحصل بذلك التعارف

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٦٤-٣٦٥).
(٢) روح المعاني (٢٦/ ١٦٢).
(٣) المعارج: الآية (١٣).
(٤) أضواء البيان (٧/ ٦٣٦).
(٥) جامع البيان (٢٦/ ١٤٠).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٦٥).

الذي يترتب عليه التناصر والتعاون والتوارث، والقيام بحقوق الأقارب، ولكن اللَّه جعلهم شعوبًا وقبائل؛ لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها مما يتوقف على التعارف، ولحوق الأنساب، ولكن الكرم بالتقوى»[١].

قال الشنقيطي: «وذلك يدل على أن كون بعضهم أفضل من بعض وأكرم منه إنما يكون بسبب آخر غير الأنساب.

وقد بين اللَّه ذلك هنا بقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، فاتضح من هذا أن الفضل والكرم إنما هو بتقوى اللَّه، لا بغيره من الانتساب إلى القبائل، ولقد صدق من قال:

فقد رفع الإسلام سلمان فارس ... وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب

وقد ذكروا أن سلمان رضي الله عنه كان يقول:

أبي الإسلام لا أب لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم

وهذه الآيات القرآنية تدل على أن دين الإسلام سماوي صحيح، لا نظر فيه إلى الألوان ولا إلى العناصر، ولا إلى الجهات، وإنما المعتبر فيه تقوى اللَّه -جل وعلا- وطاعته، فأكرم الناس وأفضلهم أتقاهم لله، ولا كرم ولا فضل لغير المتقي، ولو كان رفيع النسب»[٢].

قال السعدي: «وفي هذه الآية دليل على أن معرفة الأنساب مطلوبة مشروعة؛ لأن اللَّه جعلهم شعوبًا وقبائل لأجل ذلك»[٣].

وأورد الرازي تساؤلا تحت هذه الآية قال: «ما الحكمة في اختيار النسب من جملة أسباب التفاخر، ولم يذكر المال؟ نقول الأمور التي يفتخر بها في الدنيا وإن كانت كثيرة لكن النسب أعلاها، لأن المال قد يحصل للفقير فيبطل افتخار المفتخر به، والحسن والسن، وغير ذلك غير ثابت دائم، والنسب ثابت مستمر غير مقدور التحصيل لمن ليس له فاختاره اللَّه للذكر وأبطل اعتباره بالنسبة إلى التقوى ليعلم منه بطلان غيره بالطريق الأولى»[٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٣٨).
(٢) أضواء البيان (٧/ ٦٣٥).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٣٩).
(٤) مفاتيح الغيب (١٤/ ١٩٢)

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الأمر بتعلم الأنساب وتعليمها وبيان أن الشرف والكرم لا يحصل إلا بالتقوى

* عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ قال: «**الشعوب: القبائل العظام، والقبائل: البطون**»(١).

⋆ غريب الحديث:

البطون: جمع بطن، وهو دون القبيلة، وقيل: دون الفخذ وفوق العمارة. وهو مذكر، ويجمع أيضًا على أبطن.

⋆ فوائد الحديث:

قال العيني: «مطابقته للآية ظاهرة؛ لأن المذكور فيها الشعوب والقبائل، وقد فسر ابن عباس الشعوب بالقبائل العظام، وفسر القبائل بالبطون، وذلك لأن الشعوب تجمع القبائل، وذكر عن ابن عباس أيضًا أن القبائل الأفخاذ، فعلى هذا أن القبائل التي فسرها بالبطون تجمع الأفخاذ»(٢).

قال الحافظ: «قوله: «**الشعوب: القبائل العظام، والقبائل: البطون**»، أي: أن المراد بلفظ القبائل في القرآن ما هو في اصطلاح أهل النسب: البطون، وقد روى الطبري هذا الحديث عن خلاد بن أسلم وأبي كريب كلاهما عن أبي بكر بن عياش بهذا الإسناد، لكن قال في المتن: (الشعوب: الجمّاع) أي: الذي يجمع متفرقات البطون، قال خلاد قال أبو بكر: القبائل مثل بني تميم، ودونها الأفخاذ، انتهى. وقد قسمها الزبير بن بكار في «كتاب النسب» إلى شعب، ثم قبيلة، ثم عمارة، بكسر العين، ثم بطن، ثم فخذ، ثم فصيلة، وزاد غيره قبل الشعب الجذم، وبعد الفصيلة العشيرة، ومنهم من زاد بعد العشيرة الأسرة، ثم العترة، فمثال الجذم عدنان، ومثال الشعب مضر، ومثال القبيلة كنانة، ومثال العمارة قريش، وأمثلة ما دون ذلك لا تخفى. ويقع في عباراتهم أشياء مرادفة لما تقدم، كقولهم: حي وبيت وعقيلة وأرومة وجرثومة ورهط وغير ذلك، ورتبها محمد بن أسعد النسابة المعروف

---

(١) أخرجه: البخاري (٦/ ٦٥١/ ٣٤٨٩).

(٢) عمدة القاري (١١/ ٢٤١) بتصرف يسير.

بالحراني جميعها وأردفها فقال: جذم ثم جمهور ثم شعب ثم قبيلة ثم عمارة ثم بطن ثم فخذ ثم عشيرة ثم فصيلة ثم رهط ثم أسرة ثم عترة ثم ذرية. وزاد غيره في أثنائها ثلاثة وهي: بيت وحي وجماع، فزادت على ما ذكر الزبير عشرة. وقال أبو إسحاق الزجاج: القبائل للعرب كالأسباط لبني إسرائيل، ومعنى القبيلة الجماعة، ويقال لكل ما جمع على شيء واحد: قبيلة؛ أخذًا من قبائل الشجرة، وهو غصونها، أو من قبائل الرأس، وهو أعضاؤه، سميت بذلك لاجتماعها. ويقال: المراد بالشعوب في الآية: بطون العجم، وبالقبائل: بطون العرب»(١).

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم؛ فإن صلة الرحم محبة في أهله، مَثْراة في ماله، منسأة في أثره»**(٢).

★ غريب الحديث:

مثراة: أي مكثرة، يقال: ثرى القوم: كثروا.

منسأة: من نسأ ينسؤه نسأ: أخره.

★ فوائد الحديث:

قوله ﷺ: **«تعلموا من أنسابكم» قال القاري: «أي: من أسماء آبائكم وأجدادكم وأعمامكم وأخوالكم وسائر أقاربكم، «ما»، أي: قدر ما «تصلون به أرحامكم»**، وفيه دلالة على أن الصلة تتعلق بذوي الأرحام كلها، لا بالوالدين فقط، كما ذهب إليه البعض. .

والمعنى: تعرفوا أقاربكم من ذوي الأرحام ليمكنكم صلة الرحم، وهي التقرب لديهم والشفقة عليهم والإحسان إليهم»(٣).

---

(١) فتح الباري (٦/ ٦٥٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٤)، والترمذي (٤/ ٣٠٩/ ١٩٧٩)، والحاكم (٤/ ١٦١)، وقال الترمذي: «حديث غريب من هذا الوجه». قال الشيخ الألباني: «وإسناده جيد، رجاله ثقات، رجال الشيخين، غير عبد الملك. . ؛ قال أبو حاتم: صالح، وذكره ابن حبان في الثقات، وروى عنه جماعة من الثقات، منهم: عبد الله بن المبارك، وهو الذي روى عنه هذا الحديث، فلا أدري لماذا لم يحسنه الترمذي على الأقل. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي» (الصحيحة ١/ ٥٥٨-٥٥٩/ ٢٧٦).

(٣) المرقاة (٨/ ٦٦٧).

وقال المناوي: «أي: مقدارًا تعرفون به أقاربكم لتصلوها؛ فتعليم النسب مندوب لمثل هذا، وقد يجب إن توقف عليه واجب»[١].

قال الحافظ: «والمراد.. الإشارة إلى الاحتياج إلى معرفة السبب أيضًا؛ لأنه يعرف به ذوو الأرحام المأمور بصلتهم، وذكر ابن حزم في مقدمة «كتاب النسب» له فصلًا في الرد على من زعم أن علم النسب علم لا ينفع، وجهل لا يضر، بأن في علم النسب ما هو فرض على كل أحد، وما هو فرض على الكفاية، وما هو مستحب. قال: فمن ذلك أن يعلم أن محمدًا رسول اللَّه ﷺ هو ابن عبد اللَّه الهاشمي، فمن زعم أنه لم يكن هاشميًا فهو كافر، وأن يعلم أن الخليفة من قريش، وأن يعرف من يلقاه بنسب في رحم محرمة ليجتنب تزويج ما يحرم عليه منهم، وأن يعرف من يتصل به ممن يرثه، أو يجب عليه بره من صلة أو نفقة أو معاونة، وأن يعرف أمهات المؤمنين، وأن نكاحهن حرام على المؤمنين، وأن يعرف الصحابة وأن حبهم مطلوب، وأن يعرف الأنصار ليحسن إليهم لثبوت الوصية بذلك، ولأن حبهم إيمان، وبغضهم نفاق، قال: ومن الفقهاء من يفرق في الجزية وفي الاسترقاق بين العرب والعجم، فحاجته إلى علم النسب آكد، وكذا من يفرق بين نصارى بني تغلب وغيرهم في الجزية وتضعيف الصدقة. قال: وما فرض عمر رضي الله عنه الديوان إلا على القبائل، ولولا علم النسب ما تخلص له ذلك، وقد تبعه على ذلك عثمان وعلي وغيرهما. وقال ابن عبد البر في أول كتابه «النسب»: ولعمري لم ينصف من زعم أن علم النسب علم لا ينفع، وجهل لا يضر، انتهى. وهذا الكلام قد روي مرفوعًا ولا يثبت، وروي عن عمر أيضًا، ولا يثبت، بل ورد في المرفوع حديث: «**تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم**» وله طرق أقواها ما أخرجه الطبراني من حديث العلاء بن خارجة، وجاء هذا أيضًا عن عمر ساقه ابن حزم بإسناد رجاله موثوقون إلا أن فيه انقطاعًا، والذي يظهر حمل ما ورد من ذمه على التعمق فيه حتى يشتغل عما هو أهم منه، وحمل ما ورد في استحسانه على ما تقدم من الوجوه التي أوردها ابن حزم، ولا يخفى أن بعض ذلك لا يختص بعلم النسب واللَّه المستعان»[٢].

---

(١) فيض القدير (٣/ ٢٥٢).

(٢) فتح الباري (٦/ ٦٥٤) بتصرف.

وقال السمعاني: «علم المعارف والأنساب لهذه الأمة من أهم العلوم التي وضعها الله ﷻ فيهم على ما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾..

ومعرفة الأنساب من أعظم النعم التي أكرم الله تعالى بها عباده؛ لأن تشعب الأنساب على افتراق القبائل والطوائف أحد الأسباب الممهدة لحصول الائتلاف»[1].

* عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة فقال: **«يا أيها الناس! إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَة الجاهلية وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب؛ قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾»**[2].

★ غريب الحديث:

عُبِّية: بضم العين المهملة وكسر الموحدة وفتح التحتية، أي: نخوتها وكبرها وفخرها.

★ فوائد الحديث:

قال شيخ الإسلام: «أضاف العُبِّية إلى الجاهلية؛ يذمها بذلك، وذلك يقتضي ذمها بكونها مضافة إلى الجاهلية، وذلك يقتضي ذم الأمور المضافة إلى الجاهلية»[3].

قال ابن العربي: «كانت الجاهلية تفخر بخصالها، لا بدينها، فأسقط الله المفاخرة بالخصال حسبًا أو مكتسبًا، إلا ما كان من تقوى الله، وهي طاعة الله الواقية، وشرعته الوافية؛ إذ الأصل واحد وهو التراب، والأب واحد منه أصل

---

(١) الأنساب (١/ ١٨).

(٢) أخرجه: الترمذي (٥/ ٣٦٣/ ٣٢٧٠) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث عبد الله بن دينار عن ابن عمر إلا من هذا الوجه، وعبد الله بن جعفر يضعف، ضعفه يحيى بن معين، وغيره وعبد الله بن جعفر هو والد علي بن المديني. والحديث أورده الألباني في الصحيحة (٢٧٠٠) وصححه لطرقه وشواهده.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢١٦-٢١٧).

الخلق وهو آدم وحواء»[١].

قوله ﷺ: «إن اللَّه قد أذهب عنكم عبية الجاهلية..»: قال الطيبي: «هذا يشعر بغضب شديد وسخط متتابع، كأن أناسًا من المسلمين تفاخروا بأسلافهم الذين ماتوا على الكفر، كالعباس بن مرداس وأضرابه، حتى قال قائلهم:

فما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس في مجمع

فوبخهم وزجرهم وسفّه رأيهم.. فالمعنى: ما ذلك العزيز الكريم عند اللَّه إلا رجل تقي، وما ذلك الذليل الدنيء عنده إلا فاجر شقي. ثم رجع رسول اللَّه ﷺ من ذلك العنف إلى اللطف، ومن التوبيخ إلى إسماع الحق قائلًا: «**الناس كلهم بنو آدم**»، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ﴾. وفي ذكر التراب إشارة إلى نقصانهم وأنهم فيه سواء طفّ الصاع بالصاع»[٢].

قال الألوسي: «وفي الآية إشارة إلى وجه رد التفاخر بالنسب؛ حيث أفادت أن شرف النسب غير مكتسب، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾[٣]، وأنه لا فرق بين النسيب وغيره من جهة المادة لاتحاد ما خُلقا منه، ولا من جهة الفاعل؛ لأنه هو اللَّه تعالى الواحد، فليس للنسب شرف يعول عليه ويكون مدارًا للثواب عند اللَّه ﷻ، ولا أحد أكرم من أحد عنده سبحانه إلا بالتقوى، وبها تكمل النفس وتتفاضل الأشخاص، وهذا لا ينافي كون العرب أشرف من العجم، وتفاوت كل من العرب والعجم في الشرف، فقد ذكروا أن الفرس أشرف من النبط، وبنو إسرائيل أفضل من القبط، وأخرج مسلم وغيره عن واثلة بن الأسقع قال: قال ﷺ: «**إن اللَّه اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[٤]؛ لأن ذلك ليس إلا باعتبار الخصال الحميدة، فشرف العرب على العجم مثلًا ليس إلا باعتبار أن اللَّه تعالى امتازهم على من سواهم

---

(١) عارضة الأحوذي (١٢/ ١٥٧).

(٢) الكاشف (١٠/ ٣١٤٩).

(٣) النجم: الآية (٣٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ١٠٧) ومسلم (٤/ ١٧٨٢/ ٢٢٧٦) والترمذي (٥/ ٥٤٤/ ٣٦٠٦) من حديث واثلة بن الأسقع ﷺ.

بفضائل جمة، وخصال حميدة، كما صحت به الأحاديث. وقد جمع الكثير منها العلامة ابن حجر الهيتمي في كتابه «مبلغ الإرب في فضائل العرب»، ولا نعني بذلك أن كل عربي ممتاز على كل عجمي بالخصال الحميدة، بل إن المجموع ممتاز على المجموع، ثم إن أشرف العرب نسبًا أولاد فاطمة رضي اللَّه تعالى عنها؛ لأنهم ينسبون إلى النبي ﷺ، كما صرح به جمع من الفقهاء..

وقد أخرج أحمد والحاكم في المستدرك عن المسور بن مخرمة -ولا كلام فيه- قال: قال ﷺ: **«فاطمة بضعة مني، يقبضني ما يقبضها، ويبسطني ما يبسطها، وأن الأنساب كلها تنقطع يوم القيامة غير نسبي وسببي وصهري»**[1]، وحديث بضعية فاطمة رضي اللَّه تعالى عنها مخرج في صحيح البخاري أيضًا، قال الشريف السمهودي: ومعلوم أن أولادها بضعة منها، فيكونون بواسطتها بضعة منه ﷺ، وهذا غاية الشرف لأولادها، وعدم انقطاع نسبه ﷺ جاء أيضًا في حديث أخرجه ابن عساكر عن عمر -رضي اللَّه تعالى عنه- مرفوعًا بلفظ: **«كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري»**[2]، والذهبي وإن تعقبه بقوله: فيه ابن وكيع لا يعتمد، لكن استدرك ذلك بأنه ورد فيه مرسل حسن، ويعلم مما ذكر ونحوه -كما قال المناوي- عظيم نفع الانتساب إليه ﷺ، ولا يعارضه ما في أخبار أخر من حثه -عليه الصلاة والسلام- لأهل بيته على خشية اللَّه تعالى واتقائه سبحانه، وأنه -عليه الصلاة والسلام- لا يغني عنهم من اللَّه تعالى شيئًا؛ حرصًا على إرشادهم، وتحذيرًا لهم من أن يتكلوا على النسب فتقصر خطاهم عن اللحوق بالسابقين من المتقين، وليجتمع لهم الشرفان: شرف التقوى وشرف النسب، ورعاية لمقام التخويف خاطبهم -عليه الصلاة والسلام- بقوله: **«لا أغني عنكم من اللَّه شيئًا»**[3]، والمراد لا أغني عنكم شيئًا بمجرد نفسي من غير ما يكرمني اللَّه تعالى به من نحو شفاعة فيكم، ومغفرة منه تعالى لكم، وهو -عليه الصلاة والسلام- لا يملك لأحد

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٢٣) والبخاري (٧/ ١٠٦-١٠٧/ ٣٧٢٩) ومسلم (٤/ ١٩٠٣/ ٢٤٤٩(٩٤))، وأبو داود (٢/ ٥٥٦-٥٥٧/ ٢٠٦٩) وابن ماجه (١/ ٦٤٤/ ١٩٩٩).

(٢) الحاكم (٣/ ١٤٢) من حديث عمر وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: «منقطع».

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٣) والبخاري (٥/ ٣٨٢/ ٢٧٥٣) ومسلم (١/ ١٩٢-١٩٣/ ٢٠٦) والنسائي (٦/ ٥٦٠/ ٣٦٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

نفعًا ولا ضرًّا إلا بتمليك اللَّه تعالى، واللَّه سبحانه يملكه نفع أمته، والأقربون أولى بالمعروف.

فعلى هذا لا بأس بقول الرجل: أنا من ذرية رسول اللَّه ﷺ على وجه التحدث بالنعمة أو نحو ذلك من المقاصد الشرعية. وقد نقل المناوي عن ابن حجر أنه قال: نهيه ﷺ عن التفاخر بالأنساب موضعه مفاخرة تقتضي تكبرًا واحتقار مسلم، وعلى ما ذكرناه أولًا جاء قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**إن اللَّه اصطفى كنانة من ولد إسماعيل**» **الحديث، وقوله** ﷺ: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»[١]، إلى غير ذلك، ومع شرف الانتساب إليه -عليه الصلاة والسلام- لا ينبغي لمن رزقه أن يجعله عاطلًا عن التقوى ويدنسه بمتابعة الهوى، فالحسنة في نفسها حسنة، وهي من بيت النبوة أحسن، والسيئة في نفسها سيئة، وهي من أهل بيت النبوة أسوأ، وقد يبلغ اتباع الهوى بذلك النسيب الشريف إلى حيث يستحي أن ينسب إلى رسول اللَّه ﷺ، وربما ينكر نسبه. وعليه قيل لشريف سيئ الأفعال:

قال النبي مقال صدق لم يزل … يحلو لدى الأسماع والأفواه
إن فاتكم أصل امرىء ففعاله … تنبيكم عن أصله المتناهي
وأراك تسفر عن فعال لم تزل … بين الأنام عديمة الأشباه
وتقول إني من سلالة أحمد … أفأنت تصدق أم رسول الله»[٢].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه: «سئل رسول اللَّه ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: **أتقاهم لله**، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: **فأكرم الناس يوسف نبي اللَّه ابن نبي اللَّه ابن نبي اللَّه ابن خليل اللَّه**، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: **فعن معادن العرب تسألونني؟ الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»[٣].

---

(١) أخرجه: البخاري (٦/ ٨٦/ ٢٨٦٤) ومسلم (٣/ ١٤٠٠/ ١٧٧٦)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٩١/ ٨٦٣٨) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) روح المعاني (٢٦/ ١٦٤-١٦٥).

(٣) أخرجه: البخاري (٦/ ٥١٥/ ٣٣٨٣) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٨٤٦/ ٢٣٧٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٧/ ١١٢٤٩). وأخرج الإمام أحمد (٢/ ٢٥٧-٥٢٥) محل الشاهد منه: «الناس معادن..» فقط.

★ **فوائد الحديث:**

قول السائل: «من أكرم الناس؟» **قال القرطبي**: «معناه من أولى بهذا الاسم؟ ولذلك أجابه النبي ﷺ بجواب كليّ، فقال: «**أتقاهم**»، وهذا منتزع من قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾»[١].

قال النووي: «قال العلماء: لما سئل ﷺ أي الناس أكرم؟ أخبر بأكمل الكرم وأعمّه فقال: «**أتقاهم لله**» وقد ذكرنا أن أصل الكرم كثرة الخير، ومن كان متقيًا كان كثير الخير وكثير الفائدة في الدنيا وصاحب الدرجات العلا في الآخرة»[٢].

قوله: «**الناس معادن..**» **قال القاضي**: «وأصل المعادن الأصول الشريفة تعقب أمثالها ويسري كرم أخلاقها إلى نسلها، ولكن لا خيار في الإسلام إلا بالتقى والفقه، ولا فضيلة إلا بخصال الشريعة، لكن من اتفق له ذلك مع أصل في الجاهلية حميد الأخلاق، شريف الطباع وهو الحسب، كملت فضيلته، وبانت مرتبته»[٣].

قال القرطبي: «ووجه التمثيل أن المعادن مشتملة على جواهر مختلفة، منها النفيس والخسيس، وكل من المعادن يخرج ما في أصله، وكذلك الناس، كلٌّ منهم يظهر عليه ما في أصله، فمن كان ذا شرف وفضل في الجاهلية فأسلم لم يزده الإسلام إلا شرفًا، فإن تفقه في دين اللَّه فقد وصل إلى غاية الشرف؛ إذ قد اجتمعت له أسباب الشرف كلها، فيصدق عليه قوله: «**فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»»[٤].

قال الحافظ: «والمراد بالخيار والشرف وغير ذلك من كان متصفًا بمحاسن الأخلاق، كالكرم والعفة والحلم وغيرها، متوقيًا لمساويها كالبخل والفجور والظلم وغيرها»[٥].

قال القاضي: «فيتضمن من كلامه في الأجوبة الثلاث أن الكرم كله -عامًّا وخاصًّا، مجملًا ومعيّنًا- إنما هو بالدين من التقوى والنبوة، والإعراق فيها، والإسلام والفقه»[٦].

---

(١) المفهم (٦/ ٢٢٦).
(٢) شرح مسلم (١٥/ ١١٠).
(٣) الإكمال (٧/ ٥٦٣).
(٤) المفهم (٦/ ٤٧٧).
(٥) فتح الباري (٦/ ٦٥٧).
(٦) الإكمال (٧/ ٣٦٢).

* عن سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**الحسب المال، والكرم التقوى**»[(١)].

★ **غريب الحديث:**

الحسب المال والكرم التقوى: أي: الشرف بين أهل الدنيا المال، والكرم بين أهل الدين التقوى، أو الشرف بين الناس المال، والكرم عند الله هو التقوى.

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «قوله: «**الحسب**»: ما يعد من مآثره ومآثر آبائه، و«**الكرم**»: الجمع بين أنواع الخير والشرف والفضائل، وهذا بحسب اللغة، فردهما ﷺ إلى ما هو المتعارف بين الناس وعند الله تعالى، أي: ليس ذو الحسب عند الناس الفقير إذ لا يوقر ولا يحتفل به، بل الحسب عندهم من رزق الثروة ووقر في العيون. ومنه حديث عمر رضي الله عنه: «**من حسب الرجل نقاء ثوبيه**»، أي: أنه يوقر لذلك من حيث إنه دليل الثروة، وذو الفضل والشرف عند الناس. ولا يعد كريمًا عند الله تعالى، وإنما الكريم عنده من ارتدى برداء التقوى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، وأنشد:

كانت مودة سلمان له نسبا ولم يكن بين نوح وابنه رحم»[(٢)].

وقال القاري معلقًا على قوله ﷺ: «**والكرم التقوى**»: «أي: الكرم المعتبر في العقبى، المترتب عليه الإكرام بالفرجات العلى، «**التقوى**»: لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وفيه تنبيه نبيه على أن الدنيا فانية، والأخرى باقية فآثروا ما يبقى على ما يفنى؛ فإن من أحب آخرته أضر بدنياه ومن أحب دنياه أضر بعقباه، فهما ضدان لا يجتمعان فمثالهما كفتا الميزان، ونعم ما قال بعض أرباب الحال:

زيادة المرء في دنياه نقصان وربحه غير محض الخير خسران»[(٣)].

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٠)، والترمذي (٥/ ٣٦٣/ ٣٢٧١) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٤١٠/ ٤٢١٩)، وصححه الحاكم (٢/ ١٦٣) على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

(٢) الكاشف (١٠/ ٣١٥٠-٣١٥١).

(٣) المرقاة (٨/ ٦٤١).

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: **«ما تعدون الكرم؟ قد بين اللَّه الكرم، فأكرمكم عند اللَّه أتقاكم، ما تعدون الحسب؟ أفضلكم حسبًا أحسنكم خلقًا»**[1].

★ غريب الحديث:

الحسب: الشرف الثابت في الآباء، وقيل: هو الشرف في الفعل، والحسب ما يعدّه الإنسان من مفاخر آبائه.

★ فوائد الحديث:

فيه فضل التقوى، فينبغي أن يكون فيها التنافس والتسابق[2].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: **«لا أرى أحدًا يعمل بهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ فيقول الرجل للرجل: أنا أكرم منك، فليس أحد أكرم من أحد إلا بتقوى الله»**[3].

★ فوائد الحديث:

المعنى: «إذا عمل بمقتضى هذه الآية فإنه لا يقول لأحد: أنا أكرم منك؛ لأن الآية تنهاه عن ذلك.

وكم من الناس اليوم لا يعمل بهذه الآية؛ لتفاخره بعرقه أو جنسه أو عشيرته أو سلطانه أو جاهه أو ماله»[4].

* عن أبي نضرة: حدثني من سمع خطبة رسول اللَّه ﷺ في وسط أيام التشريق، فقال: **«يا أيها الناس! ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيّ على عجميّ، ولا لعجميّ على عربيّ، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى..»**[5].

---

(١) أخرجه: البخاري في الأدب المفرد (٨٩٩)، وصحح إسناده الألباني.

(٢) شرح «صحيح الأدب المفرد» للعوايشة (٣/ ٢٤).

(٣) أخرجه: البخاري في الأدب المفرد (٨٩٨) وصحح إسناده الألباني.

(٤) شرح صحيح الأدب المفرد (٣/ ٢٣-٢٤).

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٤١١). قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٦٦): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح». والحديث صحح إسناده شيخ الإسلام في «الاقتضاء» (١/ ٣٦٣)، وكذا الشيخ الألباني، انظر «غاية المرام» (١٩١).

★ **فوائد الحديث:**

قال شيخ الإسلام: «إن تعليق الشرف في الدين بمجرد النسب هو حكم من أحكام الجاهلية، الذين اتبعتهم عليه الرافضة وأشباههم من أهل الجهل؛ فإن اللَّه تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾، وقال النبي ﷺ: «**لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أبيض، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، الناس من آدم، وآدم من تراب**»، ولهذا ليس في كتاب اللَّه آية واحدة يمدح فيها أحدًا بنسبه، ولا يذم أحدًا بنسبه، وإنما يمدح الإيمان والتقوى، ويذم بالكفر والفسوق والعصيان.

وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيح، أنه قال: «**أربع من أمر الجاهلية في أمتي لن يدعوهنّ: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والنياحة، والاستسقاء بالنجوم**»[(١)]، فجعل الفخر بالأحساب من أمور الجاهلية. .

والشريعة إنما علقت بالنسب أحكامًا، مثل كون الخلافة من قريش، وكون ذوي القربى لهم الخمس، وتحريم الصدقة على آل محمد ﷺ ونحو ذلك؛ لأن النسب الفاضل مظنة أن يكون أهله أفضل من غيرهم، كما قال النبي ﷺ: «**الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»[(٢)].

والمظنة تعلق الحكم بما إذا خفيت الحقيقة أو انتشرت، فأما إذا ظهر دين الرجل الذي به تتعلق الأحكام وعرف نوع دينه وقدره لم يتعلق بنسبه الأحكام الدينية، ولهذا لم يكن لأبي لهب مزية على غيره، لما عرف كفره كان أحق بالذم من غيره، ولهذا جعل لمن يأتي بفاحشة من أزواج النبي ﷺ ضعفين من العذاب، كما جعل لمن يقنت منهن لله ورسوله أجرين من الثواب.

فذوي الأنساب الفاضلة إذا أساؤوا كانت إساءتهم أغلظ من إساءة غيرهم، وعقوبتهم أشد عقوبة من غيرهم. . ولهذا لم يقل أحد من العلماء: إن من كفر وفسق

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٢-٣٤٣) ومسلم (٢/ ٦٤٤/ ٩٣٤) من حديث أبي مالك الأشجعي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣١) والبخاري (٦/ ٥١١/ ٣٣٧٤) ومسلم (٤/ ١٨٤٦/ ٢٣٧٨) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٧/ ١١٢٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

من قريش والعرب تخفف عنه العقوبة في الدنيا أو في الآخرة؛ بل إما أن تكون عقوبتهم أشد عقوبة من غيرهم في أشهر القولين، أو تكون عقوبتهم أغلظ في القول الآخر؛ لأن من أكرمه بنعمته ورفع قدره إذا قابل حقوقه بالمعاصي، وقابل نعمه بالكفر، كان أحق بالعقوبة ممن لم ينعم عليه كما أنعم عليه»[١].

* عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أنسابكم هذه ليست بسباب على أحد، وإنما أنتم ولد آدم، طَفّ الصّاع لم تملؤوه، ليس لأحد على أحد فضل إلا بالدين أو عمل صالح، حسب الرجل أن يكون فاحشًا بذيًّا، بخيلًا جبانًا**»[٢].

★ غريب الحديث:

طَفُّ الصاع: أي: قريب بعضكم من بعض؛ يقال: هذا طفّ المكيال وطِفافه وطَفافه، أي: ما قرب من ملئه. وقيل: هو ما علا فوق رأسه، ويقال له أيضًا: طُفاف، بالضم.

★ فوائد الحديث:

قال ابن الأثير: «المعنى: كلكم في الانتساب إلى أب واحد بمنزلة واحدة في النقص والتقاصر عن غاية التمام. وشبههم في نقصانهم بالمكيل الذي لم يبلغ أن يملأ المكيال، ثم أعلمهم أن التفاضل ليس بالنسب، ولكن بالتقوى»[٣].

وقال القاري: «والحاصل أن أفراد الإنسان كلهم في مرتبة النقصان والخسران إلا ذوي التقوى والكمال من أهل الأديان، كما أشار إليه ﷺ بقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[٤]»[٥].

قال ابن كثير: «وقد استدل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة، من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين؛

---

(١) الفتاوى الكبرى (٢/ ١٩١-١٩٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٤٥)، وابن جرير في التفسير (٢٦/ ١٤٠)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٩/ ٨١-٨٢/ ٣٤٥٩)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٢٩٥/ ٨١٤). والحديث صححه لغيره الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٩٦٢).

(٣) النهاية (٣/ ١٢٩).

(٤) العصر: الآيات (١-٣).

(٥) المرقاة (٨/ ٦٤٦).

لقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾. وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى مذكورة في كتب الفقه»(١).

وقد تقدم الكلام على مسألة الكفاءة في سورة (الفرقان) عند الآية (٥٤).

* عن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»**(٢).

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت»**(٣).

★ غريب الحديثين:

الطعن في الأنساب: استحقارها وعيبها.

الاستسقاء بالنجوم: الاستسقاء: استدعاء السقي وسؤاله، وكأنهم كانوا يسألون من النجوم أن تسقيهم بناءً منهم على اعتقادهم الفاسد في أن النجوم توجد المطر وتخلقه.

النياحة: النوح قد كانت الجاهلية كثيرًا تفعله، وهي وقوف النساء متقابلات وضربهن خدودهن وخمشهن ورمي النقع وهو التراب على رؤوسهن وحلق شعورهن، كل ذلك تحزن على ميتهن.

أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: ستفعلها هذه الأمة إما مع العلم بتحريمها، أو مع الجهل بذلك، مع كونها من أعمال الجاهلية المذمومة المكروهة المحرمة، والمراد بالجاهلية هنا: ما قبل المبعث؛ سموا ذلك لفرط جهلهم؛ وكل ما يخالف ما جاء به الرسول ﷺ فهو جاهلية، منسوبة إلى الجاهل.

★ فوائد الحديثين:

قال القاضي: «نهى النبي ﷺ عن السخرية واللمز والنبز والغيبة والقذف، وكل

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٦٧).
(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٢)، ومسلم (٢/ ٦٤٤/ ٩٣٤).
(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٩٦)، ومسلم (١/ ٨٢/ ٦٧).

هذا من أعمال الجاهلية، وقال النبي ﷺ: «**إن اللَّه أذهب عنكم عبّية الجاهلية. .**» الحديث. وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ . . ، فعرّف نعمته بالأنساب للتعارف والتواصل، فمن تسوّر على قطعها والغمض فيها، فقد كفر نعمة ربها، وخالف مراده»[١].

قال شيخ الإسلام: «أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذمًّا لمن لم يتركه، وهذا كله يقتضي أن ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم، فهو مذموم في دين الإسلام، وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها، ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم، وهذا كقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[٢]؛ فإن في ذلك ذمًّا للتبرج وذمًّا لحال الجاهلية الأولى، وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة»[٣].

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**لينتهينّ أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا؛ إنما هم فحم جهنم، أو ليكوننّ أهون على اللَّه من الجعل الذي يدهده الخُرْء بأنفه. .**»[٤].

★ غريب الحديث:

لينتهينّ أقوام يفتخرون: أي: واللَّه ليمتنعنّ عن الافتخار أقوام يفتخرون بآبائهم.

بآبائهم الذين ماتوا: أي: على الكفر، وهذا الوصف بيان للواقع لا مفهوم له، ولعل وجه ذكره أنه أظهر في توضيح التقبيح.

الجُعَل: بضم الجيم وفتح العين، دويبة سوداء تريد الغائط، يقال لها: الخنفساء.

---

(١) الإكمال (١/ ٣٢٦).

(٢) الأحزاب: الآية (٣٣).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٠٥-٢٠٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦١)، وأبو داود (٥/ ٣٣٩-٣٤٠/ ٥١١٦)، والترمذي (٥/ ٦٩٠/ ٣٩٥٥) واللفظ له، وقال: «حسن غريب»، وصححه شيخ الإسلام في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢١٦). وانظر «غاية المرام» (حديث ٣١٢).

يدهده الخرء بأنفه: أي: يدحرجه بأنفه. والخرء: العذرة، جمعه خروء، كجند وجنود.

★ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «المعنى: لينته من شرفه اللَّه وخلع عليه حلل الإسلام. ورفعه من حضيض الكفر إلى يفاع الإيمان عن هذه الشنعاء وإلا فيحطه من تلك المنزلة، ويرده إلى أسفل سافلين الكفر والذل، فإن تشبيههم بأخس الحيوانات في أخس أحواله يدل عليه»(١).

وقال القاري: «والحاصل أنه ﷺ شبه المفتخرين بآبائهم الذين ماتوا في الجاهلية بالجُعل، وآباءهم المفتخر بهم بالعذرة، ونفس افتخارهم بهم بالدهدهة بالأنف، والمعنى أن أحد الأمرين واقع البتة، إما الانتهاء عن الافتخار أو كونهم أذل عند اللَّه تعالى من الجُعل الموصوف»(٢).

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: أوصني، فقال: «**عليك بتقوى الله؛ فإنه جماع كل خير، عليك بالجهاد؛ فإنه رهبانية المسلمين، وعليك بذكر اللَّه وتلاوة كتابه؛ فإنه نور لك في الأرض وذكر لك في السماء، وأخزن لسانك إلا من خير؛ فإنك بذلك تغلب الشيطان**»(٣).

★ غريب الحديث:

فإنه رهبانية الإسلام: أي أن الرهبان وإن تخلوا عن الدنيا وزهدوا فيها فلا تخلي ولا زهد أفضل من بذل النفس في سبيل اللَّه، فكما أن الرهبانية أفضل عمل أولئك، فالجهاد أفضل عملنا، والرهبانية ما يتكلفه النصارى من أنواع المجاهدات والتبتل.

فإنه نور لك في الأرض: أي بهاء وضياء يعلو بين أهل الأرض، وهذا

---

(١) الكاشف (١٠/ ٣١٤٩). (٢) المرقاة (٨/ ٦٣٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٨٢)، وأبو يعلى (٢/ ٢٨٣-٢٨٤/ ١٠٠٠)، والطبراني في الصغير (رقم ٩٢٩)، وابن الضريس في فضائله (رقم ٦٨) من طرق عن أبي سعيد. وذكره الهيثمي في المجمع (٤/ ٢١٥) وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى.. ورجال أحمد ثقات، وفي إسناد أبي يعلى ليث بن أبي سليم وهو مدلس». والحديث حسنه الألباني لطرقه وشواهده في «السلسلة الصحيحة» (٥٥٥).

كالمشاهد المحسوس فيمن لازم تلاوته من الخشوع والتدبر والإخلاص.

وذكر لك في السماء: يعني يذكرك الملأ الأعلى بسببه بخير.

وأخزن لسانك إلا من خير: أي: الزم السكوت إلا في خير، كتلاوة، وعلم، وإنذار مشرف على هلاك، وإصلاح بين الناس ونصيحة وغير ذلك.

★ فوائد الحديث:

قوله: «**عليك بتقوى اللَّه تعالى؛ فإنه جماع كل خير**»؛ لأن «التقوى، وإن قل لفظها، جامعة لحق الحق والخلق، شاملة لخير الدارين؛ إذ هي تجنب كل منهي وفعل كل مأمور، ومن اتقى اللَّه حفظه من أعدائه ونجاه من الشدائد، ورزقه من حيث لا يحتسب، وأصلح عمله، وغفر زلله، وتكفل له بكفلين من رحمته، وجعل له نورًا يمشي به بين يديه وقلبه، وأكرمه وأعزه، ونجاه من النار إلى غير ذلك»[1].

* * *

(١) فيض القدير (٣/ ٧٥) بتصرف.

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

* غريب الآية:

لا يلتكم: لا ينقصهم. قال الشاعر:

ويأكلن ما أعْنى الوليُّ فَلَمْ يَلِتْ كأن بِحَافَاتِ النِّهَاءِ المَزَارِعَا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: قالت الأعراب: صدقنا باللَّه ورسوله، فنحن مؤمنون، قال اللَّه لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهم: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ ولستم مؤمنين ﴿وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾.

وذُكر أن هذه الآية نزلت في أعراب من بني أسد.. عن مجاهد في قوله: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ قال: أعراب بني أسد بن خزيمة.

واختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله قيل للنبي ﷺ: قل لهؤلاء الأعراب: قولوا: أسلمنا، ولا تقولوا آمنا، فقال بعضهم: إنما أمر النبي ﷺ بذلك؛ لأن القوم كانوا صدّقوا بألسنتهم، ولم يصدّقوا قولهم بفعلهم، فقيل لهم: قولوا: أسلمنا؛ لأن الإسلام قول، والإيمان قول وعمل. وهو قول الزهري.

وقال آخرون: إنما أمر النبي ﷺ بقيل ذلك لهم؛ لأنهم أرادوا أن يتسموا بأسماء المهاجرين قبل أن يهاجروا، فأعلمهم اللَّه أن لهم أسماء الأعراب، لا أسماء المهاجرين..

وقال آخرون: قيل لهم ذلك لأنهم منّوا على رسول اللَّه ﷺ بإسلامهم، فقال اللَّه لنبيه ﷺ: قل لهم لم تؤمنوا، ولكن استسلمتم خوف السباء والقتل..

وأولى الأقوال بالصواب في تأويل ذلك القول الذي ذكرناه عن الزهري، وهو

أن اللَّه تقدّم إلى هؤلاء الأعراب الذين دخلوا في الملة إقرارًا منهم بالقول، ولم يحققوا قولهم بعملهم أن يقولوا بالإطلاق آمنا دون تقييد قولهم بذلك بأن يقولوا آمنا باللَّه ورسوله، ولكن أمرهم أن يقولوا القول الذي لا يشكل على سامعيه والذي قائله فيه محقّ، وهو أن يقولوا: أسلمنا، بمعنى: دخلنا في الملة والأموال، والشهادة الحق»[1].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول تعالى منكرًا على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادّعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾. وقد استفيد من هذه الآية الكريمة: أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل عليه السلام، حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه».

ثم ساق حديث سعد بن أبي وقاص: «أو مسلم..»، وقال: «فقد فرّق النبي ﷺ بين المسلم والمؤمن فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام. وقد قررنا ذلك بأدلته في أول شرح كتاب الإيمان من صحيح البخاري ولله الحمد والمنة. ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلمًا ليس منافقًا؛ لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقامًا أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك. وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم النخعي، وقتادة، واختاره ابن جرير. وإنما قلنا هذا لأن البخاري - رَحِمَهُ اللَّهُ- ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرون الإيمان وليسوا كذلك. وقد رُوي عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وابن زيد أنهم قالوا في قوله: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾، أي: استسلمنا خوف القتل والسباء. قال مجاهد: نزلت في بني أسد بن خزيمة. وقال قتادة: نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول اللَّه ﷺ.

والصحيح الأول: أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فأدّبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنّفوا

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٤١-١٤٣).

وفُضحوا، كما ذكر المنافقون في سورة (براءة). وإنما قيل لهؤلاء تأديبًا: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد»[1].

وقال ابن رجب: «نفي الإيمان عنهم لا يلزم منه نفي الإسلام كما نفى الإيمان عن الزاني والسارق والشارب وإن كان الإسلام عنهم غير منفيّ.

وقد ورد هذا المعنى في الآية عن ابن عباس، وقتادة، والنخعي، ورُوي عن ابن زيد معناه أيضًا، وهو قول الزهري، وحماد بن زيد، وأحمد، ورجّحه ابن جرير وغيره.

واستدلوا به على التفريق بين الإسلام والإيمان»[2].

وقال ابن القيم وهو يتكلم عن الإيمان المطلق ومطلق الإيمان: «فالإيمان المطلق لا يطلق إلا على الكامل الكمال المأمور به، ومطلق الإيمان يطلق على الناقص والكامل، ولهذا نفى النبي ﷺ الإيمان المطلق عن الزاني وشارب الخمر والسارق ولم ينف عنه مطلق الإيمان؛ لئلاّ يدخل في قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3]، ولا في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝﴾[4]، ولا في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[5] إلى آخر الآيات، ويدخل في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[6]، وفي قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾[7]، وفي قوله: «**لا يقتل مؤمن بكافر**»[8] وأمثال ذلك. فلهذا كان قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ نفيًا للإيمان المطلق، لا لمطلق الإيمان؛ لوجوه: منها أنه أمرهم أو أذن لهم أن يقولوا: أسلمنا، والمنافق لا يقال له ذلك. ومنها: أنه قال: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ﴾ ولم يقل: قال المنافقون. ومنها: أن هؤلاء الجفاة الذين نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات ورفعوا أصواتهم فوق صوته غلظة منهم وجفاءً لا نفاقًا

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٦٧-٣٦٨).
(٢) فتح الباري لابن رجب (١/ ١٢٦).
(٣) آل عمران: الآية (٦٨).
(٤) المؤمنون: الآية (١).
(٥) الأنفال: الآية (٢).
(٦) النساء: الآية (٩٢).
(٧) الحجرات: الآية (٩).
(٨) أخرجه: أحمد (٢/ ١٩٢) وأبو داود (٣/ ١٨٣-١٨٥/ ٢٧٥١) وابن ماجه (٢/ ٨٩٥/ ٢٦٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو ﵄.

وكفرًا. ومنها: أنه قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، ولم ينف دخول الإسلام في قلوبهم، ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام كما نفى الإيمان. ومنها: أن اللَّه تعالى قال: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: لا ينقصكم، والمنافق لا طاعة له. ومنها: أنه قال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم﴾[1]، فأثبت لهم إسلامًا، ونهاهم أن يمنوا على رسول اللَّه ﷺ. ولو لم يكن إسلامًا صحيحًا لقال: لم تسلموا، بل أنتم كاذبون، كما كذبهم في قولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾[2] لما لم تطابق شهادتهم اعتقادهم. ومنها أنه قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾، ولو كانوا منافقين لما منّ عليهم. ومنها أنه قال: ﴿أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾ ولا ينافي هذا قوله: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾؛ فإنه نفى الإيمان المطلق، ومنّ عليهم بهدايتهم إلى الإسلام الذي هو متضمن لمطلق الإيمان. ومنها: أن النبي ﷺ لما قسم القسم، قال له سعد: أعطيت فلانًا وتركت فلانًا وهو مؤمن، فقال: «أو مسلم» - ثلاث مرات، وأثبت له الإسلام دون الإيمان. وفي الآية أسرار بديعة ليس هذا موضعها. والمقصود الفرق بين الإيمان المطلق ومطلق الإيمان؛ فالإيمان المطلق يمنع دخول النار، ومطلق الإيمان يمنع الخلود فيها»[3].

وقد انتصر لهذا القول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كلام له نفيس، انظر مجموع الفتاوى (٧/ ٢٣٨) فما بعد.

قال ابن جرير: «قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ يقول تعالى ذكره: ولما يدخل العلم بشرائع الإيمان وحقائق معانيه في قلوبكم»[4].

وقال السعدي: «وفي قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: وقت هذا الكلام الذي صدر منكم، فكان فيه إشارة إلى أحوالكم بعد ذلك، فإن كثيرًا منهم منّ اللَّه عليهم بالإيمان الحقيقي، والجهاد في سبيل الله»[5].

قال ابن عاشور: « وقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ واقع موقع الحال من ضمير ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ وهو مبيّنٌ لمعنى نفي الإيمان عنهم في قوله: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ بأنه ليس انتفاء وجود تصديق باللسان ولكن انتفاء رسوخه وعقد القلب عليه إذ كان فيهم بقية

---

(١) الحجرات: الآية (١٧).
(٢) المنافقون: الآية (١).
(٣) بدائع الفوائد (٤/ ١٦-١٧).
(٤) جامع البيان (٢٦/ ١٤٣).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٤٠).

من ارتياب كما أشعر به مقابلته بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾.

واستعير الدخول في قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ للتمكن وعدم التزلزل لأن الداخل إلى المكان يتمكن ويَسْتقر والخارج عنه يكون سريع المفارقة له مستوفزًا للانصراف عنه.. وقوله: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ إرشاد إلى دواء مرض الحال في قلوبهم من ضعف الإيمان بأنه إن يطيعوا اللَّه ورسوله حَصل إيمانهم فإن مما أمر اللَّه به على لسان رسوله ﷺ بيان عقائد الإيمان بأن يقبلوا على التعلم من رسول اللَّه ﷺ مدة إقامتهم بالمدينة عوضًا عن الاشتغال بالمَنّ والتعريض بطلب الصدقات.

والمعنى: إن أخلصتم الإيمان كما أمركم اللَّه ورسوله تقبَّل اللَّه أعمالكم التي ذكرتم من أنكم جئتم طائعين للإسلام من غير قتال»[١].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء الأعراب -القائلين: آمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبهم-: إن تطيعوا اللَّه ورسوله أيها القوم، فتأتمروا لأمره وأمر رسوله، وتعملوا بما فرض عليكم، وتنتهوا عما نهاكم عنه، ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ يقول: لا يظلمكم من أجور أعمالكم شيئًا، ولا ينقصكم من ثوابها شيئًا»[٢].

وقال ابن كثير: «أي: لا ينقصكم من أجوركم شيئًا، كقوله: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾[٣]»[٤].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقول تعالى ذكره: إن اللَّه ذو عفو -أيها الأعراب- لمن أطاعه، وتاب إليه من سالف ذنوبه، فأطيعوه، وانتهوا إلى أمره ونهيه، يغفر لكم ذنوبكم، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بخلقه التائبين إليه أن يعاقبهم بعد توبتهم من ذنوبهم على ما تابوا منه، فتوبوا إليه يرحمكم»[٥].

---

(١) التحرير والتنوير(٢٦/ ٢٦٣-٢٦٦)

(٢) جامع البيان (٢٦/ ١٤٣).

(٣) الطور: الآية (٢١).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٦٨).

(٥) جامع البيان (٢٦/ ١٤٤).

ومما دلت عليه الآية نفي الله الإيمان عمن لم يأت بالطاعة مع الإيمان قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «نفى الله الإيمان عمن قال بلسانه وقلبه إذا لم يعمل كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ فنفى الإيمان عمن سوى هؤلاء. وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾[١]. و"التولي" هو التولي عن الطاعة كما قال تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَـٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾[٣] وقد قال تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾[٤] وكذلك قال موسى وهارون: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾[٥]. فعلم أن «التولي» ليس هو التكذيب بل هو التولي عن الطاعة فإن الناس عليهم أن يصدقوا الرسول فيما أخبر ويطيعوه فيما أمر. وضد التصديق التكذيب وضد الطاعة التولي فلهذا قال: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَـٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ وقد قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ فنفى الإيمان عمن تولى عن العمل وإن كان قد أتى بالقول. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾[٦] وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٧]. ففي القرآن والسنة من نفي الإيمان عمن لم يأت بالعمل مواضع كثيرة كما نفى فيها الإيمان عن المنافق»[٨].

---

(١) النور: الآية (٤٧).

(٢) الفتح: الآية (١٦).

(٣) القيامة الآيتان (٣١و٣٢).

(٤) الليل الآيتان (١٥و١٦).

(٥) طه: الآية (٤٨).

(٦) النور: الآية (٦٢).

(٧) الأنفال: الآية (٢).

(٨) مجموع الفتاوى (٧/ ١٤١-١٤٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه، والنهي عن القطع بالإيمان من غير دليل قاطع وبيان أن الإيمان أخص من الإسلام

* عن سعد ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ أعطى رهطًا -وسعد جالس- فترك رسول اللَّه ﷺ رجلًا هو أعجبهم إلي، فقلت: يا رسول الله! ما لك عن فلان؟ فواللَّه إني لأراه مؤمنًا، فقال: **أو مسلمًا**، فسكتّ قليلًا، ثم غلبني ما أعلم منه، فعدت لمقالتي فقلت: ما لك عن فلان؟ فواللَّه إني لأراه مؤمنًا، فقال: **أو مسلمًا**، ثم غلبني ما أعلم منه، فعدت لمقالتي وعاد رسول اللَّه ﷺ ثم قال: **يا سعد! إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه؛ خشية أن يكبه اللَّه في النار**»[1].

★ **غريب الحديث:**

رهطًا: الرهط: عدد من الرجال من ثلاثة إلى عشرة.

هو أحبهم إليّ: أي: أفضلهم وأصلحهم في اعتقادي.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن رجب: «هذا الحديث حمله البخاري على أن هذا الرجل كان منافقًا، وأن الرسول ﷺ نفى عنه الإيمان وأثبت له الاستسلام دون الإسلام الحقيقي، وهو -أيضًا- قول محمد بن نصر المروزي.

وهذا في غاية البعد، وآخر الحديث يرد على ذلك، وهو: قول النبي ﷺ: «**إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه**»، فإن هذا يدل على أن النبي ﷺ وكله إلى إيمانه كما كان يعطي المؤلفة قلوبهم ويمنع المهاجرين والأنصار.

وزعم علي بن المديني في كتاب «العلل» له أن هذا من باب المزاح من النبي ﷺ؛ فإنه كان يمزح ولا يقول إلا حقًّا، فأوهم سعدًا أنه ليس بمؤمن؛ بل مسلم، وهما بمعنى واحد كما يقول لرجل يمازحه وهو يدّعي أنه أخ لرجل فيقول: إنما أنت

(١) أخرجه: أحمد (١/ ١٧٦)، والبخاري (١/ ١٠٨/ ٢٧) واللفظ له، ومسلم (١/ ١٣٢/ ١٥٠)، وأبو داود (٥/ ٦٠-٦٢/ ٤٦٨٣)، والنسائي (٨/ ٤٧٧-٤٧٨/ ٥٠٠٧-٥٠٠٨)، وفي الكبرى (٦/ ٤٦٧/ ١١٥١٧).

ابن أبيه أو ابن أمه، وما أشبه ذلك مما يوهم الفرق والمعنى واحد. وهذا تعسف شديد.

والظاهر -واللَّه أعلم- أن النبي ﷺ زجر سعدًا عن الشهادة بالإيمان؛ لأن الإيمان باطن في القلب، لا اطلاع للعبد عليه، فالشهادة به شهادة على ظن فلا ينبغي الجزم بذلك كما قال: «**إن كنت مادحًا لا محالة فقل: أحسب فلانًا كذا ولا أزكّي على اللَّه أحدًا**»، وأمره أن يشهد بالإسلام لأنه أمر مطَّلَع عليه كما في المسند عن أنس مرفوعًا: «**الإسلام علانية، والإيمان في القلب**»[١].

ولهذا كره أكثر السلف أن يطلق الإنسان على نفسه أنه مؤمن، وقالوا: هو صفة مدح، وتزكية للنفس بما غاب من أعمالها؛ وإنما يشهد لنفسه بالإسلام لظهوره»[٢].

قال القاضي عياض: «هذا الحديث أصح دليل على الفرق بين الإيمان والإسلام، وأن الإيمان باطن ومن عمل القلب، والإسلام ظاهر ومن عمل الجوارح، لكن لا يكون مؤمنا إلا مسلمًا، وقد يكون مسلمًا غير مؤمن، ولفظ هذا الحديث يدل عليه، وفيه ردٌّ على الكرامية وغلاة المرجئة في حكمهم بصحة الإيمان لمن نطق بالشهادتين وإن لم يعتقدها بقلبه؛ لنفي النبي ﷺ اسم الإيمان عنه، واقتصاره به على الإسلام. وفيه حجة لقول من يجيز إطلاق (أنا مؤمن) دون استثناء، وردّ على من أبى ذلك، وهي مسألة اختلف فيها من زمان الصحابة ﷺ إلى هلمّ جرًّا.

وكل قول إذا حقق كان له وجه، وفي ظرف لا ينافي القول الآخر. فمن لم يستثن أخبر عن حكم نفسه في الحال، وأما المآل فإلى العلام به، ومن استثنى أشار إلى غيب ما سبق له في اللوح المحفوظ. وإلى التوسعة في القولين ذهب من السلف الأوزاعي وغيره، وهو قول أهل التحقيق نظرًا إلى ما قلناه ورفعًا للخلاف»[٣].

قال النووي: «وأما قوله ﷺ: «**أو مسلمًا**» فليس فيه إنكار كونه مؤمنًا، بل معناه

---

(١) أخرجه من حديث أنس بن مالك ﷺ: أحمد (٣/ ١٣٥)، وأبو يعلى (٥/ ٣٠١-٣٠٢/ ٢٩٢٣)، وإسناده ضعيف. تفرد به علي بن مسعدة. وانظر ضعيف الجامع رقم (٢٢٨٠).

(٢) فتح الباري (١/ ١٣١-١٣٢) بتصرف.

(٣) الإكمال (١/ ٤٦١-٤٦٢).

النهي عن القطع بالإيمان، وأن لفظة الإسلام أولى به؛ فإن الإسلام معلوم بحكم الظاهر، وأما الإيمان فباطن لا يعلمه إلا اللَّه تعالى. وقد زعم صاحب التحرير أن في هذا الحديث إشارة إلى أن الرجل لم يكن مؤمنًا، وليس كما زعم، بل فيه إشارة إلى إيمانه؛ فإن النبي ﷺ قال في جواب سعد: «**إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه**» معناه: أعطي من أخاف عليه لضعف إيمانه أن يكفر، وأدع غيره ممن هو أحب إلي منه لما أعلمه من طمأنينة قلبه، وصلابة إيمانه»[1].

وقد تقدّم الكلام على مسألة الإيمان والإسلام، والفرق بينهما، مستوفىً عند قوله تعالى من سورة (الأحزاب): ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ . . .﴾ الآية (٣٥).

* * *

(١) شرح مسلم (٢/ ١٥٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾

★ غريب الآية:

لم يرتابوا: لم يشكّوا. والريب: الشكّ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره للأعراب -الذين قالوا: آمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبهم-: إنما المؤمنون -أيها القوم- الذين صدّقوا اللّه ورسوله، ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾، يقول: ثم لم يشكوا في وحدانية اللّه، ولا في نبوّة نبيه ﷺ، وألزم نفسه طاعة اللّه وطاعة رسوله، والعمل بما وجب عليه من فرائض اللّه بغير شكّ منه في وجوب ذلك عليه، ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقول: جاهدوا المشركين بإنفاق أموالهم، وبذل مُهجِهم في جهادهم، على ما أمرهم اللّه به من جهادهم، وذلك سبيله لتكون كلمة اللّه العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى»[1].

وقال ابن كثير: «أي: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الكمّل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ أي: لم يشكوا ولا تزلزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة، وهي التصديق المحض، ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة اللّه ورضوانه»[2].

قال ابن عاشور: «هذا تعليل لقوله: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وهو من جملة ما أمر الرسول ﷺ بأن يقوله للأعراب، أي ليس المؤمنون إلا الذين آمنوا ولم يخالط إيمانهم ارتياب أو تشكك.

و (إنما) للحصر، و(إنّ) التي هي جُزء منها مفيدة أيضًا للتعليل وقائمة مقام فاء

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٤٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٦٨).

التفريع، أي إنما لم تكونوا مؤمنين لأن الإيمان ينافيه الارتياب.

والقصر إضافي، أي المؤمنون الذين هذه صفاتهم غير هؤلاء الأعراب.

فأفاد أن هؤلاء الأعراب انتفى عنهم الإيمان لأنهم انتفى عنهم مجموع هذه الصفات.

وإذ قد كان القصر إضافيًا لم يكن الغرض منه إلاّ إثبات الوصف لغير المقصور لإخراج المتحدث عنهم عن أن يكونوا مؤمنين، وليس بمقتض أن حقيقة الإيمان لا تتقوم إلا بمجموع تلك الصفات لأن عد الجِهاد في سبيل اللَّه مع صفتي الإيمان وانتفاء الريب فيه يمنع من ذَلك لأن الذي يقعُد عن الجهاد لا ينتفي عنه وصف الإيمان إذ لا يكفَّر المسلم بارتكاب الكبائر عند أهل الحق. وما عداه خطأ واضح، وإلا لانتقضت جامعة الإسلام بأسرها إلا فئة قليلة في أوقات غير طويلة.

والمقصود من إدماج ذكر الجهاد التنويه بفضل المؤمنين المجاهدين وتحريض الذين دخلوا في الإيمان على الاستعداد إلى الجهاد كما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾[١] الآية.

و(ثم) من قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ للتراخي الرتبي كشأنها في عطف الجمل. ففي (ثم) إشارة إلى أن انتفاء الارتياب في إيمانهم أهم رتبةً من الإيمان إذ به قوامُ الإيمان، وهذا إيماء إلى بيان قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾أي من أجل ما يخالجكم ارتياب في بعض ما آمنتم به مما اطلّع اللَّه عليه»[٢].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ يقول: هؤلاء الذين يفعلون ذلك هم الصادقون في قوله: إنا مؤمنون، لا من دخل في الملة خوف السيف ليحقن دمه وماله»[٣].

وقال ابن كثير: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي: في قولهم إذا قالوا: (إنهم مؤمنون)، لا كبعض الأعراب الذين ليس معهم من الدين إلا الكلمة الظاهرة»[٤].

---

(١) الفتح: الآية (١٦).
(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٣٧).
(٣) جامع البيان (٢٦/ ١٤٤).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٦٨).

وقال السعدي: «﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي: على الحقيقة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: من جمعوا بين الإيمان والجهاد في سبيله، فإن من جاهد الكفار، دل ذلك على الإيمان التام في القلب؛ لأن من جاهد غيره على الإسلام، والقيام بشرائعه، فجهاده لنفسه على ذلك، من باب أولى وأحرى؛ ولأن من لم يقو على الجهاد، فإن ذلك دليل على ضعف إيمانه، وشرط تعالى في الإيمان عدم الريب، وهو الشك؛ لأن الإيمان النافع هو الجزم اليقيني، بما أمر اللّه بالإيمان به، الذي لا يعتريه شك بوجه من الوجوه.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي: الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة؛ فإن الصدق دعوى كبيرة في كل شيء يدعى يحتاج صاحبه إلى حجة وبرهان، وأعظم ذلك دعوى الإيمان، الذي هو مدار السعادة، والفوز الأبدي، والفلاح السرمدي، فمن ادعاه، وقام بواجباته ولوازمه، فهو الصادق المؤمن حقًّا، ومن لم يكن كذلك، علم أنه ليس بصادق في دعواه، وليس لدعواه فائدة؛ فإن الإيمان في القلب لا يطلع عليه إلا اللّه تعالى.

فإثباته ونفيه من باب تعليم اللّه بما في القلب، وهذا سوء أدب وظن باللّه، ولهذا قال: ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦﴾[1]»[2].

* * *

(١) الحجرات: الآية (١٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٤٠-١٤١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «أعيد فعل ﴿قُلْ﴾ ليدل على أن المقول لهم هذا هم الأعراب الذين أمر أن يقول لهم ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ إلى آخره، فأعيد لَمَّا طال الفصل بين القولين بالجمل المتتابعة»[(١)].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الأعراب -القائلين: آمنا، ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم-: ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ﴾ أيها القوم بدينكم، يعني بطاعتكم ربكم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ يقول: واللَّه الذي تعلِّمونه أنكم مؤمنون، علاّم جميع ما في السموات السبع والأرضين السبع، لا يخفى عليه منه شيء، فكيف تعلمونه بدينكم، والذي أنتم عليه من الإيمان، وهو لا يخفى عليه خافية، في سماء ولا أرض، فيخفى عليه ما أنتم عليه من الدين، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يقول: واللَّه بكلّ ما كان، وما هو كائن، وبما يكون ذو علم. وإنما هذا تقدّم من اللَّه إلى هؤلاء الأعراب بالنهي عن أن يكذّبوا ويقولوا غير الذي هم عليه في دينهم. يقول: اللَّه محيط بكلّ شيء عالم به، فاحذروا أن تقولوا خلاف ما يعلم من ضمائر صدوركم، فينالكم عقوبته؛ فإنه لا يخفى عليه شيء»[(٢)].

قال أبو السعود: «والتعبير عنه بالتعليم لغاية تشنيعهم»[(٣)].

قال الشنقيطي: «وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تقبيح تزكية النفس بالكذب جاء موضحًا في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٦٨)

(٢) جامع البيان (٢٦/ ١٤٤-١٤٥).

(٣) تفسير أبي السعود (٦/ ١٨٩).

وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[1] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة»[2].

قال السعدي: «وهذا شامل للأشياء كلها، التي من جملتها ما في القلوب من الإيمان والكفران، والبر والفجور، فإنه تعالى يعلم ذلك كله، ويجازي عليه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

هذه حالة من أحوال من ادّعى لنفسه الإيمان وليس به، فإنه إما أن يكون ذلك تعليمًا لله، وقد علم أنه عالم بكل شيء، وإما أن يكون قصدهم بهذا الكلام المنة على رسوله، وأنهم قد بذلوا له وتبرعوا بما ليس من مصالحهم، بل هو من حظوظه الدنيوية، وهذا تجمّل بما لا يجمل، وفخر بما لا ينبغي لهم أن يفتخروا على رسوله به، فإن المنة لله تعالى عليهم، فكما أنه تعالى يمنّ عليهم، بالخلق والرزق، والنعم الظاهرة والباطنة، فمنّته عليهم بهدايتهم إلى الإسلام، ومنّته عليهم بالإيمان أعظم من كل شيء، ولهذا قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾[3]»[4].

* * *

(١) النجم: الآية (٣٢).

(٢) أضواء البيان (٧/ ٦٣٩).

(٣) الحجرات: الآية (١٧).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٤١-١٤٢).

قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾

★ غريب الآية:

يَمُنُّونَ: يمتنون. والامتنان: الاستكثار بما يفعله المرء من المعروف. وأصل المَنِّ في اللغة: القطع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يمنّ عليك هؤلاء الأعراب - يا محمد- أن أسلموا، ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ يقول: بل اللَّه يمنّ عليكم -أيها القوم- أن وفّقكم للإيمان به وبرسوله ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يقول: إن كنتم صادقين في قولكم: آمنا؛ فإن اللَّه هو الذي منّ عليكم بأن هداكم له، فلا تمنّوا عليّ بإسلامكم»[1].

وقال ابن كثير: «﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ يعني الأعراب يمنّون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول، يقول اللَّه ردًّا عليهم: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾، فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم، ولله المنة عليكم فيه، ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، أي: في دعواكم ذلك، كما قال النبي ﷺ للأنصار يوم حنين: «**يا معشر الأنصار! ألم أجدكم ضلاّلًا فهداكم اللَّه بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم اللَّه بي؟ وعالة فأغناكم اللَّه بي؟ كلما قال شيئًا قالوا: اللَّه ورسوله أمنّ**»[2]»[3].

قال ابن جرير: «و﴿أَنْ﴾ في قوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ في موضع نصب

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٤٥).

(٢) سيأتي تخريجه ضمن أحاديث الباب.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٦٩).

بوقوع ﴿يَمُنُّونَ﴾ عليها، وذكر أن ذلك في قراءة عبد الله: (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ إِسْلاَمَهُمْ)، وذلك دليل على صحة ما قلنا، ولو قيل: هي نصب بمعنى: يمنّون عليك لأن أسلموا، لكان وجهًا يتجه. وقال بعض أهل العربية: هي في موضع خفض، بمعنى: لأن أسلموا.

وأما ﴿أَنْ﴾ التي في قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ فإنها في موضع نصب بسقوط الصلة؛ لأن معنى الكلام: بل اللّٰه يمنّ عليكم بأن هداكم للإيمان»[١].

وقال النيسابوري: «وفي إضافة الإسلام إليهم ازدراء بإسلامهم، وفي إيراد الإيمان مطلقًا غير مضاف إشارة إلى الإيمان المعهود الذي يجب أن يكون المكلف عليه»[٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإيمان والطاعة من أجل النعم، بل هما أجل النعم على الإطلاق؛ فهما منه سبحانه تعليمًا، وإرشادًا، وإلهامًا، وتوفيقًا، ومشيئة، وخلقًا.

ولا يصح أن يقال: إنها أمرًا وبيانًا فقط؛ فإن ذلك حاصل بالنسبة إلى الكفار والعصاة، فتكون نعمته على أكفر الخلق كنعمته على أهل الإيمان والطاعة والبر منهم؛ إذ نعمة البيان والإرشاد مشتركة، وهذا قول القدرية، وقد صرح به كثير منهم، ولم يجعلوا لله على العبد نعمة في مشيئته وخلقه فعله وتوفيقه إياه حين فعله، وهذا من قولهم الذي باينوا به جميع الرسل والكتب، وطردوا ذلك حين لم يجعلوا لله على العبد منة في إعطائه الجزاء، بل قالوا ذلك محض حقه الذي لا منة لله عليه فيه، واحتجوا بقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[٣] قالوا: أي: غير ممنون به عليهم؛ إذ هو جزاء أعمالهم وأجورها، قالوا: والمنة تكدر النعمة والعطية، ولم يدعوا هؤلاء للجهل باللّٰه موضعًا، وقاسوا منته على منة المخلوق؛ فإنهم مشبّهة في الأفعال، معطّلة في الصفات.

وليست المنة في الحقيقة إلا لله؛ فهو المانّ بفضله، وأهل سمواته وأهل أرضه في محض منّته عليهم؛ قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٤٦).
(٢) تفسير النيسابوري (٧/ ٥٠).
(٣) الانشقاق: الآية (٢٥).

ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ ، وقال تعالى لكليمه موسى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾[1] ، وقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[2] ، وقال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾[3]. ولما قال النبي ﷺ للأنصار: «**ألم أجدكم ضلالًا فهداكم اللَّه بي، وعالة فأغناكم اللَّه بي؟**» **قالوا: اللَّه ورسوله أمنّ. وقال الرسل لقومهم:** ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[4].

فمنّه سبحانه محض إحسانه وفضله ورحمته، وما طاب عيش أهل الجنة فيها إلا بمنّته عليهم، ولهذا قال أهلها وقد أقبل بعضهم على بعض يتساءلون: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾[5].

فأخبروا لمعرفتهم بربهم وحقه عليهم أن نجاهم من عذاب السموم بمحض منّته عليهم. وقد قال أعلم الخلق باللَّه وأحبهم إليه، وأقربهم منه، وأطوعهم له: «**لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني اللَّه برحمة منه وفضل**»[6]، وقال: «**إن اللَّه لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرًا من أعمالهم**»[7]. والأول صحيح، والثاني في المسند والسنن، وصححه الحاكم وغيره. فأخبر سيد العاملين أنه لا يدخل الجنة بعمله.

وقالت القدرية: إنهم يدخلونها بأعمالهم؛ لئلاّ يتكدّر نعيمهم عليهم بمشيئة اللَّه، بل يكون ذلك النعيم عوضًا. وما رمى السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم القدرية عن قوس واحدة إلا لعظم بدعهم ومنافاتها لما بعث اللَّه به أنبياءه ورسله، فلو أتى العباد بكل طاعة وكانت أنفاسهم كلها طاعات لله لكانوا في محض منّته وفضله، وكانت له المنّة عليهم. وكلما عظمت طاعة العبد كانت منّة اللَّه عليه

---

(١) طه: الآية (٣٧).

(٢) الصافات: الآية (١١٤).

(٣) القصص: الآية (٥).

(٤) إبراهيم: الآية (١١).

(٥) الطور الآيتان (٢٦و٢٧).

(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٤٤) والبخاري (١١/ ٣٥٥/ ٦٤٦٣) ومسلم (٤/ ٢١٦٩/ ٢٨١٦) وابن ماجه (٢/ ١٤٠٥/ ٤٢٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) أخرجه: أحمد (٥/ ١٨٢-١٨٣) وأبو داود (٥/ ٧٥/ ٤٦٩٩) وابن ماجه (١/ ٢٩-٣٠/ ٧٧) وصححه ابن حبان (٢/ ٥٠٥-٥٠٦/ ٧٢٧) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

أعظم، فهو المانّ بفضله، فمن أنكر منّته فقد أنكر إحسانه.

وأما قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾(١) فلم يختلف أهل العلم باللَّه ورسوله وكتابه أن معناه: غير مقطوع. ومنه ريب المنون، وهو الموت؛ لأنه يقطع العمر»(٢).

وقال أيضًا في معرض رده على بعض أهل الضلال القائلين: (الغرض في التكليف أن استيفاء المستحق حقّه أهنأ له وألذّ من قبول التفضل واحتمال المنة!):
«وهذا كلام أجهل الخلق بالرب تعالى، وبحقه وبعظمته، ومساوٍ بينه وبين آحاد الناس، وهو من أقبح التشبيه وأخبثه، تعالى اللَّه عن ضلالهم علوًّا كبيرًا.

فكيف يستنكف العبد المخلوق المربوب من قبول فضل اللَّه تعالى ومنّته؟ وهل المنّة في الحقيقة إلا لله المانّ بفضله؟ قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾(٣)، ولما قال النبي ﷺ للأنصار: «**ألم أجدكم ضلاّلًا فهداكم اللَّه بي؟ وعالة فأغناكم اللَّه بي؟**» **فأجابوه بقولهم: اللَّه ورسوله أمنّ.**

ويا للعقول التي قد خُسف بها! أي حق للعبد على الرب حتى يمتنع من قبول منّته عليه؟! فبأي حق استحق الإنعام عليه بالإيجاد، وكمال الخلقة، وحسن الصورة، وقوام البنية، وإعطائه القوى والمنافع والآلات والأعضاء، وتسخير ما في السموات وما في الأرض له، ومن أقل ما له عليه من النعم التنفس في الهواء الذي لا يكاد يخطر بباله أنه من النعم وهو في اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف نفَس، فإذا كانت أقل نعمه عليهم -ولا أقل منها- أربعة وعشرون ألف نعمة كل يوم وليلة، فما الظن بما هو أجل منها من النعم؟!

فيا للعقول السخيفة المخسوف بها! أي علم لكم؟ وأي سعي يقابل القليل من نعمه الدنيوية حتى لا يبقى لله عليكم منة إذا أثابكم؟ لأنكم استوفيتم ديونكم قِبَله ولا نعمة له عليكم فيها! فأي أمة من الأمم بلغ جهلها باللَّه هذا المبلغ، واستنكفت

---

(١) فصلت: الآية (٨).
(٢) شفاء العليل (ص: ٥٧-٥٨).
(٣) آل عمران: الآية (١٦٤).

عن قبول منته، وزعمت أن لها الحق على ربها وأن تفضله عليها ومنّته مكدِّر لالتذاذها بعطائه؟

ولو أن العبد استعمل هذا الأدب مع ملك من ملوك الدنيا لمقته وأبعده وسقط من عينه، مع أنه لا نعمة له عليه في الحقيقة، إنما المنعم في الحقيقة هو اللَّه ولي النعم ومولّيها.

ولقد كشف القوم عن أقبح عورة من عورات الجهل بهذا الرأي السخيف، والمذهب القبيح، والحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به أرباب هذا المذهب، المستنكفين من قبول منة اللَّه، الزاعمين أن ما أنعم اللَّه به عليهم حقُّهم عليه، وحقُّهم قبله، وأنه لا يستحق الحمد والثناء على أداء ما عليه من الدَّين والخروج مما عليه من الحق؛ لأن أداء الواجب يقتضي غيره! تعالى اللَّه عن إفكهم وكذبهم علوًّا كبيرًا»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن المنة لله ولرسوله ﷺ

* عن عبد اللَّه بن زيد بن عاصم قال: «**لما أفاء اللَّه على رسوله ﷺ** يوم حنين، قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم، ولم يعط الأنصار شيئًا، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم فقال: **يا معشر الأنصار! ألم أجدكم ضلاّلًا فهداكم اللَّه بي، وكنتم متفرّقين فألفكم اللَّه بي، وكنتم عالة فأغناكم اللَّه بي؟** كلما قال شيئًا قالوا: اللَّه ورسوله أمنّ، قال: ما يمنعكم أن تجيبوا رسول اللَّه ﷺ؟ قال: كلما قال شيئًا قالوا: اللَّه ورسوله أمنّ، قال: **لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا، ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وشِعبًا لسلكتُ وادي الأنصار وشِعبها، الأنصار شِعار والناس دِثار، إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**»[2].

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٤٣٢-٤٣٣).

(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ٥٩/ ٤٣٣٠)، ومسلم (٢/ ٧٣٨-٧٣٩/ ١٠٦١).

★ **غريب الحديث:**

أفاء: أي: أعطاه غنائم الذين قاتلهم يوم حنين. والفيء: هو ما حصل للمسلمين من أموال الكفار من غير حرب ولا جهاد. وأصل الفيء: الرجوع، ومنه قيل للظل الذي يكون بعد الزوال: فيء؛ لأنه يرجع من جانب الغرب إلى جانب الشرق.

المؤلفة قلوبهم: ناس من قريش أسلموا يوم الفتح إسلامًا ضعيفًا، وقيل: كان فيهم من لم يسلم بعد.

عالة: بالمهلمة، أي: فقراء لا مال لهم. والعيلة: الفقر.

بالشاة والبعير: اسم جنس فيهما، والشاة تقع على الذكر والأنثى، وكذا البعير.

شِعب: بكسر الشين المعجمة، وهو اسم لما انفرج بين جبلين، وقيل: الطريق في الجبل.

شِعار: بكسر المعجمة بعدها مهملة خفيفة: الثوب الذي يلي الجلد من الجسد.

دِثار: بكسر المهلمة ومثلثة خفيفة: وهو الثوب الذي يكون فوق الشعار.

أَثَرة: بفتح الهمزة والثاء: الاسم، آثر يؤثر إيثارًا: إذا أعطى، أراد أنه يستأثر عليكم فيفضل غيركم في نصيبه على الفيء. والاستئثار: الانفراد بالشيء.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن الملقن: «والهداية هداية الإيمان، ولا شك أن نعمة الإيمان أعظم النعم؛ فإنه لا يوازيها شيء من أمر الدنيا، فلذلك بدأ بها ثم ثنى بنعمة الألفة، وهي أعظم من نعمة المال؛ إذ الأموال تبذل في تحصيلها، وهيهات أن تحصل؛ قال تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ ..[1] الآية، وكانت الأنصار في غاية التباعد والتنافر، وجرت بينهم حروب قبل المبعث، منها يوم بغاث بالغين المعجمة والمهملة، وآخره ثاء مثلثة: موضع من المدينة على ليلتين، ثم ثلث بنعمة الغنى

---

(١) الأنفال: الآية (٦٣).

والمال، وقد استعمل ﷺ في ذلك جميع ما يجب من الأدب مع القرآن العزيز واتباعه في إضافة الهداية والألفة والإغناء إلى اللَّه تعالى؛ فإن ذلك جميعه خاص به سبحانه لا يشركه فيه أحد، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾[1] الآية. وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[2]، وفي إضافة الهداية إلى الأسباب حيث أضافها اللَّه تعالى إليه في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3]، فلهذا قال ﷺ: «**فهداكم اللَّه بي**»، وكذلك الألفة حيث قال: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾[4]، وكذلك الإغناء فإنه ﷻ المغني، وامتنّ به في قوله تعالى لقوم نوح -عليه الصلاة والسلام- على لسانه: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾[5]»[6].

وقال أيضًا: «يؤخذ من الحديث إقامة الحجة على الخصم، وإفحامه بالحق عند الحاجة إليها. وأحسن الصحابة ﷺ الأدب في جوابهم، وحسن خطابهم مع اعترافهم بالحق وترك المماراة، لا جرم أعقبهم اللَّه ﷻ من حسن أدبهم شكر رسوله لهم وثناءه عليهم، فسبحان من اجتباهم، وامتنّ عليهم بصحبته ونصرته. والأمر كما ذكروا، فالمنّة في ذلك لله ولرسوله؛ قال اللَّه تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾»[7].

وقال: «قوله: «**لو شئتم لقلتم: جئتنا كذا**» هو منه -عليه الصلاة والسلام- على طريق التواضع ولين الجانب، وإلا ففي الحقيقة الحجة البالغة والمنة الظاهرة في جميع ذلك لله ولرسوله عليهم وعلى غيرهم؛ فإنه تعالى هو الذي أهّلهم لمحبته، وأعانهم على نصرة رسوله، وسمّاهم أنصارًا، وناهيك نعمة وافتخارًا»[8].

---

(١) البقرة: الآية (٢٧٢).

(٢) القصص: الآية (٥٦).

(٣) الشورى: الآية (٥٢).

(٤) الأنفال الآيتان (٦٢و٦٣).

(٥) نوح: الآية (١٢).

(٦) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (٥/ ١٠٦-١٠٨).

(٧) المصدر السابق (٥/ ١٠٨-١٠٩).

(٨) المصدر السابق (٥/ ١٠٩-١١٠).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**ألا ترضون..**» فيه تنبيه على ما غفلوا عنه من عظيم ما حصل لهم بالنسبة إلى ما أصاب غيرهم من عرض الدنيا، وأنه لا شيء بالنسبة إلى ما حصل لهم»[1].

* * *

(١) المصدر نفسه (٥/ ١١٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: «إن اللَّه -أيها الأعراب- لا يخفى عليه الصادق منكم من الكاذب، ومن الداخل منكم في ملة الإسلام رغبة فيه، ومن الداخل فيه رهبة من رسولنا محمد ﷺ وجنده، فلا تعلمونا دينكم وضمائر صدوركم؛ فإن اللَّه يعلم ما تكنّه ضمائر صدوركم، وتحدّثون به أنفسكم، ويعلم ما غاب عنكم، فاستسرّ في خبايا السموات والأرض، لا يخفى عليه شيء من ذلك، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ يقول: واللَّه ذو بصر بأعمالكم التي تعملونها، أجهرًا تعملون أم سرًّا، طاعة تعملون أو معصية؟ وهو مجازيكم على جميع ذلك، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ وكفؤه»[١].

وقال ابن كثير: «كرّر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٨﴾»[٢].

قال السعدي: «أي: الأمور الخفية فيها، التي تخفى على الخلق، كالذي في لجج البحار، ومهامه القفار، وما جنّه الليل أو واراه النهار، يعلم قطرات الأمطار، وحبّات الرمال، ومكنونات الصدور، وخبايا الأمور؛ ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾[٣].

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ يحصي عليكم أعمالكم، ويوفيكم إياها، ويجازيكم عليها بما تقتضيه رحمته الواسعة وحكمته البالغة»[٤].

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٤٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٦٩).

(٣) الأنعام: الآية (٥٩).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٤٢-١٤٣).

قد تقدمت الآيات الموضحة لهذه الآية الكريمة في أول سورة (هود) عند الكلام على قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ . . .﴾ الآية (٥).

قلت: هذه السورة المباركة فريدة من نوعها، صغير حجمها، كثيرة معانيها، عظمت النبي ﷺ وجعلته في المكان اللائق به بالقول والفعل؛ فهو المتبوع أبدًا، وجنابه مقدس يراعى فيه كامل التقدير والاحترام، فلا يذكر بصيغة استهجان واحتقار، ولا ينادى بلفظ عادي كسائر الناس؛ بل يذكر بصفة النبوة أو الرسالة أو العبودية، ويبذل له كامل الحب والتبجيل والتوقير، ولا يعارض قوله ﷺ بقول أحد مهما كان القائل، ولا يساوى في الحب والتقدير بأحد، فله الحب المطلق بعد حب اللَّه ﷻ.

وأخوة المؤمنين ثابتة ومؤكدة، يجب أن تراعى حقوقها وشروطها وضوابطها، كما يجب أن تقطع كل أواصر البغضاء والحسد والحقد، وكل وسيلة إفساد بين الأفراد والجماعات والدول، فلا تجسس ولا غيبة ولا نميمة، ولا بهتان ولا ظن سوء بأحد من أهل الإسلام، وهكذا تجتث كل أخلاق السوء التي تكون سببًا في فرقة الأمة وتشتيت شملها. وتنتشر أسباب المحبة من صدق وعفاف وبذل وتضحية، وكل ما يخدم الصالح الخاص والعام؛ حتى يتقدم المجتمع الإسلامي ويرتقي، فيصير أصحابه دائمًا إلى السمو والعلو؛ لا كما هو واقع الأمة الآن، التي تعيش في الانحطاط والسفول والرجوع إلى القهقرى والانتكاسة بعد الانتكاسة، والاستئثار بالمصالح الشخصية وما يخدم الذوات فقط، فضاعت الأمة بين منافق كذاب وبين دجال خبيث ينسب نفسه إلى الإصلاح وخدمة الصالح العام، وهو - لعمر الله- لص محتال أو أفعى رقطاء سمها يسري في أجساد الغافلين، واللَّه المستعان.

* * *



سورة ق

أغراض السورة

قال ابن القيم: «قد جمعت هذه السورة من أصول الإيمان ما يكفي ويشفي ويغني عن كلام أهل الكلام ومعقول أهل المعقول؛ فإنها تضمنت تقرير المبدأ والمعاد والتوحيد والنبوة والإيمان بالملائكة وانقسام الناس إلى هالك شقي وفائز سعيد، وأوصاف هؤلاء وهؤلاء، وتضمنت إثبات صفات الكمال لله وتنزيهه عما يضاد كماله من النقائص والعيوب، وذكر فيها القيامتين الصغرى والكبرى، والعالمين الأكبر وهو عالم الآخرة والأصغر وهو عالم الدنيا، وذكر فيها خلق الإنسان ووفاته وإعادته، وحاله عند وفاته ويوم معاده، وإحاطته سبحانه به من كل وجه؛ حتى علمه بوساوس نفسه، وإقامة الحفظة عليه يحصون عليه كل لفظة يتكلم بها، وأنه يوافيه يوم القيامة ومعه سائق يسوقه إليه، وشاهد يشهد عليه»[1].

وقال ابن عاشور: «أولها: التنويه بشأن القرآن.

ثانيها: أنهم كذبوا الرسول ﷺ لأنه من البشر.

وثالثها: الاستدلال على إثبات البعث، وأنه ليس بأعظم من ابتداء خلق السموات وما فيها، وخلق الأرض وما عليها، ونشأة النبات والثمار من ماء السماء، وأن ذلك مثل للإحياء بعد الموت.

الرابع: تنظير المشركين في تكذيبهم بالرسالة والبعث ببعض الأمم الخالية المعلومة لديهم، ووعيد هؤلاء أن يحل بهم ما حل بأولئك.

الخامس: الوعيد بعذاب الآخرة ابتداء من وقت احتضار الواحد، وذكر هول

---

(١) الفوائد (ص: ١٢).

يوم الحساب.

السادس: وعد المؤمنين بنعيم الآخرة.

السابع: تسلية النبي ﷺ على تكذيبهم إياه، وأمره بالإقبال على طاعة ربه، وإرجاء أمر المكذبين إلى يوم القيامة، وأن اللَّه لو شاء لأخذهم من الآن، ولكن حكمة اللَّه قضت بإرجائهم، وأن النبي ﷺ لم يكلف بأن يكرههم على الإسلام، وإنما أمر بالتذكير بالقرآن.

الثامن: الثناء على المؤمنين بالبعث بأنهم الذين يتذكرون بالقرآن.

التاسع: إحاطة علم اللَّه تعالى بخفيات الأشياء وخواطر النفوس»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة سورة (ق)

* عن جابر بن سمرة قال: «**إن النبي ﷺ** كان يقرأ في الفجر بـ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾، وكان صلاته بعد تخفيفًا»[٢].

* عن قطبة بن مالك قال: «**صليت وصلى بنا رسول اللَّه ﷺ** فقرأ: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾، حتى قرأ: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾[٣]، قال: فجعلت أرددها، ولا أدري ما قال»[٤].

* عن عبيداللَّه بن عبد الله: «**أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي: ما كان يقرأ به رسول اللَّه ﷺ** في الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾، و﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾[٥]»[٦].

* عن أم هشام ابنة حارثة قالت: «**ما أخذت** ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ إلا عن

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٧٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ١٠٢)، ومسلم (١/ ٣٣٧/ ٤٥٨).

(٣) ق: الآية (١٠).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٢٢)، ومسلم (١/ ٣٣٦/ ٤٥٧)، والترمذي (٢/ ١٠٨-١٠٩/ ٣٠٦)، والنسائي (٢/ ٤٩٥/ ٩٤٩)، وابن ماجه (١/ ٢٦٨/ ٨١٦).

(٥) القمر: الآية (١).

(٦) أخرجه: أحمد (٥/ ٢١٨)، ومسلم (٢/ ٦٠٧/ ٨٩١)، وأبو داود (١/ ٦٨٣/ ١١٥٤)، والترمذي (٢/ ٤١٥/ ٥٣٤) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٣/ ٢٠٤/ ١٥٦٦)، وابن ماجه (١/ ٤٠٨/ ١٢٨٢).

لسان رسول اللَّه ﷺ يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس»[١].

★ فوائد الأحاديث:

قال ابن كثير: «والقصد أن رسول اللَّه ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار، كالعيد والجمع؛ لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب[٢].

قال القرطبي: «وتخصيص النبي ﷺ صلاة العيدين بقراءة تينك السورتين: لما تضمنتاه من المعاني المناسبة لأحوال الخارجين إلى العيد، واجتماعهم وصدورهم، فإنها تذكر بأحوال الآخرة منزلة منزلة»[٣].

وقال القاضي عياض: «قال بعضهم: مثابرة النبي ﷺ فيهما بـ(ق) و﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ لما فيهما من ذكر النشور وشبهه بخروج الناس للعيد؛ كما قال: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾[٤] وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾[٥]، والصدر عن المصلى لرجاء الغفران والسرور بالعيد كالصدر من المحشر إلى الجنة مغفور لهم»[٦].

وقال العز بن عبد السلام: «وكان النبي ﷺ يخطب بسورة (ق) في كثير من الأوقات؛ لاشتمالها على ذكر اللَّه والثناء عليه، ثم على علمه بما توسوس به النفوس، وبما تكتبه الملائكة على الإنسان من طاعة وعصيان، ثم تذكر الموت وسكراته، ثم تذكر النشور والخروج من القبور»[٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذه السورة قد تضمنت من أصول الإيمان ما أوجبت أن النبي ﷺ كان يقرأ بها في المجامع العظام، فيقرأ بها في خطبة الجمعة وفي صلاة العيد، وكان من كثرة قراءته لها يقرأ بها في صلاة الصبح، وكل ذلك ثابت في الصحيح»[٨].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٣٥-٤٣٦)، ومسلم (٢/ ٥٩٥/ ٨٧٣)، وأبو داود (١/ ٦٦٠/ ١١٠٠)، والنسائي (٣/ ١١٩/ ١٤١٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٧١).
(٣) المفهم (٢/ ٥٣٣).
(٤) القمر: الآية (٧).
(٥) ق: الآية (٤٢).
(٦) إكمال المعلم (٣/ ٣٠٥).
(٧) فتاوى العز بن عبد السلام (ص: ٧٧-٧٨).
(٨) درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٦٥).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾

★ **غريب الآية:**

المجيد: أي: الكثير المجد، وهو السعة في الشرف والجلالة. ومَجُدَ الرجل مَجدًا: إذا عظم وكرم أصله.

عجيب: أي: لا تعرف علته ولا سببه.

رجع بعيد: أي: رجوع غير ممكن.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿قٓ﴾: حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور كقوله تعالى: ﴿صٓ﴾ و﴿نٓ﴾ و﴿الٓمٓ﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿طسٓ﴾ ونحو ذلك؛ قاله مجاهد وغيره. وقد أسلفنا الكلام عليها في أول سورة (البقرة) بما أغنى عن إعادته. وقد روي عن بعض السلف أنهم قالوا: (ق) جبل محيط بجميع الأرض يقال له جبل (قاف). وكأن هذا -والله أعلم- من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس لما رأى من جواز الرواية عنهم فيما لا يُصدَّق ولا يكذَّب. وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم يلبسون به على الناس أمر دينهم؛ كما افترى في هذه الأمة -مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها- أحاديث عن النبي ﷺ وما بالعهد من قدم، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى، وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمور، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته! وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: «**وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**»[1] فيما قد يجوزه العقل. فأما فيما تحيله العقول ويحكم فيه

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٥٩-٢٠٢-٢١٤)، والبخاري (٦/ ٦١٤/ ٣٤٦١)، والترمذي (٥/ ٣٩/ ٢٦٦٩) من حديث عبد الله بن عمرو.

بالبطلان ويغلب على الظنون كذبه؛ فليس من هذا القبيل، والله أعلم.

وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين وكذا طائفة كثيرة من الخلف من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، ولله الحمد والمنة»[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصحيح أن ﴿قٓ﴾ و﴿نٓ﴾ و﴿صٓ﴾ بمنزلة ﴿حمٓ﴾ و﴿الٓمٓ﴾ و﴿طسٓ﴾؛ تلك حروف مفردة، وهذه متعددة. وقد تقدمت الإشارة إلى بعض ما فيها قبل.

وههنا قد اتحد المقسم به والمقسم عليه، وهو القرآن، فأقسم بالقرآن على ثبوته وصدقه، وأنه حق من عنده. ولذلك حذف الجواب، ولم يصرح به؛ لما في القسم من الدلالة عليه، أو لأن المقصود نفس المقسم به»[٢].

قال ابن كثير: «واختلفوا في جواب القسم ما هو؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة أنه قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤﴾[٣]، وفي هذا نظر؛ بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد وتقريره وتحقيقه وإن لم يكن القسم مُتَلقًى لفظًا، وهذا كثير في أقسام القرآن كما تقدم في قوله: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾[٤]، وهكذا قال ههنا: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾، أي: تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر، كقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾[٥]، أي: وليس هذا بعجيب؛ فإن الله يصطفي من الملائكة رسلًا ومن الناس»[٦].

قال السعدي: «يقسم تعالى بالقرآن المجيد أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الوجوه كثير البركات، جزيل المبرات. والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وأحق كلام يوصف بهذا، هذا القرآن، الذي قد احتوى على علوم الأولين والآخرين،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٧٢).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٢٥٣).

(٣) ق: الآية (٤).

(٤) ص: الآيتان (١-٢).

(٥) يونس: الآية (٢).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٧٣).

الذي حوى من الفصاحة أكملها، ومن الألفاظ أجزلها، ومن المعاني أعمها وأحسنها، وهذا موجب لكمال اتباعه، وسرعة الانقياد له، وشكر اللَّه على المنة به.

ولكن أكثر الناس، لا يقدر نعم اللَّه قدرها، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ﴾أي: المكذبون للرسول ﷺ، ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾أي: ينذرهم ما يضرهم، ويأمرهم بما ينفعهم، وهو من جنسهم، يمكنهم التلقي عنه، ومعرفة أحواله وصدقه.

فتعجبوا من أمر، لا ينبغي لهم التعجب منه؛ بل يتعجب من عقل من تعجب منه. ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾الذين حملهم كفرهم وتكذيبهم، لا نقص بذكائهم وآرائهم. ﴿هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾أي: مستغرب، وهم في هذا الاستغراب بين أمرين: إما صادقون في استغرابهم وتعجبهم، فهذا يدل على غاية جهلهم، وضعف عقولهم، بمنزلة المجنون الذي يستغرب كلام العاقل، وبمنزلة الجبان الذي يتعجب من لقاء الفارس للفرسان، وبمنزلة البخيل، الذي يستغرب سخاء أهل السخاء، فأي ضرر يلحق من تعجب من هذه حاله؟ وهل تعجبه إلا دليل على زيادة ظلمه وجهله؟

وإما أن يكونوا متعجبين، على وجه يعلمون خطأهم فيه، فهذا من أعظم الظلم وأشنعه.

ثم ذكر وجه تعجبهم فقال: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾ فقاسوا قدرة من هو على كل شيء قدير، الكامل من كل وجه، بقدرة العبد الفقير العاجز من جميع الوجوه، وقاسوا الجاهل الذي لا علم له، بمن هو بكل شيء عليم»[(١)].

قال ابن عاشور: «عبر عن الرسول ﷺ بوصف ﴿مُّنذِرٌ﴾ وهو المخبر بشرّ سيكون للإيماء إلى أن عَجَبهم كان ناشئًا عن صفتين في الرسول ﷺ إحداهما: أنه مخبر بعذاب يكون بعد الموت، أي مخبر بما لا يصدقون بوقوعه، وإنما أنذرهم الرسول ﷺ بعذاب الآخرة بعد البعث كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[(٢)]. والثانية كونه من نوع البشر.

وفُرِّعَ على التكذيب الحاصل في نفوسهم ذِكر مقالتهم التي تفصح عنه وعن شبهتهم الباطلة بقوله: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ الآية. وخص هذا بالعناية

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٤٥-١٤٦).

(٢) سبأ: الآية (٤٦).

بالذكر لأنه أدخل عندهم في الاستبعاد وأحق بالإنكار فهو الذي غرهم فأحالوا أن يرسل اللَّه إليهم أحدًا من نوعهم ولذلك وصف الرسول ﷺ ابتداء بصفة ﴿مُّنذِرٌ﴾ قبل وصفه بأنه ﴿مِّنْهُمْ﴾ ليدل على أن ما أنذرهم به هو الباعث الأصلي لتكذيبهم إياه وأن كونه منهم إنما قوّى الاستبعاد والتعجّب»[١].

قال ابن القيم: «ثم أخذ سبحانه في بيان عجب الكفار من غير عجيب، بل بما لا ينبغي أن يقع سواء، كما قال سبحانه: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[٢]، فأيّ عجب من هذا حتى يقول الكافرون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾[٣]؟! وكيف يتعجب من رحمة الخالق عباده، وهدايته، وإنعامه عليهم بتعريفهم على لسان رسوله ﷺ بطريق الخير والشر، وما هم صائرون إليه بعد الموت، وأمرهم ونهيهم؛ حتى يقابل ذلك بالتعجب، ونسبة ما جاء به إلى السحر، لولا غاية الجهل والظلم. وإن العجب كل العجب قولهم وتكذيبهم كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾[٤]»[٥].

قال ابن كثير: «ثم قال مخبرًا عنهم في تعجبهم أيضًا من المعاد، واستبعادهم لوقوعه: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًاۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾ أي: يقولون: أئذا متنا وبَلِينا، وتقطعت الأوصال منّا، وصرنا ترابًا؛ كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾، أي: بعيد الوقوع. ومعنى هذا أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه»[٦].

قال الشنقيطي: «قد قدمنا في سورة (ص) أن من المقسم عليه أن النبي ﷺ صادق، وأن رسالته حق، كما دل عليه قوله في (ص): ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾[٧]، وقد دل على ذلك قوله هنا: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾، وقد قدمنا في (ص) أنه يدخل في المقسم عليه تكذيب الكفار في إنكارهم البعث، ويدل عليه قوله هنا: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ الآية، والحاصل

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٧٩).
(٢) يونس الآيتان (١و٢).
(٣) يونس: الآية (٧٦).
(٤) الرعد: الآية (٥).
(٥) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٢٥٣).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٧٣).
(٧) ص: الآية (٤).

أن المقسم عليه في (ص) بقوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾[١]، وفي (ق) بقوله: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ محذوف، وهو تكذيب الكفار في إنكارهم رسالة النبي ﷺ وإنكارهم البعث، وإنكارهم كون المعبود واحدًا، وقد بيّنّا الآيات الدالة على ذلك في سورة (ص)، وذكرنا هناك أن كون المقسم عليه في سورة (ق) هذه المحذوف يدخل فيه إنكارهم لرسالة النبي ﷺ بدليل قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ وتكذيبهم في إنكارهم للبعث بدليل قوله: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾، وبيّنّا وجه إيضاح ذلك بالآيات المذكورة هناك وغيرها، فأغنى ذلك عن إعادته هنا»[٢].

* * *

(١) ص: الآية (١).

(٢) أضواء البيان (٧/ ٦٤٣).

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ۝٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: قد علمنا ما تأكل الأرض من أجسامهم بعد مماتهم، ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ﴾ بما تأكل الأرض وتفني من أجسامهم، ولهم كتاب مكتوب مع علمنا بذلك، حافظ لذلك كله، وسمّاه اللَّه تعالى حفيظًا؛ لأنه لا يدرس ما كتب فيه، ولا يتغير ولا يتبدل»(١).

وقال ابن كثير: «قال اللَّه تعالى رادًّا عليهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تأكل من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك، ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان، وأين ذهبت، وإلى أين صارت، ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾، أي: حافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب أيضًا فيه كل الأشياء مضبوطة»(٢).

قال السعدي: «وهذا الاستدلال، بكمال سعة علمه، الذي لا يحيط بها إلا هو، على قدرته على إحياء الموتى»(٣).

قال ابن عاشور: «ردٌّ لقولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾(٤) فإن إحالتهم البعث ناشئة عن عدة شبه منها: أن تفرق أجزاء الأجساد في مناحِي الأرض ومهابّ الرياح لا تُبقي أملا في إمكان جمعها إذ لا يحيط بها محيط، وأنها لو علمت مواقعها لتعذر التقاطها وجمعها، ولو جمعت كيف تعود إلى صورها التي كانت مشكَّلة بها، وأنها لو عادت كيف تعود إليها، فاقتصر في إقلاع شبههم على إقلاع أصلها وهو عدم العلم بمواقع تلك الأجزاء وذرّاتها.

وفُصِلت الجملة بدون عطف لأنها ابتداء كلام لرد كلامهم، وهذا هو الأليق بنظم الكلام. وقيل هي جواب القسم كما علمته آنفا وأيًّا مَّا كان فهو رد لقولهم ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾.

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٤٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٧٣).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٤٦).
(٤) ق: الآية (٣).

والمعنى: أن جمع أجزاء الأجسام ممكن لا يعزب عن علم اللَّه، وإذا كان عالمًا بتلك الأجزاء كما هو مقتضى عموم العلم الإلهي وكان قد أراد إحياء أصحابها كما أخبر به، فلا يعظم على قدرته جمعها وتركيبها أجسامًا كأجسام أصحابها حين فارقوا الحياة، فقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ إيماء إلى دليل الإمكان، لأن مرجعه إلى عموم العلم كما قلنا. فأساس مبنى الرد هو عموم علم اللَّه تعالى، لأن يجمع إبطال الاحتمالات التي تنشأ عن شبهتهم فلو قال: نحن قادرون على إرجاع ما تنقص الأرض منهم لخطر في وساوس نفوسهم شبهة أن اللَّه وإن سلمنا أنه قادر فإن أجزاء الأجساد إذا تفرقت لا يعلمها اللَّه حتى تتسلط على جمعها قدرتُه فكان البناء على عموم العلم أقطع لاحتمالاتهم»[1].

قال ابن القيم: «وتأمل كيف دلت السورة صريحًا على أن اللَّه سبحانه يعيد هذا الجسد بعينه الذي أطاع وعصى، فينعمه ويعذبه كما ينعم الروح التي آمنت بعينها ويعذب التي كفرت بعينها، لا أنه سبحانه يخلق روحًا أخرى غير هذه فينعمها ويعذبها كما قاله من لم يعرف المعاد الذي أخبرت به الرسل، حيث زعم أن اللَّه سبحانه يخلق بدنًا غير هذا البدن من كل وجه، عليه يقع النعيم والعذاب، والروح عنده عرض من أعراض البدن، فيخلق روحًا غير هذه الروح، وبدنًا غير هذا البدن، وهذا غير ما اتفقت عليه الرسل ودل عليه القرآن والسنة وسائر كتب اللَّه تعالى، وهذا في الحقيقة إنكار للمعاد، وموافقة لقول من أنكره من المكذبين؛ فإنهم لم ينكروا قدرة اللَّه على خلق أجسام أخر غير هذه الأجسام يعذبها وينعمها، كيف وهم يشهدون النوع الإنساني يخلق شيئًا بعد شيء، فكل وقت يخلق اللَّه سبحانه أجسامًا وأرواحًا غير الأجسام التي فنيت، فكيف يتعجبون من شيء يشاهدونه عيانًا، وإنما تعجبوا من عودهم بأعيانهم بعد أن مزقهم البلى وصاروا عظامًا ورفاتًا، فتعجبوا أن يكونوا هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء، ولهذا قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾[2] وقالوا: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾[3]، ولو كان الجزاء إنما هو لأجسام غير هذه لم يكن ذلك بعثًا ولا رجعًا، بل يكون ابتداءً، ولم يكن

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٨٠-٢٨١).
(٢) المؤمنون: الآية (٨٢).
(٣) ق: الآية (٣).

لقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ كبير معنى؛ فإنه سبحانه جعل هذا جوابًا لسؤال مقدر، وهو أنه يميز تلك الأجزاء التي اختلطت بالأرض واستحالت إلى العناصر بحيث لا تتميز، فأخبر سبحانه أنه قد علم ما تنقصه الأرض من لحومهم وعظامهم وأشعارهم، وأنه كما هو عالم بتلك الأجزاء فهو قادر على تحصيلها وجمعها بعد تفرقها وتأليفها خلقًا جديدًا.

وهو سبحانه يقرر المعاد بذكر كمال علمه وكمال قدرته وكمال حكمته، فإن شبه المنكرين له كلها تعود إلى ثلاثة أنواع: أحدها: اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميز ولا يحصل معه تميز شخص عن شخص، الثاني: أن القدرة لا تتعلق بذلك، الثالث: أن ذلك أمر لا فائدة فيه أو إنما الحكمة اقتضت دوام هذا النوع الإنساني شيئًا بعد شيء هكذا أبدًا، كلما مات جيل خلفه جيل آخر، فأما أن يميت النوع الإنساني كله ثم يحييه بعد ذلك فلا حكمة في ذلك. فجاءت براهين المعاد في القرآن مبنية على ثلاثة أصول: أحدها: تقرير كمال علم الرب سبحانه، كما قال في جواب من قال: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾[1] ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[2] وقال: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾[3] وقال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، والثاني: تقرير كمال قدرته، كقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾[4] وقوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾[5] وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾[6]، ويجمع سبحانه بين الأمرين كما في قوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾، الثالث: كمال حكمته، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾[7]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾[8]،

---

(١) يس: الآية (٧٨).
(٢) يس: الآية (٧٩).
(٣) الحجر: الآيتان (٨٥و٨٦).
(٤) يس: الآية (٨١).
(٥) القيامة: الآية (٤).
(٦) الحج: الآية (٦).
(٧) الدخان: الآية (٣٨).
(٨) ص: الآية (٢٧).

وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾[(١)]، وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾[(٣)]. ولهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه، وأنه منزه عما يقوله منكروه، كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنقائص»[(٤)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وجوب الإيمان بالبعث

* عن أبي صالح قال: سمعت أبا هريرة عن النبي ﷺ قال: «**ما بين النفختين أربعون.** قالوا: يا أبا هريرة! أربعون يومًا؟ قال: أبيت، قال: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قال: أربعون شهرًا؟ قال: أبيت، **ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه، فيه يركب الخلق**»[(٥)].

★ غريب الحديث:

أبيت: أي امتنعت عن القول بتعيين ذلك؛ لأنه ليس عندي في ذلك توقيف.

عَجْبُ ذَنَبِه: هو العظم في الأسفل بين الأليتين، الهابط من الصلب، يقال لطرفه: العُصْعُص. ويقال بالباء والميم.

فيه يركب الخلق: أي أول ما خلق من الإنسان هو، ثم إن اللّٰه تعالى يبقيه إلى أن يركب الخلق منه تارة أخرى.

★ فوائد الحديث:

قال ابن عبد البر: «ظاهر هذا الحديث وعمومه يوجب أن يكون بنو آدم كلهم في ذلك سواء، إلا أنه قد روي في أجساد الأنبياء والشهداء أن الأرض لا تأكلهم[(٦)]،

---

(١) القيامة: الآية (٣٦).
(٢) المؤمنون الآيتان (١١٥و١١٦).
(٣) الجاثية: الآية (٢١).
(٤) الفوائد (ص: ١٣-١٦).
(٥) أخرجه: البخاري (٨/ ٧٠٨/ ٤٨١٤)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٠-٢٢٧١/ ٢٩٥٥[١٤٢]).
(٦) يشير إلى حديث أوس بن أوس الثقفي الذي أخرجه: أحمد (٤/ ٨)، وأبو داود (١/ ٦٣٥/ ١٠٤٧)، والنسائي (٣/ ١٠١-١٠٢/ ١٣٧٣)، وابن ماجه (١/ ٣٤٥/ ١٠٨٥)، وابن خزيمة (٣/ ١١٨/ ١٧٣٣)،=

وحسبك ما جاء في شهداء أحد وغيرهم، وقد ذكرنا ذلك فيما مضى من كتابنا، وهذا يدل على أن هذا لفظ عموم ويدخله الخصوص من الوجوه التي ذكرنا، فكأنه قال: كل من تأكله الأرض فإنه لا تأكل منه عجب الذنب، وإذا جاز أن لا تأكل الأرض عجب الذنب جاز أن لا تأكل الشهداء، وذلك كله حكم اللّه وحكمته، وليس في حكمه إلا ما شاء، لا شريك له، وإنما نعرف من هذا ما عرفنا به ونسلم له إذ جهلنا علته؛ لأنه ليس برأي، ولكنه قول من يجب التسليم له ﷺ»[١].

قال الحافظ: «وقوله في الحديث: «ويبلى كل شيء من الإنسان» يحتمل أن يريد به: يفنى، أي: تعدم أجزاؤه بالكلية، ويحتمل أن يراد به: يستحيل فتزول صورته المعهودة فيصير على صفة جسم التراب، ثم يعاد إذا ركبت إلى ما عهد»[٢].

قال ابن عبد البر: «وفي قوله ﷺ: «وفيه يركب» إيمان بالبعث والنشأة الأخرى»[٣].

قال الحافظ: «قال ابن الجوزي: قال ابن عقيل: لله في هذا سر لا يعلمه إلا اللّه، لأن من يظهر الوجود من العدم لا يحتاج إلى شيء يبنى عليه»[٤].

قلت: وقد تقدم هذا المعنى عند قوله تعالى من سورة (الزمر): ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ الآية (٦٨).

* * *

= وابن حبان (٣/ ١٩٠-١٩١/ ٩١٠)، والحاكم (١/ ٢٧٨) وقال: «على شرط البخاري» ووافقه الذهبي.
وفيه: «إن اللّه ﷻ حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» أما ذكر الشهداء فلم أجده.

(١) فتح البر (٢/ ٤٣٣).
(٢) فتح الباري (٨/ ٧١٠).
(٣) فتح البر (٢/ ٤٣٤).
(٤) الفتح (٨/ ٧١٠).

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾

★ **غريب الآية:**

مريج: مختلط، ملتبس. وأصله من المَرَج، وهو إرسال الشيء مع غيره. قال الشاعر:

فَجَالَتْ فَالْتَمَسَتْ بِهِ حَشَاهَا ··· فخر كأنه غصن مريج

أي: التبس بكثرة شعبه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ما أصاب هؤلاء المشركون القائلون: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ في قيلهم هذا، ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾، وهو القرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ من اللَّه..

وقوله: ﴿مَّرِيجٍ﴾ اختلفت عبارات أهل التأويل في تأويلها، وإن كانت متقاربات المعاني، فقال بعضهم: معناها: فهم في أمر منكر، وقال: المريج: هو الشيء المنكر..

وقال آخرون: بل معنى ذلك: في أمر مختلف..

وقال آخرون: بل معناه: في أمر ضلالة..

وقال آخرون: بل معناه: في أمر ملتبس..

وقال آخرون: بل هو المختلط..

وإنما قلت: هذه العبارات وإن اختلفت ألفاظها، فهي في المعنى متقاربات؛ لأن الشيء مختلف ملتبس، معناه مشكل، وإذا كان كذلك كان منكرًا؛ لأن المعروف واضح بيّن، وإذا كان غير معروف كان لا شكّ ضلالة؛ لأن الهدى بيّن، لا لبس فيه»[1].

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٤٩-١٥١).

قال ابن كثير: «ثم بين تعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد، فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ۝٥﴾، أي: وهذا حال كل من خرج عن الحق، مهما قال بعد ذلك فهو باطل. والمريج: المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلاله، كقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾[1]»[2].

قال السعدي: «أي: ﴿بَلْ﴾ كلامهم الذي صدر منهم، إنما هو عناد وتكذيب، فقد ﴿كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ الذي هو أعلى أنواع الصدق، ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ أي: مختلط مشتبه، لا يثبتون على شيء، ولا يستقر لهم قرار، فتارة يقولون عنك: إنك ساحر، وتارة مجنون، وتارة شاعر، وكذلك جعلوا القرآن عضين، كل قال فيه ما اقتضاه رأيه الفاسد، وهكذا كل من كذب بالحق، فإنه في أمر مختلط، لا يدرى له وجه ولا قرار، فترى أموره متناقضة مؤتفكة، كما أن من اتبع الحق وصدق به قد استقام أمره، واعتدل سبيله، وصدق فعله قيله»[3].

قال ابن عاشور: «المريج: المضطرب المختلط، أي: لا قرار في أنفسهم في هذا التكذيب، اضطربت فيه أحوالهم كلها من أقوالهم في وصف القرآن فإنهم ابتدروا فنفوا عنه الصدق فلم يتبينوا بأي أنواع الكلام الباطل يلحقونه فقالوا: ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[4]، وقالوا ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[5] وقالوا (قول شاعر)، وقالوا: (قول كاهن)، وقالوا: (هذيان مجنون). وفي سلوكهم في طرق مقاومة دعوة النبي ﷺ وما يصفونه به إذا سألهم الواردون من قبائل العرب. ومن بهتهم في إعجاز القرآن ودلالة غيره من المعجزات وما دمغهم به من الحجج على إبطال الإشراك وإثبات الوحدانية لله. وهذا تحميق لهم بأنهم طاشت عقولهم فلم يتقنوا التكذيب ولم يرسوا على وصف الكلام الذي كذبوا به»[6].

* * *

(١) الذاريات الآيتان (٨و٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٧٣).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٤٦).
(٤) المائدة: الآية (١١٠).
(٥) الأنعام: الآية (٢٥).
(٦) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٨٥).

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾

★ **غريب الآية:**

فروج: صدوع وشقوق، جمع فَرْج، وهو الشق.

مددناها: بسطناها لتكون مستقرة.

رواسي: جبال ثوابت، من الرسو: وهو الثبوت. قال الأفوه الأودي:

والبيتُ لا ينبني إلا على عمد ... ولا عمادَ إذا لم تَرْسُ أَوْتَادُ

بهيج: حسن.

حب الحصيد: أي: حب الزرع الذي يُحْصَد. والحصيد بمعنى المحصود.

باسقات: طوال. وبَسَقَ النخلُ: طَالَ.

لها طَلْع: أي: أول ما يظهر من الثمر.

نضيد: بمعنى منضود، أي: متراكب بَعْضُهُ على بعض. يقال: نَضَدْتُ المتاعَ: إذا أَلْقَيْت بَعْضَهُ فوق بعض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «الهمزة في قوله: ﴿أَفَلَمْ﴾ تتعلق بمحذوف، و(الفاء) عاطفة عليه، كما قدمنا مرارًا أنه أظهر الوجهين، وأنه أشار إليه في «الخلاصة» بقوله:

وحذف متبوع بدا هنا استبح

والتقدير: أأعرضوا عن آيات اللَّه، فلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها

وزيناها وما لها من فروج؛ أي: ليس فيها من شقوق ولا تصدع ولا تفطر، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تعظيم شأن كيفية بنائه تعالى للسماء، وتزيينه لها، وكونها لا تصدع ولا شقوق فيها؛ جاء كله موضحًا في آيات أخر، كقوله -جل وعلا- في بنائه للسماء: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾[5]، وقوله تعالى في أول (الرعد): ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ﴾[6]، وقوله تعالى في (لقمان): ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ﴾[7] الآية.. إلى غير ذلك من الآيات. وكقوله تعالى في تزيينه للسماء: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ﴾[9] الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾[10]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾[11]. وكقوله تعالى في حفظه للسماء من أن يكون فيها فروج -أي: شقوق-: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[12]، والفطور والفروج بمعنى واحد، وهو الشقوق والصدوع. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾[13]، أما إذا كان يوم القيامة فإن السماء تتشقق وتتفطر، وتكون فيها الفروج؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾[14]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾[15] الآية، وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾[16] الآية، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾﴾[17]، وقال تعالى: ﴿إِذَا

---

(١) النازعات الآيتان (٢٧و٢٨).
(٢) الذاريات: الآية (٤٧).
(٣) النبأ: الآية (١٢).
(٤) الملك: الآية (٣).
(٥) المؤمنون: الآية (١٧).
(٦) الرعد: الآية (٢).
(٧) لقمان: الآية (١٠).
(٨) الملك: الآية (٥).
(٩) فصلت: الآية (١٢).
(١٠) الصافات: الآية (٦).
(١١) الحجر: الآية (١٦).
(١٢) الملك: الآية (٣).
(١٣) الأنبياء: الآية (٣٢).
(١٤) الفرقان: الآية (٢٥).
(١٥) الرحمن: الآية (٣٧).
(١٦) الحاقة الآيتان (١٥و١٦).
(١٧) الانشقاق الآيتان (١و٢).

ﭐلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾﴾[(٣)]»[(٤)].

قال ابن جرير: «قوله: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ يقول تعالى ذكره: أفلم ينظر هؤلاء المكذّبون بالبعث بعد الموت، المنكرون قدرتنا على إحيائهم بعد بلائهم، ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ فسوّيناها سقفًا محفوظًا، وزيّنّاها بالنجوم، ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ يعني: وما لها من صدوع وفُتوق»[(٥)].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى منبهًا للعباد على قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾، أي: بالمصابيح، ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾، قال مجاهد: يعني: من شقوق، وقال غيره: فتوق، وقال غيره: من صدوع، والمعنى متقارب، كقوله -تبارك وتعالى-: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾﴾[(٦)]، أي: كليل، أي: عن أن يرى عيبًا أو نقصًا»[(٧)].

وقال الرازي: «قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴿٦﴾﴾ إشارة إلى الدليل الذي يدفع قولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ﴾[(٨)]، وقوله تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾[(٩)]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓ﴾»[(١٠)].

وقال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه مد الأرض، وألقى فيها الجبال الرواسي، وأنبت فيها من كل زوج بهيج؛ تبصرةً وذكرى لكل عبد

---

(١) الانفطار: الآية (١).
(٢) المزمل الآيتان (١٧و١٨).
(٣) المرسلات الآيتان (٨و٩).
(٤) أضواء البيان (٧/ ٦٤٤-٦٤٥).
(٥) جامع البيان (٢٦/ ١٥١).
(٦) الملك الآيتان (٣و٤).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٧٤).
(٨) يس: الآية (٨١).
(٩) غافر: الآية (٥٧).
(١٠) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٥٥-١٥٦).

منيب، وهذا الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحًا في آيات كثيرة من كتاب اللَّه، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ﴾، إلى قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، وكقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾[2]، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾، أي: من كل صنف حسن من أصناف النبات. وقوله: ﴿تَبْصِرَةً﴾، أي: قدرنا الأرض، وألقينا فيها الرواسي، وأنبتنا فيها أصناف النبات الحسنة؛ لأجل أن نبصر عبادنا كمال قدرتنا على البعث وعلى كل شيء، وعلى استحقاقنا للعبادة دون غيرنا»[3].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ يقول: والأرض بسطناها، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ يقول: وجعلنا فيها جبالًا ثوابت، رست في الأرض، ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ يقول تعالى ذكره: وأنبتنا في الأرض من كلّ نوع من نبات حسن، وهو البهيج»[4].

وقال أيضًا: «وقوله: ﴿تَبْصِرَةً﴾: يقول: فعلنا ذلك تبصرة لكم أيها الناس نبصّركم بها قدرة ربكم على ما يشاء، ﴿وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ يقول: وتذكيرًا من اللَّه عظمته وسلطانه، وتنبيهًا على وحدانيته ﴿وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ يقول: لكل عبد رجع إلى الإيمان باللَّه، والعمل بطاعته»[5].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾، أي: وسعناها وفرشناها، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾، وهي الجبال؛ لئلا تميد بأهلها وتضطرب، فإنها مُقرة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها، ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾، أي: من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع، ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[6]، وقوله: ﴿بَهِيجٍ﴾، أي: حسن نَضِر، ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾، أي: ومشاهدة خلق السموات والأرض وما جُعل فيهما من الآيات العظيمة تبصرة

---

(١) الرعد: الآية (٣).
(٢) لقمان الآيتان (١٠و١١).
(٣) أضواء البيان (٧/ ٦٤٥).
(٤) جامع البيان (٢٦/ ١٥١).
(٥) المصدر السابق (٢٦/ ١٥٢).
(٦) الذاريات: الآية (٤٩).

ودلالة وذكرى ﴿لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾، أي: خاضع خائف وَجِل رَجّاع إلى اللَّه ﷻ»[١].

قال ابن عاشور: «حذف متعلق ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ﴾ ليَعُم كلَّ ما يصلح أن يتبصر في شأنه بدلائل خلق الأرض وما عليها، وأهم ذلك فيهم هو التوحيد والبعث كما هو السياق تصريحًا وتلويحًا.

وإنما كانت التبصرة والذكرى علة للأفعال المذكورة لأن التبصرة والذكرى من جملة الحِكم التي أوجد اللَّه تلك المخلوقات لأجلها. وليس ذلك بمقتض انحصار حكمة خلقها في التبصرة والذكرى، لأن أفعال اللَّه تعالى لها حِكَم كثيرة عَلِمنا. بعضها وخفي علينا بعض.

وخُص العبد المنيب بالتبصرة والذكرى وإن كان فيما ذكر من أحوال الأرض إفادة التبصرة والذكرى لكل أحد لأن العبد المنيب هو الذي ينتفع بذلك فكأنه هو المقصود من حكمة تلك الأفعال. وهذا تشريف للمؤمنين وتعريض بإهمال الكافرين التبصر والتذكر. ويحمل (كل) على حقيقة معناه من الإحاطة والشمول. فالمعنى: أن تلك الأفعال قصد منها التبصرة والذكرى لجميع العباد المتبعين للحق إذ لا يخلون من تبصرّ وتذكر بتلك الأفعال على تفاوت بينهم في ذلك»[٢].

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾، أي: نافعًا، ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ﴾، أي: حدائق من بساتين ونحوها، ﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾، وهو الزرع الذي يُراد لحبّه وادّخاره»[٣].

وقال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ مطرًا ﴿مُّبَارَكًا﴾، فأنبتنا به بساتين أشجارًا، وحبّ الزرع المحصود من البُرّ والشعير، وسائر أنواع الحبوب..

وكان بعض أهل العربية يقول في قوله: ﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾: الحبّ هو الحصيد، وهو مما أضيف إلى نفسه؛ مثل قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾[٤].

وقوله: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ يقول: وأنبتنا بالماء الذي أنزلنا من السماء النخل

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٧٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٩٠-٢٩١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٧٤).

(٤) الواقعة: الآية (٩٥).

طوالًا، والباسق: هو الطويل؛ يقال للجبل الطويل: جبل باسق..

وقوله: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ يقول: لهذا النخل الباسقات طلع، وهو الكُفُرّى، ﴿نَّضِيدٌ﴾ يقول: منضود بعضه على بعض متراكب..

وقوله: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ يقول: أنبتنا بهذا الماء الذي أنزلناه من السماء هذه الجنات، والحبّ والنخل قوتًا للعباد، بعضها غذاءً، وبعضها فاكهة ومتاعًا.

وقوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ يقول تعالى ذكره: وأحيينا بهذا الماء الذي أنزلناه من السماء بلدة ميتًا قد أجدبت وقحطت، فلا زرع فيها ولا نبت.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ يقول تعالى ذكره: كما أنبتنا بهذا الماء هذه الأرض الميتة، فأحييناها به، فأخرجنا نباتها وزرعها، كذلك نخرجكم يوم القيامة أحياءً من قبوركم من بعد بلائكم فيها بما ينزل عليها من الماء»[١].

قال ابن كثير: «﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾، أي: طوالًا شاهقات. وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي وغيرهم: الباسقات: الطوال. ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾، أي: منضود، ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾، أي: للخلق، ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾، وهي الأرض التي كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت، وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطَّرْف في حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها، فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيي اللَّه الموتى. وهذا المشاهَد من عظيم قدرته بالحس أعظمُ مما أنكره الجاحدون للبعث، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾[٣]، وقال ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[٤]»[٥].

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٥٢-١٥٤).

(٢) غافر: الآية (٥٧). (٣) الأحقاف: الآية (٣٣).

(٤) فصلت: الآية (٣٩).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٧٤-٣٧٥).

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾، معناه: أن اللَّه -تبارك وتعالى- يبين أن إحياء الأرض بعد موتها بإنبات النبات فيها بعد انعدامه واضمحلاله دليل على بعث الناس بعد الموت بعد كونهم ترابًا وعظامًا. فقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾، يعني أن خروج الناس أحياءً من قبورهم بعد الموت كخروج النبات من الأرض بعد عدمه، بجامع استواء الجميع في أنه جاء بعد عدم، وهذا أحد براهين البعث التي يكثر الاستدلال عليه بها في القرآن، وقد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في صدر سورة (البقرة) وأول (النحل) وأول (الجاثية)، وغير ذلك من المواضع»[1].

قال السعدي: «لما ذكر تعالى حالة المكذبين، وما ذمهم به، دعاهم إلى النظر في آياته الأفقية؛ كي يعتبروا، ويستدلوا بها على ما جعلت أدلة عليه، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾، أي: لا يحتاج ذلك النظر إلى كلفة وشد رحل، بل هو في غاية السهولة، فينظرون ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ قبة مستوية الأرجاء، ثابتة البناء، مزينة بالنجوم الخنس، والجوار الكنس، التي ضربت من الأفق إلى الأفق في غاية الحسن والملاحة، لا ترى فيها عيبًا، ولا فروجًا، ولا خلالًا ولا إخلالًا.

قدجعلها اللَّه سقفًا لأهل الأرض، وأودع فيها من مصالحهم الضرورية ما أودع.

﴿وَ﴾ إلى ﴿الْأَرْضَ﴾ كيف ﴿مَدَدْنَٰهَا﴾ ووسعناها؛ حتى أمكن كل حيوان السكون فيها والاستقرار، والاستعداد لجميع مصالحه، وأرساها بالجبال؛ لتستقر من التزلزل والتموج، ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أي: من كل صنف من أصناف النبات، التي تسر ناظريها، وتعجب مبصريها، وتقر عين رامقيها؛ لأكل بني آدم، وأكل بهائمهم، ومنافعهم، وخص من تلك المنافع الجنات المشتملة على الفواكه اللذيذة، من العنب والرمان والأترج والتفاح، وغير ذلك من أصناف الفواكه، ومن النخيل الباسقات، أي: الطوال، التي يطول نفعها، وترتفع إلى السماء حتى تبلغ مبلغًا لا يبلغه كثير من الأشجار، فتخرج من الطلع النضيد، في قنوانها، ما هو رزق للعباد قوتًا وأدمًا وفاكهة، يأكلون منه ويدخرون، هم ومواشيهم، وكذلك ما يخرج اللَّه بالمطر، وما هو أثره من الأنهار، التي على وجه الأرض، وتحتها من ﴿حَبَّ

(١) أضواء البيان (٧/ ٦٤٦).

﴿ٱلۡحَصِيدِ﴾، أي: من الزرع المحصود، من بُرّ وشعير، وذرة، وأرز، ودخن وغيره.

فإن في النظر في هذه الأشياء تَبْصِرَة يتبصر بها، من عمى الجهل، ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ يتذكر بها، ما ينفع في الدين والدنيا، ويتذكر بها ما أخبر اللَّه به، وأخبرت به رسله، وليس ذلك لكل أحد، بل ﴿لِكُلِّ عَبۡدٍ مُّنِيبٍ﴾ إلى اللَّه، أي: مقبل عليه بالحب والخوف والرجاء، وإجابة داعيه، وأما المكذّب والمعرض، فما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون.

وحاصل هذا، أن ما فيها من الخلق الباهر، والشدة والقوة؛ دليل على كمال قدرة اللَّه تعالى. وما فيها من الحسن والإتقان، وبديع الصنعة، وبديع الخلقة؛ دليل على أن اللَّه أحكم الحاكمين، وأنه بكل شيء عليم. وما فيها من المنافع والمصالح للعباد؛ دليل على رحمة اللَّه التي وسعت كل شيء، وجوده الذي عم كل حي. وما فيها من عظمة الخلقة، وبديع النظام؛ دليل على أن اللَّه تعالى هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، ولم يكن له كفوًا أحد، وأنه الذي لا تنبغي العبادة والذل والحب إلا له تعالى.

وما فيها من إحياء الأرض بعد موتها؛ دليل على إحياء اللَّه الموتى؛ ليجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾»[1].

وقال ابن القيم: «ثم دعاهم إلى النظر في العالم العلوي وبنائه وارتفاعه، واستوائه وحسنه، والتئامه، ثم إلى العالم السفلي وهو الأرض، وكيف بسطها وهيأها بالبسط لما يراد منها، وثبتها بالجبال، وأودع فيها المنافع، وأنبت فيها من كل صنف حسن من أصناف النبات، على اختلاف أشكاله وألوانه، ومقاديره ومنافعه وصفاته، وأن ذلك تبصرة إذا تأملها العبد المنيب وتبصر بها تذكر ما دلت عليه مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد، فالناظر فيها يتبصر أولًا ثم يتذكر ثانيًا، وأن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى اللَّه بقلبه وجوارحه، ثم دعاهم إلى التفكر في مادة أرزاقهم وأقواتهم وملابسهم ومراكبهم وجناتهم، وهو الماء الذي أنزله من السماء، وبارك فيه حتى أنبت به جنات مختلفة الثمار والفواكه، ما بين أبيض وأسود وأحمر وأصفر وحلو وحامض وبين ذلك، مع اختلاف منابعها وتنوع

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٤٧-١٤٩).

أجناسها، وأنبت به الحبوب كلها على تنوعها واختلاف منافعها وصفاتها وأشكالها ومقاديرها، ثم أفرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة التي لا تخفى على المتأمل، وأحيا به الأرض بعد موتها، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ أي: مثل هذا الإخراج من الأرض الفواكه والثمار والأقوات والحبوب خروجكم من الأرض بعد ما غيبتم فيها»[٢].

* * *

(١) الفوائد (ص: ١٦).

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

★ غريب الآية:

الرس: البئر التي لم تُطْوَ. وأصحاب الرس: قوم قتلوا نبيهم ودَسُّوهُ في رَسٍّ لهم.

أصحاب الأيكة: الأيكة: الشجر الملتف. والمراد: الغيطة ذات الشجر الكثيف، وهم قوم شعيب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة تدل على أن من كذب الرسل يحق عليه العذاب، أي: يتحتم، ويثبت في حقه ثبوتًا لا يصح معه تخلفه عنه، وهو دليل واضح على أن ما قاله بعض أهل العلم من أن اللَّه يصح أن يخلف وعيده؛ لأنه قال: إنه لا يخلف وعده، ولم يقل: إنه لا يخلف وعيده، وأن إخلاف الوعيد حسن لا قبيح، وإنما القبيح هو إخلاف الوعد، وأن الشاعر قال:

وإني وإن أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

لا يصح بحال؛ لأن وعيده تعالى للكفار حق، ووجب عليهم بتكذيبهم للرسل؛ كما دل عليه قوله هنا: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾. وقد تقرر في الأصول أن (الفاء) من حروف العلة، كقوله: سها فسجد، أي: لعلة سهوه، وسرق فقطعت يده، أي: لعلة سرقته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾[1]، فتكذيبهم الرسل علة صحيحة لكون الوعيد بالعذاب حق ووجب عليهم، فدعوى جواز تخلفه باطلة بلا شك، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحًا في آيات أخر، كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ

---

(١) المائدة: الآية (٣٨).

ﵟٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّﵞ(١) الآية، والتحقيق: أن المراد بالقول الذي لا يبدل لديه هو الوعيد الذي قدم به إليهم.

وقوله تعالى في سورة ﷺ: ﵟإِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ﵞ(٢). وبهذا تعلم أن الوعيد الذي لا يمتنع إخلافه هو وعيد عصاة المسلمين بتعذيبهم على كبائر الذنوب؛ لأن اللَّه تعالى أوضح ذلك في قوله: ﵟإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚﵞ(٣)، وهذا في الحقيقة تجاوز من اللَّه عن ذنوب عباده المؤمنين العاصين، ولا إشكال في ذلك، وقد أوضحنا هذا في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» في سورة (الأنعام) في الكلام على قوله تعالى: ﵟقَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗﵞ(٤)»(٥).

قال السعدي: «لما ذكرهم بهذه الآيات السماوية والأرضية، خوفهم أخذات الأمم، وألا يستمروا على ما هم عليه من التكذيب، فيصيبهم ما أصاب إخوانهم من المكذبين، فقال: ﵟكَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ﴿١٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٥﴾ﵞ، أي: كذّب الذين من قبلهم من الأمم، رُسُلَهم الكرام، وأنبياءهم العظام، كنوح كذبه قومه، وثمود كذبوا صالحًا، وعاد كذبوا هودًا، وإخوان لوط كذبوا لوطًا، وأصحاب الأيكة كذبوا شعيبًا، وقوم تبع، وتبع كل ملكٍ ملك اليمن في الزمان السابق قبل الإسلام، فقوم تبع كذبوا الرسول الذي أرسله اللَّه إليهم، ولم يخبرنا اللَّه من هو ذلك الرسول، وأيّ تبع من التبابعة؛ لأنه -واللَّه أعلم- كان مشهورًا عند العرب العرباء، الذين لا تخفى ماجرياتهم على العرب؛ خصوصًا مثل هذه الحادثة العظيمة.

فهؤلاء كلهم كذبوا الرسل الذين أرسلهم اللَّه إليهم، فحق عليهم وعيد اللَّه وعقوبته، ولستم أيها المكذبون لمحمد ﷺ خيرًا منهم، ولا رسلهم أكرم على اللَّه من رسولكم، فاحذروا جرمهم؛ لئلاّ يصيبكم ما أصابهم»(٦).

---

(١) ق الآيتان (٢٨و٢٩).
(٢) ص: الآية (١٤).
(٣) النساء: الآية (٤٨)، والآية (١١٦).
(٤) الأنعام: الآية (١٢٨).
(٥) أضواء البيان (٧/ ٦٤٦-٦٤٧).
(٦) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٤٩-١٥٠).

وقال ابن كثير: «يقول تعالى متهدِّدًا لكفار قريش بما أحله بأشباههم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم، من النقمات والعذاب الأليم في الدنيا، كقوم نوح وما عذبهم اللَّه به من الغرق العام لجميع أهل الأرض، وأصحاب الرس وقد تقدمت قصتهم في سورة (الفرقان)، ﴿وَثَمُودُ ۝ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۝﴾، وهم أمته الذين بعث إليهم من أهل سَدُوم ومعاملتها من الغور، وكيف خسف اللَّه بهم الأرض، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة؛ بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق، ﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾، وهم قوم شعيب عليه السلام، ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾، وهو اليماني. وقد ذكرنا من شأنه في سورة (الدخان) بما أغنى عن إعادته ههنا، ولله الحمد»[(١)].

وقال ابن القيم: «ثم انتقل سبحانه إلى تقرير النبوة بأحسن تقرير، وأوجز لفظ، وأبعده عن كل شبهة وشكّ، فأخبر أنه أرسل إلى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون رسلًا، فكذبوهم، فأهلكهم بأنواع الهلاك، وصدق فيهم وعيده، الذي أوعدهم به رسله إن لم يؤمنوا، وهذا تقرير لنبوتهم ولنبوة من أخبر بذلك عنهم من غير أن يتعلم ذلك من معلم، ولا قرأه في كتاب، بل أخبر به إخبارًا مفصّلًا مطابقًا لما عند أهل الكتاب، ولا يرد على هذا إلا سؤال البهت والمكابرة على جحد الضروريات بأنه لم يكن شيء من ذلك، أو أن حوادث الدهر ونكباته أصابتهم كما أصابت غيرهم، وصاحب هذا السؤال يعلم من نفسه أنه باهت مباهت جاحد لما شهد به العيان، وتناقلته القرون قرنًا بعد قرن، فإنكاره بمنزلة إنكار وجود المشهورين من الملوك والعلماء والبلاد النائية»[(٢)].

وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ يقول تعالى ذكره: كلّ هؤلاء الذين ذكرناهم كذّبوا رسل اللَّه الذين أرسلهم، ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ يقول: فوجب لهم الوعيد الذي وعدناهم على كفرهم باللَّه، وحل بهم العذاب والنقمة. وإنما وصف ربنا -جل ثناؤه- ما وصف في هذه الآية من إحلاله عقوبته بهؤلاء المكذّبين الرسل ترهيبًا منه بذلك مشركي قريش، وإعلامًا منه لهم أنهم إن لم ينيبوا من تكذيبهم رسوله محمدًا ﷺ، أنه محلّ بهم من العذاب مثل الذي أحلّ بهم»[(٣)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٧٥).

(٢) الفوائد (ص: ١٧).

(٣) جامع البيان (٢٦/ ١٥٦).

وقال ابن كثير: «﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾، أي: كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذب رسوله، ومن كذب رسولًا فكأنما كذب جميع الرسل، كقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾[(١)]، وإنما جاءهم رسول واحد، فهم في نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم، ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾، أي: فحق عليهم ما أوعدهم اللَّه، على التكذيب من العذاب والنكال. فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم؛ فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك»[(٢)].

* * *

(١) الشعراء: الآية (١٠٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٧٥).

قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٥﴾

★ **غريب الآية:**

عيينا: عجزنا. يقال: عَيِيَ بالأمر يَعْيَا: إذا عجز عنه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة من براهين البعث؛ لأن من لم يعي بخلق الناس، ولم يعجز عن إيجادهم الأول؛ لا شك في قدرته على إعادتهم وخلقهم مرة أخرى؛ لأن الإعادة لا يمكن أن تكون أصعب من البدء. والآيات الدالة على هذا كثيرة جدًا، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾[٢]، وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ من يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾[٣]، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وقد أوضحنا الآيات الدالة على براهين البعث التي يكثر الاستدلال عليه بها في القرآن، كخلق الناس أولًا، وخلق السموات والأرض وما فيهما، وإحياء الأرض بعد موتها، وغير ذلك في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك، في (البقرة) و(النحل) و(الحج) و(الجاثية) وغير ذلك، وأحلنا على ذلك مرارًا كثيرة»[٤].

قال ابن كثير: «أي: أفأعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شك من الإعادة، ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾، والمعنى: أن ابتداء الخلق لم يعجزنا، والإعادة أسهل منه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾، وقال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾[٥]»[٦].

---

(١) الروم: الآية (٢٧).
(٢) يس: الآية (٧٩).
(٣) الإسراء: الآية (٥١).
(٤) أضواء البيان (٧/ ٦٤٧).
(٥) يس الآيتان (٧٨و٧٩).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٧٥).

قال ابن جرير: «وهذا تقريع من اللَّه لمشركي قريش الذين قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣﴾[(١)] يقول لهم -جل ثناؤه-: أفعيينا بابتداع الخلق الأول الذي خلقناه، ولم يكن شيئًا فنعيا بإعادتهم خلقًا جديدًا بعد بلائهم في التراب، وبعد فنائهم؛ يقول: ليس يعيينا ذلك، بل نحن عليه قادرون. .

وقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يقول تعالى ذكره: ما يشكّ هؤلاء المشركون المكذّبون بالبعث أنا لم نعي بالخلق الأول، ولكنهم في شك من قدرتنا على أن نخلقهم خلقًا جديدًا بعد فنائهم، وبلائهم في قبورهم»[(٢)].

وقال ابن القيم: «ثم عاد سبحانه إلى تقرير المعاد بقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾. يقال لكل من عجز عن شيء: عيي به، وعيي فلان بهذا الأمر؛ قال الشاعر:

عيوا بأمرهم كما عيت ببيضتها الحمامة

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾[(٣)]، قال ابن عباس: «**يريد: أفعجزنا**»، وكذلك قال مقاتل.

قلت: هذا تفسير بلازم اللفظة، وحقيقتها أعم من ذلك؛ فإن العرب تقول: أعياني أن أعرف كذا، وعييت به: إذا لم تهتد لوجهه، ولم تقدر على معرفته وتحصيله، فتقول: أعياني دواؤك: إذا لم تهتد له ولم تقف عليه. ولازم هذا المعنى العجز عنه. والبيت الذي استشهدوا به شاهد لهذا المعنى؛ فإن الحمامة لم تعجز عن بيضتها، ولكن أعياها إذا أرادت أن تبيض أين ترمي بالبيضة، فهي تدور وتجول حتى ترمي بها، فإذا باضت أعياها أين تحفظها وتودعها حتى لا تنال، فهي تنقلها من مكان إلى مكان، وتحار أين تجعل مقرّها، كما هو حال من عي بأمره، فلم يدر من أين يقصد له، ومن أين يأتيه.

وليس المراد بالإعياء في هذه الآية التعب، كما يظنه من لم يعرف تفسير القرآن، بل هذا المعنى هو الذي نفاه سبحانه عن نفسه في آخر السورة بقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[(٤)].

---

(١) ق: الآية (٣).

(٢) جامع البيان (٢٦/ ١٥٦).

(٣) الأحقاف: الآية (٣٣).

(٤) ق: الآية (٣٨).

ثم أخبر سبحانه أنهم ﴿فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، أي: أنهم التبس عليهم إعادة الخلق خلقًا جديدًا»[١].

قال عبد الكريم الخطيب: «عادت الآيات لتكشف عن الآفة التي أفسدت على المشركين أمرهم، وباعدت بينهم وبين الإيمان بالله، والتصديق برسول الله.. وتلك الآفة هي: استبعادهم للحياة بعد الموت، ثم الحساب والجزاء.. وكان قولهم في هذا ما حكاه القرآن عنهم في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧﴾[٢]..

فقضية البعث والقيامة، هي المدخل الذي دخل منه على القوم كل كفر وضلال..

إنهم مستعدون لأن يؤمنوا بالله، وأن يفردوه وحده بالألوهية.. ولكن الأمر الذي لا يقبلونه، هو الإيمان باليوم الآخر، فذلك ما لا يتصورونه، ولا يسمعون لقول يقال لهم فيه. والإيمان كلٌّ لا يتجزأ، فمن آمن بالله وكفر بكتبه، ورسله واليوم الآخر، فهو على غير سبيل المؤمنين، والله ﷻ يقول: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝١١٥﴾[٣]..

فقوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ هو مواجهة للمشركين بما ينكرونه من أمر البعث، وما يقع في تصورهم من استبعاد له..

فهذا الاستفهام ينكر على المشركين ضلال تصورهم لقدرة الله، وسوء إدراكهم لآثار تلك القدرة.. فهذا الوجود القائم بعوالمه المختلفة في السموات والأرض - ألم يكن من صنعة الله؟ فهل عجز الله سبحانه- عن أن يبدع هذه المبدعات؟ وهل أعياه أمرها؟ فكيف يعجز سبحانه عن إعادة ما انتثر من عقدها؟ وكيف يعيا - سبحانه- عن أن يبعث الحياة فيما همد من أحيائها؟

ذلك ما لا يقبله عقل نظر في خلق الوجود كله ابتداء، ثم تطلع إلى طيه ونشره ثانيا!..

---

(١) الفوائد (ص: ١٧-١٨).

(٢) المؤمنون: الآية (٣٧).

(٣) النساء: الآية (١١٥).

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾

اللبس: الاختلاط الذي يقع من عدم وضوح الرؤية للأمر، وتبيّن وجه الحق فيه..

و اللّبس الذي لبس عقول المشركين واستولى عليها، هو فيما يتعلق بالبعث، وإعادة الحياة إليهم بعد الموت..

وهذا مما يشير إليه قوله تعالى في آية سابقة من هذه السورة، وهي قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝﴾[(1)]»[(2)].

قال السعدي: «استدل تعالى بالخلق الأول -وهو النشأة الأولى- على الخلق الآخر، وهو النشأة الآخرة.

فكما أنه الذي أوجدهم بعد العدم، كذلك يعيدهم بعد موتهم وصيرورتهم إلى الرفات والرمم»[(3)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فرية المشركين وغيرهم وإنكارهم البعث والرد عليهم

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**قال اللّه تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته. وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ اللّه ولدًا، وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفؤًا أحد**»[(4)].

★ فوائد الحديث:

قوله: «**كذبني ابن آدم وشتمني ابن آدم**» **قال الحافظ**: «المراد به بعض بني آدم، وهم من أنكر البعث من العرب، وغيرهم من عباد الأوثان، والدهرية، ومن ادعى

(١) ق: الآية (٥).

(٢) التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٤٧٦-٤٧٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٥٠).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٧)، والبخاري (٨/ ٩٥٨/ ٤٩٧٤)، والنسائي (٤/ ٤١٨/ ٢٠٧٧)، وفي الكبرى (٤/ ٣٩٥/ ٧٦٦٧).

أن لله ولدًا من العرب أيضًا، ومن اليهود والنصارى»[١].

قال الطيبي نقلا عن القاضي ناصر الدين البيضاوي: «في قوله: «وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته» إشارة إلى برهان تحقق المعاد، وإمكان الإعادة، هو أن ما يتوقف عليه تحقق البدن من أجزائه وصورته لو لم يكن وجوده ممكنا لما وجد أولا، وقد وجد، وإذا أمكن لم يمتنع لذاته وجوده ثانيا، وإلا لزم انقلاب الممكن لذاته ممتنعا لذاته، وهو محال. وتنبيه على تمثيل يرشد العامي، وهو ما يرى في المشاهدات أن من عمد إلى اختراع صنعة لم ير مثلها ولم يجد لها عددا وأصولا صعب عليه ذلك، وتعب فيها تعبا شديدا، وافتقر إلى مكابدة أفعال، ومعاونة أعوان، ومرور أزمان، ومع ذلك فكثيرا ما لا يستتب له الأمر ولا يتم له المقصود. ومن أراد إصلاح منكسر، وإعادة منهدم، وكانت العدد حاصلة، والأصول باقية، هان عليه ذلك وسهل جدا. فيا معشر الغواة! أتحيلون إعادة أبدانكم وأنتم معترفون بجواز ما هو أصعب منها؟ بل هو كالمتعذر بالنسبة إلى قدركم وقواكم، وأما بالنسبة إلى قدرة اللَّه تعالى فلا سهولة ولا صعوبة، يستوي عند تكوين بعوض طيار، وتخليق فلك دوار، كما قال عز اسمه: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾[٢].

والشتم: توصيف الشيء بما هو إزراء ونقص فيه، وإثبات الولد كذلك؛ لأنه قول بمماثلة الولد في تمام حقيقة، وهي مستلزمة للإمكان المتداعى إلى الحدوث؛ ولأن الحكمة في التوالد استبقاء النوع، فلو كان الباري تعالى متخذا ولدا لكان مستخلفا خلفا يقوم بأمره بعد عصره، تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

وأقول: ذكر اللَّه تعالى تكذيب ابن آدم وشتمه وعظمها، ولعمري إن أقل الخلق وأدناه إذا نسب ذلك إليه استنكف، وامتلأ غضبا، وكاد يستأصل قائله، فسبحانه ما أحلمه وما أرحمه ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۝٥٨﴾[٣].

ثم انظر إلى كل واحد من التكذيب والشتم وما يؤديان من التهويل والفظاعة.

---

(١) فتح الباري (٨/ ٩٦٠).

(٢) القمر: الآية (٥٠).

(٣) الكهف: الآية (٥٨).

أما الأول فإن منكر الحشر جعل اللّه تعالى كاذبا، والقرآن المجيد الذي هو مشحون بإثباته مفترى، ويجعل حكمة اللّه تعالى في خلق السماوات والأرض عبثا ولعبا، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾[1] علل اللّه ﷻ خلق السماوات والأرض والاستواء على العرش لتدبير العالم بالجزاء، من ثواب المؤمن وعقاب الكافر، ولا يكون ذلك إلا في القيامة، فيلزم منه أنه لو لم يكن الحشر لكان ذلك عبثًا ولهوًا، لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك وفيها كثرة.

وأما الثاني فإن قائله يحاول إزالة المخلوقات بأسرها، ويزاول تخريب السماوات من أصلها، قال اللّه تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾[3]»[4].

وقال ابن الجوزي: «وقد أنكرت الفلاسفة بعث الأجساد، ورد الأرواح إلى الأبدان، ووجود جنة ونار جسمانيين، وزعموا أن تلك أمثلة ضربت لعوام الناس ليفهموا الثواب والعقاب الروحانيين، وزعموا أن النفس تبقى بعد الموت بقاءً سرمديًّا أبدًا، إما في لذة لا توصف، وهي الأنفس الكاملة، أو ألم لا يوصف، وهي النفوس المتلوثة، وقد تتفاوت درجات الألم على مقادير الناس، وقد ينمحي عن بعضها الألم ويزول، فيقال لهم: نحن لا ننكر وجود النفس بعد الموت، ولذلك سمي عودها إعادة، ولا أن لها نعيمًا وشقاءً، ولكن ما المانع من حشر الأجسام؟ ولم ننكر اللذات والآلام الجسمانية في الجنة والنار وقد جاء الشرع بذلك؟ فنحن نؤمن بالجمع بين السعادتين وبين الشقاوتين الروحانية والجسمانية، وأما الحقائق في مقام الأمثال فتحكم بلا دليل. فإن قالوا: الأبدان تنحل وتؤكل

---

(١) يونس الآيتان (٣و٤).

(٢) الأنبياء: الآية (١٦).

(٣) مريم الآيتان (٩٠و٩١).

(٤) شرح الطيبي على المشكاة (٢/ ٤٦٨-٤٦٩).

وتستحيل، قلنا: القدرة لا يقف بين يديها شيء على أن الإنسان إنسان بنفسه، فلو صنع له البدن من تراب غير التراب الذي خلق منه لم يخرج عن كونه هو هو، كما أنه تتبدل أجزاؤه من الصغر إلى الكبر وبالهزال والسمن. فإن قالوا: لم يكن البدن بدنًا حتى يرقى من حالة إلى حالة إلى أن صار لحمًا وعروقًا، قلنا: قدرة اللَّه ﷻ لا تقف على المفهوم المشاهد، ثم قد أخبرنا نبينا ﷺ أن الأجسام تنبت في القبور قبل البعث»[1].

وقال أيضًا: «قد لبس على خلق كثير، فجحدوا البعث، واستهولوا الإعادة بعد البلاء، وأقام لهم شبهتين، إحداهما: أنه أراهم ضعف المادة، والثانية: اختلاط الأجزاء المتفرقة في أعماق الأرض، قالوا: وقد يأكل الحيوان الحيوان، فكيف يتهيأ إعادته؟ وقد حكى القرآن شبهتهم، فقال تعالى في الأولى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾[2]، وقال في الثانية: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾[3]، وهذا كان مذهب أكثر الجاهلية، قال قائلهم:

يخبرنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام

وقال آخر هو أبو العلاء المعري:

حياة ثم موت ثم بعث حديث خرافة يا أم عمرو

والجواب عن شبهتهم الأولى: أن ضعف المادة في الثاني -وهو التراب- يدفعه كون البداية من نطفة ومضغة وعلقة، ثم أصل الآدميين وهو آدم من تراب، على أن اللَّه ﷻ لم يخلق شيئًا مستحسنًا إلا من مادة سخيفة، فإنه أخرج هذا الآدمي من نطفة، والطاووس من البيضة المدرة، والطرفة الخضراء من الحبة العفنة. فالنظر ينبغي أن يكون إلى قوة الفاعل وقدرته، لا إلى ضعف المواد. وبالنظر إلى قدرته يحصل جواب الشبهة الثانية، ثم قد أرانا كالأنموذج في جمع التمزق: فإن سحالة الذهب المتفرقة في التراب الكثير إذا ألقي عليها قليل من زئبق اجتمع الذهب مع

(١) تلبيس إبليس (ص: ٦٢-٦٣).
(٢) المؤمنون الآيتان (٣٥و٣٦).
(٣) السجدة: الآية (١٠).

تبدده، فكيف بالقدرة الإلهية التي من تأثيرها خلق كل شيء لا من شيء، على أنا لو قدرنا أن نحيل هذا التراب ما استحالت إليه الأبدان، لم يصر بنفسه؛ لأن الآدمي بنفسه لا ببدنه، فإنه ينحل ويسمن ويهزل ويتغير من صغر إلى كبر وهو هو. ومن أعجب الأدلة على البعث: أن اللَّه ﷻ قد أظهر على يدي أنبيائه ما هو أعظم من البعث، وهو قلب العصا حية حيوانًا، وأخرج ناقة من صخرة[1]، وأظهر حقيقة البعث على يدي عيسى صلوات اللَّه وسلامه عليه»[2].

* * *

(١) لم يصح في ذلك شيء عن المعصوم ﷺ. وقد نبهنا على هذا من قبل، انظر سورة (الأعراف): الآية (٧٣) من تفسيرنا هذا.

(٢) تلبيس إبليس (ص: ٩٧-٩٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه، وعلمه محيط بجميع أموره؛ حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر»[١].

قال ابن عاشور: «هذا تفصيل لبعض الخلق الأول بذكر خلق الإنسان وهو أهم في هذا المقام للتنبيه على أنه المراد من الخلق الأول وليبنَى عليه ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ الذي هو تتميم لإحاطة صفة العلم في قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾[٢] ولينتقل منه الإنذار بإحصاء أعمال الناس عليها وهو ما استُرسل في وصفه من قوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾[٣].

وفائدة الإخبار بأن اللَّه يعلم ما توسوس به نفس كل إنسان التنبيه عل سعة علم اللَّه تعالى بأحوالهم كلها فإذا كان يعلم حديث النفس فلا عجب أن يعلم ما تنقص الأرض منهم.

والإخبار عن فعل الخلق بصيغة المضيّ ظاهر، وأما الإخبار عن علم ما توسوس به النفس بصيغة المضارع فللدلالة على أن تعلق علمه تعالى بالوسوسة متجدد غير منقض ولا محدود لإثبات عموم علم اللَّه تعالى، والكناية عن التحذير من إضمار ما لا يرضي الله»[٤].

قال ابن القيم: «ثم نبههم على ما هو من أعظم آيات قدرته، وشواهد ربوبيته، وأدلة المعاد، وهو خلق الإنسان؛ فإنه من أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد، وأيّ دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الآدمية، بأعضائها، وقواها، وصفاتها، وما فيها من اللحم، والعظم، والعروق، والأعصاب، والرباطات، والمنافذ،

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٧٦).
(٢) ق: الآية (٤).
(٣) ق: الآية (١٧).
(٤) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٩٨).

والآلات، والعلوم، والإرادات، والصناعات.. كل ذلك من نطفة ماء! فلو أنصف العبد ربه لاكتفى بفكره في نفسه، واستدل بوجوده على جميع ما أخبرت به الرسل عن اللَّه وأسمائه وصفاته. ثم أخبر سبحانه عن إحاطة علمه به؛ حتى علم وساوس نفسه»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تجاوز اللَّه لهذه الأمة عن حديث النفس

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه تجاوز لي عن أمتي ما وسوست بها صدورها ما لم تعمل أو تكلم**»[٢].

⋆ **غريب الحديث:**

تجاوز: عن الشيء: أغضى، وتجاوز عن فلان: غضى، ويقال: تجاوز عن الذنب: لم يؤاخذه.

⋆ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «في هذا الحديث من الفقه أن حديث النفس وما يوسوس به قلب الإنسان لا حكم له في شيء من أمور الدين»[٣].

قال القاري: «الخواطر إن كانت تدعو إلى الرذائل فهي وسوسة، وإن كانت إلى الفضائل فهي إلهام، والأصح أنه ليس بحجة من غير المعصوم لأنه لا ثقة بخواطره»[٤].

قوله: «**ما توسوس به صدورها**» قال القاري: «أي: ما خطر في قلوبهم من الخواطر الرديئة»[٥].

---

(١) الفوائد (ص: ١٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٩٣)، والبخاري (٥/ ٢٠٠-٢٠١/ ٢٥٢٨)، ومسلم (١/ ١١٦-١١٧/ ١٢٧)، وأبو داود (٢/ ٦٥٧-٦٥٨/ ٢٢٠٩)، والترمذي (٣/ ٤٨٩/ ١١٨٣) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٦/ ٤٦٨-٤٦٩/ ٣٤٣٣-٣٤٣٤)، وابن ماجه (١/ ٦٥٨/ ٢٠٤٠).

(٣) معالم السنن (٣/ ٢١٤).

(٤) المرقاة (١/ ٢٣٨).

(٥) المصدر السابق.

وقوله: «**إن اللَّه تجاوز لأمتي عما وسوست**» قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «هو مقيد بالتجاوز للمؤمنين دون من كان مسلمًا في الظاهر وهو منافق في الباطن، وهم كثيرون في المتظاهرين بالإسلام قديمًا وحديثًا، وهم في هذه الأزمان المتأخرة في بعض الأماكن أكثر منهم في حال ظهور الإيمان في أول الأمر، فمن أظهر الإيمان وكان صادقًا مجتنبًا ما يضاده أو يضعفه، يتجاوز له عما يمكنه التكلم به والعمل به دون ما ليس كذلك، كما دل عليه لفظ الحديث»[1].

قلت: قد كثر النزاع في مسألة المؤاخذة بأعمال القلوب وإرادتها المجردة عن العمل، فقال بالمؤاخذة جمع من أهل العلم من الفقهاء والمحدثين، ومنع ذلك آخرون، ونزعوا في ذلك بهذا الحديث وغيره مما في معناه. وقد تقدم تفصيل القول في ذلك عند قوله تعالى من سورة (البقرة): ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ﴾ الآية (٢٨٤).

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٦٨).

قوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦ ﴾

★ غريب الآية:

الوريد: عِرْق كبير في العنق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «يعني: ملائكته -تعالى- أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه. ومن تأوله على العلم فإنما فرّ لئلاّ يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى اللّه وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه؛ فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾، كما قال في المحتضر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥﴾[1]، يعني ملائكته. وكما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[2]. فالملائكة نزلت بالذكر -وهو القرآن- بإذن اللّه عَزَّوَجَلَّ. وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار اللّه لهم على ذلك»[3].

قال ابن القيم: «ثم أخبر عن قربه إليه بالعلم والإحاطة، وأن ذلك أدنى إليه من العرق الذي هو داخل بدنه، فهو أقرب إليه بالقدرة عليه، والعلم به، من ذلك العرق. وقال شيخنا: المراد بقوله: ﴿نَحْنُ﴾، أي ملائكتنا؛ كما قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨﴾[4]، أي: إذا قرأه عليك رسولنا جبريل. قال: ويدل عليه قوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾[5]، فقيّد القرب المذكور بتلقّي الملكين، ولو كان المراد به قرب الذات لم يتقيّد بوقت تلقّي الملكين، فلا حجة في الآية لحلولي ولا معطل»[6].

وقال: «وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ

---

(١) الواقعة: الآية (٨٥).
(٢) الحجر: الآية (٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٧٦).
(٤) القيامة: الآية (١٨).
(٥) ق: الآية (١٧).
(٦) الفوائد (ص: ١٨-١٩).

مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ فهذه الآية لها شأن، وقد اختلف فيها السلف والخلف على قولين: فقالت طائفة: نحن أقرب إليه بالعلم والقدرة والإحاطة، وعلى هذا فيكون المراد قربه سبحانه بنفسه، وهو نفوذ قدرته ومشيئته فيه، وإحاطة علمه به. والقول الثاني: أن المراد قرب ملائكته منه، وأضاف ذلك إلى نفسه بصيغة ضمير الجمع على عادة العظماء في إضافة أفعال عبيدها إليها بأوامرهم ومراسيمهم، فيقول الملك: نحن قتلناهم وهزمناهم. قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾[١] وجبرائيل هو الذي يقرؤه على رسول اللّه ﷺ، وقال: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ﴾[٢] فأضاف قتل المشركين يوم بدر إليه، وملائكته هم الذين باشروه؛ إذ هو بأمره، وهذا القول أصح من الأول لوجوه:

أحدها: أنه سبحانه قيد القرب في الآية بالظرف، وهو قوله: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾ كالعامل في الظرف ما في قوله: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ﴾ من معنى الفعل، ولو كان المراد قربه سبحانه بنفسه لم يتقيد ذلك بوقت تلقي الملكين، ولا كان في ذكر التقييد به فائدة، فإن علمه سبحانه وقدرته ومشيئته عامة التعلق.

الثاني: أن الآية تكون قد تضمنت علمه وكتابة ملائكته لعمل العبد، وهذا نظير قوله: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾[٣] وقريب منه قوله تعالى في أول السورة: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ﴿٤﴾﴾، ونحو قوله: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾[٤].

الثالث: إن قرب الرب تعالى إنما ورد خاصًا لا عامًا، وهو نوعان: قربه من داعيه بالإجابة ومن مطيعه بالإثابة، ولم يجئ القرب كما جاءت المعية خاصة وعامة، فليس في القرآن ولا في السنة أن اللّه قريب من كل أحد، وأنه قريب من الكافر والفاجر، وإنما جاء خاصًا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ﴾[٥]، فهذا قربه من داعيه وسائله به»[٦].

---

(١) القيامة: الآية (١٨).
(٢) الأنفال: الآية (١٧).
(٣) الزخرف: الآية (٨٠).
(٤) طه: الآية (٥٢).
(٥) البقرة: الآية (١٨٦).
(٦) مختصر الصواعق (٢/ ٤٥٧-٤٥٩). وانظر مدارج السالكين (٢/ ٢٩٠-٢٩١)، وشرح حديث النزول لشيخ الإسلام (ص: ٣٥٥ -فما بعد)، ومحاسن التأويل للقاسمي (١٥/ ١٥٨-١٦٥)، وكتابنا «المفسرون بين=

قال السعدي: «وهذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطلع على ضميره وباطنه، القريب إليه في جميع أحواله، فيستحيي منه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره، وكذلك ينبغي له أن يجعل الملائكة الكرام الكاتبين منه على بال، فيجلهم ويوقرهم، ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب عنه، مما لا يرضي رب العالمين»[1].

* * *

= التأويل والإثبات في آيات الصفات» (٤/ ١٧٧٢).

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٥١).

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: يتلقيان عن العبد أعماله كلها، واحد ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ يكتب الحسنات، ﴿وَ﴾ الآخر ﴿عَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ يكتب السيئات، وكل منهما ﴿قَعِيدٌ﴾ بذلك، متهيئ لعمله الذي أعد له، ملازم له[(١)]»[(٢)].

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿إِذْ﴾ منصوب بقوله: ﴿أَقْرَبُ﴾، أي: نحن أقرب إليه من حبل الوريد في الوقت الذي يتلقى فيه الملكان جميع ما يصدر منه، والمراد أن الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد، في وقت كتابة الحفظة أعماله لا حاجة له لكتب الأعمال؛ لأنه عالم بها، لا يخفى عليه منها شيء، وإنما أمر بكتابة الحفظة للأعمال لحكم أخرى كإقامة الحجة على العبد يوم القيامة، كما أوضحه بقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[(٣)]، ومفعول التلقي في الفعل الذي هو ﴿يَتَلَقَّى﴾، والوصف الذي هو ﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ محذوف، تقديره: إذ يتلقى المتلقيان جميع ما يصدر عن الإنسان فيكتبانه عليه»[(٤)].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذكر الله الحفظة الموكلين ببني آدم -الذين يحفظونهم ويكتبون أعمالهم- في مواضع من كتابه: قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ

---

(١) أخرج الطبراني عن أبي أمامة: أن رسول الله ﷺ قال: «إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطئ أو المسيء، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها، وإلا كتبت واحدة» الطبراني في الكبير (٨/ ٢١٧-٢١٨/ ٧٧٦٥)، قال الهيثمي (١٠/ ٢٠٨): «رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها وثقوا»، وانظر السلسلة الصحيحة (١٢٠٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٥١).

(٣) الإسراء الآيتان (١٣و١٤).

(٤) أضواء البيان (٧/ ٦٤٨).

مَرْجِعُكُمْ﴾[١]، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾[٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[٩]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾[١٠]»[١١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في كتابة الحفظة أعمال بني آدم

* عن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما من أحد من المسلمين يبتلى ببلاء في جسده إلا أمر اللَّه عز وجل الحفظة الذين يحفظونه: اكتبوا لعبدي مثل ما كان يعمل وهو صحيح ما دام محبوسًا في وثاقي**»[١٢].

---

(١) الأنعام: الآية (٦٠).
(٢) الأنعام: الآية (٦١).
(٣) الرعد الآيتان (١٠و١١).
(٤) الانفطار الآيات (٩-١٢).
(٥) الطارق الآيات (١-٤).
(٦) ق الآيات (١٦-١٨).
(٧) الإسراء الآيتان (١٣و١٤).
(٨) الجاثية الآيتان (٢٨و٢٩).
(٩) الكهف: الآية (٤٩).
(١٠) القمر الآيتان (٥٢و٥٣).
(١١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٥٠-٢٥١).
(١٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٩٤)، والدارمي (٢/ ٣١٦)، والحاكم (١/ ٣٤٨) من طريق علقمة بن مرثد عن القاسم بن مخيمرة عن عبد اللَّه بن عمرو به. قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. والحديث إنما هو على شرط مسلم؛ لأن القاسم لم يخرج له البخاري إلا=

★ **غريب الحديث:**

الوثاق: بفتح الواو وكسرها، وهو في الأصل: قيد يشد به الأسير والدابة، فاستعير لمن منعه المرض عن أداء ما كان يعمل من أعمال الخير.

* عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا مرض العبد أو سافر، كتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا**»[1].

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا ابتلى اللَّه العبد المسلم ببلاء في جسده، قال للملك: اكتب له صالح عمله الذي كان يعمل، فإن شفاه غسله وطهره، وإن قبضه غفر له ورحمه**»[2].

★ **فوائد الأحاديث:**

قال ابن القيم رحمه الله: «ما من نفس إلا عليها حافظ من الملائكة، يحفظ عملها وقولها، ويحصي ما تكتسب من خير أو شر»[3].

* * *

= تعليقًا، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣٠٣) وقال: «رواه أحمد والبزار والطبراني في «الكبير» ورجال أحمد رجال الصحيح».

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٤١٠)، والبخاري (٦/ ١٦٨/ ٢٩٩٦)، وأبو داود (٣/ ٤٧٠-٤٧١/ ٣٠٩١).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٥٨)، وأبو يعلى (٧/ ٢٣٢/ ٤٢٣٣)، وذكره الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣٠٤) وقال: «رواه أبو يعلى وأحمد ورجاله ثقات».

(٣) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٦٣).

قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

رقيب: حافظ.

عتيد: حاضر ومُعَدٌّ للزوم الأمر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «أي: ما ينطق بنطق ولا يتكلم بكلام إلا لديه، أي: إلا والحال أن عنده رقيبًا. أي: ملكًا مراقبًا لأعماله حافظاً لها شاهدًا عليها لا يفوته منها شيء. ﴿عَتِيدٌ﴾ أي: حاضر ليس بغائب يكتب عليه ما يقول من خير وشر، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الإنسان عليه حفظة من الملائكة يكتبون أعماله، جاء موضحًا في آيات كثيرة من كتاب اللَّه. كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾[3]»[4].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿مَّا يَلْفِظُ﴾، أي: ابن آدم ﴿مِن قَوْلٍ﴾، أي: ما يتكلم بكلمة ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، أي: إلا ولها من يراقبها معتدّ لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

وقد اختلف العلماء: هل يكتب الملك كل شيء من الكلام، وهو قول الحسن وقتادة، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب، كما هو قول ابن عباس، على قولين،

---

(١) الانفطار الآيات (١٠-١٢).
(٢) الزخرف: الآية (٨٠).
(٣) الجاثية: الآيتان (٢٨و٢٩).
(٤) أضواء البيان (٧/ ٦٥٠).

وظاهر الآية: الأول؛ لعموم قوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾»[١].

وقال الشنقيطي: «اعلم أن العلماء اختلفوا في عمل العبد الجائز الذي لا ثواب ولا عقاب عليه، هل تكتبه الحفظة عليه أو لا؟

فقال بعضهم: يكتب عليه كل شيء حتى الأنين في المرض، وهذا هو ظاهر قوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾؛ لأن قوله: ﴿مِن قَوْلٍ﴾ نكرة في سياق النفي، زيدت قبلها لفظة (مِنْ)، فهي نص صريح في العموم.

وقال بعض العلماء: لا يكتب من الأعمال إلا ما فيه ثواب أو عقاب، وكلهم مجمعون على أنه لا جزاء إلا فيما فيه ثواب أو عقاب، فالذين يقولون: لا يكتب إلا ما فيه ثواب أو عقاب، والذين يقولون: يكتب الجميع، متفقون على إسقاط ما لا ثواب فيه ولا عقاب، إلا أن بعضهم يقولون: لا يكتب أصلًا، وبعضهم يقولون: يكتب أولًا ثم يمحى. وزعم بعضهم أن محو ذلك، وإثبات ما فيه ثواب أو عقاب هو معنى قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾[٢] الآية.

والذين قالوا: لا يكتب ما لا جزاء فيه. قالوا: إن في الآية نعتًا محذوفًا سوّغ حذفه العلم به؛ لأن كل الناس يعلمون أن الجائز لا ثواب فيه ولا عقاب، وتقدير النعت المحذوف: ما يلفظ من قول مستوجب للجزاء. وقد قدمنا أن حذف النعت إذا دل عليه دليل أسلوب عربي معروف، وقدمنا أن منه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[٣]، أي: كل سفينة صحيحة لا عيب فيها؛ بدليل قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[٤] الآية، أي: قرية ظالمة؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[٥]»[٦].

قال شيخ الإسلام: «والقرآن يدل على أنهما يكتبان الجميع؛ فإنه قال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ نكرة في الشرط مؤكدة بحرف (مِنْ)؛ فهذا يعم كل قوله. وأيضًا فكونه يؤجر على قول معين أو يؤزر؛ يحتاج إلى أن يعرف الكاتب ما أمر به وما نهي عنه؛ فلا بد

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٧٦-٣٧٧).
(٢) الرعد: الآية (٣٩).
(٣) الكهف: الآية (٧٩).
(٤) الإسراء: الآية (٥٨).
(٥) القصص: الآية (٥٩).
(٦) أضواء البيان (٧/ ٦٥١).

في إثبات معرفة الكاتب به إلى نقل»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حفظ اللسان

* عن سهل بن سعد عن رسول اللَّه ﷺ قال: **«من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه، أضمن له الجنة»**[٢].

★ **غريب الحديث:**

من يضمن: بفتح أوله وسكون الضاد المعجمة والجزم: من الضمان بمعنى الوفاء بترك المعصية، فأطلق الضمان وأراد لازمه، وهو أداء الحق الذي عليه، فالمعنى: من أدى الحق الذي على لسانه من النطق بما يجب عليه أو الصمت عما لا يعنيه وأدى الحق الذي على فرجه من وضعه في الحلال وكفه عن الحرام[٣].

ما بين لحييه: قوله: «**لحييه**»، بفتح اللام وسكون المهملة والتثنية: هما العظمان في جانبي الفم، والمراد بما بينهما: اللسان وما يتأتى به النطق، وبما بين الرجلين: الفرج[٤].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «ما أحق من علم أن عليه حفظة موكلين به، يحصون عليه سقط كلامه وعثرات لسانه، أن يخزنه ويقل كلامه فيما لا يعنيه، وما أحراه بالسعي في أن لا يرتفع عنه ما يطول عليه ندمه من قول الزور والخوض في الباطل، وأن يجاهد نفسه في ذلك ويستعين باللَّه ويستعيذ من شر لسانه»[٥].

وقال أيضًا: «ودل بهذا الحديث أن أعظم البلاء على العبد في الدنيا اللسان والفرج، فمن وقي شرهما فقد وقي أعظم الشر»[٦].

وقال الحافظ ابن عبد البر: «وفي هذا الحديث من الفقه أن الكبائر أكثر ما تكون

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٣٣)، والبخاري (١١/ ٣٧٢-٣٧٣/ ٦٤٧٤) واللفظ له، والترمذي (٤/ ٥٢٤/ ٢٤٠٨) وقال: «حسن صحيح غريب».

(٣) فتح الباري (١١/ ٣٧٤).

(٤) المصدر السابق (١١/ ٣٧٥).

(٥) شرح البخاري (١٠/ ١٨٥-١٨٦).

(٦) المصدر السابق (١٠/ ١٨٦).

-واللَّه أعلم- من الفم والفرج، ووجدنا الكفر وشرب الخمر وأكل الربا وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم ظلمًا من الفم واللسان، ووجدنا الزنا من الفرج.

وأحسب أن المراد من الحديث أنه من اتقى لسانه وما يأتي من القذف والغيبة والسب، كان أحرى أن يتقي القتل؛ ومن اتقى شرب الخمر كان حريًا باتقاء بيعها؛ ومن اتقى أكل الربا لم يعمل به؛ لأن البغية من العمل به التصرف في أكله؛ فهذا وجه في تخصيص الجارحتين المذكورتين في هذا الحديث وضمان الجنة لمن وقي شرهما. وهذا التأويل على نحو قول عمر ﷺ في الصلاة: «**ومن ضيعها كان لما سواها أضيع، ومن حفظها حفظ دينه**»، فكان قوله ﷺ من اتقى الغيبة وقول الزور واتقى الزنا مع غلبة شهوة النساء على القلوب كان للقتل أهيب وأشد توقيًا، واللَّه أعلم.

ويحتمل أن يكون ذلك منه ﷺ خطابا لقوم بأعيانهم اتقى عليهم من اللسان والفرج ما لم يتق عليهم من سائر الجوارح.

ويحتمل أيضًا أن يكون قوله ذلك معه كلام لم يسمعه الناقل، كأنه قال: من عافاه اللَّه ووقاه كذا وكذا، وشر ما بين لحييه ورجليه؛ ولج الجنة. فسمع الناقل بعض الحديث ولم يسمع بعضًا، فنقل ما سمع.

وإنما حملنا على تخريج هذه الوجوه لإجماع الأمة أن من أحصن فرجه عن الزنا ومنع لسانه من كل سوء ولم يتق ما سوى ذلك من القتل والظلم؛ أنه لا يضمن له الجنة، وهو إن مات عندنا في مشيئة اللَّه تعالى، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه إذا مات مسلمًا»[1].

* عن أبي هريرة سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها، يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق**»[2].

★ غريب الحديث:

بالكلمة: أي الكلام المشتمل على ما يفهم الخير أو الشر سواء طال أم قصر،

---

(١) التمهيد (فتح البر ١٠/ ٤١٠-٤١١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٩)، والبخاري (١١/ ٣٧٣/ ٦٤٧٧و٦٤٧٨) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٢٩٠/ ٢٩٨٨)، والترمذي (٤/ ٤٨٢-٤٨٣/ ٢٣١٤) وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٣١٣/ ٣٩٧٠).

كما يقال: كلمة الشهادة، وكما يقال للقصيدة: كلمة فلان.

قال شيخ الإسلام: «وحيث وجد في الكتاب والسنة بل وفي كلام العرب نظمه ونثره لفظ كلمة: فإنها يراد به المفيد التي تسميها النحاة جملة تامة كقوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾[١] وكقوله ﷺ: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة**»»[٢].

يزل بها: بفتح أوله وكسر الزاي بعدها لام، أي: يسقط.

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «معناه: لا يتدبرها ويفكر في قبحها ولا يخاف ما يترتب عليها، وهذا كالكلمة عند السلطان وغيره من الولاة، وكالكلمة تقذف، أو معناه: كالكلمة التي يترتب عليها إضرار مسلم ونحو ذلك، وهذا كله حث على حفظ اللسان؛ كما قال ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»[٣]، وينبغي لمن أراد النطق بكلمة أو كلام أن يتدبره في نفسه قبل نطقه، فإن ظهرت مصلحته تكلم وإلا أمسك»[٤].

قال القرطبي: «فيه من الفقه: وجوب التثبت عند الأقوال والأفعال، وتحريم التساهل في شيء من الصغائر، وملازمة الخوف والحذر عند كل قول وفعل، والبحث عما مضى من الأقوال والأفعال، واستحضار ما مضى من ذلك وتذكره من أول زمان تكليفه؛ لإمكان أن يكون صدر من المكلف شيء لم يتثبته يستحق به هذا الوعيد الشديد، فإذا تذكر واستعان بالله، فإن ذكر شيئًا من ذلك تاب منه، واستغفر، وإن لم يتذكر وجب عليه أن يتوب جملة بجملة عما علم وعما لم يعلم،

---

(١) الكهف الآيتان (٤و٥).

(٢) الفتاوى (٧/ ١٠١-١٠٢) بتصرف.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٧)، والبخاري (١٠/ ٥٤٦/ ٦٠١٨)، ومسلم (١/ ٦٨/ ٤٧)، وأبو داود (٥/ ٣٥٨/ ٥١٥٤)، والترمذي (٤/ ٥٦٩/ ٢٥٠٠)، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٣٨١/ ١١٧٨٢)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٣/ ٣٩٧١) كلهم من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) شرح صحيح مسلم (١٨/ ٩١-٩٢).

كما قال النبي ﷺ: «**أستغفرك عما تعلم ولا أعلم**»[1]، فمن فعل ذلك وصدقت نيته قبلت بفضل الله تعالى توبته»[2].

قال ابن القيم: «وأما اللفظات، فحفظها بأن لا يخرج لفظة ضائعة، بأن لا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة في دينه. فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة، نظر هل فيها ربح وفائدة أم لا، فإن لم يكن فيها ربح أمسك عنها، وإن كان فيها ربح نظر هل تفوت بها كلمة هي أربح منها فلا يضيعها بهذه.

وإذا أردت أن تستدل على ما في القلب فاستدل عليه بحركة اللسان، فإنه يطلعك على ما في القلب شاء صاحبه أم أبى.

قال يحيى بن معاذ: «القلوب كالقدور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها، فانظر إلى الرجل حين يتكلم، فإن لسانه يغترف لك به مما في قلبه، حلو، وحامض، وعذب، وأجاج، وغير ذلك، ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه أي: كما تطعم بلسانك طعم ما في القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقة ذلك، كذلك تطعم ما في قلب الرجل من لسانه فتذوق ما في قلبه من لسانه كما تذوق ما في القدر بلسانك.

وفي حديث أنس المرفوع: «**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه**»[3]. وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: «**الفم والفرج**»[4]، قال الترمذي: حديث صحيح. وقد سأل معاذ النبي ﷺ عن العمل الذي يدخله الجنة ويباعده من النار، فأخبره برأسه وعموده وذروة سنامه، ثم قال: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟**» قال: بلى يا رسول الله! فأخذ بلسان نفسه ثم قال: «**كُفّ عليك هذا**»، فقال: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «**ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكبّ الناس على وجوههم -أو على مناخرهم- إلا حصائد**

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٣و١٢٥)، والترمذي (٥/ ٤٤٣-٤٤٤/ ٣٤٠٧)، والنسائي (٣/ ٦١/ ١٣٠٣). انظر الصحيحة (٣٢٢٨).

(٢) المفهم (٦/ ٦١٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٩٨)، والطبراني في الأوسط (٧/ ٢٩٠/ ٦٥٥٩)، وفي الصغير (٢/ ٣٤٦/ ٩٤٤) قال الهيثمي في المجمع (١/ ٥٣): «رواه أحمد وفي إسناده علي بن مسعدة، وثقه جماعة وضعفه آخرون».

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٤٢)، والترمذي (٤/ ٣١٩/ ٢٠٠٤) وقال: «حديث صحيح غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٤١٨/ ٤٢٤٦).

ألسنتهم؟»[١]، قال الترمذي: حديث صحيح.

ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه؛ حتى ترى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة وهو يتكلم بالكلمات من سخط اللَّه، لا يلقي لها بالًا، ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب! وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات ولا يبالي ما يقول!

وإذا أردت أن تعرف ذلك، فانظر إلى ما رواه مسلم في صحيحه من حديث جندب بن عبد اللَّه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«قال رجل: واللَّه لا يغفر اللَّه لفلان! فقال اللَّه ﷻ: من ذا الذي يتألى علي أني لا أغفر لفلان؟ قد غفرت له، وأحبطت عملك»**[٢]. فهذا العابد الذي قد عبد اللَّه ما شاء أن يعبده أحبطت هذه الكلمة الواحدة عمله كله. وفي حديث أبي هريرة نحو ذلك، ثم قال أبو هريرة: **«تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»**[٣]. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: **«إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان اللَّه، لا يلقي لها بالًا، يرفعه اللَّه بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط اللَّه، لا يلقي لها بالًا، يهوي بها في نار جهنم»**[٤]. وعند مسلم: **«إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها، يهوي بها في النار أبعد ما بين المغرب والمشرق»**[٥]. وعند الترمذي من حديث بلال بن الحارث المزني عن النبي ﷺ: **«إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان اللَّه، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب اللَّه له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من**

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٣١)، والترمذي (٥/ ١٣/ ٢٦١٦) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣١٤-١٣١٥/ ٣٩٧٣).

(٢) أخرجه: مسلم (٤/ ٢٠٢٣/ ٢٦٢١).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢٣)، وأبو داود (٥/ ٢٠٧-٢٠٨/ ٤٩٠١)، وحسنه العز بن عبد السلام في شرح الطحاوية، والألباني في التعليق عليها (ص: ٣١٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٤٣)، والبخاري (١١/ ٣٧٣/ ٦٤٧٨).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٩)، والبخاري (١١/ ٣٧٣/ ٦٤٧٧)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٠/ ٢٩٨٨).

سخط اللَّه، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب اللَّه له بها سخطه إلى يوم يلقاه»[١]، وكان علقمة يقول: «كم من كلام قد منعنيه حديث بلال ابن الحارث!». وفي جامع الترمذي أيضًا من حديث أنس، قال: «توفي رجل من الصحابة، فقال رجل: أبشر بالجنة، فقال رسول اللَّه ﷺ: «وما يدريك؟ فلعله تكلم فيما لا يعنيه، أو بخل بما لا ينقصه»[٢]، قال: حديث حسن. وفي لفظ: «إن غلامًا استشهد يوم أحد، فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع، فمسحت أمه التراب عن وجهه، وقالت: هنيئًا لك يا بني الجنة! فقال رسول اللَّه ﷺ: «وما يدريك؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويمنع ما لا يضره»[٣]. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة يرفعه: «من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت»[٤]. وفي لفظ لمسلم: «من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر، فإذا شهد أمرًا فليتكلم بخير أو ليسكت»[٥]. وذكر الترمذي بإسناد صحيح عنه ﷺ أنه قال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[٦]. وعن سفيان بن عبد اللَّه الثقفي قال: قلت: يا رسول الله! قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال: «قل آمنت باللَّه ثم استقم»، قلت: يا رسول الله! ما أخوف ما تخاف عليّ؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: «هذا»[٧]، والحديث صحيح. وعن أم حبيبة زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «كل كلام ابن آدم عليه، لا له،

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٦٩)، والترمذي (٤/ ٤٨٤/ ٢٣١٩) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣١٢/ ٣٩٦٩).

(٢) أخرجه: الترمذي (٤/ ٤٨٣/ ٢٣١٦) وقال: «حديث غريب»، والحديث صححه لغيره الألباني في صحيح الترغيب (٣/ ٦٧/ ٢٨٨٢).

(٣) أخرجه: أبو يعلى (٧/ ٨٤/ ٤٠١٧) وحسنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب (٣/ ٩٧/ ٢٨٨٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ١٧٤)، والبخاري (١١/ ٣٧٣/ ٦٤٧٥)، ومسلم (١/ ٦٨/ ٤٧)، وأبو داود (٥/ ٣٥٨/ ٥١٥٤)، والترمذي (٤/ ٥٦٩/ ٢٥٠٠) وقال: «حديث صحيح»، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٣٨١/ ١١٧٨٢)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٣/ ٣٩٧١).

(٥) أخرجه: مسلم (٢/ ١٠٩١/ ١٤٦٨).

(٦) أخرجه: الترمذي (٤/ ٤٨٣/ ٢٣١٧) وقال: «هذا حديث غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٣١٥-١٣١٦/ ٣٩٧٦)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١/ ٤٦٦/ ٢٢٩).

(٧) أخرجه: أحمد (٣/ ٤١٣)، ومسلم (١/ ٦٥/ ٣٨) مقتصرًا على الشطر الأول منه، والترمذي (٤/ ٥٢٤-٥٢٥/ ٢٤١٠) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣١٤/ ٣٩٧٢).

إلا أمرًا بمعروف، أو نهيًا عن منكر، أو ذكرًا لله ﷻ»[١]، قال الترمذي: حديث حسن. وفي حديث آخر: «**إذا أصبح العبد، فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان؛ تقول: اتق اللَّه فينا؛ فإنما نحن بك، فإذا استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا**»[٢].

وقد كان السلف يحاسب أحدهم نفسه في قوله: يوم حار، ويوم بارد. ولقد رؤي بعض الأكابر من أهل العلم في النوم بعد موته، فسئل عن حاله، فقال: أنا موقوف على كلمة قلتها، قلت: ما أحوج الناس إلى غيث! فقيل لي: وما يدريك؟ أنا أعلم بمصلحة عبادي.

وقال بعض الصحابة لجاريته يومًا: هاتي السفرة نعبث بها، ثم قال: أستغفر اللَّه، ما أتكلم بكلمة إلا وأنا أخطمها وأزمها، إلا هذه الكلمة خرجت مني بغير خطام ولا زمام» أو كما قال.

وأيسر حركات الجوارح حركة اللسان، وهي أضرها على العبد.

واختلف السلف والخلف: هل يكتب جميع ما يلفظ به، أو الخير والشر فقط؟ على قولين، أظهرهما الأول. وقال بعض السلف: كل كلام ابن آدم عليه، لا له، إلا ما كان من اللَّه وما والاه. وكان الصديق رضي الله عنه يمسك بلسانه، ويقول: «**هذا أوردني الموارد**». والكلام أسيرك، فإذا خرج من فيك صرت أنت أسيره، واللَّه عند لسان كل قائل، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾، وفي اللسان آفتان عظيمتان، إن خلص من أحدهما لم يخلص من الأخرى: آفة الكلام، وآفة السكوت. وقد يكون كل منهما أعظم إثمًا من الأخرى في وقتها: فالساكت عن الحق شيطان أخرس، عاصٍ لله، مراءٍ مداهن، إذا لم يخف على نفسه، والمتكلم بالباطل شيطان ناطق، عاصٍ لله، وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته، فهم

---

(١) أخرجه: الترمذي (٤/ ٥٢٥/ ٢٤١٢) وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٣١٥/ ٣٩٧٤)، والحديث ضعفه الألباني في الضعيفة (حديث ١٣٦٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٩٦)، والترمذي (٤/ ٥٢٣/ ٢٤٠٦) وقال: «رواه غير واحد عن حماد بن زيد، ولم يرفعوه، قال: وهذا أصح». قلت: لكن له حكم الرفع.
والحديث حسنه الألباني في صحيح الترغيب (٣/ ٩٣/ ٢٨٧١).

بين هذين النوعين، وأهل الوسط، وهم أهل الصراط المستقيم، كفّوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة، فلا ترى أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة، فضلًا أن تضره في آخرته. وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها، ويأتي بسيئات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر اللَّه وما اتصل به»[١].

* * *

---

(١) الداء والدواء (ص: ٢٧٦-٢٨١).

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩﴾

★ **غريب الآية:**

تحيد: تميل. يقال: حَادَ عنه حَيْدًا: إذا مَالَ وعَدَلَ عنه. قال الشاعر:

قالت وفيها حَيْدَةٌ وَذُعْرُ ... عَوْذٌ بربّي منكُمُ وَجُحْرُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: وجاءت -أيها الإنسان- سكرة الموت بالحق، أي: كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمتري فيه، ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾، أي: هذا هو الذي كنت تفر منه قد جاءك، فلا محيد ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص.

وقد اختلف المفسرون في المخاطب بقوله: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩﴾، فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو، وقيل: الكافر، وقيل غير ذلك»[١].

وقال شيخ الإسلام: «قوله: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أي: جاءت بما بعد الموت من ثواب وعقاب، وهو الحق الذي أخبرت به الرسل، ليس مراده أنها جاءت بالحق الذي هو الموت؛ فإن هذا مشهور لم ينازع فيه، ولم يقل أحد إن الموت باطل حتى يقال: جاءت بالحق»[٢].

وقال ابن القيم: «أخبر عن القيامة الصغرى، وهي سكرة الموت، وأنها تجيء بالحق، وهو لقاؤه سبحانه والقدوم عليه وعرض الروح عليه والثواب والعقاب الذي تعجل لها قبل القيامة الكبرى»[٣].

قال ابن كثير: «وفي قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ قولان:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٧٧-٣٧٨).
(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٦٥).
(٣) الفوائد (ص: ١٩).

أحدهما: أن (ما) ههنا موصولة، أي: الذي كنت منه تحيد -بمعنى: تبتعد وتنأى وتفرّ- قد حلّ بك، ونزل بساحتك.

والقول الثاني: أن (ما) نافية، بمعنى: ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه، ولا الحَيْد عنه»[١].

وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ يقول: هذه السكرة التي جاءتك أيها الإنسان بالحق هو الشيء الذي كنت تهرب منه، وعنه تروغ»[٢].

قال ابن عاشور: «عطف على جملة ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[٣] لاشتراكهما في التنبيه على الجزاء على الأعمال. فهذا تنقل في مراحل الأمور العارضة للإنسان التي تسلمه من حال إلى آخر حتى يقع في الجزاء على أعماله التي قد أحصاها الحفيظان.

وإنما خولف التعبير في المعطوف بصيغة الماضي دون صيغة المضارع التي صيغ بها المعطوف عليه لأنه لقربه صار بمنزلة ما حصل قصدا لإدخال الروع في نفوس المشركين كما استفيد من قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾[٤].

ويأتي على ما اختاره الفخر في تفسير ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾[٥] الآية أن تكون جملة ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ الخ في موضع الحال. والتقدير: وقد جاءت سكرة الموت بالحق حينئذٍ.

والمجيء مجاز في الحصول والاعتراء وفي هذه الاستعارة تهويل لحالة احتضار الإنسان وشعوره بأنه مفارق الحياة التي ألِفها وتعلق بها قلبه.

والسَّكرة: اسم لما يعتري الإنسان من ألم أو اختلال في المزاج يحجب من إدراك العقل فيختل الإدراك ويعتري العقل غيبوبة. وهي مشتق من السَّكر بفتح فسكون وهو الغلق، لأنه يغلق العقل ومنه جاء وصف السكران.

والباء في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ للملابسة، وهي إما حال من ﴿سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٧٨).
(٢) جامع البيان (٢٦/ ١٦١).
(٣) ق: الآية (١٦).
(٤) الجمعة: الآية (٨).
(٥) ق: الآية (١٧).

متصفة بأنها حق، والحق: الذي حقّ وثبَت فلا يتخلّف، أي السكرة التي لا طمع في امتداد الحياة بعدها، وإما حال من ﴿ٱلْمَوْتِۚ﴾، أي ملتبسًا بأنه الحق، أي المفروض المكتوب على الناس فهم محقوقون به، أو الذي هو الجِدّ ضد العبث كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾(١) مع قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ﴾(٢).

وقول ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الموت بتنزيل قرب حصوله منزلة الحاصل المشاهد.

و﴿تَحِيدُ﴾ تفرّ وتهرب، وهو مستعار للكراهية أو لتجنب أسباب الموت. والخطاب للمقصود من الإنسان وبالمقصود الأول منه وهم المشركون لأنهم أشدّ كراهية للموت لأن حياتهم مادية مَحضة فهم يريدون طول الحياة قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾(٣) إذ لا أمل لهم في حياة أخرى ولا أمل لهم في تحصيل نعيمها، فأما المؤمنون فإن كراهتهم للموت المرتكزة في الجبلة بمقدار الإلف لا تبلغ بهم إلى حد الجزع منه. وفي الحديث: «**من أحب لقاء اللَّه أحبّ اللَّه لقاءه، ومن كره لقاء اللَّه كره اللَّه لقاءه**»(٤)»(٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سكرات الموت

* عن عائشة رضي الله عنها كانت تقول: «إن رسول اللَّه ﷺ كان بين يديه ركوة -أو علبة فيها ماء؛ يشك عمر- فجعل يدخل يده في الماء فيمسح بها وجهه، ويقول: **لا إله إلا اللَّه، إن للموت سكرات**، ثم نصب يده، فجعل يقول: **في الرفيق الأعلى**، حتى قُبض ومالت يده»(٦).

★ **غريب الحديث:**

ركوة: الركوة: إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء، والجمع: ركاء.

---

(١) التغابن: الآية (٣). (٢) ص: الآية (٢٧).

(٣) البقرة: الآية (٩٦). (٤) سيأتي تخريجه.

(٥) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٠٥-٣٠٦).

(٦) أخرجه بهذا اللفظ، وبذكره موضع الشاهد: البخاري (١١/ ٤٣٩/ ٦٥١٠). وأخرجه بألفاظ مختلفة: أحمد (٦/ ٨)، ومسلم (٤/ ١٨٩٣/ ٢٤٤٣)، والترمذي (٥/ ٥٢٥/ ٣٤٩٦)، والنسائي (٤/ ٣٠٤/ ١٨٢٩).

علبة: العلبة: قدح من خشب، وقيل: من جلد وخشب يحلب فيه.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «وفي الحديث أن شدة الموت لا تدل على نقص في المرتبة، بل هي للمؤمن إما زيادة في حسناته وإما تكفير لسيئاته»[1].

✱ عن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«من أحب لقاء اللَّه أحب اللَّه لقاءه، ومن كره لقاء اللَّه كره اللَّه لقاءه» قلنا: يا رسول اللَّه، كلنا نكره الموت. قال: «ليس ذاك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حُضِر، جاءه البشير من اللَّه بما هو صائر إليه، فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي اللَّه، فأحب اللَّه لقاءه، وإن الفاجر أو الكافر- إذا حُضر، جاءه بما هو صائر إليه من الشر أو ما يلقى من الشر- فكره لقاء اللَّه، وكره اللَّه لقاءه»**[2].

★ **فوائد الحديث:**

تقدمت فوائده في سورة فصلت الآيتان (٣٠-٣١).

✱ ✱ ✱

---

(١) فتح الباري (١١/ ٤٤١).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠٧)، والبزار (كشف الأستار ١/ ٣٧٠/ ٧٨٠)، وأبو يعلى (٦/ ٤٦٩-٤٧٠/ ٣٨٧٧)، قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣٢٠): «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح». قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٠٢): «وهذا حديث صحيح وقد ورد في الصحيح من غير هذا الوجه».

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ۝٢٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: اليوم الذي يلحق الظالمين ما أوعدهم اللَّه به من العقاب، والمؤمنين ما وعدهم به من الثواب»[١].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾، يقول: هذا اليوم الذي ينفخ فيه هو يوم الوعيد، الذي وعده اللَّه الكفار أن يعذبهم فيه»[٢].

قال الشوكاني: «عبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه، وهذه هي النفخة الآخرة للبعث، ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ أي: ذلك الوقت الذي يكون فيه النفخ في الصور يوم الوعيد الذي أوعد اللَّه به الكفار. قال مقاتل: يعني بالوعيد: العذاب في الآخرة، وخصص الوعيد مع كون اليوم هو يوم الوعد والوعيد جميعًا لتهويله»[٣].

«وقد تقدم بياننا عن معنى (الصور)، وكيف النفخ فيه، بذكر اختلاف المختلفين، والذي هو أولى الأقوال عندنا فيه بالصواب، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النفخ في الصور

* عن أبي سعيد ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ!**» قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا: «**حسبنا اللَّه ونعم الوكيل،**

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٥٢).
(٢) جامع البيان (٢٦/ ١٦١).
(٣) فتح القدير (٥/ ١٠٧-١٠٨).
(٤) جامع البيان (٢٦/ ١٦١). وانظر سورة (الأنعام): الآية (٧٣) من هذا السفر المبارك.

توكلنا على اللَّه ربنا». وربما قال سفيان: على اللَّه توكلنا»[1].

★ **غريب الحديث:**

التقم: وضع طرف الصور في فمه.

حنى جبهته: أي: أمالها، وهو كناية عن المبالغة في التوجه لإصغاء السمع وإلقاء الأذن.

★ **فوائد الحديث:**

تقدمت فوائده في سورة الأنعام الآية (٧٣)، وفي سورة الزمر الآية (٦٨).

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٧و٧٣)، والترمذي (٤/ ٥٣٦/ ٢٤٣١) و(٥/ ٣٤٧/ ٣٢٤٣) وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٨/ ٤٢٧٣) من طرق عن عطية العوفي عن أبي سعيد مرفوعا، وعطية العوفي صدوق يخطئ كثيرا كما في التقريب؛ لكن تابعه أبو صالح عن أبي سعيد به. أخرجه: أبو يعلى (٢/ ٣٣٩-٣٤٠/ ١٠٨٤)، وابن حبان (الإحسان ٣/ ١٠٥/ ٨٢٣)، والحاكم (٤/ ٥٥٩) وقال: «ولولا أن أبا يحيى التيمي على الطريق لحكمت للحديث بالصحة على شرط الشيخين». قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في الصحيحة (٣/ ٦٧): «قد تابعه جرير عن الأعمش عند أبي يعلى وابن حبان، فالسند صحيح على شرطهما».

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١﴾

★ **غريب الآية:**

سائق: السَّوْقُ: الحثّ على السير.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: وجاءت يوم ينفخ في الصور كلُّ نفس ربَّها، معها سائق يسوقها إلى اللَّه، وشهيد يشهد عليها بما عملت في الدنيا من خير أو شر»[١].

قال ابن كثير: «وهذا هو الظاهر من الآية الكريمة»[٢].

قال ابن القيم: «أخبر عن أحوال الخلق في هذا اليوم، وأن كل أحد يأتي اللَّه سبحانه ذلك اليوم ومعه سائق يسوقه، وشهيد يشهد عليه، وهذا غير شهادة جوارحه، وغير شهادة الأرض التي كان عليها، له وعليه، وغير شهادة رسوله والمؤمنين؛ فإن اللَّه سبحانه يستشهد على العبد الحفظة، والأنبياء، والأمكنة التي عملوا عليها الخير والشر، والجلود التي عصوه بها، ولا يحكم بينهم بمجرد علمه، وهو أعدل العادلين، وأحكم الحاكمين»[٣].

قال السعدي: «وهذا يدل على اعتناء اللَّه بالعباد، وحفظه لأعمالهم، ومجازاته لهم بالعدل، فهذا الأمر مما يجب أن يجعله العبد منه على بال، ولكن أكثر الناس غافلون»[٤].

قال عبد الكريم الخطيب: «أي: في هذا اليوم -يوم الوعيد- تجيء كل نفس ومعها ﴿سَآئِقٌ﴾ من ورائها يسوقها إلى المحشر، وموقف الحساب، ﴿وَشَهِيدٌ﴾- وهو

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٦١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٧٩).

(٣) الفوائد (ص: ١٩).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٥٢).

الذي يشهد على الإنسان بما كان منه في الدنيا، من إيمان بالله وباليوم الآخر، أو كفر بالله، وبالبعث والحساب والجزاء.. فهو يحضر الحساب، ويشهد على الإنسان بما عمل..

ومع كل إنسان أكثر من شاهد.. فهناك الرسول الذي يشهد على قومه، كما يقول سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾[1]، وكما يقول -جل شأنه-: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾[2].. وهناك الجوارح التي تشهد على الإنسان، كما يقول سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾[3].. وهناك الملكان الموكّلان بالإنسان، واللذان سجلا عليه كل أعماله..

و قد أفرد هؤلاء الشهداء، فكانوا ﴿شَهِيدًا﴾ واحدًا، لأنهم يشهدون شهادة واحدة، لا اختلاف فيها، لأنها شهادة الحق الذي لا تشوبه شائبة من كذب، أو افتراء.. فكانوا بهذا أشبه بشاهد واحد»[4].

* * *

---

(١) النساء: الآية (٤١).

(٢) القصص: الآية (٧٥).

(٣) النور: الآية (٢٤).

(٤) التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٤٨٢).

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

حديد: نافذ قويّ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قوله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ يقول تعالى ذكره: يقال له: لقد كنت في غفلة من هذا الذي عاينت اليوم -أيها الإنسان- من الأهوال والشدائد، ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ﴾ يقول: فجلينا ذلك لك، وأظهرناه لعينيك، حتى رأيته وعاينته، فزالت الغفلة عنك. .

وقوله: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ يقول: فأنت اليوم نافذ البصر، عالم بما كنت عنه في الدنيا في غفلة، وهو من قولهم: فلان بصير بهذا الأمر: إذا كان ذا علم به، وله بهذا الأمر بصر، أي: علم.

وقد روي عن الضحاك أنه قال: معنى ذلك ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾: لسان الميزان، وأحسبه أراد بذلك أن معرفته وعلمه بما أسلف في الدنيا شاهد عدل عليه، فشبّه بصره بذلك بلسان الميزان الذي يعدل به الحق في الوزن، ويعرف مبلغه الواجب لأهله عما زاد على ذلك أو نقص، فكذلك علم من وافى القيامة بما اكتسب في الدنيا شاهد عليه كلسان الميزان»[1].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «حكى ابن جرير ثلاثة أقوال في المراد بهذا الخطاب في قوله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾:

أحدها: أن المراد بذلك الكافر. رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وبه يقول الضحاك بن مزاحم وصالح بن كيسان.

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٦٣-١٦٤).

والثاني: أن المراد بذلك كل أحد من بر وفاجر؛ لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة، والدنيا كالمنام. وهذا اختيار ابن جرير، ونقله عن حسين بن عبد اللَّه بن عبيداللَّه بن عباس.

والثالث: أن المخاطب بذلك النبي ﷺ. وبه يقول زيد بن أسلم، وابنه. والمعنى على قولهما: لقد كنت في غفلة من هذا الشأن قبل أن يوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك، فبصرك اليوم حديد.

والظاهر من السياق خلاف هذا، بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ يعني: من هذا اليوم، ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾، أي: قوي؛ لأن كل واحد يوم القيامة يكون مستبصرًا؛ حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك؛ قال اللَّه تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾[2]»[3].

قال ابن القيم: «أخبر سبحانه أن الإنسان في غفلة من هذا الشأن الذي هو حقيق بأن لا يغفل عنه وأن لا يزال على ذكره وباله، وقال ﴿فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ولم يقل: (عنه)، كما قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾[4] ولم يقل: (في شك فيه)، وجاء هذا في المصدر وإن لم يجىء في الفعل فلا يقال: غفلت منه ولا شككت منه كأن غفلته وشكه ابتداء منه، فهو مبدأ غفلته وشكه، وهذا أبلغ من أن يقال: في غفلة عنه وشك فيه، فإنه جعل ما ينبغي أن يكون مبدأ التذكرة واليقين ومنشأهما مبدأ للغفلة والشك، ثم أخبر أن غطاء الغفلة والذهول يكشف عنه ذلك اليوم كما يكشف غطاء النوم عن القلب فيستيقظ وعن العين فتنفتح، فنسبه كشف هذا الغطاء عن العبد عند المعاينة كنسبه كشف غطاء النوم عنه عند الانتباه»[5].

* * *

(١) مريم: الآية (٣٨).
(٢) السجدة: الآية (١٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٧٩-٣٨٠).
(٤) هود: الآية (١١٠).
(٥) الفوائد ص (١٩-٢٠).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن الملك الموكل بعمل ابن آدم: أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل، ويقول: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾، أي: معتَدٌّ محضر بلا زيادة ولا نقصان.

وقال مجاهد: هذا كلام الملك السائق يقول: هذا ابنُ آدم الذي وكلتني به، قد أحضرته.

وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد، وله اتجاه وقوة.

فعند ذلك يحكم اللَّه ﷻ في الخليقة بالعدل، فيقول: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾.

وقد اختلف النحاة في قوله: ﴿أَلْقِيَا﴾.. والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أدى الشهيد عليه، أمرهما اللَّه تعالى بإلقائه في نار جهنم وبئس المصير.

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾، أي: كثير الكفر والتكذيب بالحق، ﴿عَنِيدٍ﴾: معاند للحق، معارض له بالباطل مع علمه بذلك، ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: لا يؤدي ما عليه من الحقوق، ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة، ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: فيما ينفقه ويصرفه، يتجاوز فيه الحد. وقال قتادة: معتد في منطقه وسيرته وأمره، ﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: شاك في أمره، مريب لمن نظر في أمره. ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، أي: أشرك باللَّه فعبد معه غيره، ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾»[1].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٨٠).

قال السعدي: «يقول تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: قرين هذا المكذب المعرض، من الملائكة، الذين وكلهم اللَّه على حفظه، وحفظ أعماله، فيحضره يوم القيامة ويحضر أعماله ويقول: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾، أي: قد أحضرت ما جعلت عليه، من حفظه وحفظ عمله، فيجازى بعمله.

ويقال لمن استحق النار: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾، أي: كثير الكفر والعناد لآيات اللَّه، المكثر من المعاصي، المجترئ على المحارم والمآثم.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾، أي: يمنع الخير الذي قبله، الذي أعظمه الإيمان باللَّه وملائكته وكتبه ورسله، منّاع لنفع ماله وبدنه، ﴿مُعْتَدٍ﴾ على عباد اللَّه، وعلى حدوده، ﴿مُّرِيبٍ﴾، أي: شاكّ في وعد اللَّه ووعيده، فلا إيمان ولا إحسان ولكن وصفه الكفر والعدوان، والشك والريب، والشح، واتخاذ الآلهة من دون الرحمن، ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، أي: عبد معه غيره، ممن لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً، ولا نشورًا، ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ أيها الملكان القرينان ﴿فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ الذي هو معظمها وأشدها وأشنعها»[1].

قال ابن القيم: «أخبر سبحانه أن قرينه وهو الذي قرن به في الدنيا من الملائكة يكتب عمله وقوله، يقول لما يحضره: هذا الذي كنت وكلتني به في الدنيا قد أحضرته وأتيتك به، هذا قول مجاهد. وقال ابن قتيبة: المعنى هذا ما كتبته عليه وأحصيته من قوله وعمله حاضر عندي، والتحقيق أن الآية تتضمن الأمرين: أي هذا الشخص الذي وكلت به وهذا عمله الذي أحصيته عليه، فحينئذ يقال: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾وهذا إما أن يكون خطابا للسائق والشهيد أو خطابا للملك الموكل بعذابه وإن كان واحدا وهو مذهب معروف من مذاهب العرب في خطابها، أو تكون الألف منقلبة عن نون التأكيد الخفيفة ثم أجري الوصل مجرى الوقف ثم ذكر صفات هذا الملقى، فذكر له ست صفات:

أحدها: أنه كفّار لنعم اللَّه وحقوقه، كفّار بدينه وتوحيده وأسمائه وصفاته، كفّار برسله وملائكته، كفّار بكتبه ولقائه.

الثانية: أنه معاند للحق بدفعه جحدًا وعنادًا.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٥٣-١٥٤).

الثالثة: أنه منّاع للخير، وهذا يعم منعه للخير الذي هو إحسان إلى نفسه من الطاعات والقرب إلى اللَّه، والخير الذي هو إحسان إلى الناس، فليس فيه خير لنفسه ولا لبني جنسه، كما هو حال أكثر الخلق.

الرابعة: أنه مع منعه للخير، معتدٍ على الناس، ظلوم غشوم، معتدٍ عليهم بيده ولسانه.

الخامسة: أنه مريب، أي: صاحب ريب وشكّ، ومع هذا فهو آتٍ لكل ريبة؛ يقال: فلان مريب: إذا كان صاحب ريبة.

السادسة: أنه مع ذلك مشرك باللَّه قد اتخذ مع اللَّه إلهًا آخر يعبده، ويحبه، ويغضب له، ويرضى له، ويحلف باسمه، وينذر له، ويوالي فيه، ويعادي فيه»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في جزاء الجبارين والمشركين

* عن أبي سعيد عن نبي اللَّه ﷺ أنه قال: «**يخرج عنق من النار يتكلم يقول: وكلت اليوم بثلاثة: بكل جبار، وبمن جعل مع اللَّه إلها آخر، وبمن قتل نفسًا بغير نفس، فينطوي عليهم، فيقذفهم في غمرات جهنم**»[(٢)].

★ **غريب الحديث وفوائده:**

تقدم غريب الحديث وفوائده في سورة إبراهيم الآية (١٥).

* * *

(١) الفوائد (ص: ٢٠-٢١).

(٢) أخرج: أحمد (٣/ ٤٠)، والطبراني في الأوسط (٤/ ٥٧٨-٥٧٩/ ٣٩٩٣) وفي إسناده عطية العوفي، وهو ضعيف. لكنه قد توبع عند الطبراني في الأوسط (١/ ٢١٦/ ٣٢٠) ورجاله رجال الصحيح، غير رشدين بن سعد فقد وثق وكذب. وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة ﷺ عند أحمد (٢/ ٣٣٦)، والترمذي (٤/ ٦٠٤/ ٢٥٧٤) وقال: «حديث حسن غريب صحيح».

قال الشيخ الألباني في الصحيحة (رقم الحديث ٥١٢): «وإسناده صحيح على شرط الشيخين». وشاهد آخر من حديث عائشة ﷺ عند أحمد (٦/ ١١٠) وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف.

قوله تعالى: ﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ -قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم: هو الشيطان الذي وُكّل به-: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾، أي: يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافرًا، يتبرأ منه شيطانه، فيقول: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾، أي: ما أضللته، ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾، أي: بل كان هو في نفسه ضالاً، قابلًا للباطل، معاندًا للحق؛ كما أخبر تعالى في الآية الأخرى في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾[1].

وقوله: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾، يقول الرب عز وجل للإنسي وقرينه من الجن، وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق، فيقول الإنسي: يا رب، هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني. ويقول الشيطان: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾، أي: عن منهج الحق. فيقول الرب عز وجل لهما: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾، أي: عندي، ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾، أي: قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين»[2].

وقال ابن جرير: «إنما أخبر تعالى ذكره هذا الخبر عن قول قرين الكافر له يوم القيامة؛ إعلامًا منه عباده تبرؤ بعضهم من بعض يوم القيامة»[3].

قال ابن عاشور: «الاستدراك ناشئ عن شدة المقارنة بينه وبين قرينه لا سيما إذا

---

(١) إبراهيم: الآية (٢٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٨١).

(٣) جامع البيان (٢٦/ ١٦٨).

كان المراد بالقرين شيطانه المقيض له، فإنه قرن به من وقت إدراكه، فالاستدراك لدفع توهم أن المقارنة بينهما تقتضي أن يكون ما به من الطغيان بتلقين القرين فهو ينفي ذلك عن نفسه ولذلك أتبع الاستدراك بجملة ﴿كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾، فأخبر القرين بأن صاحبه ضال من قبل فلم يكن اقترانه معه في التقييض أو في الصحبة بزائد إياه إضلالا، وهذا نظير ما حكاه اللَّه عن الفريقين في قوله: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾[1]. وفعل ﴿كَانَ﴾ لإفادة أن الضلال ثابت له بالأصالة ملازم لتكوينه»[2].

قال ابن القيم: «وقد أخبر -سبحانه- عن اختصام الكفار والشياطين بين يديه في سورة (الصافات) و(الأعراف)، وأخبر عن اختصام الناس بين يديه في سورة (الزمر)، وأخبر عن اختصام أهل النار فيها في سورة (الشعراء) وسورة (ص)»[3].

* * *

---

(١) البقرة: الآية (١٦٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣١٤).

(٣) الفوائد (ص: ٢١).

قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيله للمشركين وقرنائهم من الجن يوم القيامة، إذ تبرأ بعضهم من بعض: ما يغير القول الذي قلته لكم في الدنيا، وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[(١)]، ولا قضائي الذي قضيته فيهم فيها»[(٢)].

قال السعدي: «أي: لا يمكن أن يخلف ما قاله اللَّه وأخبر به؛ لأنه لا أصدق من اللَّه قيلًا، ولا أصدق حديثًا.

وما أنا بظلام للعبيد، بل أجزيهم بما عملوا من خير وشر، فلا يزاد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم»[(٣)].

قال صديق حسن خان: «﴿مَا يُبَدَّلُ﴾ أي: ما يغير ﴿ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ في ذلك، أي: لا خلف لوعيدي، بل هو كائن لا محالة، وقد قضيت عليك بالعذاب فلا تبديل له، والعفو عن بعض المذنبين لبعض الأسباب ليس من التبديل؛ فإن دلائل العفو في حق عصاة المذنبين تدل على تخصيص الوعيد، ولا تخصيص في حق الكافر، فالوعيد على عمومه في حقهم»[(٤)].

قال ابن القيم: «أخبر سبحانه أنه لا يبدل القول لديه، فقيل: المراد بذلك قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، ووعده لأهل الإيمان بالجنة، وأن هذا لا يبدل ولا يخلف، قال ابن عباس: «يريد: ما لوعدي خلف لأهل طاعتي ولا أهل معصيتي»، قال مجاهد: قد قضيت ما أنا قاضٍ. وهذا أصح القولين في الآية، وفيها قول آخر: إن المعنى: ما يغير القول عندي بالكذب والتلبيس، كما يغير عند

---

(١) هود: الآية (١١٩)، السجدة: الآية (١٣).

(٢) جامع البيان (٢٦/ ١٦٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٥٥).

(٤) فتح البيان (١٣/ ١٧٥).

الملوك والحكام. فيكون المراد بالقول قول المختصمين، وهو اختيار الفراء وابن قتيبة. قال الفراء: المعنى: ما يكذب عندي لعلمي بالغيب. وقال ابن قتيبة: أي: ما يحرف القول عندي، ولا يزاد فيه، ولا ينقص منه. قال: لأنه قال: القول عندي، ولم يقل: قولي، وهذا كما يقال: لا يكذب عندي.

فعلى القول الأول يكون قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ من تمام قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ﴾ في المعنى، أي: ما قلته ووعدت به لا بد من فعله، ومع هذا فهو عدل لا ظلم فيه، ولا جور.

وعلى الثاني يكون قد وصف نفسه بأمرين، أحدهما: أن كمال علمه واطلاعه يمنع من تبديل القول بين يديه، وترويج الباطل عليه، والثاني: أن كمال عدله وغناه يمنع من ظلمه لعبيده»[١].

قال شيخ الإسلام: «هذا يقتضي أنه صادق في وعيده أيضًا، وأن وعيده لا يبدل، وهذا مما احتج به القائلون بأن فساق الملة لا يخرجون من النار، وقد تكلمنا عليهم في غير هذا الموضع، لكن هذه الآية تضعف جواب من يقول: إن اختلاف الوعيد جائز؛ فإن قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ﴾ بعد قوله: ﴿وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾ دليل على أن وعيده لا يبدل كما لا يبدل وعده، لكن التحقيق الجمع بين نصوص الوعد والوعيد، وتفسير بعضها ببعض من غير تبديل شيء منها، كما يجمع بين نصوص الأمر والنهي من غير تبديل شيء منها، وقد قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾[٢] والله أعلم»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قوله سبحانه: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ﴾

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه في الحديث الطويل في فرض الصلاة ليلة المعراج، وفيه: قال النبي ﷺ: «**ثم عُرج بي حتى ظهرتُ لمستوىً أسمع فيه صريف الأقلام**»،

(١) الفوائد (ص: ٢٢).
(٢) الفتح: الآية (١٥).
(٣) الفتاوى (١٤/ ٤٩٨).

قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال النبي ﷺ: «ففرض اللَّه على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك، حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض اللَّه على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة، قال: فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعت فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها، فقال: راجع ربك فإن أمتك لا تطيق، فراجعت، فوضع شطرها، فرجعت إليه، فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعته، فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يُبدَّل القولُ لديّ. فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك. فقلت: استحييت من ربي..»[١].

★ **غريب الحديث:**

صريف: أي: صوت جريانها بما تكتبه من أقضية اللَّه تعالى ووحيه وما ينتسخونه من اللوح المحفوظ.

راجعت: راجعه الكلام: عاوده.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ يعني: ما قضاه وأحكمه من آثار معلومة، وآجال مكتوبة، وأرزاق معدودة، وشبه ذلك مما لا يبدل لديه، وأما ما نسخه تعالى رفقًا بعباده، فهو الذي قال فيه تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾[٢]»[٣].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٤٤)، والبخاري (١/ ٦٠٥-٦٠٦/ ٣٤٩)، ومسلم (١/ ١٤٨-١٤٩/ ١٦٣)، والنسائي (١/ ٢٤٠-٢٤١/ ٤٤٨)، وأخرجه من حديث أنس بن مالك فقط: الترمذي مختصرًا (١/ ٤١٧/ ٢١٣) وقال: «حديث حسن صحيح غريب»، وابن ماجه (١/ ٤٤٨/ ١٣٩٩).

(٢) الرعد: الآية (٣٩).

(٣) شرح صحيح البخاري (٢/ ١٣).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ يقول: وما أنا بظلام للعبيد في ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ وذلك يوم القيامة، و﴿يَوْمَ نَقُولُ﴾ من صلة ﴿ظلَّام﴾. وقال تعالى ذكره لجهنم يوم القيامة: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾؟ لما سبق من وعده إياها بأنه يملؤها من الجِنّة والناس أجمعين.

وأما قوله: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم: معناه: ما من مزيد. قالوا: وإنما يقول اللَّه لها: هل امتلأت بعد أن يضع قدمه فيها، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قطِ قطِ؛ من تضايقها؛ فإذا قال لها وقد صارت كذلك: هل امتلأت؟ قالت حينئذ: هل من مزيد، أي: ما من مزيد؛ لشدّة امتلائها، وتضايق بعضها إلى بعض..

وقال آخرون: بل معنى ذلك: زدني، إنما هو هل من مزيد، بمعنى الاستزادة..

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: هو بمعنى الاستزادة، هل من شيء أزداده؟

وإنما قلنا ذلك أولى القولين بالصواب لصحة الخبر عن رسول اللَّه ﷺ»[1].

قال الشنقيطي: «اعلم أن الاستفهام في قوله: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ فيه للعلماء قولان معروفان:

الأول: أن الاستفهام إنكاري، كقوله تعالى: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2]، أي: ما يهلك إلا القوم الظالمون، وعلى هذا فمعنى ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾: لا محل للزيادة لشدة امتلاء النار، واستدل بعضهم لهذا الوجه بآيات من

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٦٩-١٧٠).

(٢) الأنعام: الآية (٤٧).

كتاب اللَّه كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[٢]، ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾[٣]، وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة (يس) في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾[٤] الآية؛ لأن إقسامه تعالى في هذه الآية المدلول عليه بلام التوطئة في ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ على أنه يملأ جهنم من الجنة والناس، دليل على أنها لا بد أن تمتلئ، ولذا قالوا: إن معنى ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾: لا مزيد؛ لأني قد امتلأت، فليس فيّ محل للمزيد.

وأما القول الآخر: فهو أن المراد بالاستفهام في قول النار: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾؟ هو طلبها للزيادة، وأنها لا تزال كذلك حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط، أي: كفاني قد امتلأت. وهذا الأخير هو الأصح؛ لما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن النبي ﷺ: «**أن جهنم لا تزال تقول: هل من مزيد، حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط**»؛ لأن في هذا الحديث المتفق عليه التصريح بقولها: قط قط، أي: كفاني؛ قد امتلأت. وأن قولها قبل ذلك: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾؛ لطلب الزيادة»[٥].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالى مخوفًا لعباده: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾، وذلك من كثرة ما ألقي فيها، ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، أي: لا تزال تطلب الزيادة من المجرمين العاصين؛ غضبًا لربّها، وغيظًا على الكافرين.

وقد وعدها اللَّه ملأها؛ كما قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾؛ حتى يضع رب العزة عليها قدمه الكريمة المنزهة عن التشبيه، فينزوي بعضها على بعض، وتقول: قط قط، قد اكتفيت وامتلأت»[٦].

قال ابن القيم: «أخبر عن سعة جهنم، وأنها كلما ألقي فيها فوج ﴿تَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾؟ وأخطأ من قال: إن ذلك للنفي، أي: ليس من مزيد، والحديث الصحيح

---

(١) السجدة: الآية (١٣).
(٢) هود: الآية (١١٩).
(٣) ص الآيتان (٨٤و٨٥).
(٤) يس: الآية (٧).
(٥) أضواء البيان (٧/ ٦٥٢-٦٥٣).
(٦) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٥٥).

يرد هذا التأويل»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سؤال جهنم حقيقة وطلبها الزيادة

* عن أنس عن النبي ﷺ قال: «**لا يزال يلقى فيها وتقول: هل من مزيد، حتى يضع فيها رب العالمين قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، ثم تقول: قد قد بعزتك وكرمك، ولا تزال في الجنة تفضل حتى ينشئ اللَّه لها خلقًا فيسكنهم فضل الجنة**»[٢].

★ غريب الحديث:

قد قد: روي بسكون الدال وكسرها، وهو اسم مرادف لـ(قط)، أي: حَسْب.

فينزوي: يجتمع وينطبق.

★ فوائد الحديث:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والمزيد ما يزيده اللَّه فيها من الجن والإنس، كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تزال جهنم يلقى فيها، وتقول: هل من مزيد، حتى يضع رب العزة فيها قدمه**» -ويروى: عليها قدمه- فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط» فإذا قالت: حسبي حسبي، كانت قد اكتفت بما ألقي فيها، ولم تقل بعد ذلك: هل من مزيد، بل تمتلئ بما فيها لانزواء بعضها إلى بعض، فإن اللَّه يضيقها على من فيها لسعتها؛ فإنه قد وعدها ليملأنّها من الجِنّة والناس أجمعين، وهي واسعة، فلا تمتلئ حتى يضيقها على من فيها»[٣].

وقال ابن جرير: «ففي قول النبي ﷺ: «**لا تزال جهنم تقول: هل من مزيد؟**»، دليل واضح على أن ذلك بمعنى الاستزادة، لا بمعنى النفي؛ لأن قوله: «**لا تزال**» **دليل على اتصال قول بعد قول**»[٤].

---

(١) الفوائد (ص: ٢٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٣٤)، والبخاري (١٣/ ٤٥٦/ ٧٣٨٤)، ومسلم (٤/ ٢١٨٧-٢١٨٨/ ٢٨٤٨)، والترمذي (٥/ ٣٦٤/ ٣٢٧٢)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١١/ ٧٧٢٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٦-٤٧).

(٤) جامع البيان (٢٦/ ١٧١).

قال الشنقيطي: «وهذا الحديث الصحيح من أحاديث الصفات، وقد قدمنا الكلام عليها مستوفىً في سورة (الأعراف) و(القتال). واعلم أن قول النار في هذه الآية: (هل من مزيد؟) قول حقيقي ينطقها اللَّه به. فزعم بعض أهل العلم أنه كقول الحوض:

امتلأ الحوض فقال قطني　　　مهلًا رويدًا قد ملأت بطني

وأن المراد بقوله ذلك هو ما يُفهم من حالها؛ خلاف التحقيق. وقد أوضحنا ذلك بأدلته في سورة (الفرقان) في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾[1]. والعلم عند اللَّه تعالى»[2].

قال الغنيمان: «قوله: «**لا يزال يلقى فيها وتقول**» هذا القول من جهنم حقيقة، فاللَّه تعالى ينطقها بكلام مسموع منها، كما ينطق -جل وعلا- الجوارح وغيرها، واللَّه على كل شيء قدير، وأمور الآخرة أعظمها على خلاف ما يعرفه الناس في الدنيا»[3].

قال القاسمي: «قال الناصر في «الإنصاف»: إنا نعتقد أن سؤال جهنم وجوابها حقيقة، وأن اللَّه تعالى يخلق فيها الإدراك بذلك بشرطه، وكيف نفرض وقد وردت الأخبار وتظاهرت على ذلك؟ منها هذا، ومنها لجاج الجنة والنار، ومنها اشتكاؤها إلى ربها، فأذن لها في نفسين، وهذه وإن لم تكن نصوصًا فظواهر يجب حملها على حقائقها؛ لأنا متعبدون باعتقاد الظاهر ما لم يمنع مانع، ولا مانع ههنا؛ فإن القدرة صالحة، والعقل يجوز، والظواهر قاضية بوقوع ما جوزه العقل. وقد وقع مثل هذا قطعًا في الدنيا كتسليم الشجر، وتسبيح الحصى في كف النبي ﷺ وفي يد أصحابه. ولو فتح باب المجاز والعدول عن الظاهر في تفاصيل المقالة، لاتسع الخرق وضل كثير من الخلق عن الحق»[4].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**تحاجت الجنة والنار، فقالت**

---

(١) الفرقان: الآية (١٢).

(٢) أضواء البيان (٧/ ٦٥٣).

(٣) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ١٥٩).

(٤) محاسن التأويل (١٥/ ١٨٠).

النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟ قال اللَّه -تبارك وتعالى- للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذاب أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منهما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول: قط قط قط، فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم اللَّه ﷻ من خلقه أحدًا، وأما الجنة فإن اللَّه ﷻ ينشئ لها خلقًا»[(١)].

★ غريب الحديث:

تحاجّت: أي: تخاصمت.

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «قال المهلب: اختصام الجنة والنار هو افتخار بعضهما على بعض بمن يسكنهما، فالنار تتكبر بمن يلقى فيها من المتكبرين وتظن أنها آثر بذلك عند اللَّه من الجنة. . وتظن الجنة ضد ذلك لقولها: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟ فكأنها أشفقت من إيضاع المنزلة عند الرب تعالى. فحكم تعالى للجنة بأنها رحمته لا يسكنها إلا الرحماء من عباده، وحكم للنار بأنها عذابه يصيب بها من يشاء من المتكبرين، وأنه ليس لإحديهما فضل من طريق من يسكنها اللَّه تعالى من خلقه، إذ هما اللتان للرحمة والعذاب، ولكن قضى لهما بالملء من خلقه»[(٢)].

قال الغنيمان: «الظاهر أن افتخار النار على الجنة بأنها محل انتقام اللَّه تعالى من الطغاة والمجرمين الذين عصوا اللَّه وكذبوا رسله، وسخروا منهم وبارزوا اللَّه بالجرائم والآثام. وغالب هذا النوع من قادة الناس ورؤسائهم وأغنيائهم وأهل السيادة والقيادة فيهم، وأهل التجبر والتكبر»[(٣)].

وقال أيضًا: «تقدم أن الصحيح أن هذا بلسان المقال»[(٤)].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٤)، والبخاري (٨/ ٧٦٥/ ٤٨٥٠)، ومسلم (٤/ ٢١٨٦/ ٢٨٤٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٦٨/ ١١٥٢٢).

(٢) شرح صحيح البخاري (١٠/ ٤٧٢).

(٣) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/ ٨٤).

(٤) المصدر السابق.

قوله: «**ولكل واحدة منكما ملؤها**»: قال الغنيمان: «هذا وعد من اللَّه تعالى لهما بأن يملأهما بمن يسكنهما، وفي هذا إشعار بأنهما يرغبان ذلك، وقد جاء الطلب من النار صريحًا كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾، وأقسم اللَّه تعالى ليملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين. فهما يمتلئان من بني آدم ومن الجن. فمن آمن وعبد اللَّه وحده واتبع رسله فمصيره إلى الجنة، ومن عصى وبغى وطغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى»[1].

قال الحافظ: «وفي الحديث رد على من حمل قول النار ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ على أنه استفهام إنكار وأنها لا تحتاج إلى زيادة»[2].

* * *

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٨٦).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٥٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢﴾

★ **غريب الآية:**

أُزْلِفَت: أُدْنِيَتْ وقُرِّبَتْ. يقال: أَزْلَفَهُ: إذا قَرَّبَهُ.

أوّاب: كثير الأَوْب، وهو الرجوع إلى الله؛ من آبَ يَؤُوبُ: إذا رجع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١﴾ وأُدنيت الجنة، وقُرّبت للذين اتقوا ربهم، فخافوا عقوبته بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه..

وقوله: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ يقول: قال لهم: هذا الذي توعدون أيها المتقون: أن تدخلوها وتسكنوها.

وقوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ يعني: لكل راجع من معصية اللّه إلى طاعته، تائب من ذنوبه..

وقوله: ﴿حَفِيظٍ﴾، اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: حفظ ذنوبه حتى تاب منها..

وقال آخرون: معناه: أنه حفيظ على فرائض اللّه وما ائتمنه عليه..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن اللّه تعالى ذكره وصف هذا التائب الأوّاب بأنه حفيظ، ولم يخصّ به على حفظ نوع من أنواع الطاعات دون نوع، فالواجب أن يعمّ كما عمّ -جل ثناؤه-، فيقال: هو حفيظ لكلّ ما قرّبه إلى ربّه من الفرائض والطاعات والذنوب التي سلفت منه للتوبة منها والاستغفار»[١].

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٧١-١٧٣).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾، قال قتادة وأبو مالك والسدي: أُزْلِفَتْ: أُدنِيَتْ وقُرِّبت من المتقين، ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، وذلك يوم القيامة، وليس ببعيد؛ لأنه واقع لا محالة، وكلّ ما هو آتٍ آت.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾، أي: رجّاع تائب مقلع، ﴿حَفِيظٍ﴾، أي: يحفظ العهد فلا ينقضه وينكثه.

وقال عبيد بن عمير: الأوّاب الحفيظ: الذي لا يجلس مجلسًا حتى يستغفر اللَّه ﷻ»[(١)].

قال السعدي: «أي: قربت بحيث تشاهد وينظر ما فيها، من النعيم المقيم، والحبرة والسرور، وإنما أزلفت وقربت؛ لأجل المتقين لربهم، التاركين للشرك، كبيره وصغيره، الممتثلين لأوامر ربهم، المنقادين له، ويقال لهم على وجه التهنئة: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾، أي: هذه الجنة وما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين؛ هي التي وعد اللَّه كل أوّاب، أي: رجّاع إلى اللَّه، في جميع الأوقات، بذكره وحبه، والاستعانة به، ودعائه، وخوفه، ورجائه.

﴿حَفِيظٍ﴾ أي: يحافظ على ما أمر اللَّه به، بامتثاله على وجه الإخلاص والإكمال له على أكمل الوجوه، حفيظ لحدوده»[(٢)].

قال ابن القيم: «ولما كانت النفس لها قوتان: قوة الطلب، وقوة الإمساك، كان (الأوّاب) مستعملًا لقوة الطلب في رجوعه إلى اللَّه ومرضاته وطاعته، و(الحفيظ) مستعملًا لقوة الحفظ في الإمساك عن معاصيه ونواهيه، فالحفيظ: الممسك نفسه عما حرم عليه، والأواب: المقبل على اللَّه بطاعته»[(٣)].

قال الشنقيطي: «وما تضمنته هذه الآية الكريمة من إزلاف الجنة للمتقين؛ جاء في مواضع أخر من كتاب اللَّه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾[(٤)]، وقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾[(٥)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٨٣).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٥٦).
(٣) الفوائد (ص: ٢٣).
(٤) التكوير الآيتان (١٢و١٣).
(٥) الشعراء الآيتان (٩٠و٩١).

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: غير بعيد، ينظرون إليها قبل أن يدخلوها»[١].

قال عبد الكريم الخطيب: «هذه أول آية في هذه السورة تتحدث عن المؤمنين، وما أعد اللّه لهم من ثواب عظيم وأجر كريم.. فقد كانت السورة كلها مواجهة لأهل الشرك والضلال، وما دخل عليهم من شركهم وضلالهم، من إنكار ليوم البعث، حتى إذا جاءهم هذا اليوم، ذهلوا وذعروا، ثم إذا سيقوا إلى المحشر، والتقى بعضهم ببعض -أنكر بعضهم بعضا، وتراموا بالعداوة والبغضاء، ثم ألقوا جميعا في جهنم التي لا تضيق بكثرة الواردين إليها..

فقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١﴾ هو النسمة العليلة المنعشة التي تطلع في هذا الجوّ الخانق، الذي يكظم الأفواه، ويزكم الأنوف، مما يهب من سعير جهنم، ومن صرخات أهلها..

إن يوم القيامة ليس كله هذا الهول وهذا البلاء؛ بل إن في هذا اليوم مباهج، ومسرات، وبشريات مسعدة لأهل الإيمان والتقوى.. وأنه إذا كان هناك جهنم التي تفغر فاها لأهل الشرك والضلال، فإن هناك أيضا جنة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين.. وأنه إذا كانت جهنم تنتظر الواردين الذين يسوقهم إليها سائق عنيف يدعّهم دعّا، ويلقي بهم إلقاء فيها، فإن الجنة تسعى للقاء أهلها، وتلقاهم متوددة، متلطفة، تماما كما يفعل المضيف عند استقبال ضيف عزيز كريم، فيلقاه على الطريق مرحبا محييا..»[٢].

وقال عند قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢﴾:

«أي: هذا الجزاء الكريم الطيب، هو ما وعد اللّه سبحانه به الذين آمنوا وعملوا الصالحات..

والأوّاب: مبالغة من الأوب، وهو الرجوع، والمراد به الرجوع إلى اللّه، والاعتصام به في كل حال، وإضافة الأمر إليه في السراء والضراء.. فهذا هو مقتضى الإيمان الحق باللّه، حيث يقوم من هذا الإيمان شعور قويّ حيّ، يصل

(١) أضواء البيان (٧/ ٦٥٣-٦٥٤).
(٢) التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٤٨٧).

الإنسان بربه أبدا، فإذا كان منه انحراف مع هواه لم يلبث أن يردّه هذا الشعور إلى ربه تائبا مستغفرا، كما يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝﴾[1]..

والحفيظ: مبالغة من الحفظ، وهو حفظ الإنسان لنفسه، وحراستها من الأهواء والضلالات التي ترد عليها.. ثم حفظ ما اؤتمن عليه من أحكام دينه»[2].

* * *

(١) الأعراف: الآية (٢٠١).

(٢) التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٤٨٨).

قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾، يقول: من خاف اللَّه في الدنيا من قبل أن يلقاه، فأطاعه، واتبع أمره..

وقوله: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ يقول: وجاء اللَّه بقلب تائب من ذنوبه، راجع مما يكرهه اللَّه إلى ما يرضيه»[(١)].

قال القرطبي: «والخشية بالغيب أن تخافه ولم تره. وقال الضحاك والسدي: يعني في الخلوة حين لا يراه أحد. وقال الحسن: إذا أرخى الستر وأغلق الباب.

﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ مقبل على الطاعة. وقيل: مخلص. وقال أبو بكر الورّاق: علامة المنيب أن يكون عارفًا لحرمته ومواليًا له، متواضعًا لجلاله تاركًا لهوى نفسه.

قلت: ويحتمل أن يكون القلب المنيب: القلب السليم؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾[(٢)] على ما تقدم. واللَّه أعلم»[(٣)].

وقال السعدي: «﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾، أي: خافه على وجه المعرفة بربه، والرجاء لرحمته، ولازم على خشية اللَّه في حال غيبه، أي: مغيبه عن أعين الناس، وهذه هي الخشية الحقيقية، وأما خشيته في حال نظر الناس وحضورهم، فقد تكون رياءً وسمعة، فلا تدل على الخشية، وإنما الخشية النافعة، خشيته في الغيب والشهادة.

﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾، أي: وصفه الإنابة إلى مولاه، وانجذاب دواعيه إلى مراضيه»[(٤)].

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٧٣).
(٢) الشعراء: الآية (٨٩).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٢١).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٥٦).

قال عبد الكريم الخطيب: «وقوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ بدل من قوله تعالى: ﴿أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾..

فالأوّاب إنما كان أوابا وكان حفيظا، لأنه كان على خشية لربه، وخوف من لقائه، وعذابه..

والمراد بالخشية بالغيب، الخشية التي تكون من الإنسان في غير حضور من وازع سلطان أو قانون، وحيث تمكن الإنسان الفرصة من أن يفعل المنكر، ويرتكب الفحشاء من غير أن يطلع عليه مطلع، ولكنه يردّ نفسه عن هذا خوفا من اللّه، وحياء من جلاله..

وفي ذكر الاسم الكريم ﴿الرَّحْمَٰنَ﴾ هنا -إشارة إلى مبلغ التقوى والخشية التي تستولى على نفس هذا المؤمن الذي يخشى ربه، وهو يستحضر رحمته ويذكر سعة هذه الرحمة، ومع هذا فإن ذلك -وإن أطمعه في رحمة اللّه- لا يجرّئه على محاربته بالمعصية؛ بل إنه في حضور هذه الرحمة يكون أشد حبّا لربه، ومن أحب لم يكن منه عصيان لمن امتلأ قلبه بحبه..

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ -معطوف على قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾.. أي: كانت منه خشية للرحمن بالغيب، وكان منه مجيء، وعودة إلى ربه بقلب منيب، أي: راجع من شروده الذي كان متجها به إلى طريق المعصية.. فالقلب هو موطن المعتقدات الصالحة أو الفاسدة، ومصدر التصرفات الطيبة أو الخبيثة، كما يشير إلى ذلك الحديث الشريف: «**ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[1]»[2].

وقال ابن القيم: «قوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾، يتضمن الإقرار بوجوده، وربوبيته، وقدرته، وعلمه، واطلاعه على تفاصيل أحوال العبد، ويتضمن الإقرار بكتبه، ورسله، وأمره ونهيه، ويتضمن الإقرار بوعده، ووعيده، ولقائه، فلا تصح

---

(١) جزء من حديث أخرجه: أحمد (٤/ ٢٧٠)، والبخاري (١/ ١٦٨/ ٥٢)، ومسلم (٣/ ١٢١٩-١٢٢٠/ ١٥٩٩)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٨-١٣١٩/ ٣٩٨٤). وأخرجه دون موضع الشاهد أبو داود (٣/ ٦٢٣-٦٢٤/ ٣٣٢٩)، والترمذي (٣/ ٥١١/ ١٢٠٥)، والنسائي (٧/ ٢٧٧-٢٧٩/ ٤٤٦٥) من حديث النعمان ابن بشير رضي الله عنهما.

(٢) التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٤٨٨-٤٨٩).

خشية الرحمن بالغيب إلا بعد هذا كله»[١].

قال ابن القيم: «الإنابة إنابتان: إنابة لربوبيته وهي إنابة المخلوقات كلها يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾[٢] فهذا عام في حق كل داع أصابه ضر كما هو الواقع، وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام بل تجامع الشرك والكفر كما قال تعالى في حق هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾[٣] فهذا حالهم بعد إنابتهم.

والإنابة الثانية: إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلهيته إنابة عبودية ومحبة، وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربعة، وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل خشية اللَّه بالغيب

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«سبعة يظلهم اللَّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابّا في اللَّه اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف اللَّه، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر اللَّه خاليًا ففاضت عيناه»**[٥].

★ فوائد الحديث:

قال ابن رجب: «هذه السبعة اختلفت أعمالهم فِي الصورة، وجمعها معنى واحد، وَهُوَ مجاهدتهم لأنفسهم، ومخالفتهم لأهوائها، وذلك يحتاج أولًا إلى رياضة شديدة وصبر عَلَى الامتناع مِمَّا يدعو إليه داعي الشهوة أو الغضب أو الطمع، وفي تجشم ذَلِكَ مشقة شديدة عَلَى النفس، ويحصل لها بِهِ تألم عظيم، فإن القلب

---

(١) الفوائد (ص: ٢٣).
(٢) الروم: الآية (٣٣).
(٣) الروم الآيتان (٣٣و٣٤).
(٤) مدارج السالكين (١/ ٤٣٤).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣٩)، والبخاري (٢/ ١٨٢/ ٦٦٠)، ومسلم (٢/ ٧١٥/ ١٠٣١)، والترمذي (٤/ ٥١٦/ ٢٣٩١)، والنسائي (٨/ ٦١٣-٦١٤/ ٥٣٩٥)، وفي الكبرى (٣/ ٤٦١/ ٥٩٢١).

يكاد يحترق من حر نار الشهوة أو الغضب عِنْدَ هيجانها إذا لَمْ يطفء ببلوغ الغرض من ذَلِكَ، فلا جرم كَانَ ثواب الصبر عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ إذا اشتد الحر فِي الموقف، ولم يكن للناس ظل يظلهم ويقيهم حر الشمس يومئذ، وكان هؤلاء السبعة فِي ظل اللَّه ﷻ، فَلَمْ يجدوا لحر الموقف ألمًا جزاءً لصبرهم عَلَى حر نار الشهوة أو الغضب فِي الدنيا»[١].

قال القرطبي: «معنى «دعته»: عرضت نفسها عليه، أي: للفاحشة. وقول المدعو في مثل هذا: «**إني أخاف الله**»، وامتناعه لذلك دليل على عظيم معرفته باللَّه تعالى، وشدة خوفه من عقابه، ومتين تقواه وحيائه من اللَّه تعالى، وهذا هو المقام اليوسفي»[٢].

قال ابن بطال: «وأما الذي دعته امرأة ذات منصب إلى نفسها فقال: «**إني أخاف الله**»، فهو رجل عصمه اللَّه ومنّ عليه بفضله حتى خافه بالغيب، فترك ما يهوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾[٣] وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾[٤] فتفضل اللَّه على عباده بالتوفيق والعصمة وأثابهم على ذلك»[٥].

قال ابن رجب: «**«رَجُل دعته امرأة ذات منصب وجمال»** ويعني بالمنصب: النسب والشرف والرفعة فِي الدنيا، فإذا اجتمع ذَلِكَ مَعَ الجمال فَقَدْ كمل الأمر وقويت الرغبة، فإن كَانَتْ مَعَ ذَلِكَ هِيَ الطالبة الداعية إلى نفسها، كَانَ أعظم وأعظم، فإن الامتناع بعد ذَلِكَ كله دليل عَلَى تقديم خوف اللَّه عَلَى هوى النفس، وصاحبه داخل فِي قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾[٦]، وهذا كما جرى ليوسف عليه السلام.

قَالَ عُبَيْدُ بْن عمير: من صدق الإيمان وبره إسباغ الوضوء فِي المكاره، ومن صدق الإيمان وبره أن يخلو الرَّجُلُ بالمرأة الجميلة فيدعها، لا يدعها إلا لله ﷻ.

ومثل هَذَا إذا قَالَ: «**إني أخاف الله**» فهو صادق فِي قوله؛ لأن علمه مصدق

---

(١) فتح الباري (٦/ ٤٦).
(٢) المفهم (٣/ ٧٦).
(٣) النازعات الآيتان (٤٠و٤١).
(٤) الرحمن: الآية (٤٦).
(٥) شرح ابن بطال (٨/ ٤٢٧-٤٢٨).
(٦) النازعات: الآية (٤٠).

لقوله، وقوله لها: «**إني أخاف الله**» موعظة لها، فربما تنْزجر عَن طلبها، وترجع عَن غيها. وقد وقع ذَلِكَ لغير واحدٍ»[١].

قال القرطبي: «قوله: «**ورجل ذكر اللَّه خاليًا ففاضت عيناه**»، خاليًا: يعني من الخلق، ومن الالتفات إلى غير الله»[٢].

قال الحافظ: «قوله: «**ذكر الله**» أي: بقلبه من التذكر، أو بلسانه من الذكر، و«**خاليًا**» أي: من الخلو؛ لأنه يكون حينئذ أبعد من الرياء، والمراد: خاليًا من الالتفات إلى غير اللَّه ولو كان في ملإ»[٣].

قال ابن رجب: ««**رَجُل ذكر اللَّه خاليًا ففاضت عيناه**»: فهذا رَجُل يخشى اللَّه فِي سره، ويراقبه فِي خلوته، وأفضلُ الأعمال خشية اللَّه فِي السر والعلانية، وخشية اللَّه فِي السر إنما تصدر عَن قوة إيمان ومجاهدةٍ للنفس والهوى، فإن الهوى يدعو فِي الخلوة إلى المعاصي، ولهذا قيل: إن من أعز الأشياء الورع فِي الخلوة.

وذكر اللَّه يشمل ذكر عظمته وبطشه وانتقامه وعقابه؛ والبكاء الناشيء عَن هَذَا هُوَ بكاء الخوف، ويشمل ذكر جماله وكماله وبره ولطفه وكرامته لأوليائه بأنواع البر والألطاف، لاسيما برؤيته فِي الجنة، والبكاء الناشيء عَن هَذَا هُوَ بكاء الشوق.

ويدخل فِيه -أيضًا-: رَجُل ذكر أن اللَّه مَعَهُ حيثما كَانَ، فتذكر معيته وقربه واطلاعه عَليهِ حيث كَانَ فيبكي حياء مِنْهُ، وَهُوَ من نوع الخوف أيضًا»[٤].

قال ابن بطال: «فيه فضل البكاء من خشية اللَّه، وفي اشتراطه الخلوة بذلك حصر وندب على أن يجعل المرء وقتًا من خلوته للندم على ذنوبه، ويفزع إلى اللَّه بإخلاص من قلبه، وتضرع إليه في غفرانها، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه، وألا يجعل خلوته كلها في لذاته كفعل البهائم التي قد أمنت الحساب والمساءلة عن الفتيل والقطمير على رؤوس الخلائق، فينبغي لمن لم يأمن ذلك وأيقن به أن يطول في الخلوة بكاؤه، ويتبرم لحياته، وتصير الدنيا سجنه لما سلف من ذنوبه»[٥].

---

(١) فتح الباري (٦/ ٤٨-٤٩).

(٢) المفهم (٣/ ٧٧).

(٣) فتح الباري (٢/ ١٨٧).

(٤) فتح الباري (٦/ ٥٠).

(٥) شرح صحيح البخاري (٨/ ٤٢٦-٤٢٧).

قال النووي: «فيه فضيلة البكاء من خشية اللَّه تعالى، وفضل طاعة السر لكمال الإخلاص فيها»[1].

قلت: قد تقدم الكلام على هذا المعنى في سورة (الأحزاب) عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية (٣٥).

* * *

(١) شرح صحيح مسلم (٧/ ١٠٩).

قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝٣٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾: ادخلوا هذه الجنة بأمان من الهمّ والغضب والعذاب، وما كنتم تَلقَونه في الدنيا من المكاره. .

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ يقول: هذا الذي وصفت لكم أيها الناس صفته من إدخالي الجنة من أدخله، هو يوم دخول الناس الجنة، ماكثين فيها إلى غير نهاية»(١).

وقال ابن كثير: «﴿ٱدْخُلُوهَا﴾، أي: الجنة، ﴿بِسَلَٰمٍ﴾، قال قتادة: سلموا من عذاب اللّه، وسلّم عليهم ملائكة اللّه.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾، أي: يخلدون في الجنة فلا يموتون أبدًا، ولا يظعنون أبدًا، ولا يبغون عنها حولًا»(٢).

وقال القرطبي: «أي: يقال لأهل هذه الصفات: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝٣٤﴾ أي: بسلامة من العذاب. وقيل: بسلام من اللّه وملائكته عليهم. وقيل: بسلامة من زوال النعم. وقال: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾، وفي أول الكلام: ﴿مَّنْ خَشِىَ﴾؛ لأن (مَنْ) تكون بمعنى الجمع»(٣).

قال السعدي: «ويقال لهؤلاء الأتقياء الأبرار: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾، أي: دخولًا مقرونًا بالسلامة من الآفات والشرور، مأمونًا فيه جميع مكاره الأمور، فلا انقطاع لنعيمهم، ولا كدر ولا تنغيص، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ الذي لا زوال له ولا موت، ولا شيء من المكدرات»(٤).

* * *

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٧٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٨٣).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١٥).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٥٦-١٥٧).

قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ يقول: لهؤلاء المتقين ما يريدون في هذه الجنة التي أُزلفت لهم من كل ما تشتهيه نفوسهم، وتلذّه عيونهم»(١).

قال ابن كثير: «أي: مهما اختاروا وجدوا، من أيّ أصناف الملاذّ طلبوا أحضر لهم»(٢).

وقال السعدي: «﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾، أي: كل ما تعلقت به مشيئتهم، فهو حاصل فيها»(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حصول كل ما يشتهيه المؤمن في الجنة

* عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة كما يشتهي**»(٤).

★ **فوائد الحديث:**

قال شيخ الإسلام: «إن في الجنة كل محبوب ومطلوب، بل وفي الجنة ما لا تشعر به النفوس لتطلبه، فإن الطلب والحب والإرادة فرع عن الشعور والإحساس والتصور، فما لا يتصوره الإنسان ولا يحسه ولا يشعر به؛ يمتنع أن يطلبه ويحبه ويريده، فالجنة فيها هذا وهذا؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾،

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٧٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٨٣).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٥٧).
(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٩، ٨٠)، والترمذي (٤/ ٥٩٩-٦٠٠/ ٢٥٦٣) وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٤٥٢/ ٤٣٣٨)، وابن حبان (١٦/ ٤١٧/ ٧٤٠٤)، وصححه أبو يعلى في مسنده (٢/ ٣١٧-٣١٨/ ١٠٥١).

وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[١]، ففيها ما يشتهون، وفيها مزيد على ذلك، وهو ما لم يبلغه علمهم ليشتهوه؛ كما قال ﷺ: «**ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[٢]، وهذا باب واسع»[٣].

* * *

(١) الزخرف: الآية (٧١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٣)، والبخاري (٦/ ٣٩١-٣٩٢/ ٣٢٤٤)، ومسلم (٤/ ٢١٧٤/ ٢٨٢٤)، والترمذي (٥/ ٣٢٣/ ٣١٩٧)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٧/ ٤٣٢٨)، كلهم من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٠٣-٧٠٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾؛ قال بعض العلماء: المزيد: النظر إلى وجه اللَّه الكريم، ويستأنس لذلك بقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[(١)]؛ لأن الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر. والعلم عند اللَّه تعالى»[(٢)].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، يقول: وعندنا لهم -على ما أعطيناهم من هذه الكرامة التي وصف -جل ثناؤه- صفتها- ﴿مَزِيدٌ﴾ يزيدهم إياه. وقيل: إن ذلك المزيد: النظر إلى اللَّه -جل ثناؤه-»[(٣)].

قال السعدي: «﴿وَلَدَيْنَا﴾ فوق ذلك ﴿مَزِيدٌ﴾: أي: ثواب يمدهم به الرحمن الرحيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وأعظم ذلك وأجله وأفضله، النظر إلى وجهه الكريم، والتمتع بسماع كلامه، والتنعم بقربه، فنسأله ذلك من فضله»[(٤)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في نعيم أهل الجنة يوم المزيد

* عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: **«أتاني جبريل عليه السلام في كفه مرآةٌ بيضاء، فيها نكتةٌ سوداء فقلت: يا جبريل ما هذه؟ قال: هذه الجمعة، قلت: فما هذه النكتة السوداء فيها؟ قال: هي الساعة تقوم يوم الجمعة وهو سيد الأيام عندنا، ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيد، قلت: ولم تدعونه يوم المزيد؟ قال: إن ربك تبارك وتعالى اتخذ في الجنة واديًا أفيح من مسك أبيض، فإذا كان يوم الجمعة نزل من عليين على كرسيه، ثم حف الكرسي بمنابر من نور، ثم جاء النبيون حتى يجلسوا**

(١) يونس: الآية (٢٦).
(٢) أضواء البيان (٧/ ٦٥٤).
(٣) جامع البيان (٢٦/ ١٧٣).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٥٧).

عليها ثم تجيء أهل الجنة حتى يجلسوا على الكثب فيتجلى لهم ربهم حتى ينظروا إلى وجهه وهو يقول: أنا الذي صدقتكم عدتي، وأتممت عليكم نعمتي، فهذا محل كرامتي، فسلوني، فيسألونه الرضا، فيقول: رضاي أحلكم داري وأنالكم كرامتي، فسلوني، فيسألونه حتى تنتهي رغبتهم، فيفتح لهم عند ذلك ما لا عين رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، إلى مقدار منصرف الناس من الجمعة حتى يصعد على كرسيه فيصعد معه الصديقون والشهداء، وترجع أهل الجنة إلى غرفهم درةً بيضاء، لا نظم فيها ولا فصم، أو ياقوتةً حمراء، أو زبرجدةً خضراء، منها غرفها وأبوابها، فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى يوم الجمعة، ليزدادوا منه كرامةً، وليزدادوا نظرًا إلى وجهه، ولذلك دعي يوم المزيد»[1].

★ غريب الحديث:

نكتة سوداء: أي أثر قليل كالنقطة، شبه الوسخ في المرآة والسيف ونحوهما.

أفيح: كل موضع واسع يقال له: أفيح.

والكثيب: الرمل المستطيل المحدودب.

درة: الدرة اللؤلؤة العظيمة جمع در ودرر ودرات.

★ فوائد الحديث:

ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ من خصائص يوم الجمعة: «أنه يومٌ يتجلى اللَّه عَزَّوَجَلَّ فيه لأوليائه المؤمنين في الجنة وزيارتهم له، فيكون أقربهم منه أقربهم من الإمام، وأسبقهم إلى الزيارة أسبقهم إلى الجمعة. وروى يحيى بن يمان عن شريك عن

---

(١) أخرجه: الشافعي في «الأم» (١/ ٣٥٦-٣٥٧)، وفي المسند (صفحة ٧٠-٧١)، وابن أبي شيبة (١/ ٤٧٧-٤٧٨/ ٥٥١٧)، وابن جرير (٢٦/ ١٧٥)، وأبو يعلى (٧/ ٢٢٨-٢٢٩/ ٤٢٢٨)، والبزار (كشف ٤/ ١٩٤-١٩٦/ ٣٥١٩)، والطبراني في الأوسط (٧/ ٣٦٧-٣٦٨/ ٦٧١٣)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٤٢١) وقال: «رواه البزار والطبراني في الأوسط بنحوه وأبو يعلى باختصار، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح، وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، وقد وثقه غير واحد وضعفه غيرهم، وإسناد البزار فيه خلاف». وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ٥٥٣-٥٥٥) وقال: «رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط بإسنادين، أحدهما جيد قوي، وأبو يعلى مختصرًا ورواته رواة الصحيح، والبزار واللفظ له». وصحح إسناده البوصيري في «مختصر إتحاف السادة المهرة بزوائد المسانيد العشرة» (٢/ ٤٩٠/ ١٦٨٧).

أبي اليقظان عن أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله عز وجل: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قال: يتجلى لهم في كل جمعة»[1].

وقال أيضًا: «أعظم كرامة تحصل لهم فإنما تحصل يوم الجمعة؛ فإن فيه بعثهم إلى منازلهم وقصورهم في الجنة، وهو يوم المزيد لهم إذا دخلوا الجنة، وهو يوم عيد لهم في الدنيا، ويوم فيه يسعفهم اللَّه تعالى بطلباتهم وحوائجهم ولا يرد سائلهم»[2].

وانظر سورة يونس الآية **٢٦** ففيها زيادة تفصيل.

* * *

(١) زاد المعاد (١/ ٤٠٨).

(٢) المصدر السابق (١/ ٣٧٦).

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

قَرْن: أمة.

بطشًا: البطش: السطوة والأخذ بالعنف والشدة.

نَقَّبُوا: أي: طَوَّفُوا وسَارُوا. والتنقيب: البحث والتفتيش. قال امرؤ القيس:

لقد نقبت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

محيص: مَحِيد ومهرب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وكثيرًا أهلكنا قبل هؤلاء المشركين من قريش من القرون، ﴿هُمْ أَشَدُّ﴾ من قريش الذين كذّبوا محمدًا ﴿بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ يقول: فخَرَقوا البلاد فساروا فيها، فطافوا وتوغّلوا إلى الأقاصي منها..

وقوله: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ يقول -جل ثناؤه-: فهل كان لهم بتنقبهم في البلاد من معدل عن الموت، ومنجى من الهلاك إذ جاءهم أمرنا. وأضمرت (كان) في هذا الموضع، كما أضمرت في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾[1] بمعنى: فلم يكن لهم ناصر عند إهلاكهم»[2].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى: وكم أهلكنا قبل هؤلاء المنكرين ﴿مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾، أي: كانوا أكثر منهم وأشد قوة، وأثاروا الأرض وعَمَروها أكثر ممّا

(١) محمد: الآية (١٣).

(٢) جامع البيان (٢٦/ ١٧٦).

عَمَروها، ولهذا قال ههنا: ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾، قال ابن عباس: أثّروا فيها. وقال مجاهد: ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾: ضربوا في الأرض. وقال قتادة: فساروا في البلاد، أي: ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم أنتم فيها. ويقال لمن طوف في البلاد: نقّب فيها..

وقوله: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾، أي: هل من مفرّ كان لهم من قضاء اللَّه وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعوه وردّ عنهم عذاب اللَّه إذ جاءهم لما كذبوا الرسل؟ فأنتم أيضًا لا مفرّ لكم، ولا محيد، ولا مناص، ولا محيص»[1].

وقال ابن القيم: «خوفهم بأن يصيبهم من الهلاك ما أصاب من قبلهم، وأنهم كانوا أشدّ منهم بطشًا ولم يدفع عنهم الهلاك شدة بطشهم، وأنهم عند الهلاك تقلبوا وطافوا في البلاد وهل يجدون محيصًا ومنجىً من عذاب اللَّه. قال قتادة: حاص أعداء اللَّه، فوجدوا أمر اللَّه لهم مدركًا. وقال الزجاج: طوفوا وفتشوا، فلم يروا محيصًا من الموت. وحقيقة ذلك أنهم طلبوا المهرب من الموت، فلم يجدوه»[2].

وقال السعدي: «يقول تعالى -مخوّفًا للمشركين المكذبين للرسول-: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾، أي: أممًا كثيرة ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾، أي: قوة وآثارًا في الأرض.

ولهذا قال: ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾، أي: بنوا الحصون المنيعة، والمنازل الرفيعة، وغرسوا الأشجار، وأجروا الأنهار، وزرعوا، وعمروا، ودمروا، فلما كذبوا رسل اللَّه، وجحدوا آياته؛ أخذهم اللَّه بالعقاب الأليم، والعذاب الشديد، ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾، أي: لا مفرّ لهم من عذاب اللَّه حين نزل بهم ولا منقذ، فلم تُغنِ عنهم قوتهم، ولا أموالهم، ولا أولادهم»[3].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٨٥-٣٨٦).
(٢) الفوائد (ص: ٢٤).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٥٧-١٥٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: إن في إهلاكنا القرون التي أهلكناها من قبل قريش ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ يُتَذَكّر بها ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ يعني: لمن كان له عقل من هذه الأمة، فينتهي عن الفعل الذي كانوا يفعلونه من كفرهم بربهم؛ خوفًا من أن يحلّ بهم مثل الذي حلّ بهم من العذاب..

وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، يقول: أو أصغى لإخبارنا إياه عن هذه القرون التي أهلكناها بسمعه، فيسمع الخبر عنهم، كيف فعلنا بهم حين كفروا بربهم، وعصوا رسله، ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ يقول: وهو متفهم لما يخبر به عنهم، شاهد له بقلبه، غير غافل عنه ولا ساهٍ»(١).

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾، أي: فيما ذكرناه في هذه السورة تذكرة وموعظة ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾، أي: عقل يتدبر به؛ فكنى بالقلب عن العقل؛ لأنه موضعه؛ قال معناه مجاهد وغيره. وقيل: لمن كان له حياة ونفس مميزة؛ فعبر عن النفس الحية بالقلب؛ لأنه وطنها ومعدن حياتها.. وفي التنزيل: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾(٢)»(٣).

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾، أي: لعبرة ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾، أي: لُبّ يعي به. وقال مجاهد: عقل. ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، أي: استمع الكلام فوعاه، وتعقله بقلبه، وتفهمه بلُبّه.

وقال مجاهد: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾، يعني: لا يحدث نفسه بغيره، ﴿وَهُوَ

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٧٧).

(٢) يس: الآية (٧٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٢٣).

شَهِيدٌ﴾، وقال: شاهد بالقلب.

وقال الضحاك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه: إذا استمع بأذنيه وهو شاهد، يقول: غير غائب. وهكذا قال الثوري وغير واحد»[١].

وقال السعدي: «وأما المعرض، الذي لم يُصغِ سمعه إلى الآيات، فهذا لا تفيده شيئًا؛ لأنه لا قبول عنده، ولا تقتضي حكمة اللَّه هداية من هذا نعته»[٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ وهو يتحدث عن شروط الانتفاع بالقرآن: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه؛ فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾؛ وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفًا على مؤثر مقتضٍ، ومحلّ قابل، وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه؛ تضمنت الآية بيان ذلك كله، بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد، فقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى ههنا، وهذا هو المؤثر، وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾، فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحيّ الذي يعقل عن الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾[٣] أي: حيّ القلب، وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي: وجّه سمعه، وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثر بالكلام، وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهد القلب، حاضر غير غائب؛ قال ابن قتيبة: استمع كتاب اللَّه وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساهٍ، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب، وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله، فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر؛ حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر.

فإن قيل: إذا كان التأثير إنما يتم بمجموع هذه، فما وجه دخول أداة (أو) في

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٨٦).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٥٨).
(٣) يس الآيتان (٦٩و٧٠).

قوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾، والموضع موضع (واو) الجمع، لا موضع (أو) التي هي لأحد الشيئين؟

قيل: هذا سؤال جيد، والجواب عنه أن يقال: خرج الكلام بـ(أو) باعتبار حال المخاطب المدعو، فإن من الناس من يكون حي القلب، واعيه، تام الفطرة، فإذا فكر بقلبه وجال بفكره دله قلبه وعقله على صحة القرآن، وأنه الحق، وشهد قلبه بما أخبر به القرآن، فكان ورود القرآن على قلبه نورًا على نور الفطرة، وهذا وصف الذين قيل فيهم: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾[1]، وقال في حقهم: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[2]، فهذا نور الفطرة على نور الوحي، وهذا حال صاحب القلب الحي الواعي.

قال ابن القيم: وقد ذكرنا ما تضمنت هذه الآية من الأسرار والعبر في كتاب «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية»، فصاحب القلب يجمع بين قلبه وبين معاني القرآن فيجدها كأنها قد كتبت فيه، فهو يقرؤها عن ظهر قلب.

ومن الناس من لا يكون تام الاستعداد واعي القلب كامل الحياة، فيحتاج إلى شاهد يميز له بين الحق والباطل، ولم تبلغ حياة قلبه ونوره وزكاء فطرته مبلغ صاحب القلب الحي الواعي، فطريق حصول هدايته أن يفرغ سمعه للكلام، وقلبه لتأمله والتفكير فيه وتعقل معانيه، فيعلم حينئذ أنه الحق.

فالأول حال من رأى بعينه ما دُعي إليه وأُخبر به. والثاني حال من علم صدق المخبر وتيقنه وقال: يكفيني خبره، فهو في مقام الإيمان، والأول في مقام الإحسان. هذا قد وصل إلى علم اليقين، وترقى قلبه منه إلى منزلة عين اليقين، وذاك معه التصديق الجازم الذي خرج به من الكفر ودخل به في الإسلام. فعين اليقين نوعان: نوع في الدنيا، ونوع في الآخرة، فالحاصل في الدنيا نسبته إلى القلب كنسبة الشاهد إلى العين، وما أخبرت به الرسل من الغيب يعاين في الآخرة

---

(١) سبأ: الآية (٦).

(٢) النور: الآية (٣٥).

بالأبصار، وفي الدنيا بالبصائر، فهو عين يقين في المرتبتين»[١].

وقال أيضًا: «فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من كنوز العلم، وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدى! وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم مراعاتها! فإنه سبحانه ذكر عن آياته المتلوة المسموعة والمرئية المشهودة إنما تكون تذكرة لمن كان له قلب؛ فإن من عَدِمَ القلبَ الواعي عن اللَّه لم ينتفع بكل آية تمرّ عليه، ولو مرت به كل آية!

ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم ومرورِها على من لا بصر له، فإذا كان له قلب كان بمنزلة البصير إذا مرت به المرئيّات فإنه يراها، ولكنّ صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين:

أحدهما: أن يُحضِره ويُشهِده لما يُلقى إليه، فإذا كان غائبًا عنه، مسافرًا في الأماني والشهوات والخيالات، لا ينتفع به، فإذا أحضره وأشهده لم ينتفع إلاّ بأن يُلقي سمعَهُ ويُصغي بكلّيّته إلى ما يوعظ به ويُرشَد إليه.

وههنا ثلاثة أمور:

أحدها: سلامة القلب وصحته وقبوله.

الثاني: إحضاره وجمعه ومنعه من الشرود والتفرق.

الثالث: إلقاء السمع وإصغاؤه، والإقبال على الذكر.

فذكر اللَّه تعالى الأمور الثلاثة في هذه الآية.

قال ابن عطية: القلب هنا عبارة عن العقل؛ إذ هو محله، والمعنى: لمن كان له قلب واعٍ ينتفع به.

قال: وقال الشِّبْلي: قلب حاضر مع اللَّه لا يغفل عنه طرفة عين.

وقوله: ﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾، معناه: صَرَفَ سمعه إلى هذه الأنباء الواعظة، وأثبته في سمعه، فذلك إلقاء له عليها، ومنه قوله: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾[٢]، أي: أثبتّها عليك»[٣].

---

(١) الفوائد (ص: ٩-١٢).

(٢) طه: الآية (٣٩).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٥١٢-٥١٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لغوب: تعب وإعياء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ولقد خلقنا السموات السبع، والأرض، وما بينهما من الخلائق في ستة أيام، وما مسّنا من إعياء»[١].

وقال ابن كثير: «قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾: فيه تقرير المعاد؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يَعْيَ بخلقهن، قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأحرى.

وقال قتادة: قالت اليهود -عليهم لعائن الله-: خلق اللَّه السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل اللَّه تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾، أي: من إعياء ولا نصب ولا تعب، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾[٢]، وكما قال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[٣]، وقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾[٤]»[٥].

* * *

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٧٨).
(٢) الأحقاف: الآية (٣٣).
(٣) غافر: الآية (٥٧).
(٤) النازعات: الآية (٢٧).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٨٦).

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أمره تعالى لنبيه ﷺ بالصبر على ما يقوله الكفار والتسبيح بحمده -جل وعلا- أطراف النهار؛ قد ذكره اللَّه في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في أخريات (طه): ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾[1]، وأمره له بالتسبيح بعد أمره له بالصبر على أذى الكفار فيه دليل على أن التسبيح يعينه اللَّه به على الصبر المأمور به، والصلاة داخلة في التسبيح المذكور»[2].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: فاصبر يا محمد على ما يقول هؤلاء اليهود، وما يفترون على اللَّه، ويكذبون عليه، فإن اللَّه لهم بالمرصاد، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يقول: وصلّ بحمد ربك صلاة الصبح قبل طلوع الشمس وصلاة العصر قبل الغروب»[3].

قال ابن القيم: «أمر نبيه بالتأسي به سبحانه في الصبر على ما يقول أعداؤه فيه؛ كما أنه سبحانه صبر على قول اليهود: إنه استراح، ولا أحد أصبر على أذى يسمعه منه. ثم أمره بما يستعين به على الصبر، وهو التسبيح بحمد ربه قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، وبالليل، وأدبار السجود»[4].

وقال أيضًا: «وتأمل قوله عقيب ذلك: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، فإن أعداء الرسول -صلوات اللَّه وسلامه عليه- نسبوه إلى ما لا يليق به، وقالوا فيه ما هو منزَّه

---

(١) طه: الآية (١٣٠).

(٢) أضواء البيان (٧/ ٦٥٥).

(٣) جامع البيان (٢٦/ ١٧٩-١٨٠).

(٤) الفوائد (ص: ٢٤-٢٥).

عنه . فأمره اللَّه سبحانه أن يصبر على قولهم ، ويكون له أسوة بربه سبحانه ، حيث قال أعداؤه فيه ما لا يليق به»[١] .

قوله تعالى : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ :

قال صديق حسن خان : «أي : نزه اللَّه عما لا يليق بجنابه العالي ، متلبسًا بحمده وقت الفجر ووقت العصر ، وقيل : المراد صلاة الفجر وصلاة العصر ، قاله ابن عباس ، وقيل : الصلوات الخمس ، وقيل : صل ركعتين قبل طلوع الشمس وركعتين قبل غروبها . والأول أولى»[٢] .

قال ابن كثير : «كانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتان قبل طلوع الشمس في وقت الفجر ، وقبل الغروب في وقت العصر ، وقيام الليل كان واجبًا على النبي ﷺ وعلى أمته حولًا ، ثم نسخ في حق الأمة وجوبه ، ثم بعد ذلك نسخ اللَّه تعالى ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات ، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر ، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب»[٣] .

قال ابن القيم : «قال تعالى : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ ، وهذا تفسير ما جاء في الأحاديث : «**من قال : كذا وكذا ، حين يصبح وحين يمسي**» أن المراد به : قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، وأن محل هذه الأذكار بعد الصبح وبعد العصر»[٤] .

قال الألوسي : «﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ، أي : ما يقول المشركون في شأن البعث من الأباطيل المبنية على الاستبعاد والإنكار ، فإن من قدر على خلق العالم في تلك المدة اليسيرة بلا إعياء ؛ قادر على بعثهم والانتقام منهم ، أو على ما يقول اليهود من مقالة الكفر والتشبيه . والكلام متعلق بقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا﴾[٥] إلخ على الوجهين . .

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ، أي : نزهه تعالى عن العجز عما يمكن ، وعن وقوع الخلف في أخباره التي من جملتها الإخبار بوقوع البعث ، وعن وصفه ﷻ بما

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٤٦٦).
(٢) فتح البيان (١٣/ ١٨٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٨٦).
(٤) الوابل الصيب (ص: ٢٠٠).
(٥) ق: الآية (٣٨).

يوجب التشبيه، أو نزهه عن كل نقص، ومنه ما ذكر، حامدًا له تعالى على ما أنعم به عليك من إصابة الحق وغيرها»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التسبيح قبل طلوع الشمس وقبل غروبها

* عن جرير بن عبد اللَّه قال: «كنا جلوسًا ليلة مع النبي ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة، فقال: **إنكم سترون ربكم كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا**، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾»[2].

★ غريب الحديث:

لا تضامون: بضم أوله مخففًا، أي: لا يحصل لكم ضيم حينئذ، وروي بفتح أوله والتشديد؛ من الضم، والمراد: نفي الازدحام.

★ فوائد الحديث:

قال ابن رجب: «قوله: «**فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا**» أمر بالمحافظة على هاتين الصلاتين وهما صلاة الفجر وصلاة العصر»[3].

قال ابن بطال: «في حديث جرير فضل المبادرة والمحافظة على صلاة الصبح والعصر، وأن بذلك تنال رؤية اللَّه تعالى يوم القيامة. وإنما خصتا بالذكر والتأكيد لفضلهما باجتماع ملائكة الليل وملائكة النهار فيها، وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[4]»[5].

---

(١) روح المعاني (٢٦/ ١٩٢-١٩٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٦٥-٣٦٦)، والبخاري (٨/ ٧٦٨/ ٤٨٥١)، ومسلم (١/ ٤٣٩/ ٦٣٣)، وأبو داود (٥/ ٩٧-٩٨/ ٤٧٢٩)، والترمذي (٤/ ٥٩٢-٥٩٣/ ٢٥٥١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٠٧/ ١١٣٣٠)، وابن ماجه (١/ ٦٣/ ١٧٧).

(٣) فتح الباري (٤/ ٣٢٢-٣٢٣).

(٤) الإسراء: الآية (٧٨).

(٥) شرح صحيح البخاري (٢/ ١٩٩).

وقال ابن رجب: «فيه إشارة إلى عظم قدر هاتين الصلاتين، وأنهما أشرف الصلوات الخمس، ولهذا قيل في كل منهما: إنها الوسطى، والقول بأن الوسطى غيرهما لا تعويل عليه.

وقد قيل في مناسبة الأمر بالمحافظة على هاتين الصلاتين عقيب ذكر الرؤية: إن أعلى ما في الجنة رؤية اللَّه ﷻ، وأشرف ما في الدنيا من الأعمال هاتان الصلاتان، فالمحافظة عليهما يرجى بها دخول الجنة ورؤية اللَّه ﷻ فيها؛ كما في الحديث الآخر: «**من صلى البردين دخل الجنة**»(١)، وسيأتي -إن شاء الله- في موضعه.

وقيل: هو إشارة إلى أن دخول الجنة إنما يحصل بالصلاة مع الإيمان، فمن لا يصلي فليس بمسلم، ولا يدخل الجنة؛ بل هو من أهل النار؛ ولهذا قال أهل النار لما قيل لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾(٢).

ويظهر وجه آخر في ذلك، وهو: أن أعلى أهل الجنة منزلة من ينظر في وجه اللَّه ﷻ مرتين بكرة وعشيًا، وعموم أهل الجنة يرونه في كل جمعة في يوم المزيد، والمحافظة على هاتين الصلاتين على ميقاتهما ووضوئهما وخشوعهما وآدابهما يرجى به أن يوجب النظر إلى اللَّه ﷻ في الجنة في هذين الوقتين»(٣).

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٨٠)، والبخاري (٢/ ٦٦/ ٥٧٤)، ومسلم (١/ ٤٤٠/ ٦٣٥).

(٢) المدثر الآيتان (٤٢و٤٣).

(٣) فتح الباري (٤/ ٣٢٣-٣٢٤).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «فيه أربعة أقوال:

الأول: هو تسبيح اللَّه تعالى في الليل، قاله أبو الأحوص.

الثاني: أنها صلاة الليل كله، قاله مجاهد.

الثالث: أنها ركعتا الفجر، قاله ابن عباس.

الرابع: أنها صلاة العشاء الآخرة، قاله ابن زيد.

قال ابن العربي: من قال إنه التسبيح في الليل فيعضده الصحيح **«من تعار من الليل فقال: لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، سبحان اللَّه، والحمد لله، ولا إله إلا اللَّه، واللَّه أكبر، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم»**[1].

وأما من قال: إنها الصلاة بالليل، فإن الصلاة تسمى تسبيحا لما فيها من تسبيح اللَّه، ومنه سبحة الضحى.

وأما من قال: إنها صلاة الفجر أو العشاء فلأنهما من صلاة الليل، والعشاء أوضحه»[2].

قال الطبري: «والقول الذي قاله مجاهد في ذلك أقرب إلى الصواب، وذلك أن اللَّه -جل ثناؤه- قال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ فلم يَحُدَّ وقتا من الليل دون وقت. وإذا كان ذلك كذلك كان على جميع ساعات الليل. وإذا كان الأمر في ذلك على ما وصفنا، فهو بأن يكون أمرا بصلاة المغرب والعشاء، أشبه منه بأن يكون أمرا بصلاة

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣١٣)، والبخاري (٣/ ٤٩/ ١١٥٤)، وأبو داود (٥/ ٣٠٥/ ٥٠٦٠)، والترمذي (٥/ ٤٤٧/ ٣٤١٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢١٥/ ١٠٦٩٧)، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٦/ ٣٨٨٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٢٥).

العَتَمة، لأنهما يصلِّيان ليلا»[(١)].

قال ابن العربي: «قوله تعالى: ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه النوافل.

الثاني: أنه ذكر اللَّه بعد الصلاة؛ وهو الأقوى في النظر. وفي الحديث أن النبي ﷺ كان يقول في دبر المكتوبة: «**لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**»[(٢)]»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل التسبيح أدبار الصلوات

قال ابن عباس ﵄: «أمره أن يسبح في أدبار الصلوات كلها»[(٤)].

* عن أبي هريرة ﵁ قال: «جاء الفقراء إلى النبي ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلى والنعيم المقيم: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من أموال يحجون بها ويعتمرون، ويجاهدون ويتصدقون. قال: **ألا أحدثكم بأمر إن أخذتم به أدركتم من سبقكم، ولم يدرككم أحد بعدكم، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه، إلا من عمل مثله: تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثًا وثلاثين**، فاختلفنا بيننا: فقال بعضنا: نسبح ثلاثًا وثلاثين، ونحمد ثلاثًا وثلاثين، ونكبر أربعًا وثلاثين. فرجعت إليه، فقال: **تقول: سبحان اللَّه، والحمد لله، واللَّه أكبر، حتى يكون منهن كلهن ثلاث وثلاثون**»[(٥)].

★ **غريب الحديث:**

الدثور: بضم المهملة والمثلثة: جمع دَثْر، بفتح ثم سكون: هو المال الكثير.

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٨٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٤٥)، والبخاري (٢/ ٤١٣/ ٨٤٤)، ومسلم (١/ ٤١٤-٤١٥/ ٥٩٣)، وأبو داود (٢/ ١٧٢-١٧٣/ ١٥٠٥)، والنسائي (٣/ ٧٩-٨٠/ ١٣٤٠) كلهم من حديث المغيرة بن شعبة ﵁.

(٣) أحكام القرآن (٤/ ١٧٢٨).

(٤) أخرجه البخاري (٨/ ٧٦٨/ ٤٨٥٢).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٨)، والبخاري (٢/ ٤١٣/ ٨٤٣)، ومسلم (١/ ٤١٦-٤١٧/ ٥٩٥)، وأبو داود (٢/ ١٧٢/ ١٥٠٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٣/ ٩٩٧٤).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «في حديث هذا الباب الحض على التسبيح والتحميد في أدبار الصلوات، وأن ذلك يوازي في الفضل إنفاق المال في طاعة الله؛ لقوله: «**أفلا أخبركم بما تدركون به من كان قبلكم**»»[١].

وقال أيضًا: «وفي حديث أبي هريرة فضل الذكر بعد الصلاة، وأن ذلك من رغائب الخير، وسبيل الصالحين»[٢].

وقال القرطبي: «اتفق مساق هذا الحديث على أن أدبار الصلوات أوقات فاضلة للدعاء والأذكار، فيرتجى فيها القبول، ويبلغ ببركة التفرغ لذلك إلى كل مأمول. وتسمى هذه الأذكار معقبات؛ لأنها تقال عقيب الصلوات، كما قال في حديث أبي هريرة: «**دبر كل صلاة**» أي آخرها»[٣].

قال الحافظ: «ومقتضى الحديث أن الذكر المذكور يقال عند الفراغ من الصلاة، فلو تأخر ذلك عن الفراغ فإن كان يسيرًا بحيث لا يعد معرضًا أو كان ناسيًا أو متشاغلًا بما ورد أيضًا بعد الصلاة كآية الكرسي فلا يضر. وظاهر قوله: «**كل صلاة**» يشمل الفرض والنفل، لكن حمله أكثر العلماء على الفرض، وقد وقع في حديث كعب بن عجرة عند مسلم التقييد بالمكتوبة، وكأنهم حملوا المطلقات عليها»[٤].

* * *

---

(١) شرح صحيح البخاري (١٠/ ٩٤).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٤٥٨).

(٣) المفهم (٢/ ٢١٥).

(٤) فتح الباري (٢/ ٤١٧).

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝٤٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واستمع يا محمد صيحة يوم القيامة، يوم ينادي بها منادينا من موضع قريب..

وقوله: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ يقول تعالى ذكره: يوم يسمع الخلائق صيحة البعث من القبور ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، يعني بالأمر بالإجابة لله إلى موقف الحساب.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ يقول تعالى ذكره: يوم خروج أهل القبور من قبورهم»[1].

قال ابن كثير: «﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾، يعني النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾، أي: من الأجداث»[2].

وقال السعدي: «﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ من القبور، الذي انفرد به القادر على كل شيء»[3].

قال القاسمي: «وفي ورود الأمر مطلقًا ثم تبيينه بما بعده؛ تهويل وتعظيم للمخبر به؛ لما في الإبهام ثم التفسير من التهويل والتفخيم لشأن المحدث عنه»[4].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٨٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٨٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٥٩).

(٤) محاسن التأويل (١٥/ ١٨٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾

★ غريب الآية:

سِرَاعًا: أي: مسرعين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إنا نحن نُحيي الموتى ونميت الأحياء، وإلينا مصير جميعهم يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ﴾ يقول -جل ثناؤه-: وإلينا مصيرهم يوم تشقَّق الأرض، فـ(اليوم) من صلة (مصير).

وقوله: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ يقول: تصدّع الأرض عنهم. وقوله: ﴿سِرَاعًاۚ﴾، ونُصبت ﴿سِرَاعًاۚ﴾ على الحال من (الهاء والميم) في قوله: ﴿عَنْهُمْ﴾. والمعنى: يوم تشقَّق الأرض عنهم فيخرجون منها سراعًا، فاكتفى بدلالة قوله: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ على ذلك من ذكره.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ يقول: جمعهم ذلك جمع في موقف الحساب، علينا يسير سهل»[1].

وقال ابن كثير: «﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾، أي: هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه، وإليه مصير الخلائق كلهم، فيجازي كلاً بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ.

وقوله: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ﴾، وذلك أن اللَّه تعالى ينزل مطرًا من السماء تنبت به أجساد الخلائق في قبورها، كما ينبت الحب في الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر اللَّه إسرافيل[2] فينفخ في الصور. وتنشقّ الأرض عنهم،

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٨٤).

(٢) لم يصح حديث مرفوع إلى المعصوم ﷺ، فيه تسمية صاحب الصور بإسرافيل، وقد سبق التنبيه على ذلك في سورة (الزمر) عند: الآية (٦٨)، وباللَّه التوفيق.

فيقومون إلى موقف الحساب سراعًا مبادرين إلى أمر الله ﷻ، ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾[(١)]، وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾[(٢)]، وفي صحيح مسلم عن أنس[(٣)] قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا أول من تنشقّ عنه الأرض**».

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾، أي: تلك إعادة سهلة علينا، يسيرة لدينا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٢٨﴾[(٥)]»[(٦)].

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿سِرَاعًا﴾: جمع سريع، وهو حال من الضمير المجرور في قوله: ﴿عَنْهُمْ﴾، أي: تشقق الأرض عنهم في حال كونهم مسرعين إلى الداعي، وهو الملك الذي ينفخ في الصور، ويدعو الناس إلى الحساب والجزاء.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الناس يوم البعث يخرجون من قبورهم مسرعين إلى المحشر قاصدين نحو الداعي؛ جاء موضحًا في آيات أخر من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣﴾[(٧)]، وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١﴾[(٨)]، وقوله: ﴿يَنسِلُونَ﴾ أي: يسرعون، وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾[(٩)] الآية، فقوله: ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين مادّي أعناقهم على الأصحّ، وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة (يس) في الكلام على قوله: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾»[(١٠)].

قال ابن القيم: «ختم السورة بذكر المعاد ونداء المنادي برجوع الأرواح إلى أجسادها للحشر. وأخبر أن هذا النداء من مكان قريب يسمعه كل أحد ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ

---

(١) القمر: الآية (٨). (٢) الإسراء: الآية (٥٢).

(٣) الذي في صحيح مسلم حديث أبي هريرة، وسيأتي لفظه وتخريجه قريبًا إن شاء الله.

(٤) القمر: الآية (٥٠). (٥) لقمان: الآية (٢٨).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٨٨-٣٨٩).

(٧) المعارج: الآية (٤٣). (٨) يس: الآية (٥١).

(٩) القمر الآيتان (٧و٨).

(١٠) أضواء البيان (٧/ ٦٥٥-٦٥٦).

﴿ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّ﴾ بالبعث ولقاء اللَّه ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ﴾ كما تشقق عن النبات، فيخرجون ﴿سِرَاعٗا﴾ من غير مهلة ولا بطء، ذلك حشر يسير عليه سبحانه»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات الحشر والنشر وأن نبينا ﷺ أول من تنشق عنه الأرض

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

«**أول من ينشق عنه القبر**» قال القرطبي: «يعني به يحيا بعد موته، وهو الذي عبر عنه في الرواية الأخرى بـ«أفيق» وإن كان المعروف أن الإفاقة إنما هي من الغشية، والبعث من الموت، لكنهما لتقارب معناهما أطلق أحدهما مكان الآخر، ويحتمل أن يراد بالبعث الإفاقة»[٣].

وقال: «يعني أنه أول من يعجل إحياؤه مبالغة في إكرامه وتخصيصًا له بتعجيل جزيل إنعامه، ويعارض هذا قوله ﷺ في حديث آخر أنه أول من يبعث فيجد موسى متعلقًا بساق العرش»[٤].

وقد تقدم التوفيق بين هذا عند قوله تعالى من سورة (الزمر): ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآية (٦٨).

* * *

(١) الفوائد (ص: ٢٥).
(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٤٠)، ومسلم (٤/ ١٧٨٢/ ٢٢٧٨)، وأبو داود (٥/ ٥٤/ ٤٦٧٣).
(٣) المفهم (٦/ ٢٣٢).
(٤) المفهم (٦/ ٤٨-٤٩).

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: نحن -يا محمد- أعلم بما يقول هؤلاء المشركون باللَّه من فريتهم على اللَّه، وتكذيبهم بآياته، وإنكارهم قدرة اللَّه على البعث بعد الموت، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ يقول: وما أنت عليهم بمسلط.. قال الفرّاء: وضع الجبار في موضع السلطان من الجبرية؛ وقال: أنشدني المفضل:

وَيَوْمَ الحَزْنِ إذْ حَشَدَتْ مَعَدّ   وكانَ النَّاسُ إلا نَحْنُ دِينا
عَصَيْنا عَزْمَةَ الجَبَّارِ حَتَّى   صَبَحْنا الجَوْفَ ألْفا مُعْلَمِينا

ويروى: (الجوف) وقال: أراد بالجبار: المنذر لوَلايته.

قال: وقيل: إن معنى قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ لم تُبعث لتجْبُرَهم على الإسلام، إنما بعثت مذكِّرًا، فذكِّر. وقال: العرب لا تقول: (فعّال) من أفعلت، لا يقولون: هذا خرّاج، يريدون: مُخْرِج، ولا يقولون: دخّال، يريدون: مُدْخِل، إنما يقولون: فعّال، من فعّلت؛ ويقولون: خرّاج، من خرّجت؛ ودخّال: من دخّلت؛ وقتّال، من قتّلت. قال: وقد قالت العرب في حرف واحد: درّاك، من أدركت، وهو شاذّ.

قال: فإن قلت: الجبّار على هذا المعنى، فهو وجه. قال: وقد سمعت بعض العرب يقول: جبّره على الأمر، يريد: أجبره، فالجبّار من هذه اللغة صحيح، يراد به: يقهرهم ويجبرهم.

وقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فذكر يا محمد بهذا القرآن الذي أنزلته إليك من يخاف الوعيد الذي أوعدته من عصاني وخالف أمري»[1].

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٨٤-١٨٥).

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾، أي: نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يَهيدنَّك ذلك، كقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ۝٩٨ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ۝٩٩﴾[(١)].

وقوله: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾، أي: ولست بالذي تجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك مما كلفت به.

وقال مجاهد، وقتادة، والضحاك: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾، أي: لا تتجبّر عليهم.

والقول الأول أولى، ولو أراد ما قالوه لقال: ولا تكن جبارًا عليهم، وإنما قال: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾، بمعنى: وما أنت بمجبرهم على الإيمان؛ إنما أنت مبلغ..

ثم قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾، أي: بلغ أنت رسالة ربك، فإنما يتذكر من يخاف اللَّه ووعيده ويرجو وعده، كقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾[(٣)]، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[(٤)]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[(٥)]، ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾. كان قتادة يقول: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك، يا بارّ، يا رحيم»[(٦)].

وقال الشوكاني: «عزّى اللَّه سبحانه نبيه ﷺ فقال: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ يعني من تكذيبك فيما جئت به ومن إنكار البعث والتوحيد، ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي: بمسلط يجبرهم ويقهرهم على الإيمان، والآية منسوخة بآية السيف، ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: من يخاف وعيدي لعصاتي بالعذاب، وأما من عداهم فلا تشتغل بهم، ثم أمره اللَّه سبحانه بعد ذلك بالقتال»[(٧)].

---

(١) الحجر الآيات (٩٧-٩٩).
(٢) الرعد: الآية (٤٠).
(٣) الغاشية الآيتان (٢١و٢٢).
(٤) البقرة: الآية (٢٧٢).
(٥) القصص: الآية (٥٦).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٨٩).
(٧) فتح القدير (٥/ ١١٥).

وقال ابن القيم: «أخبر سبحانه أنه عالم بما يقول أعداؤه، وذلك يتضمن مجازاته لهم بقولهم إذ لم يخفَ عليه، وهو سبحانه يذكر علمه وقدرته لتحقيق الجزاء.

ثم أخبره أنه ليس بمسلّط عليهم ولا قهّار ولم يُبعث ليجبرهم على الإسلام ويُكرههم عليه، وأمره أن يذكر بكلامه من يخاف وعيده، فهو الذي ينتفع بالتذكير. وأما من لا يؤمن بلقائه ولا يخاف وعيده ولا يرجو ثوابه، فلا ينتفع بالتذكير»[١].

قال السعدي: «والتذكير هو تذكير بما تقرر في العقول والفطر، من محبة الخير وإيثاره وفعله، ومن بغض الشر ومجانبته، وإنما يتذكر بالتذكير من يخاف وعيد اللّه، وأما من لم يخف الوعيد ولم يؤمن به، فهذا فائدة تذكيره إقامة الحجة عليه؛ لئلاّ يقول: ما جاءنا من بشير ولا نذير»[٢].

قال عبد الكريم الخطيب: «وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ هو بيان لمقام النبي من دعوته، وأسلوبه في الدعوة إليها: التذكير بالقرآن، وذلك بتلاوته على الناس جميعا. كما يقول له الحق ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾[٣]..

وفي اختصاص الذين يخافون وعيد اللّه بتلاوة القرآن عليهم، وتذكيرهم بما فيه من زواجر، مع أن الرسول مطالب بأن يتلو القرآن على الناس كلهم، وأن يذكّرهم بزواجره في هذا إشارة إلى أن الذين من شأنهم أن يخافوا وعيد اللّه إذا استمعوا إليه، هم الذين ينتفعون بهذا القرآن، وأمّا سواهم الذين لا يسمعون، ولا يعقلون، فهم همل ضال ضائع، لا حساب له في هذا المقام.. كما يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾[٥]..»[٦].

* * *

(١) الفوائد (ص: ٢٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٦٠).

(٣) النمل الآيتان (٩١و٩٢).

(٤) فاطر: الآية (١٨).

(٥) النازعات: الآية (٤٥).

(٦) التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٤٩٨-٤٩٩).



سورة الذاريات

قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ۝٦﴾

★ غريب الآية:

الذاريات: الرياح. سميت بذلك لأنها تذرو التراب فتفرقه.

الحاملات وقرًا: السحب المثقلة بماء المطر.

الجاريات يسرًا: السفن التي تجري في البحر بسهولة ويسر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «هذا قسم من اللَّه الصادق في قيله بهذه المخلوقات العظيمة التي جعل اللَّه فيها من المصالح والمنافع ما جعل، على أن وعده صدق، وأن الدين الذي هو يوم الجزاء والمحاسبة على الأعمال، لواقع لا محالة، ما له من دافع. فإذا أخبر به الصادق العظيم وأقسم عليه، وأقام الأدلة والبراهين عليه، فلم يكذب به المكذبون، ويعرض عن العمل له العاملون؟»[1].

قال ابن كثير: «فأما الجاريات يسرًا، فالمشهور عن الجمهور -كما تقدم-: أنها السفن، تجري ميسرة في الماء جريًا سهلًا. وقال بعضهم: هي النجوم تجري

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٦١).

يسرا في أفلاكها، ليكون ذلك ترقيا من الأدنى إلى الأعلى، إلى ما هو أعلى منه، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمرا الملائكة فوق ذلك، تنزل بأوامر اللَّه الشرعية والكونية. وهذا قسم من اللَّه عز جل على وقوع المعاد؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝﴾ أي: لخبر صدق، ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ﴾، وهو: الحساب ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ أي: لكائن لا محالة»[1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أقسم بالذاريات؛ وهي الرياح تذرو المطر وتذرو التراب وتذرو النبات إذا تهشم، كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾[2] أي: تفرقه وتنشره، ثم بما فوقها وهي السحاب الحاملات وقرا، أي: ثقلا من الماء، وهي زوايا الأرض يسوقها اللَّه سبحانه على متون السحاب الرياح، كما في جامع الترمذي من حديث الحسن عن أبي هريرة قال: بينما نبي اللَّه ﷺ جالس في أصحابه إذا أتى عليهم سحاب، فقال نبي اللَّه ﷺ: «**هل تدرون ما هذا؟**» قالوا: اللَّه ورسوله أعلم قال: «**هذا العنان، هذه زوايا الأرض يسوقها اللَّه -تبارك وتعالى- إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه**»[3].

ثم أقسم سبحانه بما فوق ذلك وهي (الجاريات يسرًا) وهي النجوم التي من فوق الغمام و﴿يُسْرًا﴾ أي: مسخرة مذللة منقادة. وقال جماعة من المفسرين: إنها السفن تجري ميسرة في الماء جريا سهلا، ومنهم من لم يذكر غيره، واختار شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ القول الأول، وقال: هو أحسن في الترتيب والانتقال من السافل إلى العالي، فإنه بدأ بالرياح، وفوقها السحاب، وفوقه النجوم، وفوقها الملائكة المقسمات أمر اللَّه الذي أمرت به بين خلقه، والصحيح أن (المقسّمات أمرًا) لا تختص بأربعة، وقيل هم: جبريل يقسم الوحي والعذاب وأنواع العقوبة على من خالف الرسل، وميكائيل على القطر والبرد والثلج والنبات، يقسمها بأمر اللَّه، وملك الموت يقسم المنايا بين الخلق بأمر اللَّه، وإسرافيل يقسم الأرواح على أبدانها عند النفخ في الصور، وهم المدبرات أمرا، وليس في اللفظ ما يدل على الاختصاص بهم، واللَّه أعلم.

وأقسم سبحانه بهذه الأمور الأربعة لمكان العبرة والآية والدلالة الباهرة على

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٩١).
(٢) الكهف: الآية (٤٥).
(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٠)، والترمذي (٥/ ١٧٦-١٧٧/ ٣٢٩٨)، وقال: «غريب من هذا الوجه».

ربوبيته ووحدانيته وعظم قدرته، ففي الرياح من العبر هبوبها وسكونها، ولينها وشدتها، واختلاف طبائعها وصفاتها، ومهابها وتصريفها، وتنوع منافعها وشدة الحاجة إليها، فللمطر خمسة رياح: ريح ينشر سحابه، وريح يؤلف بينه، وريح تلقحه، وريح تسوقه حيث يريد اللَّه، وريح تذرو أمامه وتفرقه، وللنبات ريح، وللسفن ريح، وللرحمة ريح، وللعذاب ريح، إلى غير ذلك من أنواع الرياح، وذلك يقضي بوجود خالق مصرف لها مدبر لها يصرفها كيف شاء، ويجعلها رخاء تارة، ورحمة تارة، وعذابا تارة، فتارة يحيي بها الزرع والثمار، وتارة يغطيها بها، وتارة ينحي بها السفن، وتارة يهلكها بها، وتارة ترطب الأبدان، وتارة تذيبها، وتارة عقيما، وتارة لاقحة، وتارة جنوبا، وتارة دبورا، وتارة صبا، وتارة شمالا، وتارة حارة، وتارة باردة، وهي مع غاية قوتها ألطف شيء، وأقبل المخلوقات لكل كيفية سريعة، التأثر والتأثير، لطيفة المسارق بين السماء والأرض، إذا قطع عن الحيوان الذي على وجه الأرض هلك، كبحر الماء الذي إذا فارقه حيوان الماء هلك، يحبسها اللَّه سبحانه إذا شاء، ويرسلها إذا شاء، تحمل الأصوات إلى الآذان، والرائحة إلى الأنف، والسحاب إلى الأرض الجرز، وهي من روح اللَّه تأتي بالرحمة، ومن عقوبته تأتي بالعذاب، وهي أقوى خلق اللَّه كما رواه الترمذي في جامعه من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «**لما خلق اللَّه الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال فقال بها عليها فاستقرت، فعجبت الملائكة من شدة الجبال وقالوا: يارب هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم الحديد، قالوا: يارب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم، النار، قالوا: يارب فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال، نعم، الماء قالوا: يارب فهل من خلقك أشد من الماء؟ قال: نعم الريح، قالوا: يارب، فهل من خلقك أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم تصدق بصدقة بيمينه يخفيها عن شماله**»[1] ورواه الإمام أحمد في مسنده، وفي الترمذي في حديث قصة عاد أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر حلقة الخاتم[2]، فلم تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، وقد وصفها اللَّه بأنها

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٢٤)، والترمذي (٢٣-٤٢٤/ ٣٣٦٩) وقال: «حديث حسن غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه»، وانظر ضعيف الترغيب والترهيب رقم (٥٢٩).

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه: أحمد (٥/ ٤٨٢)، والترمذي (٥/ ٣٦٤-٣٦٥/ ٣٢٧٣)، ورواه النسائي في الكبرى (٥/ ١٨١/ ٨٦٠٧)، وابن ماجه (٢/ ٩٤١/ ٢٨١٦) مختصرًا.

عاتية، قال البخاري في صحيحه: عتت على الخزنة فلم يستطيعوا أن يردوها. والمقصود أن الرياح أعظم آيات الرب الدالة على عظمته وربوبيته وقدرته.

ثم أقسم بالسحاب وهو من أعظم آيات اللّه في الجو في غاية الخفة، ثم يحمل الماء والبرد فيصير أثقل شيء، فيأمر الرياح فتحمله على متونهما وتسير به حيث أمرت، فهو مسخر بين السماء والأرض، حامل لأرزاق العباد والحيوان، فإذا أفرغه حيث أمر به اضمحل وتلاشى بقدرة اللّه، فإنه لو بقي لأضر النبات والحيوان، فأنشأه سبحانه في زمن يصلح إنشاؤه فيه، وحمله من الماء ما يحمله، وساقه إلى بلد شديد الحاجة إليه.

فسل السحاب من أنشأه بعد عدمه؟ وحمله الماء والثلج والبرد؟ ومن حمله على ظهور الرياح؟ ومن أمسكه بين السماء والأرض بغير عماد؟ ومن أغاث بقطره العباد، وأحيا به البلاد، وصرفه بين خلقه كما أراد، وأخرج ذلك القطر بقدر معلوم، وأنزله منه وأفناه بعد الاستغناء عنه، ولو شاء لأدامه عليهم فلم يستطيعوا إلى دفعه سبيلا، ولو شاء لأمسكه عنهم فلا يجدون إليه وصولا، فإن لم يجبك جوابا أجابك اعتبار مرسل الرياح من أنشأها بقدرته؟ وصرفها بحكمته، وسخرها بمشيئته، وأرسلها بشرا بين يدي رحمته، جعلها سببا لتمام نعمته، وسلطانا على من شاء بعقوبته؟ ومن جعلها رخاء وذراية ولاقحة ومثيرة ومؤلفة ومغذية لأبدان الحيوان والشجر والنبات، وجعلها قاصفا وعاصفا ومهلكة وعاتية؟ إلى غير ذلك من صفاتها، فهل ذلك لها من نفسها وذاتها، أم تدبير مدبر شهدت الموجودات بربوبيته، وأقرت المصنوعات بوحدانيته، بيده النفع والضر، وله الخلق والأمر، تبارك اللّه رب العالمين؟

وسل الجاريات يسرا من السفن: من أمسكها على وجه الماء، وسخر لها البحر؟ ومن أرسل لها الرياح التي تسوقها على الماء سوق السحاب على متون الرياح؟ ومن حفظها في مجراها ومرساها من طغيان الماء وطغيان الريح؟ فمن الذي جعل الريح لها بقدر لو زاد عليها لأغرقها، ولو نقص عنه لعاقها؟ ومن الذي أجرى لها ريحا واحدة تسير بها، ولم يسلط على تلك الريح ما يصادمها ويقاومها، فتتموج في البحر يمينا وشمالا تتلاعب بها الريح؟ ومن الذي علم الخلق الضعيف صنعة هذا البيت العظيم الذي يمشي على الماء، فيقطع المسافة البعيدة، ويعود إلى

بلده يشق الماء ويمخره مقبلا ومدبرا بريح واحدة تجري في موج كالجبال ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٣٢ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣٣ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾[1] ومن الذي حمل في هذا البيت نبيه وأولياءه خاصة، وأغرق جميع أهل الأرض سواهم؟

وسل الجاريات يسرا من الكواكب والشمس والقمر: من الذي خلقها وأحسن خلقها، ورفع مكانها وزين بها قبة العالم، وفاوت بين أشكالها ومقاديرها، وألوانها وحركاتها، وأماكنها من السماء، فمنها الكبير ومنها الصغير والمتوسط، والأبيض والأحمر، والزجاجي اللون والدري اللون، والمتوسط في قبة الفلك والمتطرف في جوانبها وبين ذلك؟ ومنها ما يقطع الفلك في شهر، ومنها ما يقطعه في عام، ومنها ما يقطعه في ثلاثين عاما، ومنها ما يقطعه في أضعاف ذلك، ومنها ما لا يزال ظاهرا لا يغيب بحال فهو أبدي، ومنها أبدي الخفاء، ومنها ما له حالتان ظهور واختفاء، ومنها ما له حركتان: حركة عرضية من المشرق إلى المغرب، وحركة ذاتية من المغرب إلى المشرق، فحالما يأخذ الكوكب في الغروب فإذا كوكب آخر في مقابلته، وكوكب آخر قد طلع وهو آخذ في الارتفاع والتصاعد، وكوكب آخر في الربع الشرقي، وكوكب آخر في وسط السماء، وكوكب آخر قد مال عن الوسط، وآخر قد دنا من الغروب، وكأنه رقيبه ينتظر بطلوعه غيبته.

وأنت إذا تأملت أحوال هذه الكواكب وجدتها تدل على المعاد كما تدل على المبدأ، وتدل على وجود الخالق وصفات كماله، وربوبيته وحكمته ووحدانيته أعظم دلالة، وكل ما دل على صفات جلاله ونعوت كماله دل على صدق رسله، فكما جعل اللّٰه النجوم هداية في طريق البر والبحر فهي هداية في طرق العلم بالخالق سبحانه، وقدرته وعلمه وحكمته، والمبدأ والمعاد والنبوة، ودلالتها على هذه المطالب لا تقتصر عن دلالتها على طرق البر والبحر؛ بل دلالتها للعقول على ذلك أظهر من دلالتها على الطرق الحسية، فهي هداية في هذا وهذا.

وأما دلالة ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾: وهم الملائكة؛ فلأن ما يشاهد من تدبير العالم العلوي والسفلي ومالا يشاهد إنما هو على أيدي الملائكة، فالرب تعالى

---

(١) الشورى: الآيات (٣٢-٣٤).

يدبر بهم أمر العالم، وقد وكل بكل عمل من الأعمال طائفة منهم، فوكل بالشمس والقمر والنجوم والأفلاك طائفة منهم، ووكل بالقطر والسحاب طائفة، ووكل بالنبات طائفة، ووكل بالأجنة والحيوان طائفة، ووكل بالموت طائفة، وبحفظ بني آدم طائفة، وبإحصاء أعمالهم وكتابتها طائفة، وبالوحي طائفة، وبالجبال طائفة، وبكل شأن من شؤون العالم طائفة، هذا مع ما في خلق الملائكة من البهاء والحسن، وما فيهم من القوة والشدة، ولطافة الجسم، وحسن الخلقة، وكمال الانقياد لأمره، والقيام في خدمته، وتنفيذ أوامره في أقطار العالم.

ثم أقسم سبحانه بهذه الأمور على صدق وعده، ووقوع جزائه بالثواب والعقاب فقال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾ أي: ما توعدون من أمر الساعة والثواب والعقاب لحق كائن، وهو وعد صدق لا كذب ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾ أي: إن الجزاء لكائن لا محالة، ويجوز أن تكون (ما) موصولة والعائد محذوف، والمعنى: أن الذي توعدونه لصادق أي: كائن وثابت، وأن تكون مصدرية أي: إن وعدكم لحق وصدق.

ووصف الوعد بكونه صادقا أبلغ من وصفه بكونه صدقا، ولا حاجة إلى تكلف جعله بمعنى مصدوق فيه؛ بل هو صادق نفسه كما يوصف المتكلم بأنه صادق في كلامه، فوصف كلامه بأنه صادق، وهذا مثل قولهم: سر كاتم، وليل قائم، ونهار صائم، وماء دافق، ومنه: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[1]، وليس ذلك بمجاز ولا مخالف لمقتضى التركيب، وإذا تأملت هذا التناسب والارتباط بين المقسم به والمقسم عليه وجدته دالًّا عليه مرشدًا إليه»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآيات

* عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «قام على المنبر فقال: سلوني قبل أن لا تسألوني ولن تسألوا بعدي مثلي؛ قال: فقام ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين ما ﴿الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١﴾؟ قال: الرياح، قال: فما ﴿الحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢﴾؟ قال:

---

(١) القارعة: الآية (٧).

(٢) التبيان (ص: ١٦٨-١٧٢).

السحاب، قال: فما ﴿الجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣﴾؟ قال: السفن، قال: فما ﴿المُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤﴾؟ قال: الملائكة، قال: فمن ﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ﴾[1] قال: منافقو قريش»[2].

★ **فوائد الحديث:**

الحديث تفسير وبيان لمعنى الآيات، وهذا الذي فسر به علي رضي الله عنه الآيات هو الذي فسر به عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهكذا فسرها ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم، ومجاهد وسعيد بن جبير، والحسن وقتادة والسدي وغير واحد، ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم غير ذلك كما أفاده الحافظ ابن كثير[3].

* * *

---

(١) إبراهيم الآيتان (٢٨و٢٩).

(٢) أخرجه: عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ١٤٢-٢٤٢)، وابن جرير (٢٦/ ٦٨١)، وصححه الحاكم (٢/ ٦٦٤-٧٦٤) ووافقه الذهبي.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٩٠-٣٩١).

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الحبك: الطرائق، جمع حبيكة، أصلها من الحَبْكِ، وهو الإحكام والشد. وشيء محبوك، أي: محكم متقن.

الخراصون: جمع خَرَّاص، وهو الكذاب.

غمرة: الغمرة: ما ستر الشيء وغَطَّاهُ. والمراد: عماية وغفلة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «ثم أقسم سبحانه بالسماء ذات الحبك، أصل الحبك في اللغة إجادة النسج، يقال: حبك الثوب إذا أجاد نسجه، وحبل محبوك إذا كان شديد الفتل، وفرس محبوك الكفل، أي: مدمجه، وقال شمر: المحبوك في اللغة ما أجيد عمله، ودابة محبوكة: إذا كانت مدمجة الخلق، وقال أبو عبيدة والمبرد: الحبك: الطريق واحدها حباك، وحباك الحمام: طرائق على جناحيه، وحبك الماء: طريقه، وقال الفراء: الحبك تكسير كل شيء كالرمل إذا مرت به الريح، والماء الدائم إذا مرت به الريح، وتجعد الشعر حبك أيضا، واحدها حبيكة، مثل طرق وطريقة، وحباك مثل مثال ومثل، والمقصود بهذا كله ما أفصح به ابن عباس فقال: يريد الخلق الحسن.

وروى سعيد بن جبير عنه قال: الحبك حسنها واستواؤها، وقال قتادة: ذات الخلق الشديد، وقال مجاهد: متقنة البنيان، وقال أيضًا: ذات الطرائق ولكنها

بعيدة من العباد فلا يرونها كحبك الماء إذا ضربته الريح، وكحبك الرمل، وكحبك الشعر، وقال عكرمة: بنيانها كالبرد المسلسل.

قلت: وفي الحديث في صفة الدجال «**ورأسه حبك**»[(١)] أي: جعد الشعر، ومن أحسن ما قيل في تفسير الحبك ما ذكره الترمذي في تفسير الجامع من حديث الحسن عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**هل تدرون ما فوقكم؟** قالوا: اللَّه ورسوله أعلم، قال: **فإنها الرقيع سقف محفوظ وموج مكفوف**»[(٢)] وذكر الحديث.

ثم ذكر المقسم عليه فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ فالقول المختلف أقوالهم في القرآن وفي النبي ﷺ وهو خرص كله، فإنهم لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبهم وآراؤهم وطرائقهم وأقوالهم، فإن الحق شيء واحد وطريق مستقيم، فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾[(٣)] أي: مختلط ملتبس، وفي ضمن هذا الجواب: إنكم في أقوال باطلة متناقضة يكذب بعضها بعضا بسبب تكذيبهم بالحق.

ثم أخبر سبحانه أنه يصرف بسبب ذلك القول المختلف من صرف، فـ(عن) هاهنا فيها طرف من معنى التسبيب كقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾[(٤)].

وقوله: ﴿مَنْ أُفِكَ﴾ أي: من سبق في علم اللَّه أنه يضل ويؤفك كقوله: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦٣﴾[(٥)].

وقالت طائفة: الضمير يرجع إلى القرآن، وقيل: إلى الإيمان، وقيل: إلى الرسول، والمعنى: يصرف عنه من صرف حتى يكذب به.

ولما كان هذا القول المختلف خرصًا وباطلًا قال: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠﴾ أي: المكذبون ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١﴾ وجهالة قد غمرت قلوبهم، أي: غطتها

---

(١) جزء من حديث أخرجه: أحمد (٤/ ٢٠)، والطبراني كما في المجمع (٧/ ٣٤٣) كلاهما من حديث هشام بن عامر قال الهيثمي: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ورواه الطبراني».

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٠)، والترمذي (٥/ ٣٧٦-٣٧٧/ ٣٢٩٨)، وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه»، كلاهما من طريق قتادة عن الحسن عن أبي هريرة.

(٣) ق: الآية (٥).

(٤) هود: الآية (٥٣).

(٥) الصافات الآيات (١٦١-١٦٣).

وغشتها كغمرة الماء وغمرة الموت، فالغمرات ما غطاها من جهل أو هوى أو سكر أو غفلة أو حب أو بغض أو خوف أو غم ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾[١]، أي: غفلة، وقيل: جهالة. ثم وصفهم بأنهم ساهون في غمرتهم، والسهو: الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه، والفرق بينه وبين النسيان أن النسيان الغفلة بعد الذكر والمعرفة، والسهو لا يستلزم ذلك.

ثم قال: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾﴾ استبعادا للوقوع وجحدا، فأخبر تعالى أن ذلك ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾، والمشهور في تفسير هذا الحرف أنه بمعنى يحرقون، ولكن لفظة ﴿عَلَى﴾ تعطي معنى زائدا على ما ذكروه، ولو كان المراد نفس الحرق لقيل: يومهم في النار يفتنون، ولهذا لما علم هؤلاء ذلك قال كثير منهم: (على) بمعنى (في) كما تكون (في) بمعنى (على)، والظاهر أن فتنتهم على النار، قيل: فتنتهم فيها لهم عند عرضهم عليها، ووقوفهم عليها فتنة، وعند دخولهم والتعذيب بها فتنة أشد منها، ومن جعل الفتنة هاهنا من الحريق أخذه من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾[٢]، واستشهد على ذلك أيضا بهذه اللفظة التي في الذاريات، وحقيقة الأمر: أن الفتنة تطلق على العذاب وسببه، ولهذا سمى الله الكفر فتنة، فهم لما أتوا بالفتنة، التي هي أسباب العذاب في الدنيا، سمى جزاءهم فتنة، ولهذا قال: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ وكان وقوفهم على النار وعرضهم عليها من أعظم فتنتهم، وآخر هذه الفتنة دخول النار والتعذيب بها، ففتنوا أولا بأسباب الدنيا وزينتها، ثم فتنوا بإرسال الرسل إليهم، ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم، ثم فتنوا بعذاب الدنيا، ثم فتنوا بعذاب الموت، ثم يفتنون في موقف القيامة، ثم إذا حشروا إلى النار ووقفوا عليها وعرضوا عليها وذلك من أعظم فتنتهم، ثم الفتنة الكبرى التي أنستهم جميع الفتن قبلها.

ثم ذكر سبحانه جزاء من خلص من هذه الفتن بالتقوى؛ وهو الجنات والعيون، وأنهم ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ من الخير والكرامة.

وفي ذلك دليل على أمور: منها: قبولهم له، ومنها: رضاهم به، ومنها:

---

(١) المؤمنون: الآية (٦٣).

(٢) البروج: الآية (١٠).

وصولهم إليه بلا مانع ولا عائق، ومنها: أن جزاءهم من جنس أعمالهم، فكما أخذوا ما أمرهم به في الدنيا وقابلوه بالرضا والتسليم وانشراح الصدر، أخذوا ما آتاهم من الجزاء كذلك، ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك؛ وهو إحسانهم المتضمن لعبادته وحده لا شريك له، والقيام بحقوقه وحقوق عباده»[1].

* * *

(١) التبيان (ص: ١٧٢-١٧٤).

قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يهجعون: ينامون، والهجوع: النوم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ قال بعضهم: معناه: كانوا قليلًا من الليل لا يهجعون، وقالوا: (ما) بمعنى الجحد..

وقال آخرون: بل معنى ذلك: كانوا قليلًا من الليل يهجعون، ووجهوا (ما) التي في قوله: ﴿مَا يَهْجَعُونَ﴾ إلى أنها صلة..

وقال آخرون: بل معنى ذلك: كانوا يصلون العتمة، وعلى هذا التأويل (ما) في معنى الجحد..

وقال آخرون: بل معنى ذلك: كان هؤلاء المحسنون قبل أن تفرض عليهم الفرائض قليلًا من الناس، وقالوا: الكلام بعد قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا﴾ مستأنف بقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، فالواجب أن تكون (ما) على هذا التأويل بمعنى الجحد»[1].

ثم قال: «وأولى الأقوال بالصحة في تأويل قوله: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ قول من قال: كانوا قليلًا من الليل هجوعهم؛ لأن اللَّه -تبارك وتعالى- وصفهم بذلك مدحًا لهم، وأثنى عليهم به، فوصفهم بكثرة العمل، وسهر الليل، ومكابدته فيما يقربهم منه ويرضيه عنهم أولى وأشبه من وصفهم من قلة العمل وكثرة النوم، مع أن الذي اخترنا في ذلك هو أغلب المعاني على ظاهر التنزيل»[2].

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ١٩٦-١٩٨).

(٢) جامع البيان (٢٦/ ٢٠٠).

قال ابن القيم: «ذكر ليلهم وأنهم قليل هجوعهم منه، وقد قيل إن (ما) نافية، والمعنى: ما يهجعون قليلا من الليل فكيف بالكثير؟ وهذا ضعيف لوجوه:

أحدها: أن هذا ليس بلازم لوصف المتقين الذين يستحقون هذا الجزاء.

الثاني: أن قيام من نام من الليل نصفه أحب إلى اللَّه من قيام من قامه كله.

الثالث: أنه لو كان المراد بذلك إحياء الليل جميعه لكان أولى الناس بهذا رسول اللَّه ﷺ، وما قام ليلة حتى الصباح.

الرابع: أن اللَّه سبحانه إنما أمر رسوله أن يتهجد بالقرآن من الليل لا في الليل كله فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾[1].

الخامس: أنه سبحانه لما أمره بقيام الليل في سورة المزمل إنما أمره بقيام النصف أو النقصان منه أو الزيادة عليه، فذكر له هذه المراتب الثلاثة ولم يذكر قيامه كله.

السادس: أنه ﷺ لما بلغه عن عثمان بن مظعون أنه لا ينام من الليل بعث إليه فجاء فقال: «يا عثمان! أرغبت عن سنتي؟» قال: لا واللَّه يا رسول! ولكن سنتك أطلب قال: «فإني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فاتق اللَّه ياعثمان فإن لأهلك عليك حقًّا، وإن لضيفك عليك حقًّا، وإن لنفسك عليك حقًّا، فصم وأفطر، وصل ونم»[2] ولما بلغه عن زينب بنت جحش أنها تصلي الليل كله حتى جعلت حبلا بين ساريتين إذا فترت تعلقت به أنكر ذلك وأمر بحله[3].

السابع: أن اللَّه أثنى عليهم بأنهم كانت ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾[4]، وتقلق عنها حتى يقوموا إلى الصلاة، ولهذا جازاهم عن هذا التجافي - الذي سببه قلق القلب واضطرابه حتى يقوم إلى الصلاة - بقرة الأعين.

الثامن: أن الصحابة الذين هم أول وأولى من دخل في هذه الآية لم يفهموا منها

---

(١) الإسراء: الآية (٧٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٦٨)، وأبو داود (٢/ ١٠١/ ١٣٦٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠١)، والبخاري (٣/ ٤٥/ ١١٥٠)، ومسلم (١/ ٥٤١-٥٤٢/ ٧٨٤)، وأبو داود (٢/ ٧٥/ ١٣١٢)، وابن ماجه (١/ ٤٣٦/ ١٣٧١)، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٤) السجدة: الآية (١٦).

عدم نومهم بالليل أصلا ، فروى بجير بن سعد عن سعيد عن قتادة عن أنس في قوله : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ قال : كانوا يصلون ما بين المغرب والعشاء .

التاسع : أن في هذا التقرير تفكيكا للكلام ، وتقديما لمعمول العامل المنفي عليه ؛ لأنك تجعل ﴿قَلِيلًا﴾ مفعول ﴿يَهْجَعُونَ﴾ وهو منفي ، والبصريون لا يجيزون ذلك ، وإن أجازه الكوفيون ، وفصل بعضهم فأجازه في الظرف ولم يجزه في غيره ، (ما) زائدة وخبر (كان) ﴿يَهْجَعُونَ﴾ و﴿قَلِيلًا﴾ منصوب إما على المصدرية أي : هجوعا قليلا ، وإما على الظرف أي زمنا قليلا .

واستشكل هذا بأن نوم نصف الليل وقيام ثلثه ثم نوم سدسه أحب القيام إلى اللَّه ، فيكون وقت الهجوع أكثر من وقت القيام ، فكيف يثني عليهم بما الأفضل خلافه؟

وأجيب عن ذلك بأن من قام هذا القيام فزمن هجوعه أقل من زمن يقظته قطعا ، فإنه مستيقظ من المغرب إلى العشاء ، ومن الفجر إلى طلوع الشمس ، فيبقى ما بين العشاء إلى طلوع الفجر ، فيقومون نصف ذلك الوقت ، فيكون زمن الهجوع أقل من زمن الاستيقاظ . وقيل : (ما) مصدرية وهي في موضع رفع بـ(قليل) ، أي : كانوا قليلا هجوعهم وهو قول الحسن . وقيل : إنها موصولة بمعنى الذي ، والعائد محذوف . أي : قليلا من الليل الوقت الذي يهجعون ، وفيه تكلف . وقيل : ﴿مَا يَهْجَعُونَ﴾ بدل اشتمال من اسم كان ، والتقدير : كان هجوعهم من الليل قليلا ، ويرد عليه أن ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ متعلق بيهجعون ، ومعمول المصدر لا يتقدم عليه ، وأجيب عنه أنه منصوب على التفسير ، ومعناه أن يقدر له فعل محذوف ينصبه مفسره هذا المذكور ، و﴿قَلِيلًا﴾ خبر (كان) ، وتم الكلام بذلك ، والمعنى : كانوا صنفا أو جنسا قليلا ، ثم قال : ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ وأصحاب هذا القول يجعلون (ما) نافية ، فيعود الكلام إلى نفي هجوعهم شيئا من الليل ، وقد تقدم ما فيه»[١] .

وقال شيخ الإسلام : «وهذا على أصح الأقوال معناه : كانوا يهجعون قليلًا ف﴿قَلِيلًا﴾ منصوب بـ﴿يَهْجَعُونَ﴾ و(ما) مؤكدة . وهذا مثل قوله : ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾[٢] وقوله : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ ، هو مفسر في سورة

---

(١) التبيان (ص: ١٧٤-١٧٧).

(٢) البقرة: الآية (٨٨).

(المزمل) بقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾[1]. فهذا المستثنى من الأمر هو القليل المذكور في تلك السورة، وهو قليل بالنسبة إلى مجموع الليل والنهار؛ فإنهم إذا هجعوا ثلثه أو نصفه أو ثلثاه فهذا قليل بالنسبة إلى ما لم يهجعوه من الليل والنهار، وسواء ناموا بالنهار أو لم يناموا»[2].

قال أبو حيان: «الذي فسر به أنس بن مالك ﷺ ذلك لا يدل لفظ الآية على الاقتصار عليه»[3].

قال القاسمي: «في هذه الجملة الكريمة مبالغات في وصف هؤلاء بقلة النوم، وترك الاستراحة. وذلك ذكر القليل، والليل الذي هو وقت النوم، والهجوع الذي هو الخفيف من النوم، وزيادة (ما) لأنها تدل على القلة. وبالجملة ففي الآية استحباب قيام الليل، وذم نومه كله. والأحاديث على ذلك كثيرة شهيرة»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة أهل الجنة وأسباب دخولها

* عن أنس ﷺ في قوله: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧﴾ قال: «**كانوا يصلون فيما بين المغرب والعشاء، وكذلك تتجافى جنوبهم**»[5].

★ **فوائد الحديث:**

استدل ابن جرير بهذا الأثر على التفسير الذي يقول: كانوا قليلا من الليل ما يهجعون، أي: يصلون العتمة.

* عن عبد اللَّه بن سلام قال: «**لما قدم رسول اللَّه ﷺ** المدينة انجفل الناس إليه، وقيل: قدم رسول اللَّه ﷺ، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استثبتُّ وجه رسول اللَّه ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: «**أيها الناس!**

---

(١) المزمل الآيات (٢-٤).
(٢) الفتاوى (٢٣/ ٨٥).
(٣) البحر المحيط (٨/ ١٣٤) بتصرف.
(٤) محاسن التأويل (١٥/ ١٩٥).
(٥) أخرجه: أبو داود (٢/ ٩٧/ ٢٢٣١)، وصححه الحاكم (٢/ ٧٦٤) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلّوا والناس نيام، تدخلون الجنة بسلام»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن علان: «**«وصلوا بالليل»** أي: التهجد بأن يكون بعد نوم أو ائتوا بها فيه مطلقًا. **«والناس نيام»** لأن هجر المصلي فراشه وإدآب نفسه في طاعة ربه وحرمان نفسه لذيذ المنام شديد، فلذا جوزي من محض الفضل بقوله: **«تدخلوا الجنة بسلام»** أي: مسلمين من العذاب قبل دخولها، ففيه بشارة الفاعل مجموع ذلك بالدخول لها ابتداءً، والله أعلم»[٢].

وقال الصنعاني: «هذه الأفعال من أسباب دخول الجنة، وكأنه بسببها يحصل لفاعلها التوفيق، وتجنب ما يوبقها من الأعمال، وحصول الخاتمة الصالحة»[٣].

قلت: وقد تقدم الكلام على غريب هذا الحديث وشيء من فوائده عند قوله تعالى من سورة (الحجر): ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦﴾.

* عن أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ، قال: «**إن في الجنة غرفًا يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلى بالليل والناس نيام»**[٤].

★ **فوائد الحديث:**

تقدم الكلام على هذا المعنى في سورة (الفرقان) وسورة (سبأ).

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٥١)، والترمذي (٤/ ٥٦٢-٥٦٣/ ٢٤٨٥) وقال: «هذا حديث صحيح»، وابن ماجه (١/ ٤٢٣/ ١٣٣٤)، وصححه الحاكم (٣/ ١٣) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٢) دليل الفالحين (٣/ ٦٥٥-٦٥٦).

(٣) سبل السلام (٤/ ٣٨٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٣)، والطبراني (٣/ ٣٤٢/ ٣٤٦٦)، وصححه ابن حبان الإحسان (٢/ ٢٦٢/ ٥٠٩)، والحاكم (١/ ٣٢١) على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٥٤): «رواه الطبراني في الكبير، ورجاله ثقات».

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله ﷻ: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾. قال مجاهد وغير واحد: يصلون. وقال آخرون: قاموا الليل، وأخروا الاستغفار إلى الأسحار. كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾[١]، فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخبارا عن يعقوب أنه قال لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾[٢] قالوا: أخرهم إلى وقت السحر»[٣].

وقال ابن القيم: «أخبر عنهم بأنهم مع صلاتهم بالليل كانوا يستغفرون اللّٰه عند السحر، فختموا صلاتهم بالاستغفار والتوبة، فباتوا لربهم سجدا وقياما، ثم تابوا إليه واستغفروه عقيب ذلك، وكان النبي ﷺ إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثا، وأمره اللّٰه سبحانه أن يختم عمره بالاستغفار، وأمر عباده أن يختموا إفاضتهم من عرفات بالاستغفار، وشرع ﷺ للمتوضئ أن يختم وضوءه بالتوبة، فأحسن ما ختمت به الأعمال التوبة والاستغفار»[٤].

قال السعدي: «وبالأسحار التي قبيل الفجر هم يستغفرون اللّٰه تعالى، فمدوا صلاتهم إلى السحر، ثم جلسوا في خاتمة قيامهم بالليل يستغفرون اللّٰه تعالى، استغفار المذنب لذنبه، وللاستغفار بالأسحار فضيلة وخصيصة ليست لغيره، كما قال تعالى في وصف أهل الإيمان والطاعة: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾»[٥].

قال القاسمي: «قال القاضي: أي: أنهم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم، إذا أسحروا أخذوا في الاستغفار كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم»[٦].

---

(١) آل عمران: الآية (١٧). (٢) يوسف: الآية (٩٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٩٥).
(٤) التبيان (ص: ١٧٧).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٦٥-١٦٦).
(٦) محاسن التأويل (١٥/ ١٩٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في الترغيب في الدعاء والذكر والاستغفار آخر الليل والإجابة فيه

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللّٰه ﷺ قال: «**ينزل ربنا -تبارك وتعالى- كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟**»[١].

⋆ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قوله: «**من يدعوني**» لم تختلف الروايات على الزهري في الاقتصار على الثلاثة المذكورة وهي الدعاء والسؤال والاستغفار، والفرق بين الثلاثة أن المطلوب إما لدفع المضار أو جلب المسار، وذلك إما ديني وإما دنيوي، ففي الاستغفار إشارة إلى الأول، والسؤال إشارة إلى الثاني، وفي الدعاء إشارة إلى الثالث»[٢].

وقال القرطبي: «هذا من اللّٰه وعد حق، وقول صدق: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾[٣]، وإذا وقعت هذه الشروط من العبد على حقيقتها وكمالها؛ فلابد من المشروط، فإن تخلف شيء من ذلك فذلك لخلل في الشرط»[٤].

وقال الحافظ: «وفي حديث الباب من الفوائد: تفضيل صلاة آخر الليل على أوله، وتفضيل تأخير الوتر، لكن ذلك في حق من طمع أن ينتبه، وأن آخر الليل أفضل للدعاء والاستغفار، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ وأن الدعاء في ذلك الوقت مجاب، ولا يعترض على ذلك بتخلفه عن بعض الداعين؛ لأن سبب التخلف وقوع الخلل في شرط من شروط الدعاء كالاحتراز في المطعم والمشرب والملبس، أو لاستعجال الداعي، أو بأن يكون الدعاء بإثم أو قطيعة رحم، أو تحصل الإجابة ويتأخر وجود المطلوب لمصلحة العبد أو لأمر يريده الله»[٥].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٧)، والبخاري (٣/ ٣٦/ ١١٤٥)، ومسلم (١/ ٥٢١/ ٧٥٨)، وأبو داود (٢/ ٧٦-٧٧/ ١٣١٥)، والترمذي (٢/ ٣٠٧-٣٠٨/ ٤٤٦) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٢٣-١٢٤/ ١٠٣١٠-١٠٣١٤)، وابن ماجه (١/ ٤٣٥/ ١٣٦٦).

(٢) فتح الباري (٣/ ٣٩).

(٣) التوبة: الآية (١١١).

(٤) المفهم (٢/ ٣٨٧).

(٥) فتح الباري (٣/ ٤٠).

وقال ابن بطال: «هذا وقت شريف مرغب فيه خصّه اللَّه تعالى بالتنزل فيه، وتفضّل على عباده بإجابة من دعا فيه، وإعطاء من سأله، إذ هو وقت خلوة وغفلة واستغراق في النوم واستلذاذ به، ومفارقة الدعة واللذة صعب على العباد، لا سيما لأهل الرفاهية في زمن البرد، ولأهل التعب والنصب في زمن قصر الليل، فمن آثر القيام لمناجاة ربه والتضرع إليه في غفران ذنوبه، وفكاك رقبته من النار، وسأله التوبة في هذا الوقت الشاق على خلوة نفسه بلذتها، ومفارقة دعتها وسكنها، فذلك دليل على خلوص نيته وصحة رغبته فيما عند ربه، فضمنت له الإجابة التي هي مقرونة بالإخلاص، وصدق النية في الدعاء، إذ لا يقبل اللَّه دعاءً من قلب غافل لاهٍ.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بقوله: «**والصلاة بالليل والناس نيام**»[1]. فلذلك نبّه اللَّه عباده على الدعاء في هذا الوقت الذي تخلو فيه النفس من خواطر الدنيا وعُلقها، ليستشعر العبد الجدّ والإخلاص لربه، فتقع الإجابة منه تعالى رفقًا من اللَّه بخلقه ورحمةً لهم، فله الحمد دائمًا والشكر كثيرًا على ما ألهم إليه عباده من مصالحهم، ودعاهم إليه من منافعهم لا إله إلا هو الكريم الوهاب»[2].

* * *

(١) تقدم تخريجه قريبا.

(٢) شرح البخاري (١٠/ ٨٩-٩٠).

قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما وصفهم بالصلاة ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة، فقال: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ﴾ أي: جزء مقسوم قد أفرزوه ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾، أما السائل فمعروف، وهو الذي يبتدئ بالسؤال وله حق»[1].

«وأما (المحروم)، فقال ابن عباس ومجاهد: هو المحارف الذي ليس له في الإسلام سهم. يعني: لا سهم له في بيت المال، ولا كسب له، ولا حرفة يتقوت منها.

وقالت أم المؤمنين عائشة: هو المحارَف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه. وقال الضحاك: هو الذي لا يكون له مال إلا ذهب، قضى اللَّه له ذلك. وقال أبو قِلابَة: جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل، فقال رجل من الصحابة: هذا المحروم. وقال ابن عباس أيضا، وسعيد بن المسيَّب، وإبراهيم النخعي، ونافع -مولى ابن عمر- وعطاء بن أبي رباح: (المحروم): المحارف. وقال قتادة، والزهري: (المحروم): الذي لا يسأل الناس شيئًا. وقال سعيد بن جبير: هو الذي يجيء وقد قُسِّم المغنم، فيرضخ له.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني بعض أصحابنا قال: كنا مع عمر بن عبد العزيز في طريق مكة فجاء كلب فانتزع عمر كتف شاة فرمى بها إليه، وقال: يقولون: إنه المحروم. وقال الشعبي: أعياني أن أعلم ما المحروم. واختار ابن جرير أن المحروم الذي لا مال له بأي سبب كان، قد ذهب ماله، سواء كان لا يقدر على الكسب، أو قد هلك ماله أو نحوه بآفة أو نحوها»[2].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٩٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٩٥-٣٩٦).

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والصواب من القول في ذلك عندي أنه الذي قد حُرم الرزق واحتاج، وقد يكون ذلك بذهاب ماله وثمره، فصار ممن حرمه اللَّه ذلك، وقد يكون بسبب تعففه وتركه المسألة، ويكون بأنه لا سهم له في الغنيمة لغيبته عن الوقعة، فلا قول في ذلك أولى بالصواب من أن تعمّ، كما قال -جل ثناؤه- ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾»[1].

وقال ابن القيم: «أخبر سبحانه عن إحسانهم إلى الخلق مع إخلاصهم لربهم، فجمع لهم بين الإخلاص والإحسان، ضد ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ٧﴾[2]، وأكد إخلاصهم في هذا الإحسان بأن مصرفه للسائل والمحروم الذي لا يقصد بإعطائه الجزاء منه ولا الشكور، والمحروم: المتعفف الذي لا يسأل.

وتأمل حكمة الرب تعالى في كونه حرمه بقضائه، وشرع لأصحاب الجدة إعطاءه، وهو أغنى الأغنياء وأجود الأجودين، فلم يجمع عليه بين الحرمان بالقدر وبالشرع، شرع عطاءه بأمره، وحرمه بقدره، فلم يجمع عليه حرمانين»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في المسكين الذي لا يجد غنى ولا يفطن له فيتصدق عليه، وإباحة الأخذ لمن أعطي من غير مسألة ولا إشراف

* عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن به فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس»**[4].

★ **غريب الحديث:**

ولا يفطن به: أي: لا يتنبه له.

* عن عمر قال: «كان رسول اللَّه ﷺ يعطيني العطاء فأقول: أعطه من هو أفقر

(١) جامع البيان (٢٦/ ٢٠٤).

(٢) الماعون الآيتان (٦-٧).

(٣) التبيان (ص: ١٧٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٠)، والبخاري (٣/ ٣٤٣/ ٩٧٤١)، ومسلم (٢/ ٩١٧/ ١٠٣٩)، وأبو داود (٢/ ٣٨٢-٤٨٢/ ١٣٦١)، والنسائي (٥/ ٨٩-٠٩/ ٢٧٥٢).

إليه مني، فقال: خذه، إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل، فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك»[١].

★ غريب الحديث:

مشرف: الإشراف في اللغة: رفع الرأس إلى المطموع عنه والمطموع فيه وأن يهش الإنسان ويتعرض.

★ فوائد الحديثين:

في هذين الحديثين من الفوائد:

الحض على الصدقة وحسن الارتياد لموضعها، وأن يتحرى وضعها فيمن هذا صفته من أهل التعفف دون الملحفين الملحين في المسألة[٢].

وفيهما: أن ما جاء من المال الطيب الحلال من غير مسألة فإن أخذه خير من تركه، إذا كان معنى يجمل الأخذ منه[٣].

قال أبو عمر: «وفي الحديث أيضًا أن الواجب قبول كل رزق يسوقه اللَّه ﷻ إلى العبد على أي حال كان ما لم يكن حرامًا بيّنًا»[٤].

وقال رحمه الله: «وما جاء من غير مسألة فجائز له أن يأكله إن كان من غير الزكاة، وهذا ما لا أعلم فيه خلافًا»[٥].

قال أبو جعفر الطحاوي: «ليس هذا على أموال الصدقات، إنما هذا على الأموال التي يقسمها الإمام على الناس، فيقسمها على أغنيائهم وفقرائهم، كما فرض عمر لأصحاب رسول اللَّه ﷺ حين دون الدواوين، ففرض للأغنياء منهم وللفقراء، فكانت تلك الأموال يعطاها الناس، لا من جهة الفقر، ولكن لحقوقهم فيها، فكره رسول اللَّه ﷺ لعمر حين أعطاه الذي كان أعطاه منها قوله: «**أعطه من هو أفقر إليه مني**» أي: إني لم أعطك ذلك لأنك فقير، إنما أعطيتك ذلك لمعنى آخر

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢١)، والبخاري (٣/ ٤٣٠/ ١٤٧٣)، ومسلم (٢/ ٧٢٣/ ١٠٤٥) والنسائي (٥/ ١١٠/ ٢٦٠٧).

(٢) أعلام الحديث (٢/ ٨٠٤).

(٣) قاله المهلب انظر شرح ابن بطال (٣/ ٥١٢).

(٤) فتح البر (٧/ ١٩٨).

(٥) فتح البر (٧/ ٢٠٦).

غير الفقر، ثم قال له: «**خذه فتموله**» فدل ذلك أيضًا أنه ليس من أموال الصدقات؛ لأن الفقير لا ينبغي له أن يأخذ من الصدقات ما يتخذه مالًا، كان ذلك عن مسألة منه أو عن غير مسألة»[١].

وقال أبو جعفر الطبري: «اختلف العلماء في معنى قوله عليه السلام لعمر: «**ما جاءك من هذا المال فخذه**» بعد إجماعهم على أنه أمر ندب وإرشاد»[٢].

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ -بعد عرضه لأقوال العلماء في ذلك، وما نزع كل واحد منهم به-: «والصواب عندي أنه ندب منه ﷺ أمته إلى قبول عطية كل معط جائز عطيته، سلطانًا كان أو رعية، وذلك أن الرسول قال لعمر: «**ما آتاك اللَّه من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فاقبله**» فندبه ﷺ إلى قبول كل ما آتاه اللَّه من المال من جميع وجوهه، من غير تخصيص وجه من الوجوه دون غيره، سوى ما استثناه ﷺ، وذلك ما جاء من وجه حرام عليه فلا يحل له قبوله، كالذي يغصب رجلًا مسلمًا ماله ثم يعطيه بعينه آخر، والذي يعطاه يعلم غصبه أو سرقته أو خيانته، فإن قبله كان واجبًا عليه رده»[٣].

* * *

(١) شرح معاني الآثار (٢/ ٢٢).
(٢) نقلًا عن شرح ابن بطال (٣/ ٥٠٧).
(٣) شرح ابن بطال (٣/ ٥٠٩).

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ قال قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة»[1].

قال ابن القيم: «ثم ذكرهم سبحانه بآياته الأفقية والنفسية، فقال: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ فآيات الأرض أنواع كثيرة، منها: خلقها وحدوثها بعد عدمها، وشواهد الحدوث والافتقار إلى الصانع عليها لا تجحد، فإنها شواهد قائمة بها.

ومنها: بروز هذا الجانب فيها عن الماء، مع كون مقتضى الطبيعة أن يكون مغمورا به.

ومنها: سعتها وكبر خلقها.

ومنها: تسطيحها، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾[2]، ولا ينافي ذلك كونها كروية، فهي كرة في الحقيقة، لها سطح يستقر عليه الحيوان.

ومنها: أنه جعلها فراشا لتكون مقر الحيوان ومساكنه، وجعلها قرارا وجعلها مهادا ذلولا، توطأ بالأقدام، وتضرب بالمعاول والفئوس، وتحمل على ظهرها

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٩٦).

(٢) الغاشية: الآية (٢٠).

الأبنية الثقال، فهي ذلول مسخرة لما يريد العبد منها، وجعلها بساطا وجعلها كفاتا للأحياء تضمهم على ظهرها، وللأموات تضمهم في بطنها، وطحاها فمدها وبسطها، ووسعها ودحاها، فهيأها لما يراد منها بأن أخرج منها ماءها ومرعاها، وشق فيها الأنهار، وجعل فيها السبل والفجاج، ونبه بجعلها مهادا وفراشا على حكمته في جعلها ساكنة، وذلك آية أخرى؛ إذ لا دعامة تحتها تمسكها، ولا علاقة فوقها، ولكنها لما كانت على وجه الماء كانت تكفأ فيه كما تكفأ السفينة، فاقتضت العناية الأزلية، والحكمة الإلهية أن وضع عليها رواسي يثبتها بها لئلا تميد، وليستقر عليها الأنام، وجعلها ذلولا على الحكمة في أن لم تكن في غاية الصلابة والشدة كالحديد، فيمتنع حفرها وشقها، والبناء فيها والغرس والزرع، وبعث النوم عليها والمشي فيها، ونبه بكونها قرارا على الحكمة في أنها لم تخلق في غاية اللين والرخاوة والدماثة، فلا تمسك بناء ولا يستقر عليها الحيوان، ولا الأجسام الثقيلة؛ بل جعلها بين الصلابة والدماثة، وأشرف الجواهر عند الإنسان الذهب والفضة والياقوت والزمرد، فلو كانت الأرض من هذه الجواهر لفاتت مصالح العباد والحيوان منها، وتعطلت المنافع المقصودة منها، وبهذا يعلم أن جواهر التراب أشرف من هذه الجواهر وأنفع وأبرك، وإن كانت تلك أغلى وأعز، فغلاؤها وعزتها لقلتها، وإلا فالتراب أنفع منها وأبرك وأنفس، وكذلك لم يجعلها شفافة، فإن الجسم الشفاف لا يستقر عليه النور، وما كان كذلك لم يقبل السخونة، فيبقى في غاية البرد، فلا يستقر عليه الحيوان، ولا يتأتى فيه النبات، وكذلك لم يجعلها صقيلة براقة لئلا يحترق ما عليها بسبب انعكاس أشعة الشمس، كما يشاهد من احتراق القطن ونحوه عند انعكاس شعاع الجسم الصقيل الشفاف، فاقتضت حكمته سبحانه أن جعلها كثيفة غبراء، فصلحت أن تكون مستقرا للحيوان والأنام والنبات.

ولما كان الحيوان الهوائي لا يمكنه أن يعيش في الماء كالحيوان المائي، أبرز له جانبها كما تقدم، وجعله على أوفق الهيئات لمصالحه، وأنشأ منها طعامه وقوته، وكذلك خلق منها النوع الإنساني وأعاده إليها ويخرجه منها.

ومن آياتها أن جعلها مختلفة الأجناس والصفات والمنافع مع أنها قطع متجاورات متلاصقة، فهذه سهلة، وهذه حزنة تجاورها وتلاصقها، وهذه طيبة تنبت، وتلاصقها أرض لا تنبت، وهذه تربة وتلاصقها رمال، وهذه صلبة

ويلاصقها ويليها رخوة، وهذه سوداء ويليها أرض بيضاء، وهذه حصى كلها ويجاورها أرض لا يوجد فيها حجر، وهذه تصلح لنبات كذا وكذا، وهذه لا تصلح له؛ بل تصلح لغيره، وهذه سبخة مالحة، وهذه بضدها، وهذه ليس فيها جبل ولا معلم، وهذه مسجرة بالجبال، وهذه لا تصلح إلا على المطر، وهذه لا ينفعها المطر؛ بل لا تصلح إلا على سقي الأنهار، فيمطر اللّه سبحانه الماء على الأرض البعيدة، ويسوق الماء إليها على وجه الأرض.

فلو سألتها من نوعها هذا التنوع؟ ومن فرق أجزاءها هذا التفريق؟ ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به؟ ومن ألقى عليها رواسيها وفتح فيها السبل وأخرج منها الماء والمرعى؟ ومن أمسكها عن الزوال؟ ومن بارك فيها وقدر فيها أقواتها وأنشأ منها حيوانها ونباتها؟ ومن وضع فيها معادنها وجواهرها ومنافعها؟ ومن هيأها مسكنا ومستقرا للأنام؟ ومن يبدأ الخلق منها ثم يعيده إليها ثم يخرجه منها؟ ومن جعلها ذلولا غير مستصعبة ولا ممتنعة؟ ومن وطأ مناكبها وذلل مسالكها ووسع مخارجها، وشق أنهارها وأنبت أشجارها وأخرج ثمارها؟ ومن صدعها عن النبات، وأودع فيها جميع الأقوات؟ ومن بسطها؟ وفرشها ومهدها وذللها وطحاها ودحاها وجعل ما عليها زينة لها؟ ومن الذي يمسكها أن تتحرك فتتزلزل فيسقط ما عليها من بناء ومعلم، أو يخسفها بمن عليها فإذا هي تمور؟ ومن الذي أنشأ منها النوع الإنساني الذي هو أبدع المخلوقات وأحسن المصنوعات؛ بل أنشأ منها آدم ونوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا ﷺ وعليهم أجمعين، وأنشأ منها أولياءه وأحباءه وعباده الصالحين؟ ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والأرزاق والمعادن والحيوان؟ ومن جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة، فلو زادت على ذلك لضعف تأثرها بحرارة الشمس ونور القمر، فتعطلت المنفعة الواصلة إلى الحيوان والنبات بسبب ذلك، ولو زادت في القرب لاشتدت الحرارة والسخونة -كما نشاهده في الصيف- فاحترقت أبدان الحيوان والنبات، وبالجملة فكانت تفوت هذه الحكمة التي بها انتظام العالم؟ ومن الذي جعل فيها الجنات والحدائق والعيون؟ ومن الذي جعل باطنها بيوتا للأموات وظاهرها بيوتا للأحياء؟ ومن الذي يحييها بعد موتها فينزل عليها الماء من السماء، ثم يرسل عليها الريح ويطلع عليها الشمس فتأخذ في الجبل، فإذا كان وقت الولادة مخضت للوضع

واهتزت وأنبتت من كل زوج بهيج.

فسبحان من جعل السماء كالأب، والأرض كالأم، والقطر كالماء الذي ينعقد منه الولد، فإذا حصل الحب في الأرض ووقع عليه الماء أثرت نداوة الطين فيه، وأعانتها السخونة المختفية في باطن الأرض، فوصلت النداوة والحرارة إلى باطن الحبة، فاتسعت الحبة وربت وانتفخت وانفلقت عن ساقين: ساق من فوقها، وهو الشجرة، وساق من تحتها وهو العرق، ثم عظم ذلك الولد حتى لم يبق لأبيه نسبة إليه، ثم وضع من الأولاد بعد أبيه آلافا مؤلفة، كل ذلك صنع الرب الحكيم في حبة واحدة لعلها تبلغ في الصغر إلى الغاية، وذلك من البركة التي وضعها اللّٰه سبحانه في هذه الأم.

فيالها من آية تكفي وحدها في الدلالة على وجود الخالق وصفات كماله وأفعاله، وعلى صدق رسله فيما أخبروا به عنه بإخراج من في القبور ليوم البعث والنشور.

فتأمل اجتماع هذه العناصر الأربعة وتجاورها وامتزاجها، وحاجة بعضها إلى بعض، وانفعال بعضها عن بعض، وتأثيره فيه وتأثره به، بحيث لا يمكنه إلا الاتباع من التأثر والانفعال، ولا يستقل الآخر بالتأثير، ولا يستغني عن صاحبه، وفي ذلك أظهر دلالة على أنها مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة حادثة. بعد عدمها، فقيرة إلى موجد غني عنها مؤثر غير متأثر، قديم غير حديث، تنقاد المخلوقات كلها لقدرته، وتجيب داعي مشيئته، وتلبي داعي وحدانيته وربوبيته، وتشهد بعلمه وحكمته، وتدعو عباده إلى ذكره وشكره وطاعته، وعبوديته ومحبته، وتحذرهم من بأسه ونقمته، وتحثهم على المبادرة إلى رضوانه وجنته.

فانظر إلى الماء والأرض كيف لما أراد الرب تعالى امتزاجهما وازدواجهما أنشأ الرياح، فحركت الماء وساقته إلى أن قذفته في عمق الأرض، ثم أنشأ لها حرارة لطيفة سماوية، وحصل بها الإنبات، ثم أنشأ لها حرارة أخرى أقوى منها حصل بها الانفتاح، وكانت حالته الأولى تضعف عن الحرارة الثانية، فادخرت إلى وقت قوته وصلابته، فحرارة الربيع للإخراج، وحرارة الصيف للإنضاج، هذا وإن الأم واحدة، والأب واحد، واللقاح واحد، والأولاد في غاية التباين والتنوع كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ

يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾[١].

فهذا بعض آيات الأرض، ومن الآيات التي فيها وقائعه سبحانه التي أوقعها بالأمم المكذبين لرسلهم، المخالفين لأمره، وأبقى آثارهم دالة عليهم كما قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾[٢]، وقال في قوم لوط: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾[٣]، وقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾[٤]، أي: بطريق ثابت لا يزول عن حاله، وقال: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾[٥]، أي: ديار هاتين الأمتين لبطريق واضح يمر به السالكون، وقال تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾[٦]، وقال عن قوم عاد: ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾[٧]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾[٨]، فأي دلالة أعظم من رجل يخرج وحده لا عدة له ولا عدد ولا مال، فيدعو الأمة العظيمة إلى توحيد الله والإيمان به وطاعته، ويحذرهم من بأسه ونقمته، فتتفق كلمتهم أو أكثرهم على تكذيبه ومعاداته، فيذكرهم أنواع العقوبات الخارجة عن قدرة البشر، فيغرق المكذبين كلهم تارة، ويخسف بغيرهم الأرض تارة، ويهلك آخرين بالريح، وآخرين بالصيحة، وآخرين بالمسخ، وآخرين بالصواعق، وآخرين بأنواع العقوبات، وينجو داعيهم ومن معه، والهالكون أضعاف أضعافهم عددا وقوة، ومنعة وأموالا.

فيالك من آيات حق لو اهتدى ... بهن مريد الحق كن هواديا

ولكن على تلك القلوب أكنة ... فليست وإن أصغت تجيب المناديا

فهلا امتنعوا -إن كانوا على الحق وهم أكثرهم عددا وأقوى شوكة- بقوتهم وعددهم من بأسه وسلطانه، وهلا اعتصموا من عقوبته كما اعتصم من هو أضعف

---

(١) الرعد: الآية (٤).
(٢) العنكبوت: الآية (٣٨).
(٣) الصافات الآيتان (١٣٧-١٣٨).
(٤) الحجر: الآيات (٧٣-٧٦).
(٥) الحجر الآيتان (٧٨-٧٩).
(٦) إبراهيم: الآية (٤٥).
(٧) الأحقاف: الآية (٢٥).
(٨) السجدة: الآية (٢٦).

منهم من أتباع الرسل؟.

ومن الآيات التي في الأرض مما يحدثه اللَّه فيها كل وقت ما يصدق به رسله فيما أخبرت به، فلا تزال آيات الرسل وأعلام صدقهم وأدلة نبوتهم، يحدثها اللَّه ﷻ في الأرض إقامة للحجة على من لم يشاهد تلك الآيات التي قاربت عصر الرسل، حتى كأن أهل كل قرن يشاهدون ما يشاهده الأولون أو نظيره، كما قال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1]، وهذه الإرادة لا تختص بقرن دون قرن؛ بل لابد أن يري اللَّه سبحانه أهل كل قرن من الآيات ما يبين لهم أن اللَّه الذي لا إله إلا هو، وأن رسله صادقون، وآيات الأرض أعظم مما ذكر وأكثر، فنبه باليسير منها على الكثير.

ثم قال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ لما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه دعاه خالقه وبارئه ومصوره وفاطره من قطرة ماء إلى التبصر والتفكر في نفسه، فإذا تفكر الإنسان في نفسه استنارت له آيات الربوبية، وسطعت له أنوار اليقين، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب، وانقشعت عنه ظلمات الجهل، فإنه إذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات، وأدلة التوحيد على ربه ناطقات، شاهدة لمدبره، دالة عليه، مرشدة إليه، إذا يجده مكونا من قطرة ماء لحوما منضدة، وعظاما مركبة، وأوصالا متعددة، مأسورة مشددة بحبال العروق والأعصاب، قد قمطت وشدت وجمعت بجلد متين، مشتمل على ثلاثمائة وستين مفصلا، ما بين كبير وصغير، وثخين ودقيق، ومستطيل ومستدير، ومستقيم ومنحن، وشدت هذه الأوصال بثلاثمائة وستين عرقا للاتصال والانفصال، والقبض والبسط، والمد والضم، والصنايع والكتابة»[2].

ثم ذكر -رحمه اللَّه تعالى- بإسهاب وتفصيل أعضاء الإنسان الداخلية والخارجية كأنه طبيب مشرح، ثم أعقبه بوصف مراحل وأطوار الحمل والولادة.

* * *

---

(١) فصلت: الآية (٥٣).

(٢) التبيان (ص: ١٧٧-١٨٢).

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ يعني: المطر، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يعني: الجنة، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد. وقال سفيان الثوري: قرأ واصل الأحدب هذه الآية: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ فقال: ألا إني أرى رزقي في السماء، وأنا أطلبه في الأرض؟ فدخل خربة فمكث فيها ثلاثا لا يصيب شيئا، فلما أن كان في اليوم الثالث إذا هو بِدَوْخَلَة[1] من رطب، وكان له أخ أحسن نية منه، فدخل معه فصارتا دوخلتين، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق الموت بينهما.

وقوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون. وكان معاذ رضي الله عنه إذا حدث بالشيء يقول لصاحبه: إن هذا لحق كما أنك ههنا»[2].

قال ابن القيم: «أما الرزق ففسر بالمطر، وفسر بالجنة، وفسر برزق الدنيا والآخرة، ولا ريب أن المطر من الرحمة، وأن الجنة مستقر الرحمة، فرزق الدارين في السماء التي هي في العلو، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قال عطاء رضي الله عنه: من الثواب والعقاب، وقال الكلبي: من الخير والشر، وقال مجاهد: من الجنة والنار، وقال ابن سيرين: من أمر الساعة.

قلت: كون الجنة والخير في السماء فلا إشكال فيه، وكون النار في السماء وما يوعد به أهلها يحتاج إلى تبيين، فإذا نظرت إلى أسباب الخير والشر، وأسباب

---

(١) الدوخلة: هي الأواني التي تُصْنَع من خُوصِ النَّخِيل ليوضَعَ فيه التَّمْرُ.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٩٦-٣٩٧).

دخول الجنة والنار، وافتراق الناس وانقسامهم إلى شقي وسعيد، وجدت ذلك كله بقضاء اللَّه وقدره النازل من السماء، وذلك كله مثبت في السماء في صحف الملائكة، وفي اللوح المحفوظ قبل العمل وبعده، فالأمر كله من السماء، وقول من قال: من أمر الساعة: يكشف عن هذا المعنى، فإن أمر الساعة يأتي من السماء وهو الموعود بها، فالجنة والنار الغاية التي لأجلها قامت الساعة، فصح كل ما قال السلف في ذلك، واللَّه أعلم.

ثم أقسم سبحانه أعظم قسم بأعظم مقسم به على أجل مقسم عليه، وأكد الأخبار بهذا القسم، ثم أكد بتشبيهه بالأمر المحقق الذي لا يشك فيه ذو حاسة سليمة، فقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد إنه لحق واقع كما أنكم تنطقون، وقال الفراء: إنه لحق كما أن الآدمي ناطق، وقال الزجاج: هذا كما تقول في الكلام: إن هذا لحق كما أنك ههنا.

قلت: وفي الحديث: «**إنه لحق كما أنك ههنا**»[1] فشبه سبحانه تحقيق ما أخبر به بتحقيق نطق الآدمي ووجوده، والواحد منا يعرف أنه ناطق ضرورة، ولا يحتاج نطقه إلى استدلال على وجوده، ولا يخالجه شك في أنه ناطق، فكذلك ما أخبر اللَّه عنه من أمر التوحيد والنبوة والمعاد، وأسمائه وصفاته حق ثابت في نفس الأمر، يشبه بثبوت نطقكم ووجوده، وهذا باب يعرفه الناس في كلامهم، يقول أحدهم: هذا حق مثل الشمس، وأفصح الشاعر عن هذا بقوله:

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

وههنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الرب تعالى شهد بصحة ما أخبر به وهو أصدق الصادقين، وأقسم عليه وهو أبر المقسمين، وأكده بتشبيهه بالواقع الذي لا يقبل الشك بوجه، وأقام عليه من الأدلة العيانية والبرهانية ما جعله معاينا مشاهدا بالبصائر وإن لم يعاين بالأبصار، ومع ذلك فأكثر النفوس في غفلة عنه لا تستعد له، ولا تأخذ له أهبة، والمستعد له الآخذ له أهبة لا يعطيه حقه منهم إلا الفرد بعد الفرد.

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٤٥)، وأبو داود (٤/ ٤٨٢/ ٤٢٩٤)، من طريق عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن أبيه عن مكحول عن جبير بن نفير عن مالك بن يخامر عن معاذ رضي الله عنه به، والحديث أعل بعبد الرحمن بن ثابت، وقد ذكر الذهبي هذا الحديث من مناكيره في الميزان (٢/ ٥٥١-٥٥٢).

فأكثر الخلق لا ينظرون في المراد من إيجادهم وإخراجهم إلى هذه الدار، ولا يتفكرون في قلة مقامهم في دار الغرور، ولا في رحيلهم وانتقالهم عنها، ولا إلى أين يرحلون؟ وأين يستقرون؟ قد ملكهم الحس، وقل نصيبهم من العقل، وشملتهم الغفلة، وغرتهم الأماني التي هي كالسراب، وخدعهم طول الأمل، وكأن المقيم لا يرحل، وكأن أحدهم لا يبعث ولا يسأل، وكأن مع كل مقيم توقيع من الله: لفلان ابن فلان بالأمان من عذابه والفوز بجزيل ثوابه، فأما اللذات الحسية والشهوات النفسية كيفما حصلت فإنهم حصلوها، ومن أي وجه لاحت أخذوها، غافلين عن المطالبة، آمنين من العاقبة، يسعون لما يدركون، ويتركون ما هم به مطالبون، ويعمرون ما هم عنه منتقلون، ويخربون ما هم إليه صائرون، وهم عن الآخرة هم غافلون، ألهتهم شهوات نفوسهم فلا ينظرون في مصالحها، ولا يأخذون في جمع زادها في سفرها، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝١٩﴾[1] والعجب كل العجب من غفلة من تعد عليه لحظاته، وتحصى عليه أنفاسه، ومطايا الليل والنهار تسرع به، ولا يتفكر إلى أين يحمل، ولا إلى أي منزل ينقل؟

وكيف تنام العين وهي قريرة ولم تدر في أي المحلين تنزل؟

وإذا نزل بأحدهم الموت قلق لخراب ذاته وذهاب لذاته، لا لما سبق من جناياته، ولا لسوء منقلبه بعد مماته، فإن خطرت على أحدهم خطرة من ذلك اعتمد العفو أو الرحمة، وكان يتيقن أن ذلك نصيبه ولابد، فلو أن العاقل أحضر ذهنه ما استحضر عقله، وسار بفكره وأمعن النظر وتأمل الآيات لفهم المراد من إيجاده، ولنظرت عين الراحل إلى الطريق، ولأخذ المسافر في التزود، والمريض في التداوي، والحازم ما يجوز أن يأتي، فما الظن بأمر متيقن، كما أنه لصدق إيمانهم وقوة إيقانهم، وكأنهم يعاينون الأمر، فأضحت ربوع الإيمان من أهلها خالية، ومعالمه على عروشها خاوية، قال ابن وهب: أخبرني مسلم بن علي عن الأوزاعي قال: كان السلف إذا طلع الفجر أو قبله كأنما على رؤوسهم الطير مقبلين على

(١) الحشر: الآية (١٩).

أنفسهم، حتى لو أن حبيبا لأحدهم غاب عنه حينا ثم قدم لما التفت إليه، فلا يزالون كذلك إلى طلوع الشمس، ثم يقوم بعضهم إلى بعض فيتخلفون بأول ما يقتضون فيه أمر معادهم، وما هم صائرون إليه، ثم يأخذون في الفقه»(١).

* * *

(١) التبيان (ص: ٢٥١-٢٥٣).

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

راغ: راغ إلى الشيء: ذهب إليه في خفية.

أوجس: أحس وشعر.

صرة: صيحة. ومنه صريرُ الباب لصوته. وقيل: في جماعة من النساء، سميت لانضمام بعضهن إلى بعض.

صكت: لطمته بأطراف الأصابع تعجبا واستغرابًا.

عقيم: عاقر لا تلد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ، يخبره أنه محلّ بمن تمادى في غيه، وأصرّ على كفره، فلم يتب منه من كفار قومه، ما أحلّ بمن قبلهم من الأمم الخالية، ومذكرا قومه من قريش بإخباره إياهم أخبارهم وقصصهم، وما فعل بهم، هل أتاك يا محمد حديث ضيف إبراهيم خليل الرحمن المكرمين. يعني بقوله: ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أن إبراهيم عليه السلام وسارة خدماهم بأنفسهما

وقوله: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ يقول: حين دخل ضيف إبراهيم عليه، فقالوا له سلاما: أي: أسلموا إسلاما، قال سلام.. وقوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ يقول: قوم لا نعرفكم، ورفع ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ بإضمار أنتم.

وقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ يقول: عدل إلى أهله ورجع. وكان الفرّاء يقول: الروغ وإن كان على هذا المعنى فإنه لا ينطق به حتى يكون صاحبه مخفيا ذهابه أو مجيئه، وقال: ألا ترى أنك تقول قد راغ أهل مكة وأنت تريد رجعوا أو صدروا، فلو أخفى راجع رجوعه حسنت فيه راغ ويروغ.

وقوله: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ يقول: فجاء ضيفَه بعجل سمين قد أنضجه شيّا..

وقوله: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾؟ وفي الكلام متروك استغني بدلالة الظاهر عليه منه وهو فقرّبه إليهم، فأمسكوا عن أكله، فقال: ألا تأكلون؟ ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾ يقول: فأوجس في نفسه إبراهيم من ضيفه خيفة وأضمرها ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ يعني: بإسحاق، وقال: عليم بمعنى عالم إذا كبر، وذكر الفراء أن بعض المشيخة كان يقول: إذا كان للعلم منتظرًا قيل: إنه لعالم عن قليل وغاية، وفي السيد سائد، والكريم كارم قال: والذي قال حسن. قال: وهذا أيضا كلام عربيّ حسن قد قاله اللَّه في عليم وحكيم وميت.

ورُوي عن مجاهد في قوله: ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ ما حدثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أَبو عاصم، قال: ثنا عيسى؛ وحدثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء جميعا، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، في قوله: ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ قال: إسماعيل. وإنما قلت: عنى به إسحاق، لأن البشارة كانت بالولد من سارة، وإسماعيل لهاجَر لا لسارة.

قوله: ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ﴾ يعنى: سارة، وليس ذلك إقبال نقلة من موضع إلى موضع، ولا تحوّل من مكان إلى مكان، وإنما هو كقول القائل: أقبل يشتمني، بمعنى: أخذ في شتمي. وقوله: ﴿فِي صَرَّةٖ﴾ يعني: في صيحة»[1].

قال السعدي: «يقول تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾ أي: أما جاءك ﴿حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ ونبأهم الغريب العجيب، وهم: الملائكة الذين أرسلهم اللَّه لإهلاك قوم لوط، وأمرهم بالمرور على إبراهيم، فجاؤوه في صورة أضياف.

﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ قال مجيبًا لهم: ﴿سَلَٰمٞ﴾ أي: عليكم ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ أي: أنتم قوم منكرون، فأحب أن تعرفوني بأنفسكم، ولم يعرفهم إلا بعد ذلك.

---

(١) جامع البيان (٢٦/ ٢٠٧-٢٠٩).

ولهذا راغ إلى أهله أي: ذهب سريعًا في خفية، ليحضر لهم قراهم، ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٍ سَمِينٍ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ وعرض عليهم الأكل، فـ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾ حين رأى أيديهم لا تصل إليه، ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾ وأخبروه بما جاؤوا له ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ وهو: إسحاق عليه السلام.

فلما سمعت المرأة البشارة أقبلت فرحة مستبشرة ﴿فِي صَرَّةٖ﴾ أي: صيحة ﴿فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾ وهذا من جنس ما يجري من النساء عند السرور ونحوه من الأقوال والأفعال المخالفة للطبيعة والعادة، ﴿وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾ أي: أنى لي الولد، وأنا عجوز، قد بلغت من السن ما لا تلد معه النساء، ومع ذلك فأنا عقيم، غير صالح رحمي للولادة أصلا، فثم مانعان، كل منهما مانع من الولد، وقد ذكرت المانع الثالث في سورة هود بقولها: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾[1].

﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾ أي: اللَّه الذي قدر ذلك وأمضاه، فلا عجب في قدرة اللَّه تعالى ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي: الذي وضع الأشياء مواضعها، وقد وسع كل شيء علمًا فسلموا لحكمه، واشكروه على نعمته»[2].

قال ابن كثير: «هذه القصة قد تقدمت في سورة هود والحجر أيضا. وقوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٤﴾ أي: الذين أرصد لهم الكرامة. وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل.

وقوله: ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ﴾: الرفع أقوى وأثبت من النصب، فرده أفضل من التسليم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾[3]، فالخليل اختار الأفضل.

وقوله: ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ وذلك أن الملائكة وهم: جبريل وإسرافيل وميكائيل[4] قدموا عليه في صور شباب حسان عليهم مهابة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾. وقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ أي: انسل خفية في سرعة، ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ أي: من

---

(١) هود: الآية (٧٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٦٩-١٧٠).

(٣) النساء: الآية (٨٦).

(٤) تعيين أسماء الملائكة يحتاج إلى دليل، فاللَّه أعلم بمن حضره فلا داعي في الخوض فيما لم نؤمر به.

خيار ماله. وفي الآية الأخرى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[1] أي: مشوي على الرَّضف، ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أدناه منهم، ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ : تلطف في العبارة وعرض حسن.

وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛ فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولا فقال: نأتيكم بطعام؟ بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتي سمين مشوي، فقربه إليهم، لم يضعه وقال: اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق، فافعل.

وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ هذا محال على ما تقدم في القصة في السورة الأخرى، وهو قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾[2] أي: استبشرت بهلاكهم؛ لتمردهم وعتوهم على الله، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب. ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾[3]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ ، فالبشارة له هي بشارة لها؛ لأن الولد منهما، فكل منهما بشر به.

وقوله: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ أي: في صرخة عظيمة ورنة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو صالح، والضحاك، وزيد بن أسلم، والثوري، والسدي، وهي قولها: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾. ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾؛ أي: ضربت بيدها على جبينها، قاله مجاهد وابن سابط. وقال ابن عباس: لطمت، أي تعجبا كما تتعجب النساء من الأمر الغريب، ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾أي: كيف ألد وأنا عجوز، وقد كنتُ في حال الصبا عقيمًا لا أحبل؟.

---

(١) هود: الآية (٦٩).

(٢) هود الآيتان (٧٠-٧١).

(٣) هود الآيتان (٧٢-٧٣).

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٠﴾ أي: عليم بما تستحقون من الكرامة، حكيم في أقواله وأفعاله»[١].

قلت: ومن أراد التطلع إلى معنى هذه الآية وتدبرها فليراجع كلام ابن القيم في الرسالة التبوكية وجلاء الأفهام فقد أجاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأفاد، وقد قدمنا شيئا منه في سورة هود بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع، والله أعلم.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الضيافة وأنها من خصال الإيمان

* عن أبي شريح الكعبي أن رسول الله ﷺ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، جائزته يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يحرجه**»[٢].

★ غريب الحديث:

فليكرم ضيفه: الضيف هو القادم على القوم النازل بهم، ويقال: ضيف على الواحد والجمع، ويجمع أيضًا على أضياف وضيوف وضيفان، والمرأة ضيف وضيفة، وأضفتَ الرجل وضيفته: إذا أنزلته بك ضيفًا، وضفتُ الرجل ضيافة: إذا نزلت عليه، وكذلك تضيفته[٣].

جائزته: الجائزة العطية والمنحة والصلة.

يثوي: هو بكسر الواو وبفتحها في الماضي وبكسرها في المضارع. أي: لا يقيم، والثواء الإقامة بالمكان.

يحرجه: بحاء مهملة ثم جيم من الحرج وهو الضيق.

★ فوائد الحديث:

قوله: «**ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يحرجه**» في رواية عند مسلم كتاب اللقطة

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٩٧-٣٩٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣١) و(٦/ ٣٨٥)، والبخاري (١٠/ ٥٣١/ ٦١٣٥)، ومسلم (١/ ٦٩/ ٤٨) و(٣/ ١٣٥٢/ ٤٨)، وأبو داود (٤/ ١٢٧-١٢٨/ ٣٧٤٨)، والترمذي (٤/ ٣٠٤/ ١٩٦٧) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى كما في التحفة (٩/ ٢٢٤)، وابن ماجه (٢/ ١٢١٢/ ٣٦٧٥).

(٣) المفهم (١/ ٢٢٩-٢٣٠).

باب الضيافة: «حتى يؤثمه» قال النووي: «قال العلماء: معناه لا يحل للضيف أن يقيم عنده بعد الثلاث حتى يوقعه في الإثم؛ لأنه قد يغتابه لطول مقامه، أو يعرض له بما يؤذيه، أو يظن به ما لا يجوز، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[1]، وهذا كله محمول على ما إذا أقام بعد الثلاث من غير استدعاء من المضيف، أما إذا استدعاه وطلب زيادة إقامته أو علم أو ظن أنه لا يكره إقامته فلا بأس بالزيادة؛ لأن النهي إنما كان لكونه يؤثمه، وقد زال هذا المعنى والحالة هذه، فلو شك في حال المضيف هل تكره الزيادة ويلحقه بها حرج أم لا تحل الزيادة إلا بإذنه لظاهر الحديث واللَّه أعلم»[2].

قوله: «**جائزته يوم وليلة**» قال الخطابي: «سئل مالك بن أنس عنه؟ فقال: يكرمه ويتحفه ويخصه ويحفظه يوما وليلة وثلاثة أيام ضيافة.

قلت: يريد أنه يتكلف له في اليوم الأول بما اتسع له من بر وإلطاف، ويقدم له في اليوم الثاني والثالث ما كان بحضرته ولا يزيد على عادته، وما كان بعد الثلاث فهو صدقة ومعروف إن شاء فعل وإن شاء ترك»[3].

قال ابن بطال: «قسم رسول اللَّه ﷺ أمره إلى ثلاثة أقسام: إذا نزل به الضيف أتحفه في اليوم الأول، وتكلف له على قدر وجده، فإذا كان اليوم الثاني قدم إليه ما بحضرته، فإذا جاوز هذه الثلاثة كان مخيرًا بين أن يستمر على وتيرته أو يمسك، وجعله كالصدقة النافلة»[4].

قال البغوي: «قد صح عن عبد الحميد بن جعفر عن سعيد المقبري عن أبي شريح قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**الضيافة ثلاثة أيام وجائزته يوم وليلة**»[5]. فهذا يدل على أن الجائزة بعد الضيافة، وهي أن يعطيه ما يجوز به مسافة يوم وليلة، والجيزة قدر ما يجوز به المسافر من منهل إلى منهل»[6].

قال الطيبي بعد نقله كلام البغوي: «جائزته: إلى آخره، جملة مستأنفة بيان للأولى، كأنه قيل: كيف يكرمه؟ فأجيب: جائزته. ولا بد من تقدير مضاف، أي:

---

(١) الحجرات: الآية (١٢).

(٢) شرح مسلم (١٢/ ٢٨).

(٣) معالم السنن (٤/ ٢٢٠-٢٢١).

(٤) شرح ابن بطال (٩/ ٣٠٩).

(٥) أخرجه مسلم (٣/ ١٣٥٢/ ٤٨).

(٦) شرح السنة (١١/ ٣٣٧-٣٣٨).

زمان جائزته. أي: بره وإلطافه يوم وليلة. وفي هذا الحديث يحمل على اليوم الأول، وفي الحديث الآخر على اليوم الآخر، أي: قدر ما يجوز به المسافر ما يكفيه يومًا وليلة، فينبغي أن يحمل على هذا عملًا بالحديثين»(١).

قال الحافظ: «ويحتمل أن يكون المراد بقوله: **«وجائزته»** بيانًا لحالة أخرى، وهي أن المسافر تارة يقيم عند من ينزل عليه، فهذا لا يزاد على الثلاث بتفاصيلها، وتارة لا يقيم، فهذا يعطى ما يجوز به قدر كفايته يومًا وليلة، ولعل هذا أعدل الأوجه، والله أعلم»(٢).

قلت: وما عدله الحافظ من الأوجه، حكاه القاضي قولًا لبعضهم كما في «الإكمال»(٣) وغيره.

*** عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»(٤).**

⋆ غريب الحديث:

ليصمت: يقال: صَمَتَ يَصْمُتُ، بضم الميم، صَمْتًا وصموتًا، وصماتا أي: سكت، قال الجوهري: ويقال: أصمت بمعنى صمت، والتصميت: السكوت، والتصميت أيضًا: التسكيت.

⋆ فوائد الحديث:

قال ابن رجب: «قوله ﷺ: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر»** فليفعل كذا وكذا، يدل على أن هذه الخصال من خصال الإيمان، وقد سبق أن الأعمال تدخل في الإيمان.. وأعمال الإيمان تارة تتعلق بحقوق الله؛ كأداء الواجبات وترك المحرمات، ومن ذلك قول الخير والصمت عن غيره، وتارة تتعلق بحقوق عباده

---

(١) شرح المشكاة (٩/ ٢٨٦٦). (٢) فتح الباري (١٠/ ٦٥٣).

(٣) (٦/ ٢١).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٧، ٤٣٣، ٤٦٣)، والبخاري (١٠/ ٥٣٢/ ٦١٣٦) واللفظ له، ومسلم (١/ ٦٨/ ٤٧)، وأبو داود (٥/ ٣٥٨/ ٥١٥٤)، والترمذي (٤/ ٥٦٩/ ٢٥٠٠) وقال: «حديث صحيح»، وأخرجه ابن ماجه مختصرًا (٢/ ١٣١٣/ ٣٩٧١).

كإكرام الضيف وإكرام الجار والكف عن أذاه، فهذه ثلاثة أشياء يؤمر بها المؤمن»[(١)].

قال ابن عبد البر: «لا أعلم خلافًا بين العلماء في مدح مضيف الضيف وحمده والثناء بذلك عليه، وكلهم ينب إلى ذلك، ويجعله من مكارم الأخلاق وسنن المرسلين؛ لأنه ثبت أن إبراهيم عليه السلام أول من ضيف الضيف، وحض رسول الله ﷺ على الضيافة وندب إليها»[(٢)].

قال القرطبي: «أفاد هذا الحديث أنها -الضيافة- من أخلاق المؤمنين، ومما لا ينبغي لهم أن يتخلفوا عنها، لما يحصل عليها من الثواب في الآخرة، ولما يترتب عليها في الدنيا من إظهار العمل بمكارم الأخلاق، وحسن الأحدوثة الطيبة، وطيب الثناء، وحصول الراحة للضيف المتعوب بمشقات السفر، المحتاج إلى ما يخفف عليه ما هو فيه من المشقة والحاجة.

ولم تزل الضيافة معمولًا بها في العرب من لدن إبراهيم ﷺ؛ لأنه أول من ضيف الضيف، وعادة مستمرة فيهم، حتى إن من تركها يذم عرفًا، ويبخل ويقبح عليه عادة، فنحن وإن لم نقل: إنها واجبة شرعًا فهي متعينة لما يحصل منها من المصالح، ويندفع بها من المضار عادة وعرفًا»[(٣)].

قال القاضي معلِّقًا على قوله: «**من كان يؤمن بالله**»: «أي: من كان يؤمن بالله فليكن من خلقه إكرام الضيف. وأجمع العلماء على أنها من مكارم الأخلاق وسنن الشريعة. واختلفوا في وجوبها: فأكثرهم على ما ذكرناه، وحكى الليث أنه حق واجب، وقيل عنه: واجب ليلة واحدة، وقال الشافعي: الضيافة على أهل البادية والحاضرة حق واجب من مكارم الأخلاق، وهذا كما قالت الجماعة»[(٤)].

وقال: «قال مالك وسحنون: إنما ذلك على أهل البوادي ولا يلزم أهل الحاضرة؛ لأن المسافر يجد في الحضر المنازل في الفنادق ومواضع النزول وما يشترى في الأسواق، وقد جاء في حديث: «**الضيافة على أهل الوبر، وليست على أهل المدر**» لكن هذا الحديث عند أهل المعرفة موضوع»[(٥)].

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٣٣) بتصرف.

(٢) فتح البر (١٠/ ٣٦٩).

(٣) المفهم (٥/ ١٩٧-١٩٨).

(٤) إكمال المعلم (٦/ ٢١).

(٥) إكمال المعلم (١/ ٢٨٦).

قال الشيخ الألباني بعد ذكره هذا الحديث وحكمه عليه بالوضع: «والضيافة واجبة شرعًا على كل مستطيع، سواء كان بدويًا أو مدنيًا؛ لعموم الأحاديث، ولا يجوز تخصيصها بمثل هذا الحديث الموضوع، ومدتها ثلاثة أيام حق لازم، فما زاد عليها فهو صدقة»[(١)].

قلت: وإلى القول بالوجوب دون تفريق بين مدني وبدوي ولا بين فقيه وجاهل ذهب ابن حزم كما في المحلى[(٢)].

* عن عقبة بن عامر ﷺ أنه قال: قلنا يا رسول اللَّه إنك تبعثنا فننزل بقوم فلا يقروننا، فما ترى فيه؟ فقال لنا رسول اللَّه ﷺ: **«إن نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا، فإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم»**[(٣)].

★ غريب الحديث:

فلا يقروننا: قَرَى الضيف قِرى وقِراء: أضافه، واستقراني واقتراني وأقراني: طلب مني القرى، وإنه لقري للضيف، والأنثى قرية قال الجوهري: قريت الضيف قرى مثال قليته قلى وقَرَاءَ: أحسنت إليه، إذا كسرت القاف قصرت، وإذا فتحت مددت.

★ فوائد الحديث:

قال المازري: «أشار الشيخ أبو الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أن المراد بقوله: **«فخذوا منهم حق الضيف»** العتب واللوم والذم عند الناس. ويحتمل عندي أن يحمل على ضيافة واجبة، فإنه إذا أبوا من بذلها أخذت منهم إذا قدر على ذلك. أما الشيخ أبو الحسن فإني رأيته قال على هذا الحديث: حق الضيف ما ذكرناه عنه. ولعله أراد حمله على ما يعم؛ لأن ما قلناه نحن يخص، ولكنه مع خصوصيته أرجح من جهة أن العتب واللوم والذم عند الناس ربما كان الشرع يندب إلى تركه لا إلى فعله. وإذا

---

(١) السلسلة الضعيفة (٢/ ٢٠٧).

(٢) (٩/ ١٧٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٤٩)، والبخاري (١٠/ ٥٣٢/ ٦١٣٧)، ومسلم (٣/ ١٣٥٣/ ١٧٢٧)، وأبو داود (٤/ ١٣٠-١٣١/ ٣٧٥٢)، والترمذي (٤/ ١٢٥-١٢٦/ ١٥٨٩) وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه (٢/ ١٢١٢/ ٣٦٧٦).

تعين على قوم مواساة آخرين فإنه لا يكره لهم إذا اضطروا وخافوا على أنفسهم الأخذ من طعامهم»[١].

قال الحافظ: «وظاهر هذا الحديث أن قرى الضيف واجب، وأن المنزول عليه لو امتنع من الضيافة أخذت منه قهرًا، وقال به الليث مطلقًا، وخصه أحمد بأهل البوادي دون القرى، وقال الجمهور: الضيافة سنة مؤكدة، وأجابوا عن حديث الباب بأجوبة: أحدها: حمله على المضطرين»[٢].

قلت: والصحيح قول الليث ومن قال بقوله كما تقدم، واللَّه أعلم.

* * *

(١) المعلم (٢/ ٢٧١).
(٢) فتح الباري (٥/ ١٣٦).

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ما خطبكم: ما شأنكم، من الخَطْبِ: وهو الأمر الجَلَل.

مسومة: مُعَلَّمَة من السمة، وهي العلامة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قال اللَّه مخبرا عن إبراهيم، عليه السلام: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾[1]. وقال ههنا: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: ما شأنكم وفيم جئتم؟. ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ يعنون قوم لوط.

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً﴾ أي: معلمة ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: مكتتبة عنده بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه، فقال في سورة العنكبوت: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾[2]. وقال ههنا: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾، وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته. ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ احتج بهذه الآية من ذهب إلى رأي المعتزلة، ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام؛ لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين. وهذا الاستدلال ضعيف؛ لأن هؤلاء كانوا قوما

---

(١) هود الآيات (٧٤-٧٦).

(٢) العنكبوت: الآية (٣٢).

مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس، فاتفق الاسمان ههنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك في كل حال.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٣٧﴾ أي: جعلناها عبرة، لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين، ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾»[1].

وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٣٧﴾ يقول: وتركنا في هذه القرية التي أخرجنا من كان فيها من المؤمنين آية، وقال -جل ثناؤه-: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ والمعنى: وتركناها آية لأنها التي ائتفكت بأهلها، فهي الآية، وذلك كقول القائل: ترى في هذا الشيء عبرة وآية؛ ومعناها: هذا الشيء آية وعبرة، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾[2]. وهم كانوا الآيات وفعلهم، ويعني بالآية: العظة والعبرة، للذين يخافون عذاب اللّٰه الأليم في الآخرة»[3].

وقال ابن القيم: «ذكر ﷻ قصة الملائكة في إرسالهم لهلاك قوم لوط، وإرسال الحجارة المسومة عليهم، وفي هذا ما يتضمن تصديق رسله وإهلاك المكذبين لهم، والدلالة على المعاد والثواب والعقاب لوقوعه عيانا في هذا العالم، وهذا من أعظم الأدلة الدالة على صدق رسله لصحة ما أخبروا به عن ربهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٦﴾ ففرق بين الإسلام والإيمان هنا لسر اقتضاه الكلام. فإن الإخراج هنا عبارة عن النجاة، فهو إخراج نجاة من العذاب، ولا ريب أن هذا مختص بالمؤمنين المتبعين للرسل ظاهرا وباطنا.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٦﴾ لما كان الموجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم؛ لأن امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت، وهي مسلمة في الظاهر، فكانت في البيت بين الموجودين لا في القوم الناجين،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٩٨-٣٩٩).

(٢) يوسف: الآية (٧).

(٣) جامع البيان (٢٧/ ٢).

وقد أخبر سبحانه عن خيانة امرأة لوط، وخيانتها أنها كانت تدل قومها على أضيافه وقلبها معهم، وليست خيانة فاحشة، فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهرا، وليست من المؤمنين الناجين.

ومن وضع دلالة القرآن وألفاظه مواضعها تبين له من أسراره وحكمه ما يبهر العقول ويعلم أنه تنزيل من حكيم حميد، وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور وهو: إن الإسلام أعم من الإيمان، فكيف استثناء الأعم من الأخص، وقاعدة الاستثناء تقتضي العكس، وتبين أن المسلمين المستثنين مما وقع عليه فعل الوجود، والمؤمنين غير مستثنين منه؛ بل هم المخرجون الناجون.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ فيه دليل على أن آيات اللَّه سبحانه وعجائبه التي فعلها في هذا العالم وأبقى آثارها دالة عليه وعلى صدق رسله إنما ينتفع بها من يؤمن بالمعاد ويخشى عذاب اللَّه تعالى، كما قال اللَّه تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾[2] فإن من لا يؤمن بالآخرة غايته أن يقول: هؤلاء قوم أصابهم الدهر كما أصاب غيرهم، ولا زال الدهر فيه الشقاوة والسعادة، وأما من آمن بالآخرة وأشفق منها فهو الذي ينتفع بالآيات والمواعظ»[3].

وقال شيخ الإسلام: «قد جاء في الكتاب والسنة وصف أقوام بالإسلام دون الإيمان، فقال تعالى: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾[4] وقال تعالى في قصة قوم لوط: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ وقد ظن طائفة من الناس أن هذه الآية تقتضي أن مسمى الإيمان والإسلام واحد، وعارضوا بين الآيتين وليس كذلك؛ بل هذه الآية توافق الآية الأولى؛ لأن اللَّه أخبر أنه أخرج من كان فيها مؤمنا، وأنه لم يجد إلا أهل بيت من المسلمين.

---

(١) هود: الآية (١٠٣).

(٢) الأعلى: الآية (١٠).

(٣) التبوكية (٤٦-٤٧).

(٤) الحجرات: الآية (١٤).

وذلك لأن امرأة لوط كانت في أهل البيت الموجودين، ولم تكن من المخرجين الذين نجوا؛ بل كانت من الغابرين الباقين في العذاب، وكانت في الظاهر مع زوجها على دينه، وفي الباطن مع قومها على دينهم، خائنة لزوجها تدل قومها على أضيافه، كما قال اللَّه تعالى فيها: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾[1] وكانت خيانتهما لهما في الدين لا في الفراش، فإنه ما بغت امرأة نبي قط، إذ نكاح الكافرة قد يجوز في بعض الشرائع، ويجوز في شريعتنا نكاح بعض الأنواع وهن الكتابيات، وأما نكاح البغي فهو دياثة، وقد صان اللَّه النبي ﷺ عن أن يكون ديوثا، ولهذا كان الصواب قول من قال من الفقهاء بتحريم نكاح البغي حتى تتوب، والمقصود أن امرأة لوط لم تكن مؤمنة، ولم تكن من الناجين المخرجين، فلم تدخل في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾ وكانت من أهل البيت المسلمين، وممن وجد فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ وبهذا تظهر حكمة القرآن حيث ذكر الإيمان لما أخبر بالإخراج، وذكر الإسلام لما أخبر بالوجود»[2].

* * *

(١) التحريم: الآية (١٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٧٢-٤٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

★ غريب الآية:

ركنه: الركن في الأصل: جانب الدار الذي يستند إليه. والمراد هنا: ما يتقوى به ويعتمد عليه من جند وبطانة.

نبذناهم: طرحناهم وألقيناهم.

اليم: البحر.

مليم: آتٍ بما يُلامُ عليه. والمَلُوم: الواقع في اللوم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وفي موسى بن عمران إذ أرسلناه إلى فرعون بحجة تبين لمن رآها أنها حجة لموسى على حقيقة ما يقول ويدعو إليه... وقوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ يقول: فأدبر فرعون كما أرسلنا إليه موسى بقومه من جنده وأصحابه... وأصل الركن: الجانب والناحية التي يعتمد عليها ويقوى بها وقوله: ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ يقول: وقال لموسى: هو ساحر يسحر عيون الناس، أو مجنون، به جنة. وكان معمر بن المثنى يقول: «أو» في هذا الموضع بمعنى الواو التي للموالاة، لأنهم قد قالوهما جميعا له، وأنشد في ذلك بيت جرير الخطفي:

أَثَعْلَبَةَ الفَوَارِسِ أَوْ رِيَاحا عَدَلْتَ بِهِمْ طُهَيَّةَ والخِشَابا»[1].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ آية ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بدليل باهر وحجة قاطعة، ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين، استكبارا وعنادا. وقال مجاهد: تعزز بأصحابه. وقال

(١) جامع البيان (٢٧/ ٢-٣).

قتادة: غلب عدُو اللَّه على قومه. وقال ابن زيد: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: بجموعه التي معه، ثم قرأ: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾[١].

والمعنى الأول قوي كقوله: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٢] أي: معرض عن الحق مستكبر، ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي: لا يخلو أمرك فيما جئتني به من أن تكون ساحرا أو مجنونا. قال اللَّه تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ أي: ألقيناهم في اليم، وهو البحر، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند»[٣].

وقال السعدي: «أي: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ وما أرسله اللَّه به إلى فرعون وملئه بالآيات البينات، والمعجزات الظاهرات، آية للذين يخافون العذاب الأليم، فلما أتى موسى بذلك السلطان المبين، تولى فرعون ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: أعرض بجانبه عن الحق، ولم يلتفت إليه، وقدحوا فيه أعظم القدح فقالوا: ﴿سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي: إن موسى لا يخلو إما أن يكون وما أتى به سحرا وشعبذة[٤] ليس من الحق في شيء، وإما أن يكون مجنونًا، لا يؤخذ بما صدر منه، لعدم عقله.

هذا وقد علموا، خصوصًا فرعون، أن موسى صادق، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[٥] وقال موسى لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾[٦] الآية، ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ أي: مذنب طاغ، عات على اللَّه، فأخذه أخذ عزيز مقتدر»[٧].

* * *

(١) هود: الآية (٨٠).
(٢) الحج: الآية (٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٩٩).
(٤) هو بالذال معجمة وهي لعب يرى الإنسان منه ما ليس له حقيقة كالسحر.
(٥) النمل: الآية (١٤).
(٦) الإسراء: الآية (١٠٢).
(٧) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾

★ غريب الآية:

الريح العقيم: التي لا تأتي بمطر ولا سحاب.

كالرميم: أي: كالورق المفتوت. والرميم: الشيء البالي الهالك. ورمَّ العظم: بَلِيَ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ أيضا، وما فعلنا بهم لهم آية وعبرة ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ يعني بالريح العقيم: التي لا تلقح الشجر . . . قال ابن زيد، في قوله: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ قال: إن اللَّه -تبارك وتعالى- يُرسل الريح بُشرا بين يدي رحمته، فيحيي به الأصل والشجر، وهذه لا تلقح ولا تحيى، هي عقيم ليس فيها من الخير شيء، إنما هي عذاب لا تلقح شيئا، وهذه تلقح، وقرأ ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾[(١)]. وقوله: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ والرميم في كلام العرب: ما يبس من نبات الأرض وديس»[(٢)].

وقال ابن كثير: «ثم قال: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ أي: المفسدة التي لا تنتج شيئا. قاله الضحاك وقتادة وغيرهما. ولهذا قال: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أي: مما تفسده الريح ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أي: كالشيء الهالك البالي»[(٣)].

وقال السعدي: «أي: وآية لهم ﴿وَفِي عَادٍ﴾ القبيلة المعروفة ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أي: التي لا خير فيها، حين كذبوا نبيهم هودا عليه السلام. ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ

---

(١) الحجر: الآية (٢٢).
(٢) جامع البيان (٢٧/ ٤-٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٩٩).

﴿أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ۝﴾ أي: كالرمم البالية، فالذي أهلكهم على قوتهم وبطشهم، دليل على كمال قوته واقتداره، الذي لا يعجزه شيء، المنتقم ممن عصاه»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان الريح التي أهلكت بها قوم عاد

* عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**نُصرتُ بالصبا، وأُهلِكت عاد بالدبور**»[(٢)].

★ **غريب الحديث:**

الصبا: الريح التي تجيء من ظهرك إذا استقبلت القبلة.

الدبور: هي التي تجيء من قبل وجهك إذا استقبلت القبلة أيضا.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «وضدها الدبور، وهي التي أهلكت بها قوم عاد، ومن لطيف المناسبة كون القبول نصرت أهل القبول، وكون الدبور أهلكت أهل الإدبار، وأن الدبور أشد من الصبا ولم يخرج منها إلا قدر يسير، ومع ذلك استأصلتهم، قال اللَّه تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝﴾[(٣)]»[(٤)].

قال العيني: «وأما عاد.. فكانوا ثلاث عشرة قبيلة ينزلون الأحقاف وبلادها، وكانت ديارهم بالدهناء وعالج وبثرين ووبار إلى حضرموت، وكانت أخصب البلاد، فلما سخط اللَّه تعالى عليهم جعلها مفاوز، فأرسل اللَّه عليهم الدبور فأهلكتهم، وكانت ﴿عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾[(٥)] أي: متتابعة ابتدأت غدوة الأربعاء وسكنت في آخر الثامن، واعتزل هود نبي اللَّه عليه السلام ومن معه من المؤمنين في حظيرة لا يصيبهم منها إلا ما يلين الجلود وتلذ الأعين، وقال

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٧٦).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٨)، والبخاري (٢/ ٦٦١/ ١٠٣٥)، ومسلم (٢/ ٦١٧/ ٩٠٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٦٩/ ١١٥٢٦).

(٣) الحاقة: الآية (٨).

(٤) فتح الباري (٢/ ٦٦٢) بتصرف يسير.

(٥) الحاقة: الآية (٧).

مجاهد: وكان قد آمن معه أربعة آلاف فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾[1]، وكانت الريح تقلع الشجر وتهدم البيوت، ومن لم يكن في بيته منهم أهلكته في البراري والجبال، وكانت ترفع الظعينة بين السماء والأرض حتى ترى كأنها جرادة، وترميهم بالحجارة فتدق أعناقهم»[2].

وقد تقدم الكلام على هذا المعنى في سورة (الأعراف) و(الأحقاف)، والله الموفق.

* * *

(١) هود: الآية (٥٨).

(٢) عمدة القاري (٥/ ٢٨٨).

قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ۝٤٣ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٤٤ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ۝٤٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وفي ثمود أيضا لهم عبرة ومتعظ، إذ قال لهم ربهم، يقول: فتكبروا عن أمر ربهم وعلو استكبارا عن طاعة الله.

وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ يقول تعالى ذكره: فأخذتهم صاعقة العذاب فجأة»[1].

وقوله: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ۝٤٥﴾ قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: فما استطاعوا من دفاع لما نزل بهم من عذاب اللّه، ولا قدروا على نهوض به.. وكان بعض أهل العربية يقول: معنى قوله: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾: فما قاموا بها، قال: لو كانت فما استطاعوا من إقامة، لكان صوابا، وطرح الألف منها كقوله: ﴿أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[2].

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ يقول: وما كانوا قادرين على أن يستقيدوا ممن أحل بهم العقوبة التي حلت بهم»[3].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ أي: وفيهم أيضا عبرة وآية حين قيل لهم عيشوا متمتعين بالدنيا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى وقت الهلاك وهو ثلاثة أيام كما في هود: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾[4].

وقيل معنى ﴿تَمَتَّعُوا﴾ أي: أسلموا وتمتعوا إلى وقت فراغ آجالكم. ﴿فَعَتَوْا عَنْ

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ٥-٦).
(٢) نوح: الآية (١٧).
(٣) جامع البيان (٢٧/ ٦-٧).
(٤) هود: الآية (٦٥).

﴿أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: خالفوا أمر اللَّه فعقروا الناقة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾أي: الموت. وقيل: هي كل عذاب مهلك. قال الحسين بن واقد: كل صاعقة في القرآن فهو العذاب. . . ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليها نهارا. ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ قيل معناه: من نهوض. وقيل: ما أطاقوا أن يستقلوا بعذاب اللَّه وأن يتحملوه ويقوموا به ويدفعوه عن أنفسهم، تقول: لا أقوم لهذا الأمر أي: لا أطيقه. وقال ابن عباس: أي ذهبت أجسامهم وبقيت أرواحهم في العذاب. ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ أي: ممتنعين من العذاب حين أهلكوا، أي: ما كان لهم ناصر»[1].

قال ابن كثير: «﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾قال ابن جرير: يعني إلى وقت فناء آجالكم. والظاهر أن هذه كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾[2] وهكذا قال ههنا: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾، وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بُكْرَة النهار ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ أي: من هَرَبٍ ولا نهوض، ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ أي: ولا يقدرون على أن ينتصروا مما هم فيه»[3].

وقال السعدي: «أي: وَفِي ثَمُودَ آية عظيمة، حين أرسل اللَّه إليهم صالحًا عليه السلام، فكذبوه وعاندوه، وبعث اللَّه له الناقة، آية مبصرة، فلم يزدهم ذلك إلا عتوًا ونفورًا. فقيل لَهُم: ﴿تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي: الصيحة العظيمة المهلكة ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إلى عقوبتهم بأعينهم. ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ ينجون به من العذاب، ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ لأنفسهم»[4].

* * *

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٣٥).

(٢) فصلت: الآية (١٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٠٠).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٧٦).

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ۝٤٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: وكذلك ما فعل اللَّه بقوم نوح، حين كذبوا نوحًا عليه السلام وفسقوا عن أمر اللَّه، فأرسل عليهم السماء والأرض بالماء المنهمر، فأغرقهم عن آخرهم، ولم يبق من الكافرين ديارًا، وهذه عادة اللَّه وسنته فيمن عصاه»[١].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ وكل هذه القصص قد تقدمت مبسوطة في أماكن كثيرة من سور متعددة»[٢].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٧٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٠٠).

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾

★ غريب الآية:

أييد: الأيد: القوة والإحكام.

لموسعون: أي: زائدون في سعتها.

الماهدون: الماهد: الموطئ للشيء. من مهدت الفراش مهدًا: بسطته ووطأته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ﴾، ليس من آيات الصفات المعروفة بهذا الاسم؛ لأن قوله: ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ ليس جمع يد: وإنما الأيد القوة، فوزن قوله هنا بأيد فعل، ووزن الأيدي أفعل، فالهمزة في قوله: ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ في مكان الفاء والياء في مكان العين، والدال في مكان اللام. ولو كان قوله تعالى: ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ جمع يد لكان وزنه أفعلًا، فتكون الهمزة زائدة والياء في مكان الفاء، والدال في مكان العين والياء المحذوفة لكونه منقوصًا هي اللام.

والأيد، والآد في لغة العرب بمعنى القوة، ورجل أيد: قوي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[1] أي قويناه به، فمن ظن أنها جمع يد في هذه الآية فقد غلط غلطًا فاحشًا، والمعنى: والسماء بنيناها بقوة»[2].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: والسماء رفعناها سقفا بقوة.. وقوله:

(١) البقرة: الآية (٨٧).

(٢) أضواء البيان (٧/ ٦٦٩).

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ يقول: لذو سعة بخلقها وخلق ما شئنا أن نخلقه وقدرة عليه. ومنه قوله: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾[1] يراد به القوي... وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ يقول تعالى ذكره: والأرض جعلناها فراشا للخلق ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ يقول: فنعم الماهدون لهم نحن»[2].

قوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: وخلقنا من كل شيء خلقنا زوجين، وترك (خَلَقْنا) الأولى استغناء بدلالة الكلام عليها.

واختلف في معنى ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ فقال بعضهم: عنى به: ومن كلّ شيء خلقنا نوعين مختلفين كالشقاء والسعادة والهدى والضلالة، ونحو ذلك، [وهو قول مجاهد].. وقال آخرون: عنى بالزوجين: الذكر والأنثى.. وأولى القولين في ذلك قول مجاهد، وهو أن اللَّه -تبارك وتعالى- خلق لكلّ ما خلق من خلقه ثانيا له مخالفا في معناه، فكلّ واحد منهما زوج للآخر، ولذلك قيل: خلقنا زوجين. وإنما نبه -جل ثناؤه- بذلك من قوله: خلقه على قُدرته على خلق ما يشاء خلقه من شيء، وأنه ليس كالأشياء التي شأنها فعل نوع واحد دون خلافه، إذ كلّ ما صفته فعل نوع واحد دون ما عداه كالنار التي شأنها التسخين، ولا تصلح للتبريد، وكالثلج الذي شأنه التبريد، ولا يصلح للتسخين، فلا يجوز أن يوصف بالكمال، وإنما كمال المدح للقادر على فعل كلّ ما شاء فعله من الأشياء المختلفة والمتفقة.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول: لتذكروا وتعتبروا بذلك، فتعلموا أيها المشركون باللَّه أن ربكم الذي يستوجب عليكم العبادة هو الذي يقدر على خلق الشيء وخلافه، وابتداع زوجين من كلّ شيء لا ما لا يقدر على ذلك»[3].

وقوله تعالى: «﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فاهربوا أيها الناس من عقاب اللَّه إلى رحمته بالإيمان به، واتباع أمره، والعمل بطاعته ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾ يقول: إني لكم من اللَّه نذير أنذركم

---

(١) البقرة: الآية (٢٣٦).

(٢) جامع البيان (٢٧/ ٧-٨).

(٣) جامع البيان (٢٧/ ٨-٩).

عقابه، وأخوّفكم عذابه الذي أحله بهؤلاء الأمم الذي قصّ عليكم قصصهم، والذي هو مذيقهم في الآخرة. وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ يقول: يبين لكم نذارته»[١].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى منبها على خلق العالم العلوي والسفلي: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ أي: جعلناها سقفا رفيعا ﴿بِأَيۡيْدٖ﴾ أي: بقوة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والثوري، وغير واحد، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ، أي: قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد، حتى استقلت كما هي.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾ أي: جعلناها فراشًا للمخلوقات، ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ أي: وجعلناها مهدا لأهلها.

﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ أي: جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات والنباتات، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لتعلموا أن الخالق واحدٌ لا شريك له. ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ أي: الجئوا إليه، واعتمدوا في أموركم عليه، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾. ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ﴾ أي: ولا تشركوا به شيئا، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾»[٢].

وقال السعدي: «فلما دعا العباد إلى النظر لآياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه أي: الفرار مما يكرهه اللَّه ظاهرًا وباطنًا، إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى الذكر، فمن استكمل هذه الأمور، فقد استكمل الدين كله وقد زال عنه المرهوب، وحصل له غاية المراد والمطلوب.

وسمى اللَّه الرجوع إليه فرارًا؛ لأن في الرجوع إلى غيره أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه، أنواع المحاب والأمن، والسرور والسعادة والفوز، فيفر العبد من قضائه وقدره، إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه إلى اللَّه تعالى، فإنه بحسب الخوف منه، يكون الفرار إليه، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ أي:

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٠٠-٤٠١).

منذر لكم من عذاب اللَّه، ومخوف بين النذارة.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ هذا من الفرار إلى اللَّه، بل هذا أصل الفرار إليه أن يفر العبد من اتخاذ آلهة غير اللَّه من الأوثان والأنداد والقبور، وغيرها مما عبد من دون اللَّه، ويخلص لربه العبادة والخوف، والرجاء والدعاء والإنابة»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٧٧-١٧٩)، وانظر مدارج السالكين (١/ ٤٦٩).

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: كما كذبت قريش نبيها محمدًا ﷺ، وقالت: هو شاعر، أو ساحر، أو مجنون، كذلك فعلت الأمم المكذّبة رسلها، الذين أحلّ اللَّه بهم نقمته، كقوم نوح وعاد وثمود، وفرعون وقومه، ما أتى هؤلاء القوم الذين ذكرناهم من قبلهم، يعني من قبل قريش قوم محمد ﷺ من رسول إلا قالوا: ساحر أو مجنون، كما قالت قريش لمحمد ﷺ.

وقوله: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ يقول -تعالى ذكره-: أأوصى هؤلاء المكذّبين من قريش محمدا ﷺ على ما جاءهم به من الحق أوائلهم وآباؤهم الماضون من قبلهم، بتكذيب محمد ﷺ، فقبلوا ذلك عنهم»[1].

وقال أيضا: «وقوله: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ما أوصى هؤلاء المشركون آخرهم بذلك، ولكنهم قوم متعدّون طغاة عن أمر ربهم، لا يأتمرون لأمره، ولا ينتهون عما نهاهم عنه»[2].

وقال السعدي: «يقول اللَّه مسليًا لرسوله ﷺ عن تكذيب المشركين باللَّه، المكذبين له، القائلين فيه من الأقوال الشنيعة ما هو منزه عنه، وأن هذه الأقوال ما زالت دأبًا وعادة للمجرمين المكذبين للرسل، فما أرسل اللَّه من رسول إلا رماه قومه بالسحر أو الجنون.

يقول اللَّه تعالى: هذه الأقوال التي صدرت منهم -الأولين والآخرين- هل هي أقوال تواصوا بها، ولقن بعضهم بعضًا بها؟ فلا يستغرب -بسبب ذلك- اتفاقهم

(١) جامع البيان (٢٧/ ٩-١٠).
(٢) جامع البيان (٢٧/ ١٠).

عليها: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ تشابهت قلوبهم وأعمالهم بالكفر والطغيان، فتشابهت أقوالهم الناشئة عن طغيانهم؟ وهذا هو الواقع، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[1] وكذلك المؤمنون، لما تشابهت قلوبهم بالإذعان للحق وطلبه، والسعي فيه، بادروا إلى الإيمان برسلهم وتعظيمهم، وتوقيرهم، وخطابهم بالخطاب اللائق بهم»[2].

وقال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه ما أتى نبي قومًا إلا قالوا ساحر أو مجنون، ثم قال: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾، ثم أضرب عن تواصيهم بذلك إضراب إبطال؛ لأنهم لم يجمعوا في زمن حتى يتواصوا فقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: الموجب الذي جمع على اتفاقهم جميعًا على تكذيب الرسل ونسبتهم للسحر والجنون، هو اتحاد في الطغيان الذي هو مجاوزة الحد في الكفر. وهذا يدل على أنهم إنما اتفقوا لأن قلوب بعضهم تشبه قلوب بعض في الكفر والطغيان، فتشابهت مقالاتهم للرسل لأجل تشابه قلوبهم.

وقد أوضح تعالى هذا المعنى في سورة البقرة: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾»[3].

* * *

---

(١) البقرة: الآية (١١٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٧٩-١٨٠).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٦٦٩-٦٧٠).

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: فتولّ يا محمد عن هؤلاء المشركين باللَّه من قريش، يقول: فأعرض عنهم حتى يأتيك فيهم أمر اللَّه.. وقوله: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ يقول -جل ثناؤه-: فما أنت يا محمد بملوم، لا يلومك ربك على تفريط كان منك في الإنذار، فقد أنذرت، وبلغت ما أرسلت به.. وقوله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ يقول: وعظ يا محمد من أرسلت إليه، فإن العظة تنفع أهل الإيمان بالله»[1].

وقال ابن كثير: «قال اللَّه تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: فأعرض عنهم يا محمد، ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ يعني: فما نلومك على ذلك. ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة»[2].

قال السعدي: «يقول تعالى آمرًا رسوله بالإعراض عن المعرضين المكذبين: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تبال بهم ولا تؤاخذهم، وأقبل على شأنك. فليس عليك لوم في ذنبهم، وإنما عليك البلاغ، وقد أديت ما حملت، وبلغت ما أرسلت به.

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ والتذكير نوعان: تذكير بما لم يعرف تفصيله، مما عرف مجمله بالفطر والعقول، فإن اللَّه فطر العقول على محبة الخير وإيثاره، وكراهة الشر والزهد فيه، وشرعه موافق لذلك، فكل أمر ونهي من الشرع، فإنه من التذكير، وتمام التذكير، أن يذكر ما في المأمور به، من الخير والحسن والمصالح، وما في المنهي عنه من المضار.

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٠-١١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٠١).

والنوع الثاني من التذكير: تذكير بما هو معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيذكرون بذلك، ويكرر عليهم ليرسخ في أذهانهم، وينتبهوا ويعملوا بما تذكروه من ذلك، وليحدث لهم نشاطًا وهمة توجب لهم الانتفاع والارتفاع.

وأخبر اللَّه أن الذكرى تنفع المؤمنين؛ لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة، واتباع رضوان اللَّه، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى، وتقع الموعظة منهم موقعها كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾[1]وأما من ليس له معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير، فهذا لا ينفع تذكيره، بمنزلة الأرض السبخة، التي لا يفيدها المطر شيئًا، وهؤلاء الصنف، لو جاءتهم كل آية، لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم»[2].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤﴾ نفيه -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة اللوم عن نبيه ﷺ، يدل على أنه أدى الأمانة ونصح الأمة. وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾[4]، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة معلومة.

قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك، أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يجعل اللَّه شيئًا لحكم متعددة، فيذكر بعض حكمه في بعض المواضع، فإنا نذكر بقية حكمه، والآيات الدالة عليها، وقد قدمنا أمثلة ذلك. ومن ذلك القبيل هذه الآية الكريمة، فإنها تضمنت واحدة من حكم التذكير وهي رجاء انتفاع المذكر به؛ لأنه تعالى قال هنا: ﴿وَذَكِّرْ﴾، ورتب عليه قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾.

ومن حكم ذلك أيضًا خروج المذكر من عهدة التكليف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد جمع اللَّه هاتين الحكمتين في قوله: ﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ

---

(١) الأعلى الآيات (٩-١١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٨٠-١٨١)، وانظر مجموع الفتاوى (١٦/ ١٧٥)، فما بعدها.

(٣) المائدة: الآية (٣).

(٤) الرعد: الآية (٤٠).

يَتَّقُونَ﴾[١].

ومن حكم ذلك أيضًا النيابة عن الرسل في إقامة حجة اللَّه على خلقه في أرضه؛ لأن اللَّه تعالى يقول: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[٢].

وقد بين هذه الحجة في آخر طه في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾[٣] الآية. وأشار لها في القصص في قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾[٤]. وقد قدمنا هذه الحكم في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾[٥]»[٦].

* * *

(١) الأعراف: الآية (١٦٤).

(٢) النساء: الآية (١٦٥).

(٣) طه: الآية (١٣٤).

(٤) القصص: الآية (٤٧).

(٥) المائدة: الآية (١٠٥).

(٦) أضواء البيان (٧/ ٦٧٠-٦٧١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «هذه الغاية، التي خلق اللَّه الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته، المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، وذلك متوقف على معرفة اللَّه تعالى، فإن تمام العبادة متوقف على المعرفة باللَّه، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق اللَّه المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم»[1].

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ فقال بعضهم: معنى ذلك: وما خلقت السُّعداء من الجنّ والإنس إلا لعبادتي، والأشقياء منهم لمعصيتي.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: ما خلقت الجن والإنس إلا ليذعنوا لي بالعبودية [وهو قول ابن عباس].. وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي ذكرنا عن ابن عباس، وهو: ما خلقت الجنّ والإنس إلا لعبادتنا، والتذلل لأمرنا.

فإن قال قائل: فكيف كفروا وقد خلقهم للتذلل لأمره؟ قيل: إنهم قد تذللوا لقضائه الذي قضاه عليهم؛ لأن قضاءه جار عليهم، لا يقدرون من الامتناع منه إذا نزل بهم، وإنما خالفه من كفر به في العمل بما أمره به، فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه»[2].

وقال ابن كثير: «أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا ليقروا بعبادتي طوعا أو كرها وهذا اختيار ابن جرير.

وقال ابن جُرَيْج: إلا ليعرفون. وقال الربيع بن أنس: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٨١).

(٢) جامع البيان (٢٧/ ١١-١٢).

إلا للعبادة. وقال السدي: من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[١] هذا منهم عبادة، وليس ينفعهم مع الشرك. وقال الضحاك: المراد بذلك المؤمنون»[٢].

وقال الشنقيطي: «اختلف العلماء في معنى قوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾، فقال بعضهم: المعنى ما خلقتهم إلا ليعبدني السعداء منهم ويعصيني الأشقياء، فالحكمة المقصودة من إيجاد الخلق التي هي عبادة اللَّه حاصلة بفعل السعداء منهم كما يدل عليه قوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾[٣]، وهذا القول نقله ابن جرير عن زيد بن أسلم وسفيان.

وغاية ما يلزم على هذا القول أنه أطلق فيها المجموع وأراد بعضهم. وأمثال ذلك كثيرة في القرآن، ومن أوضحها قراءة حمزة والكسائي، (فإن قتلوكم فاقتلوهم)، من القتل لا من القتال، وقد بينا هذا في مواضع متعددة، وذكرنا أن من شواهده العربية قول الشاعر:

فسيف بني عبس وقد ضربوا به ... نبا من يَدَيْ ورقاء عن رأس خالد

فتراه نسب الضرب لبني عبس مع تصريحه أن الضارب الذي نبا بيده السيف عن رأس خالد يعني ابن جعفر الكلابي، هو ورقاء يعني ابن زهير العبسي.

وقد قدمنا في الحجرات أن من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾[٤] الآية بدليل قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٥].

وقال بعض العلماء: معنى قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: أي: إلا ليقروا لي بالعبودية طوعًا أو كرهًا؛ لأن المؤمن يطيع باختياره والكافر مذعن منقاد لقضاء ربه جبرًا عليه، وهذا القول رواه ابن جرير عن ابن عباس واختاره، ويدل له قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[٦] الآية، والسجود والعبادة كلاهما

---

(١) لقمان: الآية (٢٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٠١).
(٣) الأنعام: الآية (٨٩).
(٤) الحجرات: الآية (١٤).
(٥) التوبة: الآية (٩٩).
(٦) الرعد: الآية (١٥).

خضوع وتذلل لله -جل وعلا-، وقد دلت الآية على أن بعضهم يفعل ذلك طوعًا وبعضهم يفعله كرهًا.

وعن مجاهد أنه قال: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: أي إلا ليعرفوني. واستدل بعضهم لهذا القول بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[1] ونحو ذلك من الآيات. وهو كثير في القرآن، وقد أوضحنا كثرته فيه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[2].

وقال بعض أهل العلم: وهو مروي عن مجاهد أيضًا معنى قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: أي إلا لآمرهم بعبادتي فيعبدني من وفقته منهم لعبادتي دون غيره، وعلى هذا القول: فإرادة عبادتهم المدلول عليهم باللام في قوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ إرادة دينية شرعية وهي الملازمة للأمر، وهي عامة لجميع من أمرتهم الرسل لطاعة اللَّه لا إرادة كونية قدرية، لأنها لو كانت كذلك لعبده جميع الإنس والجن، والواقع خلاف ذلك بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ إلى آخر السورة[3].

قال مقيده عفا اللَّه عنه وغفر له: التحقيق إن شاء اللَّه في معنى هذه الآية الكريمة ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا لآمرهم بعبادتي وأبتليهم، أي: أختبرهم بالتكاليف ثم أجازيهم على أعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وإنما قلنا إن هذا هو التحقيق في معنى الآية، لأنه تدل عليه آيات محكمات من كتاب اللَّه، فقد صرح تعالى في آيات من كتابه أنه خلقهم ليبتليهم أيهم أحسن عملًا، وأنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم قال تعالى في أول سورة هود: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ ثم بين الحكمة في ذلك فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[4].

وقال تعالى في أول سورة الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ

---

(١) الزخرف: الآية (٨٧).

(٢) الإسراء: الآية (٩).

(٣) سورة الكافرون.

(٤) هود: الآية (٧).

عَمَلًا﴾(١). وقال تعالى في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝﴾(٢) الآية. فتصريحه -جل وعلا- في هذه الآيات المذكورة بأن حكمة خلقه للخلق، هي ابتلاؤهم أيهم أحسن عملًا، يفسر قوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾. وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

ومعلوم أن نتيجة العمل المقصودة منه لا تتم إلا بجزاء المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ولذا صرح تعالى بأن حكمة خلقهم أولًا وبعثهم ثانيًا، هو جزاء المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وذلك في قوله تعالى في أول يونس: ﴿إِنَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾(٣)، وقوله في النجم: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا بِٱلْحُسْنَى ۝﴾(٤).

وقد أنكر تعالى على الإنسان حسبانه وظنه أنه يترك سدى، أي مهملًا، لم يؤمر ولم ينه، وبين أنه ما نقله من طور إلى طور حتى أوجده إلا ليبعثه بعد الموت، أي: ويجازيه على عمله، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝﴾(٥) إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝﴾(٦).

والبراهين على البعث دالة على الجزاء، وقد نزه تعالى نفسه عن هذا الظن الذي ظنه الكفار به تعالى، وهو أنه لا يبعث الخلق ولا يجازيهم منكرًا ذلك عليهم في قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ۝﴾(٧).

تنبيه:

اعلم أن الآيات الدالة على حكمة خلق اللَّه للسماوات والأرض وأهلهما وما بينهما قد يظن غير المتأمل أن بينهما اختلافًا، والواقع خلاف ذلك؛ لأن كلام اللَّه لا يخالف بعضه بعضًا، وإيضاح ذلك أن اللَّه -تبارك وتعالى- ذكر في بعض الآيات

---

(١) الملك: الآية (٢).
(٢) الكهف: الآية (٧).
(٣) يونس: الآية (٤).
(٤) النجم: الآية (٣١).
(٥) القيامة: الآيات (٣٦-٤٠).
(٦) المؤمنون: الآيتان (١١٥و١١٦).

أن حكمة خلقه للسماوات والأرض هي إعلام خلقه بأنه قادر على كل شيء، وأنه محيط بكل شيء علمًا، وذلك في قوله تعالى في آخر الطلاق: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾[1].

وذكر في مواضع كثيرة من كتابه أنه خلق الخلق ليبين للناس كونه هو المعبود وحده، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾[2]، ثم أقام البرهان على أنه إله واحد بقوله بعده: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3] ولما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ بين أن خلقهم برهان على أنه المعبود وحده بقوله بعده ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[4] الآية.

والاستدلال على أن المعبود واحد بكونه هو الخالق كثير جدًا في القرآن، وقد أوضحنا الآيات الدالة عليه في أول سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾[5] الآية، وفي سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[6] الآية، وفي غير ذلك من المواضع.

وذكر في بعض الآيات أنه خلق السموات والأرض ليبتلي الناس وذلك في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾ .

وذكر في بعض الآيات أنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم وذلك في قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾[7] الآية، وذكر في آية الذاريات هذه أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، فقد يظن غير العالم أن بين هذه الآيات اختلافًا مع أنها لا اختلاف بينها؛ لأن الحكم المذكور فيها كلها راجع إلى شيء

---

(١) الطلاق: الآية (١٢).
(٢) البقرة: الآية (١٦٣).
(٣) البقرة: الآية (١٦٤).
(٤) البقرة: الآية (٢١).
(٥) الفرقان الآيتان (٢-٣).
(٦) الرعد: الآية (١٦).
(٧) يونس: الآية (٤).

واحد، وهو معرفة اللَّه وطاعته ومعرفة وعده ووعيده، وقوله: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] وقوله: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ راجع إلى شيء واحد هو العلم بالله؛ لأن من عرف اللَّه أطاعه ووحده.

وهذا العلم يعلمهم اللَّه إياه ويرسل لهم الرسل بمقتضاه ليهلك من هلك عن بينة، ويحي من حيي عن بينة، فالتكليف بعد العلم، والجزاء بعد التكليف، فظهر بهذا اتفاق الآيات؛ لأن الجزاء لا بد له من تكليف، وهو الابتلاء المذكور في الآيات، والتكليف لا بد له من علم، ولذا دل بعض الآيات على أن حكمة الخلق للمخلوقات هي العلم بالخالق، ودل بعضها على أنها الابتلاء، ودل بعضها على أنها الجزاء، وكل ذلك حق لا اختلاف فيه، وبعضه مرتب على بعض.

وقد بينا معنى ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ في كتابنا "دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب" في سورة هود في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[2] وبينا هناك أن الإرادة المدلول عليها باللام في قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: ولأجل الاختلاف إلى شقي وسعيد خلقهم، وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾[3] إرادة كونية قدرية، وأن الإرادة المدلول عليها باللام في قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، إرادة دينية شرعية.

وبينا هناك أيضًا الأحاديث الدالة على أن اللَّه خلق الخلق منقسمًا إلى شقي وسعيد، وأنه كتب ذلك وقدره قبل أن يخلقهم. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[4] وقال: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾[5].

والحاصل: أن اللَّه دعا جميع الناس على ألسنة رسله إلى الإيمان به وعبادته وحده وأمرهم بذلك، وأمره بذلك مستلزم للإرادة الدينية الشرعية، ثم إن اللَّه -جل وعلا- يهدي من يشاء منهم ويضل من يشاء بإرادته الكونية القدرية، فيصيرون إلى ما سبق به العلم من شقاوة وسعادة، وبهذا تعلم وجه الجمع بين قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾. وقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، وبين قوله: ﴿وَمَا

---

(١) الطلاق: الآية (١٢).
(٢) هود: الآية (١١٩).
(٣) الأعراف: الآية (١٧٩).
(٤) التغابن: الآية (٢).
(٥) الشورى: الآية (٧).

خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾، وإنما ذكرنا أن الإرادة قد تكون دينية شرعية، وهي ملازمة للأمر والرضا، وقد تكون كونية قدرية، وليست ملازمة لهما؛ لأن اللَّه يأمر الجميع بالأفعال المراد منهم دينًا، ويريد ذلك كونًا وقدرًا من بعضهم دون بعض، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[1]، فقوله: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ : أي فيما جاء به من عندنا، لأنه مطلوب مراد من المكلفين شرعًا ودينًا، وقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يدل على أنه لا يقع من ذلك إلا ما أراده اللَّه كونًا وقدرًا، واللَّه -جل وعلا- يقول: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾[2] والنبي ﷺ يقول: «كلٌّ ميسر لما خلق له»[3] والعلم عند اللَّه تعالى»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا، وأن العبادة هي التوحيد لأن الخصومة فيه

* عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «بينا أنا رديف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا أخرة الرحل فقال: **يا معاذ!** قلت: لبيك رسول اللَّه وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: **يا معاذ!** قلت: لبيك رسول اللَّه وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: **يا معاذ!** قلت لبيك رسول اللَّه وسعديك، قال: **هل تدري ما حق اللَّه على عباده؟** قلت: اللَّه ورسوله أعلم، قال: **حق اللَّه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا**، ثم سار ساعة ثم قال: **يا معاذ بن جبل!** قلت: لبيك رسول اللَّه وسعديك، فقال: **هل تدري ما حق العباد على اللَّه إذا فعلوه؟** قلت: اللَّه ورسوله أعلم، قال: **حق العباد على اللَّه أن لا يعذبهم**»[5].

---

(١) النساء: الآية (٦٤).

(٢) يونس: الآية (٢٥).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ١٣٢-١٣٣)، والبخاري (٨/ ٩١٧/ ٤٩٤٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٩-٢٠٤٠/ ٢٦٤٧)، وأبو داود (٥/ ٦٨-٦٩/ ٤٦٩٤)، والترمذي (٥/ ٤١٠-٤١١/ ٣٣٤٤)، وابن ماجه (١/ ٣٠-٣١/ ٧٨) والنسائي في الكبرى (٦/ ٥١٦/ ١١٦٧٨) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) أضواء البيان (٧/ ٦٧١-٦٧٧).

(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٢٨)، والبخاري (١٠/ ٣٩٧-٣٩٨/ ٥٩٦٧)، ومسلم (١/ ٥٨/ ٣٠)، وأبو داود (٣/ ٥٥/ ٢٥٥٩).

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «وحق اللَّه على عباده ما أوجبه عليهم بحكمه، وألزمهم إياه بخطابه. وحق العباد على اللَّه هو ما وعدهم به من الثواب والجزاء، فحق ذلك ووجب بحكم وعده الصدق، وقوله الحق الذي لا يجوز عليه الكذب في الخبر، ولا الخلف في الوعد، فاللَّه تعالى لا يجب عليه شيء بحكم الأمر، إذ لا أمر فوقه، ولا بحكم العقل، إذ العقل كاشف لا موجب، كما بيناه في الأصول»[١].

قال النووي: «قال صاحب التحرير: اعلم أن الحق كل موجود متحقق، أو ما سيوجد لا محالة، واللَّه ﷻ هو الحق الموجود الأزلي الباقي الأبدي، والموت والساعة والجنة والنار حق؛ لأنها واقعة لا محالة، وإذا قيل للكلام الصدق حق، فمعناه أن الشيء المخبر عنه بذلك الخبر واقع متحقق لا تردد فيه. وكذلك الحق المستحق على العبد من غير أن يكون فيه تردد وتحير، فحق اللَّه تعالى على العباد معناه ما يستحقه عليهم متحتمًا عليهم، وحق العباد على اللَّه تعالى معناه أنه متحقق لا محالة، هذا كلام صاحب التحرير. وقال غيره: إنما قال: حقهم على اللَّه تعالى، على جهة المقابلة لحقه عليهم، ويجوز أن يكون من نحو قول الرجل لصاحبه: حقك واجب علي، أي: متأكد قيامي به»[٢].

وقال الحافظ: «المراد بالعبادة عمل الطاعات واجتناب المعاصي، وعطف عليها عدم الشرك؛ لأنه تمام التوحيد، والحكمة في عطفه على العبادة أن بعض الكفرة كانوا يدعون أنهم يعبدون اللَّه ولكنهم كانوا يعبدون آلهة أخرى، فاشترط نفي ذلك، وتقدم أن الجملة حالية، والتقدير: يعبدونه في حال عدم الإشراك به. وقال ابن حبان: عبادة اللَّه إقرار باللسان وتصديق بالقلب وعمل بالجوارح، ولهذا قال في الجواب: «**فما حق العباد إذا فعلوا ذلك؟**» فعبر بالفعل ولم يعبر بالقول»[٣].

قال شيخ الإسلام: «فحق اللَّه أن نعبده ولا نشرك به شيئًا، وهذا معنى إخلاص العمل لله»[٤]. إلى أن قال: «إن اللَّه خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة

---

(١) المفهم (١/ ٢٠٣).
(٢) شرح مسلم (١/ ٢٠٤).
(٣) فتح الباري (١١/ ٤١٢).
(٤) مجموع الفتاوى (١/ ١٨).

إليه ومحبته والإخلاص له، فبذكره تطمئن قلوبهم، وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم، ولا شيء يعطيهم في الآخرة أحب إليهم من النظر إليه، ولا شيء يعطيهم في الدنيا أعظم من الإيمان به، وحاجتهم إليه في عبادتهم إياه وتألههم كحاجتهم وأعظم في خلقه لهم وربوبيته إياهم، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم، وبذلك يصيرون عاملين متحركين، ولا صلاح لهم ولا فلاح ولا نعيم ولا لذة بدون ذلك بحال، بل من أعرض عن ذكر ربه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[(١)]. ولهذا كان اللَّه ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[(٢)] ولهذا كانت (لا إله إلا الله) أحسن الحسنات، وكان التوحيد بقول (لا إله إلا الله) رأس الأمر. فأما توحيد الربوبية الذي أقر به الخلق وقرره أهل الكلام، فلا يكفي وحده، بل هو من الحجة عليهم، وهذا معنى ما يروى: «**يا بن آدم! خلقت كل شيء لك، وخلقتك لي، فبحقي عليك أن لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له**»[(٣)] واعلم أن هذا حق اللَّه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، كما في الحديث الصحيح الذي رواه معاذ عن النبي ﷺ أنه قال: «**أتدري ما حق اللَّه على عباده؟** قال: قلت: اللَّه ورسوله أعلم، قال: **حق اللَّه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا. أتدري ما حق العباد على اللَّه إذا فعلوا ذلك؟** قال: قلت: اللَّه ورسوله أعلم. قال: **حقهم أن لا يعذبهم**»، وهو يحب ذلك ويرضى به ويرضى عن أهله، ويفرح بتوبة من عاد إليه، كما أن في ذلك لذة العبد وسعادته ونعيمه، وقد بينت بعض معنى محبة اللَّه لذلك وفرحه به في غير هذا الموضع، فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به ويتنعم بالتوجه إليه إلا اللَّه سبحانه، ومن عبد غير اللَّه -وإن أحبه وحصل له به مودة في الحياة الدنيا، ونوع من اللذة- فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ أكل الطعام المسموم، فـ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾[(٤)] فإن قوامهما بأن تؤله الإله الحق، فلو كان فيهما آلهة غير اللَّه لم يكن إلهًا حقًا؛ إذ اللَّه لا سمي له ولا مثل له، فكانت تفسد لانتفاء ما به صلاحها، هذا من جهة الإلهية»[(٥)].

---

(١) طه: الآية (١٢٤).
(٢) النساء: الآية (٤٨).
(٣) لم أجده.
(٤) الأنبياء: الآية (٢٢).
(٥) مجموع الفتاوى (١/ ٢٣-٢٤).

قوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾ يقول تعالى ذكره: ما أريد ممن خلقت من الجنّ والإنس من رزق يرزقونه خلقي ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ يقول: وما أريد منهم من قوت أن يقوتوهم، ومن طعام أن يطعموهم»[1].

وقال صديق حسن خان: «هذه الجملة فيها بيان استغنائه سبحانه عن عباده، وأنه لا يريد منهم منفعة، كما يريده السادة من عبيدهم، بل هو الغني المطلق الرازق المعطي، وقيل: المعنى ما أريد منهم أن يرزقوا أحدا من عبادي، ولا أن يرزقوا أنفسهم، ولا يطعموا أحدا من خلقي، ولا يطعموا أنفسهم، وإنما أسند الإطعام إلى نفسه لأن الخلق عيال اللَّه، فمن أطعم عيال اللَّه فهو كمن أطعمه»[2].

وقال ابن كثير: «ومعنى الآية: أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم»[3].

وقال السعدي: «تعالى اللَّه الغني عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه، وإنما جميع الخلق، فقراء إليه، في جميع حوائجهم ومطالبهم، الضرورية وغيرها»[4].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٢).
(٢) فتح البيان (١٣/ ٢١٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٠٢).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٨٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن اللَّه هو الرزاق خلقه المتكفل بأقواتهم، ذو القوة المتين»[1].

قال السعدي: «﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ أي: كثير الرزق، الذي ما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على اللَّه رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ أي: الذي له القوة والقدرة كلها، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة، السفلية والعلوية، وبها تصرف في الظواهر والبواطن، ونفذت مشيئته في جميع البريات، فما شاء اللَّه كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحد، ومن قوته أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم، ومن قدرته وقوته أنه يبعث الأموات بعد ما مزقهم البلى، وعصفت بهم الرياح، وابتلعتهم الطيور والسباع، وتفرقوا وتمزقوا في مهامه القفار، ولجج البحار، فلا يفوته منهم أحد، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، فسبحان القوي المتين»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفتي الرزق والقوة

* عن ابن مسعود ﵁ قال: «أقرأني رسول اللَّه ﷺ: (إني أنا الرزاق ذو القوة المتين)»[3].

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٨٢).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٩٤ و٤١٨)، وأبو داود (٤/ ٢٩٠/ ٣٩٩٣)، والترمذي (٥/ ١٧٦/ ٢٩٤٠)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٦٩/ ١١٥٢٧)، وصححه الحاكم (٢/ ٢٣٤و٢٤٩) ووافقه الذهبي، وابن حبان (الإحسان ١٤/ ٢٣٦/ ٦٣٢٩).

★ **فوائد الحديث:**

قال الغنيمان: «قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ هذه القراءة المجمع عليها المتواترة وقراءة ابن مسعود تتفق معها في المعنى. والمعنى أن اللَّه تعالى هو المتكفل بأرزاق الخلق وحاجاتهم، وأكد الجملة بـ(إنّ) والضمير؛ لقطع توهم من يعتمد على قوته، أو علمه وصنعته، أو غير ذلك في أمور الرزق، ليصرف اعتمادهم إلى اللَّه وحده»[1].

هذا "بيان لعظمته ﷻ وأن شأنه مع عبيده لا يقاس به شأن عبيد الخلق معهم، فإن عبيدهم مطلوبون بالخدمة والتكسب للسادة، وبواسطة كاسب عبيدهم قدَّرَ أرزاقهم، واللَّه تعالى لا يطلب من عباده رزقًا ولا إطعامًا، بل هو الذي يرزقهم، وإنما يطلب منهم عبادته ليصرفوا ما أنعم به عليهم إلى ما خلقوا لأجله»[2].

قال الغنيمان: «هذه الآيات ونظائرها تدل بوضوح على أن اللَّه تعالى موصوف بالصفات العليا، كما أنه مسمى بالأسماء الحسنى، فالقوة صفته، والرزاق اسمه، وتقدم أن كل اسم لا بد أن يتضمن الصفة، وبذلك وغيره يرد على المنكرين للصفات»[3].

* عن أبي موسى الأشعري قال: قال النبي ﷺ: **«ما أحد أصبر على أذى سمعه من اللَّه، يدعون له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم»**[4].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قال ابن المنير: وجه مطابقة الآية للحديث اشتماله على صفتي الرزق والقوة الدالة على القدرة، أما الرزق فواضح من قوله: «ويرزقهم»، وأما القوة فمن قوله: «أصبر» فإن فيه إشارة إلى القدرة على الإحسان إليهم مع إساءتهم، بخلاف طبع البشر، فإنه لا يقدر على الإحسان إلى المسيء إلا من جهة تكلفه ذلك

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٩١).

(٢) محاسن التأويل (١٥/ ٢٠٦).

(٣) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٩٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٠١)، والبخاري (١٣/ ٤٤٦/ ٧٣٧٨)، ومسلم (٤/ ٢١٦٠/ ٢٨٠٤)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٠٦/ ٧٧٠٨).

شرعًا، وسبب ذلك أن خوف الفوت يحمله على المسارعة إلى المكافأة بالعقوبة، والله ﷻ قادر على ذلك حالًا ومآلًا لا يعجزه شيء ولا يفوته»[١].

قال الغنيمان: «ليس عجز الإنسان عن الصبر من أجل خوف الفوت فقط، بل ولأنه لا يستطيعه ولا يتحمله؛ لأن ذلك يضره في نفسه أو غير ذلك.

والذي يظهر أن ما أراده البخاري رحمه الله من الحديث هو البيان بأن الله تعالى مسمى بالأسماء الحسنى، ومتصف بالصفات العليا، حقيقة على ما يليق به تعالى، وعلى ما يفهم من اللفظ الموضوع للمعنى المتعارف عليه من ظاهر اللغة الذي أطلقه تعالى على نفسه أو أطلقه عليه رسوله، دون تكلف تأويل، أو رجوع إلى اصطلاح متكلم، أو متفلسف كما بين ذلك قوله: «**ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله، يدعون له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم**»، فهذا هو حقيقة الصبر المعروف من اللغة ونصوص الشرع، فلا يجوز العدول عن ذلك بالتأويلات التي تبعد المعنى عن مقصود المتكلم من اللفظ، ودل قوله: «**ثم يعافيهم ويرزقهم**» على فضله على عباده بالعافية والرزق، وأن كل ما يقع بأيديهم من رزقه، فهو الذي هيأ أسبابه ويسر طرقه.

وقوله: «**ثم يعافيهم ويرزقهم**» أي: أنه تعالى يقابل إساءتهم بالإحسان، فهم يسيئون إليه تعالى بالعيب والسب، ودعوى ما يتعالى عنه ويتقدس، وتكذيب رسله، ومخالفة أمره، وفعل ما نهاهم عن فعله، وهو يحسن إليهم بصحة أبدانهم، وشفائهم من أسقامهم، وكلاءتهم بالليل والنهار مما يعرض لهم، ويرزقهم بتسخير ما في السماوات والأرض لهم، وهذا غاية الصبر والحلم والإحسان، والله أعلم»[٢].

* * *

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٤٤٧).

(٢) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ١٠١).

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

★ غريب الآية:

ذَنوبًا: بفتح الذال: النصيب. وأصل الذَّنُوب: الدلو العظيمة الملأى. قال علقمة:

وفي كل حي قد خَبَطتَ بنعمة فحق لشأس من نداك ذنوب

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾﴾ يقول تعالى ذكره: فإن للذين أشركوا باللَّه من قريش وغيرهم ذنوبا، وهي الدلو العظيمة، وهو السجل أيضا إذا مُلئت أو قاربت الملء، وإنما أريد بالذنوب في هذا الموضع: الحظّ والنصيب..

ومعنى الكلام: فإن للذين ظلموا من عذاب اللَّه نصيبا وحظا نازلا بهم، مثل نصيب أصحابهم الذين مضوا من قبلهم من الأمم، على منهاجهم من العذاب، فلا يستعجلون به.. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ يقول تعالى ذكره: فالوادي السائل في جهنم من قيح وصديد للذين كفروا باللَّه وجحدوا وحدانيته من يومهم الذي يوعدون فيه نزول عذاب اللَّه إذا نزل بهم ماذا يلقون فيه من البلاء والجهد»[(١)].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا﴾ أي: نصيبا من العذاب، ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي: فلا يستعجلوا ذلك، فإنه واقع بهم لا محالة. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ يعني: يوم القيامة»[(٢)].

---

(١) جامع البيان (٢٧/ ١٣-١٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٠٢).

قال السعدي: «أي: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وكذبوا محمدًا ﷺ، من العذاب والنكال ﴿ذَنُوبًا﴾ أي: نصيبًا وقسطًا، مثل ما فعل بأصحابهم من أهل الظلم والتكذيب. ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ بالعذاب، فإن سنة اللَّه في الأمم واحدة، فكل مكذب يدوم على تكذيبه من غير توبة وإنابة، فإنه لا بد أن يقع عليه العذاب، ولو تأخر عنه مدة، ولهذا توعدهم اللَّه بيوم القيامة، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ وهو يوم القيامة، الذي قد وعدوا فيه بأنواع العذاب والنكال والسلاسل والأغلال، فلا مغيث لهم، ولا منقذ من عذاب اللَّه تعالى، نعوذ باللَّه منه»[1].

قال الشنقيطي: «أصل الذنوب في لغة العرب الدلو، وعادة العرب أنهم يقتسمون ماء الآبار والقلب بالدلو، فيأخذ هذا منه ملء دلو، ويأخذ الآخر كذلك، ومن هنا أطلقوا اسم الذنوب، التي هي الدلو على النصيب. قال الراجز في اقتسامهم الماء بالدلو:

لنا ذنوب ولكم ذنوب فإن أبيتم فلنا القليب

ويروى:

إنا إذا شاربنا شريب له ذنوب ولنا ذنوب

فإن أبى كان لنا القليب.

ومن إطلاق الذنوب على مطلق النصيب قول علقمة بن عبدة التميمي.

وقيل عبيد:

وفي كل حي قد خبطت بنعمة فحق لشأس من نداك ذنوب

وقول أبي ذؤيب:

لعمرك والمنايا طارقات لكل بني أب منها ذنوب

فالذنوب في البيتين النصيب، ومعنى الآية الكريمة، فإنه للذين ظلموا بتكذيب النبي ﷺ ذنوبًا، أي: نصيبًا من عذاب اللَّه مثل ذنوب أصحابهم من الأمم الماضية من العذاب لما كذبوا رسلهم. وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ١٨٣).

موضحًا في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾[١].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾[٢] وفي سورة مريم في الكلام على قوله: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾[٣] وغير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ ما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد الكفار بالويل من يوم القيامة لما ينالهم فيه من عذاب النار، جاء موضحًا في آيات كثيرة كقوله تعالى في ص: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[٤] وقوله في إبراهيم: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[٥]. وقوله في المرسلات: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾[٦] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقد قدمنا أن كلمة ﴿وَيْلٌ﴾، قال فيها بعض أهل العلم: إنها مصدر لا فعل له من لفظه، ومعناه الهلاك الشديد، وقيل: هو واد في جهنم تستعيذ من حره، والذي سوغ الابتداء بهذه النكرة أن فيها معنى الدعاء»[٧].

* * *

(١) الزمر: الآيتان (٥٠-٥١).
(٢) الرعد: الآية (٦).
(٣) مريم: الآية (٨٤).
(٤) ص: الآية (٢٧).
(٥) إبراهيم: الآية (٢).
(٦) المرسلات: الآية (١٥).
(٧) أضواء البيان (٧/ ٦٧٨-٦٧٩).

فهرس الموضوعات

سورة الفتح

سورة الحجرات

سورة ق

سورة الذاريات

* * *